يان
غيو

الطريق إلى القدس



دار المنى

الطريق إلى القدس

يان غيو

ثلاثية آرن

راهب هيكل الرب

الجزء الأول

النص العربي: مدني قصري

دار المنى

الطريق إلى القدس

ISBN 978 91 85365 76 0

Arabic edition Bokförlaget Dar Al Muna AB 2010

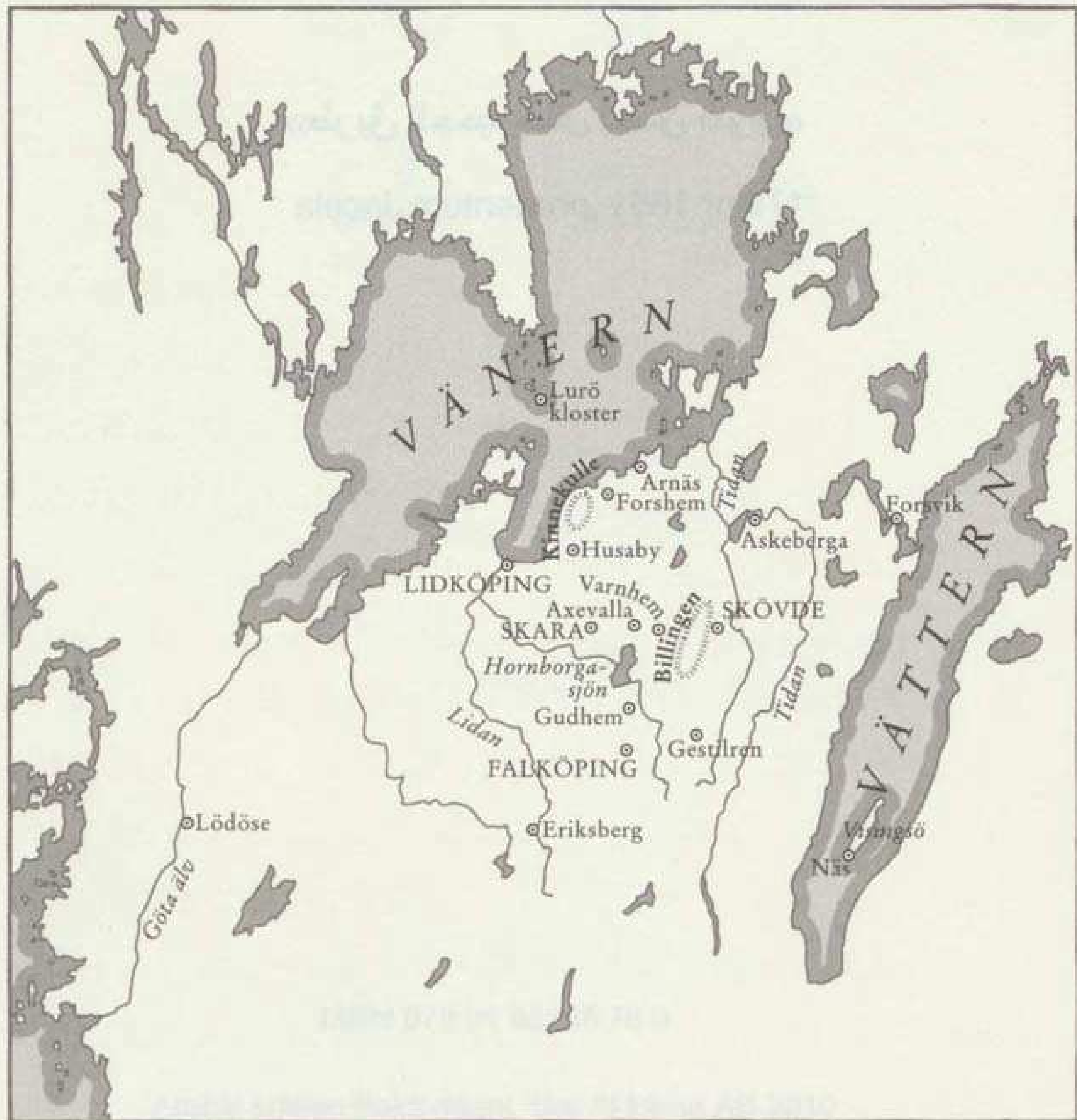
Cover Kaj Wistbacka
Original title in Swedish: Vägen till Jerusalem
Published by agreement with Salomonsson Agency
Printed by ScandBook, Falun
www.daralmuna.com

«طريق الجحيم حافل بحسن النوايا»

170 nr 1651 ,prudentum Jacula

Västra Götaland 1150–1250

فاسترا غوتالاند



الفصل الأول

في عام البَرَكَةِ ١١٥٠، وفيما كان أهلُ الشرقِ المُلْحِدُون، حُثالةُ الأرضِ وطلائعُ أعداءِ المسيح، يُكَبِّدُون شعبَنا هزائمَ عديدةً في الأرض المقدسة، انحنَى الرّوحُ القدُسُ على السيدة سيغريد وتجلّى لها، فتغيّرتْ بذلك حياتُها.

لعلّ مِنْ قائلٍ يقول أيضاً إنّ مِنْ عواقبِ هذا التجلّي أنه اختصرَ وجودَها. فالمؤكدُ أنّ حياتَها لم تعدْ أبداً كما كانت. وفي المقابل، فإنّ ما كَتبه الراهبُ تِيبُوذْ، بعد ذلك بزمنٍ طويل، ليس بالأمر المؤكّدِ أيضاً. فحسب ما ادّعاهُ كانت اللحظةُ التي تجلّى فيها الروحُ القُدُسُ لسيغريد، إشارةً حقيقيةً لميلاد مملكةٍ جديدة في الشمال. المملكةُ التي كانت ستُسَمَّى بالسويد حتى نهايةِ الزمان.

كان ذلك في يومِ سانتْ تِيبُورس، الذي يُنبِئُ ببدايةِ فصْلِ الصيفِ وذَوَبانِ الثلوجِ في فاسترا غوتالاند. فلم يَسْبِقْ أن تجمّعَ القومُ قَط على نحو ما اجتمعُوا في سكارَا في ذلك اليوم، لأنّ القُدّاسَ الذي كان سيُقام فيها لم يكنْ قُدّاساً عادياً. لقد كان القومُ يتهيّؤُون في النهايةِ لتكريسِ الكاتدرائيَّة الجديدة.

كانت الحفلاتُ متواصلةً منذ ساعتين. وكان الطّوافُ قد أنْهَى في بُطْءٍ مُتَنَاهٍ دوْراتِه الثلاث حول الصّرحِ، لأنّ المُطرانَ أودغريم كان طاعِناً في السنِّ، وكان يتعثّرُ وكأنه يخطُو خطواتِه الأخيرة. وبالإضافةِ إلى ذلك بَدا مُرْتَبِكاً قليلا بعد أنْ تَلا الصلاةَ الأولَى في الكاتدرائيَّة المُكَرَّسة، لأنه خاطبَ القومَ بلُغةٍ عاميَّةٍ، عِوَضاً عن اللاتينيَّة:

«أيها الربُّ، يا منْ يحفَظُ في غَيْبِه كلَّ شيء،
ومَنْ يجعلُ سُلْطانَه في سبيلِ خلاصِ عبادِه ظاهِراً مَرْئيّاً.
ليَكُنْ هنا بيتُك، ولْيَكُنْ في هذا المَعْبَدِ مُلْكُك،
لكي يتلقّى كلُّ من اجتمَعوا في هذا المكانِ للصلاة،
رحمتَك وعونَك».

وجَعَل الربُّ سلطانَه مَرْئِيّاً حقاً، سواء لِخَلاصِ العِبادِ، أو لأسبابٍ أخرى. فلا أحدَ رأى من قَبْلُ مثلَ ذلك المشهدِ المسرحيّ في كاملِ فاسترا غوتالاند: ملابسُ الرّهبانِ بألوانِها الناصعةِ، المُطرّزةِ بالذهب، والمصنوعةِ من الحريرِ الأزرق الفاتحِ والأحمرِ الغامق، والروائحُ العَنيدةُ في مَبْخَراتٍ يُحرّكها الكهنة، وأَسْمَى الموسيقى السماوية التي لم يسبقْ لأيِّ أُذُنٍ في المقاطعة أنْ سَعِدَتْ بسماعِها. حتى إنّ مَن يَرْفَعُ رأسَه للسّقفِ يخالُ أنه يرى السماوات جميعاً. لم يكنْ مفهوماً كيف أمكن البناةَ البورغينيين، والإنجليزَ أنفسَهم، أن يُنْشِئُوا قِبَاباً عاليةً جداً من دون أنْ ينهار كلُّ شيءٍ، ولو بِسببِ غضَبِ الربِّ الذي كان يجب أنْ يُعاقِب هذا العملَ المُعتدَّ المتمثّلَ في محاولةِ رفْعِ البناءِ إلى حدّ التطاوُلِ عليه.

كانت السيدةُ سيغريد صاحبةَ عقلٍ نبيهٍ. بل ولعلّ البعضَ قالوا إنها كانت صعبةَ المِراس. لم تُراوِدْها أيةُ رغبةٍ في أنْ تقومَ بالسفرِ الشاقِّ حتى سكارا، لأنّ الرّبيعَ كان قد أقْبَلَ مُبكّراً. كانت الطرقُ قد تحوّلتْ إلى أوحالٍ، وقد خشِيتْ أنْ ترتجّ في داخلِ العربةِ فيما هي حامِل. لا شيءَ كان يُخيفُها على هذه الأرض أكثرَ من ولادةِ طفلِها الثاني التي باتت وَشيكَة. وكانت تعرفُ، بالإضافة إلى ذلك، أنّ تكريسَ كاتدرائيةٍ يعني أنْ لا مفرَّ من أنْ تظلّ واقفةً لساعاتٍ طويلة، وأنْ تجثُو أحياناً إلى الأرض رأساً، لكيْ تُصلّي، وهو ما كان، في حالتِها تلك، هو العذابُ عينُه. كانت السيدةُ سيغريد تعرفُ، أكثرَ بكثيرٍ ممّا يعرفه معظمُ الأرستقراطيين، وبناتُ الطبقةِ النبيلةِ اللواتي كُنّ يُحِطْنَ بها في ذلك الوقت، كلَّ ما كان يتّصلُ بقواعدِ حياةِ الكنيسةِ العديدة. صحيحٌ أنها لم تكتسبْ هذه المعرفةَ طَوْعَ حرّيتِها، أو بدافعِ الإيمان. فحين كانت في السادسةِ عشرة من عُمرِها، تخيّل والدُها أنها تُولي لِقريبٍ نرويجيٍّ مِنْ أصْلٍ وَضيعٍ، أهميةً مُفرطة، قد تؤدّي إلى تلك الأشياءِ التي لا يمكن أنْ تجدَ مكانَها إلاّ في قلبِ الزواجِ وحده. كان أبوها إذاً قد حلّ المشكلة، إذ أُرسِلَتْ لسنواتٍ خَمْسٍ إلى أحدِ الأَديِرَةِ في النرويج، وهو الديرُ الذي ما منْ شكٍّ في أنها ما كانت لتُفْلِتَ منه قط لو لم تَرِثْ من خالٍ

لها من أوسترا غوتالاند، فارقَ الحياة ولم يُنْجِبْ أطفالا.

فعلَى هذا النحو وَجَدَتْ نفسَهَا أَهْلا للزواج، بدلاً منْ أنْ تُكْتَبَ عليها حياةُ الرَّهْبَنَة.

كانت إذاً تَعْرِفُ متى يجب أنْ تظل قائمةً، ومتى تجثُو، ومتى تُدَنْدِنُ مع الخورس «باتر نوستر» و«إيف ماريا» التي كان الرهبانُ يُرتِّلونها، ومتى يجبُ أنْ تصلّي في سِرّها. في تلك اللحظةِ كانت تصلي في كلّ مرةٍ من أجلِ حياتِها الخاصة.

قَبْلَ ذلك بثلاثِ سنواتٍ، كان الربُّ قد رزَقها ابناً. وقد دامت الولادةُ يومين كاملين، أجلْ، لقد طَلعتْ الشمسُ وغربتْ مرّتين، فيما كانت هي غارقةً في العَرَقِ، وفي الألمِ والقلق. وقد ظنّت أنها مفارِقةٌ الحياةَ لا محالة، ومثلها ظَنتْ النساءُ الطيّباتُ اللواتي أسْعَفْنَها. لقد استَحْضَرْنَ الرّاهبَ في فورشيم، فمَنَحَها الغفرانَ والمَسْحَةَ الأخيرة.

«لن يَحْدُثَ هذا أبداً»، هكذا تَمنَّتْ. وها هي الآن تدعُو: «لن يتكرّر أبداً هذا الألمُ وهذا الذّعرُ الرهيبُ». كانت هذه أفكارًا مفرطةً في حُبّ الذات، وكانت هي تعرفُ ذلك تماماً. كان من الشائعِ أنْ تُفارقَ النساءُ الحياةَ وهنّ على سرير الولادة، وأنّ الإنسانَ يُولَد في الوجَعِ. لكنّها أخطأَتْ عندما دعتْ العذراء القدِّيسة بأنْ تَعْفيَها، وسَعَتْ لأنْ تقومَ بواجباتها الزوجيَّةِ من حيث لا تُؤدّي هذه الواجباتُ إلى ولادةٍ جديدة. كان ابنهُما إسكيل، حيّاً يُرزَق، صبيّاً كاملَ البنيةِ، ومجبولا بالمواهبِ المطلوبة كافة.

بطبيعةِ الحالِ، عاقَبَتْها العذراءُ القدِّيسة. إنّ قَدَرَ المَرْءِ أنْ يُعمّرَ الأرضَ، ومن هنا فمن أين للمرءِ أنْ يأملَ في أنْ يُستجابَ إذا كان يُصلي لكي يُفلتَ من هذا الواجب تحديداً ؟ آلامٌ جديدةٌ كانت في انتظارِها، وكان ذلك أمراً مؤكداً. ومع ذلك فما انفكتْ تُصلّي من أجل أنْ لا يكونَ هذا.

حتى ولو مِنْ أَجْلِ أنْ تُخفِّفَ من عناءِ وُجُوبِ القيام لساعاتٍ طويلة، والجُثُوّ، والقيام ثمّ الجثوّ من جديدٍ بعد هذا القيام بقليل. كانت قد عَمَّدَتْ سُوتْ، وهي واحدةٌ من أقنّتِها، حتى يتسنّى لها إدخالُها في بيتِ الربِّ،

والاحتفاظُ بها إلى جانبِها، واستنادُها إليها. كانت عَيْنَا سُوتْ كمثلِ عينيْ فرَسٍ مذعورٍ تُحَمْلِقان أمام كلِّ ما تراه، وإنْ هي لم تكنْ مسيحيَّةً من قبلُ، فقدْ صارت بالتأكيدِ منذ تلك اللحظة كذلك فعلا.

كان المَلِكُ سفيرْكَرْ والملكةُ أُولْفيلْد يَقِفان على مسافةِ ثلاثة صُفوف أمام سيغريد. كان ثِقَلُ السنين يجعلُ مجرّدَ القيام والجثوّ أكثرَ فأكثرَ عُسْراً عليهما، فلا يجدان بُداً من أنْ يُصْدرا تأوُّهاتٍ وأصواتاً أخرى مزعجةً قادمةً من أعماقِهما. فمِن أجلهما وليس طَمَعاً في برَكةِ الربّ حضرتْ سيغريد إلى الكاتدرائيَّة. قلَّما كان الملكُ سفيركرْ يحملُ وُدّاً كبيراً لبَيْتِ سيغريد النرويجي، الخاص بها، ولبَيْتِ فاسترا غوتالاند، وكذا لبيت زوجِها، النرويجي، ولبيتِ فولكونغر. وبِحُكم تقدّمِه في العُمر، بات الملكُ يغذّي القَدْرَ نَفْسَه من الشكوكِ، ومن القلقِ فيما يتصل بالحياة التي كانت سترافقُ وجودَه على هذه الأرض. فإنْ هيَ تغيّبَتْ حين يشهدُ الملكُ تكريسَ الكاتدرائيَّة، تمجيدًا للربِّ، فإنّ ذلك قد يكون مثارًا لبعضِ سُوءِ الظنِّ. إنّ ارتكابَ الإثم في حقّ الربّ أمرٌ قد يأتي حسابُه مع الربّ بعد حينٍ، أما مُجافاةُ الملكِ فأمرٌ لا يجوز. كان ذلك، على الأقلّ، هو رأيُ سيغريد.

في أعقابِ ثلاثِ ساعاتٍ من الاحتفال، بدأ رأسُها في الدّوران. صار يشقُّ على سيغريد أكثرَ فأكثرَ الجثوُّ ثم القيامُ ثانيةً، وكان الطفلُ الذي في بطنِها يَرْكُلُها ويرتعشُ وكأنه يُبدي احتِجَاجاً. وأحسّتْ بالأرض المبلّطةِ الناصعةِ الباهتة تتأرجحُ من تحت قَدَمَيْها. لقد ظننّتْ أنّ الأرضَ قد أَخَذَتْ في الذوبان، كأنها توشك أنْ تنفتِحَ لِتَبْتلِعَها دفعةً واحدة. عندئذٍ، بادرتْ بحركةٍ غَيْرِ مسموعةٍ. ففي حفيفِ الحريرِ ذهبتْ بخُطىً ثابتةٍ لتجلسَ على مقعدٍ صغير يقع إلى جانب الصّرح. ورآها الجميعُ، ورآها الملكُ أيضاً.

وفيما أخذتْ في الجلوسِ وقد تخفّفتْ من وَجَعِها، إذا برُهْبانِ جزيرة لُورُو يتقدّمون في جناحِ الكنيسة. فمَسَحَتْ سيغريدُ جَبِينَها ووَجْهَها بمنديلٍ صغيرٍ من الكتّان ووجّهتْ إشارةَ تشجيعٍ خَفِيَّةٍ لابنِها الذي بَقِيَ مع سُوتْ.

بدأ الرهبانُ يُنشِدون. لقد قَطَعُوا المَمَرَّ الرئيسيَّ في هدوءٍ، مُطَأْطِئِي

الرؤوس، وكأنهم غارقون في الصلاة، ووقفوا إلى جانب الهيكلِ. وتنحّى الأساقفةُ ومُساعدوهم. وسُمِع أوّلاً ما يُشْبِه الهَمْسَ المخنوقَ الأجشّ، ثم إذا بأصواتِ أولادٍ صغار تنفجرُ على حين غِرّة. أَجَلْ، إنّ جزءًا من رهبانِ لُورو كانوا يحملون الثوبَ البُنِّيَّ وليس ثوبَ الرهبان الأبيض. لم يكونوا سوى أولاد. وقد ارتفعتْ أصواتُهم في القُبّةِ الضخمة مثل طيورٍ خفيفة، وعندما ملأتْ أصواتُهم الفضاءَ الهائل ارتفعتْ أصواتُ الرهبانِ الجهيرةِ بدورها، لتُنشدَ كلماتٍ كانت متماثلةً، ومع ذلك مُختلفة. كانت سيغريد قد سمعتْ تراتيلَ ذاتَ الصّوتين، وذات الأصواتِ الثلاثة، لكنْ هنا، صارتْ الأصواتُ ثمانيةً على الأقل. كان الأمرُ معجزةً، شيئاً لا يتصوّرُه العقلُ، ما دام من الصّعبِ الحصولُ على ترتيلٍ بأصواتٍ ثلاثة.

انبهرتْ سيغريد بتلك المعجزة، فأخذتْ تُنْصِتُ بكلّ كيانِها. وبدأ جسمُها يرتعشُ بفعل الإثارة. وتغشّى نظرُها، فلم تَعُدْ ترى شيئاً. كانت كلُّها آذاناً صاغيةً، حتى بَدَتْ وكأنها في حاجةٍ إلى قوّةِ عينيها لكي تسمع. كانت وكأنها تتوارَى، وكأنها لم تعدْ سوى أصواتٍ ونغمات، وكأنها اندمجتْ انْدِمَاجاً كاملاً مع تلك الموسيقى الربّانيَّة، التي لا تُضاهيها أيَّةُ موسيقى أخرى، روعةً وجمالاً!

وعادت إلى رُشْدِها عندما أمسك أحدُهم بِيَدِها، فكان الملكَ سفيركر شخصياً.

ربّتَ الملكُ في لُطْفٍ على يدِها، وشَكَرَها بلهجةٍ ساخرة. لقد كان، هو الرجلُ الطاعنُ في السنّ، في حاجةٍ لأن تَسْبِقَهُ امرأةٌ حامِل. فإذا كانت امرأةٌ في مثلِ هذه الحالة المباركةِ تستطيع الجلوسَ، فإنّ المَلِكَ يستطيع ذلك أيضاً. أمّا العكسُ، فإنْ حدثَ، فهو أمرٌ في غير محلّه طبعاً.

كظمتْ سيغريد الرغبةَ في أن تَقُصَّ له أنّ الروحَ القُدُسَ كان قد اتصل بها قبل قليل. لقد بدا لها أنّ مِثْلَ تلك الكلمات قد تُعطي الانطباعَ بأنها تسعَى لأن تُباهِي بنفسِها، وهو ما لا يتحمّله الملوكُ، إلى أنْ يُطيحَ بهم أحدُهم. إذاً، لقد همستْ له في سرعةٍ، بذلك الذي تجلّى لها قبل قليل.

ولمّا كان الملكُ يدركُ ذلك الأمرَ، بلا شك، فقد كان الناسُ يتشاجرون حول ميراثِه في فارنيم. كانت قريبتُه كريستينا، التي كانت قد تزوّجتْ لِتَوِّها إيريكْ جيدفرسون الطموحَ، تُطالبُ بنصفِ المِلْكيَّةِ. وبالإضافة إلى ذلك كان رهبانُ جزيرةِ لُورو في حاجةٍ إلى مكانٍ تكون فصولُ الشتاء فيه أقلَّ قساوة. كان كلٌّ واحدٍ منهم يعرف أنّ جزءًا من محاصيلِهم قد أُتْلِفَ حتى وإنْ كان المَلِكُ سفيركر قد تكرّم عليهم بجزيرة لُورو. لكنْ، إذا كانت هي نفسُها، سيغريد، تبرّعتْ بِفارنيم لرهبانها السّيسْترْسيِّينَ، فلنْ يملكَ المَلِكُ إلا أنّ يؤكدَ العَقْدَ ويمنحَه قوّةَ القانون. وهكذا سوف تُحَلّ المشكلة، ويكسبُ الجميعُ تلك القضية.

تحدثّتْ سيغريد بسرعةٍ، وبصوتٍ خافت. كانت تسعَى لأنْ تستعيد نفَسَها، فيما كان قلبُها ما يزال يخفقُ بسببِ ما رأته من هالةِ الموسيقى الربّانيَّة، عندما تراجعتْ العتماتُ أمام النور.

بدا الملكُ أوّلاً مندهشاً قليلا. فقلّما اعتادَ على رؤيةِ أناسٍ من حاشيتِه يخاطِبونه رأساً بهذه الكيفيةِ، وبلا مُواربات مُزَخْرَفة. والنساءُ منهم خاصة.

« أنتِ امرأةٌ مباركةٌ من أوْجُهٍ عديدة، يا عزيزتي سيغريد»، قال بِبُطْءٍ وهو يشدُّ على يدِها مرّةً أخرى. «غداً عندما نستعيدُ حفلاتِ هذا اليوم، سأُحْضِرُ الأبَ هنري إلى القصر ونُنْهِي هذه القضية. غداً، وليس الآن. ليس من اللائقِ أنْ نظلَّ هكذا نتهامسُ طويلا».

في لحظةٍ، وهبتْ سيغريد لِفارنيم، مِيراثَها. فلا أحدَ يسحبُ الوعدَ الذي يُعطَى للمَلِك، مثلما لا يستطيع الملكُ أنْ يسحبَ كلمتَه أبداً. كانت لَفْتَةُ سيغريد لفتةً نهائية.

إلا أنها، بعد أن استعادتْ رُشدَها، أدركتْ أنّ هذه اللّفتةَ كانت لفتةً عمليةً أيضاً. فهكذا، قد يضْحَى الرّوحُ القُدُسُ واقعيّاً، ويضْحَى أنّ سُبُلَ الربّ ليستْ عصيَّةً دائماً.

يَوْمَان كاملانِ على الخَيْلِ يفصلان فارنيم، عن أرناس. كانت فارنيم تقعُ ليس بعيداً عن مطرانيةِ سكارا، بالقرب من جبلِ بلّينْجينْ. أما أرناس

في الشمال، فهي تقع على الضفةِ الشرقيَّة لبُحيرة فانيرْن، ما بين أراضي سونانسكوغ وأراضي تيفيدينْ، بالقرب من جبل كِينيكُول. كانت فارنيم أحْدَثَ حالا وأفضلَ بكثير، لذلك كانت سيغريد تُصِرُّ على أنْ تقضيَ أقْسَى أيامِ الشتاءِ فيها، ولاسيما أنّ الوِلادةَ صارت وشيكة. ماغنوس، زوجُها، كان يريد أن تكون أرناس، مهدُ أجدادِه، مقرّاً لإقامتِه. وكانت هيَ تُفضّل فارنيم، فلم يتوصَّلا يوماً إلى اتفاقٍ حول هذه النقطة. بل وكان يستحيل عليهما أحياناً أنْ يَتَصَدَّيا لهذا الموضوع بكاملِ الرقَّةِ والصّبرِ المُتَوَقَّعَيْن مِنْ زوجةٍ وزوجِها.

كانت أرناس في حاجةٍ لأن تُحصَّنَ، ولأنْ يُعادَ بناؤُها. لكنّ الأراضي التي كانت تحيط بها على طول الغابةِ لم تكن مِلْكاً لأحد. كان بها الكثيرُ من أراضي الإقطاعِ الحرِّ، ومن الأراضي الملَكيَّة التي يمكن استبدالُها أو شراؤُها. كان في الوُسْعِ تحسينُ أرناس تحسيناً واسعاً، ولاسيما إنْ نَقلتْ إليها سيغريد أقْنَتَها وما تملكه من ماشِيَةٍ في فارنيم.

لم يُفْصِحْ الروحُ القدس عن الأمر بهذا القدرِ من الوضوحِ عندما تجلّى لها. لقد أبصرتْ في غموضٍ حَشْداً من الخيولِ العجيبة ذكّرتها ألوانُها الساطعةُ بِعِرْقِ اللؤلؤ. واقتربتْ الخيولُ منها، وهي تطوُ مَرْجاً مُغَطّى بالأزهار، وكانت عُروفُها (أي شَعْرُ أعناقِها) بيضاءَ اللونِ نقيّةً، وكانت أذنابُها تنتصِبُ في زَهْوٍ، وكانت تتحرّك في ابتهاجِ الهِرَرَةِ ومُرونتِها. كانت الرشاقةُ باديةً في كلِّ حركةٍ من حركاتها، فلم تكن لا شرِسةً ولا فَظّة، ما دامت مِلْكاً لها. وفي مكانٍ ما، خلْف هذه الخيول اللاهية في حيويةٍ وبلا سُروج، ظَهَر رجلٌ شابٌّ، يمتطي فرسَ قتالٍ فضيَّةَ اللون، بيضاء العُرْف، منتصبةَ الذّنَب. كانت تعرفُ هذا الشاب، ومع ذلك فقد بدا لها شخصاً مجهولاً. كان يحمِلُ تُرساً وليس خُوذةً. لم يكن التُّرسُ مِلكاً لأيٍّ من عائلتِها، ولا لأيٍّ من عائلةِ زوجِها. كان أبيضَ اللون تماماً، مع صليبٍ أحمر حُمرةَ الدّمِ، ولا شيء غيره.

اقتادَ الشابُ فرَسَه إليها رأساً، وتحدّث إليها، وأصغتْ إلى أقوالِه من

دون أنْ تفهمَها. لكنّها كانت تعرف أنّ كلماتِه تعني أنْ لا بد من أنْ تَمْنَحَ للربِّ ما كانت مملكةُ سفيركر في أمسِّ الحاجةِ إليه: أراضٍ جيّدة لرُهبان لورو. وفارنيم هي تلك الأراضي.

بعد ذلك، نظرتْ في عنايةٍ إلى الرّهبانِ وهُم يَخْرُجُون بخُطىً بطيئةٍ بعْد تعبُّدِهِمْ الطويل. لم يكن يبدُو عليهم أيُّ تأثّرٍ بالمعجزةِ التي أحدثوها، وكأنهم نَحَتُوا فقط حجرةً من بين مئات الأحجارِ الأخرى في فاسترا غوتالاند، أوكأنهم يفكّرون في عَشائِهم قبل كلِّ شيءٍ. فقد تحدّثوا حديثاً مختصراً، وهم يحكّون الحبّاتِ الحمراءَ التي كان معظمُهم يحملونها على رؤُوسِهم المُكلَّلَةِ تكليلاً فظّاً. فكثيرهُم لم يكونوا يحملون سوى الجِلْدِ فوق عظامِ الوجهِ والرقبة. في الظاهر لا أحدَ يأكلُ ويشرب بشراهةٍ في لورو، وبالتأكيد لم يكن الشتاءُ رحيماً. هكذا لم تكن مشيئةُ الربّ عصيّةً على الفهم، فمن كانوا قادرين على أن يُمجِّدوا المعجزاتِ كان لهم الحقُّ في مكانٍ أفضلَ، يعيشون فيه ويعملون. وكانت فارنيم مكاناً رائعاً.

عندما خرجتْ سيغريد إلى رَحْبَةِ الكاتدرائيَّة أعاد إليها الهواءُ الرطبُ أفكارَها، ورأت فجأةً وكأن الروحَ القدس ما زال يتباطأُ فيها. تُرى، كيف كانت سَتَرْوِي كلَّ ذلك لزوجِها، الذي كان يشُقّ طريقَه وسطَ الجموع وهو يحملُ مِعْطَفَيْهما في أحدِ ذراعيه. ونظرتْ إليه في ابتسامٍ حَذِرٍ، وفي ثقةٍ كاملة. كانت تُثَمِّنُه، لأنه زوجٌ ناعمٌ وأبٌ راعٍ، حتى وإنْ لم يكنْ رجلاً ينذرُ له الناسُ بالتبجيلِ والتقدير. وفضلا عن ذلك فقد كان من الصّعب أنْ يُصدّقَ أحدُهم أنه بحقٍّ حفيدُ فُولكْ البدين، اليارل القويّ، (أهم مركز بعد الملك). كان ماغنوس رجلا نحيفاً، ولولا الملابس الغربيّة التي كان يرتديها في ذلك اليوم لَما فطن لوجودِه أحد.

ولم يكدْ يصلُ بالقربِ منها، حتى انْحنَى وطلب منها أنْ تُمسكَ بمعطفَيْهما. وتدثَّر هو في معطفِه اللازوردي المُفَرَّى بفراءِ السّمورِ وأقْفَلَهُ تحت العُنقِ بالكبسةِ المصنوعة من الفضّة النرويجيَّة. ثم أعان سيغريد حتى تتدثّر بمعطفِها، وداعب في لُطفٍ جبينَها بيديه اللتين قلّما تُشبهان يدَيْ

المُحاربِ، وسألها كيف وَسِعَها أنْ تتحمّل كلَّ ذلك القذرِ من حَمْدِها للربِّ وهي في حالتِها تلك. فأجابته أنْ ليس في الأمرِ أيُّ صعوبةٍ ما دامت سُوتْ، من ناحية، هي العصا التي تستندُ إليها، وما دام الروحُ القدس، من ناحية أخرى، قد تجلّى لها. قالت هذه الكلماتِ باللهجة التي اعتادت أنْ تُخصّصَها للمزاح. وابتسم ماغنوس، وظنّ أنّ الأمرَ واحدةٌ من دُعاباتِ زوجتِه، وأخذ يبحثُ بعينيه عن الحارسِ الذي ذهبَ ليأتِيَهُ بسيفِه بالقرب من سقيفَةِ المدخل.

وبعد أنْ حزَم السيفَ تحت مِعْطفِه، بدا من القوةِ والبأس ما جعل سيغريد تراه في غير محلِّه.

ثم وَهَبَها ذِراعَه وسألها إنْ كانت ترغبُ في القيام بجولةٍ صغيرةٍ في الساحة، لكي تستمتِعَ بالمشهدِ، أمْ أنها ترغب في أنْ تخلدَ للراحة.

وأجابت على الفور بأنْ لا مانعَ عندَها من أنْ تُنشّط رِجْلَيْها من دون أنْ تضطرَّ لأنْ تجثُو بلا انقطاع. وابتسمتْ ابتسامةً وَجِلةً وهي تسمع هذا المزاحَ القوي. وأضافتْ أنه من المُمْتِعِ مشاهدة كلّ أولئك القوّالين الذين دعاهُم المَلِك. بالفعل، كان يوجَدُ في الساحة، بَهالينُ (مفردها بهلوان) حقيقيون، وقاذِفُ نارٍ، وعازِفو نايٍ، وعازِفو رَبَابَة. وكان صوتُ الطّبلِ الثقيل يَرِنّ بالقرب من إحدى خيماتِ الحفل الكبيرة.

ثم التحقا بالجَمْعِ في احتشامٍ، حيث كان الضيوفُ المميّزون يختلطون بالشعب العادي وبالأقنة. وأخذتْ سيغريد نفَسَها وقالت كلَّ ما كانت تريد أنْ تقوله، بلا مراوغة.

«ماغنوس، يا زوجي العزيز، أرجو أنك ستحتفِظُ بِهُدوئِك وبِوَقارِك كإنسانٍ، عندما تسمع ما فَعَلْتُهُ قبل قليل». واستعادتْ نفَسَها وواصلت من دون أن تتركَ له وقتاً لمُقاطعتِها: «لقد وهبتُ فارنيم لِسيسْترْسِيِّي لورو. إنّ الوعدَ الذي قطعتُه للمَلِكِ سفيركر وَعْدٌ لا رجعةَ فيه. سَنَرَاهُ غداً في القصر حتى يُسجِّلَ كلَّ شيءٍ في حضرتِه، ويُكْفَلَ بِخَتْمِه.»

وكما توقّعتْ، توقّفَ ماغنوس دُفْعَةً واحدة، وفحَصَ وجْهَ زوجتِه، بَحْثاً

عن تلك الابتسامةِ التي كانت تُظهِرُها عندما تمزحُ من طريقتِه الخاصة جداً. لكنه سرعان ما فَهِم أنها كانت تقول الحقيقةَ. واستولَى عليه غضبٌ كان من الحِدّةِ ما كان قد يجعله يضْرِبُها لأوّلِ مرّةٍ لو لم يكونا وسط الأقاربِ، وبين الخُصومِ، وكلٍّ تلك الدّهماء.

«أفَقَدْتِ صوابَك، أيتها المرأة؟ لو لم تَرِثِي فارنيم، لَكُنْتِ ما زلتِ الآن تتعذّبين في أحدِ الأديرة. فبفضل فارنيم، على أيِّ حال، تزوّجْنا!».

تمالك ماغنوس نفسَه، وتحدّث بصوت منخفض، مُكَزِّزاً على أسنانِه.

«نعم، هذا صحيح تماماً، يا زوجي العزيز، أجابت وهي تغضّ الطرفَ في حياءٍ. فلو لم أرِثْ فارنيم، لكان أهلُك اختاروا زوجة أخرى. وبالتأكيد لكُنتُ أنا اليوم راهبة، لكنْ صحيحٌ أيضاً أنّ إسكيل والحياةَ التي أحملُها اليوم ما كانا لِيَرَيَا النورَ من دون فارنيم.»

ولم يردْ عليها قط. وكأنّ الغضبَ حال دونَه والعثور على الكلمات. في هذه اللحظة، وصلتْ سُوتْ مع إسكيل، الذي أسْرَعَ ليُمسِك بيَدِ والدتِه ثم شرَع يَصِفُ كلّ ما رآه في الكاتدرائيَّة. وبعد أنْ ظلت محبوسةً طوال هذا الوقتِ، صارتْ كلماتُه تتدفَّق مثلَ الماء الذي ينبثقُ فجاةً عندما تُفتَح أبوابُ سَدٍّ في الربيع. لقد صارت كلماتُه غزيرةً غزارةَ هذا الماء.

أخذ ماغنوس ابنَه بين ذراعيه، وداعب شَعْرَه في حُبّ، وتأمّل زوجتَه بشعورٍ اختلف اختلافاً جذرياً. ثم وضَع الطفلَ في فظاظَةٍ وأَمَرَ سُوتْ بأن تصطحب إسكيل لمشاهدةِ لاعِبِي الخِفّة. وسرعان ما تلاقَيا مرّة أخرى. وأمسكتْ سُوتْ، التي فاجأتها لهجةُ ماغنوس الفظّة، الطفلَ من يدِه، ولم تجدْ بُدّاً من أن تجرَّهُ جَرّاً لفرط ما كان مُتَبَرّماً مُتَأَفِّفاً.

«لكنْ كما تعرفُ أيضاً، يا زوجي العزيز - أضافتْ سيغرد حتى تواصِل المحادثةَ في يُسْرٍ وتتفادَى أنْ يأخذَ الهيجانُ زوجَها - فقد تمنَّيْتُ أنْ تكون فارنيم، هديّتي لكَ في الزواج، سيما وأني قد ورثتُها فعلا. لكنّها خُتِمَتْ بالشّمْعِ الأحمر، حتى إني لم أعدْ أملكُ منها سوى المعطفِ الذي أحمِلُه، وبعضِ الصّيغة ليس إلا.»

«نعم هذا صحيح، أقرّ ماغنوس. لكنّ فارنيم تمثّل ثُلُثَ أملاكِنا المشتركة، هو الثُلُثُ الذي سَحَبْتِهِ من إسكيل منذ قليل. إنّ ما لا أفهمُه، هو لماذا بادرتِ بهذه اللّفْتَةِ، وإنْ كنتِ بالفعل تملكينَ الحقَّ في ذلك.»

«دَعْنَا لا نَبْقَى هنا هكذا، فقدْ يُظَنُّ بنا أننا نسعَى للمشاجرة. لِنَذْهَبْ لمشاهدة لاعِبي الخِفَّة، سأشرحُ لك»، أجابته وهي تمدُّ له يدَها.

نظر ماغنوس من حولِه، منزعِجاً، ورأى أنها على حقّ. وتكلَّفَ الابتسامَ وأمسك بذراعِ زوجته.

«جيد، قالت بعد برهة. لِنبدأْ بالجانب الدنيوي، الذي يُشغِل بالَك الآن. من البديهي أنني سأصطحب معي إلى أرناس أقنّتي والماشيةَ كافة. إنّ فارنيم، بالتأكيد، مُهيّئةٌ بأفضل البناءات، لكننا نستطيع أن نُعيد بناءَ أرناس من الأساس، ولا سيما أننا نملكُ مزيداً من الأيادي التي سوف نُشغّلها. على هذا النحو، سنحصلُ على إقامةٍ أفضل، وفي الشتاء خاصةً. مزيدٌ من الماشية يعني مزيداً من أطنانِ اللحوم المُملَّحة، ومن الجلود التي يمكننا إرسالُها بالباخرة إلى ليديزة. أنت الذي يُصرّ كثيراً على المتاجرةِ مع ليديزة، تعرفُ جيداً أنه من اليسير فِعْلُ ذلك من أرناس شتاءً وصيفاً على السواء. فيما الأمرُ ليس كذلك من فارنيم.»

كان ماغنوس يسير في هدوء، مُطأطِئ الرأس، لكنّ سيغريد رأتْ أنّ روعَه قد هَدَأَ، وأنه بدأ يُصغي إليها في اهتمام. وعرفَتْ أنْ لَن يحدثَ خِصامٌ بينهما. كلُّ شيء بدا لها واضحاً، وكأنها كَرّستْ وقتاً طويلاً في التفكير في المسألة، فيما لم تخطرْ هذه الفكرةُ على بالِها إلا قبل أقلّ من ساعة واحدة.

مزيدٌ من الجلود واللحم المملّح الذي يُرسل إلى ليديزة يعني المزيد من المال، والمزيدُ من المال يعني مزيداً من البذور. والمزيدُ من البذور يعني أن عدداً كبيراً من الأقنان سوف يحصلون على حريّتِهم باستصلاح أراضٍ جديدة، وباستعارةِ البذور، وبتسديد ضعفِها شعيراً- يُرسَلُ إلى ليديزة ويُستبدَلُ مالاً. وعلى هذا النحو يصبحُ بالإمكان بناءُ حصونٍ كان ماغنوس

يُمنّي بها نفسَه دائماً، لأنّ أرناس، من دون حُصونٍ، سوف يصعبُ الدفاعُ عنها، لا سيما في الشتاء عندما تصير البحيرةُ جامدة. فبتركيز كلِّ القوِى في أرناس، يستطيعان أنْ يَغْتَنِيَا بسرعة. وباستصلاح الأراضي سيحصلان على مساحاتٍ أوسع. وعندئذٍ لنْ يمتلِكا بيتاً أَدْفَأَ وأكثرَ أَمْناً وحسب، بل وسيتركان لإسكيل إرثاً أهمّ.

وشَقّا بلا عناءٍ طريقاً ما بين الجموع. وظلّ ماغنوس يتأمّل وقتاً طويلاً، من دون أنْ ينبِس ببنتِ كلمة. وظلت سُوتْ تراقِب الطفلَ أمامَها، حتى يرى الناسُ من ملابِسها أنّ من حقِّها هي أيضاً أنْ تمرَّ من دون عناء. والتحقَ الولدُ بأمّه، التي وضعت يديْها في هدوءٍ على كتفيه، وداعبت خدَّه وصحّحت قُبّعتَه التي انحرف بعضُ ريشِها.

كان لاعِبُو الخفّة يرتَدُون ملابسَ مُبرقشة، ويحملون أجراساً صغيرة في أعقابِهم وفي معاصِمهم، وكانت هذه الأجراسُ تُرافِق كلَّ حركة من حركاتهم. فهم الآن يُشكلون بُرجاً متكوّناً من البشر لا غير، وقد تسلّق قمَّته ولدٌ صغير، لا يكاد يكبرُ إسكيل عمراً. كان الناس يُطلقون صرخاتٍ عاليةً اختلطَ فيها الخوفُ بالابتهاج، وقد وجّه إسكيل يدَه ناحيتهم وهو يقول إني أريد أنْ أصبحَ لاعب خفّة، فانفجر أبوه لذلك بضحكة مُدوّية مبتهجة. فكانت هذه الضحكةُ تعني أنّ سيغريد لم تعدْ تخشَى شيئاً.

وأدرك ماغنوس أنها كانت ترقُبه خلسة، وكان لا يزال يضحكُ حين مال عليها وقبّلها على خدِّها.

«سيغريد، أنت بلا شك امرأةٌ رائعة، هَمَسَ من دون أن تُكدِّرَ صوتَه ذرّةٌ واحدة من الغضب. لقد فكّرتُ في ما قلتِه لي قبل قليل: أنت على حقّ في كلّ شيء. فلو جمعْنا كلَّ قِوانا في أرناس، لأصبحنا أكثرَ ثراءً. كيف يمكن لتاجرٍ أنْ يحلمَ بامرأةٍ أكثرَ وفاءً منك؟»

وأجابتْ في هدوء، وهي تغضُّ بصرَها، بأنّ ما من امرأةٍ يسعها أن تتمنّى زوجاً أكثرَ منه تفهُّماً. ثم رفعت رأسَها وتطلّعت إليه. وأضافت عندئذ بأنها تلقّتْ حقاً تجلياً في الكاتدرائيَّة، وبأنّ أفكارَها أوحَى بها إليها الروحُ

القدس، حتى وإنْ تعلّق الأمرُ بقضايا تجارية ليس إلا.

وتأمّلها ماغنوس بشيءٍ من الريبة، وكأنه لم يُصدّقها حقاً، وكأنها كانت تكاد تهزأ بالروح القدس.كان ماغنوس أعمقَ إيماناً بكثير من إيمانِ سيغريد، وكانا كلاهما يعرفان هذا. سنواتُ سيغريد في الدير لم تُلَطِّفْها إطلاقاً.

وما كاد لاعِبُو الخِفَّةِ يُنْهُون فَقْرَتَهُم حتى عادوا إلى خيمتِهم في الحفلِ ليتناولوا الجعة واللحوم المشويّة التي أُعِدَّتْ لهم خصيصاً. أخذ ماغنوس ابنَه في ذراعيه، وسيغريد إلى جانبه، فيما كانت سُوتْ تتعقّبهم في أدبٍ على بُعد عشرة أمتار. وعبَروا بابَ المدينة والتحقوا بعرباتهم وبالحارس الذي كان في انتظارهم. وفي طريق عودتهم، رَوَتْ سيغريدُ رؤيتَها. وقد أخذت تصفُها في إسهاب، وبكلمات دقيقة، إذْ كانت في الوقت نفسه تشرحُ الكيفيةَ التي كان يجب أنْ تُؤَوَّلَ بها رسالةُ الروح القدس.

كادت ولادتُها الأولى أنْ تقتلَها، وكانت أمُّ الربّ المقدسة قد أنقذتها، وأنقذتْ إسكيل أيضاً. كان معروفاً أنّ الولادةَ العسيرة غالباً ما تعقبُها ولادةٌ أخرى لا تقلُّ عنها عُسراً، وكانت ساعةُ هذه الولادةِ وشيكة. لكنْ، ما دامت قد وَهَبَتْ فارنيم على ذلك النحو، فقد أَمَّنَتْ لنفسِها العديدَ من الشفاعات، ولاسيما أنّ تلك الشفاعات من رجالٍ ضالعين في ذلك النوعِ من الصلوات. فلعلّها ستعيش، ولعل الطفلَ الذي سيولد قريباً سوف يعيشُ هو أيضاً.

بطبيعة الحال، كان من المُهِمّ أكثرَ أنْ تكون سُلالتُهما أشدَّ بأساً، بعد أن ينتهيَ بناءُ أرناس وتحصينُها. لكنّ أمراً من الأمورِ ما فتئ يُحيّرُها: تُرَى مَن كان ذلك الرجل الذي كان يمتطي ذلك الجواد الفضيّ ذي العُرف الأبيض، والذَّنَب المُنتصِبِ في زَهْوٍ؟ فلم يكنْ السيدَ، على أي حال – فالسيدُ لا يركبُ فرسَ قتالٍ جموحاً، ولا يحمِل ترساً في ذراعه.

ما لبثت هذه الجزيئةُ أنْ شدّتْ كاملَ انتباهِ ماغنوس. لقد فكّر كثيراً، وتحرّى أجسامَ الخيول وطريقتَها في التنقل. ثم افترضَ أنّ مثل تلك السروج لا وجود لها، وطلب من سيغريد ما الذي كانت تقصده بالترس الذي يحمل صليباً أحمر حُمرةَ الدم. ففي هذه الحالة يكون المقصودُ صليباً أحمر، أو

بالأحرى أشداقاً. فكيف عرَفتْ أنّ المقصودَ دمٌ ؟

فأجابت أنها تعرفُ ذلك. أجلْ، كان الصليبُ أحمرَ اللون، أحمر حُمرة الدم. وكان التُّرس أبيض تماماً. لم تتبيّن قط لباسَ الشاب، إذ كان تُرْسُهُ يُخفِي صدرَه، لكنه كان يحمل ملابسَ بيضاء. بيضاء مثل ملابس السيسترسيين، إلا أنه لم يكنْ راهباً على الإطلاق، لأنه كان يُمسك بتُرس المحارب. وكان يحمل على الأرجح زرداً تحت ملابسه.

سألها ماغنوس حول شكل التُّرس وحجمِه. وحين عرف أنّ التُّرسَ كان على شكل القلب، وأنه لم يقِ أكثرَ من الصدر، هزّ رأسه في ارتياب، وأكد أنه لم يرَ تُرساً من هذا النوع أبداً. فالتروسُ تكون إمّا كبيرة ومُدوّرة، كالتي كانت تُستعمَل قديماً في غزوات الفايكنغ، وإمّا طويلة ومثلّثة، حتى يستطيع المحاربون التحرُّك في يُسْرٍ حين يتهيؤون للمعركة. أمّا التُّرس الصغير الذي رأته في تجلّيها فهو مُعيقٌ أكثر في حال استعمالِه في المعركة.

بيد أنه يستحيل على بَشَرٍ عادي أنْ يفهمَ كلَّ الذي كان يتجلّى لها. فحين يأتي المساءُ سيُصَليان معاً، ويحمدان أمَّ الربّ المقدسة على ما أَبْدَتْهُ نحوهما من حِلْمٍ وحِكمة.

استنشقتْ سيغريد نفَساً قويّاً، بعد أن اطمأنّتْ نفسُها. لقد مرّ من الأمر أَسْوَأُهُ، ولم يبقَ لها سوى أنْ تصل إلى أهدافها مع المَلِك العجوز، حتى لا يستوليَ على فارنيم، ويهبَها باسمِه وحده. ففي شيخوخته صار سفيركر ينشغلُ أكثر فأكثر بما يُقْصَدُ به من صلواتٍ وشفاعات، وقد سبق أنْ أسّس دِيرَيْنِ اثنين حتى تطمئنَّ لذلك روحُه. كلُّ الناس كانوا يعرفون ذلك، أصدقاؤه وأعداؤه على السواء.

* * *

اعترتْ الملكَ سفيركر طلعةٌ خشبيةٌ مُرعبة، فقد انتابته في حالةٍ من الغضب الشديدِ حين دخلتْ سيغريد وماغنوس إلى قاعةِ القصرِ الكبرى التي كان سيتّخِذُ فيها سلسلةً من القراراتِ، في شؤونٍ غايةً في التنوع فهل

كان يجبُ إعدامُ اللصوص الذين أُلْقِيَ عليهم القبضُ في السوقِ في الليلةِ الماضيةِ؟ أَم كان ينبغي جَلْدُهم أوّلاً ؟ على أن تأتي بعد ذلك الشجاراتُ المتعلقةُ بالأراضي وبالإرثِ، التي لم يكن في الوسع تسويتُها في أثناء دورةِ تينغ ting عادية وهي الجمعية التي يعقدها رجال أحرارمسلحون، ليتداولوا علناً حول شؤون عامة وقضائية.

كان غضبُه قد تضاعفَ حين علِم أنّ ابنَه ما قَبْلَ الأخيرِ، ذلك الخسيس، قد خَدَعَه. كان جُوهان قد ذهَب على رأس حملةٍ للنّهب فيى هالاند، في الدنمرك. في حدّ ذاته لم يكنْ الأمرُ خطيراً جداً، إذ بإمكان أيّ شابٍّ أنْ يتعاطَى هذا النوع من النشاط إنْ كان يُفضّل أن يخاطر بنفسه بدلاً من أنْ يلعبَ زهر النرد في تعقُّلٍ ورصانة. لكنه كان قد كذب في شأن المَرْأَتَيْنِ اللتين اصطحبهما معه في طريق العودة، وقدّمَهُما كقِنَّيْن، إذ اكتفَى بالقول إنهما غريبتان، ولا شأن لهما. لكنّ رسالةً من مَلِك الدنمرك كانت قد وصلت لتوِّها، وهي تحمل خبَراً مختلفاً تماماً، ولم يَرْتَبْ أحدٌ في أمرِها. فلم تكن المرأتان غيرَ زوجةِ يارل المَلِكِ الدنمركي في هالاند وأختِها. كان الأمرُ إذاً عاراً، وجُرْماً خطيراً، ولو كان الفاعلُ أيَّ شخصٍ آخر غير ابنِ المَلِك لكان دَفَعَ حياتَه ثمناً لمثل تلك الجريمة. بالطبع، كان جوهان قد أهانَهُما معاً. فلم يكنْ إذاً من الوارد بتاتاً إعادتُهما إلى بيتَيْهِما – وإلى الحالةِ نفسِها التي كانتا عليها قبل اختطافهما. فأياً كانت الكيفية التي كانت ستعالَج بها هذه المسألة فإنّ ذلك كان سيكلّف مالاً كثيراً. وفي أسوأ الأحوال، قد يُعرِّض ذلك لمواجهةِ حربٍ لا مفرّ من تحمّلها.

كان الملكُ سفيركر وأقربُ الرجال إليه قد تشاجروا بعنفٍ بَلَغَ من الحدّة ما جعل كلَّ الحاضرين في القاعة يطّلعون على الحقيقة اطلاعاً كلياً. كانوا مُتّفقِينَ حول نقطة واحدة: وجوب إعادة المرأتين إلى بيتيهما. وقد اعتَبر بعضُهم أنّ دَفْعَ مبلغٍ من المال قد يكون من قبيل إبداءِ الضُّعف– وقد يوحي ذلك لـــ سفينْ غرات، ملك الدنمارك ببعض الأوهام فعلاً. فقد يخطر له أن يُعِدّ جيشاً، وأن ينطلقَ في غزوات وأعمالِ نَهْبٍ شتى.

فيما اعتقد آخرون أن تعويضاً سيكون أقلّ تكلفةً من النّهب، أياً كان مخرجُ تلك الحرب.

وبعد شجارٍ طويل، تنهّد الملكُ في غضبٍ وتوجّه بالحديثِ إلى الأب هنري دي كليرفو، الذي كان في آخرِ القاعة ينتظرُ أنْ يُعْرَضَ لمسألةِ لورو. كان مُطأطِئَ الرأس، غارقاً في الصلاة. كان غطاءُ ثوبه يغطّي رأسَه فتعذّر معرفةُ إنْ كان يُصلّي أمْ كان نائماً. وكان بالفعل خامِداً. وعلى أي حال فلم يكن الأبُ هنري قد فهِم الشجار، وحين ردّ على الملِك، جاء ردُّه باللاتينيَّة، تلكِ اللغة التي لم يُصْغِ إليها أحد. لم يكن أيُّ رجلٍ آخر من الكنيسة حاضراً هنا، إذ لا تعالَج هنا قبل كلِّ شيءٍ سوى المسائل الدنيويَّة. وتأمّل الملكُ القاعةَ في غضبٍ، وأمَر صارخاً بإحضار واحدٍ من أولئك الحَمقَى الذين يتحدثون بتلك اللغة الدينيَّة الملعونة.

وانتهزت سيغريد على الفور حظّها. فقامت، وعبَرت القاعةَ مطأطئةَ الرأس، ثم انحنتْ في أدبٍ أمام الملِك سفيركر، ثم أمام الأب هنري.

«مولاي، أنا في خدمتِك،» قالت وهي تنتظر إجابَته.

إذا كان لا يوجد هنا رجلٌ قادرٌ، أعني، لا يوجدُ رجلٌ يتحدّث هذه اللغةَ، فليس أمامنا خيارٌ، تنهّد سفيركر. لكنْ قولي لي، يا عزيزتي سيغريد، كيف صِرْتِ تتحدّثينها؟ أضاف في لهجةٍ أكثرَ وُدّاً.

«لا بد لي من الاعتراف أنّ أطيبَ شيءٍ تعلّمتُه في سنواتي في الدير، هي اللاتينيَّة»، أجابت في هدوءٍ وعُبوس. كان ماغنوس هو الرجلُ الوحيد في القاعة، القادرُ على أنْ يُميِّزَ ابتسامةَ سيغريد الخبيثة. هكذا كانت تتحدثُ في الغالب، وهي تقول شيئاً وتفكّرُ في غيرِه.

لكنّ الملكَ لم يلمسْ أيّ تهكُّمٍ تجاهَ الربّ، وطلب من سيغريد أنْ تقفَ إلى جانبِ الأبِ هنري، وتشرحَ له الوضعيةَ، وتسألَه رأيَه فيها. وفيما كانت تؤدي بصوتٍ منخفضٍ ذلك الحديثَ مع الأب هنري، بتلك اللغةِ التي كانا في الظاهر الوحيدين اللذين يفهمانها في القاعة، إذا ببعضِ الانزعاجِ يستولي على الحضور فجأة. لقد تفرّس كلُّ الرجالِ بعضُهم في البعض

الآخر، وقد هزّ بعضُهم الكتفين، فيما شدّ بعضُهم الآخر على أيدي بعضهِم بعضاً، ورفعوا أعينَهم إلى السماء. هناك امرأةٌ في وسط مجلسِ الملِك، امرأةٌ ما بين الوُجهاءِ جميعاً، فلم يكن يسعهم أنْ يفعلوا شيئاً.

بعد برهةٍ، قامت سيغريد وأعلنت بصوتٍ عالٍ، حتى تُخْرِسَ الهَمساتِ، أنّ الأبَ هنري قد فكّر في الأمر، وقدّر أنّ الأفضلَ هو إرغامُ ذلك الخسيس، على التزوُّجِ بأختِ زوجةِ اليارل. أمّا هذه الأخيرةُ فلا بد من إعادتِها إلى بيتِها، يرافقها حرسٌ وهدايا. ولا ينبغي للملكِ سفيركر وابنِه النّذْلِ أن يتوقّعا أيَّ مَهْرٍ من وراء ذلك الزواج، وفي ذلك ما يُغني عن مشكلةَ المال. أمّا فيما يخص رأيَ الابن في تلك المسألة، فلن يُشغلَ أحدٌ بالَه بها مطلقاً. وفضلا عن ذلك، فإذا كان يسعه أنْ يتزوّجَ أختَ زوجةِ اليارل، فإنّ صِلاتِ الدّمِ الجديدة هذه سوف تَحُول دون قيامِ الحرب. وعلى أيِّ حالٍ، فقد كان على ذلك الخسيسِ أنْ يفعلَ شيئاً حتى يُعالج جُرْمَهُ. وفوق ذلك، فقد كانت الحربُ هي أكثرُ الحلول كُلفة.

جلست سيغريد في هدوءٍ تام. كان المجلسُ يتأمّل مضامينَ اقتراح الراهب. ثم ما لبثتْ همسةُ الرضا أنْ سرتْ في القاعة، وقد استلَّ أحدُ الرجال سيفَه وضرب بصفحتِه الطاولةَ الطويلة التي امتدت على طول الجدار. وحذا آخرون حَذْوَهُ، ورنّ صدَى الأسلحةِ في القاعة. وصارت المسألةُ مُنْتَهِيَةً.

وما دامت سيغريد قد وقفت في الجزء العلويّ من القاعة، وأنها قد لعبت في الظاهرِ دوراً في ما قدّمه الأبُ هنري من اقتراحٍ ذكي، فقد قرّر سفيركر أن تُحَلَّ مسألةُ فارنيم في الحين. وأشار إلى كاتبٍ فقرأ النصَّ الذي أمَرَ به السيدُ حتى تصبح المسألةُ مشروعة. لكنْ، عند تلاوةِ الوثيقة، اتّضح في جلاءٍ أنّ الهِبَةَ تأتي من الملِك دون سواه.

وطلبت سيغريد النصَّ لكي تُترجمَه للأب هنري، واقترحتْ في هدوء أن يكون السيدُ ماغنوس شريكاً في المناظرة. «بالتأكيد، بالتأكيد»، قال الملكُ في حركة لامبالية وقلِقة، وهو يشير إلى ماغنوس بأنْ يتقدّم في

القاعة، ويلتحقَ بزوجته.

ترجمتْ سيغريد بسرعة نصَّ الأب هنري، الذي كان قد أزاحَ غطاءَ الثوب عن رأسه، وحاول أنْ يتعقّب الكلماتِ التي كانت سيغريد تُشير إليها بأصبعها. وبعد أنْ انتهت، أضافتْ بحرارة، ومن حيث يُظَنُّ أنها ما زالت تواصِلُ ترجمتَها، بأنّ الهبةَ تأتي منها وليس من المَلِك، وأنها، شرْعاً، في حاجةٍ إلى خَتْمِ الملك. ووجّه إليها الأبُ هنري نظرةً خاطفة، وابتسامةً كانت صدىً لابتسامتِها، ووافق بإشارة من رأسه، متأملاً.

«وماذا أيضاً؟» قال سفيركر، في نفادِ صبْرٍ، وكأنه يسعى لأنْ يتخلّص بأسرع ما يمكن من هذه القضية، فهل لِسُمُوِّها شيءٌ تريد أن تقوله، أو تضيفه إلى الوثيقة؟

ترجمتْ سيغريد السؤالَ وهي تنظر في عينَيْ الراهب. فلم يجدْ صعوبةً في قراءةِ أفكارها.

«وإذن.. يشاءُ الربُّ أنْ يُقدّم قرابينَ لأخلصِ عبادِه في جنّة الزيتون. لكنْ، أمام الربِّ، مثلما أمام القانون، لا يمكن أنْ يُقبَل قربانٌ إلا إذا كنّا نعرفُ عن يقينٍ من الذي يَهَبُ، ومن الذي يستقبِل. هل هي إذاً مِلكية لجلالته نَسْعَدُ باستقبالها بهذا القدرِ من السخاء؟».

قام الراهب هنري بحركةٍ دائرية صغيرة من يدِه ليُشير إلى سيغريد بالترجمة، وهو ما أدّته في سرعة بصوتٍ أحادي الوتيرة.

اِلتَبَسَ الأمرُ قليلا على المَلِكِ الذي ألقَى نظرةً فظّةً على الأب هنري. فاكتفَى هذا الأخيرُ بالنظر إلى الملك، نظرة ملؤها الودُّ والسؤال، وكأنه لم يَشُكْ لحظةً واحدةً في أنّ كلَّ شيءٍ يسير على ما يرام. وظلّت سيغريد تنتظر.

«بالتأكيد، بالتأكيد...غمغم الملكُ مُنزعجاً. بالتأكيد، يمكن القول، شرعاً إن الهِبَةَ ينبغي أنْ تأتي من الملك – والأمر كذلك. لكنّ هذه الهبةَ تأتي أيضاً من السيدة سيغريد، الحاضرةِ معنا في هذه اللحظة».

وفيما كان الملكُ يتعثّر في كلماتِه، انتهزت سيغريد هذه الفرصةَ لكي تترجمَ تلك الكلمات، وباللهجة الهادئةِ نفسِها دائماً. وقد أشرقَ الأبُ هنري

بمفاجأةٍ سعيدة، وهو يعلم ما كان قد علِمه من قبلُ، ثم هزّ رأسَه قليلاً في ابتسامٍ وُدِيّ. ثم شرَح، في عبارات بسيطة، وبكاملِ اللياقة المطلوبة حين يُرَدّ على ملكٍ، بأنه من الأعْدَلِ أمام الربِّ، التمسكُ بالحقيقة الصارمة، حتى لو كان ذلك في وثيقةٍ رسمية. وهكذا فلو ذُكِر اسمُ الواهبِ مع موافقةِ جلالتِه وتصديقِه، لصارت القضيةُ كاملة. وبالطبع، فسوف تُقسَّم الشفاعاتُ بين جلالتِه وبين الواهب.

على هذا النحو إذاً أُنهيتْ المسألة، على نحو ما تمنّته سيغريد. لم يكن للمَلِكِ سفيركر خيارٌ. وقد أضاف باختصارٍ أنّ الوثيقةَ يجب أنْ تحرَّرَ باللغة العاميَّة وباللاتينيَّة، وأنه سيضع خَتْمَهُ في اليوم نفسه. والآن سَيَتَسَلَّى الحضورُ قليلاً بالانتقال إلى مسألةِ إعدام اللصوص.

مع الأب هنري والسيدة سيغريد، التقتْ روحان، أو بالأحرى شخصان تشابَهَ مزاجاهُما وعقلاهُما تشابهاً كبيراً.

وإلى أجلْ غير مسمّى، تقرّر مصيرُ فارنيم.

* * *

ومع قرب أعياد فيليبوس وجاكوب، في ذلك اليوم الذي كان العُشْبُ فيها أخضرَ اللون وغزيراً بالقدر الذي يكفِي لِرَعْيِ الماشية، وحيث كان يجبُ مراقبةُ السياجات، أصيبتْ سيغريد بالهَلَعِ، وكأن يداً مثلّجةً قد شدّتْ على قَلْبِها. لقد أحسّت أنّ ذلك الأمرَ قد بدأ حقاً. لكنّ الألمَ سرعان ما اختفَى حتى ظنّت أنّ الأمرَ وَهْمٌ ليس إلا.

انحدرتْ إلى جدول الماءِ مع إسكيل، إلى حيث كان الرهبانُ والإخوةُ يُرَكّبون عجلةَ رَحَى ضخمة، بواسطة بَكَرَات، وحِبالٍ وحيواناتِ جرٍّ كثيرة. لقد بلّطوا، ووجّهوا وعمّقوا قناةَ الجدولِ حتى صار التيارُ أقوى عند المكانِ الذي كانت ستُوضَع فيه العجلة. فتلك العجلةُ المتكوّنة من نحوِ ألفِ قطعةٍ من قِطَعِ خشبِ البلوط سوف تُنْتِجُ من الطاقة ما يكفي الرَّحَى، ويكفِي مطرقةَ المَسْبَكِ الذي كان سيُشَغَّل بعد حين.

وكان هناك جهازٌ مشابه، أصغرُ حجماً، وُضِع في مستوى أعلَى قليلاً. هنا، كانت العجلةُ المائية مختلفة. كان شكلُها يشبه سلسلةُ من الدِّلاءِ (مفردها دلو) التي تَرفعُ الماءَ وتُفرغه في قناةٍ مكوّنة من جذوع البلوط المفرغة، وكانت هذه القناةُ تصبّ بالقرب من المكان الذي كانت ستُبْنَى فيه الكنيسةُ وباقي بناءات الدير. كانت القناةُ ستمرّ ما بين بناءات عديدة قبل أنْ تصلَ إلى الجدول. وكانت ستُغَطَّى حتى لا تجمدَ في الشتاء، وهكذا سوف يتوفَّرُ الماءُ الجاري باستمرار، للمطابخ وللمراحيض على السواء.

أمضتْ سيغريد وقتاً طويلاً بالقرب من الورشةِ، وقد شَرَحَ لها الأبُ هنري في صبرٍ وأناةٍ ما كان يُنْجَزُ فيها من أعمالٍ، ولماذا. وقد اصطحبتْ اثنين من بين أفضل أَقِنَّتِهَا، وهما سفارتْ خليل سُوتْ، وغُور الذي بقيت زوجتُه وأطفاله في أرناس. وقد ترجمتْ لهما في دقّةٍ كبيرةٍ، كلمات الأب هنري.

وكان ماغنوس قد تذمَّر من ذلك، مُعتبراً أنّ سيغريد لم تكن في حاجةٍ إلى أفضل أقنّتها في فارنيم، الرجال منهم على الأقل. وأنه كان من الخير استعمالهمها في أشغالِ البناء في أرناس. لكنّ سيغريد لم تستسلم، مُتَحَجِّجَةً في ذلك بأنّ هناك الكثيرَ مما ينبغي تعلّمه من الإخوة لايْ البورغونديين، ومن البُناةِ الإنجليز الذين شغّلهم الأبُ هنري. وكما هو الحالُ في أغلب الأحيان فقد وصلت إلى أهدافِها، حتى وإنْ كان من الصّعبِ أنْ تشرح لرجلٍ في فاسترا غوتالاند أنّ الأجانبَ بناةٌ أفضلُ بكثير من سكانِ البلد الطيّبين.

بضعةُ شهورٍ كانت كافيةً لتحويل فارنيم إلى ورشةٍ كبيرة تَرِنُّ فيها المطارقُ، والمناشيرُ وأدوات التلميع. كان النشاطُ يملأُ كلَّ مكان، ومن أوّلِ وهلةٍ قد يبدو الأمرُ مُلتبساً، مثلما يحدثُ عندما نشاهد مَحْشَرَ نَمْلٍ في الربيع، ونرى الحشرات وهي تطير في كلّ الاتجاهات، بلا داعٍ وبلا سبب. لكنّ كلّ حركة كانت تَتْبَعُ مُخططاً دقيقاً. كان المراقبُ رجلاً ضخماً يُدعَى جلبرتْ دي بون، وكان هو الراهبُ الوحيدُ الذي يشارك في العملِ بحيوية، أما الإخوةَ لاي ذوي الملابس البنية فكانت تُتْرك لهم الأشغالَ اليدوية. وقد يُخَالُ أنّ الأخَ لوسيان دي كليرفو قد شذّ أيضاً عن القاعدة. فبصفته بُستانيَّ

الدير، كان يرفضُ أنْ يدعَ الأغراسَ الحساسةَ بين أيادٍ أخرى غير يدَيْه. فالسَّنَةُ كانت قد تقدّمتْ كثيراً فلم تعدْ تتحمّلُ ذلك، وكانت تلك صَنْعَةً شاقةً بالنسبة لمن لا يملكُ اليدين الملائمتين، والنظرَ الملائم.

وكان الرهبانُ الآخرون، الذين يُقيمون في البيتِ الرئيسيّ من أجلِ العيشِ والصلاة على السواء، يُكرّسون وقتَهم للمسائلِ الروحية ولأعمال الكتابة.

وبعد فترة اقترحتْ سيغريد أيضاً على الإخوة كُونْفَرْس خدماتِ سفْرتْ وغُور، لتكون هذه الخدماتُ من أجل تدرُّبهما، أكثر منها لمساعدتهم. في البداية، اشتكَى العديدُ من الرهبان للأبِ هنري، من هذين القِنَّيْنِ اللذين كانا يُفسِدان أعمالَهم. لكنّ الأبَ هنري أبعد تلك الشكاوى، بعد أنْ فَهِمَ نِيَّةَ سيغريد حقّ الفهم. بل وقد ناقش المسألةَ مع الأبِ جيلبرتْ، ومما أضرّ بالإخوة لايْ، أنّ سفْرتْ وغُور كانا لا يكادان يُظهران فعاليةً في مكان بعينِه حتى يُرسَلان إلى مكانٍ آخر. وإذا بالمحاولة المتكرّرة والتلبُّك يَعُودان مرّةً أخرى. وسرعان ما تعلّم العَبْدَانِ مبادىءَ مختلفِ التقنيّات: قطْعُ وتلميعُ الحجر، وضرْبُ الحديد، وتركيبُ عجلةٍ مائية من قِطَعِ البلوط، وتبليطُ بِئْرٍ أو قناةٍ، وتنظيفُ الحديقة من الأعشاب الضارة، وشذْبُ شجرِ البلوط والزان، وإعدادُ الحَطَب لأغراضٍ محدّدة. وما فتئت سيغريد تتحرّى تقدُّمَهما، وتُفكّرُ في الكيفية التي كانت ستتّبعُها في تشغيلهما في المستقبل. كان ظنُّها أنهما سيحصلان على حُرّيَّتِهما عن طريق العمل- فالحُرُّ الذي يملك مهارةً من المهارات وحدهُ هو القادرُ على التحرّر. كان انعتاقُهُما لا يَهُمُّها كثيراً، وكانت سُوتْ وحدها هي التي أُجبِرتْ على التّعميد، لكنْ هنا أيضاً كان ذلك فقط بهدفِ الحصول على شخصٍ يمكن الاعتمادُ عليه في أثناء تكريس الكاتدرائيَّة.

كانت تلك الفترةُ هادئة. لم يكن يقَع على سيغريد من عِبْءٍ بالقدر الذي كان سيقع عليها لو قُدّر لها أنْ تتصرّف كمالِكةٍ لفارنيم، أو أن تقود أشغالاً في قلعةِ أرناس. لقد سعَتْ لأن تفكّر في ما هو محتومّ، بأقلّ ما يمكنها من تفكير، وفي ما يَطالُ، على غرار الموت، الأقنانَ والرجال الأحرار سواء

بسواء. ولمّا لم يُكرِّس بيتُ فارنيم دِيراً، فقد صار في وسعِها أن تحضر أيّاً من القدّاسات الخمس اليومية. وما مرّ الزمنُ إلا وازداد انضباطُها. لقد كانت دائماً تُصلّي للأشياء نفسها: من أجل حياتها وحياةِ الطفل الذي سيولَد، ومن أجل أن تمنحَها العذراءُ القدّيسة القوةَ والجَلَد، ومن أجل أنْ تعفيَها من آلامِ الولادة هذه المرّة.

عرقٌ باردٌ صعَد إلى وجهِها. وفي بطء، وكأنها تسعَى لأنْ تتفادى الألمَ بأيّ ثمن، ابتعدتْ عن الورشة لِتعودَ إلى القلعة. ومن بعيدٍ نادتْ سُوتْ التي فهمتْ على الفور وضعَها. هَمْهَمَتْ سُوتْ ببضْعِ كلمات، وأسرعتْ إلى المطابخ، وبدأت في ترتيبِ الأشياء مع باقي الأقنّة. وحمَلتْ الأقنةُ كلَّ ما كان يلزمُ لطَهْيِ الخبز واللحم، وغسلنَ الأرضيةَ، وذهبْنَ ليُحضِرن من جناح الخدمات، الوسائدَ والجلود لسيغريد. وفي اللحظة التي كانت تتهيأُ فيها للوَضْعِ اعترتْ سيغريد آلامٌ جديدة، وازدادتْ حالتُها سوءاً حتى اصفرّ لها لونُها، ثم انهارتْ فلم يكن من بُدّ من حملِها إلى سريرِها. وقامت الأقنةُ بتأجيج النار، وعلى وجْهِ السرعة نظّفْن القدورَ ثم وضعْنها لِتغليَ عليها.

وعندما سكنتْ الآلامُ، طلبت سيغريد من سُوتْ أنْ تذهبَ لتُحضِر الأبَ هنري، وأن تحرص على أنْ يظل إسكيل مع الأطفال الآخرين. فحين تستغرقُه الألعابُ لن يسمع صرخاتِ أمِّه إنْ حدَث وصرختْ. وزيادةً على ذلك، كان لا بُدَّ لشخصٍ بعينِه من أنْ يراقبَ الأطفال باستمرار حتى لا يقتربوا كثيراً من عجلةِ الطاحونة الكبيرة التي بدأتْ تثيرُ فضولَهم.

ظلت وحدَها برهةً من الوقت، وهي تنظر من خلال الثُّقب في السقف، ومن النافذة الصغيرة. كانت طيورُ الشرشور ما زالت تُغنّي، لكنّ قدومَ ألوانٍ من طير السُّمنة سيُخْرِسُها قريباً.

كان صدْغاها يؤلمانها، ومع ذلك فقد كانت ترتعش من شدّة البرد. في هدوءٍ اقتربت منها إحدى الأقنةِ ووضعت على جبينِها قطعةً من القماش الرطب، من دون أنْ تتجرّأ النظرَ في عينَيْها.

كان ماغنوس قد توسّل إليها بأن تدعوَ نساءً طيّباتٍ من سكارا عندما

تحين ولادتُها، وبألا تضعَ حملَها ما بين الأقنّة. لكنّ سيغريد ما فتئت تتصرّف وكأنها تستطيع أنْ تُبْعِدَ ما ليس منه بدٌّ، وكأنها، في سِرّها كانت ستستطيع أنْ توفّر عن نفسِها ميلادَ ذلك الطفل. كان ذلك من قبيل البَلادة والاعتدادِ بالنّفس. هنا، كانت ستلِد وتعيش. أو تلِد وتموت مع طفلِها، ما بين الأقنّة. وراحت تسبرُ كثيراً ما كان يدور في خَلَد ماغنوس. لكن ماغنوس لم يكنْ سوى رجلٍ، عاجزٍ عن أنْ يفهمَ بأنّ الأقنةَ اللواتي كنّ يُنتجن أكثر مما ينتجه البشرُ الأحرار، كُنّ يفهمنَ الوضعَ أفضلَ منهم بكثير. فحتى وإنْ لم تكن بشرَتهنَّ بيضاءَ اللون، وحتى وإنْ كُنّ لا يملكن لا الكلمةَ المزدهرة، ولا أساليب النساء الجميلات اللواتي كان ماغنوس يتمنّى وُجودهنّ في تلك اللحظة، فحسبهنّ ما اكتَسَبْنَهُ من معرفة. وكان صحيحاً أنّ أياً كان، قادرٌ على مساعدتها. فالعذراءُ القدّيسة قد تساعدُها - أوْ لا تساعدها- أياً كانت جودةُ الأرواحِ الموجودة في الغرفة.

كثيراً ما كان الأبُ هنري يُردّد لها في قوةٍ وقناعة أنّ الأقنةَ يَمْلِكْن روحاً كأرواح الأحرار من البشر تماماً. ففي مَلَكوت السماء، ليس هناك لا بشرٌ أحرار ولا أقنان، ولا أغنياء ولا فقراء. ليس هناك سوى البشر الذين عرَفوا كيف يكونون أهلاً لذلك الملكوت بما أوتوا من طِيبة. وقالت سيغريد لنفسِها إنّ الأمور كذلك على الأرجح.

عندما دخل الأبُ هنري إلى الغرفة، رأتْ سيغريد أنه يحمِل بطرشيله. لقد فهِم إذاً نوعَ المساعدة التي كانت تلتمسُها. بدايةً، تصرّف وكأن شيئاً لم يكن، ولم يُشغل بالَه حتى بطَرْدِ الأقنةِ اللواتي كنّ يَنْشُطْنَ، بإحضارِ دِلاء الماء، والفرش والقماط.

«بوركتِ، أيتها المرأةُ العزيزة، إني أرى أننا نقتربُ من لحظةِ السعادة في فارنيم،» قال في هيئةٍ هادئةٍ، كانت أهْدَأَ من كلماتِه بكثير.

«أو مِنْ وقتٍ مشؤوم، يا أبانا. لكنّنا لن نعرف ذلك إلا بعد حين،» همستْ سيغريد وهي تتطلّع إليه في هلَع- كانت تحسُّ أنّ آلاماً جديدة بدأتْ تلوح. إلا أنّ تلك الآلام لم تكن سوى تخيّلاتٍ، لأنها لم تأتِ في النهاية.

قرّب الأبُ هنري طنبوراً صغيراً من فرْش سيغريد، وأمسك بيدِها بين يديه.

«أنت امرأةٌ ذكية، أردف قائلاً، الوحيدةُ التي تعرف اللاتينية من بين منْ قابلتُ في هذا العالم. وأنتِ تفهمين أشياءَ أخرى أيضاً، لأنكِ تملكين الذكاءَ في أنْ تُتيحِي لأقنّتِك بأنْ يتعلّمن ما نعرفُه نحن. في هذه الحالة، اشْرَحِي لي ما الذي يجعلُ هذا الذي تنتظرينه، مُميَّزاً بهذا القَدْرِ، فيما كلُّ النساء يَمْرُرْن من هنا. نساءٌ وُلِدْنَ مثلَكِ تماماً، أقنّتكِ ونساءٌ بائساتٍ، وهُنّ بالآلاف. تأكدي أنك لست وحدكِ في هذه اللحظة. أجل، ففي اللحظة التي نتحدثُ فيها، ربما هناك عشرةُ آلاف امرأةٍ مثلك في ذات الحالة، في هذا العالم. اشرحِي لي ما الذي يجعلك، دون النساء جميعاً، تخشَيْنَ من وقوع شيء؟»

لقد عبّر عن نفسِه في يسر، بلهجةٍ أقربَ إلى لهجة الوعظِ. وظنّتْ سيغريد أنه قد فكرّ بإمعانٍ لأيامٍ عديدة، في الكلمات التي سيقولُها لها عندما يقتربُ ذلك الوقتُ الرهيب. فلم يسعْها أنْ تُخفي ابتسامتَها وهي تتفرّس فيه. ورأى هو من ابتسامتها أنها قد اخترقته اختراقاً!.

«إنكَ تتحدث جيداً، أيها الأبُ هنري، قالت بصوت خافت، وهي تخشَى من جديد أنْ تتصاعد آلامُها. لكنْ، من بين العشرة آلاف امرأة اللائي تحدّثتَ عنهن، فإنّ نصفهنّ قد يَمُتْنَ غداً. ومن المحتمل أنْ أكون أنا واحدةً منهن.»

«في هذه الحالة، سيستَعْصِي عليَّ أنْ أفهم مُنقذَنا»، أجاب الأب هنري، في هدوءٍ متواصل، ومن دون أنْ يكفّ عن الابتسامِ لها بِعَيْنَيْه.

«ومع ذلك هناك أعمالٌ كثيرة من مُنقذنا أنتم لا تفهمونها، أيْ أَبانَا؟» هَمَسَتْ سيغريد، في حِدّةٍ، وهي تنتظرُ آلاماً جديدة.

«هذا صحيح تماماً. بل وثمة أشياء لا يفهمها مُؤسّس كَهْنُوتِنا، القديس الأعظم برنار دي كليرفو، أكثر منا. أشياءٌ مثل الهزائمِ الشنعاء، التي يتكبّدها أهلُنا في الوقت الحالي، في الأرض المقدَّسة. لقد كان يريد أكثرَ من أيّ آخر أنْ نرسل مزيداً من الرجال، وقد كان هو، أكثرَ منْ أيٍّ كان، يتمنّى انتصارَ قضيّتِنا العادلة على الزنادقة. ومع ذلك فقد هُزِمنا أقْسَى الهزائم،

على الرغم من إيمانِنا، وعلى الرغم من عدالةِ قضيتِنا، وعلى الرغم من أننا كنّا نحارب الشرّ. صحيحٌ إذاً أننا، نحن الرجال، لا نفهم مُنقذَنا دائماً.»

«أريد أنْ أعترف»، همستْ.

أمَر الأبُ هنري الأقنةَ بالخروج، وشدّ بطرشيله، وبارك سيغريد، وقال لها إنه على استعدادٍ ليسمعَ اعترافها.

«اغفرْ لي أيها الأب، لأنّني أذنبتُ». كانت الخشية تلْمَعُ في عينَيْ سيغريد، ولم تجد بُدّاً من أنْ تتنفّس بعمقٍ قبل أن تواصل حديثَها.

«راودتني أفكارٌ زنديقةٌ ومادية. لقد وهبتُكم فارنيم، وهَبْتُها لكُم ولذويكم، ليس فقط لأنّ الروحَ القدس قال لي بأنّ هذا الفِعْلَ عادلٌ وطيّب، ولكن أيضاً لأنني، من خلال هذا القُربان، كان أمَلِي أنْ أستجديَ رِضا القدِّيسة أمّ الربّ. وفي جنوني وأنانيتي، طلبتُها أنْ تعفيَني من ولاداتٍ أخرى، رغم أني أعرف جيداً أنّ من واجبِنا أنْ نُعَمِّرَ الأرض.»

تحدثتْ بسرعة، وهي تنتظرُ آلاماً جديدة، ما لبثتْ أنْ أتَتْ بالفعل لتَضْرِبَها. فتقلّصتْ ملامحُها، وعضّتْ شفتَيْها حتى لا تصرخ.

في الحال، لم يعرفْ ال أبُ هنري ما الذي عساهُ يفعل. ثم أخذ بياضاً، وبلّله في الماءِ البارد في دَلْوٍ بالقرب من الباب. ثم عاد بالقرب من سيغريد، ورفَع رأسَها، وبلّل جبينَها ووجهَها، ونظّف اللّعابَ والدّمَ اللذين كانا يسيلان من شفتَيْها.

وانحنَى عليها فأحسَّ بنفَسِ الهَلَعِ، وعندئذ همَس قائلا:«بُنيّتي، صحيحٌ أننا لا نستطيع شراءَ رحمةَ الرّب، وصحيحٌ أنه من الخطيئة أنْ نبيع ونشتري ما لا يستطيع أنْ يهبَه سوى الرّب. وصحيحٌ أيضاً، أنه بحكم الضُّعفِ البشري، أحسستِ بالخوفِ فطلبتِ العونَ والرحمةَ من أمّ الرّب. لكنّ هذا ليس ذَنْباً على الإطلاق. أمّا فيما يخص هِبَةَ فارنيم، فالذي حدَث أنّ الرّوح القدس قد انحنى عليك وأنْعَمَ عليكِ بتَجَلٍّ كُنتِ على استعداد لتَلَقّيه. فلا شيءَ في إرادتَك يمكن أنْ يكون أقوَى من إرادته، وقد لبَّيْتِ تلك الإرادة. إني أغفرُ لك باسم الأب، والابن والروح القدس. فأنتِ بعد الآن بِلا ذَنْبٍ، وأدَعُكِ على هذي الحالِ وأنسحب لأخلوَ لِنفسي وأُصَلّي.»

وفي هدوءٍ وضَع رأسَ سيغريد على الوسادة، ورأى أنها، حتى وهي في أعماقِ مِحْنَتِها قد بدتْ وكأنها وجدتْ بعضَ العزاء. وبخُطًى حثيثةٍ غادر الغرفة، وفي لهجةٍ جافة أَمَرَ النساءَ بأنْ يدْخلن في الحال، وهو ما فعلْن مِثْلَ رفِّ عصافير سوداء.

لم تتحركْ سُوتْ، وقد هزّت قليلاً ثوبَ الأبِ هنري، وقالت له بِضْعَ كلماتٍ لم يفهمْها في البداية، لأنّه لا هُوَ، ولا سُوتْ، كانا يفهمان اللغةَ العاميَّة. وضاعفتْ جُهْدَها، وتحدّثت ببطءٍ شديد، مُرفِقَةً كلماتها بحركات قوية. ففَهِمَ في الآخِرِ أنّ في حَوْزَتِها شراباً سرّياً مصنوعاً من أعشابٍ محظورة قادرةٍ على تسكين الألم، وأنّ الأقنّةَ يُقدّمنه لذويهم عندما يُحْكَمُ عليهم بالجَلد، أو البَتْرِ أو الإعدام.

تفحّصَ الوجهَ القاتم لتلك المرأةِ القصيرة. وتأمّل. كان يعرف أنها مُعَمّدةٌ، وأنّ من واجبِه أن يُحدّثها وكأنها تنتمِي إلى رهبانيته. وكان يعرف أيضاً أنّ أقوالَها صحيحة. كان لوسيان دي كليرفو، الذي كان كثيرَ الاهتمامِ بالأعشاب وبالحديقة، يملكُ العديدَ من التركيبات القادرةِ على إعطاء مثلِ ذلك المفعول. غير أنّ المشروب الذي ذَكَرَتْه تلك المرأةُ ربما أُعدّ باللجوء إلى السِّحر، واستحضار قِوَى الشر.

«اسمعي أيتها المرأة، قال في هدوءٍ، وبما وَسِعَهُ من وضوح. سأَسْأَلُ رجلاً عارفاً. فإنْ عُدْتُ قَدِّمِي المشروب. وإنْ لم أعدْ، اهمِلي المشروب. اقْسِمِي لي أمام الله أنك ستمتثلين لأمري !»

أقسمتْ سُوتْ بأنْ تطيع ربّها الجديد. وأسرع الأبُ هنري لكي يحصلَ على حديثٍ مع الأب لوسيان قبل أنْ يجتمعَ بالرهبان، ويصلّي من أجل تلك التي أحسنتْ إليهم.

وشرّع الأبُ لوسيان يدَيه، في وَجَلٍ. كانت تلك المشروباتُ القادرة على تسكين الآلام قويةً جداً، بالإمكان إعطاؤُها للجرحَى، أو للمُحْتَضرين، أو في حالِ بَتْرِ ذراع أو رِجْلٍ. لكنْ أبداً، أبداً فلنْ تُعطَى لامرأةٍ توشك على الوِلادة، لأننا عندئذ سنُجرّع هذا المشروبَ للرضيع أيضاً، الذي قد يولَد

مضطرباً أو مشلولاً إلى الأبد. فبعد أنْ يولَد الطفلُ سوف يصبح الأمرُ ممكناً وإنْ لم يكن للأمر، في هذه الحالة، من داعٍ بلا شك. فالأمرُ ليس مرهوناً فقط باحترام إرادةِ الربّ – فهذا قَدَرُنا في أنْ نلِد في الألم–، ولكنْ من أجل أنْ نحول دون أن يكون الثمنُ، ونحن نُسكّنُ الآلام، قُدومَ طفلٍ مشوّه. إلا أنه قد يكون من المُفيد بلا شك، أنْ نعرف ممّا يتكوّن ذلك المشروب، علّنا نتوصل بذلك إلى ابتكار مشروبٍ جديد.

وافق الأبُ هنري، في خجَل. كان من المفروض أنْ يعرف ذلك، حتى وإنْ لم يكنْ لا الطبُّ ولا النباتات تخصصه، بل الكتابة، واللاهوت والموسيقى. وأسرع في جمْعِ الإخوة، والشروع في صلاةٍ طويلة.

كانت سُوتْ مصرَّةً على طاعةِ الراهب، حتى وإن رأتْ أنْ من العارِ ألا تُسَكِّن آلامَ سيّدتها. وتصدّرت النساءَ اللواتي كُنَّ في الغرفة. وأخرجن سيغريد من سريرِها، وفَكَكْنَ شَعْرَها الطويلَ اللامع الذي كان أسودَ سوادَ شَعْرِ سُوتْ تقريباً. وغسلْنها، وهي في حال ارتعاش، ثم ألبسنَها قميصاً جديداً من القماش، وأجبرْنَها على المَشْيِ تسريعاً للوضع.

سيغريد، التي أَهْوَسَها الخوفُ من نوبةٍ جديدة، تقدّمتْ وهي تترنّحُ، وتستنِد إلى قِنَّيْن من أقنّتِها من النساء. أحسّت بالخجل، كانت تشعر وكأنها أضحتْ من النعام التي تُقتاد، لكيْ تُباع في الأسواق. وسمِعتْ الأجراس تَرِنُّ في البيت الرئيسي، لكنها تساءلت إنْ لم يكنْ الأمرُ محضَ أوهام.

وتدفّقت فيها موجةٌ جديدة من الألم، كانت تصعد من أعماقِ جسمِها، فتنبّأت، هذه المرّة، أنّ الألمَ سيدوم طويلاً. وصرختْ، وكان خوفُها أشدّ من ألَمِها، وانهارت على سريرها. ورفعتْها إحدى الأقنة من إبْطَيْها، فيما صرختْ فيها الأخرياتُ بأنْ تُساعِدَهُنّ، وأنّ عليها أنْ تدفَع. لكنّ سيغريد لم تجرأ، وأُغمِيَ عليها.

وحين مال الغسقُ إلى الظلام، وحين خرستْ الشحارير، هدأتْ سيغريد. لقد بدتْ الآلامُ التي قد تدانتْ خلال الساعات الأخيرةِ وكأنها سكنتْ فعلاً. كان ذلك نذيرَ شُؤم، وكانت سُوتْ ورفيقاتُها يَعْلَمْنَ ذلك. فكان لا بد من التصرّف.

خرجتْ سُوتْ إلى الظلام، ترافقُها إحدى الأقنة. وعَبرَتا خلسةً البِناية التي كانت همساتُ الرهبان وتراتيلهم لا تكاد تجتازُ جدرانها السميكة، وتوجّهتا نحو الزريبة. وساقتا كبْشاً يافعاً بواسطة مِطْوَلٍ من الجِلْدِ واقتادتاه إلى الغابةِ الصغيرة المحظورة. وعَقَدَتا المِطول حول رِجْلَيْه الخلفيتين، وأطلقتا الطّرفَ الآخر من المِطول من فوق غُصْن مَتين في شجرةٍ بلوط. واجتذبتْ سُوتْ المِطولَ فتدلّى الحيوانُ في الهواء. وارتمتْ رفيقةُ سُوتْ فوق الحيوان، وجذبته بكلّ قِواها نحو الأرض، ثم أخرجتْ سكيناً وقطعتْ عُنقَه. وأسرعتا في شدّ الكبشِ أكثر إلى أعلى وهو ما يزال يتخبّط، فيما كان الدّمُ يتدفّق من كلّ الجوانب. وبعد أنْ ربطتا الحبلَ بأحد الجذور، خلعتا ملابسَهما السوداء ووَقَفَتا، عاريَتَيْنِ، تحت دفْقِ الدم، الذي راحتا تطليان به شَعْرَهما، وصدرَيْهِما وحِجْرَيها، وهما تتضرّعان بصلواتهما لـ «فرير»، إله الخصوبة.

وحين بزَغ الفجرُ، اجتذب سيغريد من خمودِها ما ظنَّته نيراناً من جهنَّم. فتضرّعتْ من جديد للقديسة العذراء بأنْ تُنقذَها من هذا الوجَع، بل وأنْ تأخذها إليها منذ الآن، إنْ كان هذا سيأتي لا محالة، وعلى الأقل أنْ تخلّصها من آلامها.

الأقنةُ اللواتي غفَين، أفقْنَ على حين غِرّة. وتلمّسْن جسدَ سيغريد، وهنّ يتحدّثن بسرعة فائقة بلُغتهنّ المُبهمة. ثم شرعْن في الضحك، وابتسمْن لها، مثلما ابتسمْن لِسُوتْ، التي كان شعرُها مُبللاً. قطراتٌ باردةٌ سقطتْ من شَعْرِها عندما انحنتْ على سيغريد. وقالت لها إنّ الموعدَ قد حان، وأنّ ابنَها سيولَدُ قريباً، ولكنْ عليها حقاً أنْ تبذلَ جهداً أخيراً. وأمسكن بسيغريد من إبْطَيْهَا وأجلسنَها. فصرختْ سيغريد بدعواتٍ غامضة. ثم أدركت أنها قد توقظُ ابنَها إسكيلْ وتثيرُ فزعَه، فعضّتْ شفتيَها المُتْلَفَتَيْنِ، فصارتا تدميان من جديد حتى ملأ الدمُ فاها. لكنْ في خِضَمِّ هذه الآلام التي لا تُحتمَل، عاد الأملُ، وكأنّ أمّ الربِّ تقفُ حقاً إلى جانبِها، وتتحدّثُ إليها في رقَّة، وتدعوها لسماع أقوالِ الأقنةِ العاقلات الوفيّات. وأعانت ولدَها وصرختْ، وعضّت شفتَيها مرّةً أخرى حتى تكفّ عن صُراخها. وهنا، سمعتْ ترتيلَ الرهبانِ

الذي تعالى، ثناءاتٍ أو تسبيحاً من أجل إخمادِ فزَعِها.

وفجأةً انتهَى كلُّ شيء. على الأرض رأتْ من خلال دموعِها شيئاً صغيراً مُضرَجاً بالدّمِ، بدا وكأنه ينتمِي لواحدٍ من طقوس قُربان الأقنّة. وأسرعتْ النساءُ بالماء وبالأقمطة، وفي سوْرةِ يأسٍ ارتمتْ سيغريد إلى الوراء، وكأنها تخلّتْ عن مقاومتِها.

أحسّتْ بهنّ مُنْهَمِكاتٍ وهنّ يتشكّين في صَخَبٍ، وسمعتْ بعضَ فرْقعاتٍ ثم صرخةً، ضجّة طويلة وثاقِبَة بالقدْرِ نفْسِه، ولم تكنْ تعني إلا شيئاً واحداً.

«إنه ولدٌ، قالت سُوتْ، وهي تَشِعُّ فرحاً. صار للسيدة ولدٌ قويّ البنية، مع كلّ الأصابع وأصابع الرجلين في مكانِها. وقد وُلِد مُشْعِرَ الرأس!»

ووَضَعْنَه، نظيفاً ومُقمَّطاً، على صدْرِ سيغريد المتألم المُنْتَفِخ. وتفحَّصتْ هذا الوجهَ الدقيقَ المجعّدَ، ودهشتْ لقوامِه الصغير. وحكّتْ جسمَه في لِينٍ، ففكَّ أحدَ ذراعيه، وظلّ يحرّكه في الهواء إلى أنْ مدّتْ له إصبَعاً ما لبث أنْ أمسكَ به وشدّ عليه.

«بأيّ اسمٍ سيُسمّى؟» سألت سُوتْ، وقد احمرَّ وجهُها من فرط تهيّجِها.

«سيُسمَّى آرنْ، وَفْقَ أرناسْ، هَمَسَتْ سيغريد، مُنهَكةً. أرناس ستكون بيتَه، لكنه سيُعمَّد هنا، في فارنيم، على يدِ الأبِ هنري، حين يَئِينُ الأوان.»

الفصل الثاني

نال جوهان، ابنُ الملكِ سفيركر، الموتَ الذي استحقّه. صحيحٌ أنّ سفيركر قد عمِل بنصائح الأبِ هنري، وعمِل على أنْ تعودَ زوجةُ اليارل الدنمركي إلى هالاند. لكنّ الملكَ سفين غرات ويارلــ (هُ) كلاهُما رفضا في ازدراءِ الجزءَ الثاني من مخططاتِ الأبِ هنري، أيْ ترتيب الزواج بين الابن الفاسق، وبين الدنمركية المُهانَة، تفادياً للحرب، مع توطيدِ قرابةِ العَصَب.

لم تقعْ مسؤولية هذه الأزمة على الحلِّ الذي اقترحه الأبُ هنري، بقدر ما ارتبطت بإرادة سفين غرات في خوْض الحرب. فكلّما تقدّم الملكُ سفيركر بعروضِ الوساطة إلا وازداد سفين غرات نزوعاً إلى الصراع. لقد أحسّ، بِحَقٍّ، أنّ مَلِكَ عائلة غوتار ما فتىء يثبتُ ضعفَهُ باقتراحاته المتواصلة، الرامية إلى تفادي تلك الحرب.

كان سفين غرات مُوقِناً كلّ اليقين بانتصاره في تلك الحرب، إلى الحد الذي جعله يَشْرَعُ في تقسيم مناطقِ نفوذ غوتالاند ما بين مَنْ يثِقُ فيهم من رجاله. وفضلا عن ذلك، فقد قيل إنّ ثمةَ امرأةً فائقةَ الجمال تُدعَى سيغريد، كان قد وعَد بأنْ يُزوّجها لواحدٍ ممَّنْ يُثبت من رجالِه شجاعةً فائقة في ما كان سيأتي من غزوات.

وفي الأخير كان سفيركر قد كلّف الكاردينال نيكولاوس بريكسبير الذي كان مُتّجِهاً إلى روما، بأنْ يزور سفين غرات، وهو في طريقِه إلى هناك، حتى يُعقّلَه ويُقنِعه بأن يجنحَ إلى السِّلم.

وفشِل الكاردينال في المُهمة، مثلما فشِل من قبلُ في أنْ يُكرِّس مُطراناً

على غوتالاند وسفيلاند الموحّدتين.

لقد فشل تعيينُ مطرانٍ لأنّ عائلتي سفير وغوتار كانتا عاجزتَين عن الاتفاقِ حول موقعِ إنشاء الكاتدرائيَّة المُطرانية – ومن ثمّ حول مقرّ المطرانية، إذ رغبتْ عائلةُ سفير في أنْ يكون مقرُّها أوسترا أروس، فيما اشترط الملكُ سفيركر، لينشبينغ.

كانت مهمّةُ الكاردينال الدنيوية – وهي الحفاظُ على السلام– تكمُنُ أكثر من ذلك في أهميةِ الكنيسة نفسِها، بمقدار ما كانت هذه الأخيرةُ مهيئةً لكي تضمَّ بلاداً أخرى موحّدة، إلى ممتلكاتِ القديس الأب. وقد فشلتْ لسببٍ بسيط ومعقول وهو أنّ ملك الدنمرك كان على يقينٍ من انتصاره. لقد كانت أقاليمُه التي غزاها حديثاً تقع تحت إمْرَةِ إسكيل، مطران لوند، ولذلك لم يرَ سفين غرات أي مبرّر مسيحي في الامتناع عن خوض تلك الحرب.

لم يشرعْ الملكُ سفيركر في أيّ إعدادٍ للدفاع عن البلاد، لفرط انشغاله بالبكاء على ملكته، أُولفيلد، وبالإعدادِ لزواجه الجديد بِـ أُولفيلد أخرى، المترمّلة هي نفسُها مرتين واسمها ريكيسيا. ولعله اعتقد أيضاً أن الوساطات التي أمّنها لنفسه لدى الأديرة سوف تنقذُه، هُوَ وبلاده.

لم يكن ابنُه الفاسق يؤمن مطلقاً بسلطان الصلوات. وإذا كان الدنمركيون قد خرجوا من المعارك منتصرين، فلم يكنْ هو يملك من شيءٍ واضح يأملُ فيه. فلذلك السبب دعا التينغ للاجتماع في قلعة فريتا، حتى ينظّم الدفاعَ ضد الدنمركيين.

لم يدركْ إلى أيّ حدٍّ كان ممقوتاً بسبب إثمه. فلو لم يكن أبوه طاعناً في السن وواهناً، لكان أصْدَرَ فيه حُكماً بالإعدام لإثمه ولِكَذبِه – وهو ما كان الجميعُ مقتنعين به، إلا جوهان. فما من رجلٍ شريف يرغب في الذهاب إلى الحرب والمخاطرة بحياته، من أجل الدفاع عن قضيةِ رجلٍ فاسق، وأسوأ أنواع قُطّاع طرقِ النساء.

ومع ذلك، فقد كانوا كُثْراً في الذهاب إلى تينغ دي فريتا، مُفْعَمين بالآمال، لكنْ لأسباب مختلفة جداً عن تلك التي تصوّرها جوهان. فما إنْ

رأى جوهان عددَ الرجال الذين حضروا حتى اختلطت عليه الأمورُ كلياً.

لقد جاءوا لكي يقتلوه. وهو ما فعلوا. ولم يحرّك رجالُ حرسه الخاص ساكناً للدفاع عنه. وفضلا عن ذلك فلم يُصِبْهم أحدٌ بأذىً. وقد قُطعت جثةُ جوهان إرباً إرباً، وأُلقِيَ بها إلى الخنازير في زريبة سكارا الخلفية، حتى لا تقام له أيُّ جنازة مَلَكيَّة.

أقبل الشتاءُ مبكراً في عام البركة ١١٥٤. وعندما اشتدَّ الجليد، قاد الملك سفين غرات جيشَه إلى سكونيا، ثم إلى إقليم فينفيدين، في سمالاند. بطبيعة الحال، فقد أحرق جيشُه ونهب كثيراً في طريقه، لكنه لم يتقدّم إلا في بطءٍ بسببِ كثرة الثلوج في تلك السنة. وكانت الخيول وبهائمُ الجرّ تتقدم في عناءٍ جمّ.

وأكثر من ذلك، فقد ظل فلاّحُو فارند يقاومون. فقَبْل جيلٍ واحد تعرضتْ منطقتُهم للنّهب على يد الملك النرويجي سيغورد جورسلفار الذي قرّر، باسم المسيحية، أنْ يوجّه إليها حملةً صليبية. وإنْ كان قد وسِعه أنْ يأسِرَ خمسةً أو ستةً من الأقنةِ الهاربين، الذين خيّرهُم ما بين حدّ السيف والتعميد، فإنّ أكثرَ ما يذكره الناسُ عنه استيلاؤُه على أكثر من ألفٍ وخمسمئة رأسٍ من الماشية.

قرّر أهلُ فارند، الذين لم يكترثوا كثيراً لمعرفةِ إنْ كانت امرأةٌ مُكرهةٌ، أو نزواتُ ملكٍ، تُبرّر أسبابَ تعرّضهم للنهب، أثناء ذلك التينغ، أنه لو قُدّر لهم أنْ يموتوا فخيرٌ لهم أنْ يموتوا كما يموت الرجال، على إيمانِ أجدادهم. فالموتُ كما تموتُ الماشية، أو الانتهاءُ إلى قِنٍّ دون قتال، خزْيٌ عظيم. وفضلا عن ذلك، فلا أحدَ كان على يقين منْ أيّ شيء، إلا منْ شيء واحد، وهو أنّ الذي لا يقاتِل، أو الذي يقاوم بمفردِه ضد جيشٍ زاحف، سيموت بالتأكيد. وما عدا ذلك فهو شأنٌ من شؤون الآلهة.

لقيَ الملكُ سفين غرات هموماً كثيرة حقاً. كان أهلُ فارند يدافعون عن أنفسهم خطوةً خطوةً من خلف حظائرَ كانوا يُقيمونها على الدروب. وكان لا بد من وقت طويلٍ، ومن معارك كثيرة للاستيلاءِ على تلك الحظائر.

وإنْ تحقّق النصرُ فهو دائماً نصرٌ مرير. وكان إذا بدتْ القضيةُ واعدةً عند المساء، عند ساعةِ توقُّفِ المعارك لتناوُلِ الطعام، والاستراحةِ والصلوات، يكون المدافعون قد اختفوا منذ الصباح الباكر. لقد كان هؤلاء يتجمّعون ثانيةً بعيداً قليلا عن ذلك المكان، مع مَدَدٍ من الناس الذين لا يجدون بُدّاً من الدفاع عن بيوتهم. وهكذا تبتدئُ كَرّةٌ أخرى.

بدأ جنودُ الجيش الدنمركي يفرّون بكثافةٍ في أثناء الليل، ويعودون إلى ديارهم. أما مَنْ كانت الحربُ مِهنتَهم فقد كانوا يُدركون أنّ الشتاء متقدّمٌ جداً. وحتى وإنْ قُدّر لهم أن يهزِمُوا أولئك المزارعين المَلاعِين في النهاية، فقد كانوا سيصلون إلى سهولِ فاسترا غوتالاند في الربيع، وعندئذ سيقَعون في الوَحْل والقمامة. وحتى يزيدوا الطينَ بلة كان أهلُ فارند يدافعون عن أنفسهم بطريقة مُؤذية للغاية، فيقتلون أو يجرحون أكبرَ عددٍ ممكن من البهائم. وفي الليل يتسرّبون في جماعات صغيرة، ويداهمون الحرّاس، ويُبقرون بطونَ الخيول والماشية قبل أنْ تداهمهم التعزيزات. ثم يختفون في الظلام.

فأيُّ حصانٍ يتعرّض للضرب بهذه الكيفية يموت بسرعة. أما الثيرانُ فهي أكثر مقاومة، لكنها تموت أيضاً عندما تخترق ضربةُ مذراةٍ أو رُمْح بطونَها. كان في حوزةِ الجيش الدنمركي، بالتأكيد، الكثيرُ من لحوم الدباغة، لكنّ ذلك لم يكن سوى عزاءٍ غير ذي قيمة، لأنهم كانوا، على ذلك النحو، يستهلكون الأدواتِ الضرورية للنصر.

وحين أقرّ سفين غرات، في الآخر، بأنه لنْ يكسبَ الحربَ، في تلك السنة على الأقل، قَسّم جيشَه إلى قسمين حين العودةِ إلى البلاد. شخصياً، سيعود إلى الجزر الدنمركية فَيَعْبُر سكانيا. أمّا يارْلـــ (هُ) فسيقودُ النصفَ الآخر من القوات لينحدر بها ثانية إلى مقاطعته في هالاند. وأوفد سفين غرات وُسطاءَ لإعلان نهاية الحرب، ما دام هو نفسُه، ويارلـــ (هُ)، وجنودُه قد تقهقروا.

بيد أنّ الناس في فارند، لم تكن تنقصهم دوافعُ الانتقام.

وطال الحديثُ عن بليندا التي جمعتْ نساءً كثيرات. لقد استقبلن اليارل ورجالَه بالقرب من نيسا، بالخُبز وكميةٍ من اللحوم المملَّحة. وقدَّمْنَ وليمةً مَهيبة، سقيْنَهَا بالجعة القوية.

غادر اليارل وحاشيتُه الطاولةَ وهم يترنّحون، ليلتحقوا بأحدِ مستودعات الحصيد، بينما اكتفى الجنودُ بجلودٍ يَقُون بها أنفسَهم من الثلج، وهم لا يقِلّون ثمالةً عن الشخصيات الصبوحة. وفي تلك الأثناء استعدّتْ بليندا ورفيقاتُها كثيراً. فقد أَضَأْنَ المشاعِل ونادَيْنَ الرجالَ المُختفين في الغابة.

وعندما أخذ المعسكرُ في الشخير أحْكَمْنَ غَلْقَ المستودع وأضْرَمْنَ النار في وقت واحد في الجهات الأربعة. ثم أسرْنَ أو قَتَلْنَ الجنودَ النائمين.

وفي اليوم التالي، أغرقن في جَذَلٍ، آخرَ الأسرى تحت ثلوج نيسا. فقد حَفَرْنَ حُفرتين واسعتين، وأغْرقن فيها الأسرى المربوطين بعضِهم إلى بعض. وكأنّ الأمرَ مجردُ خطٍّ قاعٍ عادي.

وبذلك كان الملكُ سفيركر قد كسب الحربَ ضد الدنمركيين، من دون أنْ يُجنّد فيها رجلاً واحداً.

من المؤكد أنه اعتبر أنّ الانتصـارَ سببُه شفاعاتُ الرهبان العديدة، والعنايةُ الإلهيَّة. لكنّ أخلاقَه أبتْ عليه إلا أنْ يُنبىء بليندا ورفيقاتِها. فقد قرّر أنّ نساء فارند اللواتي لَثبتــن مؤخراً فحولةً في الدفاع عن البلاد، سوف يُمْنَحْنَ في المستقبل حقّ الإرثِ مثل الرجال تماماً. فضلا عن أنّهُنَ يستطعن أنْ يحملن، كعلامةٍ فارقة، وِشاحاً أحمر اللون مُطرّزاً بصليبٍ من الذهب. وفي أثناء زواجِهنّ، سيكون لنساءِ فارند شرفُ طَرْقِ الطُّبول أمام موكب الزّفاف.

لو قُدّر لسفيركر أنْ يعيش طويلاً لكانت الأوامرُ اكتسبت مزيداً من قوّةِ القانون. لكنّ أيام الملك سفيركر كانت محسوبة. إذْ كان سيُغتال قريباً.

* * *

من المتعذر بناءُ حصنٍ منيع. فإنْ توفّرت دوافعُ كافية لمحاصرة منطقة نفوذٍ وحرْقها، فإن ذلك سيتحقّق. لكنّ المسألة أنْ نعرف إنْ كان

لذلك وزنٌ وقيمة، وكم من المحاصَرين سوف يُقتَلون بالسهام، أو يُسحَقون تحت الحجارة، وكمْ منهم سيخسِرون، إمّا الحماسة، أو الصحة، في أثناء الحصار.

كان سير ماغنوس يعِي ذلك تماماً، وقد تأمّل الأمرَ ملياً في أثناء عملية البناء. لأن لا أحدَ، عندئذ، كان يسعُه أنْ يعرفَ ما الذي كان سيحدُث بعد موت الملكِ سفيركر العجوز، موتِه الذي لم يكنْ ليتأخّرَ كثيراً.

كلُّ شيء كان ممكناً. فإنْ ورِث ابنُ سفيركر البكرُ، كارل، العرشَ، فلن يتغيّر شيءٌ حقاً. لقد حرِصتْ سيغريد على أنْ تُوَطّد علاقاتها بسفيركر، فوَهَبَتْ فارنيم باسمه هُوَ أيضاً.

لكنْ في المقابل، كان الناسُ يجهلون كلَّ شيءٍ عمّا كان يجري هناك في سفيلاند. فهل كان واحدٌ أو كثيرٌ من عائلةِ سفير، يستعدّ للقتالِ من أجل العرش؟ وهل كان لرجُلٍ من رجال فاسترا غوتالاند أفكارٌ مماثلة؟ أو حتى شخص من سلالة سفيركر، أو من سلالةٍ قريبةٍ منه، أو حتى من سلالةِ الأعداء؟ في انتظار ذلك، يجب أنْ يستمرَّ البناء.

تقع أرناس فوق أنفِ جبلٍ يتوغّل في بحيرة فانيرن. كانت القلعةُ إذاً محميّةً بالماءِ من جوانب ثلاثة. بُرْجٌ من الحجارة، بطول سبعةِ رجالٍ انتصبَ إلى جانب البيت القديم. لم تكن معاقلُ الحصن التي تحمِي البرجَ قد أُنجزِتْ بعدُ، وكانت الدفاعات تتكوّن أساساً من حظائرَ متكونةٍ من جذوع السنديان. هناك إذاً كان عملٌ كثيرٌ في الانتظار.

صعَد ماغنوس إلى أعلى البرج وتدرّب على رَمْيِ القوس، مُستهدِفاً حُزمةً من القشّ على الجانب الآخر من خَنْدَقَيْ المعقِل. كان مدى القذيفةِ مُذهلاً حقاً كلّما كان القذفُ على ذلك النحو من عَلٍ. وبتدرُّبٍ قصيرٍ نسبيّاً كان يَسَعُ الرّامي أنْ يقيسَ الزاويةَ حتى يُصيبَ الهدف بدقّةٍ، مِقدارَ ذراعٍ تقريباً. أرناس إذاً، ستكون عصيةً على الاقتحامِ في شكلِها الحالي، على الأقل على أي فِرْقَةِ جُندٍ حين يسعون للتموّن وهم عائدون من أيّ حربٍ من الحروب. وقريباً ستصبح أرناس أكثرَ مناعةً حتى وإنْ استغرق ذلك وقتاً

طويلا. حول هذه النقطة، كانت نوايا سيغريد تختلفُ عن نوايا ماغنوس.

كان ماغنوس يدركُ حقّ الإدراك أنها في الغالبِ تدركُ مآربَها كلّما شبّ خلافٌ بينهما. بل وكان يعرف أيضاً أسلوبها في التصرّف حتى تُوحي بأنها تُطيع زوجَها وسيّدها في وفاءٍ، في حينِ كانت تجعله طوْعَ أمرِها.

كان حَسْبُها أن تفكر ثانيةً في مقرّ الشّرفِ في عهد الأجداد النرويجيين. في البيت القديم كان هذا المقرُّ، وجدرانُ الجانب الصغير من القاعة، مُزيّنةً بنقوش على الخشب. باخرةُ فايكينغ وهي تمخرُ الأمواج، وأفْعَى ضخمة، نَسِيَ الجميعُ اسمَها، تُحاصرُ كامِلَ النّقشِ والنصّ معاً. فيما كانت الرُّونيات قديمةً ومن الصعب فكُّ رموزها.

اقترحت سيغريد أنْ تُحرقَ كلُّ تلك الأشياء الوثنيَّة القديمة، ما دام كلّ شيءٍ سيُعاد بناؤُه من جديد. كان يجب تزيينُ الجدران بِبُسُطٍ حديثة تُظهِر المسيحيين وهم يدافعون عن مدينة القدس المقدسة، والكنائسَ وهي تُشيّد، والوثنيّين وهم يُعمَّدُون.

وجد ماغنوس عناءً جمّاً في أنْ يقبَل بفكرةِ حرْقِ نقوشِ أجدادِه البهيّة. فلم يعد الناس يصنعون مثلَها، وعلى أي حال لا يمكن العثورُ على شبيهاتِها في كامل فاسترا غوتالاند. ومع ذلك، فحين قالت سيغريد إنّ تلك الأعمالَ مُلحدةٌ ووثنيَّة، آتتْ كلماتُها أُكلَها. فهي في هذه النقطة، مُحِقّة.

لكنّ السلفَ الذين نقشوا تلك التّنانين، وتلك الرونيات لم يكونوا يعرفون زخارفَ غيرها. ولم يبقَ منهم اليوم سوى أعمالِهم الجميلة. ففي ذِهْنِ مَنْ كان يتأمّل تلك النقوشَ، فهي تَرِنُّ كصدًى لصوتِ سالفِ الزمان، دون أنْ تُراوِده أفكارٌ مُلحِدة. كان المشهدُ وكأنّ الناظرَ ينظرُ إلى طلوع شمسٍ ساطعة، وفي ذلك ما يوحي بأشياء كثيرة. ناهيك عما اكتسته هذه النقوشَ في الماضي من دلالة اختلفتْ عن دلالتِها في الحاضر، في عهد مُنقِذنا. لكنّ ماغنوس لم يسعه الإفصاحُ عن ذلك بوضوحٍ عندما كانت سيغريد تتحدّث عن الإلحاد، وعن ضرورة تقويضِ تلك النقوشِ بالنار. كانت وكأنها على حقٍّ، وكان وأنه على خطأ.

وفيما كانا يتجادلان حول التنانين والرونيات، أثيرت أيضاً مسألةُ الذين كانوا يعرفون فنّ البناء – سفارْت، وغُور، وبعضٌ من أطفالهم. فهل كان يجب استعمالُهم في التحصينات في أوّل الأمر، أم كان ينبغي قبل كل شيءٍ إضافةُ عازلٍ، أو جناحٍ، إلى البيت الرئيسيّ؟

في البيت القديم كانت المدفأةُ تقع في وسط الغرفة، فكانت الحرارةُ تتوزّع بشكل متجانسٍ تقريباً. كان الأقنةُ والماشيةُ يقيمون في جزءٍ من البيت، فيما كان السيدُ وأسرتُه وضيوفُهم يتحرّكون في الجزءِ الذي يقع فيه المقرُّ الشرفي. وتلك كانت أفضلَ طريقةٍ لتوفيرِ الحرارةِ في أيام الشتاء القارسة.

لكنّ رُؤىً مختلفةً تماماً ما انفكتْ تُراود سيغريد منذُ بعض الوقت، كانت بالطبع، تستعيرُها من رهبانِ فارنيم. وكان ماغنوس ما يزال يذكرُ دهشتَه وشُكوكَه عندما رسمتْ المُخطّطَ على الرَّمل، تحت عينيه. كلُّ شيءٍ كان جديداً، ولا شيءَ فيه كان يُذكّره بما كان يفعله الناسُ قديماً.

البيتُ الذي تخيّلته سيغريد كان مُقسّماً إلى قسمين، يتوسّطُهما بابٌ كبيرٌ يفضي إلى بَهْوٍ. ومنه يتفرّعُ مَعْبَرٌ إمّا إلى الجناحِ المخصّص للسيد، وإمّا إلى الجناح المخصص للأقنة والماشية. وكان هذا الأخيرُ مُقسّماً أيضاً إلى مُستويَيْن، الطابقِ المخصص للمَتْبَنَة (مستودع التبن)، والطابق الأرضي المخصّص للزرائب والإسطبلات. لم يكن في هذا الجزءِ من البيت مِدفأة، بل كان إيقادُ النار فيه محظوراً حظْراً كاملاً.

وفي الجزء الآخر، الذي سوف يَتْبَعُ لهما، مع المقرِّ الشرفي، وعلى نحو ما كان في السابقِ، سيُشيَّد الجزءُ المثلّثُ العلوي من الجدار الخارجي، بالحجارة كُلّياً. وستغطّي الأرضَ بلاطاتٌ ضخمة، بحيث تصبحُ المدفأةُ التي ستكون تقريباً بِعرْضِ كاملِ الجزءِ المثلثِ العلوي من الجدار، مُغطاةً بِكُمّ مدخنةٍ ضخمة مزوّدةٍ بمنافذَ للدخان، ومبنيةٍ بالحجارة.

وأبدى ماغنوس في ذلك اعتراضاتٍ عديدة، لكنّ سيغريد سرعان ما كانت تجدُ لها ردوداً في كلّ مرّة.

«إذا لم يكن لدينا نارٌ على امتدادِ عرْض البيت، سيكون الجوُّ بارداً جداً في أثناء أيام الشتاء القارسة، أليس كذلك؟»

«لا، لا يا زوجي العزيز، ويا سيدي. فما دامت النارُ ستظل مشتعلةً على مدى اليوم، سوف يُحْدِث الجدارُ الحجريّ حرارةً متواصلة، ويحتفظُ بها في أثناء الليل. ومن دون كلّ فتْحاتِ المداخن هذه في السّقفِ، لنْ يتسرّب البردُ إلينا مثل الشيطان، وبذلك سنحتفِظُ أفضل ما يمكن بالحرارةِ في المدفأة.»

«لكنْ من دون فتحاتِ المداخن في السّقف، سيأخذنا السعالُ بلا انقطاعٍ بسبب الدخان! ناهيك عمّا سيصيبُ عيونَنا من احمرار!»

«لا، لا يا زوجي العزيز ويا سيدي. الدخانُ سيصعدُ مباشرة في مجاري المدخنة المبنيّة بالحجارة، الواقعة فوق المدفأة.»

«لكنّ الأقنةَ والماشية لن يحصلوا على نارٍ في الجزء المخصّص لهم من البيت...فكيف سيتحمّلون الشتاء؟ ألَنْ يصبحوا مهدّدين بالموت من شدّةِ البرد؟ وعندئذ سوف نصبحُ بلا أيّ شيءٍ حين يأتي الربيع.»

«لا، لا يا زوجي العزيز ويا سيدي. لو قسّمنا البيتَ إلى قسمين ستستقِرُّ الحرارةُ التي تُنتجها البهائمُ في المستوى السفلي، ومع كلّ الكَمِّ من التّبن في الطابق العلوي، سيكون الرجالُ والأقنة على السواء في مَأْمَنٍ من البرد.»

«نعم، لكنْ لو بَنَيْنَا كما تقولين، بأخشابٍ مُدوّرة متراصّة، فسيصل أزيزُ الريح والثلج إلى الآذان! لا بد إذاً من أن يكون البناءُ على نحو ما كان في ما مضى، بالخشبِ القائم!»

«لا، لا يا زوجي العزيز ويا سيدي. سيَشْرَعُ النجّارون في صقْلِ الأخشاب المُدوّرة ما وسعهم، حتى تتلامس فيما بينها. بعد ذلك سنُغلق الشُّقوقَ بالكتّان المزفّت، ونُؤمِّنَ إِحْكَام السدّ بالقطران الذي نضَعَهُ على الجدران الخارجية والداخلية – مثلما تُبْنَى الكنائسُ في النرويج، بالخشب القائم.»

هكذا كانت أقوالُ سيغريد. وما كادت تنتهِي من ذِكْرِ الكنائس النرويجية

المبنيّة بالخشب، والتي لم تخلُ ديكوراتُها من التنانين، حتى أضافت، وكأن شيئاً خطَر لها فجأة، أنها على استعدادٍ للاحتفاظ بمقرّ الأجداد الشرفي، وبزينتِه التي قلّما كانت زينةً مسيحيَّة. وفي غبطةٍ وارتياح، قبِل ماغنوس، عندئذ، بأن يُشرَع أوّلا في أشغال بناءِ البيتِ الأساسي الجديد، مادام البيتُ قد حازَ على الرّضا.

بالطبع، كان ماغنوس يدركُ تلك الطريقةَ التي تتصرّف بها سيغريد حتى تصلَ في الغالب إلى أهدافِها. بل وقد حدَث أنْ أحسّ بفَوْرَةٍ منْ الغضبِ تصعدُ إلى وجهِه وهو يفكّر أنّ زوجتَه صارت تتصرّف وكأنها سيدةُ أرناس الحقيقية.

أرخَى ماغنوس وَتَرَ القوسِ وصاح في أحدِ الأقنةِ في الحُفرة، لكي يَلُمَّ السِّهام ويُعيدها إلى مستودع الأسلحة. لكنّ الذي رآه لم يكن مُبْهِجاً وحسب، بل كان مُطمئِناً جداً أيضاً.

كانت القلعةُ تمتدّ أمام عينيه، وكان المسكنُ يسْطَع بِجُدرانه المُزفّتة وسقفِه المُغطّى بالعُشب.كلُّ البناءات كانت مغطّاةً بالعشب، بدلا من القصَب التقليدي الذي توفّر بغزارةٍ في ذلك المحيط. ولم يكنْ ذلك فقط من أجلِ الاحتفاظ بالحرارةِ على نحو أفضل في داخل المسكن. فبفضل هذه التسقيفة الجديدة لنْ يُهدّد أيُّ سَهْمٍ مُلْتهب بإضرامِ النار في كامل البناية.

وعلى الطّرف الآخر من المسكن الريفي الأنيق، كانت إحدى الزرائب الممتدّة طُولاً بكاملِها، قد صارت في حِمَى الحصنِ المرتفع الذي بُني أوّلا. وعند أقدامِ الحصن، في أسفل البُرج، أقيمت مخازنُ للبذور والأسلحة. وفي هذا الوضْع صار في وُسْعِ ماغنوس أنْ يُنظِّم دفاعاتِ أرناس في نصفِ يومٍ واحد.

نظرَ في اتجاه داخل الأراضي. وكأنّ ضيعةً صغيرة قد طفتْ على الجانب الآخر من الحفرة. كانت المدبغة، بروائحِها المقزّزة، تقع على حافةِ الماء في ما وراء البيوت الأخرى. ففيها كانت تُهَيَّأُ جلودُ الثيران وفراءُ السمّور والقاقُم التي كانت تُدِرّ كمّاً كبيراً من قِطع النقد الثمينة،

الراجحَةِ الميزان في ليديزة. وبالقرب من الحصن، كانت البيوتُ تصطفُّ على صفَّيْن: الاسطبلاتُ، وبيوتُ الأقنة، ومَشْغَلُ قَطْعِ الحجارة، والمسبكُ، ومخازنُ المؤونة، والمطابخُ، ومصنعُ البراميل، ومَشْغَلُ النسيج. وقد صار عددُ الأقنةِ والماشية منذ تلك اللحظةِ ضِعْفَ ما كان عليه قبل بضعةِ أعوام.

كان ذلك يشبه المعجزة، وكان من الصعب فهمُه أيضاً. كان ماغنوس قد تعلّم من والده، ما كان قد تعلّمه والدُه نفسُه من أجدادِه، عددَ الأقنةِ والماشية تماماً، التي يسع أرضاً بعينِها أن تُغذّيهم وفقاً لحجمِها.

وهنا، تحت عينيه، راح ماغنوس يتأملُ قريةً من النّمل. فلو كان الأمرُ توقّف على سُلطتِه الخاصة لكان اكتفَى بأقلّ من ذلك العدد بضعفين، لكنّ أرناس ما انفكت تكبُر على مرّ الشهور. فالغابةُ التي كانت فيما مضى تصل إلى قَدَمَيْ الحصن صارت الآن على مدى سِهامٍ. كانت من قبلُ لا تكاد تُرى من بعيدٍ. كانت الغابة توفّر الخشبَ الضروري لكل هذه البناءات الجديدة. وقد امتدت حقولٌ ومراعٍ جديدةٌ محلَّ الغابة بكاملها.

كان ماغنوس يشتري ما لم تكنْ أرناس تُنتجه، سواء من الملح أو من خدمات سيّد مسابك بيالْبو الذي كان يُزيّن الأبوابَ بالحديد المُطرَّق. وعلى الرغم من هذه النفقاتِ فلم ينضبْ احتياطُه من قِطَعِ الفضة، وكأنّ تلك القِطع تتضاعف في خزائنِه المختومة تحت قِببِ البُرج الرئيسي في الحصن.

كان الملكُ سفيركر قد بدأ يضربُ النقدَ في ليديزة، قبل شتاءَين اثنين. فمهما عادت بنا الذاكرةُ بعيداً إلى الوراء، بل وحتى إلى زمنِ الوثنيِّين، فهو الملكُ الوحيد الذي آمن بالنّقد وسيلةً للدفع. كان معظمُ التجار يخشون هذه الوسيلة الجديدة ويؤثرون عليها الطريقةَ التقليدية القائمةَ على مُقايضة الملح، والحديد، والجلود، والزبدة والفراء، بأكياسٍ من الحبوب.

لكنّ سيغريد كانت قد بذلتْ ما في وسعِها حتى تُقنع ماغنوس بأنْ يتبنَّى منذ البداية، ذلك النظامَ الجديد، وأنْ يكون أوّلَ من يَقْبَلُ المالَ من دون تردّد. لقد عرضتْ عليه الأمرَ مؤكدةً أنه، بهذه الكيفية، سيساعد الملكَ سفيركر في أنْ يُدْخِلَ ابتكاراً لم يكنْ أحدٌ يؤمن به من قبل. بذلك سيحافظ أيضاً على

نوايا الملك الطيبة تجاه أرناس.

في البداية إذاً، حصل ماغنوس مقابل إحدى المنافعِ، على عشرةِ أضعاف المالِ الذي كان يتقاضاه حتى تلك اللحظة، منذ أنْ صار الجميعُ يقتادون بمنهاجه الجديد. لكنْ، ما كاد يصبح سبّاقاً لهذا النظامِ حتى ساهَم ذلك في مُضاعفةِ ثروتِه في بضعةِ أعوام. وما فتئت سيغريد تؤكّد أنّ الدفعَ بواسطة قِطَع النقدِ سوف يتّسِعُ أكثر فأكثر، وتُلِحُّ على أنّ الزمنَ هو الذي يريد ذلك، وأنّ من الحكمةِ للبيتِ أنْ يتآلفَ مع مُقتضيات العصر، حتى وإنْ بدتْ غريبةً وغير مؤكدة.

وكما كان الشأنُ دائماً، فقد كانت مُحِقّةً في ما ذهبت إليه. ففي المرةِ الأولى التي وسعه أنْ يقيسَ فيها سِعَةَ الثروة المُودَعَة في خزائنِها رغِب ماغنوس في أنْ يُعاقبها، وفي أنْ يُذيقَها طعْمَ العصا، ويُفْهِمَها مكانَها الصحيح كزوجة.

لكنّ غضبَه ما لبث أنْ خَمَدَ. لقد كان إذا تأمّلَ، مثلما يتأملُ اليوم، ذلك الصَّقْعَ الذي بات يَغْلِي حياةً من حولِ أرناس، حمِد الربَّ الذي رزقه أنْبَه امرأةٍ في غوتالاند. لقد صارت بلادُ عائلةُ سفير تبدو له وكأنها تجمّدتْ داخل الأزمنة الماضية، فصارت بذلك لا تقبَلُ أيَّ مقارنة. أجلْ، بالتأكيد، لقد كانت سيغريد هبةً من الربّ. وكان ماغنوس، وهو تحت قُبّةِ السماء في سِرّيّةٍ كاملةٍ، وحيث لا أحدَ يسمعُه سوى الربّ وحده، يُقِرُّ بكل ذلك، من دون أنْ تُكدّرَه ذرّةٌ واحدةٌ من المرارة. الربُّ وحده، وهو نفسُه، كانا يعرفان ذلك، ثم سيغريد بطبيعة الحال. كلُّ الناس كانوا يعتقدون أنّ ذلك الصّقعَ المزدهرَ من حول أرناس، ومن حول القريتين اللتين تحتويهما أرضُها، في اتجاهِ فورشيم، كانت من إنجازِه هو. فكلُّ الناس كانوا يرونه رجلا قوياً يُعْتَدُّ به، رجلا قادراً على أنْ يخلق الثروات.

وكان يُحدّث نفسَه أيضاً أنْ لعلّ سيغريد تعتقدُ أنه يتعلّل هو نفسُه بذلك الوَهْمِ، لكنه لم يكن على يقينٍ من ذلك. وكان يقول لنفسِه أيضاً إنه لنْ يبوحَ لها أبداً بأنه قد فهِم حقَّ الفهمِ أنها المحركُ الحقيقي لكل ذلك. وفي ذلك خيرٌ له.

وفضلا عن ذلك، كان يُعزّي نفسَه وهو يُفكّر أنَ سيغريد ليست سوى جزءٍ منه، والعكس بالعكس، لأنّ الذي جَمَعَهُ الربُّ لا أحدَ يستطيع أنْ يفكّه. فكلٌ ما كان يُزْهِرُ ويزدهِرُ من حول أرناس كان عملا مشتركاً بينهما. بمثل ما كان إسكيل وآرن نِصْفاً منه ونِصْفاً من سيغريد.

فلو هكذا نظرنا إلى الأمور – وهي الطريقة المسيحيَّةُ الوحيدة لرؤيتها- فهو بحقّ رجل قويٌّ بفضل الربّ. فبأيِّ صورةٍ أخرى كان يمكن أنْ يحدُثَ هذا من غير مشيئةِ الرّب؟

* * *

كان الشتاءُ فصلَ الولائمِ في فاسترا غوتالاند. لكنّ في ذلك الشتاء الذي كان فيه وقتُ الملكِ سفيركر محسوباً، كان عددُ تلك الولائم غيرَ عادي. كانت الزلاجات تعْبُر البلاد، لكنْ ليس من أجل مُتعة الطعام والجعة وحدهما. كان الوقتُ بالنسبة للبعض وقتَ شُكوكٍ عدائيَّة، وكان في رأيِ البعضِ الآخر وقتاً مثالياً لبلورةِ مخططاتِ عملٍ في مسبك المكائد.

كان إيريك جيدفرسون قد كشف عن نيّتِه في الذهاب إلى أرناس قبْل أوْج الشتاء. وكان قد ادَّعَى أنْ خيراً لهما أنْ تتعارَفا، ما دامت سيغريد وزوجته كريستينا قريبَتَيْن، وكان أمامَهُما الكثيرُ ممّا يمكن أنْ تتناقشا فيه. وفوق ذلك فلعل بالإمكان التوصلَ إلى تسويةِ مسألةِ فارنيم، بشكل نهائي.

لكنّ نقطةً في الأمرِ ما فتئت تُحَيِّرُ ماغنوس: «أمامَهما الكثيرُ مّما يمكن أنْ تتناقشا فيه». كانت الجملةُ مُلتبِسة. ومُهدِّدةً بالخطر أيضاً، ذلك لأنّ ما مِنْ أحدٍ كان يجهل أنّ إيريك جيدفرسون كان يُمَنّي النفسَ بأطماعٍ كبرى لحسابه. بل وكان يطمح إلى العرش أيضاً. وكان هذا يعني أنه كان يسعى إلى معرفة أعدائه وحلفائه في هذه المعركة.

وازَن ماغنوس الأمرَ مَلِياً في قرارة نفسه. كان يعرفُ في وضوح ما الذي كان يريد عملهَ في هذه الحياة: الثراءُ، وتدعيمُ أرناس، وتَرْكُ ميراثٍ طيّبٍ لإسكيل، بل وتحقيقُ شيءٍ ما لــ آرن. إنّ مَنْ ينطلق في السباق إلى

العرش قد يكسب الكثيرَ بالتأكيد، لكنْ قد يخسرُ كلَّ شيءٍ أيضاً. في هذه الحالة، كان اختيارُ ماغنوس بسيطاً، مادامت طريقتُه في الاغتناء مرسومةً حتى ساعةَ وفاتِه، عند عُمْرٍ قُدّر أنه سيكون عُمْراً جليلا. واستمرَّ ماغنوس في البناء، وفي المتاجرة، وفي استصلاح أراضٍ جديدة.

لكنْ، من ناحية أخرى، ومما يجعلُ المسألةَ غايةً في الإحراج، أنّ مَنْ لا يساندُ المنتصرَ في هذه المعركة من أجل السلطة، سيُثْقِلُ كاهلَه بهمومٍ هو أيضاً. فما الذي سيقوله عندما يمرُّ الملكُ في زيارةٍ ويسأل لِـمَ لم يحصلْ على دَعْمٍ قبل أنْ يصبح فوزُه مضموناً؟ فالقليلُ ممّا كان ماغنوس يعرفُه عن إيريك جيدفرسون كان يُنْبِئُه بأنّ هذا الأخيرَ سوف ينطلقُ بالتأكيد في المعركة. وفوق ذلك فقد عُرِف عن إيريك جيدفرسون بأنه لا يَغْفِرُ شيئاً لأعدائِه. إذاً، فأياً كان موقعُه، فقد كان ماغنوس مُهَدَّداً بالخسارة.

في السرِّ، لم يكن ماغنوس يُعْتَبَرُ رجلَ حرب. صحيحٌ أنه كان يعرف استعمالَ السيف والتُّرس، والرُّمح والقوس. فهو لم يتعلّم شيئاً آخر غير ذلك في شبابِه. لكنّ حرسَه كان يتكوّن من نحو اثني عشر رجلا، ومن أقارب بعيدين، معظمهم من الشباب الذين لم يكن أمامهم أيُّ ميراثٍ يأملون فيه، ولم يُتْقِنُوا من المِهَنِ غير مِهنة السلاح. صبيانٌ كُسالى، حسب ماغنوس. لقد تمكّن في صعوبةٍ من أنْ يجعلهم يُكرّسون نصفَ وقتهم لأعمالِ بناءِ النجارة، أو لِبناء بواخر، وهي الأعمالُ الوحيدة التي لم يعتبروها مُشينَةً في حقِّ مراتبِهم. كانوا يؤكدون أنهم يمضون بقيّةَ اليوم في ممارسة ألعابِ الأسلحة، حتى يستعدّوا للمعركة عندما يأتي أوانُها. وفي نظَر ماغنوس كانت مدّةُ هذه التدريباتِ أقصرَ من الفترة التي تليها، والتي يروُون فيها عطشَهم بِكميّةٍ كبيرة من الجعة.

ومع ذلك، كان في حوزتِه نحو دزّينةٍ من الرجال المسلَّحين. فعند الحاجة، سيكون بإمكانه أنْ يُجهّز ثماني دزّينات من المزارعين من القريَتين، بالقرب من فورشيم. فلم تكن هذه الفرقةُ كافيةً لجعْلِ توازنِ القوى في المعركةِ من أجل العرشِ يميلُ إلى هذا الجانبِ أو ذاك. أمّا فيما

يهمّ المستقبل، فإنّ الأساسَ يكمُنُ في مَوْضِعٍ آخر، في الوقوفِ إلى جانب من يصبح مُنتصراً. وكونُ أنّ نصفَ بيته، وهو النصفُ الذي في فاسترا غوتالاند، سينضمُّ أو قد لا ينضمُّ إلى جانب إيريك جيدفرسون، فأمرُه ربما مرهونٌ بالموقف الذي سيتّخذُه النصفُ الآخر – أي موقف بيتِ بيالْبو، في أوسترا غوتالاند.

كان ماغنوس قد أوفد رسولا إلى بيرجر، أخيه الأصغر الذي كان، حتى وإنْ لم يكنْ الأكبرَ سناً، ولا الأكثرَ لَقَباً، يتحدّثُ باسم عائلةِ بيالْبو حول قضايا شائكةٍ عدّة. كان بيرجر معروفاً بدهائه وبصراحته في المفاوضات، وعلى الرغم من الزَّغَبِ الذي كان لا يزال يملأ خدّيه، فما أكثرَ الذين كانوا يتنبّؤون له بموقعٍ مرموقٍ في المملكة – أيّاً كانت هُويةُ المَلِكِ القادم، لِمَا كان لبيتِ بيالْبو من ثِقَلٍ أكيد، سواءٌ من حيث الأراضي، أو من حيث الرجالُ المسلّحون.

بابتسامتِه المعهودة، انطلق بيرجر ذات مساء، مثل الدوّامة، قَبْلَ باقي المدعُوّين. وراح وهو يُطلق صرخاتٍ قويةً، يقود زلاجتَه بسرعة كبيرة الى داخل الساحة، ثم توقّف بشكل مفاجئ أمام البيت الرئيسي، فتطاير الثلجُ عبر مزلاجاتِ المربط. وقفَزَ بسرعةٍ من الزلاجة التي أسرع الأقنةُ بإدخالها إلى الاسطبلات. وألقَى جُثَّةَ ذِئْبٍ على الأرض، حتى تُنْقَل على الفور إلى المدبغة بعد أن تُسلَخَ حسب الأصول. كان كثيرٌ من الأقنةِ يعتقدون أنّ وجودَ ذِئْبٍ بالقرب من البيوت يُنْذِرُ بالشؤم.

ثم أخذ بيرجر كيسَ ملابسِه الرقيقة على ظهرِه. وفيما كان يتّجِهُ إلى البيت الرئيسي إذا بماغنوس يخرج مُتثاقلا لاستقباله. وما إنْ دخل حتى أخذ يُحَيّى سيغريد في أدبٍ، وما انفك يُطْرِي ما أنجزته من أعمال. وراح يُوسّع الخُطى في القاعة الكبرى، بقيادة سيغريد، – وفي إثْرِهما ماغنوس. وتدفّأ بالحائط المبني وبالحطبات الكبيرة التي كانت تشتعل في المدفأة، وهو يُفرِك يديه في رضىً. وبسرعة اختار سريراً، وألقَى عليه الغِيَارَ من ملابسه، وسحب الغطاءَ الصوفي الذي يُغلّف السرير. ثم جلس على المقعد

بالقرب من الموقد، وشرع يروي تجوالَه على جليد بحيرة فاتيرن. لقد رأى سرباً من الذئاب، فتمكّن حصانُه من اللّحاقِ بها بفضل الطبقةِ الرقيقة من الثلج التي كانت تُغطي الجليد، وقد رَمَى سهماً على أحد الذئاب، لكنْ من غير رامٍ. فقد سقط الحيوانُ ما بين عجلات الزلاجة، فأتاحَ لبقيةِ الذئاب بأنْ تنجوَ بجلدِها.

مدّ يدَه بلا اكتراثٍ ولم يُلْقِ حتى مجرد نظرةٍ إلى الخادم الذي وضَع فيها كأساً من الجعة. وشرِبها في جُرعةٍ واحدة، على صحّةِ مُضيّفيه، وهو يتنهّد في رضًى كاملٍ.

كان ماغنوس يحسُّ كأنه محرومٌ تقريباً أمام أخيه الأصغر الذي فاض حياةً، والذي لم يكنْ أيُّ شيءٍ يبدو له صعباً أو مستحيلا. كونُه استطاع أنْ يغامر وحيداً بالزلاجة، على جليدٍ هَشٍّ في قلْبِ الشتاء، وأنْ يقطَع المسافةَ التي تفصل بيالْبو عن أرناس في يومٍ واحد، من دون أيّ هَمّ، هو الذي حثَّ ماغنوس على أنْ يُسائِلَ نفسَه ما الذي يعنيه أنْ يكون لوَلَدَيْنِ أبٌ واحد وأمّانِ مختلفتان.

انتظر ماغنوس حتى يتقصّوا بما فيه الكفاية أوضاعَ المناطق ذات النفوذ، قبل الخوضِ في مناقشة القضايا المحيّرة التي ستُطْرَح في اليوم التالي.

لكنّ هذا أيضاً، ، على ما يبدو، لم يُزعجْ بيرجر قطّ. فقد أوجَزَ القضيةَ في بِضْعِ جُمل.

«صحيح بالتأكيد، قال وهو يمدُّ يدَه حتى يحصُلَ على كأسٍ جديدة من الجعة، أنّ إيريك جيدفرسون رجلٌ سينتهِي مَلِكاً، أو مقطوعَ الرأس على الأقل- أو الاثنين معاً. إنّنا نعرف ذلك جيداً. لكنْ، في الوضعية الحالية، لا يسعه أنْ يجُرّنا إلى أيِّ حرب. لا يمكنه أنْ يكسبَ أوسترا غوتالاند لمصلحة قضيتِه، بتخلّيه عن فاسترا غوتالاند – والعكس بالعكس. ربما سيضعُ بيتَ سفير إلى جانبه، بإراقةِ الدماءِ أو بدونها. فإنْ تمكّن من ذلك سنعرف عندئذٍ أيَّ موقفٍ سنقفُ، لأنّ الوضعيةَ ستكون مختلفة. طيّبْ، كفانا حديثاً عن هذه الترّهة، فمتى سنأكل؟»

في اليوم التالي، منح وصولُ إيريك جيدفرسون مَشهَداً جديراً بروايةٍ خيالية. لقد جاءَ بأربعِ زلاجات وحَرَساً من اثني عشر رجلا، وكأنه صار مَلِكاً، أو «يارلا» على الأقل. وفوق ذلك، فقد وصل قبل الموعدِ بأربع ساعات، لأنه لم يقطعْ رحلتَه من قلعتِه في لاداس، على منطقة ليدان، في يومٍ واحد. لقد أمضَى الليلَ في منتصفِ الطريق، في قلعة هوسابي، ضيفاً على رجُلٍ من رجال المَلِك سفيركر. لكنه ظلّ مُتكتّماً جداً حول ما قيل في أثناء تلك الزيارة السريعة.

لم يكن اللحمُ قد بلغ من النضج سوى نصفِ طَهْيِهِ على مُدوّرة السفّود، وكانت المطابخُ لا تزال تستقبل اللّفْتَ، ولم تجدْ سيغريد إلا قليلاً من الوقت لكي تنظّف القاعةَ وتُعلّقَ فيها السجاد. وهكذا، وبعد مراسيم الترحيب التي اتّسَمَتْ برسميةٍ أساسية، واقتسَم خلالها المدعوّون بعضَ الجعة والخبزَ الأبيض الذي تفتخرُ به أرناس، افترقَ الجميعَ في الوقت المناسب، من أجلِ قضاءِ الوقت بلا هُموم. وطلب ماغنوس من أكبرِ حُرّاسه عُمراً أن يعتنيَ بإخوتِه في السلاح، أولئك، القادمون من لاداس، وأنْ يسهرَ على تجمّعهم، وأنْ يرويَ عطشَهم. واصطحبت سيغريد، كريستينا في جولةٍ حول القصر لتَفَقُّدِ كامل البنايات الجديدة في الساحة، بينما اصطحب ماغنوس، إيريك جيدفرسون، إلى ورشاتِ أعمالِ التّحصين.

لم يتأثرْ إيريك جيدفرسون مطلقاً. لقد بدتْ له التحصيناتُ منخفضةً جداً وهشّة جداً. صحيحٌ أنّ الحفرةَ المزدوجة كانت اكتشافاً نَفيساً، لكنّ وجودَ خنادِقَ عميقةً لن يُفيدَ كثيراً أثناء الشتاء، عندما يُحاصِرُها الجليد. واستمرّ يَشْرَحُ على ذلك النحو، فلا يكاد ينقطِع عن مُقارنةِ كلٍّ ذلك بمقاطعتِه الخاصة، مُتمسِّكاً في حديثِه على الخصوص بموضوع الكنيسة التي كان قد أمَر بإقامتِها في ايريكسبرغ، وكانت على وشْكِ الانتهاء. لقد استخدم بنّائين إنجليز، حصل عليهم من الفرع الإنجليزي لبيت والدِه. وقد أضاف أنّ ماغنوس بإمكانه أنْ يؤجِّر خدماتِ هؤلاء الإنجليز في الربيع، قبل أنْ يعودوا إلى ديارهم.

لم يقاطعْه ماغنوس قط. فإذا كانت معاقِلُ أرناس منخفضةً جداً، وضعيفة جداً، فهي كذلك بالنسبةِ لملِكٍ. فإن وُجد ملكٌ في القصر، فسيكون محاصروه أكثرَ عدداً وأكثر صبراً مما لم يكنْ في القصر إلا تاجراً ليس إلا. فلم يكن من الصعب أبداً أن يفهمَ أحدٌ أنّ ايريك جيدفرسون كان يرى نفسَه مُكلَّلا بتاجِ المملكة.

إلا أنّ ماغنوس لم يشعرْ بالراحة برُفقتِه. كان ايريك جيدفرسون أطولَ منه وأقوَى، فلم يجدْ بداً من أنْ يتصرّف معه وكأنه ضيفٌ وليس مُضيفاً.

أحسّ ماغنوس، إذاً، بدهشةٍ مُمتعةٍ عندما غادرا التحصينات لكي يتفقّدا الاسطبلات والمسكنَ الرئيسي. لم يكنْ ايريك جيدفرسون قد رأى من قبلُ قَط تلك الطريقةَ في البناء، بجذوعِ الصنوبر المقشور المكدّسة، وجبهةِ المدخلِ المثلّثةِ المبنيةِ بالكامل. ولم تكنْ قنواتُ المدفأة الثلاثة التي تصل إلى القمّة معروفةً أيضاً. ففي بيتِه كان البناءُ ما يزال بالخشب القائمِ المُعزّز بالطين الممزوج بالقشّ.

وسرعان ما هدأتْ نفسُ ماغنوس عندما أخذ يشرح كيف راودتْه فكرةُ تلك الأشغال، وهو يَعْلَمُ في قرارةِ نفسِه رغم ذلك أنّ سيغريد هي التي كانت قد أقنعتْه بأنْ يعتنِقَ كلَّ تلك المستجدات. ومع ذلك كان على يقينٍ أنها لن تُسيءَ الظنَّ به إنْ هو عرَض ذلك العملَ الجميل على أنه من صُنعِه هو.

عندما دخل ايريك جيدفرسون إلى القاعة، أخذته الحرارةُ المنبعثةُ من المدفأة، ومن الحائطِ القريب من قاعة الشرف، وقد وضع يدَه على طول الحطبات المُدوّرة والمفاصل، حتى يتأكد من خُلوّها من أيّ مجرىً هوائي. ولم يسعْه أنْ يُحْجِمَ عن إطراءاته المِلحاحة. وفيما كانت تُقدَّم الجعةُ لهذا الضيف الخطير، أخذ ماغنوس يشرح في احتشامٍ، أنّ المكان هنا، في الشمال، وحيث تلتقِي غابة سونان بِغابة نوردن، يحتوي على كميةٍ كبيرة من الأشجار الضخمة، بصنوبراتها الحادة الطويلة، وهو ما يتيح إمكاناتٍ لبناءاتٍ مختلفةٍ عن بناءاتِ ضفَّتَيْ نهر ليدان، حيث لا توجد سوى الأشجارِ الوريقة.

وفعلتْ الجعةُ فعلتَها واستثارتْ مزاجَ ماغنوس.

ولقيتْ سيغريد نوعاً آخر من المشاكلِ وهي تعْرض أماكنَ أخرى على قريبتِها كريستينا. كانت علاقتُهما، في أفضلِ الحالات، تتعهّدُها برودةٌ مُهذّبة. وبالفعل، فقد سبق لكريستينا أنْ اشتكت لدى القساوسة، ولدى المَلِك، من أنّ جزءاً من فارنيم قد اقتُطِعَ من حقِّها، وأنّ النيّة لم تراودْها قَط في أنْ تتبرّع لرُهبانٍ بجُزْءٍ من ميراثِها.

غير أنه لم يكن من اللائقِ أنْ تعرِضَا لهذه المسألة في الحين، في غياب زوجَيْهِما. فإنْ كان لا بد من مناقشتِها، فخيرٌ لمن كان لَهُمْ الحقُّ في الحديث فيها أنْ يجتمِعوا في غرفةٍ واحدة.

لم تجدْ كريستينا بُداً من أنْ تقرّ بتأثُّرِها البالغ أمام المشاغل كافةِ التي انتصبتْ من حول القصر.لم تقترِبا من المدبغة إلا قليلا، لكنّهما زارتا المطابخ، ومشاغلَ الخياطين، والمسابكَ، ومصنعَ البراميل، ومشاغِل النسيج. ثم مرّتا ما بين مخازن المؤونة ومساكنِ الأقنة. وهناك، صادفتا زوجين يَزْنيَان، فلم تَنْزَعِجا للأمر بتاتاً. وقد أصْدرتا بِضع كلماتِ تشجيعٍ للقِنَّيْن اللذين أصابهما حَرَجٌ، وواصلتا طريقَهما. إلا أنَ كريستينا قالت إنها ستُخْصِي قِنّاً من بين كلِّ قِنَّيْنِ، لأنّ لهؤلاء «البهائم» قابليةً عاليةً للتناسل، يُنجبون بها أفواهاً كثيرةً لا بد من إطعامِها.

وقالت سيغريد إنها قد أوقفتْ هذه العادة. ليس لفائدة الأقنة – حتى وإنْ بدا أنهم قد ثَمَّنُوا هذا التدبيرَ كثيراً –، ولكنْ لأنّ عددَهم لم يزدْ عن المعقول أبداً.

كان هذا المنطقُ يجاوزُ كريستينا. كثيرٌ من الأقنةِ يعني في رأيها مزيداً من الأفواهِ الجائعة، وبالتالي مزيداً من البهائمِ المذبوحة، ومزيداً من الحبوب المطحونة. أليس الأمرُ إذاً واضحاً وضوحَ ماءِ الصّخر؟

حاولت سيغريد أنْ تشرح لها الطريقةَ المستعملة، أيْ استصلاح أراضٍ جديدة، وتحرير العبيد، تماشِياً مع ارتفاعِ عدد الأقنة. ففي كلِّ عام، كان ذلك يُدِرّ مداخيلَ إضافية، في شكلِ براميل من الحبوب، الآتية من الأماكن

المُعْشَبَة الجديدة. وفضلا عن ذلك، فإنْ كان عليهم أنْ يدفعوا ثَمَنَ غذائِهم، فقد كان المُعْتَقُون يُبدون قدراً أكبرَ من الاعتدال في الأكلِ نظراً لِثَمَنِ حُرِّيَّتِهم.

ضحكتْ كريستينا هازئةً من هذه الأفكار المناقضة للصواب. ففي رأيها أنّ الأمرَ مرهونٌ بتَرْكِ الماشية تأكل في المراعي الخضراء، حتى يتسنى احتلابُها فيما بعدُ، ثم طهيُها، ثم أكلُها. وتخلّتْ سيغريد عن محاولاتِ الشرحِ، واقتادت كريستينا إلى الحمّامات، حيث مجموعةٌ من الأقنةِ النساء كُنّ سيغتَسِلْنَ استعداداً للمساء.

صفعتْهما سحابةٌ سميكةٌ من البخار عندما فتحَتا الباب. في الداخل، وعندما وسِع كريستينا أنْ تميّز من جديد ما بين ما رأته، لم تستطعْ أنْ تُخفي دهشتَها. كانت الغرفةُ مليئةً بالأقنةِ وهم يرشّون أنفسَهم بأدِلّةِ الماء المَغليّة، أو جالسون في الحمّام الذي امتلأ بُخاراً. وجلبَت سيغريد إليها أحدَ الأقنةِ، وجَسَّتْهُ أمام كريستينا. ألم يكن الأقنةُ يُطعَمون جيداً؟

ليَكُنْ! كان مظهرُهم يُوحي بأنهم في صحّةٍ جيدة. لكنْ، أيُّ فائدة من تَرْكِ الأقنةِ يستعملون الحطب والمخازن وكأنهم رجالٌ أحرار؟ هذا ما كان يُفلِتُ منها كُلياً.

ووضّحت سيغريد أنّ هؤلاء الأقنةَ يعملون في البيت. فهم يُعِدّون اللحومَ ويقدّمونها، وكذلك الجعة، ويشربون بقاياها طوال الليل. ألم يكنْ من المريح أكثرَ الحصولُ على خدمٍ لا يَفُوحُون بروائح كريهة؟ وفوق ذلك يرتدون جميعاً ثياباً نظيفة بعد الاستحمام – ففي أرناس، يُنتَجُ الآن من الملابسِ أكثر مما يمكن بيعُه منها.

هزّت كريستينا رأسَها. هذه الكيفية في التعامل مع الأقنّةِ، بَدَتْ لها حقاً بلا معنَى. فقد يثيرُ ذلك عندهم بعضَ الأوهام، أضافت كريستينا. لقد توهّموا بالفعل، ردّتْ سيغريد بابتسامةٍ شقَّ على كريستينا استيعابُها.

لكنْ عند المساء، حين بدأتْ الوليمةُ، كان المشهدُ جميلا، ذلك الذي وَقَعَ عليه نظرُ الضيوف، عندما دخل الخدمُ النّظاف بملابسِهم البيضاء إلى

القاعة، وهُمْ يحملون الأطباقَ الأولى من اللحم، واللّفت، والخبزِ الأبيض، وحساءِ البصل، والبقول، وشيءٍ آخر جديد أسمتْه سيغريد «اللفت الأحمر»، وكان ممّا يراه الضيوفُ لأوّل مرّة.

كان ماغنوس وايريك جيدفرسون يتربّعان في المكانِ الشرفي، على الكرسي النرويجي. على يسار ماغنوس جلس أخوه بيرجر، وإسكيل، وآرن الصغير، وكذلك كنوت، ابن ايريك جيدفرسون، الذي كان سِنُّهُ مثلَ سِنِّه. وكانت كريستينا وسيغريد تجلسان إلى اليمين. كانت المشاعلُ المطليةُ بالقار، في سِناداتها الحديدية، تشتعلُ على طول الجدران. وكان الرجالُ الأربعة والعشرون المسلّحون يجلسون إلى الطاولةِ وفقاً لأعمارهم، كانت الطاولةُ مضاءةً بواسطة شمعدانات ثمينة من الشمع، شبيهةٍ بشموع الكنائس. وكانت الحرارةُ تُشِعُّ من خلْفِ القاعة الشرفية، لكنَّ حدّتَها كانت تتناقصُ كلما بَعُدَتْ عن الجدار المبني بالحجارة. وفي أقصَى الطرفِ الآخر من القاعة ارتدَى الحراسُ الشبابُ معاطفَهم على عَجَلٍ.

بدأ الطهاةُ يُهيئون أكثرَ اللحوم نعومةً، في المَشْوَى الواقعِ ما بين جَناحَي البيت الرئيسي: خنازيرُ رضيعة سوف تُبهج القصور. تليها اللحومُ الأقلُّ نضارةً، والعِجلُ، والضأنُ، وجروُ الخنزير الوحشي، والخبزُ التقليدي للذين لا يستسيغون هذا الخبزَ الأبيض الجديد. وقد جِيءَ بكميات كبيرة من الجعة القوية، ومن تلك التي تُعَدُّ خصيصاً للنساء والأطفال، المنكّهة بالعسل وعَرَق العَرْعَر.

في البداية جرت الوليمةُ على أحسن ما يرام، فتحدّث الجميعُ بابتهاجٍ في مواضيعَ قليلةِ الشأن، واستطاع بيرجَر أنْ يروي في إسهابٍ نجاحَه في الليلة التي مضت، عندما قَتَل ذئباً.

وشرب ايريك جيدفرسون ورجالُه في صحةِ مُضيفيهم. ثم شرِب ماغنوس وحرسُه على شرف ضيوفهم. وجرت الأمورُ كلُّها في ابتهاجٍ، من دون كلماتٍ جارحةٍ ولا سوء نيَّة.

ذهب ايريك جيدفرسون في حديثِه إلى حدّ إطراءِ جمالِ القاعة مرّةً

أخرى، وجودةِ الطريقة الجديدة في البناء، وبراعةِ الزخارفِ التي كانت تُزيّن المقرّ. ومدَح أيضاً الأسِرّةَ التي كانت تشكّل سلسلةً من الأقفاصِ على طولِ أحد الجدران، ووُضِع بعضُها فوق بعضٍ مع كثيرٍ من الأقمشة والجلود، حتى كان السريرُ الواحدُ يَسَعُ أكثرَ من شخصٍ واحد، من دون أن يزداد ضيقاً أو حرارة. وقد وَجَدَ في ذلك ما يحتفظُ به في خَلَدِه إن قُدِّر له أنْ يُنشئَ بيتاً جديداً. وشرَح ماغنوس في هدوءٍ أنّ طريقةَ ترتيبِ الأسِرَّةِ على ذلك النحو هي الطريقةُ السارية في النرويج – فكلُّ نرويجي يعرف أنه إذا أراد أنْ يَحْتَمِيَ من البرد ارتفعَ قليلا عن الأرض.

لكنْ، كان ايريك جيدفرسون كلّما شرِب مزيداً من الجعة، إلا وصار حديثُه لذّاعاً، على نحوٍ لم يكدْ يُحِسُّ به أحدٌ في البداية. ثم سخِرَ من المَلِك سفيركر. الملكُ الوحيدُ في الشمال الذي انتصرَ في حربٍ وهو يتصرّف مثل جبانٍ. ثم هاجم الرهبانَ وما يُثيرونَه من هُموم. وعاد إلى سفيركر، ذلك الجبان الذي تزوّج ثانيةً من امرأةٍ عجوز – كانت فيما مضَى زوجةَ رجلٍ روسي، يُدعى فُولُودار، أو شيئاً من هذا القبيل، على الجانبِ الآخر من بحر البلطيق.

«لكنْ، يا ضيفيَ العزيز، ألم يُجَنِّبْ البلادَ الحربَ والنّهْبَ معاً؟» ردّت سيغريد، في غبطة، وكأنّ الجعة قد هيّجتها أيضاً، فلم تعد تُمسك عليها لسانَها بقدر ما تُمْسِكُه في العادة. ورَمَاها ماغنوس بنظرةٍ سوداء فتظاهرتْ بأنّ النّظرةَ لم تُلْفِتْ نظرَها.

«ماذا؟ وأيُّ عملٍ باهرٍ يستطيع هذا العجوزُ إنجازَه في السريرِ مع امرأةٍ ترمّلتْ مرّتين؟» ردّ ايريك جيدفرسون بصوت عالٍ، وهو يُوجِّه كلامَه إلى حرسِه، أكثرَ ممّا يوجّهُه إلى سيغريد. ولاطفَ رجالُ السلاحِ كلامَه الذي وجدوه غايةً في الدُّعابة.

«ما دامتْ ريكيسا قد أنجبتْ كنوتْ ماغنوسون من زواجِها الأوّلِ، ومادام كنوت ماغنوسون نفسُه قد أصبح مَلِكاً للدنمرك، فإنه من غير الوارد بتاتاً أنْ يُهاجِم هذا الأخيرُ البلادَ التي تقِف أمُّه مَلِكةً عليها»، أجابت سيغريد

في حَيَوِيّة، وقد امتلأتْ بَهْجَةً، ما إنْ استعاد الحُرّاسُ هدوءَهم. وعندما رأتْ ايريك جيدفرسون مُكْفَهِرّاً بدتْ سيغريد أكثرَ ابتهاجاً وهي تضيف، في عِزّ الصّمتِ الحَرِجِ، أنّ أيَّ رجلٍ عجوز لا يُنتظَر منه أيُّ عملٍ فَحْلٍ في السرير، قادرٌ على أنْ يستعمل سريرَه بالضبطِ حتى يتفادَى الحرب. وهكذا فإن أيَّ عُضوٍ ناعمٍ قادرٌ على أنْ يفعلَ شيئاً صالحاً، وهو ما لا يحدثُ كلَّ يوم.

هذه المُزحةُ حول عُضْوِ الملكِ المترهّل ما لبثتْ أنْ أثارت مَرَحَ كافةِ الحُرّاس الذين أفاضوا في الضّحكِ أكثرَ مِمّا ضحِكوا بعد دُعابةِ ايريك جيدفرسون .

غضّتْ سيغريد الطّرفَ في احتشامٍ، وكأنها خجِلتْ من جُرْأَتِها. لكنّ ماغنوس ظلّ مُرتاباً. فلا أحدَ كان يعرف أحسنَ منه أنّ زوجتَه طويلةَ اللسان، ولا أحد كان يعرف أحسنَ منه أنّ النقاشَ لو أَفْضَى إلى مُبارزةٍ كلاميةٍ لانتصرتْ فيه سيغريد على الجميع، إلا على بيرجر ربّما. ولا ينبغي لهذا أنْ يحدثَ، لأنه لو وحدَث لكانت نهايتُه سوءًا.

وتمكّن من إنقاذِ الموقفِ بانطلاقِهِ في شَرْحٍ طويل وبالغِ الغموض عن المزايا التي أدخَلها الرهبانُ إلى البلاد. أمّا المرتابون فَحَسْبُهم أنْ ينظروا من حولهم، في آرناس: التقنياتُ الجديدة في البناء، وارتفاعُ جودةِ الحُبوب المزروعة، وإمكانيةُ زرْع القمح في الخريف. كانت فكرةُ مبُادَلَةِ المنافع بقِطَعٍ من النّقدِ بدلا من المقايضةِ، فكرةً مستقبليةً بالتأكيد. وعلى هذا النحو كان ماغنوس يُردّد ما كانت سيغريد قد أَفْهَمَتْهُ إياه – وهو ما لم يكن يعرفه أحدٌ سواهما.

من المؤكد أنه من الصعب على أيّ ضيفٍ أن يقاطع مُضيفه، لكنْ عندما أخد ماغنوس يتوسّع للمرّةِ الثالثة في أهميةِ قِطَعِ النَّقْد في التجارة، قام ايريك جيدفرسون على حين غرّة، وخرج لكي يتبوّل. وألقَى ماغنوس إلى أخيه بيرجر نظرةً بعينٍ حائرة. لكنّ بيرجر ظلّ يبتسمُ كعادته، غير قَلَقٍ بالمَرّة. وقد انحنَى على ماغنوس وهَمَسَ له بأنْ يستفيدا من خروجِ ايريك جيدفرسون حتى يَتَخَفّفا هما أيضاً، لأنّ ضَيْفَهما سيعود قريباً.

وفوق ذلك فقد جاء هذا الانقطاعُ في أوانِه، إذ حذا نصفُ الحراسِ حذوَ الضيفِ المميّز، وسرعان ما اصطفَّ الرجالُ في الخارج، وهم يتحدّثون بجذلٍ، فيما كانت مقذوفاتُهم تسقُط على أغصانِ التّنوب في الفناء. ففي الخريفِ تصبح ساحةُ أيِّ قَصْرٍ وسخةً للغاية بعد كلِّ وليمةٍ كبيرة إذا لم تُغَطّ بِكَوْمَةٍ من الأغصان التي يجب على الأقنّة تغييرُها على فتراتٍ منتظمة.

استعاد ايريك جيدفرسون مكانَه إلى جانبِ ماغنوس. وحين التقطَ كأساً جديدةً من الجعة النديّةِ كان ذلك إشارةً إلى أنه يريد الحديثَ من دون أنْ يُقاطعَه أحد. وألقَى بيرجر الذي ارتسمتْ على شَفَتَيْهِ ابتسامةٌ خفيفة، نظرةً خاطفةً إلى ماغنوس، مُبدياً موافقتَه للقائد.

«قَبْلَ أنْ يملأ سخاءُ هذه المأدبة رؤوسَنا، وقبْل أنْ نتحدّث عن الأقوياء الغلاظ على الخصوص، أي عن ذواتِنا، قال ايريك جيدفرسون، وهو يُثير ضحكاتٍ مهذّبةً لدى حرّاسه، فقد آنَ الأوانُ لكي نتطرّق لمسألةٍ جادة. لقد صارت أيامُ المَلِك سفيركر معدودةً. لنْ أسبقَ الأحداثَ أبداً بالقول إنه بعد قليل لن يكون بيننا. إنّ كارل سفيركرسون، في لنشبينغ، ينتظرُ في هدوءٍ أنْ يقع تاجُ العرش ما بين يديه. ما أكثرَ الذين في فاسترا غوتالاند، لا يرغبون في مثْلِ هذه المصيبة، وأنا من رأيِهم. إذاً، بِعَوْنِ الرّب سأجتهدُ في أنْ أُتوَّج مَلِكاً. وعليه، أيها الأقارب والأصدقاء، إني أسألكم: هل سأحصُل على مساندتِكم، أم عليّ أنْ أغادر هذا البيت، وقد صِرْتُ عدواً؟:

خيّم الهدوءُ بسرعة على القاعة. حتى الفتيان الثلاثة، بجانب بيرجر، صاروا ينظرون في ذُهولٍ إلى ايريك جيدفرسون، الذي أعلن نيّته في أنْ يكون مَلِكاً. وكان في الوقت نفسِه يُلَوِّحُ بالتهديد.

ورمَى ماغنوس بيرجر بنظرةٍ متشائمة، لكنّ هذا الأخيرَ اكتفى بالابتسام حتى يُشير إلى أنه سيتحمّل مسؤوليةَ البقية.

«سير إيريك، إنّ حديثَك منِ القوّةِ والإصرار ما يجعلني لا أشكُّ لحظةً واحدةً في أنك ستكون مَلِكَنا جميعاً»، قال بيرجر بصوتٍ قويٍّ حتى يَفْهَمَ الجميع بأنّ الذي يتحدّث هو نفسُه، الأصغرُ سِنّاً، وليس ماغنوس. ثم ما

لبث أنْ خفّف من غلوائه.

«لتسمحْ لي بأنْ أكون أوّلَ من يجيب. إنّني أتحدثُ هنا باسم كلِّ بيت بيالْبو، كما يجب أنْ يكون الحديث. ومِنْ بَعْدِي سيُجيب أخي ماغنوس، إلا أنك لا تجهلُ أنّ بَيْتَيْنا مُوَحَّدَيْنِ بصلاتِ الرَّحِمِ، وأنه لن يَعْتَرِضَ أحدُهما على الآخر أبداً. لكنْ لا مانعَ من أن تُروادَك دوافعٌ من الأملِ. لسنا عدُوّاً لك. لكننا لسنا مع ذلك حليفاً لك في هذه المسألة، وفي هذا الوقت المحدّد. فإنْ كنتَ ترغب في أنْ تكون مَلِكاً، عليك أوّلا أنْ تَضُمَّ جزءاً آخر من البلاد. عليك أنْ تُقْنِعَ بيتَ سفير بأنْ يختاروك مَلِكاً، في مُورَا. فإنْ حققْتَ ذلك، فستكون قد قطعتَ نِصف الطريق. وفي المقابل، إذا كنتَ ترغب في أنْ تكون مَلِكاً على فاسترا غوتالاند ضد إرادة أهلِ أوسترا غوتالاند فلنْ تحصلَ إلا على الحرب. ولا أحدَ يعرفُ مَنْ سيخرجُ منتصراً من هذه الكارثة. وكذلك الشأنُ في الاتجاهِ الآخر. إذاً عليك أوّلا أنْ تَضُمَّ بيتَ سفير إليك. وبعد ذلك، تستطيع أنْ تُعَوِّلَ على مُساندتِنا لك، أليس كذلك، يا ماغنوس؟»

أدركَ ماغنوس أنّ الجميعَ صاروا يَتَفَرَّسُونَ فيه. في القاعةِ كان الجوُّ مشدوداً كَشَدِّ حبْلِ القوس قبل أنْ ينطلقَ السهمُ إلى هدفِه. لم يجدْ ماغنوس بُدّاً من أنْ يوافق بإشارةٍ من رأسِه في هدوءٍ، متأمِّلا، وكأنه رجلٌ حكيمٌ أثقلته السنونُ. وارتفعتْ تَمْتَمَاتُ عَدَمِ الرضا في صفوف حُرّاس ايريك جيدفرسون.

«بيرجر، أنت لستَ إلا خسيساً! هَدَرَ ايريك جيدفرسون، وقد احمرَّ غَضَباً، ويمكنني أنْ أقتُلَكَ لهذه الأقوال السفِيهة. فمَنْ تكون إذاً حتى تُمْلِي هذه الحركات على مُحاربٍ مُحَنَّكٍ مثلي؟»

اِلتفتَ إيريك جيردفاردستون إلى المكانِ الذي كان يُتَوَقَّعَ أنْ يوجَدَ فيه سلاحُه، وكأنه نَسِيَ أنّ الناس قد أَعْرَضُوا عن عادةِ الاحتفاءِ والسيفُ إلى جانبِهم. لقد كانت كلُّ الأسلحةِ مُودَعَةً بالقرب من المطابخ.

لم يتأثرْ بيرجر بالحركة التي قام بها ايريك جيدفرسون في اتجاهِ حِزامِهِ الفارغ، ولم يتحوَّلْ عن ابتسامِه.

«لك كلُّ الحرية في أنْ تَعْتَبِرَنِي خَسيساً، يا ايريك جيدفرسون، بدأ حديثَه في هدوء قبل أنْ يرفعَ صوتَه، حتى لا يُضَيِّعَ أحدٌ كلمةً واحدةً. «لكنْ لا يُفْرِحُني أنْ تعتبرني كذلك. ومع ذلك، فليس للأمرِ أيُّ أهميةٍ في الوَضْع الحالي، لأنك لو أشهرتَ السيفَ ضدي، فإنّ المُصيبةَ ستُصيبك أنتَ.»

«أيها الخسيس، لا أعتقدُ لحظةً واحدة أنك ستستطيع قَتْلِي بالسيف!» صَرَخَ ايريك جيدفرسون، وقد ازدادَ سخطاً. في القاعة كان الجميعُ يخشَون تطوُّرَ الأمورِ إلى ما هو أسوأ، وتسرّبت إحدى الأقنةِ لغايةِ بيرجر لكي تُبْعِدَ الأولادَ الثلاثة.

وقام بيرجر بهدوءٍ من دون أنْ يتخلَّى عن ابتسامتِه.

« ايريك جيدفرسون، ما دُمْتَ ضيفاً علينا، فإني أرجوك أنْ تستعيدَ صوابَك. فلو حَكّمْنا الحديدَ، فالويلُ لكَ. فإنْ مِتَّ فلن تصير مَلِكاً أبداً. وإنْ قتلتني ستكون بقيةُ عُمرِك رحلةً طويلةً سوف يُطارِدُك فيها بيتُ بيالْبو من تينغ إلى تينغ، وإنْ اقتضَى الأمرُ فسوف يقتلُكَ. فَكِّرْ! أمامَك مملكةٌ في متناولِ اليد، – لستُ أشكُّ في ذلك لحظة واحدة. لا داعيَ لأنْ نُقَلِّصَ الأمرَ إلى عدمٍ لأنكَ تَحْسَبُ أنّ الناطقَ باسم بيالْبو صغيرُ العُمْرِ جداً، ووَقِحٌ جداً! وَفِّقْ ما بين عائلةِ سفير أوّلا، ثم ما بيننا بعد ذلك. للمرّةِ الثانية، هذه هيَ نصيحتي لك».

جلس بيرجر في هدوءٍ ومدّ ذراعَه ليحصُل على جعةٍ من إحدى الأقنةِ الوجِلات، وكأنّ شيئاً مُهِمّاً لم يحدثْ قبل قليل.

أمضَى ايريك جيدفرسون وقتاً طويلا قبل أنْ يُجيب. كان يدركُ أنّ الشابَ بيرجر بيالْبو قد أَعْلَنَ شيئاً بديهياً. ولم يجدْ بُداً من أنْ يُقِرَّ بأنّ الذي زَجَرَهُ فَتىً حاضرُ الجواب. وكان يستحيلُ عليه أنْ يَمْحُوَ كلَّ الذي سمِعَهُ الجميع.

«طيبٌ، قال أخيراً. لقد فكّرتُ من قبلُ في أنْ أذهب إلى مورا لأُحالِفَ عائلةَ سفير. فحول هذه النقطةِ نحن متفقون إذاً. أمّا عن وقاحتِك، فسوف نَقْتَصُّ منكَ عندما أُصبح مَلِكاً.»

«لستُ أشك في ذلك مطلقاً، يا ملِكي القادم، ويا سيدي»، أجاب بيرجر

بابتسامةٍ مُبالَغٍ فيها. وانتظرَ بُرهةً، في مَكْر. «لكنْ، ما دامتْ نصائِحي تبدو لك حكيمةً، فإني لَقترِحُ عليك أنْ تصنع مني «يارل»، بدلا من أنْ تقتصّ مني!»

كان لهذه الكلماتِ الدعوبةِ الوقحةِ في آنٍ، التي أُلقيتْ في وَجْهِ ايريك جيدفرسون، أثرُها المُذْهِلُ. فقد سادَ الصّمتُ القاعةَ من جديد. وتأمّلَ ايريك جيدفرسون، إيريك بيرجر، بعَيْنٍ غاضبة. واستمرّ بيرجر في الابتسام، وفجأةً شنّجتْ ابتسامةٌ عريضةٌ قسماتِ وَجْهِه. ثم شرع في الضحك، وتَبِعَهُ رجالُه في اللحظة الموالية. وضحِك رجالُ ماغنوس بدورِهم، ثم النساءُ، ثم الأقنةُ، وأخيراً الفتيانُ الثلاثة الذين ما لبثوا أنْ عادوا إلى مقاعدِهم. ورَنَّتْ القاعةُ بصدَى الضحكات. وبذلك مرّتْ العاصفة.

قرّر ايريك جيدفرسون، الذي أحسَّ أنّ كلَّ حديثٍ حول اعتلائِه العرشَ سوف يؤجَّل لفرصةٍ أخرى، أنْ يَظْهَرَ بمظهرِ الدّماثة. فضَرَبَ في يديه، ونادَى السكالد النرويجي الذي سافَر معه على آخر مِزلاج، وطلب منه أنْ يَرْوِي قِصصاً من ذلك الزمنِ الذي كان فيه رجالُ الشمال يملِكون الطاقةَ والشجاعةَ التي صار الناسُ نادراً جِداً ما يَرَوْنَها في أيّامِنا هذه.

قام السكالد من مكانِه المتواضعِ بالقرب من أصغرِ الحرّاس، واقتربَ من النارِ وهو يَرْوِي ويُفخِّم في الكلام. وانتهزَ الأقنةُ الفرصةَ لكي يُبْعِدُوا الفَضلات، ويُقدّموا الجعة، ويُنظّفوا البَوْلَ والتقيؤاتِ بالقرب من الباب. وساد صمتٌ مَهيبٌ بين الحضور، فيما ظل السكالد ينتظرُ في ذكاءٍ أنْ يَبْلُغَ التّوَتُّرُ والعِنايةُ أَوْجَهُما قبلَ أنْ يبدأ كلامَه.

وبصوتٍ منخفضٍ وناعمٍ أَقْرَبَ إلى العُذوبة، أخذ يروي الانتصاراتِ الثمانيةَ الكبرى التي حققها سيغورد على طريق القدس. لقد نَهَبَ سيغورد غاليسيا أوّلا، ثم صادف أسطولا من السُّفُنِ الشراعية التابعة لعَرَبِ الشّرقِ في عَرْضِ السواحلِ الفارسية. ومن دون أنْ يتردّدَ لحظةً واحدة هاجَم وهَزَمَ من دون عناءٍ أولئك الوثنيّين الذين لم يحاربوا في الظاهرِ أسطولا من الشمال أبداً، ولم يكونوا يعرِفون أنّ المعركةَ لا يمكن أنْ يكون لها إلا مَخْرَجٌ واحدٌ، هو الذي وَصَفَهُ سكالد في الكلمات التالية:

«الوثنيون المساكين

هاجموا المَلِك.

لكنّ الأميرَ القويّ

قَتَلَهُمْ جميعاً.

وحطّم الجيشُ سُفُناً ثمانية.

في هذه المعركةِ العَنِيفَة.

الأميرُ المحبوب

أخذ الغنيمةَ على مَتْنِ السفينة

وحطّ الغرابُ على الجروحِ الطازجة».

هنا، توقّف سكالد قليلاً، وطلَب جعةً حتى يواصل سَرْدَه. وضَرَبَ كلُّ الحراس بِأكُفِّهِمْ على الطاولة حتى يُعبِّروا عن رغبتهم في سماعِ المزيد.

استمع آرن وكنوت، وهما أصغرُ الفتيان، إلى القصة، فاغِرَيْ الفاهَيْنِ، لكنّ إسكيل، الأكبرَ منهما قليلاً، بدأ يتحرّك ويتثاءَبُ، فأشارتْ سيغريد على الخدم بأنْ يحملوا الفتيانَ إلى النوم. لقد حَرِصَتْ سيغريد على أنْ يُخصّص لهم مكاناً مريحاً في أحدِ المطابخ، لأنها ارتأتْ أنّ الأطفالَ قد لا يليقُ بهِمْ المقامُ ما بين الكبارِ الذين كانوا يتناولون الكحولَ بإفراط طوالَ الليل.

وأطاع إسكيل من دون احتجاجٍ وتثاءَبَ مرّةً أخرى. كان وكأنه ارتأى أنّ سريراً دافئاً خيرٌ له بكثيرٍ من رَجُلٍ كهْلٍ يروي قصصاً قديمةً أبديةً بلغة مُعّقدة. لكنَّ آرن وكنوت ظلا يتخبّطان، لأنهما رغِبا في البقاء. وقد وَعَدَا بأنهما لن يُحْدِثا أيَّ ضجيج، لكنْ لا أحدَ ألْقَى إليهما بالاً على الإطلاق.

وما لبثوا أنْ ناموا تحت أفرشةٍ سميكةٍ من الريش، في أحدِ المطابخِ حيثُ ثلاثةُ مراجِلَ حديديةٌ كبيرة مملوءةٌ بالفحم الساخن. ونام إسكيل بسرعة، فيما ظلّ آرن وكنوت ساخِطين، لأنّ أخاهما الأكبرَ أَفْسَدَ عليهما الحَفْلَ. وفي بِضْع هَمَسَاتٍ، اتّفقَا، فارْتَدَيَا في هُدوءٍ ملابسَهما في الظلام، وتحاشَيا حارِسَيْنِ اثنين كانا يُلقيان قَيْأَهُما بالقرب من الباب، ودَلِفَا إلى القاعة الكبرى.

وهناك قَبعَا في آخرِ القاعة، حيث لا يراهما أحدٌ، لأنّ آرن عثَر على فَرْوَةٍ كبيرة فَلَفَّ نفسَه بها، ومثله فعل كنوت، وهما يحترسان أَيَّمَا احتراسٍ، حتى لم يكدْ يظهرُ منهما سوى شَعْرِهما الأشقرِ وعيونِهما المُحملِقة. ولم يتحرّكا قيدَ أنملة، وظلا يُنْصِتَانِ إلى مآثرِ سيغورد جورسلفار.

«في شمالِ فارس، وعلى جزيرةٍ تُدعى فورمنتيرا، قال الــ سكالد قَبْلَ أنْ يتوقّف قليلاً في انتظارِ عودةِ الصمتِ مرّةً أخرى، إنّ سيغورد جورسلفار وجيشَه، قد التقَوا بقراصنةٍ من عَرَبِ الشرق، وثنيّينَ ومُلحِدين، كَريهِي الرائحة، لا يغتسلون أبداً، حتى في عيدِ الميلاد، كُسَلاء وأتباعَ تجارةِ الجَسَدِ مع الحَمير، رغم اغتنائهم بِغَنِيمَةٍ اختلسوها من حُجّاجٍ مسيحيين طيّبين عُزَّل.

«ومع ذلك، فقد تقهقرَ الوثنيون في إتقانٍ، ومعهم كلُّ غنائمِهم، إلى مغارةٍ تَقَعُ على منحدرٍ وعرٍ، بل وقد نَصَبُوا جداراً أمام فتحةِ تلك المغارة. لقد صاروا وكأنّ لا أحدَ يَقْدِرُ على زَحْزَحَتِهِمْ من أماكنهم. وصاروا يَهْزَأُون من النرويجيين وهم يُشهِرون من فوقِ الحصنِ أَقْمِشَتَهُم الحريرية وكنوزاً أخرى. وقد بات في وَسْعِ هؤلاء الوثنيّين أنْ يُطلقوا سِهامَهم، وأنْ يَقْذِفُوا الحجارةَ وأقذاراً أخرى على رجالِ الشمال لو سَعَى هؤلاء لِتَسَلُّقِ ذلك المنحدر، ومنّ ثمَّ أضحَى السَّعْيُ لأيِّ هُجومٍ من ذلك القبيل، سَعْياً لا حِكْمَةَ فيه.

«لكنّ سيغورد جورسلفار أَسْدَى إليهمُ النصيحة. لقد أمَرَ بأنْ يَسْحَبُوا إلى الشاطىءِ تلك السُّفُنَ التي تُدْعَى بالقوارب، وبأنْ يرفعوها بعد ذلك فوق الجبل. وعلى القمّةِ، ومن فوق فتحةِ المغارة، ربَط رجالُ الشمال حبالا مَتينةً بِمُقَدّمات السفن وبمؤخِّرَاتها. ثم ملأوها برجالٍ مَغَاوِر وأَنْزَلُوا السُّفُنَ شيئاً فشيئاً، فذاقَ الوثنيون بِدورهم من طَعْمِ دَهَائِهِمْ، ولم يجدوا بُداً من أنْ يدافعوا عن أنفسِهم ضد ذلك المُقاتِلِ الذي أتاهُمْ من أعلى.

«لم تستمرْ المعركةُ إلا قليلا. وتلوّنتْ سهامُ رجال المَلِكِ بالدّم. وحطَّ الغرابُ على الجراحِ الطازجة. وكان ما حصَلوا عليه من غَنِيمَةٍ أغلَى من كلِّ الذي اغتنَمُوه على مدى الرِّحلةِ بكاملها.»

وتلقَّى الــ سكالد عاصفةً من ضرباتِ الزُّنود على الطاولة، فقد طُلب

منه بأنْ يواصل، فتظاهرَ بالتَّعَب، لكنه تلقَّى المالَ من ماغنوس، والجعة الطازجة. ثم جلس بُرهةً في انتظار عودةِ الذين خرجُوا لكي يتخففوا.

رغم الرجالِ الاثني عشر الذين مرّوا قريباً جداً من آرن وكنوت - حيث تعثّر بعضهُم فيهما- فلا أحدَ من هؤلاء الرجال أحسّ بوجودِهما، لفرط انطوائِهما على نَفْسَيْهِما، مثل صغارِ طائر القَطاة الكبير في الغابة، في كَبِدِ الليل.

«وعند قُدوم الصيف، أبحر سيغورد جورسلفار في اتجاهِ الأرضِ المقدّسة، وفي القدس استقبله الملكُ بالدوين. وقد تشرّفَ الملكُ بالدوين كثيراً بهذه الزيارة من مُحاربٍ من الشمال، وقد سار مع سيغورد حتى نهْر الأردن ومدينة عكا، الميناءِ المُحصّنِ الذي رسا فيه الأسطولُ النرويجي.

«عرَفَ الملكُ بالدوين كيف يستعملُ المحاربين الشّماليين البواسل، واصطحبهم معه إلى سوريا، حيث حرّرُوا مدينة سيدون Sidon من الوثنيِّين كافة، ليُنْقِذَ على ذلك النحو، مدينةً أخرى في الأرض المقدّسة.

«سيغورد، مع ذلك، لم يطلبْ أيةَ مكافأةٍ من الذّهب أو الحرير، مقابل مساعدتِه الثمينة. وعوضاً عن ذلك، تلقَّى، بناءً على نصيحةِ مجلس البطريرك، ومن الملك بالدوين، نجاراتٍ من الصليبِ المقدّس الذي صُلب عليه سيِّدُنا نفسُه. وأَقْسَمَ سيغورد اليمينَ بأنه سيَحْمِلُ هذه البقايا الثمينةَ إلى ضريحِ القدّيس أولاف، في نيداروس، وبأنْ يُشيّد هناك كنيسةً مَهيبة.»

تلقى السكالد تهليلاتٍ جديدة، وعلى الفور طُلب منه بأن يُردّد أجملَ الأبيات الشعرية:

« انتصر سيغوردْ

في سيدونْ، سيذْكُرُ الرجالُ ذلك النصر.

استعمل (المحاربون) السلاح ببأسٍ

في تلك المعركة الشرسهْ.

بِعُنْفٍ هاجَم المحاربُ

الحصنَ المتينْ.

وبالدم تلوّنتْ السيوفُ الجميلَة

عندما انتصرَ الأميرْ »

كان التهليلُ في القاعة بلا نهاية، وسرعان ما صار الجميعُ يتحدّثون في وقتٍ واحدٍ عن انتصارات الماضي، عندما كان هناك مَلِكٌ حقيقي، مثل سيغورد جورسلفار، وليس مثل هذا السفيركر صاحب العَضُدِ الرِّخْو.

سعَى ماغنوس إلى مُزْحَةٍ مُبَطَّنَةٍ، تَعْنِي بِفَخْرٍ أنه كذلك هُمُ النرويجيون، مادامت سلالتُه من أصلٍ نرويجي. لكنْ لا أحدَ استساغ هذه النُّكتة، ولا سيما إريك جيدفرسون، الذي قام وتناول قَرْنَ الشرابِ القديم الذي كان أمامَه- وهو قَرْنٌ نرويجي، وإنْ لم يكنْ يعرف ذلك-، وشربَه بجرعةٍ واحدة. ثم أعلن أنه تلقّى لتوّه رُؤيةً عن الأسلحةِ الجديدة التي ستكون أسلحتَه، وأسلحةَ المملكة كلِّها. سيكون هناك ثلاثةُ تيجانٍ من الذّهب: واحدٌ لسفيلاند، وواحدٌ لأوسترا غوتالاند، وواحدٌ لفسترا غوتالاند. وسوف تُرَفْرِفُ التيجانُ الثلاثة على خَلْفِيَّةٍ زرقاء. هكذا ستكون أسلحتُه وأسلحةُ المملكة في مستقبل ليس ببعيد.

ارتجتْ القاعةُ بالهتافات والتهاليل الملتهبة. كان إريك جيدفرسون يتمنّى أنْ يقول المزيدَ، لكنَ مثانتَه كانت مُمْتَلِئَة. ولمّا كان يُصرّ على أن يؤدي العَمَلَيْنِ في وقتٍ واحد، فقد تكلّم بصوتِ السكّير وهو يتّجه نحو الباب، واعداً كلَّ مَنْ يرغب في الإصغاء إليه، بالعِزَّةِ والمجدِ في الصّليبيات. فلعلَّ البدايةَ تكون مع «الفينيين» (الفنلنديين) على الجانب الآخر من البلطيق، لكنْ لمّا كان هؤلاء مُتَمَسِّحِينَ، فلعلّ أتباعَنا سيكونون في حاجةٍ أيضاً إلى العَوْنِ في الأرض المقدّسة.

وعندما وصل إلى الباب، لم يجدْ القدرةَ على اجتياز عَتَبَتِه، فاستندَ إلى الدّعامةِ وتخفّف من ألمِه وهو ثابتٌ في مكانِه.

لم يلاحظْ أنه كان يتبوّل فوق آرنْ وفوق ابنِه كنوتْ. ولم يجدْ هذان الأخيران من خيارٍ آخرَ سوى التَّحَمُّلِ في صَمْتٍ. لا آرنْ، ولا كنوتْ كانا سينسيان ذلك أبداً.

وهذا، ولا سيما أنّ الذي بال عليهما هو الذي كان سيصبح مَلِكاً وقدّيساً معا.

الفصل الثالث

أمسَك الشتاءُ أرناس في قبضةٍ من حديد. لقد باتتْ كلُّ الطرقِ المؤدّية إلى الجنوبِ غيرَ سالكةٍ منذ أعيادِ الميلاد. فحتى وإنْ سَلَكَ الناسُ جليدَ فانيرن، ولو بواسطةِ مزلاجات مجهَّزَةٍ بزلاجاتٍ واسعة، فإنّ ذلك في مثلِ ذلك الوقتِ لن يُجْدِيَ نفعاً. في ليديزة سيَحْصُلُ ماغنوس بالفعل على ضِعْفِ المالِ، عن المواد نفسِها، عند نهايةِ الشتاء، عندما تَقِلُّ تلك الموادُ في العديدِ من دكاكين المؤونَة.

في أرناس، كان العملُ يسير بِوَتيرَتِه العادية في مصنع البراميل، وكذلك في المشاغل التي تُعِدّ فيها النساءُ الصوفَ والكتّانَ، ويَنْسِجْنَ الأقمشةَ الغليظةَ والبُسط، إرضاءً للربِّ وللعبادِ على السواء.

كانت سِيُومْ نسّاجةً ماهِرة، تتميّز عن باقي النساء بشَعْرِها الأشقر الطويل ــ وليس الأسود الأجعد ــ، وكانت رغم قِصَر قامتِها بهيةً تَسُرّ الناظرين. لم تكنْ قد أنجبتْ بعدُ، ولذلك كانت تبدو متحفِّظةً فتأبَى المخالطةَ وكأنها تعيش على الآمالِ رغْمَ وضْعِها كقنٍّ مثل باقي الأقنّة. وكانت وكأنها لا تُلْقِي بالا للكلمات البذيئةِ التي كانت تُلقَى في ظهرِها كلّما مرّت بالمسبكِ أو مصنع البراميل. كانت سيغريد تُقدّرها أيما تقدير، فكثيراً ما كانتا تلتقيان معاً في عمَلِ الحِياكة، وفي ابتكارِ زخارفَ جديدة. لقد ردّت سيوم بـــ «لا» بلهجةٍ لم تقِلْ فيها الخشيةُ عن الخجلِ حينما اقترحتْ عليها سيغريد بأنْ تُعَمَّدَ باسمِ المسيح. لم تُعاوِدْ سيغريد العَرْضَ أبداً، لكنّها ما انفكت تُسائِل نفسَها كيف يسع امرأةً وثنيّةً أنْ تُنْجِزَ صُوراً مسيحيَّةً بذلك القدر من الجمال، تُمثّل معبدَ الربّ الهائل، أو جنودَ السيد وهم ينتصرون على قِوَى الظلام، نيرانِ الجحيم.

ما فتىءَ الركودُ الذي أحدثه الشتاءُ يثير سخطَ ماغنوس لبعض الوقت. لم يكنْ يَسَعُهُ أنْ ينهمِكَ في المشاغل على أيّ حال، وكان الثلجُ السميكُ يحول دونَه وأيّ صيدٍ. لكنه في المقابل كان يُبْدِى للنِّجادَةِ (الفرش والبُسط) كثيراً من الاهتمام، فقد لاحظتْ سيغريد أحياناً آثارَ خُطاه على الثلج أمام المشغل. وفوق ذلك فقد لاحظتْ أنّ سيومْ كثيراً ما كانت تَفِزُّ تَنْتَفِضُ حين تدخلُ إلى ذلك المشغل.

وفي النهايةِ سألَتْها سيغريد سؤالا مباشراً عمّا كان يجري في داخل المشغل، لكنّ سيومْ تنكّرتْ بقوةٍ في البداية، ثم ما لبثت أنْ أمسكتْ رأسَها بين يدَيْها وشرعتْ في البكاء.

ووَاسَتْها سيغريد، ثم أجالتْ يدَها على ظَهْرِها في لُطفٍ وهي تكيلُ الوضعَ كيلا. فإذا كانت سيومْ امرأةً حُرّةً فسيكون ماغنوس قد ارتكبَ زِناً في حقِّها. لكنْ على الأقل، لم تكنْ هذه المشكلةُ قائمةً من قبلُ. فإذا رغِب سيدٌ من الأسيادِ في أنْ يُشمّر ثيابَ أقنّته من النساء، فهو في ذلك حُرٌّ كاملَ الحرية. لم يكن من الصّعب بتاتاً أنْ يفهم أيٌّ كان أنّ سيومْ كانت إغواءً عظيماً حقاً، ليس في نَظَرِ الأقنّةِ وحدهم، بل وفي نظَرِ أيّ سيّدٍ أيضاً. ومن ناحية أخرى، كانت سيغريد تَعِي كلَّ الوَعْيِ أنها تتحمّل قَدْراً من المسؤولية في تلك القصّة. فكثيراً ما كانت تعترِض على ماغنوس عندما كان هذا الأخيرُ يُفْصِحُ عن رغبتِه في أنْ يمارِس حقوقَه الزوجية. وكانت هي وحدَها من يعرفُ أسبابَ ذلك، وهي الأسبابُ التي قد لا يَفْهَمَهَا ماغنوس أبداً. فلَمْ تكن هي ترغبُ في إنجاب طفلٍ آخر، ولم تكن تريد أنْ تلعبَ من جديد لعبةَ زهر النَّرْدِ مع حياتِها، ولم تكنْ ترغب في أنْ تتأرجَحَ بين الآلام وبين الموتِ مرّةً أخرى.

كانت إذاً تدفع ثمنَ فِعْلَتِهَا. فإنْ تواصل طيشُ ماغنوس وأصبح موضوعَ مزاحٍ، فقد يصبح لزاماً أن يُوحَى إليه بأنْ يقلّصَ من نَزَقِهِ قليلا. فالآن، لا بد قَبْلَ كل شيءٍ من إبداء اللُّطفِ إزاء سيومْ، وإقناعِها بأنّ سيّدتَها ليست عَدُوَّتَها اللدودة، لأنّ أقنةً كثيراتٍ قد عانَيْنَ من مِثْلِ ذلك الوضع في فترات زمنيةٍ

أخرى. وتذكّرتْ سيغريد في ارتعاشٍ قصةً أقْدَمَ فيها شخصٌ من أسرةِ أمِّها على شَوْيِ إحدى الأقنةِ على السّفُود، وقدّمها عشاءً لزوجتِهِ. وتقول القصةُ إنّ ذلك قد هدّأ من اضطرامِ الزّوجِ جذرياً.

بيد أنّ الإشاعةَ سرعان ما انتشرت في أرناس. سيوم الفخورةُ، أُغتُصِبَتْ ولم يعد بإمكانها أنْ تستخفّ بالرجال وكأنها عذراء. وصار الأقنةُ أكثرَ فأكثر تَهتُّكاً وسفَاهة، وقُلْنَ لها إنْ خيرٌ لها أنْ تذوقَ رجلا حقيقياً... ثوراً يمتطِيها من دون ضجيج. وسرعان ما انهالَتْ عاصفةٌ من الكلامِ الشَّبِقِ على سيومْ المسكينة، فكانت المصيبةُ بذلك أَمْراً محتوماً.

في المقابلِ، صارت قساواتُ الشتاءِ تصنعُ مباهجَ إسكيل وآرن. أستاذُهما، إيرلِند، وهو راهبٌ مساعدٌ من فارنيم، كان قد عاد إلى الديرِ قبل أعيادِ الميلاد بقليل. ومع أن عيد سانتْ بُول في ٢٥ يناير أصبح على وشكٍ، لكن لم يكن بمقدوره شقّ طريق لنفسه عَبْرَ الثلوج إلى أرناس. وهكذا، وبدلا من أنْ يَغُوصَا في قراءةِ اللاتينيّةِ ونصوصِ سانتْ برنار، كانا ينهمِكان في الألعابِ، وفي التهريج والمَرَح. وكانا على الخصوص يَهْوَيَانِ اصطيادَ الفئرانِ في دُكّان الحبوب، ثم إطلاقَها في المطابخ. فكانت صرخاتُ الأقنةِ وما يليها من صدَى الضرباتِ تُنْبِئُهُنَّ عنْ مصيرِ تلك البهائمِ.

ذات يومٍ تسلّلا إلى مستودعِ الأسلحةِ وأخذا تُرسَيْنِ قديمين مُدَوّرَين. وتسلَّقا سقْفَ البيتِ الذي يُخزَّن فيه الشعيرُ في نهاية الصيف، وجلسا على التُرسين لكي يتزحْلَقَا المنحدرَ مثل ثعالبِ الماء. وجلبتْ صرخاتُهما انتباهَ والدِهما الذي لم يكدْ يلاحظُ سوءَ استعمالِهما للسلاحِ حتى ضربَهما ضرْباً مُبَرِّحاً، فأسرع الطفلان الباكيان يُنشِدان العزاءَ في ورْشَةِ النسيج، لدى والدَتِهما.

لكنّ كدَرَهما ما لبث أنْ تلاشى. فقد ذهبَ سفارت، ذلك القنُّ الذي رأى تلك العبقريةَ التي أبداها الطفلانِ، إلى مشْغلَ النجارة، وثبّتَ بعضَ الألواح بعضِها إلى بعضٍ، وغطس أحدَ الأطرافِ في ماءٍ حارٍّ حتى يُثْنِيَهُ شيئاً فشيئاً فوق نموذجٍ من مِزْلَجٍ حديدي، ثم ثبّت فيه مِطْوَلاً من الجِلْدِ فصار

مِثْلَ زِمامِ العَرَبات. وما لبث إسكيل وآرن أنْ نَزَلا المُنْحَدَرَ من جديدٍ وهما يضحكان ويصرُخان.

لكنْ عندما رأى أطفالُ سفارتْ ما صنَعه لابنَيْ السيد، أَلْزَمُوه بأنْ يصنعَ لهم ما صنَعَهُ لهما. وحين قال مُعترِضاً إنْ شتان ما بين أبناءِ الأَقِنّةِ وأبناءِ السيد، ما لبثت سُوت أنْ ظلَّت تُلِحُّ عليه وتُلحُّ فلم يجدْ أمام إلحاحِها بُداً مِنْ أنْ يمضيَ اليومَ كلَّه في مشغلِ النجارة. لكنه لم يصنعْ لأطفالِه آلاتٍ بنفسِ الجمالِ والإتقان.

في البدايةِ رأى ماغنوس بِعَيْنٍ غيرِ راضيةٍ إلى طِفْلَيْه وهُما يَتَدَحْرَجَان على الثلجِ مع أطفال ذلك القنِّ. فذاك أمرٌ لا يليقُ بهما. فقريباً سيصبحُ إسكيل وآرن سيّدَيْنِ على الأَقنةِ، وعليهما أنْ يتصرّفا وكأنهما سَيِّدَيْنِ وليس كما لو كانا مجرّد رفيقَين في اللعب.

وردّتْ سيغريد بأنّ الأطفالَ هُمُ الأطفالُ، ولا مفرَّ من أنْ تُفْلِتَ منهمُ الفوارقُ عندما يصيرون كباراً، سواءٌ أكانوا أَقِنةً أَمْ أبناءً لرجالٍ أحرار. ناهيك عن أنّ الولدَين كانا لا يفْقَهَانِ اللاتينيَّةَ في ذلك الأوان.

ومرّةً أخرى ضحِكتْ ضحكتَها الغامضةَ وهي تنطقُ بهذه الكلمات. فلو كان الولدان يتحدثان اللاتينيَّةَ لكان الأمرُ بديهياً في نظرِها، بِقَدْرِ ما هو غيرُ مفهومٍ في نظرِ ماغنوس. ففي رأيِها أنّ المستقبلَ كفيلٌ بأنْ يفرضَ ذلك حتماً. فقد كان ماغنوس يعتبِر أنّ القساوِسةَ والرهبانَ وحدَهم مَنْ يستعمِلُها، وأنه بالإمكان القيامُ بأعمالٍ مُهِمَّةٍ في ليديزة باللغة العاميَّة، حتى وإنْ اقتضَى الأمرُ التَّكرارَ أحياناً حتى تصل إلى الأسماعِ. لكنْ، ما إنْ يعود المدرّس إيرلند من فارنيم حتى تُستأنفَ الدروسُ وتَضَعَ حدّاً لهذا الاختلاطِ مع الأَقنة.

لكنّ الشتاء ما انفك يرفضُ إرْخَاء هيمنته على أرناس. ولم يرَ إسكيل وآرن أَمْتَعَ من ذلك، حيث صار بإمكانهما أنْ يقضيا قَدْراً أكبر من الوقت مع أطفالِ الأَقنة، فشيَّدا حِصناً من الثلج، وتناوبا في الدفاع عنه، وكان لكلٍّ منهما العدد نفسُه من الصبيان في خدمتِهما. كان لإسكيل وآرن سيفانِ

صغيران من الخشب، فيما كان الآخرون يكتفون بكُرَيات الثلج، فهم على أيّ حالٍ أبناءُ الأقنة. لكنّ الجميعَ تكبّدوا بعضَ الرَّضّاتِ، وذرَفُوا بعضاً من الدموع.

وقد ساعدا كُول، ابنَ سفارت الذي كان من ندِّهِم، في القَبْضِ على الفئران التي كان سفارت سيستعمِلُها في تزيِين الأحابيل التي يصيد بها الفاقوم. لقد كانت جُلودُ الفاقوم مرغوبةً كثيراً: ثمنُ أربعةِ جُلودٍ لكلّ قِنّ.

وعندما بدأت الذئابُ تقترب من أرناس، وضَع سفارت نُتَفاً من اللحمِ القادم من المَذْبَح بالقرب من منفَذ أحدِ المَتَابن التائهةِ في القلعة. هناك كان سفارت يمضِي السهرةَ تحت ضوءِ القمرِ، في جوٍّ صحْو.

كذَب إسكيل، ووافق آرن على كذبِهِ بقوّةٍ، قائلا بأنّ والِدَهُما هو الذي رخّص لهُما بالبقاءِ مع سفارت عندما يَرْصُدِ هذا الأخيرُ فريستَه، شريطةَ ألا يُحْدِثا أيّ ضجيج. وساورتْ الشكوكُ سفارت، لكنه لم يجرؤْ ويسألَ سير ماغنوس إنْ كان وَلَداهُ كاذبَيْن.

كان إسكيل وآرن كلّما سمَح لهما الوقتُ بذلك يتسلّلان ليلا وهما يرتديان جلودَ الخِرَافِ السميكة. فيلتحِقان بسفارت الذي كان في رِصْدِ الذئب ومعه عَرّادَتَانِ مجهّزتان، وهو سلاح مصنوع من قوسٍ نحاسي مركّب على عمود. ولمّا كان لسانُ سفارت طليقاً جداً في بيتِه، فقد جاء كول أيضاً. كانوا إذاً ثلاثةَ غلمانٍ إلى جانبه، بِعُيونٍ جاحظةٍ وقلوبٍ خفاقة. كانوا حريصين على ألا يحدُث أيُّ صوتٍ في قلبِ التِّبْنِ، ويتقَصَّوْن المسافةَ الشاسعةَ المُغطاةَ بالثلج وكمَّ البقايا التي كانت الذئاب تأكلُ منها كلَّ ليلة.

كانت الليلةُ مضيئةً باردة، وفيما بدأ القمرُ يتلاشى اقتربتْ الذئاب. سَمِعَ سفارت والأطفالُ خطواتِها الحذِرة فوق قِشْرَةِ الثلج الجامدة، حتى قبل أنْ تلمحَها أعينُهم. وأشار سفارت إلى الأطفالِ بألا يتحرّكوا، وبألا يُطَقْطِقُوا أيَّ ذرارةٍ من القشّ. وحتى يفهموه أكثرَ أَوْمَأَ إليها بإيماءَةِ قَطْعِ عُنُقِ مَنْ يُخالِفُ أوامِرَه. وتقاطَعَ نظرُه مع نَظَرَيْ إسكيل وآرن المشدُوهَين، اللذين لم يسبقْ أن هدّدهُما قِنّ أبداً، ولو على سبيل المزاح. وأبدَيا مُوافقتَهما وهما

يَشُدّان على الإصبعِ الوسط والسّبابَة ليُشيرَا إلى أنهما يُقْسِمَان بأنّهما لنْ يُحْدِثَا أيَّ صوتٍ.

عبّأ سفارت عرّادَتَيْنِ في بُطءٍ غيرِ مُتناهٍ، دون فَرْقَعَةٍ أو صَرِير. ولم تتقدّم الذئابُ إلا في أناةٍ، ولم يجدْ سفارت بُداً من أنْ يُخفِّضَ سِلاحَه حتى لا يُرْهِقَ ذِراعَيه. وأخيراً تقدّم أحدُ الذِّئابِ، وأمسَك بقطعةِ لحمٍ ثم اختَفَى للتوِّ. وسرعان ما تَبِعَتْهُ باقِي الذئابِ، ولم يسمعْ الأطفالُ سوى عواء البهائمِ التي صارت تهوِي على الغذاء. وهدأَتْ الذئابُ، وتقدّمت واحداً تلو الواحد، وارْتَمَتْ على البقايا. ولم يَطِقْ الأطفالُ الانتظارَ، ولم يفهَموا ما الذي يجعلُ سفارت على ذلك القَدْرِ من التمهّل التَّأَنّي.

وأهابَ بهما، في أدبٍ جمٍّ هذه المرّة، بأنْ لا يتحرّكا، ثم رفَع عرّادَتَه وصوَّب في عناية. وما كاد يَرْشُقُ التَّرْبِيعَةَ الأولى حتى أمسَك بِسلاحِه الثاني، وصَوَّبَ وسَدَّدَ مرّةً أخرى. فسمِعوا في الثّلج أَنيناً يدعُو للرِّثاء.

وعندما أصدرَ سفارت حركةً ضاجَّةً، تجرَّأ الطفلان وأطلقا صرخةَ الفَرحِ، ثم اندفَعا لِيَنْظُرا في الفتحة، فرأيا أحدَ الذئاب جاثماً في الأسفل، وهو يَخْبِشُ الأرض. ثم أدرك سفارت أنّ الوضعيةَ خطيرةٌ على أطفالٍ صغارٍ، لأنّ أحدَ الذئاب المجروحةِ قد فَرَّ، ولذلك عليهما أنْ يعودا إلى البيت، أو أنْ يتعقّلا ويظلا آمِنَيْنِ، ريثما يذهبُ هو ليرَى ما الذي حدَث. وعلى الفورِ وَعَداهُ بأنهما لن يُحرِّكا ساكِناً.

وظهَر سفارت في الأسفل، وفي يدِه رُمْحٌ، ثم انْحَنَى وفَتَّشَ في الثلجِ بعناية. ولم يُلْقِ نظرةً واحدةً في اتجاهِ الذئبِ الذي لم يُحرّكْ ساكِناً. وما لبث أنْ اكتشفَ آثارَ الدَّمِ فتوغّل بسرعةٍ في الثلجِ الكثيف.

ظلّ الأطفالُ، المُرْتَعِدونَ بَرْداً، يُنصِتان طويلا إلى الهُدوء. وما لبثوا أنْ سمِعوا صُراخاً مؤثراً، ثم دمدمات قوية. وشَحَبَ لونُ إسكيل وآرن وكول لِفَرْطِ ما أصابهم من قلَقٍ، فأَرْهَفُوا السَّمعَ، وصاروا يتبيّنون شيئاً فشيئاً خطواتِ سفارت الثقيلة اللاهثَة.

«أبُونَا يحملُ الذئبَ الآخرَ على ظهرِه، لذلك فهو يتقدّم بِبُطْءٍ كبير»،

قال كول بلهجةٍ لا تمتُّ عنْ أيِّ ثِقَة. وأبدَى إسكيل وآرن موافقَتَيْهِمَا الدينية. لم يَنْتَبِهَا في هذه اللحظة إلى ذلك الجزءِ الغريبِ في جُمْلَة كول. لقد دعا هذا الأخيرُ، سفارت باسم «أبونا». إنّ الرجالَ الأحرارَ هم الذين يملكون آباءً، لكنّ الأقنة...؟

* * *

كانت مصيبةُ سيوم متوقّعة. وقد حَلّتْ فعلا. كان لِـ أُوردْ، وهي قِنٌّ عجوزٌ موهوبةٌ في دِباغةِ الجلود، ابنٌ يدعى سكول. وقلّما كان هذا السكول يقِظَ العقل. لكنه في المقابل، كان قوياً مثلَ الثورِ وفعّالاً جِداً في الأشغالِ التي ليس الإدراكُ فيها ضرورياً – الحصدُ وجَمْعُ العَلْفِ وتكديسُ البراميل. فلهذا السببِ لم يدركْ أسيادُه أنه ليس إلا نَذْلا.

كان يترقّب سيوم منذ وقتٍ طويل، وقد أردك بحواسِه رغبةَ الأقنّةِ الآخرين، أكثر ممّا أدركَها برأسِه. لقد سمِع دُعاباتهم الشّبقةَ ولم يفهمْ إلا في غموضٍ ذلك الذي كانوا يُلَمِّحون إليه.

وقبْل احتفالات سانتْ بول بأسبوع، ظهَر فجأةً عند نهاية المساء، في معملِ النسيج، مُتَصلِّبَ الأعضاء، مُشمّر السُّتْرَة، وكأنه بلغ حالةَ الإنهاك. ولَمَحَهُ أشخاصٌ عديدون فنادوا بالنجدة.

على أيِّ حالٍ، لقد أُسيئَتْ معاملةُ سيوم كثيراً، وحُقّرتْ أيما تحقير. وعندما وصلت سيغريد إلى عين المكانِ كان سكول قد كُبِحَ لِجامُه ورُبِط بأحزمةٍ جلدية وأُلْقِيَ به أرضاً في الساحة المغطاة بالثلج. وتخطّتْ سيغريد الساحةَ واقتربتْ من سيوم التي لم تكن واعيةً رغم تنفّسِها. وحرِصَت سيغريد على أن تُنْقَلَ سيوم إلى المطبخ الأكثرِ دِفْئاً، وتوسّلتْ إلى سُوت العجوز بأنْ تُطَبِّبَ سيوم باستعمالِها كلّ الأدوية الممكنة، حتى تلك التي لا ترغب فيها. ثم أغلقتْ سيغريد على سكول في دُكّانٍ للمؤونةِ وأَحْكَمَتْ إغلاقَه بعناية.

بعد الصلاةِ، خيّم في القسمِ الرئيسي للمطبخِ هدوءٌ غيرُ مُعتاد. كان الخَدَمُ

يتحرّكون من دون ضجّة، حتى كادوا لا يجرؤون على مجرد الوشوشة. وما لبثت غبطتُهم التي تصلُ إلى حدّ الوقاحةِ أنْ تلاشت.

كان الجوُّ كئيباً أيضاً في ساحة الشرف، ولا ماغنوس، ولا سيغريد، ولا طفلاهُما تحدّثوا كثيراً. لقد اكتفَى ماغنوس بِغَمْغَمَةِ بعضِ الكلمات وهو يَطَّلِعُ على ما جرى، قائلاً إنه لا يحبُّ قَتْلَ الأقنّةِ على الإطلاق.

لم تتشغلْ سيغربد كثيراً بهذه النقطةِ بالذات، طالما كان بديهياً أنّ ذلك السكول سيُقْتَلُ قريباً، أيًّا كانت هُويّةُ الشخص الذي سَيُكَلَّفُ بهذه المُهِمَّة. وفي المقابل كان لا بد من أنْ لا يشعُر ماغنوس بأنها هي التي كانت تحرّك خُيوطَ ما يجري في هذه المناسبة. لم تكنْ لِحماقاتِ ماغنوس مع سيوم علاقةٌ بتلك القضية. وفضلاً عن ذلك كان يجب ألا يعرفَ أنّ زوجتَه على عِلْمٍ بذلك، وألا يعرفَ على الخصوص أنها غَيُورَة. كانت سيغريد إذاً قد قرّرتْ بأنْ لا تقولَ كلمةً واحدة، وبأنْ تدَعَ ماغنوس يُقرّر وحدَه، أيًّا كان قرارُه النهائي.

من ناحيتِه، كان ماغنوس يُمَنّي نفسَه بأنّ زوجتَه العاقلة ستُنقذُه من هَلَعِه، فتُشير عليه بما ينبغي عليه فعلُه. ولو فعلتْ لاستقبلَ نصائحَها بكاملِ السُّرورِ هذه المرّة.

لم يتبادلْ الزوجان كلمةً واحدةً تقريباً. ولم يجرؤْ إسكيل وآرن على أيِّ إزعاجٍ، فأكَلا في هدوءٍ وهما يُفكران في الزلاجة، وفي الذئاب.

كان على ماغنوس أنْ يقولَ شيئاً. فتَنَحْنَحَ، وأزاح صَحْنَهُ حتى يُوحِيَ أنه قد أنهَى الأكلَ، وأنه يريد جِعَةً ثانية. وما لبث أحدُ الخَدَم، وهو أخرس، أنْ قدّمَها له في الحال.

«نعم فمنذ وقتٍ طويل لم نُنَفِّذْ الإعدامَ في حقّ قِنّ من الأقنّةِ، هنا في أرناس،» قال بقوةٍ ما لبثت أنْ تلاشت بسرعةٍ عندما لم تُبْدِ سيغريد أيَّ إشارةٍ بأنها ستُضيفُ لكلامه كلمةً واحدة.

«هل ستقتلُه بنفسِك، أيْ أبانا؟» سأَلَ آرن في فُضول.

« أجل، يا بني، لأنها مسؤوليةُ السيد الثقيلة». وألقَى ماغنوس نظرةً

إلى سيغريد التي لم تبادلْه تلك النّظرَة. وواصل يردُّ على ابنِه حتى وإنْ كان يُخاطِب زوجتَه قبل كل شيء.

«أتَرَى يا آرن، وأنتَ أيضاً يا إسكيل، أنّ نظاماً عادلاً يسودُ أرناس. أقِنَّتُنَا عاقِلون ويأكلون جيداً. يعرفون أنهم يستطيعون أن يَعْبُدوا آلِهَتَهم الوثنيين هنا، فيما الشأنُ ليس كذلك في مكانٍ آخر. لكنّني في الوقتِ نفسه السيّدُ والقانون معاً. إنّ القانون إذا وُضع اتُّبِع، بما في ذلك قانون السيد. إنّ مَنْ يرتكبُ إثمَ الاغتصابِ مآلُه الموتُ حتماً. هكذا الأمرُ. فليس من باب المُتْعَةِ قطعُ رأسِ قنٍّ من الأقنة، لكنه أمرٌ لا بد منه إنْ أردنا أنْ نُحافظَ على هذا النظام العادلِ في أرناس.»

وصمَت ماغنوس حين أحسّ أنه يخاطب أبناءَه الصغار بلهجةٍ وبكلمات لم تكنْ مُخصَّصةً لهم أصلا. لكنه سبقَ وأنْ أوْقَعَ نفسَه في فُضولِ الأطفال وهَلَعِهِمْ.

« وهل ستقطع رأسَه بنفسك ؟» ألحَّ آرن.

« أجلْ،» قال ماغنوس مُتَأَوِّهاً. هناك قلاعٌ أخرى تستعمِل الجَلادَ، لكنّ هذا لم يكنْ ترتيباً ناجِعاً أبداً. ما فائدتُه إذا لم يَقْطَعْ رؤوسَ أهله ؟ أو عندما لا يجدُ شخصاً يقتصُّ منه؟ وحسب ما أعرفُه، فإنهم في الغالب يُقتَلون في النهاية. لا، لم أُرِدْ أبداً، جلاّداً في أرناس. إنها مسؤوليتي وواجِبي وحدي، وهو حِملٌ ثقيلٌ. من المتعذّر أنْ يهربَ المرءُ من مسؤوليتِه، حتى وإنْ تعلّق الأمرُ بتنفيذِ الإعدامِ في حقِّ شخصٍ من الأشخاص. تذكّرْ هذا جيداً يا إسكيل، لأنك ستواجِه كثيراً قراراتٍ من هذا القبيلِ مستقبلا.»

وتوقفتْ المحادثةُ بغتةً كما بدأت بغتة. لم يعد هناك شيءٌ يمكن إضافتُه.

في صبيحةِ اليوم التالي جمَع ماغنوس على مرتفعاتِ ساحةِ القلعة، رجالَ حِراستِه الاثني عشر، ومائةً من الأقنة، ومن المزارعين المُعتَقِينَ، حتى يَرَوْهُ جميعاً، وهو يحمِل بيَدِه سيفاً.

لم يكنْ قد نام نوماً كافياً. ولم يُبادلْ سيغريد كلمةً واحدة، ولا شك أنه قد أخذ القرارَ وحيداً. لم يكنْ ينوي تعذيبَ القنّ، ولا دوْلبتَه (أي تعذيبه

بالدولاب)، ولا أنْ يقطعَ العضوَ الذي ارتكب به فاحشتَه، ولا أنْ يُذِلّه. كان سيخلعُ منه الحياةَ ليس إلا. وهو الذي سيقوم بذلك بنفسه، بِحَدِّ السيف. وهكذا سيبدو سيداً لطيفاً، لأنّ السيفَ فضلٌ لا يَحِقُّ للأقنّة الفاسدين.

كان سكول يرتعدُ من شدّةِ البرد، وكانت شفتاهُ مُزْرَقَّتَيْنِ عندما اقْتِيدَ. لم تُفدْهُ الليلةُ التي قضاها من دون جِلْدٍ أو غِطاءٍ في المخزن، شيئاً. وبدا وكأنه لم يفهمْ ذلك الذي كان ينتظرُه. وعندما لَمَحَ سيّدَهُ مع السيف الكبير وأغصانَ الصنوبر المنثورةَ عند قدميه، شرَع يَنْتَفِضُ، فأثارتْ رجلاهُ في نَعْلِهِمَا الرَّثِّ، دوّاماتٍ من الثلج. وفَقَدَ فَرْدَةً من نَعْلَيْهِ فحَفَرَتْ قَدَمُه الجامدةُ الوسخة أخدوداً في الثلج. لكنه ما لبث أن جُرّ في عينِ المَكانِ بلا رحمة.

وقفَ إسكيل وآرن، مع والدتِهما أمام الحُرّاس الذين وقفُوا أمام القِنِّ والمزارعين المُعْتَقِين. وظلّت سيغريد هادئةً، وقد تجمّدتْ ملامحُها بفِعْلِ كرامتِها بوصفها سيّدة. وهَمَسَ إسكيل وآرن، وصَوَّبا إصبَعَيْهِما، في عصبية. وأمسكتْهُما والِدَتُها من الخلف، من حيثُ لا أحدَ رآها، وشَدّت عليهما بقوةٍ حتى تُجْبِرَهُما على البقاءِ ساكِنَيْن. كان ماغنوس قد أصرَّ على أنْ يُحْضِرَ الوَلَدَيْنِ، لكي يتعلّما أنّ السيّد لا يملكُ المُتَعَ وحدَها، بل يحمِلُ على عاتقِه واجباتٍ ثقيلةً يتعيَّن عليه القيامُ بها.

وبصعوبةٍ أُمْسِكَ برأسِ سكول الذي كان يتخَبط. فكثيراً ما كان القِنّان اللذان يُمسكانه يجدان نفسَيهما في وَضْعٍ خطيرٍ وهما تحت السيفِ المرفوعِ. وفي الأخيرِ أَسْقَطَ ماغنوس سلاحَه وقَطَعَ الرأسَ قَطْعاً قاضِياً.

سقطَ رأسُ سكول في كَوْمَةِ الأغصان، واستدار وجهُه إلى السماء. ولَمَحَ الجميعُ تكشيراتٍ صغيرةً، وكأنّ الشّفتَين تريدان إصدارَ مزيدٍ من الأصوات، وكأنّ العينَيْنِ من خَلْفِ الجفنَيْنِ الخَفَّاقَيْن تريدان رؤيةَ المزيدِ من الأشياء. وجَمَدَ جسدُ سكول وانبثَق الدّمُ من رقبتِه المشطورةِ، في دَفْقَيْنِ ما لبِثا أنْ اختفَيا سريعاً.

حدّق آرن في القَدَمَيْن الحافِيتين الوسِخَتَيْنِ اللّتين تخبّطتا في الثّلج أوّلاً قَبْلَ أنْ تتجمّدا. وصلّى في صمتٍ، مُغْلَقَ العينَيْن، ودعا الربَّ أنْ يَقِيَهُ رؤيةَ

مثلِ ذلك المشهدِ مرّةً أخرى.

لكنّ الربَّ لم يستجبْ له على الإطلاق، لأنه كان مكتوباً ألا أحدَ من رجال سويلاند وغوتالاند سيرَى هذه المشاهدَ بِقَدْرِ ما سوف يراهُ آرن الصغير.

في الأسابيعِ الموالية، لم يُتَحْ للأطفالِ الحقُّ في الاختلاطِ بأطفالِ الأقنّة. وظلّوا في البيتِ الذي كُلِّفَتْ فيه سيغريد بِدروس اللاتينية، في انتظارِ عودةِ الأخِ إيرلند التي تباطأتْ كثيراً بسببِ سُمْكِ الثلوج.

* * *

في سانتْ بُول، وفي أوْجِ الشتاء، عندما يَبْقَى الدُّبُّ في عَرينِه، وحين يستمرُّ الثلجُ في السقوط بغزارة، يقوم ماغنوس بتنظيفِ الطريقِ إلى غاية كنيسة فورشيم، حتى يستطيعَ هو وأقاربُه المشاركةَ في القُدّاس لأوّلِ مرّة منذ فترةٍ طويلة.

كان الطقسُ بَهيّاً، مُشمِساً وخالياً من الرياح، وكانت القطراتُ على وشكِ السقوطِ من السّقف. فكان المسيرُ بالمِزْلاج مُمْتِعاً. كان ماغنوس يسمَع ضحكاتِ الأطفال، المُدَثَّرين في فَرْوِ الذئبِ الكبيرة التي وَرِثَها عن جَدّه. كانوا يضحكون كلّما أحدثتْ المزاليجُ صريراً. وكان ماغنوس يرفع من وتيرةِ حِصانَيه الأصْهَبَيْنِ، لأنه كان يحبُّ سماعَ تلك الصيحاتِ المَرِحَة. وقد حبَّذَ هذه المُتْعَةَ أيضاً لأنه كان يتهجَّسُ بأمرٍ مشؤوم، حتى وإنْ جَهِلَ مصدرَه. لقد ترك في أرناس نِصْفَ حَرسِه، وهو ما اشتكَى منه رجالُه، لأنهم كانوا يُحبّذون، بعد شهورٍ طويلة من العُزلة، أنْ يتباهَوا على ساحةِ الكنيسة. فهنا كانوا يُفضِّلون البقاءَ، بدلا من الدخولِ إلى الكنيسةِ وسماعِ كلامِ الربِّ، كما يَسْمَعُ مسيحيّون أتقياء.

عندما وصلت المزالجُ قادمة من أرناس إلى الساحة، تأكدتْ هواجسُ ماغنوس بما رآه. لقد أخذ الناسُ يتكتّلون في جماعاتٍ صغيرة ويتحدثون بلا تكلُّفٍ بصوتٍ منخفض، من دون أنْ يختلطَ بعضُهم ببعض، كما هي

العادة. لقد لبِثَ كل واحدٍ مع أسرتِه، وكان معظمُ الرجال يحملون الزَّرْدَ الدّالَ على الفترات المضطربة. فقد تكتظُّ الكنيسة، لأنّ كلَّ جيران الجنوب والغرب، وهوسابي، كانوا هناك. لكنْ لم يحضرْ أيُّ جارٍ من الشرق، اللهم إلا المزارعين المُعْتَقِينَ الذين كانوا يقِفون بعيداً قليلاً، مُقوَّسِي الظَّهْر، وكأنهم لم يتعلّموا كيف يتصرّفون كرجالٍ أحرار. كان خليقاً بماغنوس أنْ يلتحِقَ بهم وأنْ يتحدّث إليهم في أَتْفَهِ الأمور، لكنّ الظرفَ لم يكن يليقُ بمثلِ تلك العِنايات. وعندما هبطتْ سيغريد والطفلان من المزلج، ترك ماغنوس للخدَم أمرَ التكفّل بالحِصانين، وأسرع للالتحاقِ بجيرانِه الأكثر تهيُّؤاً، أي عائلة بال هوسابي، حتى يكون على بيِّنَةٍ من الأمر.

لقد اغتيل الملكُ سفيركر فيما كان متوجّهاً إلى قُدّاس أعيادِ الميلاد، في كنيسة تولستاد، وقد دُفِنَ في ألفسترا إلى جانب زوجتِه أولفهيلد. كان الجاني معروفاً: سيّدُ اسطبل هوسابي. لكنه كان قد نَفَذَ بِجِلْدِهِ إلى الدنمرك.

بيد أنّ السؤالَ الحقيقيَّ لم يكنْ يتعلَّقُ بمعرفةِ ماذا كان السيفُ، بل من كان يمسكُ به. البعضُ اعتقدوا أنه ايريك جيدفرسون، الذي كان عند عائلةِ سفيرْ في أوسترا آروس، والذي كان، حسب ما أُشيع، قد اخْتِيرَ مَلِكاً في مُورا. فيما اعتقد البعضُ الآخر أنه كان ينبغي البحثُ عن مُدَبِّرِ الجريمة في الدنمرك، وأنّ ماغنوس هنريكسن كان يطالِب بالعرش لأنه واحدٌ من أحفادِ الملِك أنجي القديم.

في لينشبينغ تُوِّجَ كارل سفيركرسون مَلِكاً، وقد استدْعَى الـ تينغ ليؤكدَ هذا التتويج. كان لا بد إذاً من أنْ يقرّر الناسُ مَنْ سيكون مَلِكاً على فاسترا غوتالاند، أهوَ كارل سفيركرسون، أم ايريك جيدفرسون . لكنْ مهما كانت الأحوالُ فالقضيةُ ما كانت لتُحْسَمَ بِسلام.

عندما دقّت الأجراسُ لتنادي الرعيّةَ، احتشدت الجموعُ عند بيتِ الربِّ لتخفِّفَ منْ رَوْعِها، ولكي تواسِيَ نفسها بالأناجيل، أو لتُهدِّئَ اندفاعَها بتراتيلَ مقدّسة. أو أيضاً، لكي تتأمّلَ، على غرار ماغنوس، أفكاراً قلّما كانت تخلو من انشغالات دُنيوية. من المحتملِ أنَّ أناساً كريمِي النَّسَبِ أو

حاملين لشعارات النَّبالَة، ينطَوُون على انشغالات شبيهةٍ بانشغالات ماغنوس، ويحدّثون أنفسَهم بأنْ لعلّها آخرُ مرّةٍ يلتقِي فيها الأصدقاءُ بأصدقائِهم تحت سقفِ الكنيسة نفسِها. فالربُّ وحده يَعْلَمُ ما الذي يُخَبِئُهُ المستقبل، وأيُّ سُلالةٍ ستقفُ في وجه سُلالةٍ أخرى. فمنذ اليومِ الذي استولى فيه سفيركر على العرش – ساعتَها لم يكن ماغنوس سوى طفلٍ- ما مِنْ عائلةٍ من عائلات غوتالاند أعلنتْ الحربَ ضدّ أقربائِها. أما الآن فقد بات هذا الأفقُ وشيكاً جِداً.

عندما انتهى القُدّاس كان ماغنوس قد أَوْغَلَ في أفكارِه حتى إنه لم يشعرْ بأنَّ وقتَ الخروج قد آنَ، فاضطرتْ سيغريد لأنْ تُوَجِّهَ له ضربةً خفيفةً بِكُوعِها. فوَزَنَ بعنايةٍ الكلامَ الذي كان سيقولُه.

وخلال محادثاتٍ طويلة جرت ما بين الرجال، فيما كانت زوجاتُهم وأطفالُهم ينتظرون وهُمْ يرتعدون في المزالج، اختارَ ماغنوس كلماتِه بإتقان. لقد أقرّ بأنّ ايريك جيدفرسون أقام حَفْلا في أرناس قَبْلَ مَقْتَلِ المَلِكِ سفيركر بقليل، لكنّه ما لبث أنْ أضاف بأنّ كرستينا، زوجة إيريك، كانت تُثيرُ انشغالَهما كثيراً بسبب مُنازعاتِها المتعلّقة بفارنيم. وهكذا كانت عائلتُها مع ايريك جيدفرسون وضدَّها في آنٍ.

وقد أقرَّ أنّ سيغريد كانت قريبةً جداً من سفيركر، لكنه وضّح أنّ الملكَ قلّما كان ينظر بعينِ الرضا لعائلةِ والدتِه النرويجية. إذاً، كانت عائلتُه مع سفيركر وضدَّه في وقتٍ واحد.

فيما اتّخَذ آخرون مواقفَ أكثرَ حَسْماً، وكان معظمُها لصالح عائلة سفيركر، لكنّ ماغنوس لم يُرِدْ التورّطَ في الأمر، ومن ثمّ الإشارةَ إلى أشخاص حاضرين كأعداء في المستقبل. ما كان يمكنُ لهذا الأمرِ أنْ يكون رأياً سديداً. فآجِلا أم عاجلا سوف يقاتِلُ بالسيف الأعداءَ الذين سَيَبْتَلِيهِ بهم الربُّ، أياً كانت الأقوالُ التي سوف تقالُ وفقاً لإلهامِ اللحظةِ، على ساحةِ الكنيسة.

علتْ وَجْهَ ماغنوس طلعةٌ عَبُوسة خلال مسيرِ العودة. وعندما اقتربُوا

من أرناس، ألقَى من حوله بنظراتٍ حائرةٍ، وكأنه توقَّع اكتشافَ مُحاصِرين للحصنِ، على الرغم من أنّ الثلجَ كان يحمِي الحِصْنَ من أيِّ جُنْدٍ غير مُنْضَبِطٍ قادِمينَ من الشمال ومن الشرق.

وما إنْ وصل حتى أَمَرَ بِنَقْلِ الحطب إلى المصاهِر، وعلى الفور أَمَرَ كلَّ الأقنّةِ الأكفاء بالعمل، آمِراً إياهُم بِصُنْعِ أكبرِ كميَّةٍ ممكنةٍ من رؤوس السهام والرّماح. لأنّ الحديدَ الفظَّ الذي توفَّرَ بغزارةٍ على أراضي أرناس لا يسمحُ بِطَرْقِ السّيوف.

ومنذ اليوم التالي، جَهَّزَ ماغنوس مِزلاجَيْن ثقيلَين حتى يتوجَّه إلى ليديزَة ويُدبِّرَ ما يَلْزَمُ للحرب القادمة.

* * *

فكَّ الشتاءُ تدريجياً قَبْضَتَهُ على أرناس، ولم يَرِدْ أيُّ خَبَرٍ عن جيوشٍ تتهيّأُ للحرب، سواء في أوسترا غوتالاند أو في سويلاند. وهدَأَ ماغنوس وأَمَرَ الحدّادين والنجّارين بأنْ يستأنِفوا مَهامَّهُم الاعتيادية. وقد طمْأَنَتْهُ سيغريد أيضاً بأنْ قالت له إنَّ الحربَ بالتأكيدَ لنْ تأتِيَ إلى أرناس أوّلا. فإذا كان ايريك جيدفرسون قد تُوّجَ مَلِكاً على عائلةِ سفار، وإذا كان كارل سفيركرسون قد أصبح مَلِكاً على أوسترا غوتالاند، فإنّ هذين الملِكَيْن قد يتقاتلان فِعْلا إنْ طابَ لهما أنْ يَقْتَتِلا. هنا، في فاسترا غوتالاند، يكفِي أنْ ينتظرَ الناسُ المُنتصرَ، ثم يُقدِّمون له الولاءَ، فورَ انتصارِه.

لم يُشاطِرْها ماغنوس منْ ذلك الرأيِ إلا نِصْفَهُ. بالفعلِ كان يمكنُ أنْ يتّجِهَ أحدُ المَلِكَين أوّلا نحو فاسترا غوتالاند، ليبحثَ فيها عن ثاني التيجانِ الثلاثة التي يعتَبِرُها ايريك جيدفرسون مِلْكاً له.كان لا بد إذاً من قَرَارٍ حاسم. وكان ايريك جيدفرسون وكارل سفيركرسون قادِرَيْنِ على أنّ يَشْتَرِطا ذلك التاج.

وردّتْ عليه سيغريد بأنّ قَضاءَ السّهراتِ في الشُّرْبِ وفي نَهْكِ الأعراضِ لن يُغيِّر في الوضعيّةِ شيئاً. فكلُّ شيءٍ سوف يتّضِحُ عاجِلاً

أو آجلا، وساعتَها سيحينُ وقتُ الوقوفِ مع هذا الطرفِ أو ذاك. وقرَّر ماغنوس أنْ يكتفِيَ بهذا الموقفِ إلى حينٍ.

وفيما كان الثلجُ قد بدأ يذوبُ مِنْ على الأسْقُفِ منذ أسبوع، إذا بِمُصيبَةٍ تضرِبُ أرناس. وكانت المصيبةُ أعظمَ جَلَلا ممّا لو أنَ أحدَ المَلكَيْن جاء ليؤدّيَ قَسَمَ الوَلاء.

كان الوَلَدان يَمْضِيَان الجزءَ الأكبرَ من وقتِهما في هُدوءٍ تحت وَطْأَةِ إيرلند، العائدِ إلى أرناس فور انتهاءِ أعيادِ سانت بليز في الثالث من فبراير. لقد كانا من طُلوعِ الفَجْرِ إلى صلاةِ السّتار، يمكُثان في زاويةٍ من زوايا القاعة الكبيرة، بالقرب من المدفأة، وكان الأخُ إيرلند يُحاوِل أنْ يُدخِلَ قليلاً من التّعقُّلِ في رأسَيْهِما العنيدَيْنِ الصغيرَين. ورأى الوَلَدان هذا العملَ دَنِيئاً ما دامت النصوصُ التي جَلَبَها إيرلند من فارنيم قليلةً وتتعلّق بمواضيعَ لا تهمُّ الأطفالَ الصغارَ، ولا حتى الكِبار في فاسترا غوتالاند. إنها على الخصوص نصوصُ الفيلسوفِ التي تتناولُ العناصِرَ والفيزياء. وفوق ذلك، لم يكنْ هذا العملُ يهدِفُ إلى تعليمِهما الفلسفة – فهُما أصْغَرُ من أنْ يستوعبا ذلك –، بلْ لكيْ يُلَقِّنَهُمْ قواعدَ اللغةِ اللاتينيَّة. فكما كان إيرلند يُردّد دائماً: «لا معرفةَ مِنْ دون قواعدِ اللغة مطلقاً. ومن دون قواعدِ اللغة سيظلُّ العالَمُ عَصِيّاً على كُلِّ فَهْمٍ». ويعودُ الوَلَدان للغوْصِ ثانيةً في تلك النصوصِ وهُما يتنَهّدان.

لم يكن الأخُ إيرلند يتشكى من شيءٍ بتاتاً. بيد أنه تخيّل، من دون عناءٍ، استخداماً أفضلَ لموهبتِه، أو على الأقلّ عملا أكثرَ يُسراً من أنْ يحاولَ أنْ ينصَحَ طفلين حَرُونين. لكنْ لم يخطرْ له يوماً أنْ يُعيدَ النظرَ في قراراتِ الأبِ هنري الوقور. وما أكثرَ ما كان يُحدِّثُ نفسَه في أوقاتِ سُوَيْدَائه أنْ لعلَّ الأمرَ مِحْنَةٌ قد أصابتْه، أو عقابٌ على المَعَاصِي التي ارتكبَها في أثناء حياتِه الدنيا قَبْلَ أنْ يَعْتَنِقَ موهبتَه.

لكنّ يومَ العطلةِ كان خليقاً أيضاً بالطفلين اللذين كانا يَعْكِفان على لُغتِهما اللاتينية بلا توقّف. ففي يومِ الربِّ كانا يختفِيان بسرعةٍ فائقةٍ بعد

صلاةِ الصّبيحة. وكان ماغنوس وسيغريد مُتّفِقَيْنِ على أنْ يترُكاهُما طَلِيقَيْنِ ويتجاهلا أنّ ابنَيْهِما لا يحترمان لا الهدوءَ ولا التأمُّلَ اللذين تُوصِي بهما تعاليمُ الربِّ ذاتُها.

كان لِكُول، القنِّ الشاب، طائرُ زَرْعٍ (نوع من الغربان) مُهَجّنٌ يرافقه، مُتربِّعاً فوق كتفه. لقد وعَد إسكيل وآرن بغربانِ زرعٍ صغيرةٍ ريثما تكبرُ الفُقُوسُ في العشِّ في أعلَى القلعة.

اندَسَّ الطفلان إلى المكانِ لكيْ يَعُدَّا الأعشاشَ ويتأكّدا إنْ كان بداخلِها بيضٌ. فلَمْ يجدا بداخِلها بيضٌ، لكنّ غربانَ الزرعِ كانتْ مُنْهَمِكَةً في بناءِ أعشاشِها، وهو ما كان بِحَدّ ذاتِه يُبَشِّرُ بخيرٍ جَمٍّ.

كان إسكيل قد اشترطَ بأنْ يُعيرَهُ كُول طائرَه لكي يحمِلَهُ فوق كتفِه. ولم يجدْ كُول بطبيعة الحال ما يعترِضُ به على ذلك الشرطِ، اللهم إلا أنَّ الطيرَ قد يُبْدِي مزيداً من العِنادِ مع شخصٍ غريب.

وكما خشِيَ إسكيل تماماً ما لبث طائرُ الزرع أنْ ترك كتِفَ إسكيل لكي يَحُطَّ في أعلَى الدَّرابزَيْن. وبدا وكأنه يتأمّلُ الفضاءَ من حوله، ويتساءلُ إنْ لم يَحِنْ الوقتُ لكي يتحرّرَ من الأسْر. ولم يجرؤْ إسكيل على فِعْلِ أيِّ شيءٍ، لأنه كان مُعَرّضاً للدُّوار. ولم يجرؤْ كُول على فِعْلِ أيِّ شيءٍ من خشيتِه أنْ يَفْزَعَ الطيرُ فيَحُضَّهُ على الهرَبِ من غيرِ رجْعة. لكنّ آرن ارتفع في حَذَرٍ فوق الدّرابزين وهو يمدُّ ذراعَه نحو الخيطِ المعقودِ برِجْلِ الطائر. لكنه كان ما يزالُ بعيداً عن مُتَنَاوَلِ الطيرِ، فاضطرّ لأنْ يتسلَّقَ إحدى الشُّرُفات ويقِفَ على أطراف أصابع رِجْلَيْه. وما كاد يُمسِكُ بالخيطِ رُوَيداً رويداً حتى طار غرابُ الزرع ناعِقاً، فجرَّهُ معه إلى الهاوية. وأحسّ الطفلان المرعوبان أنَّ رَدْحاً من الزمنِ قد طواهُما قَبْلَ أنْ يَسْمَعَا الصوتَ المخنوقَ الذي أَحْدَثَهُ آرن وهو يصطدِم بالأرض.

وسرعان ما دوّتْ في أرناس الصراخاتُ والنواحاتُ، فيما كان آرن يُنْقَلُ بلا حراكٍ إلى المطبخ الذي تركَتْهُ سيوم بعد نَقَاهَتِهَا. ووُضِع هناك، ميؤوساً من حالتِه. كان آرن شاحِبَ اللون، لا نفَسَ فيه.

وهُرِعَتْ سيغريد خارج بيتِها، مثل أيّ أمٍّ وَصَلَها للتوِّ نبأُ إصابةِ أحدِ أبنائِها بجراحٍ خطيرة. ولم تكدْ ترى آرن مُمَدّداً حتى تسمّرَتْ في الحينِ، غيْرِ مُصدِّقة. إنّ ما رأته لا يمكن أنْ يكون صحيحاً. آرن، لا يمكن أنْ يموتَ وهو في مُقْتَبَلِ العُمر. لقد أيقنَتْ بذلك منذ اللحظةِ التي رأتْ فيها أنّ ذلك الطفلَ قد وُلِدَ محظوظاً.

ومع ذلك فقد كان قابِعاً هناك، بالقرب منها، شاحِباً، بلا نفَس.

عندما جَثَا ماغنوس بالقرب منها كان يعرفُ أنّ أيّ أَمَلٍ لا طائِلَ من ورائه. وفي حالةٍ من الرَّوْعِ طَرَدَ الجميعَ باستثناء إيرلند، لأنه لم يرغبْ في أنْ يُظْهِرَ دموعَه للأقنّةِ والخدم.

وبدا الاستمرارُ في الدُّعاءِ في سبيلِ حياةِ آرن، عديمَ الجدوى، لذلك خيرٌ لَهُمْ أنْ يَطْلُبوا المغفِرةَ عن الذنوبِ التي جَلَبَتْ إليهم غَضَبَ الربِّ، قال ماغنوس. لكنّ إيرلند لم يجرؤْ على إبداءِ أيِّ رأيٍ في هذه المسألة.

وتوسّلتْ إليهما سيغريد، والدموعُ تَنْهَمِر على وَجْهِها، بأنْ لا يَفْقِدا الأملَ كُلِّياً، وبأنْ يُصلّيا طلباً للمعجزة. ورضِيا بذلك في هُدوء، ما دامت المعجزةُ وارِدةً، وما دام لا أحدَ يعرفُ شيئاً على وَجْهِ اليقين، وطالما لم يصلِّ أحدٌ بعدُ صَلاةً بهذا المعنى.

واقترح ماغنوس أنْ يكون التضرُّع للقدّيسة العذراء، ما دامت هذه الأخيرةُ هي التي لَعِبَتْ، بالتأكيد، الدورَ الأكبرَ في قُدومِ الولَدَين إلى هذا العالم.

لكنّ سيغريد أحست في طَوِيَّتِها أنْ لعلّ القدِّيسة العذراء، السيّدة القدِّيسة جداً، قد عِيلَ صبرُها مَعَها، وخَطَرَ لها فجأةً أنّ أقربَ قدِّيسٍ إلى آرن على الأرجح، هو القدِّيسُ برنار، وهو قدّيسٌ حديثُ العهد بالشمال، وصاحبُ القُدرات المجهولة تقريباً. وعلى الفور وافق إيرلند على الاقتراح وشرَع يتلو العديدَ من الأدعيةِ أمام الأبَوَيْنِ الجاثِمَيْن. كان القدِّيسُ برنار، في رأيه، هو أقربُ القدّيسين على الإطلاق.

بدأ الليلُ يُسْدِلُ ستارَه، وآرن لم يُبْدِ أيَّ إشارةٍ من إشاراتِ الحياة. لكنّهم لم يستسلموا قط، حتى وإنْ غَمْغَمَ ماغنوس أحياناً بأنْ لا أملَ يُرجَى، وأنْ لا

بُدَّ بعد ذلك من تقبُّل عِقابِ الربِّ في حُزْنٍ، وعِزَّةِ نفسٍ ونَدامة.

عندئذ أقسمتْ سيغريد أمام القدِّيس برنار، وأمام الربّ، أنّ آرن لو كُتِبَتْ له النجاةُ، فستَهَبُ حياتَه لخدمةِ عَمَلِ الربّ. وقد عاوَدَتْ وَعْدَها وجعلتْ ماغنوس يُردّدُه معها مرّةً ثالثة.

وفي اللحظةِ التي شعرتْ فيها سيغريد أنّ شرارةَ الأملِ الأخيرةِ توشِكُ أنْ تنطفِئَ في قلبِها، حدثَتْ المعجزة.

لقد استقامَ آرن على أحدِ كُوعَيْه، ونظر من حولِه، مُشوَّشاً، وكأنه يستيقظُ لتوّه من ليلِ نومٍ هادئ، وليس عائداً من مملكةِ الأموات. كان يشكو من ألمٍ في ذراعِه، قائلاً إنه لا يستطيع الاستِنادَ إليه. لكنَّ الرجالَ الثلاثة لم يسْمَعُوه منْ فَرْطِ انهماكِهم في التّشكُّراتِ التي كانت بلا شكٍّ أنْقَى صلواتٍ توجَّهوا بها إلى الربّ.

أمسكتْ سيغريد آرن منْ يدِه واصطحبته إلى القاعةِ الكبرى. وفيها أُعِدَّ له سريرٌ بالقرب من المدفأة. وأحضرتْ سيغريد سوتْ وأَمَرَتْها بأنْ لا تُلطِّخَ معجزةَ الربِّ بأيِّ نوعٍ من السِّحرِ أو بأدويةٍ نَجِسَة. وجسّتْ سوتْ ذراعَ آرن وفحصت أكثرَ المواضِع إيلاماً، وهو ما لم يكنْ ميسوراً، لأنّ آرن كان مُصِرّاً على أن يُظهِر شجاعتَه كلما نظر إليه كذا من الأشخاص، ولا سيما والده.

لكنّ سوت لم تنخَدِعْ بما ادّعاه آرن مطلقاً. لقد أخذتْ قُرّاصاً (نبات شائك) جَافاً، وأعدَّتْ مَرْهَماً، ثم طَلَتْه على ذراعِه قبل أنْ تُضمِّدَه بِقِطَعٍ من الكَتّان. ثم قالت بِضْعَ كلماتٍ لسفارت الذي توجَّه إلى مصنع النجارة. وعمِل فيه بعضَ الوقت، ثم عاد منه بقِطعتَيْن خفيفتين من الصنوبر المُقَعَّرِ. ثم أخذ بعضَ المقاييس واختفى من جديد لكي يُكمِّلَ العملَ الذي طلبتْه منه سُوتْ.

وبعد أنْ جَهَزَ العملُ ثبَّتَتْ سُوتْ الأربِطَةَ بِقِطَعٍ جديدةٍ من الكتّان. وأهابتْ بآرن بأنْ لا يُحرّك ذراعَه، لأنّ عَطَبَهَ كان خطيراً. ثم جَرَّعَتْهُ مُستخلَصاً من الأوراق اليابسة، ومن جُذور نباتِ مَلِكَةِ المروج، حتى ينام بلا حرارة.

نام آرن بسرعة، وارتَخَى وجهُه وكأن شيئًا لم يكنْ، وكأنّ ما من مُعجزة لَمَسَتْه. وظلّتْ سيغريد وماغنوس يتأملان طويلا طفلَهما النائم، فاغِرَيْ الفاهِ، أمام ذلك الشيءِ العجيب الذي حدَث في قلعتِهما: لقد أَحْدَثَ الربُّ مُعجزة !

آرن، ابنهُما الأصغر، نادَتْهُ المَنيَّةُ إلى عالَمِ الأموات. وما من أحدٍ راوَدَهُ شكٌّ في ذلك. فالأمرُ كلُّ الأمرِ أنْ يعرِفَ هؤلاء إنْ كان الربُّ قد أصرّ على أنْ يُثْبِتَ طيبتَه إزاءَ الذين استنجَدُوا به، مع تلك الدموعِ التي كان كلُّ أبٍ سيَذْرِفُها في تلك اللحظة من الشِّدَّة. أمْ كان للربِّ، على نحو ما أيقنتْ به سيغريد، غايةٌ سيخصُّ بها آرن، عندما يصبح هذا الأخيرُ كبيراً.

لكنّهما كانا يجهلان كلَّ ذلك، لأنّ سُبُلَ الربِّ غالباً ما تفوقُ الإدراكَ البشري. كان عليهما أنْ يتقبّلا المعجزةَ أوّلا، بكامِلِ أبعادِها، وأنْ يُقَدِّما المزيدَ من الدُّعاءِ، تعبيراً عن امتِنَانِهِما.

* * *

كان إيرلند على يقينٍ منذ وقت طويل، بقداسة مُهمّته. كان عليه أن يحقّقَ بكاملِ العناية الممكنة، معجزةَ آرناس. لم يكنْ قد مرّ على وفاةِ سانت برنار وقتٌ طويلٌ، وكانت على الأرجح، أُولَى المعجزات التي يمكن أنْ توعَزَ إليه في فاسترا غوتالاند. كان الأمرُ يكتسي أهميةً بالغة إذاً. وقد فكّر إيرلند أيضاً في أنّ الأب هنري سيغتبِط بنَصِّه. وأنّ ما يُثبته من تطبيقٍ ودقّةٍ في هذه المُهمّة سيتيحُ له بأنْ يُقبَل في أقرب وقتٍ، أخاً كاملَ الحقوق في رهبانيّةِ السيسترسيين. ناهيك عن أنّ الإعلانَ عن حدثٍ بهذه العظمةِ لا يمكن أنْ يُضيرَه في شيء.

لم يكن الورقُ المُشمَّعُ يُصنَّعُ في أرناس، إذْ لا تُصنَّع فيها سوى بعضِ جُلودِ العِجلِ الرقيقة، الملمَّعةِ من جانبٍ واحد، كان ماغنوس يبيع منها لغرضِ الملابس الجاهزة. وكان إيرلند قد استعمَل قطعاً منها في تمارين الخطّ مع الأولاد.

صار العملُ يُكرَّس إذاً للكتابة، ولفَنِّ الخط، أكثر مما يُكرَّس للدراسة في القاعة الكبرى. ولم يعترضْ الولدان على هذا التغيير مطلقاً، لأنّ كليهما كانا يستعملان في إتقان، الريشةَ والألوانَ معاً. وقد طلَب إيرلند منهما، على الخصوص، أنْ يكتُبا على تلك القِطع، النصّ الذي كان يحرّرُه باللاتينيَّة، وأنْ يُتَرْجِماه إلى أحرفٍ رُونيّةٍ على آخر سطرٍ. وأصرّ سير ماغنوس في حزْمٍ على أنْ يتعلّم الولدان كتابَة أجدادِهما إنْ هُما تعلّما كتابةَ خطّ الكنيسة. فهذا الفنُّ سيكون مفيداً لولَدَيْن سوف يُصبحان تاجرَيْن مستقبلا.

في أثناء التمرينِ الأول لاحظ إيرلند أنّ آرن الصغيرَ الذي كانت ذراعُه اليُمنى ما تزال بلا حراكٍ، يُخطّط بذراعِه اليسرى، صُوراً صغيرةً، بذاتِ سُهولةِ ذراعِه اليمنى. فما دام الجرحُ يُعيق آرن، فإنّ إيرلند لم يُشغِلْ بالَه بالأمرِ كثيراً، وإلا لكان الأمرُ نذيرَ شُؤمٍ إنْ فضّل أحدُهم أن يستعمِلَ اليدَ النّجِسَة. لكنْ عندما استعاد آرن يُمناه اتّضح أنه يستعملها طواعيةً كما يستعمل يُسراه. وكأنه لا يرى فَرْقاً بين هذه وتلك، وكان هذا مرهوناً قبل كلّ شيْءٍ بمزاجِه، أو باليدِ التي أمسكتْ بريشةِ الوزّة.

وعندما قرّر إيرلند بعد العديدِ من النُّسْخ ومن الجهود والصلوات أنّ نصَّه قد انتهَى لم يرَ شيئًا يستعجِلُه أكثرَ من أنْ يتوجَّه إلى فارنيم. فقد ادّعَى أنّ إحدى أيامِ الأحاد تقتضِي حضورَ الإخوة لاي كافة، وأنه قد يُعرِّض نفسَه لبعض التأنيب إنّ هو قصّر في الذهاب إلى هناك. وبكثيرٍ من الحَميَّة انطلق نحو فارنيم، في يوم عيد القدِّيسة العذراء، اليوم الذي عادتْ فيه طيور الغرنوق إلى فاسترا غوتالاند.

لم يرِقَّ قلبُ الطفلين لرَحيلِه. ومع قُدوم الربيع اختفَى الثلجُ من على ساحة القلعة، ومن الفضاءات التي تفصِل ما بين بناءاتِ أرناس. وأَقْبَلَ وقتُ لَعِبِ كلّ الأطفال، ففي أرناس كانوا يَلْهُونَ على الخصوص بدَفْعِ طَوْقِ برميلٍ يُسيّرونه بواسطة عصاً، ويتناوبون الواحد تلو الآخر على انتزاعِ الطَّوْقِ، بواسطة العَصا وحدَها. فإنْ تمكّن أحدُهم من رَطْمِ الطّوقِ على أحدِ الجدران، كان هو الفائزَ بالغَلَبة. لكنّ اللعبةَ لم تكن بهذا القدْر من السهولة،

لأنّ الكلَّ كان يسعَى لأنْ يمنعَ الآخرين من الوصول إلى ذلك الفوز.

على الرغم من أنه لم يكنْ من فئَةِ الأكبرِ سناً ما لبث آرن أنْ أبدى تفوّقَه في هذه اللعبة، رغم قامتِه القصيرة. كان حيوّياً مثل السرعوب، ناهيك عن استعمالِه لبراعةٍ كان الآخرون أَعْجَزَ عن الإتْيَانِ بمثلِها، إذْ كان يُغيّر العصا في الآنِ من يدِه اليمنى إلى يدِه اليسرى، فيُغيّر على هذا النحو سرعةَ الطَّوْقِ على حينِ غرّة، مما يجعل بقيةَ الأطفال ينطلقون في الاتجاهِ السيئ، حتى إنه لم يبقَ عندهم سوى حلٍّ واحدٍ لإيقافه: عرقلتُه بالرِّجْلِ أو الإمساكُ به من قَميصِه. وقد صار الأكبرُ سناً كثيراً ما يلجأون إلى هذه الطرق، لكنّ حيويَّة آرن ما فتئت تنمو بالوتيرة نفسها. وفي النهاية تجاسَرَ إسكيل – الوحيدُ القادر على مثل هذا الشيء – فأوقَف آرن، بإعطائِه صفعةً على الوجه.

وأضْجَرَ هذا السلوكُ آرن فمكث في زاويتِه حَرِداً مُستاءً.

وأقبل ماغنوس يواسيه، وأمَر بصنعِ قوسٍ وسهامٍ بأحجامٍ ملائمة. ثم أخذ آرن على انفرادٍ وشرع يُلقّنه فنّ الرّماية. وما لبث إسكيل أنْ التحقَ به، لكنْ سرعان ما أغاظه أنّ يظلَّ أخوه الأصغرُ يُتْقِنُ الرمايةَ أحسنَ منه. وما لبث أنْ عاد الشجارُ بينهما من جديد. وتدخّل ماغنوس وأعلن أنّ الأمرَ إن استمرّ على ذلك النحو فإنَّ الرّميَ بالقوس لن يُتاحَ لِلْوَلَدَيْن إلا في حُضورِه. وهكذا تحوّلتْ اللّعبةُ فجأةً إلى شكلٍ من أشكال الدراسة، وكأنّ الوَلَدَان استأْنَفَا الكتابةَ وقراءةَ النصوصِّ الغامضة حول العناصر والأنواع. وطارتْ المتعةُ، على الأقل مُتْعَةُ إسكيل الذي كان دوماً يتكبَّدُ الهزيمةَ من والدِه ومن أخيهِ الأصغرِ أيضاً.

لكنّ الذي لاحظَه ماغنوس عند وَلَدَيْهِ ما لبث أنْ أثار حَيْرَتَهُ. كان إسكيل كالأولادِ كافة، في طريقةِ وقوفه ورَمْيِهِ القوس، كما كان هو في طفولتِه تقريباً. وفي المقابل، كان آرنْ يملكُ في ذاتِه ميزةً لم تُؤْتَ لغيرِه من الأطفال، ومَنْ يدري، فلعلّها مَلَكَةٌ ربّانية. وتحرَّى ماغنوس الأمرَ لدى الحُرّاسِ الذين بدأوا يتأملون آرنْ ويستغرقون في التأمُّل، فيما كان هو

غارقاً في التدريب، وأَبْدَوا مشاطرتَهم لِحُكْمِ ماغنوس. من المتعذّر القولُ في يقينِ ما الذي يمكنُ أن يُنبِئَ به ذلك، لكنَّ موهبةَ الوَلَدِ كانتْ يقيناً.

تحادَثَ ماغنوس مرّاتٍ عديدةً في هذا الشأنِ مع سيغريد، كلّما خَلَدَ الولَدان إلى النوم. سَيَرِثُ إسكيل أرناس، فذاك مكتوبٌ ومطابقٌ لإرادةِ الربِّ، ما دام هو البِكْرُ. وسيهتمُّ إسكيل بالقلعةِ وبالتجارة، لكنْ، أيُّ مَشيئةٍ يَشَاءُها الرّبُّ لآرن؟

كانت سغريد تعزُو لزوجِها أنْ لعلَّ الربَّ قد كَتب على آرن، مُهمّةً حربيّة. بيد أنها لم تكنْ على يقينٍ منْ أنها سَتَسْتَحْسِنُ هذا التفسيرَ رغم بداهتِه. كان الإحساسُ بالخطأ يُعذِّبها، لأنها قطعتْ للربِّ وعداً، وإنْ في لحظةٍ من الحزنِ العارمِ، بالتــأكيد، بأنْ تَهَبَهُ ابنَها لكي يخدُمَ هذا الأخيرُ عمَلَ الرّبِّ ما بين البشر.

لم تكن تُحدِّثُ ماغنوس بذلك، وكأنّ زوجَها يُنكِرُ ذلك الوعدَ في طويَّتِه، حتى وإنْ كان يذكُر ذلك الوعدَ بقدرِ ما كانت تذكرهُ، حتى وإن تباهَى دائماً بوفائه بالوعد. صار ماغنوس ينظرُ إلى مستقبلِ ابنِه وكأنه مستقبل مُحاربٍ رهيبٍ في قلب نُخْبةِ فريقِ السلالة. ومن المؤكد أنّ تلك الرؤيةَ كانت تُغْبِطُه أكثرَ من أنْ يتصوّر ابنَه آرنْ بَطْرِيقاً في سكارا، أو رئيساً لأحدِ الأديرة. هكذا كان الرجالُ يفكّرون، ولم يكنْ ذلك بالأمرْ المستجدِّ على سيغريد.

لكنّ إرادةَ الربِّ سرعان ما جاءتْ لكي تُنْعِشَ ذاكِرَتَهما في قساوة. بدأ ذلك بِجُرْحٍ مُهيِّجٍ على إحدى يديْ سيغريد – في المكان الذي انغرزَتْ فيه شظيةٌ في إحدى يدَيها في أحدِ الإستطبلات، عندما دفعتْها عِجْلَةٌ حرُونَة. لقد بذلتْ سيغريد جهداً هائلاً حتى لا تنهار في الرَّوْثِ. وأبَى الجُرحُ أنْ يطيبَ فتضخّم وصار أكثرَ فأكثرَ إيلاماً.

ذات صباحٍ اكتشف ماغنوس أمراً غريباً على وَجْه سيغريد. فذهبتْ لتَرَى وجهَها في مرآةِ أحدِ البراميل فاكتشفتْ جُرْحاً شبيهاً بذاك الذي كان على يدِها. كان الجرحُ عند اللَّمْسِ، مَليئاً بالقَيْح.

وتفاقَم مرضُها بسرعة. وتوسّعَ الجرحُ في وجهِها، وسرعان ما أضحتْ

سيغريد عاجزةً عن النظرِ منَ العيْن القريبةِ من الجُرح الأصلي الذي كان يحكُّها كثيراً. وشرعتْ في إخفاءِ وجهِها، وفي الصَّلاةِ بحرارةٍ، عند الفجر، وفي الظهيرةِ والمساء. لكنّ ذلك في الظاهرِ لم يُجْدِ نَفْعاً. وبدأَ الخوفُ يستولي على زوجِها وابْنَيْها.

عندما عاد إيرلند من فارنيم حمَل معه أنباءً سارةً وأخرى مشؤومة. وبدأ بالسّارة منها إذْ قال إنّ نصَّ معجزةِ أرناس قد لَقِيَ قبولاً طيّباً في فارنيم، وأنه قد شُرِعَ في تدوينه على الورق المشمّع، بالخطوط المزخرفَة، في حَوْلِيّات الدير.

أمّا الأنباءُ المشؤومة فقد اتصلتْ بكريستينا، زوجةِ ايريك جيدفرسون. كانت تقيم في قلعةِ أحد أقاربها المجاورة، يرافقُها حَرَسٌ هائل أمّنَهُ لها زوجُها، ملك ُعائلةِ سفير. أجل، أصبح الأمرُ مُؤكداً، لقد صار ايريك جيدفرسون مَلِكاً على سفيلاند.

ما انفكت كريستينا تُضاعِف مؤامراتِها الخطيرة، فتُؤَلِّبُ مُزارعيها ضدّ إخوَةِ الدير. بل وقد تحالفت مع بعضِ الرهبان. كانت تتصرّف وكأنّ الديرَ يقعُ على أراضٍ من مُمْتلكاتِها. وإنْ عَنَّ لأحدِهم ألا يستسلمَ عنْ طيبِ خاطرٍ لرغباتِها فلنْ يلقَى أيَّ رحمةٍ من المَلِك إيريك، حينما يصبحُ هذا الأخيرُ سيّداً على فاسترا غوتالاند.

ذات يومٍ، في قلْبِ القُدّاس، اقتحمتْ زُمْرَةٌ من النساءِ، الديرَ وهنَّ لا يرتدين من الملابسِ سوى القُمصان. ورَقَصْنَ وغنَّيْنَ أغنياتٍ خليعةً قبل أنْ يُلَطِّخْنَ الساحة. وقد بذَلَ الإخوةُ جُهداً جهيداً حتى يُطهِّروا المكانَ ويُبارِكوه مرةً أخرى.

أدركت سيغريد ذلكَ التذكيرَ المُلِحّ من الربِّ. فانفردتْ بماغنوس وإيرلند، وأخرجتْ كلَّ الخدَم وكشفتْ عنْ وجهِها المُشوّهِ لإيرلند الذي أصابَه الهلعُ. ثم قالت ما كان عليها أنْ تقوله

«ماغنوس، زوجي السعيد وسيدي، لعلك تذكرُ مثلي تماماً ما وَعَدَنا به القديسُ برنار ومولانا قبْل أنْ يَبْعَثَ الربُّ الحياةَ في آرنْ مرّةً أخرى.

لقد وعدَنا بأنْ نسعَى لأنْ نُنْذِرَ آرن لخدمَةِ عَمَلِ الربّ على هذه الأرض إنْ كُتِبَتْ له الحياة. لكنّنا لم نَعُدْ للحديث في هذا الأمرِ أبداً. واليوم ها هو ذا الربُّ يقول لنا رأيَه في مَكْرِنا واحتيالِنا. علينا إذاً بالنّدَمِ والتّوبة، أليس كذلك؟».

ولوَى ماغنوس يَدَيْه وأقرّ بأنه يَذْكُر تلك الأمنيّةَ جيداً. لكنَّهم، كانوا قد قَطَعُوا ذلك العهدَ في زمنٍ مِنْ الشِّدَّةِ القُصوى. ومع ذلك فَلَعَلَّ الربَّ قدْ قَدَّرُ الأمرَ حقّ التقدير.

التفتتْ سيغريد إذاً إلى إيرلند الذي كان أكثرَ ارتباطاً منهم بالقضايا الدينيَّة. ولم يجدْ إيرلند بُدَّاً من أنْ يشارك سيغريد رأيَها. كانت سيغريد تبدو مُصابَةً بالجُذام، ولم يكنْ في وسعِه أنْ يُنْكِرَ ذلك. ولمّا لم تكنْ ثمةَ آفةٌ للجذامِ، لا في أرناس ولا في فاسترا غوتالاند، فإنّ عقاب ذلك الجذامِ لم يكن إلا عقاباً من الربِّ ذاته. وفضلا عن ذلك، فإنْ كان أكثرُ أعمالِ سيغريد وَرَعاً – هِبَةُ فارنيم للربِّ – قد بات مُهَدَّداً أيضاً، فالأمرُ تحذيرٌ وإنذارٌ لا محالة.

قَضَى الربُّ بأنْ يُوفُوا بِوُعُودِهِم. وقد عاقبَ سيغريد بسببِ تردُّدِها في هذه المسألة. يستحيلُ أنْ يُؤَوَّلَ ما كان يحدثُ بِغَيْرِ هذا التّأويل!

وفي اليوم التالي وقع الأسَى بشدَّةٍ فوق أرناس. فما من صرْخَةِ طِفْلٍ يَلْهُو رنّ صَداها في ساحةِ القلعةِ، أو في الأراضي المجاورة. كان الخدمُ يتسرَّبون في هُدوءٍ في القاعةِ وكأنهم من كائناتِ الغابات، وما أكثرَ الذين كانوا لا يكتُمون دموعَهم إلا في عَناءٍ جَمّ.

لم يعرفْ ماغنوس كيف يُعْلِنُ النَّبأَ المشؤوم لابنِه الأصغر. وفيما كانت سيغريد تُعِدُّ أغراضَها للسفر، اقتادَ آرن إلى قِمَّةِ البُرجِ. وقد أَبْدَى آرن الذي لم يكنْ يعرِف ذلك الذي كان ينتظِرُه، من الفُضولِ أكثرَ ممّا اعتراهُ من الجَزَعِ والحيرة.

ورَفَعَهُ ماغنوس وأَجْلَسَهُ على إحدَى فَتْحاتِ الرّمي، حتى يرى ابنَه وَجْهاً لوجهٍ. ثم ما لبث أنْ أدركَ أنّ هذا الاختيارَ بالتأكيدِ لم يكنْ هو

الاختيارُ الأفضلُ، فلعلَّ آرن قد يشعُر بالخوفِ في هذا الارتفاعِ الذي سقَطَ منه إلى مَمْلَكَةِ الأموات.

لكنّ آرن لم يُبْدِ أيّ إشارةٍ لإحساسِهِ بالدُّوّار. وما دام والدُه قد بَدَا غارِقاً في ما يعنيه من أفكارٍ، فقد تجرَّأ ومَالَ منْ على الحاجِزِ حتى يَنْظُرَ رأساً إلى ذلك المكانِ الذي هَوَى إليه.

رفَع ماغنوس آرن في رِفْقٍ، وضمَّه ما بين ذراعيه، ثم شرَع في شَرْحِهِ الشّاق. فأشار إلى الأراضي المحيطةِ التي كانت تجري فيها أعمالُ الحِرَاثَةِ الربيعيَّة على مدَى البصر. ثم قال إنّ كلَّ هذه المملكةِ سوف تعود إلى إسكيل عندما لنْ يصبحَ هو نفسُه من هذا العالم، فيما ستؤولُ مملكةٌ أخرى أَوْسَع، إلى آرن... مملكةُ الربِّ على الأرض.

بدا آرن وكأنه لم يستوعبْ أقوالَ والدِه. فلعلها وقعتْ من مَسْمَعِهِ وقْعَ واحدةٍ من تلك الجُمل الدينيَّة المَهيبة العادية التي يستعملها الناسُ حينما يسعون للظهورِ بمظهر التّباهي. جُمَلٌ كانت تُستعمَل مقدماتٍ لما كانوا سيقولونه حقاً. ولم يجدْ ماغنوس بُدّاً من أنْ يستأنفَ الحديث.

وتحدّث عن اللحظة الرهيبة التي لم يعدُ فيها آرن ما بين الأحياء، والتي وعدَتْ فيها سيغريد وهو نفسُه، تحت وطأةِ اليأس، أنه إنْ فازَ آرن بالخلاصِ فسوف يُكَرِّسُ لخدمةِ مُهِمَّةِ الربّ فوق الأرض. وقد تردّدا فيما بعدُ في تحقيقِ هذه الأمنية، لكنَّ الربَّ أنْزَلَ عليها عِقاباً قاسياً جزاءً لعِصْيانهما. لذلك وَجَبَ عليهما الوفاءُ بوعدِهما بأقْصَى السرعة.

وبدأ آرن يتنبّأ بأنّ شيئاً مشؤوماً سوف يَقَعُ قريباً. وما لبث والدُه أنْ أكّد مخاوِفَهُ عندما أَخْبَرَهُ بوضوحٍ، في اللحظة الموالية، بذلك الذي كان سيحدُث. إذ كان على آرن أنْ يتوجَّه إلى فارنيم بصحبةِ والدتِه وإيرلند. هناك، سيدخُل إلى الدير بصفتِه خادِماً للربّ. ولن يُقصّر الربُّ في رعايتِه، وكذلك القديسُ برنار، سيّد آرن المقدّس، لأنّ الربَّ كان بالتأكيد يُهيِّئُه لمشاريع كبرى.

من هذه الكلماتِ، فَهِمَ آرن كلَّ شيء. سيقدّمه أبواه قُرباناً للربّ. ليس

على نحو ما كانت الأمورُ في ما مَضَى، مثلما كان يحدُث في الحكايات التاريخية الإسكندنافية، لكنّهما كانا، على أيِّ حال، سيتقرَّبان به إلى الربّ. ولم يكن له في ذلك، هو الطفلُ، حولٌ ولا قوّة، طالما لا غِنىً للأطفال عن طاعةِ الأب والأم دائماً. وشرع في البكاء، فرغم استحيائِه من البكاءِ أمام والدِه، فلم يستطعْ أنْ يَحْبِسَ دموعَه.

أخذه ماغنوس بين ذراعيه، وحاول أنْ يُخفِّفَ من رَوْعِه وهو يُذكِّرُه بأطيبِ نوايا الربّ، القديس برنار، الذي سوف يَرْعاهُ، ويرعَى كلَّ ما يخطُر على بالِه في تلك اللحظة. لكنّ الغلامَ ما انفك يَشْهَقُ بين ذراعيه، وأحسّ ماغنوس أنه سيُظهِر حُزنَه هو أيضاً، وهو ما كان الربُّ يُحَرِّمُهُ عليه.

وجِيءَ بالعَربات، وظلّ الحرّاسُ ينتظرون في الساحة مع دوابِّهم. وخَرجت سيغريد من المنزل، مَسْتُورَةَ الوجه، وصعَدتْ على الفور في عَرَبَة المقدّمة. وتعقَّبَها إيرلند، ونظر من حولِه في احتشامٍ، ثم اندفَع داخل العَرَبَة الثانية.

ظهَر ماغنوس مع الأخَوَيْن الباكِيَيْن اللذين تعانَقا، وكأنهما صارا، بِحُكْم أَذْرُعِهما الواهِية، قادِرَيْن على الحيلولة دون وُقوعِ ما كان سيقَعُ. وفَصَلَهُما ماغنوس بِحَزْمٍ، وحمَل آرن لغايةِ العربة الأولى، وأجْلَسه إلى جانب والدته. وتنشَّقَ بعمقٍ، وسَاطَ الخيولَ. وأقلعتْ العرباتُ في هزّةٍ قويّة، بينما عاد ماغنوس نحو الباب، وتربَّص لإسكيل محاوِلاً في رُعونَةٍ أنْ يُمْسِكَ به عندما مرّ بالقربِ منه، لكنّ ابنَه ما لبِث أنْ أفْلَتَ من قبضتِه.

وأغلقَ ماغنوس البابَ دونَه من دونِ أنْ يلتفِتَ مرّةً واحدة. وركَض إسكيل قليلاً خلْفَ العربات، باكِياً، ثم وَقَعَ على الأرضِ، ولَمَحَ بُرهةً رأسَ أخيه وهو يتوارَى في الغُبار.

بَكَى آرن بمرارةٍ وهو يرى أرناس تَنْأى عنه. وفكَّر أنه لنْ يرى أبداً منزلَه مرّةً أخرى، وأنْ لا حِيلَةَ لسيغريد في مُواساتِه.

* * *

كان قُدُومُ سيغريد في رأيِ الأبِ هنري غيرَ مُلائم بالمرّة. لقد زارَه الأبُ ستيفان، صديقُه وزميلُه القديم في كليرفو، هذا الذي أصبحَ الآن رئيسَ الدّيرِ في ألفسترا، حتى يُناقشَهُ في تلك الوضعيةِ الصّعبة التي تسبَّبَتْ فيها مَلِكَةٌ كانت تُشاكِسُهُما، وتُؤَلِّبُ الناسَ ضدّ الإخوةِ في فارنيم. من المؤكدِ أنّ ستيفان هو الرجلُ الذي كان الأبُ هنري يرغبُ في مُحادَثَتِه في مسائلَ عويصةٍ. فكلاهُما يعرفُ الآخرَ منذ الطفولة، وكلاهُما كانا من الأوائلِ الذين تلقَّوا تعليمَهم مِنْ فاهِ سانتْ برنار نفسِه، فهو الذي أَمَرَهُما بالذهابِ إلى ذلك الشمالِ الجامِدِ الهمجي، حتى يُؤَسِّسا فيه دِيراً سِيسْتِرْسِيّاً. وكانت الرّحلةُ إلى الشمالِ طويلةً، وباردةً وكئيبَة.

كان الأبُ ستيفان قد قَرَأ نصَّ مُعجزةِ أرناس من قبلُ، وكان بالتالي يعرفُ طبيعةَ مُشكلةِ سيغريد. بالتأكيد، كان قد توقّفَ نقلُ خُدّام الرَّهبانيةِ إلى ألفاسترا، وفارنيم، وبورغونيا أيضاً حيث يوجد الدير الأم. أمّا ما كان يُحفِّز هذا التحوّلَ فأمرٌ منطقيٌّ، ومن السّهلِ فهمُه. كانت حريةُ الإنسان – اختيارُ طريقِ الربِّ، أو طريقِ الضلال– تتعرّض للهجوم إذا أُخِذَ الأطفالُ لتربيتِهم في الأديرة. فمنذُ الثانية عشرة من عُمْرِهم يَنْصَهِرُ هؤلاء الأطفالُ في قالَبِ الرَّهبانيةِ، فلا يعرفون بعدَ ذلك حياةً أخرى غيرَ حياةِ الرُّهبان. لذلك استقرَّ الرأيُ على أنّ تربيةً مثلَ هذه ستَحْرِمُهُمْ من حُريّةِ الإرادة، فتقرّر في حِكْمَةٍ ألا يؤّخذَ مَنْذُورونَ للرهبانيةِ بعد ذلك اليوم.

ومن ناحيةٍ أخرى لم يكنْ بالإمكان الاستهانةُ بمعجزةِ أرناس. فإذا كان الأهلُ قد نَذَرُوا الطفلَ للربِّ في أكثرِ الأوقاتِ حساسيّةً، وهو ما لم يشكْ فيه أحدٌ قط، وإنْ حقّقَ الربُّ المعجزةَ، فقد كانت أُمنيَّةُ الأبوين من القداسةِ ما يجعلُ رفضها أَمْراً مُتعذّراً.

لكنْ ماذا لو حال خُدّامُ الربِّ دون الأبَوَيْنِ وأداءِ هذه الأمنية؟ ماذا لو ببساطةٍ رَفضوا الطفلَ مادامتْ عادةُ المنذُورين للرهبانيةِ قد أُلْغِيَتْ تماماً؟

في هذه الحالةِ، سوف يتحرّرُ الأبوان من وَعْدِهما بالتأكيد، لكنْ في ذلك اعتراضٌ طوعيّ ومقصودٌ على مشيئةِ الربّ الجليّة. كان ذلك مستحيلا.

لذلك إذاً كان لا بدّ من استقبالِ الغُلام.

وماذا كان حالُ السيدةِ سيغريد؟ بادِئَ ذِي بَدْءٍ، كان الربُّ قد عاقبَها بِقَسْوَةٍ على تردُّدِها. لقد جاءتْ إلى فارنيم لكي تُعْلِنَ توبتَها، وتُؤكِّدَ بأنّها لنْ تعيشَ بعد ذلك إلا على بقايَا الديرِ وفتافيتِه.

وفيما عدا ذلك، كان كلُّ ذلك مرهوناً بسؤالٍ أهمَّ بكثير: «هل كان أصحابُ الشأنِ سيتخلَّون عن فارنيم، ويعودون إلى كليرفو، ومن ثمّ يحرصون على أنْ يطردوا كريستينا وزوجَها حتى يُسَوّيَا مُشكلتَهما، ويَبْدَآنِ حياتَهما من جديد؟ بيد أنّ هذا الإجراءَ، لو راعينا مُدّةَ السفرِ، سوف يستغرقُ من الزمنِ عامَيْن على الأقل.

كان الرجلان جالِسَيْن في ظلّ الرّواقِ الذي يربط بين الكنيسة والمراقد. وأمامَهما، كانت زراعاتُ الأخِ لوسيان تتألَّقُ تحت الشمس. كان الأبُ هنري قد أَوْفَدَ الأخَ لوسيان إلى البيتِ القديم حيث تُقيم سيغريد وابنُها. وما لبثت عودتُه الحائرة أنْ قطعتْ الحوارَ ما بينهما.

جَلس على المقعدِ الحجري إلى جانبِهما وتنهّد: «هُومْ...لستُ أدري ماذا أُصَدِّق. لكني لستُ أعتقدُ أنّ الأمرَ مجردُ بَرَصٍ، فالجُرحُ فيه ماءٌ كثيرٌ ومُتَقَرِّحٌ. بل أُرجِّحُ أنّ الأمرَ شكلٌ من أشكال حصبة الخنزير التي يُصاب بها أيُّ شخصٍ عند لَمْسِ بُرازِ هذا الحيوان. لكنْ يستحيلُ أنْ يُنْكِرَ أحدٌ أنّ التقرُّحَ شائن.

– وإذا كان الأمرُ ببساطةٍ نوعاً من أنواعِ الوباءِ الخنزيري، فماذا عساكَ فاعلٌ، يا أخانا العزيز؟ سأل الأبُ هنري.

– والحالةُ هذه، أتعتقدُ، يا أبانا، أنْ لا بد من أنْ أفعلَ شيئاً حقاً؟

–كيف هذا؟ سأل الآخران، في حَيْرَةٍ أيضاً.

– والحالةُ هذه، أقولُ لنفسي... إذا كان الربُّ نفسُه هو الذي أصابَه بهذا المرضِ، فَمَنْ أكونُ أنا حتى أتدخّلَ في مَشِيئَةِ الربّ؟

–هيّا، يا أخي لوسيان، لا تكنْ سخيفاً ! ردَّ عليه الأبُ هنري في لهجةٍ غاضِبة. أنتَ أداةُ الربِّ، وعليك أنْ تفعلَ أفضَلَ ما يسعُكَ فِعْلُهُ، وسوف

يُجازِي عملَكَ المفيد. وإلا فلا فائدةَ من أيِّ شيءٍ، ولا أهميةَ لأيِّ شيء. إذاً، ما الذي نَوَيْتَ أن تفعلَه؟»

بدأ الراهبُ المختصُّ في علم النباتِ يشرحُ بأنّ الأمرَ يتعلّق بتنظيفِ الجُرح وتجفيفِه. الماءُ المباركةُ لتطهيرِ الجُرحِ، ثم الهواء النقيُّ والشمسُ سيجفّفان الدُّمّلَ في غضون أسبوع واحدٍ تقريباً، على الأقلِّ ما وُجِدَ منها على مُحَيَّى السيدة سيغريد. كانت اليدُ تبدو أكثرَ ضرراً، وفي أسوأ الحالاتِ قد يكون الأمرُ شيئاً آخرَ غيرَ حصبة الخنزير.

وأبدَى الأبُ هنري موافقَته. فقد بدَا هذا الأخيرُ كما هو الحالُ دائماً عندما يُقَدِّمُ الأخُ لوسيان تشخيصَه الطبّيّ الأوّلَ، مُقْتَنِعاً تماماً. كان الأبُ هنري يستحسنُ على الخصوص هذه القدرةَ على الصّمودِ أمام أي مشكلةٍ، وعلى ألا يتعجّلَ في تطبيقِ كافةِ أنواع الأعشاب على الفورِ، على أمَلِ أنه إذا لم يُؤثِّرْ نوعُ من الأعشابِ فلعلَّ نوعاً آخرَ يُحْدِثُ مفعولَه. وحسب الأخِ لوسيان فإنّ هذه التصرّفاتِ الرعناءَ لنْ تزيدَ الإصابَةَ في غالب الأحيان إلا سوءاً.

وعندما عاد الأخُ لوسيان إلى أكثرِ أشغالِه إلحاحاً، استأنفَ الأبُ ستيفان الحوارَ من حيث توقّف في البداية. كان واضحاً أنّ الربَّ يهيِّئُ غاياتٍ خاصةً لهذا الغلام الصغير. لكنْ إذا كان الربُّ يرغبُ فقط في أنْ يكون له راهبٌ من بين رُهبانٍ آخرين كثيرين، أليس إفراطاً أن يلجأ إلى المعجزة، وإلى البَرَصِ في آن واحدٍ؟ فالناسُ لم يُقصّروا في أنْ يُصبِحوا رُهباناً مقابلَ أشياء أقلَّ شأناً.

انفجرَ الأبُ هنري ضَحِكاً وهو يُنْصِتُ إلى منطِق زميلِه الذي جاء جازماً وغريباً. كان لا بد من استقبالِ الطفلِ، لكنْ مع مُعاملتِه في رِفْقٍ، كما يُرْفَقُ بِنَبْتَةٍ هَشّةٍ من نباتاتِ الأخ لوسيان، والسّهرِ على عدمِ إعاقَةِ إرادتِه الحرّة. فلعلّ بالإمكان فَهْمُ نوايا الربِّ على نحو أفضلَ في ما يلي من الأيام.

سيصبحُ الغلامُ إذاً منذوراً لخدمةِ الرهبانية حتى وإنْ وَصَلَ مُتأخّراً إلى

الكهنوت. أما وإنْ اضطُرّ أصحابُ الشأنِ فيه على مُغادرةِ فارنيم فسوف يَلْحَقُ بهم. وتلك نقطةٌ سوف تعالجُ في حينِها.

لم يبقَ إذاً سوى السيدةِ سيغريد. بدايةً، كان أسهلُ ما في الأمرِ، بطبيعة الحال، أن تُتْرَكَ وشأنَها حتى تعترِف بِذُنوبِها، وأنْ تُسْمَعَ وِجْهَةُ نَظَرِها. وانتقلَ الأبُ ستيفان إلى حجرة في الدير Scriptorium لكي يَتْلُوَ من جديد، وربما بمزيدٍ من العناية، قِصّةَ مُعجزةِ أرناس. كان الأبُ هنري حريصاً وهو يتوجّه إلى البيتِ الصغيرِ خارج جُدران الدير، على أنْ يَسْتَمِع إلى اعترافِ سيغريد بآثامِها.

وَجد الأمَّ وابنَها في حالةٍ يُرثَى لها. لَمْ تَحْوِ الغرفةُ سوى سريرٍ صغير رقَدَتْ فيه سيغريد، وهي ترتعشُ من فِعْلِ الحُمَّى، مُغْمضة العينين. وإلى جانبِها صبيٌّ احمَرَّتْ عيناهُ من البكاء وهو يَسْتَمْسِكُ في عصبيةٍ بيَدِها السليمة. كان البيتُ مضطرباً ومتَّسخا، ومفتوحاً على كلّ الرياح. فلم يَسْكُنْهُ أحدٌ منذ سنين عديدة، والمهامُ الملحةُ وحدها هي التي حالتْ بلا شكٍّ دونَ دَكِّهِ، لأنّ الجدرانَ الخشبيةَ كانت هَرِمَة، وعَفِنَة وعَصِيَّة على التجديد.

وضع البطرشيلَ على كَتِفِهِ، واقتربَ من آرن، وداعب رأسَهُ في لِينٍ. ولم يَلْحَظْ آرن تلك الحركةَ، أو تظاهَر بأنه لم يُعِرْهَا بالا.

وبصوتٍ ناعمٍ طلب الأبُ هنري من الصبي بأنْ يخرجَ قليلا ريثما تُقِرُّ والدتُه بِذُنُوبِها، لكنّ آرن هزَّ رأسَه من دون أنْ يرفعَ عينَيْه، وأخذ يَشُدُّ بمزيدٍ من القوةِ على يدِ سيغريد.

أفاقتْ سيغريد في هذه اللحظة، وخرج آرن على مَضَضٍ وهو يُصْفِقُ البابَ صفقاً. وتظاهرتْ سيغريد بالغضَبِ، لكنّ الأبَ هنري وَضَعَ سبّابته اليمنى على شَفَتَيْهَا الباسِمَتَيْن، مشيراً إليها على هذا النحو بألا تُلْقِي لحركةِ ابنِها بالاً. ثم سألها إنْ كانت على استعدادٍ للبَوْح.

«نعم، يا أبي، أجابتْ سيغريد، وقد جَفَّ فاها. سامِحْني، يا أبي، لأنّنني أَذْنَبْتُ. وبِعَوْنِ سانت برنار تمكّنتُ، بِدعواتٍ قويةٍ، برُفقةِ زوجي ومُعلّمي، والأخِ إيرلند، وبِعَوْنِ الربِّ، أنْ أستعيدَ آرن ضِمْنَ الأحياءِ. لكنْ قبل أنْ

تحدثَ هذه المعجزةُ، وَعَدْتُ الربَّ بأنني سأهَبُهُ الصبيَّ لِخدمةِ عَمَلِ الربِّ على الأرض إنْ رَضِيَ بأنْ يشفيه.

- أجلْ، إني أعرفُ كلَّ هذا. إنهُ، ما كتبه الأخُ إيرلند كلمة كلمة. وفضلاً عن ذلك فإن لاتينيتك تجري مثل الماءِ الصافي، فهل طوّرتها مؤخراً؟ لكنْ ليست هذه هي المسألة، لِنَعُدْ إلى اعترافك بذَنْبِكِ، يا طفلتي.»

«نعم، لقد قمتُ بتمارين مع طفلي»، هَمَسَتْ سيغريد بصوتٍ مُرْهَقٍ. واسْتَنْشَقَتْ بعُمْقٍ، وفكّرتْ طويلا قبل أنْ تُضيف «لقد خُنْتُ الوعدَ المقدّسَ الذي قطعتُه للربّ. وتصرّفتُ وكأنّ شيئاً لم يكن. ولهذا السبب عاقبني بالبَرَصِ، كما ترى. أريدُ أنْ أُكَفِّرَ عن ذُنوبي، إنْ كان يوجدُ تكفيرٌ عن ذَنْبٍ بهذه الخطورة، وقد خطَر لي أنْ أعيشَ هنا، في هذا البيتِ، وكأنني لستُ زوجةً لأحدٍ، وألا آكلَ إلا فضلاتِ طاولاتِ الرّهبانِ ما حَيِيتُ. «عزيزتي سيغريد، أنتِ يا مَنْ بذلتِ الكثيرَ من أجلِنا نحن خدَمُ الربِّ في فارنيم، قد يبدو أنّ الربَّ قد قَسَا عليك كثيراً. بيد أنه من اليقين أنه لمن الكبائر أنْ يَخْلِفَ أحدُنا وَعْداً مُقدساً قَطَعَهُ للربِّ، حتى وإنْ جاءَ التّعبيرُ عن هذه الأمنية في وقتٍ صَعْبٍ. لأنه، أليست أوقاتُ أحزاننا العميقة هي الأوقاتُ التي نقدّم فيها للربِّ أعظمَ وُعودِنا؟ سوف نرعَى ابنَكِ، وهو ما ألزمْتِنَا به أنتِ وألْزَمَنا به الربُّ ولو بطريقةٍ مختلفة. إنه يُدْعَى آرن فعلا، أليس كذلك؟ كان حرياً بي أنْ أعرفَ اسمَه، فأنا مَنْ عَمَّدَهُ على أيّ حال. ثم سنُضمِّدُ جراحَك، وسوف تظلين في هذه الأماكن، وسوف تأكلين، هوم، كما تقولين، فتافيت طاولتنا. بيد أنني لا أستطيعُ أنْ أمنحَك الغُفرانَ الآن، لكني أدعوكِ ألا تحملي لذلك هَمّاً. بالفعل، لستُ أدري ما الذي يسعى الربُّ لأنْ يقولَه لنا. فلعلّه أراد أنْ يُوَجِّهَ إليكِ إنذاراً طفيفاً؟ صلّي عشرين «باتر نوستر»، وعشرين «إيف ماريا»، ثم تأكدي واعْلَمي أنّكِ ما بين أَيْدٍ أمينة ومليئة بالعناية. سأرسلُ الأخَ لوسيان بالقربِ من سريرِك، وسيُضَمِّدُ جراحَكِ بفائقِ العناية. وإنْ تبيَّن أنّ الربَّ يريد أنْ يُعيدَ إليكَ الصحّةَ، وهو ما أفترضُه من دون يقينٍ، فستصبحينَ قريباً بلا إثْمٍ. استريحِي الآن،

وسأصطحبُ الغُلامَ إلى الدير».

نهض الأبُ هنري ببطْءٍ، وتأمّل وَجْهَ سيغريد المُشوَّهَ الذي أصابَ إحدَى عينَيْهِ الصديدُ والقيحُ حتى صار لا يكاد يُرى، وصارت العينُ الأخرى فيه نصف مفتوحة. وانحنى وشمّ الجرحَ في حِيطةٍ، وأذعن في تأمُّلٍ وخرج وهو يضَع البطرشيل في جَيْبِه.

في الخارجِ ظلّ الغلامُ جالِساً على صخرةٍ. كان يُحدّق بالأرض ولم يُحرّكْ ساكناً حتى عندما خرج الأبُ هنري.

ما انفك الراهبُ ينظرُ إلى آرن، فلم يجد هذا الأخير بُدّاً من أنْ يُلْقِي إليه نظرةً، وابتسمَ له في وُدّ، لكنّ الغلامَ ردّ عليه بِنَخِير اشمئزازٍ وأدار رأسَه.

«هيّا، يا بني، أنتَ ستأتي معي، مثلَ غلامٍ ظريف»، قال الأبُ هنري بكل ما يملكُ من نُعومة، هذا الذي اعتاد أنْ يَطِيعَهُ الجميعُ. ثم أمسكَ آرن من ذراعِه.

«ألا تستطيع أن تتحدَّثَ حدِيثاً صحيحاً، أيها العجوز! احمرّ وجهُ آرن، وهو يتخبّط بقواهُ كافة عندما حَمَلَهُ الأبُ هنري، الرجلُ القويُّ البنية، إلى الدير، في يُسْرٍ يَسِيرٍ وكأنه يحمِلُ سَلَّةَ أعشابٍ قادِماً من حدائقِ الأبِ لوسيان.

وما كاد الأبُ هنري يصل إلى مُفْتَرَقِ الحديقة، حتى التقَى بزميلِه في ألفسترا، في ذلك المكانِ الذي تحادَثَا فيه من قبلُ.

تألّقتْ ملامحُ الأبِ ستيفان وهو يرى آرن، مُعانداً مُقطّباً.

«آهِ، آهِ، هلّل الأبُ ستيفان، أُوهْ، ها هو ذا إذاً خادِمُنا الصغير. أخيراً. لا يظهرُ عليه فَيْضٌ من الشُّكرِ تجاهَ الربِّ، أليس كذلك؟»

وأذعنَ الأبُ هنري وهو يبتسمُ، ووضَع آرن على رُكْبَتَيْ زميلِه الذي تداركَ من دون عناءٍ ضربةَ زَنْدٍ مُتعجرفةٍ من الغلامِ الصغير.

«أَمْسِكْ به ما وَسِعَكَ من وقتٍ، يا أخي. عليّ أنْ أتحدّثَ دون إبطاءٍ مع الأخِ لوسيان»، قال الأبُ هنري وهو يتقدّم في الحديقة بَحْثاً عن أخيه الغارِقِ في المسائلِ الطبيّة.

«هيّا، هيّا، كفَّ عن التخبّطِ spartlá، قال الأبُ ستيفان، مازِحاً.

- نقول sprátla – تخبّط–، وليس spartlá، قال آرن مُصَفِّراً وهو يسعَى للتخلّص. لكن ما لبث ان استسلمَ حين لاحظ أنّ التي تُمْسِكُ به أَذْرُعٌ من حديدٍ.

«مادامت لُغَتي الإسكندنافية لا تَسْتَسِيغُها أُذُناك الصغيرتان، فلعلّنا نستطيع أنْ نتحدّثَ لُغةً تلائمنا أكثر، » قال الأب ستيفان باللاتينيَّة، من دون أن ينتظرَ إجابة.

« هذا أفضل إلينا نحن الاثنين، ما دُمْتَ غيرَ قادرٍ على التحدُّثِ بلُغتِنا، أيّها الراهبُ الصغير»، أجاب آرن بلغةِ الأبِ ستيفان.

واغتبطَ هذا الأخيرُ بِقَدْرِ ما ذُهِلَ.

«ظنّي، بكلّ تأكيدٍ، أننا سنتّفِق، أنت وأنا والأب هنري، وبأسرعِ مما تظُنّ، أيها الشاب»، هَمَسَ في أُذنِ آرن، وكأنه يَعْهَدُ إليه بِسِرٍّ عظيم.

«لا أريدُ أن أظلّ عاكِفاً على طلاسمَ قديمةٍ طوال اليوم، مثل العَبْد، قال آرن، الذي هدأَ غضبُه قليلا.

« وما الذي تفضّله إذاً ؟»

«أريدُ العودةَ إلى بيتي، لا أريد أنْ أكون عبدَك وسَجِينَك». هنا، لم يستطع آرن أنْ يَدّعِي الشجاعة، فانفجَر بُكاءً واخْتَبَأ في صدْرِ الأبِ ستيفان الذي رَبَّتَ في رِفْقٍ على ظهرِه الواهِي.

* * *

وكما كان الشأنُ في غالبِ الأحيان، أضحَى تشخيصُ الأخِ لوسيان، الأوّلُ، تشخيصاً صحيحاً. فلم يكن جُرْحُ سيغريد يمتُّ بأيِّ صلةٍ لِدَاءِ البَرَص، وسرعان ما حصَل على كثيرٍ من التَحَسُّنِ بفضلِ علاجِه.

كان قد بدأ بتكليفِ بعضٍ من إخوةِ لايْ بتنظيفِ المنزلِ الصغير، وبِجَعْلِ الجدران عازِلَةً، وبطَلْيِها بالجِير. واعترضَتْ سيغريد على ذلك التجديد، مؤكدّةً أنّ بشاعةَ البيتِ لا تستحقُّ لا نظافةً ولا تَزْيِيناً. وحاول

الأخُ لوسيان إقناعَها بأنّ الأمرَ ليس للجمالِ بل لِغَرَضٍ طبِّيٍّ، لكن لم يَبْدُ من نِقاشِهما أيُّ اتفاقٍ.

لكنّ وجهَ سيغريد ما لبث أنْ استعاد خطوطَه بفضلِ العِلاجاتِ التي وَصَفَها لها الأخُ لوسيان منذ البداية: الماءُ الصافي المقدّس، والشمسُ والهواءُ. لكنْ في المقابِلِ تباطأَ شفاءُ الجُرْحِ الذي كان يُغطّي يَدَ سيغريد، وأخذ في الانتفاخِ وصار لونُه يميلُ إلى الأزرقِ والأسود. فعبثاً جرّبَ الأخُ لوسيان مستحضراتٍ قويّةً جداً بل وخطيرةً أحياناً. كان يعرف أنْ ليس ثمة في نهايةِ الأمر سوى دواءٍ واحدٍ لذلك الدَّمِ المتسمِّمِ. بالفعل لم يكنْ في مقدورِه أن يُهَدِّئَ آلامَ سيغريد.

بيد أنه لم يرغبْ في أنْ يَعْرِضَ الأمرَ مباشرةً على سيغريد، وحَرِصَ على أنْ يشرحَه أوّلا للأبِ هنري. كان لا بد منْ مُواجهةِ صميمِ الداءِ، وبَتْرِ الذراعِ. وإلا امتدَّ المرَضُ من الذراعِ إلى القَلْبِ. فلو كان المريضُ واحداً من الإخوةِ، لاكتفى بِطَلَبِ الأخِ جيلبرت للحضورِ مع فأسِه. لكنّ تصرّفاً من ذلك القبيلِ لم يكنْ بالأمرِ اللائقِ مع مَنْ كانت للإخوةِ وَلِيَّةَ نِعْمَة.

وأبدَى الأبُ هنري قبولَه. لقد سعَى لأنْ يعرِضَ الموضوعَ على السيدة سيغريد على أفضلِ نحوٍ ممكنٍ، حتى وإنْ شُغِل بأمورٍ كثيرةٍ في تلك اللحظة. وقد استعجله الأخُ لوسيان، في رِقّةٍ، ولأوّلِ مرّة، لأنّ الوقتَ كان مَحْسُوباً: فالمسألةُ مسألةُ حياةٍ أو موت.

بيد أنّ الأب هنري لم يجد بداً من أنْ يرفُضَ هذه المُهِمَّةَ الصّعبة. كانت السيدةُ كريستينا، بالفعل، تقتربُ من الدير، مع فِرْقةٍ هائلةٍ من الرجالِ المسلّحين.

وصلتْ كريستينا إلى فارنيم على رأس رجالِها، مثلَ قائدِ حرب. جاءتْ وهي ترتدي ملابسَ الرّسميّاتِ، وتحمل تاجَ الأميرات حتى تؤكّدَ رُتْبَتَها.

واستقبلَها الأبُ هنري، وخمسةٌ من الإخوةِ الرُّهبان، أمام بابِ الدير الذي ما لبثوا أنْ أغلقوه من دونهم بإِحْكام .

لم تَنْزِلْ كريستينا من على ظَهْرِ جوادِها. كان يطيبُ لها أنْ تتحدَّثَ

إلى أَقنَّتِهَا من أعلى. وبلهجةٍ من الازدراءِ أعلنتْ بأنّ واحدةً من البنايات يجب أنْ تُدَكَّ عن آخرِها، على وَجْهِ السرعة، ألا وهي مكتبةُ الأبِ هنري الدينية. أجلْ، إنّ هذه البنايةَ صارتْ تتطاوَلُ على الأراضي التي تعود إليها بِحُكْمِ القانون خاصة.

كانت كريستينا تعرفُ جيّداً ناحيةَ الرُّمْحِ التي تَقِفُ منها. كانت نِيَّتُها أنْ تُفْقِدَ الأبَ هنري صَبْرَه، ثم رَباطةَ جأشِه. وقد اكتشفتْ أنها أقدرُ على ذلك أيما اقتدارٍ. كان الأبُ هنري يقضي مُعظمَ وقتِه ما بين الكُتبِ المقدَّسة. فهُنَا أمضَى أفْضَل أوقاتِه، في الظلماتِ وفي همجيّة الشمال.

وأجاب إجابةً صريحةً بأنه لا يحملُ أيَّ نيَّةٍ لدَكِّ تلك البناية.

وردّتْ كريستينا بالقول إنه إذا لم تُهدَّم البنايةُ في خلال أسبوعٍ فسوف تعود ثانيةً، ليس مع حُرّاسِها وحسب بل ومع أقنّتِها الذين سيُنفّذون تلك المُهمَّةَ على وجهِ السرعةِ تحت سَوْطِ الرجالِ المُسلّحين. بل وقد يُبْدِي الأقنةُ قدراً أقلَّ من الحذرِ من الإخوةِ إنْ رفَض هؤلاء تطبيقَ أوامِرَها بأنفسِهم. فلم يكنْ يبقَى أمامَهم سوى الاختيار.

وفي قِمَّةِ الغَيْظِ الذي كاد يُفْقِدُه السيطرةَ على نفسِه، أجاب الأبُ هنري بأنه يُفضّل التخلّي عن فارنيم. على أنْ ينتهيَ ذلك السفرُ في روما بِدَعْوَى تُرفَعُ إلى الأبِ المقدّس من أجلِ فَصْلِ هذه المرأةِ وزوجِها، إنْ ثَبَتَ تورُّطُ هذا الأخير، فهذان الكائنان تجرَّآ فأسَاءَا إلى عِبادِ الربِّ على هذه الأرض، وعلى الكنيسةِ الرومانيةِ المقدّسة. ألم تُدركْ إذاً أنّ كلاهما كانا على وَشَكِ أنْ يَجْذِبا الشقاءَ الأبدي إلى نفسَيْهما؟

كان تهديدُ الأبِ هنري تهديداً حقيقياً. لكنّ كريستينا لم تُصْغِ إليه على الإطلاق، تماماً مثلما لم تَفْهَمْ بأيِّ مخاطرَ كانت تُهدِّدُ بها مشاريعَ زوجِها العملاقة: فمَنْ كان مَلِكاً مفصولاً من الكنيسةِ قلَّما ينتظرُ شيئاً في حُضْنِ المسيحية.

اكتفتْ بِطَلْعَةٍ هازئَة، وعلى حين غرّةٍ أدارتْ فرسَها، فأكْرهتْ الرُّهبانَ على التراجُعِ إلى الوراءِ تفادياً للدّعْسِ. ثم، وبعد أن ابتعدَتْ، أعادتْ القولَ

بأنّ أقنَتَها، بل وحتى أقنَتَها الوثنيون، قد يأتون لكي يُؤَدُّوا قُدّاسهم.

كان مستقبلُ فارنيم مَخْتُوماً. وسيتوقّف نشاطُ الدير إلى أنْ تُظْهِرَ الكنيسةُ قوّتَها وتُعيدَ النظامَ إلى نِصابِه. لم يكن يَسَعُ الكنيسةَ الرومانية المقدّسة أنْ تتسامَح مع مثلِ تلك الشّتيمَة، ولا بالأحرى أنْ تسمحَ لنفسِها بأنْ تخسرَ هذه المعركة. ولكم دهِشَ الأبُ هنري من تلك الملكةُ المزعومة التي لم تُبْدِ من الفِطنَة إلا قليلا.

عُومِلَ آرن بالتي هيَ أحسن: فلم يُكلَّفْ إلا بأربعِ ساعاتٍ من قواعد اللاتينيَّة في اليوم. كان لا بد في المقامِ الأوّل، من أنْ تُصبح لاتينيّتُه كاملةً، ومن بعدِها سينطلقُ إلى اللغة الموالية. فأوّلاً، الأداةُ التي تتيحُ المعرفةَ، ومن بعدِها المعرفةُ نفسُها.

وحتى يُلطّفَ من حُزنِ الغلام، حرِصَ الأبُ هنري على أنْ يُمْضِيَ القَدْرَ نفسَه من الوقت تقريباً برُفقةِ الأخِ جيلبرت دي بُونْ، ذلك الجبّار الذي سيُلَقِّنُهُ فُنوناً تختلفُ كل الاختلافِ عن اللاتينية والغناء.

كان نشاطُ الأخ جيلبرتْ الأساسي، في فارنيم يجرِي في المصاهِر، ولا سيما المصهر الذي كانت تُصنَع فيه الأسلحة، وكان أفضلَها تجهيزاً بما لا يُقاس. لم يكنْ عَمَلُ مصنع الأسلحة هذا سوى تجارةٍ عاديةٍ، وكانت السيوفُ التي يصنَعُها الأخ جيلبرتْ، بطبيعة الحال، أَجْوَدَ من كافة السيوف التي تخرجُ من مصاهر ذلك الجزءِ الهمجي من العالم. فسرعان ما شاعت شُهْرَتُها، وسرعان ما أضحى مصنعُ الأسلحةِ يدِرُّ مبالغَ وافرةً من المال.

وكما كان مُتوَّقَعاً، فقد فُتِنَ آرن بالمكان. بل وقد كان أحياناً يُساعِد الأخَ جيلبرتْ الذي كان يَرْعَى الطفلَ بأقصَى ما يملك من جِدٍّ، وقد صمّم على أنْ يُلَقِّنَهُ صناعةَ الأسلحة، من مرحلةِ الأُسُسِ إلى الفنونِ الجميلة.

وما كاد آرن يجدُ نفسَه في أحسنِ حالاتِه الذهنية، حتى أبدَى مزيداً من الجُرأةِ، فأَقْدَمَ على طرْحِ أسئلةٍ لا تمتُّ للعملِ بأيِّ صلةٍ مباشرة. فهكذا طلب من الأخِ جيلبرتْ إنْ سَبَقَ له وأنْ استعملَ قَوْساً، وإنْ كان، في هذه الحالة، سَيَجْرُؤُ على أنْ يَتَبَارَى معه.

ولكمْ كانت خيبةُ آرن كبيرةً حينما وَجد الأخُ جيلبرتْ ذلك السؤالَ مُسَلّياً أيما تسلية، فلَمْ يجدْ بُدّاً من أنْ ينفجِرَ ضَحِكاً إلى الحدِّ الذي يجعله يتوقَّفُ عن العمل، ويرمِي قَضِيباً حديدياً مُحْمَرّاً في برميلٍ من الماءِ قبلَ أنْ يجلس. لقد ضَحِكَ الأخُ جيلبرتْ حتى أدْمَعَتْ عيناه.

وتمالَك نفسَه في الأخير، ومَسَحَ دُموعَه في ابتهاج، وأقَرَّ بأنه قد استعملَ القَوْسَ من قبلُ في بِضْعِ مناسبات. وأنه لو توفَّرَ لهما الوقتُ، لوَسعَهُما أنْ يَخصِّصا قليلا من الوقتِ لألعابٍ من هذا القبيل. ثم أضاف أنه بالطبعِ يخشَى أنْ يُقارِنَ نفسَه بمحاربٍ شابٍ وجَريءٍ مثل آرن دي غوتيا. وإثر ذلك قَهْقَهَ مرّةً أخرى.

مرَّ وقتٌ طويلٌ قبل أنْ يُدرِكَ آرن دواعِيَ هذا المَزْحِ الصاخِب. وعلى الفورِ أحسَّ أنه مُغتاظٌ، ولَمَّحَ بأنّ الأخَ جيلبرتْ ربما كان جَباناً، مُثِيراً قَهْقَهَاتٍ جديدةٍ لدى جيلبرتْ دي بوم.

* * *

وفي وُقُوفه أمام الخيارِ ما بين الموتِ وما بين البقاءِ مَبْتُورَةَ الذراع، وربما البقاء حيّةً مُقْعَدةً طوال العُمرِ، اختارت سيغريد الموتَ. فلم يَسَعْها أنْ تفهمَ على نحوٍ مختلفٍ إرادةَ الربِّ. وبِقَلْبٍ مُثْقَلٍ استمعَ الأبُ هنري إلى بَوْحِها الأخيرِ، وغَفَرَ لها ذُنوبها جميعاً، ومنَحَها القُرْبَ والمَسْحَةَ الأخيرة.

في سانت ببير، وفيما كان الصيفُ عند أوْجِه، وفيما أقْبَلَ فصلُ حَصَادِ الكلأ، فاضتْ روحُ سيغريد في طمأنينةٍ في ذلك البيت الصغير.

وكان الوقتُ أيضاً لحظةَ رحيلِ الأبِ هنري والإخوةِ السبعةِ الذين كانوا سيُرافِقونَه نحو الجنوب. لقد دَفَنُوا سيغريد في كنيسةِ الدير، تحت صخرةٍ في المعبدِ، ولم يُشيرُوا إلى المكانِ إلا بإشاراتٍ خفيَّةٍ صغيرة، لأنّ الأبَ هنري بات يخشَى من كريستينا وزوجِها ما هو أدْهَى وأمرُّ. وقد أُوفِدَ أَخَوَانِ إلى أرناس ليُعْلِنا فيها نَبأ وفاةِ سيغريد، ويُوجِّهانِ الدعوةَ إلى زيارةِ قَبْرِها في أقربِ وقتٍ ممكن.

ظلّ آرن مستقيماً وهادِئاً خلال الساعاتِ الأربعِ من قُداسِ اللَّحْنِ الجنائزي، وكان الطفلَ الوحيدَ ما بين الرُّهبان. وكان اللّحنُ الرباني وحدَه هو الذي يُثير عَبَرَاتِه أحياناً. لكنّه لم يَشْعُرْ بالخجلِ مُطلقاً، لأنه أحسَّ أنه لنْ يَذْرِفَ الدّمعَ وحدَه.

في اليوم التالي، بدأتْ الرِّحلةُ الطويلةُ نحو الجنوب، فتخلَّلَها توقُّفٌ في الدنمرك أوّلا. وقد باتَ آرن يَعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ أنّ حياتَهُ صارتْ مِلْكاً للربِّ، وأن لا أحدَ، طيّباً كان أمْ شرّيراً، قَوِيًّا كان أَمْ ضعيفاً، سيُغَيِّرُ من قَدَرِه شيئاً.

وعلى مدَى كاملِ السفرِ، لم يَنْظُرْ إلى الخَلْفِ أبداً.

الفصل الرابع

ليس من النادرِ أنْ تأخذَ الأمورُ مَجْرىً آخرَ غيرَ الذي كان مُتَوَقّعاً. إنّ ما يُسمّيه الجاحِدون بالصُّدَفِ الصغيرة، وما يدعُوه أهلُ الإيمان بالإرادَةِ الربّانية، قد يُغيّر أحياناً مجرَى الأحداثِ على نحوٍ غيرِ متوقَّعٍ تماماً. ويَسْرِي هذا على الأشخاصِ أصحابِ العَزْمِ الذين يملكون اليقينَ بأنهم هُمْ باعِثُو نجاحِهم، أمثال ايريك جيدفرسون . ويسري هذا أيضاً على الرجالِ المُقَرَّبين من الربِّ، الخليقِ بهم، على غرارِ هنري دي كليرفو، أنْ يُدرِكوا مشيئتَه خَيْراً من غيرِهم. ففي رأي هذين الرَّجُلين كانت سُبُلُ الربِّ ستصبحُ غيرَ سالِكةٍ خلال السنوات القادمة.

عندما وصل الأبُ هنري إلى روسكيلد، مرفوقاً بسبعةِ إخوةٍ وغلامٍ، كان مُصَمِّماً على مواصلةِ طريقِه لغاية مقرِّ السيسترسيين العام، في سِيتُو، حتى يرفعَ دعوَى بالفَصْلِ في حقّ ايريك جيدفرسون، وفي حقّ زوجتِه كريستينا. كانت المسألةُ في غايةِ الأهمية، لأنها أوّلُ مرّةٍ يُكْرَه فيها السيسترسيون على التخلّي عنْ ديرٍ بسببِ نَزْوَةِ مَلِكٍ عادي، أو بالأحرى، مَلِكَة. أجلْ، كانت هذه المسألةُ من الأهميةِ بمكانٍ بالنسبة للمسيحية: تُرَى، مَن كان يملكُ السلطةَ على الكنيسة؟ أهي الكنيسةُ أم السلطةُ المَلَكِيّة؟ مثلُ هذه الأسئلةِ ما انفكَّ يتردّدُ منذ زمنٍ بعيد، ولا يُخفَى أمرُها إلا على مَنْ كانتْ مَلِكَةً همجيَّةً من الشمال.

كان لا مفرَّ من استعادةِ فارنيم بأيّ ثمن. ولذلك فما مِنْ حلٍّ وسطٍ كان مُتاحاً.

لو كان الأبُ هنري ورفاقُه وصلوا إلى روسكيلد قبْل بِضْعِ سنواتٍ، أو بعد بِضْعِ سنواتٍ، لكان كلُّ شيءٍ، بلا أيِّ شكٍّ، قد جَرى كما كان متوقَّعاً له أنْ يجري.

لكنّ الأبَ هنري ورفاقَه وصلوا إلى روسكيلد في ذاتِ اللحظةِ التي انتهتْ فيها حربٌ أهليةٌ عنيفةٌ دامت عشرةَ أعوام، وفي الوقت الذي تربّعتْ فيه عائلةٌ جديدةٌ على العرش. كان الملكُ الجديدُ يُدعَى فلديمار. وقد صار هذا الأخيرُ معروفاً فيما بعدُ باسم فلديمار الأكبر.

كان فلديمار قد تمكّن في النهايةِ من قَتْلِ المُطالبَيْنَ الآخرَيْن بالعرش، كنوتْ وسفيند. وكان قَبْلَ المعركةِ الحاسمة قد نَذَرَ على نفسه بأنْ يُقيم ديراً سيسترسياً إنْ حقّق له الربُّ النصرَ الذي يصبُو إليه. كان إسكيل، مطرانُ لُوندْ آنذاك، يَعْلَمُ ذلك الوعدَ تماماً، ما دام قد أُرْغِمَ على المشاركةِ في تلك الحرب، ومباركتِها قبل المعاركِ الأخيرة. وفوق ذلك، كان إسكيل صديقاً شخصياً للقديس برنار نفسِه. وفي كليرفو تحديدًا صار صديقًا للأبِ هنري أيضاً.

عندما التقَى الرجلان من جديدٍ في روسكيلد، في ذاتِ الوقتِ الذي دُعِيَتْ فيه كنيسةُ الدنمرك إلى مَجْمَعِ سينودس، كانت غبطتُهما عظيمةً بذلك اللقاء، ولم يَفُتْهُما أنْ يُلاحِظا في اندهاشٍ كيف أَمْعَنَ الربُّ أيما إمعان في تسديدِ خُطَى كُلّ واحد منهما.

كان كلُّ شيءٍ يتدامَجُ في دِقَّةٍ إعجازية. ثم إذا برئيسِ الدير يطفُو في اللحظةِ التي كان فيها العاهلُ سَيُوفِي – أو سَيَنْسَى– وَعْدَهُ بتأسيسِ ديرٍ جديد. فبدلاً من الشروعِ في مُراسلةٍ لا نهايةَ لها مع كليرفو، فلِمَ لا يجري ترتيبُ كلِّ شيءٍ على الفورِ، ما دام المطرانُ ورئيسُ الدير موجودَيْن بِعَيْنِ المكان؟

أحسّ الملكُ فلديمار أيضاً بقوةِ السلطةِ الربّانية عندما أَعْلَنَ له مطرانُه أنّ الربَّ الذي يَرْعَى أُمْنِيَّتَهُ قد يستجيبُ لها في الحين.

وَهَبَ فلديمار، في سبيلِ تشييدِ ديرٍ جديدٍ، جُزءاً من ميراثه الشخصي، وهو عبارةٌ عن رَعْنٍ (أنف الجبل الخارج منه والداخل في البحر) يُسمّى فيتسكول، كان يتقدّم في مِيَاهِ ليمفجورد في جيللاند. وقد باركَ مجمعُ سينود الذي دُعِيَ إلى روسكيلد، تلك الهِبَةَ. وتابعَ الأبُ هنري رحلتَه، لكنْ في

وِجْهَةٍ مختلفةٍ تماماً عن وجهةِ كليرفو وسيتو.

أما في شأنِ فارنيم، والحرمان الكنسي لكل من كريستينا وايريك جيدفرسون، فقد ظلّت المسألةُ مطروحةً بكاملِها، من حيث المبدأ على الأقل. لكنْ بَقِيَ في الأمرِ مشكلةٌ عمليّة، ما دامت المسألةُ التي كانت ستُعالَجُ بواسطة البريدِ ستأخذُ الوقتَ الكثير. كان على الأبِ هنري أن يُحرّرِ رسائلَ مُهمّةً عديدة، قبل أنْ يتوجَّهَ إلى فيتسكول، لكنّه ما لبث أنْ وَجد لهذا الأمرِ حَلّاً سريعاً. فقد كَتَبَ إلى فارنيم، وكَلَّفَ اثني عشرَ راهباً بأنْ ينقلُوا معهم الماشيةَ، والكُتبَ على الخصوص، وأنْ يلتحِقوا به بعد ذلك في الديرِ الذي كان قَيْدَ البناء. وكان على خمسةٍ من الإخوةِ أنْ يبقَوا في فارنيم، وعلى عاتقِهم مُهمّةٌ مشؤومةٌ، وهي محاولةُ وقايةِ البناءاتِ من الخرابِ والنَّهْب، وإطلاعِ عابِري السبيلِ كافّة بالفَصْلِ الذي كان في انتظارِ السيدةِ كريستينا وإريك جيدفرسون، أياً كانت عواقبُ ذلك الإجراء.

وحرّر رسالتَيْنِ أُخرَيَيْن، واحدةً لمجلسِ مَجْمَعِ الرُّهبانِ السيستيريين، وواحدةً أخرى للقدّيس الأبِ أدريان الرابع، وَصَفَ فيهما خلاعةَ ايريك جيدفرسون وفُسْقَه الذي أعلن نفسَه مَلِكاً وتَرَكَ زوجتَه تُدَنِّسُ ديراً. ثم تأهّب للذّهاب إلى فيتسكول التي كان الربُّ بلا ريبٍ سيُسَدِّد خطاهُ فيها.

وحيثما كان الربُّ سيأخذُ الأبَ هنري، كان سيأخذُ آرنْ أيضاً.

* * *

ما لبث ايريك جيدفرسون أنْ أحسَّ بقوةِ الكنيسة. فالآن وبعد أنْ فاز بواحدٍ من التيجانِ الثلاثةِ التي كان يطمحُ إليها، ها هو ذا يُرسِلُ مبعوثِينَ إلى لغمانات (رجال تفسير القانون) فاسترا غوتالاند، وأوسترا غوتالاند. لكنه تلقَّى ردوداً مُؤسِفَة. فما فتئتْ فارنيم تُروّجُ الإشاعةَ على جانِبَيْ غوتالاند: ايريك جيدفرسون وزوجتُه سوف يُفْصَلان عن الكنيسة. والحالُ أنّ لا أحدَ يريد مَلِكاً مفصولاً عن الكنيسة.

من حُسْنِ الحظِّ أنّ عائلةَ سفير لم تكنْ على عِلْمٍ بما كان يجري في

الجنوب، أو لعلّها لم تكنْ تُدركُ معنى ذلك الفَصْلِ. في تلك الأثناء كان ايريك جيدفرسون جالِساً على عَرْشِ سفيلاند جُلوساً راسِخاً.

كان لإيريك إذاً مُهِمَّتان، إحداهُما بسيطةٌ وأخرى عويصَة. أمّا أبسطُ المُهِمَّتَيْنِ فتمثّلتْ في إرسالِ مُفاوضِين إلى ذلك الراهبِ الفرنسي الذي كان في مكانٍ ما بالدنمرك، مُنْكَبّاً على الكِتابةِ، ويتوسّلُ للرُّهبانِ بأنْ يَعُودُوا إلى فارنيم، واعِداً إيّاهم بالدَّعمِ المَلَكِيَ، وبمزيدٍ من الأراضي لفائدةِ دِيرِهِم – وبكُلّ ما كان يَسَعُهُ من خيالٍ في ذلك الشأن. كان هنريك، مطرانُ إيريك، رَجُلَ كنيسةٍ مُتَمَرِّساً، أكّد له أنّ البديلَ سوف يكون أسوأَ بكثير. وفي هذه الحالةِ لن يجِدَ بُدّاً من أنْ يتوجّه راجِلاً إلى روما، وهو يرتدي المِسْح أي ثوب صوفي سميك، وأنْ يَسْجُدَ عند قَدَمَيْ الأبِ القديس. لم يكنْ ذلك السعيُ مُؤلماً وطويلاً جداً وحسب، بل كان مشكوكاً فيه أيضاً. بالفعلِ، ما مِنْ شيءٍ كان يضمَنُ بأنّ تلك الحيلةَ ستُخفِّفُ مِنْ رَوْعِ البابا. ومن المُكَدِّرِ حقاً أنْ يذهبَ كلُّ ذلك عَبَثاً، أليس كذلك؟

كان إذاً من الأسهلِ بكثيرٍ مُداهَنَةُ الرُّهبان، ما دام قليلٌ من الرسائلِ كفيلٌ بإنهاءِ ذلك الأمرِ، أو قليلٌ من الكلماتِ الطيبة، أو عَطِيَّةٌ مِنْ أراضٍ لا تمثّلُ في النهايةِ سوى القليلِ من مجموعِ الأراضي المَلَكِيّة.

لكنَّ الأصْعَبَ من ذلك كلِّه هو السعيُ لِمَحْوِ الشائعاتِ التي كانت تَصِفُ المَلِكَ بالكافِر، مَحْواً نهائياً. لقد استلهمَ إيريك فكرتَه من حَمْلَةٍ صليبيَّةٍ في فنلندا، وهو الاقتراحُ الذي وجدَه المطرانُ هنريك، بارعاً. إنّ المَلِكَ الذي يتصرّفُ وكأنه جُنديٌّ من جنودِ الربِّ، ويُدافِع عن الإيمانِ الحقِّ، سوف يَنْظُرُ إليه الجميعُ بإعجابٍ. فالطريقُ الذي يؤدِّي إلى التَّاجَيْنِ المُتَبَقِّيَيْنِ، طريقٌ يَمُرُّ بفنلندا إذاً!

وبفَرَحٍ انضمَّ قومُ السفارتْ، ذلك الشعبُ المُحِبُّ للحربِ، الذي لم يجدْ من قبلُ فرصةً سانحةً للذهابِ إلى الحربِ منذُ وقتٍ طويل، إلى مشاريعِ مَلِكِهِمْ الجديدِ في النّهْبِ والتخريب. وفضلاً عن ذلك كان في الأمرِ حِساباتٌ قديمةٌ تنتظرُ مَنْ يُصفّيها، لأنَّ الفنلنديّين والإستونيّين كانوا قد قاموا بأعمالِ تخريبٍ

على شواطئِ سفيلاند، ولم يَنْسَ أحدٌ الكيفيةَ التي نَهَبُوا وسَلَبُوا بها سيغتُونا.

ظلّت الحربُ في صالِحِهِم لِمُدَّةِ عامَين كامِلَيْن، إذْ جَمَعَ السفارت فيها غنائِمَ جمّة. فعلَى رأيِ المَثَل، انقَضَّ الغُرابُ على الجُروحِ الطازِجَة.

لا شكَّ أنّ معظمَ الفنلنديّين الذين تمّ الالتقاءُ بهم كانوا قد اعتنَقُوا المسيحيَّة، لكنْ أنْ يُخَيَّروا بين حَدِّ السيفِ، وبين مَعْمُودِيةٍ جديدةٍ على يدِ راهبٍ من سفيلاند فأمرٌ لا ضَرَرَ فيه ولا ضِرار. وقد التقَوا في طريقِهم ببعضِ الوَثَنِيِّينَ في داخلِ الأراضي في خلال العام الثاني للحرب.

ذات يومٍ التقَى أفرادٌ من جنود إيريك بعجوزٍ ساحرةٍ، بعد أنْ انفصلوا عن أغلبية الفرقَةِ، لكي يَنْهَبُوا ما يقتاتُون به لدى المُزارعين في مناطقِ الجوار. وتفاجَؤوا بأنْ تتحدَّث تلك المرأةُ اللغة نفسَها السارية في سفيلاند تقريباً، وبأنها لم تُبْدِ خِشْيةً من وقُوعِها في الأسْر. وقد طلبتْ بأنْ تُقتادَ إلى قائدِ الجيش. كانت تسعَى لأنْ تُقدِّم له عرْضاً قد لا يجدُ إلى رفْضِه سبيلا. وإنْ لم يَمْتَثِلْ الجنودُ لرغبتِها فسوف تلقِي إليهم بِسِحْرِها شقاءً أبَديّاً.

وأذْعَنَ الجنودُ، ليس خَشْيَةً من الساحِرة بل فضولاً إلى الاقتراحِ الذي كانت ستَعْرِضُه على ايريك جيدفرسون .

وعندما بَلَغَهُ نبأُ ذلك الحَدَثِ، رأى هذا الأخيرُ فيه لعبةً مُمْتِعَة يسلّي بها أُمْسِيَّتَهُ، وطلَب إحضارَ الساحِرة، فيما كان تَنْصِيبُ مُعَسْكَرِ الليلِ جارِياً.

كما طلَب للحضورِ إلى الخيمةِ المَلَكِيّة جَلاّدَهُ مع فأسِه ولوح المشنقة. واجتمَع مساعدُوه مُغتبِطين باللّعبة، ودَفَعوا الساحِرةَ على رُكْبَتَيْها نحو المَلِك.

«ماذا، أيّتها الساحِرة! يبدو أنّ في جُعبتِك عَرْضاً تُريدِين تقديمَه إليّ؟ عَرْضٌ لا يسعني أنْ أرفُضَه بصفتي مَلِكاً. إني أُصْغِي إليك»، صاح إيريك في وَجْهِ تلك المرأةِ المُكبَّلَة، الجاثيةِ عند قَدَمَيْه. وضحِك بِحَمِيَّةٍ في وَجْهِ رجالِه، مُحْدِثاً صَخَباً ضاحِكاً عارِماً.

«أجلْ، قالت بصوتٍ مُخْتَنِق، لأنّ أحدَ الجنودِ كان يَشُدُّ على عُنُقِها. عندي عَرْضٌ لا يَسَعُ مَلِكاً ذَكِيّاً أنْ يقول فيه لا.»

«كلّنا آذانٌ صاغية، لكنّكِ تُدركين أنّ الجلادَ ليس هُنا عَبَثاً. وماذا لو قلتُ لكِ لا؟» أجاب إيريك بلهجةٍ لا تقلُّ مَرَحاً.

«دعْني أقف، وفُكّ عني رِباطي، حتى أستطيعَ التحدّث. فإنْ قُلْتَ لا لِعَرْضِي فسأذهبُ في الحالِ إلى جلادك»، قالتْ بلهجةٍ واثقة.

وأشار إيريك إلى الجندي بأنْ يَفُكَّ رِباطَها. وصار على أُهْبَةٍ للاستماعِ إليها. وتسلَّى مَنْ أحاط به من الرجالِ، بذلكَ المشهدِ كثيراً.

وأعادتْ المرأةُ في اعتزازٍ ترتيبَ شَعْرِها، وتَنَحْنَحَتْ قبل أنْ تتناول الكلمة.

«عَرْضِي كالتالي، سيدي إيريك: دَعْني أقرأُ خطوطَ كفّك، وأقول لكَ مَنْ أنتَ، وأُطْلِعُكَ عن طالِعك. فإنْ اكتشفتَ مني أيَّ خطأ لك أنْ تُرْسِلَني عندئذٍ إلى جلادك. وإنْ صدَّقْتَ كلامي اشترطتُ منكَ عَرَبةَ خَيْلٍ تقودني إلى حيث كان أَسْرِي».

وبَدَتْ على إيريك حالةٌ من التأمُّل، واستحالتْ ضحكاتُ الرجالِ إلى هَمَسات. بالفعلِ، فَهِمَ الجميعُ أنه إذا كانت المرأةُ على يقينٍ من تنبُّئها إلى حدِّ المخاطرةِ برأسِها، فهي في هذه الحالةِ لا شكَّ تَمْلِكُ رؤيةً جيّدةً عن المستقبل. لكنَّ كلَّ الناسِ لا يرغبون في معرفةِ مصيرِهم، لأنّ هذا المصيرَ قد يضحَى مصيراً مشؤوماً- سَهْمٌ ينبثقُ من غابةٍ لم يرَ الرّامي فيها راءٍ، أو رُمحٌ يُقْذَفُ بالخطأ عند نهايةِ المعركة. وإنْ كانت آفةٌ من الآفاتِ ستضرِبُ عائلةً من العائلاتِ في اليوم التالي فمَنْ يُصِرُّ حقاً على معْرفةِ ذلك في اليوم نفسِه؟ إنّ مَنْ يتأمَّلُ المستقبلَ يحتاجُ إلى كثيرٍ من الشجاعة.

أحسّ إيريك أنه سيكون جَبَاناً لو اكتفَى بإرسالِ المرأةِ في الحينِ إلى الجلاد. لكنْ إنْ هو أصغَى إليها أوّلا، ثم قطَع رأسَها ثانياً، لَبَدَا للناسِ في أفضلِ حالٍ.

«ليكنْ، قال ايريك جيدفرسون، أنا على استعدادٍ لسماعِ أقوالِك. فإنْ هي أغبطتني سأصدقُك وَعْدَ مَلِك: ستعودِينَ إلى بيتِكِ في عَرَبَةِ خَيْلٍ. لكنْ إنْ لم أجدْ فيها ما يطيبُ لي تَكَلَّفَ جلادي أَمْرَكِ في الحال. هيّا، إنّنا نُصْغِي إليكِ!»

وتردَّدتْ الساحرة.

«أوه...لا بد من أنْ ننتقِلَ إلى خَيْمَتِك، لأنّك وحدَك من يجبُ أنْ يَسْمَعَ أقوالي».

تعالتْ هَمَسَاتٌ من الذُّعْرِ ما بين الرجال. البقاءُ وحيداً مع ساحِرةٍ ربما ليس أمراً معقولا. وقد رأى إيريك خوفَ هؤلاء الرجالِ، فأثار هذا الخوفُ حَفيظتَه، قَدْرَ ما أغاظته رباطةُ جأشِ الساحرة.

«وماذا إنْ رفضتُ، وماذا لو طلبتُ منكِ أن تُفْصِحِي عنْ تنبُّؤاتِك، هنا والآن؟» دوَّى بِصوتِه الآمِر.

«في هذه الحالةِ لنْ تعرفَ مَنْ أنتَ، ولا ما الذي ينتظرُك. وفضلا عن ذلك، فلعلّكَ تُقدّرُ أنه من الحَذَرِ ألا يَعْرِفَ الجميعُ ذلك. لكنْ فيما بعدُ، سيكون من الممكنِ أنْ تقولَ ما تراهُ مناسباً ممّا لم يسمعْه غيرُك»، أجابتْ بثقةِ نفسٍ كانت من القوةِ بما يوحِي أنها قد أيقنتْ بأنّ إيريك سيَقْبَلُ بعرضِها.

وهو ما فَعَل بالفعل. فتّشَ جنودٌ من جنودِه تلك المرأةَ من دون مُداراة، وتأكّدوا أنها لا تحمِلُ أيَّ شيءٍ حادٍّ. ودخَل إيريك إلى خَيْمَتِه، ودُفِعَتْ المرأةُ من خَلْفِه دَفْعاً.

في الداخل، جَثَتْ أمامَه وطلبتْ قراءةَ كَفِّه. ودرستْ في هُدوءٍ يدَ الملكِ اليُمنى.

إني أرَى بريطانيا...قالتْ بصوتٍ متردّد. شخصٌ من نَسْلِكَ...أبوك قادمٌ من بريطانيا. أرَى روما، والرَّجُلَ الذي يُدعَى البابا...لا، هذا الخطُّ ينتَهِي هنا. كنتَ في طريقِك إلى روما...حافِي القَدَمَيْن...كيف هذا؟ هذا السفرُ لن يتمّ ...هُوم، بالتأكيد، إنّ مستقبلَك مُهِمٌّ.»

اقْشَعَرَّ ايريك جيدفرسون وهو يَسْمَعُ الحقيقةَ حول جَدِّهِ الإنجليزي، وحول كونه كاد يُجْبَرُ على الذهاب حَافِياً لغاية البابا. فها هو ذا، منذُ الآن، يقتنِعُ بكلامِ الساحرة.

«كفَى، أيتها المرأة ! إني أعرفُ مَنْ أنا، أخبريني بمستقبلي مِنْ دون لَفٍّ أو دورانٍ! قال الملكُ آمِراً، من دون أنْ يضطربَ صوتُه كثيراً.

«إني أرى ...أرى ثلاثةَ تيجان مَلَكيّة. مَمْلَكَةٌ جديدةٌ تتكوّن أسلحتُها من ثلاثةِ تيجان، وسوف تبقَى هذه الأسلحةُ أَلْفَ عام، في كُلِّ مكانٍ في مملكتك. سُلالةٌ تلو السُّلالة، ومَلِكٌ تلو المَلِك، الجميعُ سوف يحملُ أسلحتَك، إلى الأبد. التيجانُ الثلاثةُ تعني بُلداناً ثلاثة اجتمعتْ لتُشَكِّل مملكةً قوية. وبعدَ ألفِ عام سيجدُ الناس دائماً وفي كل مكان، هذه الأسلحةَ، وهذه التيجان، على كلِّ الأختام، وعلى كلّ المُستندات والوثائق.

«وماذا عن ذلك البابا؟» سألها ايريك جيدفرسون، وهو يرتَعِش، وكأنه يهمس.

إني أرى صورتَك في كلّ مكان، في كلّ مكان صورة لك..رأسُك... كقدّيسٍ...رأسُك من ذهبٍ فوق سماءٍ زرقاء. لقد بدأتَ بارتكابِ خطأ في حقّ الربّ،...وهو ما يكشفُ عنه هذا الخطُّ نحو روما الذي توقّف...ثم فعلتَ خَيْراً، ولهذا السببِ سوف يعيشُ اسمُك إلى الأبد.

«وما الذي ستقولينه عن موتي؟ قال في لهجةٍ متأمّلة.

« موتُك...موتُك؟ أتريد أنْ تعرفَ عنْ موتِك حقاً؟ قليلٌ من الرّجال يرغبون في ذلك حقًا.»

«أنا، أرغبُ في ذلك حقاً. تكلّمي.

«لستُ أرى الأمورَ بوضوح...» غَمْغَمَتْ المرأةُ التي خَشِيَتْ فجأةً من أنْ تُعْلِنَ عن ذلك الذي رأتْه بوضوحٍ تام. لكنها تمالكتْ نفسَها، وقالت بصوتٍ حازم:

«اسمُك سوف يعيش دوماً، وما مِنْ رَجُلٍ تُنْجِبُه امرأةٌ من سفيلاند، أو مِنْ فاسترا غوتالاند، أو أوسترا غوتالاند، يستطيعُ أنْ يقتلَك، أو حتى أنْ يَجْرَحَك.» وعند هذا الحدّ وَقَفَتْ.

صار ايريك جيدفرسون، منذ تلك اللحظةِ، على يقينٍ بأنّ كلَّ أحلامِه سوف تتحقّق. وفوق ذلك، فلا أحدَ من الأعداءِ ممّنْ يخطرون على بالِه، يستطيعُ أنْ يقتُلَه. وخرج من الخيمة، وأَمَرَ بأنْ تقومَ إحدى العَرَبات بمُرافقة تلك المرأةِ، مُضيفاً بأنْ لا يحقُّ لأحدٍ إزعاجَها، لا فِعْلاً ولا قولاً، وأنّ عليها سلامَ المَلِك.

عاد ايريك جيدفرسون إلى أوسترا أروس، مُطمئِنَّ البال، واثِقاً من المستقبل الزّاهِرِ الذي في انتظاره. بالفعل لم يعدْ يَخْشَى شيئاً من أيّ ساكنٍ من سُكّان سفيلاند، أو فاسترا غوتالاند، أو أوسترا غوتالاند.

لكنّ ماغنوس هنريكسين لم يكنْ ابناً لامرأةٍ من سفيلاند، أو من فاسترا غوتالاند، أو من أوسترا غوتالاند. بل كان دنمركِيّاً.

كان واحداً من أولئك الأسيادِ الدنمركيين الذين وزّعتهم رياحُ الحربِ في كلِّ مكانٍ من العالم، بعد أنْ انتصرَ فلديمار في الأخير، في الكفاحِ الطويل من أجلِ التّاج الدنمركي. لقد قَطَعَ ماغنوس هنريكسين البلطيقَ، ومَكَثَ بعضَ الوقت في لينشبينغ التي أجرَى فيها محادثاتٍ لم يطَّلِعْ أحدٌ على مَضْمُونِها، مع المَلِكِ كارل سفيركرسون. ثم واصل طريقَه على طول الساحل، وتوغَّلَ في بُحَيْرَةِ مالارن، ثم سار نحو عاليةِ نهر فيرِيسَانْ.

وفاجأ ماغنوس هنريكسين إريك جيدفرسون على حينِ غِرّة. وكان هو الذي قَطَعَ بنفسِه الرأسّ التي كانت، حسب الساحرةِ الفنلندية، ستُصبِحُ الرمزَ الأبديَّ للمَمْلَكَة القادمة.

وأعلَن نفسَه مَلِكاً، مادام قد قَتَلَ الملِكَ السابِق – وهو ما كان في تلك الفترةِ أكثَرَ الطُّرقِ المُتَّبَعَة في التَّرَبُّعِ على العرش–، وما دام ينحدرُ رأساً، من ناحية الأمّ، من المَلِكِ أنْج القديم.

عاش ماغنوس هنريكسين بعد ذلك عاماً واحداً. أمّا ايريك جيدفرسون فقد عاشَ خالِداً.

* * *

القراءةُ أمُّ المعرفةِ. كان الأبُ هنري على يقينٍ في قرارةِ ضميرِه، بأنْ لا غنىً للرجالِ مثلِه، هو الذي يُمثّلُ النصُّ عملَه الرئيسي– كتابةً أو نسخاً – عنْ تكريسِ ساعتين كلَّ يومٍ على الأقل، للقراءةِ، فهي غذاءٌ للروحِ، ونوعٌ من المتعةِ المتاحَة.

في فيتسكول، كانت القواعدُ المتعلّقةُ بالقراءة، صارِمةً إذاً. فحتى الإخوة الذين كانت الأعمالُ اليدويةُ تشكلُ مُهِمَّتَهُم الرئيسة، مثل طُهاةِ الأقاليم،

والإخوة البنائين، وقاطِعِي الحجارة، والأخ جيلبرتْ وصُنّاعه الحدّادين، أو الأخ لوسيان وصنّاعه الجنائنيّين، كان عليهم أن يقرأوا يومياً حول مواضيع لا تتّصِلُ بمشاغلِهم اتصالا مباشراً.

لكنّ هذا الواجبَ ما لبث أن اتّخَذَ شكلاً اختلفَ بعضَ الاختلافِ فيما يتعلّق بشأنِ الفَتَى آرنْ. لم يكنْ لسنواتِ القراءةِ الأربعةِ أو الخمسةِ من غايةٍ أخرى غيرُ شَحْذِ معارفِه اللّغوية. فهكذا كان عليه أنْ يتكلّم اللاتينيَّةَ مع الأبِ هنري، والفرنسيَّةَ مع الأبِ جيلبرتْ، واللغةَ الإسكندنافيَّة القديمة مع الإخوةِ لاي الشّماليّين. لقد انكبَّ خلال السنوات الأولى على قراءةِ المزاميرِ، لأنه كان مُلْزَماً بِحِفْظِها أيضاً. وكان فضلاً عن ذلك يملكُ صوتاً نَدِيّاً قديراً يُضفي جمالاً إضافياً للخورس، وعلى الخصوص في قُدّاساتِ الصباح والمساء.

أخيراً، وبعد خمسِ سنواتٍ، صارتْ كنيسةُ ديرِ فيتسكول جاهزةً، فكُرّستْ من قِبَلِ المطرانِ إسكيل، القادمِ من لوند. فحينما تُكرَّس الكنيسةُ سيحمِلُ الديرُ اسمَها أيضاً، على غرارِ الأديرةِ السيسترسية كافّة. لقد قرّر الأبُ هنري منذ وقتٍ طويلٍ بأنّ فيتسكول ستصبح «فيتا شولا»، أي «مدرسة الحياة».

كان لآرنْ حصةٌ في هذا الاختيار. كان يفترَض في الأديرةِ أنها لا تَقْبَلُ منذُورِين للرّهبانية، فكان آرن إذاً الولدَ الوحيدَ بينهم. حتى وإنْ كان يستحيل القول لماذا وَضَعَ الربُّ هذا الطفلَ لدى السيسترسيين، فقد كان من البديهي أنهم اختاروا اسم «فيتا شولا» لآرن خصيصاً. فما مِنْ شيءٍ مُهِمٍّ سوف يتعلّمُه في الوجودِ، إلا ويَتَعَلَّمُهُ في هذا المكانِ بالتأكيد.

وعندما امتلَكَ الفَتَى الأداةَ اللغويةَ خيرَ امتلاكٍ، أطلقَه الأبُ هنري في فضاءِ الأدبِ الواسع. فصار آرن بذلك يمتلكُ ساعاتِه من القراءة الإجبارية، مثله مثل الآخرين تماماً.

كان الأبُ هنري على يقينٍ بأنّ الأدبَ الدنيوي لا يكاد يقلُّ أهميةً عن النصوص اللاهوتيةِ في تكوينِ عقل الشاب. فالأمرُ لا يحتاج إلا لقليل من

العنايةِ من قِبَل الأبِ هنري، لأنّ آرن كان يروحُ ويغدو إلى مكتبةِ النَّسْخِ حسب هواه، فيعثُر فيها على كُتُبٍ قلّما يُنصَحُ بها صبيٌّ غيرُه.

الهدف من أن يقرأ أوفيد، كان واضحاً مثلا أنّهُ كي يُركِّزُ فيه على «التحولات»، وهي في نحو مِئَتَيْ حكاية، تُعلّمُ القارئَ الكثيرَ عن أساطيرِ الإمبراطورية الرومانية وثقافاتِها. بيد أنه لم يكنْ من الحِكمةِ أنْ تَقَعَ يدُ الوَلَدِ على كِتابِ «آرس أماتوريا، فنّ العشق». لقد وجَدَ الأبُ هنري آرن والكتابُ معه في رُكْنٍ من أركانِ المطبخ. وفوق ذلك، فقد بدى آرن متأثّرًا على نحو غير ملائم وبصُورةٍ لم يَسَعْ الطبيعةُ البشريةُ أنْ تَسْتُرَهَا عنه.

بطبيعةِ الحالِ، عاقَبَهَ الأبُ هنري عِقاباً مُناسباً، عاقبَهُ بأصنافٍ من الاستحمام بالماءِ البارد، وبِعَدَدٍ من الصلوات، لكنّه لم يَرَ في عِقابهِ قسوةً بالقدرِ الذي شاءَ أنْ يُظْهِرَ بها العقابُ حقاً. بل وقد روَى القصةَ في غبطةٍ للأخِ جيليرت الذي ضَحِكَ عن طيبِ خاطرٍ من الذَّنْبِ الذي كان آرن لا يَفْقَهُ منه شيئاً.

نُقِلتْ نصوصُ أوفيد المخالفةُ للآدابِ إلى خَلِيَّةِ الأبِ هنري، وصار اختيارُ قراءاتِ آرن الحُرّةِ فيما بعدُ على نحوٍ يتوخّى المزيدَ من العنايةِ والحيطة.

القراءة أمُّ المعرفة كلّها، وكلّ الأفكارِ الواضحة النقيّة. بالطبع، كلُّ الناس قد يتّفِقون حول هذه النقطة. لكنّ الأبَ هنري ربما تميّزَ عن زملائِه من حيث اعتقادِه أنّ الأجدرَ بالأطفالِ الصغارِ أنْ يقرؤوا هذه النصوصَ في حِينِها، قبل أنْ يُجمِّدَهُم عِلْمُ اللاهوت، فيصيروا بحكم ذلك عاجزين على قراءةِ سَطْرٍ واحدٍ من دون أن يتصرّفوا في ذلك وكأنهم يقرأون الكِتاباتِ المقدَّسة، ومن دون أنْ يتساءلوا إنْ كان يجبُ تفسيرُ النصِّ الذي يقرأونه تفسيراً حرفياً، أم استعارياً، أم أخلاقياً، أم قِياسياً.

من ناحية أخرى، لا أحدَ بالطبع كان يَسَعُهُ أن يُهْمِلَ تكوينَ آرن تكويناً لاهوتياً. ففي تلك الأثناءِ لم يكن يوجد سوى نُسختين من أكثرِ الكُتبِ قراءة في فيتا شولا، «لا غلوسا أوردينا‌ريا» la Glossa Ordinarai الذي

يُوَضِّحُ كيف يقرؤ الكتابُ المقدّس، والذي كان الأخوة كافة يُراجِعُونَه بلا انقطاع. لذلك إذاً حرِص الأبُ هنري على أنْ يطّلعَ عليه آرن في أقربِ وقتٍ ممكن.

وتفادياً لحدوثِ واقعةٍ مماثلةٍ لتلك التي حدثتْ مع أوفيد، كان على آرن أنْ يحصلَ على الكُتبِ كافة منْ يدِ الأبِ هنري نفسِه. فعلى هذا النحو سيُكَرِّس ساعةً يوميةً على الأقل في تعلّمِ ما هو يَسُرَ وما عَسُرَ فَهْمُهُ في الكتاباتِ المقدسة.

في السرّ كان الأبُ هنري يغتبطُ أيما اغتباط لِحماسةِ آرن الذي كان يُهْرَعُ لِتَلَقِّي تعليماتِ القراءةِ الجديدة، أو لِكَيْ يُسْأَلَ حول النصِّ التوراتي الذي قرأَهُ في الليلة الماضية. وكانت الغايةُ أنْ يتلقّى الولدُ نِصْفاً من التكوين اليدَوِيِّ، ونِصْفاً من التكوين الفكريِّ. ومادامتْ مشيئةُ الرّبِ نحو آرن غيرَ جليَّةٍ، فلنْ تكون هذه الطريقةُ خاطئةً على الإطلاق.

كان في وسعِهم أنْ يعتَبِرُوا، عن بَرَاءَةٍ، أنّ الوقتَ الذي أمضاه مع الأخِ جيلبرتْ أَمْتَعُ له من الوقتِ الذي أمضاهُ مع الإخوةِ لاي المُكلَّفين بالبناء - حيث كان آرن ينقُلُ المِلاطَ إلى أماكنَ يصعُب الوصولُ إليها على الكبير- وكان أَمْتَعَ له من الأوقاتِ التي كان يُمضيها في المطابِخِ، وأنّ الوقتَ الذي أمضاهُ في مُرافقَةِ الصيّادين في فجورد كان أَمْتَعَ له من الوقتِ الذي أمضاهُ في ترديدِ تراتيلِ القُدّاسِ القادم.

كان الأبُ هنري يُحدِّثُ نفسَه، أنه لو كان طفلا لَثَمَّنَ هذه المُهمّات المختلفةِ بطريقةٍ جدّ مختلفة. لكنه لم يَلْحَظْ شيئاً من ذلك عند آرن، وكأنّ هذا الأخيرَ يَغْتَنِمُ كلَّ ما يُشَكِّلُه اسْمُ الدير: فيتا شولا.

كان مصيرُ آرن أمراً مجهولا. فعلى نحو ما انتهى إليه الأب هنري من تقديرٍ فقد يُنْهِي آرن أيّامَه رئيساً لأحدِ الأديرة. وقد يُصبحُ أيضاً شخصاً آخر، أي ذلك الذي تَحَدّثَ عنه الأبُ جيلبرتْ سِرّاً - والذي يُفضِّلُ ألا يُفْصِحَ عنه- كما يقول الأبُ هنري. لكنْ هنا تحديداً تكمنُ المشكلةُ: فالجميعُ يجهلون الغاياتِ الرّبانيةَ المتّصلةَ بهذا الولد. فلم يبقَ إذاً سوى الاستمرارِ

في ذلك المنوالِ: إعطاءُ الفكرِ ما يعودُ إلى الفكرِ، وإعطاءُ اليدِ ما يعودُ إلى اليدِ.

حَمَل الأبُ هنري، بالقرب من الحديقة، كَوْمَةَ النصوصِ التي سيقْرَؤُها في ذلك اليوم. كان غارقاً في واحدةٍ من مشكلاتِه اللاهوتيَّة الكلاسيكيَّة، فإنْ كان إبليسُ هو الذي دَفَعَ ابنَ آدم إلى الخطيئةِ، بواسطة الحيّةِ، فلماذا يلجأُ الربُّ إلى تصليحِ ذلك بإعادتِهِ للتجسُّدِ في شكلِ إنسان، ثم صَلْبِهِ، ثم مَوْتِهِ من أجل البشرية؟ فلِمَ لــمْ يكتفِ الربُّ باستعمال سُلْطانه النافذ؟

صحيحٌ أنّ إبليسَ قد غَرَّرَ الإنسانَ بفضل الغدرِ والمَكْرِ، وكأنه لِصٌّ. والحالُ أنْ ليس لِلِّصِّ أيُّ حقّ.

وإنْ سَحَبْنا إبليسَ من المُعادلة، فسيظلُّ الإنسانُ مديناً إزاءَ الربّ. في هذه الحال، لِمَ لم يُرسِلْ الرّبُ واحداً من ملائكته لترتيبِ هذه القضية؟

أوّلا، ما منْ مَلاكٍ كان يمكن أنْ يَحُلّ مَحَلّ الإنسان، ولا أنْ يدفعَ عنه الدَّيْنَ. وثانياً، فلو كان ذلك ممكناً لكان الإنسانُ ظلَّ مَدِيناً إلى الأبدِ نحو المَلاكِ، وليس نحو الرّب ذاته. إذاً فبإحلاله محلّ الإنسانِ فقط، وهو ما لم يكن يَقْدِرُ عليه سواه، استطاعَ الربُّ أن يُخلِّصَ البشرية من الخطيئَة، ويُنْقِذَ الإنسانَ من المَعْصِيَة.

إلى هذا الحدِّ كلُّ شيءٍ كان واضحاً ومنطِقيّاً. بل وقد وَجَد الأبُ هنري هذا التفسيرَ لائِقاً، مادام يُقصي كافةَ الشجارات القديمة حول حقوقِ إبليس.

بيد أنّ هذا الشَّرْحَ ما لبث أن تَوَشَّحَ ببعض الوَهَن. فالربُّ، بحُكْم رحمتِه، كان في مقدورِه أنْ يَغْفِرَ للإنسان. لقد كان أسهلَ بكثيرٍ أنْ يَغْفِرَ للمرءِ اقترابَه من ثمرةٍ محظورةٍ في الفردوسِ، من أنْ يَدَعَ ابنَ الربِّ يموتُ فوق الصّليبِ، ليحل محلّ باراباس.

لو شاءَ الربُّ أنْ يهبطَ بين الناس في هَيْئَةِ بَشَرٍ، لكان وَسِعَهُ أنْ يحلّ كلَّ المسائلَ في أسبوعٍ واحدٍ. لكن بدلا من ذلك اتّخذ شكلَ مولودٍ جديد، ثم عاش حياةً طويلةً إلى حين التّضحيّة النهائية. وهكذا حَمَلَتْ حياةُ المسيحِ على الأرض أهميةً ودلالاتٍ عظيمة.

هل عاش ابنُ الرّبِّ إذاً حياةً كاملةً عى الأرض بصفتِه نموذجاً للبشر؟
هكذا، من حياةِ ابن الرَّبِّ على الأرض، وَسِعَ البشرَ أنْ يروْا كيف يليقُ بهم أن يعيشوا، فيسمعون كلمتَه، ويتّبعون دروسَه.
وفيما عدا ذلك، أمَا كان يمكنُ أنْ تكون الكتاباتُ المقدَّسةُ أفْقَرَ دلالةً من دون كلمةِ الربِّ ذاتِه؟
شَعَرَ الأبُ هنري بموجةِ طمأنينةٍ جوانيةٍ تسري في نفسِه. فتلك اللحظاتُ التي يدركُ فيها الحقيقةَ، من دون تَسَرُّعٍ، كانت أجملَ لحظاتِه.
وصل آرنْ بسرعةٍ فائقة، وقد صارت رِجلاهُ رطبتين، لأنه كان قادماً من المغسل رأساً. كان يَرْفُضُ الانتقالَ من عَمَلٍ يدويّ إلى عمَلٍ روحيّ قبل أنْ يغتسِلَ أوّلا. كرّس آرن الساعتين الأَخِيرَتَيْنِ لأعمالِ البناءِ في أعلَى بُرجِ الأجراسِ في الدير. كان ثمةَ منْ العملِ، أكثرَ بكثير ممّا كان منتظراً عندما حُدِّدَ تاريخُ تكريسِ الكنيسة. وكان لا بد من تفكيكِ الإسقالات، استعداداً لقدوم المطرانِ إسكيل.
لكنْ عند تفكيكِ الإسقالات، اكتشفَ الأخوان جيلبرتْ وجيرارْ أيضاً شقوقاً كان لا بدّ من مَلْئِهَا، أو وَصْلاتٍ معطوبَةً. كُلِّفَ آرنْ إذًا بإنجاز اللّمساتِ الأخيرةِ ما دام أقْصَرَ من الآخرين، وكان هو الوحيدُ الأقدرُ على الصعودِ إلى الأعلَى من دون إسقالات. فالارتفاعُ بالفعلِ لم يكنْ يُعيقُه، لأنه كان على يقينٍ من أنّ الربَّ لن يَدَعْهُ يتعرّضُ لأيِّ حادثٍ، لأنه ليس سوى طفلٍ، ولأنه كان يعملُ من أجلِ إنهاءِ عملٍ يسعى للاحتفاءِ بمجدِه. فهكذا ردّ آرنْ عندما سأله بعضُ الإخوةِ إنْ كان لا يخشَى الدُّوّار.
فلعلَّ إجابتَه لم تكنْ صحيحةً بالكاملِ، لكنه لم يكنْ كاذبًا أيضًا. فالحقيقةُ أنْ لا أحدَ يكذبُ في فيتا شولا، لأنّ الكذبَ إخلالٌ خطيرٌ بالقواعدِ السارية. بيد أنّ آرنْ قد مَلَكَ قناعةً لُقِّنَتْ له منذ طفولته الأولى: وهو أنّ الربَّ قد أوْدَعَ فيه أقدارًا محدَّدة. لم يكن الأمرُ بالتأكيد أمْرَ أشغالِ بناءٍ يقوم بها في شبابِه لكي يَفْقدَ بعد ذلك توازنَه ويرتطمَ بالأرضِ، كما وَقَعَ للأخوين لاي اللّذين فارَقَا الحياةَ في أثناءَ الأشغالِ. لذلك لم يشعرْ آرنْ بأيّ خوفٍ.
لكنّ الإجابةَ على هذا النحو قد تَنُمُّ عنْ اعتدادٍ بالنّفسِ، وعن شعورٍ

بالتفوّقِ على الآخرين. وتلك خطيئةٌ فادحةٌ، بل وأفدَحُ من الكَذِبِ نفسه.

كان في ما مَضَى من أيام قد سقطَ من عَلَى بُرْجٍ عالٍ. فهو لم يذْكرْ من ذلك السقوطِ شيئًا، لكنه قرأَ نصّ الحادثِ في سِجِلاتِ فارنيم، وقد تحدّثَ الأبُ هنري إليه حول النهجِ الذي ينبغي أنْ يُفهَم به ذلك الحادثُ. لقد شاءَ الربُّ أنْ يُنقذَ حياتَه من أجل مُهِمّةٍ قادمة. وما أدراك منْ مُهِمَّةٍ! وتلك أهمّ نقطةٍ في تأويلِ ذلك النصّ، وكان في وُسْعِ كلُّ الناسِ أنْ يَطّلعُوا عليه.

في أثناء السنةِ المنصرمةِ كان عَمَلُ القراءةِ قد وُجِّهَ أكثرَ فأكثرَ نحو النَّهْجِ الذي ينبغي فَهْمُ النصوصِ على ضوئِه، ومنها الكتاباتُ المقدَّسةُ على الخصوصِ. وأدركَ آرنْ دَرْساً من تلك الدروسِ، راكِضًا، ومُتأخرًا قليلا. وقد رنّتْ قدماهُ الحافِيَتَانِ على بلاطِ المُصلَّبةِ التي التقَى عندها بالأب هنري.

لم يُوبِّخْهُ هذا الأخيرُ قط، لقد كان غارقًا في أفكارِه، وكأنه في مكانٍ بعيدٍ جدًا، وعلى شفتَيه ابتسامةُ رِضا. لقد داعبَ في لُطفٍ رأسَ الغلامِ المكلّلِ قبل أن يشرعَ في الحديثِ.

جلس آرنْ على المقعدِ الحجري إلى جانبِ الأب هنري ورأى «غلوسا أورديناريا» Glossa Ordinaria . فحتى وإنْ كان لا يسعه فكُّ النصّ لبُعْدِه عنه فقد حزرَ الموقعَ الذي فُتِحَ الكتابُ عنده.

«طيبْ، قال الأبُ هنري وكأنه يغادِرُ على مَضَضٍ عالَمَه الداخلي. ما رأيُكَ لو نبدأ بالنصّ الذي ستُنْشِدُه غدًا بمفردِك، عند نهايةِ قُدّاسِ التكريس... كيف يبغي لنا فَهْمُهُ؟ هيّا، أَنْشِدْ لي الآيــاتِ الأولى منه!»

«الربُّ يرعاني،
لا شيءَ ينقُصُني،
فوقَ مُروجِ العشبِ الطريِّ، سيُريحني
ونحو مياهِ الرّاحةِ سيقودني
هناك يبعثُ روحي من جديدٍ.
يهديني إلى سواءِ السبيلِ
لِوَجْهِ اسمِه الكريم.»

أنشدَ آرنْ بصوتِه النَّدِيّ الصافي. وأوقفَ الإخوةُ العاملون في الحديقةِ عَمَلَهم، واستَنَدوا إلى أدواتِهم، في ابتساماتٍ حليمة. لقد هاموا جميعًا بِترانيمِ الغُلام.

«رائع، رائع، لنتوقّفْ هنا، قال الأبُ هنري. والآن لِنُحَاوِلْ فَهْمَ النصِّ. هل سنُفَسِّرُه أخلاقيًا، أم حَرْفِيًا؟ لا، بالطبع. إذًا ماذا؟»

«إنه بطبيعةِ الحال نصٌّ رمزيٌّ،» قال آرنْ وهو يحاولُ استعادةَ أنفاسِه كان قد بدأ الإنشادَ وهو يلهثُ قليلا.

« هكذا إذًا يا بُنَيّ، فأنتَ تَرَى أنّنا لسنا خِرْفانًا. جَيِّدٌ، هذا بديهي، لكنْ لماذا هذه المقارنة؟»

«من السهولة بمكان أنْ نفهمَ ذلك، قال آرنْ وقد ارْتَسَمَ على جَبينِه تَغَضُّنٌ خفيف. كلُّنا رأينا خرفانًا ورُعاةً، ومثلما الخرفانُ تحتاجُ إلى عنايةٍ واهتمامٍ من الراعي، نحتاجُ نحن إلى الربِّ، حتى وإنْ كُنّا رجالاً وليس خِرْفانًا. إنّ الربَّ بمثابةِ الراعي الذي يرعانا.»

« هومْ، إلى هذا الحدِّ لم يكنْ الأمرُ صعبًا قط. لكنْ ما الذي تَعْنيه « هناك يبعثُ روحي من جديدٍ، يهديني إلى سواءِ السبيل؟» فهل للخرفانِ روحٌ؟ »

«لا.» وفَكَّرَ آرنْ. واشْتَبَهَ في واحدةٍ من أحابيلِ الأبِ هنري المنطقية. لكنه سبق وأنْ قال إنّ النصّ ينبغي أنْ يُؤَوَّلَ تأويلاً رمزيًا. «ما دامت الرَّمزيةُ بديهيةً منذ البداية... وما دام الخرفانُ تُمثّلُنا على ذلك النحو... الجزءُ الموالي من النصِّ ينبغي أنْ يُفَسَّر تفسيرًا حرفيًا. إنّ الربَّ يُعيدُ بناءَ أرواحِنا حقًا.

«أَجَلْ، هذا هو المقصود، هَمْهَمَ الأبُ هنري، بابتسامتِه الماكرة التي يُظْهِرُها كلما أَعدّ فخًا منطقيًا. لكنْ ما تفسير البقيةِ « يهديني إلى سواءِ السبيل»؟ أيُّ سبيلٍ يقصِد؟ أهو المعنى الحرفي أمْ الرمزي؟

«لست أدري. أَهُما المعنيان معًا؟

«آه، أفعْلا؟ أبالإمكانِ قراءةُ نصٍّ قراءةً حرفيةً وأخرى رمزيةً في آنٍ؟ يجب أنْ تُوضِّحَ رأيَك، يا بني.»

«الآيةُ السابقةُ تقول إنّ الربَّ يُعيد بناءَ أرواحنا، فالأمرُ إذًا يتعلّقُ بنا حَرْفياً، ولا يتعلّق بالخِرفان، قال آرنْ في البدايةِ، حتى يَكْسِبَ قليلا من الوقت. بطبيعةِ الحال يستطيع الربُّ أنْ يَهْدِينا إلى سُبُلٍ مستقيمةٍ هِدايةً حرفيةً تمامًا، مثل دُروبٍ عبْر الريف، دُروبٍ مَرْئِيَّةٍ، كالدّروبِ والطرقاتِ التي تَسْلُكُها الخيولُ، والثيرانُ والبشرُ. وإنْ شاءَ ذلك، اقتادَنا إلى رُوما، مثلا.»

«هومْ...قال الأبُ هنري، وقد بدا صارِمًا. لعله لم يَفُتْكَ أنّ هذه الدروبَ تُعَدُّ ضمن الاستعاراتِ الأكثرِ استعمالاً في الكِتابات المقدسة؟ إذا كانت دروبُ الربِّ غيرَ سالكة، فلا أحدَ يستعينُ ببعض الدُروبِ التائهةِ في الضباب، أليس كذلك؟»

«لا، بالطبع. الدروبُ السويةُ هي التي تُبْعِدُنا عن الخطيئة، وهي الدروبُ التي تُؤدّي إلى الخلاصِ، وكذا دواليك. هذه قصةٌ مجازيّة.»

«طيب، أين وصلنا؟ ما الذي تقوله الآيةُ التالية؟ لا، لا تُنْشِدْها، وإلا تكاسَلَ الإخوة أكثرَ فأكثر. إذن ماذا؟ »

«إنْ أنا اضْطُرِرْتُ إلى السيرِ في مُنْحَدَرِ وادٍ مُظْلِمٍ فلن أخشى أيَّ سُوءٍ، لِـ أنك مَعي، أنشدَ آرنْ من دون تردّدٍ. ظني أنّ المعنَى هنا معنىً عام على الأرجح. فإنْ وجدتَني في شِدّةٍ عظيمةٍ، وإنْ كنتُ قريبًا من الموتِ – كما لو وجدتني، مثلا، في أعلى بُرْجِ الأجراسِ أنجزُ أعمالَ بناءٍ – فلَنْ أخشَى شيئًا، لأنّ الربَّ مَعِي. مُنْحَدَرُ الوادي المُظلم يَجِبُ، إذًا، أنْ يُفْهَمَ فَهْمًا مجازِيًا، حتّى وإنْ جاء ذِكْرُهُ ذِكْراً نظرياً صِرْفاً: فلن يكون هو المكانُ الذي سأذهبُ إليه بحثًا عن النجدة. فهذا إذاً يعني تقريباً، أنني حتى لو كنتُ في قلْبِ مُنَحَدَرِ الوادي الأكثرِ ظلمةً، أيْ في أوقاتِ الشدّةِ، أو الحُزن، أو الخطرِ، فلَنْ أخْشَى شيئًا.»

* * *

رَسَمَ اليومُ الذي صار فيه آرنْ أكبرَ منْ أنْ يَحْمِلَ قوسًا، النهايةَ المؤقّتة

لتلك المُتْعَةِ الصغيرة التي كانت بمثابةِ تَمَرُّنٍ في حالةِ هذا الغلام. كان ثمة فضاءٌ للرِّمايةِ إلى جانب المِصْهَرِ، وكان آرنْ يتردّدُ عليه أثناء استراحاتِ العَملِ الطبيعية، لكيْ يُمارِسَ الرّمايةَ، فيما كانت نِصَالُ الرّماحِ تَبْرُدُ، أو تُوقَدُ نيرانٌ جديدةٌ. بيد أنّ الأخَ جيلبرتْ ما لبثَ أنْ لاحظ ذات يومٍ أنّ آرنْ رَمَى اثني عشر سَهْمًا، الواحدَ تلو الآخر، على الدّريئَةِ المُتَحَرِّكَةِ – كرة مصنوعة من خِرْقَةٍ مُعَلَّقَة إلى حَبْلٍ –، من دون تردّدٍ، ومن دون أنْ يبدوَ عليه أيُّ اهتمامٍ خاصٍّ بما يفعل.

كان الوقتُ قد حان لكيْ يُعيدَ آرنْ الكَرَّةَ من البِداية. لم يَرَ الأخُ جيلبرتْ أيَّ ضرورةٍ لأنْ تكون الأدواتُ التي وُضِعَتْ بين يَدَيْ آرنْ، ملائمةً لِطولِه ولِقُوّتِه وحسب، بل رأى أيضاً أنْ يتدرّبَ باستمرارٍ وبعنايةٍ كاملة. فإنْ صار التدريبُ سهْلاً جداً فَقَدَ غايتَه، بل وقد يُصبح سلبياً – وهو ما يجدُ الأخُ جيلبرتْ عناءً جماً في شَرْحِه حتى للكبار. لكنه لم يُقدّم لآرن شروحاً إلا نادراً. وفضلاً عن ذلك، فلَمْ يرَ حاجةً إلى ذلك ما دامتْ الطاعةُ تُمَثِّلُ واحدةً من القواعدِ الأساسيةِ في حياةِ الدير.

واكتشفا أن خشب شجر الطقسوس وهو شجر داشم الخضرة ملائم لصنْعِ القَوْسِ الجديد، وعلى الدردار لصناعةِ السِّهام. فإنْ هُما غيَّرا القوس، فلا غِنىً لهما عنْ سِهامٍ جديدةٍ أيضاً، لأنّ الكُلّ يجبُ أنْ يتلاءمَ مع النِّسَبِ الملائمةِ، حتى يتسنّى لمجموعِ الجهازِ أنْ يشتغِلَ على خَيْرِ ما يُرام، وكذلك يجب أنْ تكون حركاتُ اليدِ وقُوَّةُ العقلِ متناغمَة.

استغرقَتْ صناعةُ القوسِ الجديدِ كثيراً من الوقتِ، من الربيعِ البارِدِ الذي كانت ندائفُ الثلجِ لا تزال تسقطُ فيه، إلى بدايةِ الصيفِ عندما صارت صفوفُ شقائقِ النُّعمانِ تنتشرُ على طولِ الممرات المقنطرة. ولم يجدْ آرن بُدّاً منْ أنْ يُتابعِ ويتعلّم العمليّةَ بكاملِها: كان يجبُ أنْ يَجِفَّ الطقسوسُ في غرفةٍ مُعْتِمَةٍ وباردةٍ، تقطَعُ صفائحُ من مختلفِ أجزاءِ هذه الشجرةِ، ثم تُصْقَلُ، ثم تُجْمَعُ بواسطةِ غِرَاءِ السمكِ قبل أنْ توضَعَ تحت المِعْصَرِ، وفي النهايةِ يصقل الكل مرة جديدة. بالطبع كانت هذه الطريقةُ أسهلَ في

صناعةِ السّهامِ، إذْ العملُ لا يختلفُ عن العمَلِ الذي سبقه، ولا فَرْقَ إلا من حيثُ الطولِ وحده. أما صناعةُ رؤوسِ السهامِ فهي جُزْءٌ من أعمالِ صناعةِ الأسلحةِ البسيطةِ التي كان آرنْ قادِراً على إنجازِها بمفردِه.

وعندما حان في الأخيرِ موعدُ اختبارِ أدواتِ العملِ الجديدة، وَسَّعَ الأخُ جيلبرتْ مسافةَ الهدفِ بنحو ثماني عشرةَ إلى خمسةٍ وعشرين خطوةً. في الأيامِ الأولى أحسَّ آرن وكأنه يُعيد العملَ ثانيةً من البداية. لقد شقَّ عليه شدُّ وَتَرِ القوسِ، وكان هذا الجهدُ يؤثِّرُ على مَسارِ السِّهامِ، فيجعله يُخْطِئُ الهدفَ كُلِّياً. وكان ذلك يُثْبِطُ عزيمتَه، فيُؤنِّبُهُ الأخُ جيلبرتْ في الحالِ لخمولِه ولتراجُعِ ثِقَتِهِ بنفسِه، وهما خَطِيئَتان لا تقلُّ إحداهُما خُطورةً عن الثانية. وهنا كان آرن لا يجدُ بُدّاً من أنْ يَتْلُوَ بعضَ «الباتر نوستر» وهو جاثمٌ أمام القوسِ والسّهامِ، قَبْلَ أنْ يُرَخِّصَ له باستئنافِ تدريبِه.

في تلك اللحظاتِ رغِبَ الأخُ جيلبرتْ في أنْ يشرحَ لآرن كم هو يُتْقِنُ الرِّمايَةَ، بل ويُتقِنُها أفضلَ من الكِبارِ المُدَرَّبين. لكنّ آرن لم يقِسْ نَفْسَه إلا بالأخِ جيلبرتْ، وكأنّ في العالَمِ أجمع لا يوجدُ سوى نبّالَيْن اثنين لا ثالثَ لهما. كان الأخُ جيلبرتْ يتكتّمُ على ماضيه دائماً، وعلى الأسبابِ التي قادَتْهُ إلى التكفيرِ عن ذنوبِه في دِيرِ سيسترسيّ. والحالُ أنّ الأبَ هنري كان قد منَعَهُ منْ أنْ يرويَ قِصَّتَهُ لآرن.

منذ نحو عامٍ صار الأخُ جيلبرتْ وآرن يُؤَدِّيان تدريبَها الصغيرَ خارجَ الدّيرِ، لأنّ العديدَ من الإخوةِ كانوا يَرَوْنَ في إجراءِ مِثْلِ ذلك النشاطِ داخِلَ الجدرانِ أمْراً مُسيئاً.

لكنْ، ذات يومٍ توقَّفَتْ مجموعةٌ من الجنودِ في المكانِ الذي كان آرن يتدرّبُ فيه. كان الجنودُ عائدين من الجزيرة الدنمركية» في»، مُنْشَرِحي الصّدرِ، لأنّ الحربَ قد توقّفتْ، ولأنهم سيلتقون بِذَويهِم قريباً. وقد راعَهُم مَشْهدُ أخٍ صغيرٍ من عائلةِ لاي وهو يرتدي ثياباً صوفيةً غليظةً، ومُكَلَّلُ الرأسِ بدائرةٍ صغيرةٍ حليقةٍ، وبِضْعِ خَصْلاتٍ من الشَّعْرِ من حولِ الأُذُنَيْنِ، حتى بدا لهم ذلك المشهدُ من قبيلِ منتهى الهَزْلِ. ففي ظنّهم كان الأمرُ ضَرْباً

من المستحيلاتِ السّبع.

لقد شَرَعُوا في صَبِّ مُزَحِهِمْ البذيئةِ قبل أنْ يُلاحظوا الغلامَ، وفي التَّلَفُّظِ بِتَهَكُّماتٍ إضافيةٍ بعد ذلك. وتظاهرَ الأَخُ جيلبرتْ بأنه لا يَفْهَمُ لغتهم الشمالية تلك، أو على الأقل أنه لم يَسْمَعْ كلامَهم.

لكنّ الجنودَ ما لبثوا أنْ صَمَتُوا، لأنّ الذي رَأَوْهُ بأعينِهم بَدَا لهم أمراً حقيقياً وإنْ فاقَ إدراكَهم. كان الأخُ لاي الصغيرُ يقفُ على مسافةِ ثماني عشرةَ خُطوةً من الهَدَفِ، وكان يضَع السَّهْمَ تِلْوَ السّهمِ في دائرةٍ بِحَجْمِ نِصفِ راحَةِ اليد تقريباً. وكان إذا أخطأَ الهدفَ بِأكثر من مِقْدَارِ إبهامٍ أحسّ بالنَّدَمِ وطَلَبَ العَفْوَ منْ أُستاذِهِ، وأبْدَى مزيداً من التّركيزِ على السَّهْمِ التالي.

ذهب الجنودُ في صَمْتٍ، وما كادوا يَنْأَوْنَ عنْ الدّيرِ حتى تشاجروا شِجاراً مُدَوِّياً.

أدرك الأخُ جيلبرتْ حقَّ الإدراكِ ذُهولَ أولئك الجنودِ. فلا هُمُ ولا هُوَ رَأَوْا أبداً من قبلُ طفلاً جُبِلَ بمثلِ تلك الموهبةِ. لكنّ آرنْ كان لا يعلمُ من ذلك شيئاً. ففي عالمِه لا يُوجَد سوى هُوَ والأخِ جيلبرتْ، وللمقارنةِ فليس آرنْ سوى نَبَّالٍ غيرِ ذي قيمَة.

كان الأبُ هنري يَشْمَئِزُّ من الحديثِ في هذا الموضوع. ففي رأيِه أنّ آرنْ يملِكُ طعمَ القراءةِ وذكاءَ طفلٍ لم ينضجْ بعدُ، وليس له غير ذلك. فهو نفسُه لم يكنْ طفلاً لامِعاً، ولا يختلفُ آرنْ عمّا كان هو عندما كان طفلا. لكنّ الحماسةَ التي كان هو وآرنْ يُبْدِيانِها للدراسةِ كانت في نظرِه أَهَمَّ ما في الأمرِ، وهو يذْكُرُ في ابتسامٍ كيف وقعتْ يدُه لأوّل مرةٍ على كُتُبٍ لم تكنْ مُخصّصةً لأطفالٍ في مُقتبلِ العُمر. وقد كُشِفَ أَمْرُهُ في الحينِ وتَعَرَّضَ للعِقابِ على نحو ما عاقَبَ هو آرنْ. المُهِمُّ إذاً هي تلك الرغبةُ في القراءةِ والحرصُ على التعلّمِ. لقد أعْطَى الربُّ لكلِّ واحدٍ منهما عَقْلاً يكادُ يُعادلُ عَقْلَ الثاني، وكان يَقَعُ على كلِّ واحدٍ منهما أنْ يملأَ هذا العقلَ إدراكاً، وأن ينمّي مواهبَه.

اعْتَرَضَ الأخُ جيلبرتْ اعتراضاً غايةً في البساطةِ على هذا الإدراكِ،

لأنّ الربَّ في هذه الحالةِ يُعطي لكلِّ واحدٍ قُدْرَةً تكاد تتكافأُ على استعمالِ القوسِ والسيف. والحالُ أنه كان مِنْ الواضحِ أنّ البعضَ كانوا، على ما يبدو، أَكْثَرَ مهارةً من غيرهِم في هذا الشأن. بل وقد كان الأخُ جيلبرتْ يؤكد أنه لم يصادفْ في حياتِه أحداً قط، رجلاً كان أم طفلا، يملكُ من الموهبةِ ما مَلَكَهُ آرنْ.

لكنّ هذا التأكيدَ ما فتىءَ يُشْغِلُ بالَ الأبِ هنري. فمِنْ ناحيةٍ، لا يوجَد من الرجالِ الأحياءِ الذين واجَهوا الحديدَ قَدْرَ ما واجَهَهُ الأخُ جيلبرتْ سوى القليلِ جداً. كان ذلك واضحاً. ومن ناحيةٍ أخرى، لا يمكنُ للأخ جيلبرتْ أنْ يَكْذِبَ على رئيسِ ديرِهِ بأيِّ حال.

ومع ذلك فلم يكنْ الأبُ هنري يُحبُّ الخوضَ في هذه المسألةِ إلا نادراً، وقد اتّفَقَ في ذلك مع الأخِ جيلبرتْ. بمعنى أنه كان قد مَنَعَهُ مِنْ أنْ يُقطِّرَ أَدْنَى تَلْمِيحٍ لذلكَ في رأسِ الولد. فهكذا لم يكنْ آرنْ يَعْلَمُ متَى سيُؤَدِّي عمَلا ماهِراً بالقوسِ أو السيف. وكان لا يعرِفُ سوى متى أَخْطَأَ، وهو ما كان يُذَكِّرُه به من دون أيِّ مجاملة.

لم تكنْ الفرصةُ في أثناءِ هذه التمارين، قد أُتيحتْ لآرنْ بأنْ يستعملَ سيفاً حقيقياً. لم يكنْ ضرورياً أنْ يَعْرِفَ الأخُ جيلبرتْ ما الذي يمكنُ أنْ يحدُثَ عندما يصيرُ للولدِ ساعِدان أكثر قوّة، وينتقلُ منْ سيفٍ خشبيٍّ إلى سيفٍ من فولاذ.

ولتحريكِ هذا السلاحِ كانت حيويةُ العينِ والعقلِ، وتوازنُ الجسم، ومرونةُ اليدِ، تفوق بكثيرٍ قُوَّةَ الذراع. فنادِراً ما أُتيحتْ للأخِ جيلبرتْ فرصةُ رؤيةِ رجالِ الشمالِ وهُم يستعملون السيفَ، لكنّ ذلك كان كافياً لأنْ يرى بأنّ تقنيَّةَ أولئكَ الهَمَجيّين تكاد تَعْتَمِدُ على القوةِ وحدها. كانت سيوفُهم قصيرةً طالما أنهم لا يحاربون أبداً وهُمْ على ظَهْرِ الخيول. ومن غريبِ الأمورِ أنهم يعتقدون أنّ الخيولَ لم تُخْلَقْ للحرب. ولمّا كانوا يصطفّون الواحدَ جَنْبَ الآخر، تقريباً مثل الإغريقِ والرومان قبل ذلك بألفِ عام، فقد اقتصرتْ كلُّ تِقْنِيَتِهِمْ تقريباً على رَفْعِ السيفِ عاليةً جداً وعلى تسديدِ ضربةٍ

قويةٍ بِالوَرْبِ، انطلاقاً من اليسار أو من اليمين. وما دام كلُّ رجلٍ مزوَّدٍ بشيءٍ يُشبِهُ الدّرعَ، وبِحَدٍّ أدْنَى من غريزةِ البقاءِ لِصَدِّ ضَرْبَةٍ من هذا النوعِ، من دون الحاجةِ إلى تفكيرٍ أو إلى التحرّكِ، تظلُّ المعركةُ مستمرّةً إلى أنْ يَشْعُرَ هذا الطرفُ أو ذاك بالتّعبِ في النهايةِ، وإلى أنْ يُسدِّدَ هذا أو ذاك ضربةً بالخطأ فوق رأسِ خصمِهِ. وفي هذه الحالات، ربما كان من الطبيعي أنْ تتفوّق الأذرعُ المفتولةُ في النهاية.

في خلالِ السنواتِ الأربعِ الأولى، ظلّ آرنْ يتدرَّبُ على سيوفٍ خشبيَّةٍ يَلُفُّها رباطٌ. وقد لقَّنَهُ الأخُ جيلبرتْ هذا الإيقاعَ ثُلاثي الزَّمَنِ تَلْقِيناً منهجِياً، حتى يظلَّ راسخاً في مُخِّ الولد: ضربةٌ عاليةٌ آتيةٌ من اليسارِ، وضربةٌ منخفِضةٌ آتيةٌ من اليمين، ثم ضربةُ سيفٍ مباشرة، أو ضربةٌ من الجانبِ.

هكذا إذاً تعلَّم آرن أوّلا الوتيرةَ والحرَكَة. وتعلّم ثانياً كيف يتغلَّبُ على مخاوفِه، لأنّ الأخَ جيلبرتْ كان في السنوات الأولى من التدريبِ يُصيبُهُ دائماً عند الزمنِ الثالث. وبعد مرورِ ثلاثِ سنواتٍ استطاع آرن في النهايةِ أنْ يتحكَّمَ في مَوْضِعِ قَدَمَيْه، بما فيه الكفايةِ، ويتحكّمَ في تحرُّكاته، وفي الإيقاعِ، مثلما يتحكّمُ في الغِناءِ، حتى صار يتَفَادَى أحياناً ضَرْبَةَ السيفِ الثالثةِ المُؤلِمَة.

في العام الرابعِ كان الأخُ جيلبرتْ قد صَنع سُيُوفاً من الخشبِ أثقلَ وَزْناً، حَشَاها دَاخِلَ شريطٍ حديدي. كان من المُهِمّ أن يكون وزنُ السيفِ الخشبيِّ في يدِ آرنْ ملائِماً لِذراعيهِ الصغيرين، كما سيكون السيفُ الحقيقيُّ فيما بعد! وبالمثلِ كان يجب أنْ تكون العرّاداتُ أكثر فأكثر صلابةً، وهو ما جعَلَ الأخَ جيلبرتْ يمضِي وقتاً طويلا في ضَبْطِها قَبْلَ أنْ تُصبحَ ملائِمَةً لآرن.

وفي أثناء تمارين استعمالِ السيفِ، اكتشفَ الأخُ جيلبرتْ أنّ الولدَ يُتْقِنُ استعمالَ السيفِ بِيُسْرَاهُ مِثْلَ يُمْنَاهُ سواء بسواء. وكما هو الشأنُ في أيِّ مكانٍ آخرَ من الديرِ، وفي قاعةِ النسخِ، كان الأساتذةُ يُصَحِّحُون آرنْ عندما يستعملُ يَدَهُ المَشُوبةَ. لكنَّ الأمرَ عند الأخِ جيلبرتْ كان مختلفاً تماماً. كان يُسائِلُ ضميرَهُ ثمّ يسألُ الربَّ. فلم يكنْ يرغبُ في أنْ يُقْحِمَ الأبَ هنري في هذا الشأن.

وسرعان ما أدركَ أنّ آرنْ لم يكنْ مجرّدَ شَخْصٍ أَعْسَرَ بالفِطرة. ففي ما سَبَقَ من حياتِه صارَع الأخُ جيلبرتْ بالسيفِ أشخاصاً عُسْراً، ولم يكنْ ذلك أمراً هَيِّناً. فكان الأمرُ وكأنما صار ينجز بالمقلوبِ كلَّ ما تعلّمه.

منذُ البدايةِ إذاً جرَّ آرن إلى استعمالِ اليدَيْنِ معاً، مُغَيِّراً ذلك من يومٍ لثانٍ، أو من أسبوعٍ لآخر. بيد أنه لم يَرَ فَرْقاً ملحوظاً في التقنيةِ عندَ الولدِ، اللّهم إلا أنّ ذراعَه الأيسرَ صار أقوَى من ذراعِه الأيمن. لكنّ بذلك بات يُقدّم سِرّاً لِتِقْنِيَّةِ آرن منذ البداية، إذْ صار هذا الأخير يُنقلُ سيفَه فجأةً من يَدٍ إلى أخرى، ويأخذُ في الدّورانِ من حَوْلِ خَصْمِه من اليسارِ إلى اليمين، بدلاً من أنْ يدورَ من اليمين إلى اليسار، كما كانت عادتُه. فإنْ كان الخصمُ مُجَهَّزاً تجهيزاً ثقيلاً، أو كانت الأرضيةُ غير مُهَيَّأةٍ بما فيه الكفايةِ، فقد يُحْدِثُ تَغْيِيرُ التكتيكِ على ذلك النحو، تأثيراً مُدَمِّراً.

كان الأخُ جيلبرتْ يعرِفُ أنّ تلك الأفكارَ، على الأرجحِ، أفكارٌ لا تخلُو من شُعورٍ بالذَّنْبِ، لكنّه شَرَحَ أيضاً أنه ما دام واجبهُ يقوم على تعليمِ الوَلَدِ، فمن واجبِه أيضاً أنْ يقومَ بذلك التعليمِ على أفضلِ وَجْهٍ ممكنٍ. فالربُّ لم يكنْ قد عبّرَ بعدُ عمّا ينتظرُه منْ آرن، فهلْ ثمّةَ فرقٌ بين قراءةٍ خَفِيَّةٍ لـــ «أوفيد»، وبين إمساكِ السيفِ باليدِ اليُسرى؟

سأل الأبُ هنري الربَّ بدورِه ثانيةً. فجاءَهُ الردُّ بأنّ الولدَ ما دام يُظهِرُ ذلك القَدْرَ من الحماسةِ في الدراسةِ، وفي أَلْعابِ الأخِ جيلبرتْ الحربيّةِ سواء بسواءٍ، فإنّ كلَّ شيءٍ سوف يسيرُ على خَيْرِ ما يرام. لكنْ، لا يجوزُ أنْ يَشْرَعَ آرنْ في تَفْضِيلِ السّهامِ والسّيفِ على «غلوسا أورديناري». فَمِنْ حُسْنِ الحظّ أنّ آرن لم يُظْهِر أيَّ مَيْلٍ من ذلك القبيل.

وفيما كان الأبُ هنري يُوصِي بالمُواظَبَة والانضباطِ، وبالصفاءِ والصلواتِ، ما انفك الأخُ جيلبرتْ يُوصي بالخِفَّةِ، ومزيدٍ من الخفَّةِ، ولا شيءَ سوى الخفَّةِ والإتقان. ففي رأيه أنّ الولدَ إذا تَعَلَّمَ كيف يُحِسُّ مَتَى يجبُ أنْ يُسَدَّدَ السهمُ نحو مكانٍ يقعُ أمام الهدفِ المتحركِ لكي يلتقِيَ هذا السهمُ بذاك الهدفِ، في ذلك المكانِ تحديداً، فذاك أمرٌ لا يقلُّ أهميةً عن التحرّكِ بلا

انقطاعٍ، وعن حِرْصِهِ على أنْ لا يظلَّ مُسَمَّراً في مكانِه في انتظارِ ضَرْبَةِ الخَصْمِ، وعلى أنْ يكون في مكانٍ آخرَ حين تُسَدَّدُ تلك الضّربةُ، حتى يُوجِّهَ ضربةً منه في اللحظةِ الموالية.

المواضَبَةُ والانضباطُ. الصفاءُ والصلواتُ. الخِفَّةُ ثم الخِفّةُ ثم الخِفّةُ ثم التطبيق. كان آرن يَتَّبِعُ هذه القواعدَ بالسهولةِ نفسِها التي كان يتّبِعُ بها قاعدَتَيْنِ من أهمّ قواعدِ الحياةِ في الديرِ، طاعةِ الإِخْوَةِ وحُبِّهم جميعاً، وبالطبع، القاعدة الثالثةِ، هي أنْ يقول صِدْقاً دائماً، ثم بقيّة القواعدِ الأقلّ أهميةً والعَصِيَّة على الفهمِ أحياناً، كالقواعد المُنظِّمةِ للأكلِ والنوم.

بيد أنّ اتِّبَاعَ هذا النظامِ الربّاني لم يُكلِّفْه شيئاً. بل كان الأمرُ، على العكسِ، يُغْبِطُه أيما غِبطة. وكان يُسائِلُ نفسَه أحياناً ما الذي يحسُّ به الأطفالُ الآخرون في هذه الدنيا، لأنّ ذكرياتِ الزلاجات، وأطواقٍ ولُعَبِ أطفالٍ أخرى، كانت تُراوِدُه من حِينٍ إلى حينٍ. فلعلَّ شيئاً من هذا كان يَنْقُصُه، مثلما ينقصُه في لحظةِ صلاةِ الليلِ حين يُصلي لأجلِ أمِّه، فيُحِسّ بغِيَابِ أَنْفاسِها، وغيابِ صوتِها ويَدَيْها. وكان يُصلي لأخيهِ إسكيل، فيشعرُ أنهما فيما مضَى مِنْ زمنٍ قد فُرِّقَا تفريقاً، بالقوةِ وفي البُكاء. لكنه كان يُدْرِكُ، أو يعتقِدُ على الأقل أنه قد أدركَ حقاً أنّ أكبرَ سعادةٍ بالنسبة إليه كوَلَدٍ أنْ يُقَسِّمَ وقتَه بين كلِّ هذه الأشياءِ العجيبةِ التي تُوفِّرُها له الكتبُ، وبين كلِّ تلك الأشياءِ القاسيةِ التي كان الأخُ جيلبرتْ يَعْرِضُها عليه، وكانت مَصْدَرَ عَرَقِه ودُموعِهِ أحياناً.

* * *

أَقْسَمَ ماغنوس فولكسون أمام الربِّ أنّه سيظلُّ يَحْمِلُ حُزْنَهُ على سيغريد لخمسِ سنواتٍ قبل أنْ يتزوّج ثانيةً. وقد أثار قرارُه بعضَ الذهولِ في عائلتِه، لأنه لم يكنْ من عادةِ رجلٍ يتمتّع بكاملِ فُحولتِه، وليس له سوى وريثٍ واحدٍ، أنْ يُحْجِمَ عنْ إنْجابِ أولادٍ آخرينَ طوال هذه المُدَّةِ، ويَحْرِمَ

نفسَه من إمكانيةِ تَقْوِيَةِ سُلالَتِه بواسطةِ صِلاتٍ عائليةٍ أخرى.

صحيحٌ أنّ ماغنوس قد تَسلّى مع سوم، وأنجبَ منها طفلا. لكنّ أرناس ظلّتْ حِصْناً قاسياً كئيبا، حتى لم يكدْ شيءٌ فيها يتغيرُ إطلاقاً. فبعد رَحيلِ سيغريد أحسّ ماغنوس بخواءِ عَقْلِه حتى عزّتْ عليه أفكارٌ جديدةٌ يُطوّرُ بها تِجارتَه وشؤونَه. فلا تجديد هناك وكلُّ شيءٍ كان يسيرُ وفْقَ الخطط السابقة.

لقد شَيَّدَ بعض الشيء وبَنَاه. فأنهى بناءَ القلاعِ، ووَصْلتَيْنِ على الطريقِ العابِرِ إلى تِيفِيدِينْ. إنّ البناءَ شيءٌ يُرضِي الربَّ، وكان ماغنوس قد أقْسمَ بأنه سيُنْجِزُ هذه البناءاتِ خَيْرَ إنجازٍ عندما زارَ قَبْرَ سيغريد. وفي فارنيم صلّى لِرُوحِها واشترَى شَفَاعاتٍ لها.

وقال لنفسِه أيضاً أن لا ضَرَرَ مِنْ أنْ يربِطَ ما يُرضِي الربَّ بأعمالٍ مُستقبليّةٍ. ففي اليومِ الذي ستَعْبُرُ فيه الطُرُقُ إلى تيفيدين سوف يصبحُ بالإمكانِ عندئذٍ مُزاولةُ التجارةِ شمالا، مع عائلةِ سفير. إنّ هؤلاء، بالتأكيد، أناسٌ بُسطاء، لكنّهم يمتلكون الحديدَ بكمياتٍ هائلةٍ، ويملكون تجارةَ الجلودِ القابلةِ لأنْ تُدِرَّ عليهم قدراً أكبرَ من المالِ إنْ تَيَسَّرَ استعمالُ السُّبُلِ السالِكَة.

وتَعَكّرَ صفْوُ أرناس أيضاً بقُدومِ تُورَا غوتومسدوتر، والِدَةُ ماغنوس. لقد تركتْ هذه الأخيرةُ أراضِيها النرويجية، حتى تَرْعَى بَيْتَ ابنِها في أثناءِ تَرَمُّلِه. وكانت تَقْسُو على الأقنةِ أيما قسوةٍ، وتحرِصُ على أنْ تقودَ كلَّ شيءٍ وِفْقاً للعاداتِ النرويجيةِ القديمةِ. والحالُ أنّ ماغنوس كان، مثْلَ كثيرٍ من الرجالِ، لا يقوى على وَضْعِ والدتِه في مكانِها الصحيح. ولم تُسْهِمْ حاجتُه إلى مزيدٍ من التحكُّمِ في بيتِه في التعجيل في التزوُّجِ ثانيةً. كان ماغنوس يَعْتَبِرُ أنّ من الحصافةِ التحالفَ مع عائلةِ بال هوسبي، ما دامت أراضيهم تَقَعُ في الجوار. وهكذا فإنّ أيَّ مَهْرٍ قوامُه غاباتٌ من أشجارِ السنديان في منطقةِ كينيكول، مُرَحَّبٌ به أيما ترحيب. صحيحٌ أنّ الفتياتِ لم يَكُنَّ أنذاك سوى أطفالٍ، بيد أنّ الشبابَ كان من الصفاتِ التي تمرُّ مرورَ الكِرَام.

كان إسكيل في نظرِ ماغنوس مَصْدَرَ غِبطةٍ وحُزنٍ معاً. كان إسكيل يُشْبِهُهُ، ويُشبِهُ سيغريد أيضاً، ما دام في الظاهرِ قد وَرِثَ عن والدتِه حُسْنَ

الإدراكِ والمعاملة. كان إسكيل يرغبُ القيام بسفرات لهدف البيع والشراء، وفي الالتقاءِ بتُجّارِ غُرباء، وفي التعرّف على بضائعِهم، وأسعارِها. وفي هذا كان إسكيل يُشبِهُ والدَه حقاً.

بيد أنه، على الرغم من بلوغِهِ سنّ الرُّشْدِ تقريباً، فقد ظلّ عاجزاً عن استعمالِ الرُّمحِ أو السيفِ، كما يستعملُهُ رَجُلٌ في سنِّه، وفي رُتْبَتِه. ومن هذه الناحيةِ لم يكنْ من الخطأ القولُ بأنّ ماغنوس كان يُشبه ابنَه البِكر أيضاً.

لم يذهبْ ماغنوس، سيِّدُ أرناس، إلى الحربِ سوى مرّةٍ واحدةٍ، عندما أعلن هنريكسين، الدنمركي، نفسَه مَلِكاً على قَوْم سفيرْ، بعد أنْ أطاحَ بإيريك جيدفرسون ، في أوسترا أروس. بعضُهم أكَّدَ أنَ ذلك حَدَثَ عند الخُروج من القُدّاس الأعظم، أمامَ كنيسة الثالوث. هناكَ ماتَ ايريك جيدفرسون مَوْتَ الأبطالِ، ضحيةً لقُوّاتٍ فاقَتْهُ عَدَداً، وقد انبثقَ نَبْعٌ من الماءِ في المكانِ الذي سَقَطَ فيه رأسُه.

في المقابلِ، وعلى غرارِ الملكِ كارل جيدفرسون، قال أعداؤُه إنّ ايريك جيدفرسون قد مات عَبَثاً، فقد بَلَغَ من الثّمَلِ ما جَعَلَهُ عاجِزاً عن الدّفاعِ عن نفسِه كما يدافعُ أيُّ رجلٍ عن نفسِه.

لكنّ الظروفَ الدقيقةَ لموتِ الملكِ إيريكْ لم تكن مُهِمَّةً كثيراً، إذْ كانت الحربُ ضرورة. كان من السّهلِ أنْ يفهمَ الجميعُ أنّ عائلةَ سفيرْ قد أحَسَّتْ بالظُّلْمِ من ذلك الدنمركي الذي اغتال مَلِكَهم. لقد بَعَثُوا برُسُلٍ حتىّ إلى هيلسنغلاند، وإلى أقاصِي غاباتِ سفيلاند. وقد انْحَرَفَ جيشٌ هائلٌ بسرعةٍ نحو أوسترا أروس. لكنّ السؤالَ ظلّ يُطرَحُ طرحاً مختلفاً في فاسترا غوتالاند: فهل كان يجبُ أن تُتْرَكَ عائلةُ سفيرْ تُصَفِّي وحدَها حسابَ قاتِلِ المَلِكِ، الدنمركي، أم كان يجبُ المشاركةُ في الحرب؟

في لينشبينغ كان الخيارُ سهلاً بالنسبةِ للْمَلِكِ كارل سفيركرسون ورجالِه. فإمّا أنْ يذهبَ إلى الحربِ ضدّ الدنمركي، قاتِلِ المَلِكِ، مع أكْبَرِ عددٍ مُمكنٍ من القوات، ويفوزَ بِعَرْشِ سفيلاند، وإمّا أنْ يَتْرُكَ عائلةَ سفيرْ تَنْتَصِرُ

وحدَها، وتختار مَلِكاً جديداً منْ بين قادتِها، وتختار لغماناتها.

سرعان ما أدرك الفولكونغر في أثناء انعقادِ دورةِ التينغ في بيالْبو، أنْ لا خِيَارَ أمامَهم. فما لبث بيرجر بروزا، أخُ ماغنوس، أنْ أَقْنَعَ التينغ بالأمر. لقد شرح بيرجر أنّ حَرْباً سيَخُوضُها كلُّ رجالِ أوسترا غوتالاند حربٌ لا مفرَّ منها: الحربُ ضدّ قاتِلِ المَلِكِ، الدنمركي. وفي المقابل، لم يكنْ للحروبِ الأخرى التي قد تَنْجَرُّ عن تلك الحربِ أيُّ داعٍ بتاتاً. ولذلك كان عليهم أنْ يُسانِدوا المَلِكَ كارل في هذه القضية. كان الانتصارُ بالفعلِ، أمراً مُحقَّقاً: كان الجيشُ المجتمِعُ في سفيلاند مُوقِناً بانتصارِهِ مُنفرِداً. إذْ باتتْ أيامُ الدنمركي ماغنوس هنريكسين، معدودةً. لا بُدَّ إذاً من النَّظَرِ فيما هو أبعدُ منْ ذلك.

كان من المُهِمِّ بالنسبةِ للفولكونغر قَبْلَ كلِّ شيءٍ أنْ لا يَنْقَسِمُوا على أنفسِهم، وأنْ يتجنّبوا الانضمامَ إلى مُعسكراتِ الخصم. فإنْ ظفرَ الملكُ كارل بتاجِ سفيلاند فلنْ يفوتَه أنْ يشترطَ الاعترافَ بتَاجِهِ من فاسترا غوتالاند. وإنْ لَزِمَ الأمرُ فلنْ يتردَّدَ في الحصول عليه بقوّةِ السيف. وفي هذه الحالةِ فقد يجدُ فولكونغر أوسترا غوتالاند، مُنَاوِئِينَ لفولكونغر فاسترا غوتالاند.

فخيرٌ لهم إذاً أنْ يحلّوا المشاكلِ كافةً بواسطةِ حربٍ واحدةٍ، وأنْ يتحالَفُوا مع الملك كارل. فإنّ ذلك قد يؤدّي بلا شكٍ إلى توحيدِ التيجان الثلاثةِ، لكنَّ الأمرَ قد يَحدثُ آجِلاً أم عاجلاً، وفي أسوأِ الحالاتِ، منْ خِلال نزاعات ما بين الإخوة.

ما مِنْ أحدٍ اعترضَ على عَرْضِ بيرجر بروزا. ومنذ ذلك اليومِ ما فتئ بيرجر بروزا يُحقِّق النّصرَ تلو النَّصْرِ لما رآهُ صواباً.

شارك ماغنوس إذاً في جُهودِ الحربِ بالكيفية التي رآها أكثرَ فِطْنَةً ونَبَاهَةً. فقد شارك هو وحرسُه في المعاركِ عندما حقّقتْ الحربُ انتصارَها، وعندما لم يبقَ منها سوى إنْزالِ السيفِ على رؤوسِ آخرِ مَنْ تبقّى منْ الدنمركيين، أو القَبْضِ على من يُؤَمِّنُونَ الجزية. وعاد ماغنوس إذاً إلى أرناس، مُنتصراً، من دون أن يَفْقِدَ رجُلاً واحداً. وفضلاً عن ذلك حمَلَ في

صناديقِه خمسينَ ماركاً من الفضة. ولقاءَ ذلك نال من تقديرِ النساءِ أكثر مما لَقِيَهُ من تقديرِ الرجالِ.

لقد تَرَكَ إسكيل وراءَه في أرناس، على الرّغم من نُواحِ هذا الأخير. فمن ناحيةٍ لم يكنْ إسكيل قد بلغَ سنَّ الرُّشدِ، ومن ناحيةٍ أُخرى كان هذا الأخيرُ ابنَه البكرَ ووريثَه، ولذا لم يكنْ بالإمكانِ تعويضُه كما يُعَوَّضُ أيَّ حرسٍ مقاتلٍ في المعركة.

حاول ماغنوس أنْ ينسَى الابنَ الثاني الذي أَخَذَهُ الربُّ منه، حَيّاً. لكنْ، وهو يعلمُ أنّ آرنْ كان الابنَ المُفضّلَ عند سيغريد، فلم يكنْ يَسَعُهُ أنْ ينساهُ بالسهولة نفسِها، وفي ذلك خَيْرُ ما تَطْمَئِنُ إليه روحُه. وبالمثلِ، لم يستطعْ أنْ يَنْسَى سيغريد خلال السنواتِ الخمسِ الطويلةِ من الحزنِ الذي كبّدَ به نفسَه بعد أنْ انتزَعها الربُّ منه. ففي سرِّهِ كان يُقِرُّ بأنّ سيغريد كانت الشخصَ الذي يُقَدِّرُهُ أكثرَ من غيرِها، وأكثرَ من كلِّ الرجالِ جميعاً، بل وأكثرَ من أخيهِ بيرجر بروزا.

لكنْ تلكَ فكرةٌ لم يكنْ في مقدورِه أنْ يُقاسِمَها أحداً. فلو باحَ بها لَحَطَّ ذلك من قَدْرِهِ، ولاعتُبِرَ شخصاً مجنوناً. بل ولم يكنْ قادراً على أنْ يُسِرَّ لإسكيل إعجابَه بامرأةٍ كانت مع ذلك أُمّاً لذلك الولد.

وفيما كان الجليدُ ما يزال سالِكاً، عُقِدَ «تينغ» جديدٌ في بيالْبو. وحضَره ماغنوس، بصُحبةِ إسكيل الذي بات من حَقِّهِ لأوّلِ مرّةٍ أنْ يحضرُ ذلك المجلس. لكنّ إسكيل سرعان ما تلقّى سلوكاً قاسياً: فلا يحقُّ له أنْ يشربَ كثيراً، ولا أنْ يأخذَ الكَلِمَةَ. فهو هنا لكيْ يُنْصِتَ ويتعلّم، ليس إلا!

قاعاتٌ كثيرةٌ في قلعةِ بيالْبو كانت قابلةً لاستقبالِ أيِّ مجلس، وكانت بيالْبو حَتْماً واحدةً من أماكنِ أوسترا غوتلاند التي يُقام فيها مثلُ ذلك النشاط. كان ذلك بادِياً جليّاً منْ الطريقةِ التي كان الخدمُ يستقبلُون بها الضيوفَ المدعُوّينَ، ويقتادونهم إلى أماكنِهم، ويُحدِّدون لهُم مواعيدَ المداولاتِ وسَيْرِها. وإذا كان الناسُ في أرناس يتحدّثون عن المالِ خاصةً، ففي بيالْبو كانت السلطةُ هي موضوع الحديثِ دائماً.

استَقْبَل بيرجر بروزا أخاه وابنَ أخيه بحفاوةٍ بالغةٍ، ومنذ البدايةِ أَوْلاهُما من العنايةِ أكثرَ ممّا يُوليه لأَبَوَيْهِ. كان ماغنوس عاجِزاً عن القولِ إنْ كان هذا من قبيلِ الحبِّ الأخويِّ، أم خاضعاً لمخططاتِ بيرجر بروزا حول المسائلِ التي كان سَيَتَطَرَّقُ إليها. لكنّه أحبَّ كثيراً أنْ يُعامَلَ كرَجُلٍ مرموقٍ، فيما كان المجلسُ يضمُّ رجالا آخرين كانوا مُحارِبِينَ أكثرَ بسالةً غلَّفَتْ النُّدَبُ أجسامَهم – وهو ما كان يُثَمِّنُ أكثرَ مما يُثَمِّنُ المالُ. بالفعل، كان المطرانُ الأكثرُ بدانةً يمتلكُ قَدْراً كبيراً من المالِ، من دون أنْ يجعل منه مَالُهُ رَجُلاً عظيماً.

في الأيام الأولى، راحَ الجميعُ يُكَرِّسون وقتَهم لِمُتَعِ الوليمةِ وحدها، فكانوا يتحدّثون بحريةٍ، ولا أحدَ منهم تَحَرَّجَ من أنْ يَهْزأ منْ الآباء الذين لم يَحْضُروا، مثل الآباءِ النرويجيين الذين كانوا، بِحُكْمِ وفائِهم للتقاليدِ، يواصلون قتَالَهم. وكان ذلك يُتيحُ لِمَنْ أَخَّرَتْهُمْ مسالكُ صعبةٌ عن الوصولِ، الوصولَ قَبْلَ أنْ تُفْضِي المناقشاتُ إلى قرارات.

وحينما اكتمَل عددُهم، دُعِيَ المجلسُ إلى قاعةِ البُرْجِ الكبرى. ودَهِشَ الكثيرُ منهم، ومنهُم ماغنوس وإسكيل، مِنْ أنْ يَنْعَقِدَ المجلسُ فور انتهاءِ صلاةِ الأصيلِ التي أُقيمتْ في سردابِ الكنيسةِ، حتى قَبْلَ الانتقالِ إلى طاولةِ الأكل. كانت اللحومُ قد أُعِدَّتْ للشَّوْيِ، ولنْ تكون جاهزةً إلا بعد مُرورِ ساعات.

كان بيرجر بروزا، صاحبُ هذه القاعدةِ الجديدةِ، يرى أنّ لتلك العادةِ القديمةِ – إقامةُ الوَلِيمَةِ والمجلسِ في وقتٍ واحدٍ – بعضُ المزايا. فَمِن الطيّبِ أحياناً إطلاقُ الألْسُنِ باحْتِسَاءِ الجِعَةِ، حتى لا يُحسَّ أحدٌ بالكَدَرِ إنْ تَفَوَّهَ بعضُهم بكلمةٍ زائدةٍ. لكنّ الجعةَ أحياناً تُطلقُ للأَلْسُنِ من العِنَانِ ما يحولُ دون اتخاذِ أيِّ قرارٍ، أو ما يؤدي إلى نِسْيَانِ ما اتُّخِذَ منها في اليومِ التالي، أو ما يجعلُ الأقاربَ يفترقون من دون تحقيقِ أيِّ اتفاق.

بدأ المجلسُ إذاً في قاعةٍ باردةٍ لم يُؤْتَ به إليها إلا بِبَعْضِ الجَمْرِ، ولم يكن للمجتمعين فيها بُدٌّ من أنْ يَتَدَثَّرُوا بمعاطِفِهم.

كانت المسألةُ الكبرى في هذا المجلسِ تتصلُ بِوَلاءِ العائلةِ إلى كارل

سفيركرسون. فلا أحدَ كان يرى فيه مَلِكاً عظيماً، ولا أحدَ كان يَهُمّهُ أنْ يَطْرُدَ الدنمركيين من المَمْلَكَة، ولا أنْ يُواصِل النهّابون القادمون من الضِّفاف الأخرى، نَهْبَهُمْ للمَمْلَكَة. ولا أحد كا يهمُّه غيابُ النرويجيين الذين كانوا، مرةً أخرى، يمضون أوقاتَهم في مُحاربةِ بعضِهم بعضاً. كان السؤالُ الحقيقيُّ بسيطاً جداً: هل آنَ الأوانُ للانطلاقِ في الفَوْزِ بالعرش؟

أكّد بيرجر بروزا أنّ الساعةَ قادمةٌ لا محالة، لكنْ لم يَئِنْ بَعْدُ أوانُها. كان الفولكونغر في أوسترا غوتالاند، أقْوَى مِنْ فولكونغر فاسترا غوتالاند، بيد أنّ فاسترا غوتالاند هي البلادُ التي كان فيها الملكُ كارل أكثرَ استقراراً، وكان له فيها عددٌ أكبرُ من الأقاربِ، وعلى الخصوصِ في لينشبينغ، وكذا في المناطقِ المجاورة. فلكي يتحقّق النصرُ لا بدَّ من إقناعِ أهالي فاسترا غوتالاند بالخروجِ منْ أراضيهِم، والانطلاقِ في خَوْضِ المَعَارِكِ مِنْ أجْلِ عَرْشٍ لا هَمَّ لَهُمْ فيه إطلاقاً. لكنْ لا طائِلَ من وراءِ ذلك بتاتاً.

لذلك كان من الحصافةِ الاستمرارُ في إبداءِ الطِّيبَة، وفي مساندةِ المَلِكِ كارل، وفي العملِ على ألا يَشْتَبِهَ أحدٌ في أنّ هذا الدعمَ قد يتوقَّفُ في أيِّ لحظةٍ إنْ اجتمعتْ له الشروطُ المناسبة.

كانوا سيَدْعَمُون البيتَ بالطريقةِ التي أثْبَتَتْ فعاليتَها، من خلال أعراسٍ عاقِلةٍ ومفيدة. وكان بيرجر بروزا نفسُه مثالا لذلك. فلم يَسَعْهُ أنْ يُؤَجِّلَ هذا الواجبَ أكثر مما تأجّل، سيما وأنّ وَضْعَهُ كشابٍّ خالٍ من كلِّ مسؤوليةٍ أُسَرِيَّةٍ كان يُمْتِعُهُ أيَّمَا مُتعة.

واصل بيرجر بروزا خطابَه الذي تابَعَهُ الحاضرون من دون أنْ يُزْعِجَ الرؤوسَ زعيقٌ أو شخيرٌ أو جُشَاءٍ صوتي. فعن طريقِ أخيه ماغنوس كان البيتُ مرتبطاً بالملِكِ النرويجي ماغنوس سيغوردسين. لكنّ الملكَ ماغنوس كان قد لَقِيَ الهزيمةَ على يدِ هارالد جيل، وبَدَا العرشُ كأنه آيلٌ لأبناءِ هارالد. وقد تقاسم هذا الرأيَ كلُّ الأشخاصِ الذين وَسِعَهُمْ أنْ يفهَموا العاداتِ والأعرافَ النرويجيةَ، حتى وإنْ لم يملِكْ أحدٌ يقيناً من أيِّ شيءٍ مع هؤلاءِ، ما دامت ضربةٌ واحدةٌ بالسيفِ سرعان ما تغيّر مَجْرَى الأشياء رأساً على عقب.

كان بيرجر بروزا إذاً، مُهيّئاً لأنْ يذهبَ إلى النرويج، ولأنْ يطلبَ يَدَ إحدَى بناتِ هيرالد جيل، سُولفيجْ، أو برجيدا. فذلك سوف يُقوّي أواصرَ البيتِ بالنرويج، حتى وإنْ استمرَّ النرويجيون في الاقْتِتَالِ، لأنّ الصِّلاتِ على هذا النحو، سوف تصبحُ قائمةً بين أسرةِ هيرالد جيل، وأسرةِ ماغنوس سيغوردسين، بواسطة أخيه ماغنوس.

وجرى تقييمُ المسألةِ لحينٍ. وكان ثمةَ أيضاً إمكانيةُ الاقترانِ بعائلةِ كارل سفيركرسون. لكنّ هذا القِرانَ قد يكون مُفيداً وقد يكون مُحْزِناً، لأنّ العائلتَيْنِ قد تضْطرّان لخوضِ حربٍ ما بين الإخوةِ يوم يَنْتَقِلُ العرشُ إلى ابنِ كارل، لو رُزِقَ هذا الأخيرُ وَلَداً. لا، إنّ تقويةَ الصلاتِ مع النرويج ليستْ إجراءً مُتَعَقِّلا وحسب، بل ومِنْ أكثرِ الإجراءاتِ فِطْنَةَ. وعليه فالمسألةُ مُنْتَهِيَةً إذاً!

جاءتْ بعد ذلك مسألةُ زواجِ ماغنوس ثانيةً. كان حُزْنُ هذا الأخيرِ قد تلاشى، وكان ماغنوس يمثِّلُ عريساً جَيِّداً مع كَمٍّ من الأراضي، ومن الثَّرواتِ، وهو ما سيجعلُ الأمورَ أكثرَ يُسْراً. لكنْ، هنا أيضاً، أيُّ خِيارٍ سيكون أكثرَ فِطنةً ونَباهَةً؟

دُعِيَ ماغنوس إذاً لأن يُقدِّم رأيَه حول المسألة. وتناوَلَ ماغنوس الكلمةَ بصوتٍ تعوزُهُ الثقةُ وهو لا يعرفُ كثيراً كيف يَقْتَنِي كلماتِه. فإنْ هو صاهَر عائلةَ بال في هوسبي لأصبحَ بيتٌ قويٌّ آخرُ من بيوتِ فاسترا غوتالاند حَليفاً لِـ بيالْبو. وفضلاً عن ذلك، كانت أراضيه وأراضي بال متجاورة، فإنْ كُتِبَ الزواجُ لأصبحَ خليقاً بأنْ يُخْضِعَ جُزْءاً كبيراً من ضِفَّتَيْ بحيرة فانيرن إلى الدائرةِ القَضائية نفسِها. وبذلك سيَحْصُلُ على هَيْمَنَةٍ لا شكَّ فيها على التجارةِ في كامِلِ فاسترا غوتالاند، ما دامتْ فانيرن تُشكِّلُ طريقَ الاتصالِ الرئيسيِّ نحو ليديزة، والدنمرك، والنرويجِ، على مدارِ أكْبَرِ جُزءٍ من السّنة. كان هناك فتاتانِ في هوسبي، كِلْتَاهُما رشيقتانِ، لكنّهما صغيرَتَانِ في العُمْرِ بعضَ الشيء.

وعند جُلوسِه ثانيةً سمِع ماغنوس منْ همساتِ أقاربِه أنهم يُحْسِنُون فَهْمَ أقوالِه، لكنّهم لا يجدونها مُقنعةً بما فيه الكفاية. وتنبأَ عندئذٍ أنْ لعلّ أحدَهم

يحمِل إليه مشاريع أخرى. وفي هذه الحالةِ، ليس من الصَّعْبِ أنْ يَتَكَهَّنَ بالشخصَ الذي سيَعْرِضُها في فصاحَةٍ وبلاغة.

وكما كان مُتوّقعاً تناول بيرجر بروزا الكَلِمَة. وبدأَ بِإطْرَاءِ أخيهِ الأكبر، مُشيراً إلى اسْتِحْقَاقَاتِه، وحِسِّهِ في إدارةِ الأعمال، وإرادتِه في الزواجِ الناجحِ سَعْياً منه لتدعيم العائلةِ وإرضاءِ الأهلِ والأقارب.

لكنه ما لبث أن غيّر اللهجةَ وأَعْلَنَ في بُرودٍ أنّ ثمةَ صِلاتٍ أهمّ. فهكذا لم يَتَنَازلْ آل إيريك أبداً عن العرشِ الذي ما انفكّوا يحرِصون عليه في عِناية. وفي النرويج كانت أرملةُ إيريك جيردفردسون تُغذّي مشاريعَ الانْتِقَام، وتُهَيِّئُ أبناءَها لأنْ يُصبحوا المُطالبينَ بالعرشِ مستقبلا. كان آل إيريك مُسْتَقِرّينَ في جنوب سكارا خيرَ استقرارٍ، وكانت تُوجد أيضاً فروعٌ للعائلةِ في سفيلاند. فَمِن الحِكمةِ إذاً أنْ يَكْسِبُوا هذه السُّلالةَ إلى جانبِهم.

كان جُوار، شقيقُ ايريك جيدفرسون ، سَيِّدَ إحدى القلاعِ بالقربِ من إيريكسبرغ. وكان له ابنةٌ، هي أكبرُ أطفاله، قليلةُ الجمالِ، وكان على استعدادٍ لأنْ يَعْقِدَ قِرانَها حتى وإنْ كان الرجلُ الذي يتزوّجُها أقلَّ غِنًى من ماغنوس.

وتنهَّد ماغنوس وهو يستمِع إلى أخيه الأصغر.كان يعرفُ كيف ستَجْرِي الأحداثُ. سوف يُستعمَلُ دَمُهُ لبناءِ علاقةٍ مع عدوٍّ قادمٍ، أو مع حَلِيفٍ قادمٍ ذي وَزْنٍ. لم يكنْ لماغنوس خياراتٌ أخرى غير المُوافقَةِ على ذلك الاقتراحِ العاقل. وهو ما فَعَلَ.

أما إسكيل الذي شقَّ عليه أن يَسْتَسِيغَ الجانبَ المنطقِيَّ في اختيارِ أَهْلِهِ وأقاربِه من بين أناسٍ يقتلون بَدَلاً مِنْ أنْ يَغْتَنُوا غِنىً مَشْروعاً، فَقَدْ نَظَرَ إلى والدِه في ذهولٍ. ولقد أدركَ إسكيل شيئاً آخرَ أيضاً: ستكونُ له في القريبِ أمٌّ جديدةٌ لا يعرفُ عنها شيئاً، ولا أنها لا تَمْلِكُ من الجَمَالِ إلا قليلا.

* * *

لم يسبقْ لآرن أنْ رأى الأخَ جيلبرتْ سعيداً كسعادتِه يومَ جِيءَ بالخيولِ الجديدة. فَحْلُ خَيْلٍ، وفَرَسَان، ومُهْرٌ، اقْتِيدَتْ على الفورِ إلى أرضٍ مُسيَّجَةٍ

على حِدَة، حتى لا تختلِطَ بالخيولِ الشمالية. كانت تبدو في خَيْرِ حالٍ، إذْ كانت رحلتُها هادِئةً، في الفصلِ الجميلِ، رافقَتْها فيه على الطريقِ مَراعٍ طيّبةٌ ومياهٌ. لقد عادُوا مع الأبِ هنري من زياراتٍ إلى مَجْمَعِ الرُهبان العام، في سيتو. لقد ذَهَبَ الأخُ هنري والإخوةُ المُرافقون له مَشْياً على الأقدامِ، فيما كانت الحميرُ تجرُّ العَرَبَتَيْنِ المُثْقَلَتَيْنِ بالأَحْمالِ، فَوَفَّرَتْ بذلك عن الخيولِ كثيراً من العَناء.

كانت عَوْدَاتُ الأبِ هنري في كلِّ مرّةٍ بمثابةِ حَدَثٍ كبيرٍ في الدّير، ليس فقط لأنّ الإخوةَ يُذْعِنُون عن طيبِ خاطرٍ لِقواعِد الحبِّ الأخوي، لكنْ أيضاً لأنّ هذه العَوْدَاتِ تَحْمِلُ الكثيرَ من الأشياء. كانت تحمِلُ أخباراً عن عَالَم الدنيا وعالَمِ الكنيسة، ورسائلَ، وكُتُباً حديثةً، وبِزْراً وبُذوراً جديدة، فيُقْبِلُ عليها الأخُ لوسيان بِفَرَحِ الأطفالِ حتى قبْلَ أنْ يَفْحَصَها ويَصِفَها لمُتَدَرِّبيه. وكانت تحمِلُ أيضاً ألواناً من الجُبْنِ، وبراميلَ من الخمرِ التي لم يكنْ من السّهلِ على البورغينيين الاستغناءُ عنها، مثلما لم يكنْ من السّهلِ أيضاً على إخوةِ الأقاليم أنْ يتصوّروا حياةَ الديرِ من دون تجديدِ مخزونِهم من العُشب والبَهارات التي لم يُفْلِحْ الأخُ لوسيان في تعجيلِ نُمُوِّها في ذلك المناخِ الدنمركي القاسي.

كان الكثيرُ من الإخوة يجِدُون مشقّةً في التقيُّدِ بالانضباطِ والوقارِ اللذين تَقْتَضِيهِما مثلُ تلك العودة، لأنه كان لا بد أوّلاً من إقامةِ قُدّاسٍ مُلائمٍ أطالوا مُدَّتَهُ لهذه المناسبةِ. لقد أخذَ الكورس يُعِدُّ تراتيلَ جديدة، أو يعزِفُ تراتيلَ قديمةً في نغماتٍ مُتعدّدة. وكان آرن بصوتِه النَّدِيّ يُتْقِنُ الأداءَ في أثناءَ هذه القُدّاسات الخاصة.

لكنّ الإخوةَ ما لبثوا فيما بعدُ أنْ تعجّلوا الخروجَ من الكنيسة، وهم يُثَغْثِغُونَ مثلَ الأطفالِ، في انتظارِ مراسيمَ كان سيقودُها الأبُ هنري وكانت تجري كلّما فُكَّ الحِمْلُ الثقيل. وقرأ الأبُ هنري قائمتَه بِصوتٍ عالٍ وقَسَّمَ هِباتِ الربِّ. وتوارَى بعضُ الإخوةِ، وهم يَفيضُون غِبطةً، وبين أيديهم حجمٌ كبيرٌ من الهِباتِ طالما انتظرُوها. فيما راح آخرون يُمجِّدون الربَّ بصورةٍ

أكثرَ وَقاراً. وكذلك كان شأنُ الذين تَلَقَّوْا شيئاً جديداً، لِلْبُسْتَانِ أو لِلْمَطابِخ.

وبسرعة البرقِ توارَى الأخُ جيلبرتْ مع آرن حتى يُرِيَهُ شيئاً رائعاً لم يَفْقَهْ منه أيٌّ من الإخوةِ شيئاً: الخيول الجديدة.

عندما وصلوا إلى الفضاءِ المُسَيّجِ، اجتهدَ أرن حقاً في أنْ يفهمَ ما الذي يُحَمِّسُ الأخَ جيلبرتْ أيما حماسٍ، ذلك الرجل الذي كان في أيِّ ظرفٍ آخرَ، هو القياسُ نفسهُ. صحيحٌ أنّ هذه الخيول، في أَعْيُنِ آرن، تختلفُ اختلافاً بَيِّناً عمّا اعتادَه من خُيولٍ. لقد كانت أكثرَ نحافةً، وحيويّةً، وكانت تتحرّكُ بلا انقطاع، وكأنّها، بِحُكْمِ الإغلاقِ المفروضِ عليها، فَقَدَتْ صبرَها، وانتصبتْ أذنابُها، وصارت خُطاها أقربَ إلى حركاتِ الهِزَرَة. كانت رؤوسُها أوسعَ حجماً، وأقلّ استدارةً من رُؤوس الخيولِ الشمالية، وكانت عيونُها أوسعَ كثيراً، وأكثرَ ذكاءً. كانت إحدى الفَرَسَين صهباءَ مثلَ العديدِ من الخيول بالتأكيد، لكنّها كانت تحملِ بُقْعَةً رماديةً تحت الكَتِفِ اليُسرى، فيما كان ثوبُ مُهْرِها أقربَ إلى اللّونِ الأبيض، بل ويميلُ أكثرَ إلى اللونِ الرمادي. أما فَحْلُ الخيل، والفرسُ الثانية فكانتا أَنْمَرَيْنِ أي في شعرها دوائر رمادية وبيضاء.

لم يكن في وُسْعِ آرن أنْ يقولَ أكثرَ ممّا قال، على الرغم ممّا أنجزَه منْ عملٍ كثيرٍ في مَشْغَلِ الأخِ جيلبرتْ الآخر. كان آرن يعرف كيف يَنْعَلُ الخيلَ حَذْوَتَهُ، من دون الحاجةِ إلى الأخِ جيلبرتْ أو أَخٍ من الإخوةِ لايْ، لأنْ يستأنِفَ العَمَلَ من بَعْدِه.

كان الأخُ جيلبرتْ مُستنِداً إلى الفضاءِ المُسيّجِ، وكانت الدّموعُ تملأُ عينَيْه وهو يتأمّل الخيولَ وكأنّ أفكارَه تاهَتْ به بعيداً. لكنّ آرن لم يفهمْ من ذلك شيئاً، فظلّ مُتَحَفّظاً.

ودَهِشَ آرن كثيراً عندما خاطَبَ الأخُ جيلبرتْ فجأةً فَحْلَ الخيلِ بلُغةٍ لم يسمعْها من قبلُ قط، ولم يَفْهَمْ منها شيئاً. لكنّ فَحْلَ الخيلِ بُدّاً مُطيعاً، فتوقّفَ وأَرْهَفَ السّمعَ في اتجاهِ الأخِ جيلبرتْ، وبعد بُرْهَةٍ من التردُّدِ اقتربَ منه في هُدوء. وفي حركةٍ غريبةٍ حكَّ الأخُ جيلبرتْ وجهَه بِمُقَدِّمَةِ خَطْمِ الجوادِ،

وفي رِقَّةٍ تحدّثَ إليه من جديدٍ بتلك اللغة الغريبة.

هيّا، تعال أيّها الولد، سنركبُ الجوادَ، أنا وأنت. خذْ أنت المُهْرَ، قال الأخُ جيلبرتْ، وهو ينسابُ إلى داخلِ الفضاءِ المُسيّج، ويجتذبُ آرن إليه.

«لكن، المُهر... ليس الأمرُ ممكناً... إنه غير مروّض! »

«تعالَ، سأُريكَ الآن، ليس الأمرُ ضرورياً!» أجاب الأخُ جيلبرتْ، الذي نادَى المُهْرَ الذي أَقْبَلَ مُسرعاً وهو يُنَطْنِط.

كان الذي رآه آرن فيما بعدُ ضَرْباً من المعجزات. لقد داعَبَ الأخُ جيلبرتْ فَحْلَ الخيلِ فوق رأسِ خَطْمِه، ووَجْهِه وعُنقِه، ثم تحدّث إليه بتلك اللغةِ التي يبدو أنّ الخيولَ تفْهَمُها أحسنَ من الفرنسية واللاتينية. ثم رَفَعَ آرن بيدٍ واحدةٍ فوجد آرن نفسَه مُنْفرِجَ السّاقَيْن، وبالغريزةِ أمسك بِشَعْرِ عُنق الجوادِ حتى يَسْتَمْسِكَ بالحيوان عندما يشرعُ هذا الأخيرُ في الوقوف على قائِمَتَيْه. صحيحٌ أنّ آرن قد روّضَ خيولاً من قبلُ، لكنْ ليس قَبْلَ تعويدها وتمرينها.

في اللحظةِ الموالية، وفي رشاقةٍ نادرةٍ وَجَدَ الأخُ جيلبرتْ نفسَه على ظَهْرِ فَحْلِ الجواد، وكأنه طار في وَثْبَةٍ واحدة. وانطلقَ الحصانُ على الفور راكضاً في الفضاءِ المُسيّج. كان الأخُ جيلبرتْ يمتطِي الجوادَ بلا سَرْجٍ، ولم يُمسكْ إلا بيدٍ واحدةٍ بشَعْرِ فَحْلِ الخيل. وكان يميلُ في جسارةٍ في أكثرِ المنعطفاتِ ضَيْقاً وهو يَصْرُخُ بأوامِرِه، بتلك اللغةِ الغريبة.

سرعان ما تملّكتْ مُهْرَ آرن فرحةٌ جليّة، حيث شرَع يركضُ بدورِه، ولو في حركاتٍ مُرتجّة. وما لبثا أنْ صارا كلاهُما يدوران في حركةٍ سريعةٍ، فحاول آرن أنْ يُقَلِّدَ لغةَ جيلبرتْ الغريبةَ، وصار وكأنه انْتَشَى بفِعْلِ السرعةِ والريح التي هبّتْ فوق رأسِه المُكلّلِ، وصارت تُحرّكُ الحلقاتِ منْ حَوْلِ أذنيه.

في بَعْضٍ منْ خجلٍ أقرَّ آرن أنه قد شَعَرَ آنذاك بسعادةٍ كانت من الصَّفاءِ ما كان سيجعلُه لن يُفرِّطَ في ذِكْرِها أثناء طَقْسِ اعترافِه القادمِ أمام الأب هنري. كان الأمرُ وكأنّ الحياةَ وقُوّةَ الحصانِ تتملّكانِه. وإذا لم يكنْ

المُهْرُ قد حمِل شخصاً على ظهرِه قط، فذاك من قَبِيل المعجزةِ حتماً.

«أتفهم، أيها الفارسُ الشاب؟» سأل الأخُ جيلبرتْ، بعد مُرور وقتٍ طويل، عندما كانت العنادلُ تُغنّي أُغنياتِها المسائيّة، وعندما آنَ أوانُ صلاةِ الأصيل. الجوادُ أفضلُ صديقٍ للإنسان. «لكنْ كما سبق ورأيتَ فإنّ هذه الجيادَ الجديدةَ ليست كباقِي الجياد، فهي أنْبَلُ الجيادِ، وأذْكاها، وأكثرُها حيويةً وجَلَداً على الإطلاق. فاشكرْ ربَّك على هذا الحالِ، لأنّ هذه الجيادَ جاءتْ من ما وراء البحار، من الأرض المقدّسة».

كان وجهُ الأخِ جيلبرتْ ما يزال مُحْمَرّاً من فَرْطِ التهيُّجِ بعد إظهارِه المستفيضِ لِقُوَّة فَحْلِ الخيل.

كان آرن قد بدأ يفهم ما يُمَيِّزُ تلك الخيولِ عن غيرِها – ليس سرعتُها وطريقتُها في الحركةِ وحسب، بل فِيمَ يمكنُ أنْ تُسْتَعْمَلَ فيه تلك الخيولُ أيضاً. لكنه ما لبث أنْ طرَح السؤالَ، ونال الردَّ الذي كان ينتظرُه.

كانت هذه الخيولُ خيولَ معركةٍ، وما كان يصلُحُ للسيفِ كان صالحاً للخيول أيضاً: الخِفَّة، ثم الخِفّة، والخِفّة دائماً!

مادام رجالُ الشمالِ الهَمَجُ لا يُتْقِنُونَ فنَّ الحربِ على الخيولِ، فَلَمْ يكونوا بحاجةٍ إلا إلى مَطيّاتٍ مَتِينَةٍ وبطيئة، قادرةٍ على نَقْلِ حِمْلٍ ثقيلٍ إلى ساحةِ الوَغَى التي تطؤُها أقدامُ رَجُلِ الشمالِ ليلتحِقَ بالمعركة. وأضاف الأخُ جيلبرتْ أنّ المسيحيّين لو كانوا حاوَلوا مُواجهةَ عَرَبِ الشرق المَلْعُونِينَ بهذه الكيفيةِ لَمَا تحرّرتْ القدسُ أبداً.

في باقِي العالم، كان الناسُ يحاربون على الخيول، وهَمَجُ الشمالِ وحدهم هم الذين لم يَفْهَمُوا ذلك. كان الأخُ جيلبرتْ يحمِلُ مشروعاً غايةً في البساطة، مع هذه الخيول. كان سُيْدخِلُ هذا النوعَ من الخيولِ إلى الدنمرك، ويتبنّى تقنيتَهم في فنِّ الفروسية الذي كان مُتماشِياً مع مَطِيّاته، ومنْ ثَمّ سوف يجلبُ إلى صناديقِ الديرِ كميّاتٍ كبيرةٍ من المالِ. وبذلك سيَصْنَعُ سُيُوفاً أفضلَ لرجالِ الشمالِ، والأمرُ بلا شكٍّ منطقيٌّ وذو مَرْدُودٍ أيضاً.

وتحت نَشْوَةِ السرعةِ والرّيحِ طلَب آرن، من غيرِ مراوغة، أنْ يتعلّم

فنَّ الحربِ على الخيل، على نحو ما كان الأوروبيون يمارسون هذا الفنَّ في العالَمِ المُثقّفِ الواسع.

ضَحِكَ الأخ جيلبرتْ في سِرِّه، ومَسَحَ بيدِه على رأسِ آرن المُكَلّلِ، وأجابه بأنّ ذلك بالتحديد هو ما كان يفعله دائماً. فكلُّ ما تعلّمَه آرن عن الخيولِ، منذ أنْ كلّفَه الأخُ جيلبرتْ بالعملِ لم يكنْ له من هدفٍ غير ذلك الهدف.

في المقامِ الأول كانت المسألةُ مسألةَ توازنٍ. لقد تمرَّن آرن بِسُيُوفِه الخشبيةِ، فكان يُمْسِك تارةً بسيفٍ في كلِّ يدٍ، من فوق عارِضةٍ تتأرجحُ فوقَها أكياسٌ من الرَّملِ مُعَرَّضَةٍ في كلّ لحظةٍ للوقوعِ على الأرضِ، وبالكيفيةِ نفسِها تدرَّب على امتطاءِ الجوادِ من دون سَرْجٍ. وكلُّ ذلك حتى يُنَمِّيَ حِسَّ التوازنِ، وحتى لا ينْقَلِبَ من على السَّرْجِ، أياً كانت حركاتُ الخيل.

سوف يبدأ بتدريبِ المُهْرِ، مِنْ دون سَرْجٍ، وعليه أنْ يَخْتَبِرَهُ ويُكَلِّمَهُ ويُداعِبَه، ويرعاهُ بلا انقطاع. وسيظلُّ اسمُه سِرّاً ليس لِوَجْهِ الربِّ، بل لِئَلا يَعْرِفَهُ غيرُهما. كان اسمُه خمسين وهو اسمُ رِيحٍ صحراوية يتوالى هُبوُبُها خمسين يوماً أحياناً. أما الفَرَسَانِ فسُمِّيَتْ إحداهُما عائشة، والثانية خديجة، وكان اسمُ فَحْلِ الخيلِ نَصِير. لم يُقَدِّمْ الأخُ جيلبرتْ أيَّ شَرْحٍ لهذه الأسماءِ، مُكْتَفِياً بالقولِ إنها أسماءٌ من أسماءِ لُغةِ الخُيولِ الخفيّة، وبأَنْ لا شأنَ لأيِّ شخصٍ في الديرِ بها، باستثناء شخصين اثنين، وهما فَارِسَانِ أصلا.

أمّا خمسين فسوف تُسْرَجُ عندما يشتدُّ عودُها، وأما قواعدُ السلوكِ في الوقتِ الحالي، فهي تُدْعَى الثِّقَةُ والحبُّ والتوازن.

آنَ أوانُ صَلاةِ الأصيلِ فأسرعا إلى المغسلِ. وفيما كانا يبتعدان عنْ الخيولِ بِخُطىً حثيثةٍ إذا بآرن يسألُ إن كان يسعه أن يتعلّم أيضاً لغةَ الخيولِ الخفيّة. فمن يتحدَّثُ ثلاثَ لغاتٍ باستطاعتِه أنْ يُضيفَ إليها لغةً رابعة. خرج الأخُ جيلبرتْ مكتفياً بالقولِ إنّ ذلك اليومَ سوف يأتي لا محالة، في حينِه. ولم يُضِفْ لذلك كلمةً واحدة.

كان آرْنْ يبدي طَاعَتَه دائمًا. لقد أحبّ الإخوةَ قَدْرَ حُبِّه للكُتب. وقد أحبَّ

العملَ الشّاقَ قَدْرَ حُبِّهِ للمهامِّ السهلة. وأحبَّ البناءَ في أعلى بُرْجِ الجرسِ قَدْرَ حُبِّهِ للصيد في نهرِ فجوردْ. وأحبَّ استعمالَ السيفِ قَدْرَ حُبِّهِ لفَكِّ طلاسمِ الكتاباتِ المقدسة، سورةٌ تِلْوَ السورة، بفضل «غلوسا أورديناريا» Glossa Ordinaria . فلعله فضّل أوفيد على أرسطو، وقد حدَث أنْ قَلَّدَ سُوَرًا قليلةَ الأدبِ فنَجَحَ في قراءَتِها قَبْلَ أنْ تُحْظَرَ عليه هذه الأخيرة. صحيحٌ أنه كان يُقِرُّ بخطيئته فور وقوعها، ويَرْضَى بالقصاصَ الذي يقع ُعلى مِثْلِ تلك الخطيئة. لكنّ الأمرَ خليقٌ بذلك، إذْ ما الذي تُمَثِّله بِضْعُ باتر نوستر حتى يُحِسَّ بِنَارِ الخجلِ وهي تَصْعَدُ إلى وَجْنَتَيْهِ لِبِضْعِ لحظاتٍ عند ذِكْرِ أوفيد؟

لم يَجِدْ الأبُ هنري أيَّ مانعٍ في أنْ يُولي آرنْ اهتمامًا محدودًا للفلسفة، وبأنْ يُبْدِي بعضَ الحماسةِ للنصوصِ التي لم تكنْ مُوَجَّهَةً للأطفالِ. كان يعرفُ الكثيرَ من الرجالِ الوَرِعينَ ممّنْ كانوا على اختلاف أعمارهم، يُولون أوفيد اهتمامًا في غير محلِّه أحيانًا. لم يكنْ ثمةَ منْ داعٍ للاهتمامِ بهذا الأمرِ، لأنه لو تأمل ثانيةً أيامَ تَرَهْبُنِهِ فهو نفسُه كان ينتمِي إلى تلك الفئة. فذاك جزءٌ من تبدُّلاتِ الحياةِ العاديةِ، وقد خلقَ الربُّ، بحكمِ حِكمتِه الواسعةِ، الحياةَ بحيثُ تَظْهَرُ هذه التبدلات. إذًا إذا لمْ يجدْ الغلامُ الفيلسوفَ غايةً في الأهميةِ – بل وقد كان يجرؤ فَيُبْدِي في حقِّهِ اعتراضاتٍ قليلةَ الأدبِ– فلمْ يكنْ هذا في حدّ ذاتِه أمرًا خارقًا. وإنْ كان هذا خطيئةً فإنّ الغلامَ يتقاسَمُه مع رجالٍ آخرين، أمثال الأخ لوسيان. كان الأخُ لوسيان مُخلِصًا لِفَنّ إخصابِ الأرضِ، باسمِ الربِّ، وهو فنٌّ كان يستعمَل أيضًا في إطعامِ الإنسانِ، وفي محوِ الشرِّ، وفي بَعْثِ الجمالِ. لم يكن الأخُ لوسيان يهتمُّ بأرسطو إلا نادرًا، لكنّ الأبَ هنري لم يُفكِّرْ مع ذلك بأنّ الأخَ لوسيان أخٌ أقلُّ شأنًا من باقِي الإخوةِ جميعاً.

على عكس ذلك، لو استنطقنا منطقَ الفلسفةِ لحقّ التفكيرُ بأنّ الولدَ كان يشاركُ في تعليمِ الأخِ لوسيان. عملٌ دقيقٌ كان يختفِي وراءَ الكيفيةِ التي كان الديرُ يشهدُ بها على الجمالِ الذي كان الربُّ قادرًا على نَشْرِه في الأرضِ، بمساعدةِ الإخوةِ المؤمنين. كانت زَهْرَاتُ الثلجِ قد بدأتْ تتفتّحُ، فيما كان

الشتاءُ ما يزالُ قارسًا، ثم تَلَتْهَا أزهارُ النّرجسِ والخُزامَى. كلُّ ذلك بات يُشكّلُ شيئًا جديدًا في ذلك الشمالِ الهمَجيِّ، ويثيرُ دهشةً قويةً لدى الزائرينَ الذين بَهَرَتْهُمْ أوراقُ أزهارِ الأشجار المثمرةِ البيضاء، وكلُّ تلك الفواكه المجهولة. لقد كانت المبيعاتُ رائعةً خلال السنواتِ الأخيرةِ، وكان آرنْ فوق ذلك هو الذي ساعد الأخَ لوسيان في نَقْلِ المنتجات، وفي الترجمة إلى «النوروا» أي اللغة الشمالية.

كلُّ ما تَعَلّمَهُ آرنْ كان قد عَمِلَه بميزانٍ. لذلك لم يحمِلْ لذلك أيَّ هَمٍّ. بعضُ الإخوةِ من ذوي العقولِ المتشدِّدةِ كانوا يعتقدون أنَّ السيفَ والرُّمحَ لا مكانَ لهما في أعمالِ الربِّ. لكنْ، والحالةُ هذه، يكون الأخوةُ قد قصَّروا في فَهْمِ سانت برنار، أبيهمُ جميعًا، هذا الذي ساهَم في تأسيسِ فُرسان الهيكل، أكثر ممّا ساهَمَ البابا وأيُّ رجُلٍ آخر من رجالِ الكنيسة.

إلا أنّ الولدَ صار يطرحُ مُشكلةً. فمنذُ وُصولِ الخيول الجديدةِ انتابَهُ قليلٌ من الرُّعونةِ. بل ولعلّ من قائلٍ يقولُ إنّ عَيْبًا أو نَقيصَةً قد أصابته، أو على الأقلِّ مَنْفَعَةً على حسابِ الآخرين. فالمسألةُ إذًا مَعْرِفَةُ إنْ كان الربُّ هو الذي أراد ذلك، أمْ أنّ الربَّ أصرَّ على أنْ يُوَبِّخَ هذا الطفلُ المختارُ. لكنْ، مِنْ حيثُ الفعلِ، كيف يمكنُ لأبٍ عاقِلٍ أنْ يُنَفِّذَ هذا التوبيخ؟

كان الأبُ هنري قد شاورَ الأخَ جيلبرتْ، في ذلك الأمرِ، في مُناسباتٍ عديدة. لكنّ الأخَ جيلبرتْ كان وكأنّه سَعَى قبْلَ كلِّ شيءٍ إلى التّخفيفِ من هَوْلِ ذلك الأمرِ، وهو يسألُ الأبَ هنري ما الذي عساهُ يفعلُ لو كان في عُمْرِ آرنْ، قائلاً إنّ الأولادَ أولادٌ قبْلَ كلِّ شيءٍ، وأنه لا بدّ من فَهْمِ ما يحثّهُ كلُّ جديدٍ من إغراءٍ في نفوسِهم، وأنّ كلَّ ذلك جزءٌ من التّعليمِ الذي كان يُلَقِّنُه إيّاه.

لعلّ الأمرَ كان صحيحًا. بيد أنّ وَلَعَ الولدِ كان من الحِدَّةِ ما جَعَلَ اهتمامَه بالكُتبِ مُهدّدًا بالانتكاسِ، ولَوْ إلى حينٍ. وفي هذا الشأنِ، وبصفته، معرِّفَ آرنْ اي الراهب الذي يسمع اعترافة، فقد كان الأبُ هنري يعْرِفُ أكثرَ ممّا يعرفُه الأخُ جيلبرتْ، وبالتالي، فإنّ آرنْ، مثله مثل أيّ أحدٍ آخرَ، لم يكنْ يَسَعُه

أنْ يكْذبَ على رئيسِ ديرهِ في أثناء اعترافه بذنوبه.

كان آرنْ يَعِي تلك المشكلةَ طالما أنه كان سيُقِرُّ بذُنوبه ويكفِّرَ عن خطاياه. لكنه لم يكنْ يرتابُ في أنّ الأمرَ يُقْلِقُ الأبَ هنري حقًا، فذاك كان سَيَمْلَؤُه حُزْنًا وخِزْيًا. ذلك لأنّ العِقابَ المفروضَ - تلاوةُ بِضْعِ صلواتٍ إضافيةٍ، بالخُبْزِ النّاشِفِ والماءِ لبِضْعَةِ أيامٍ - لا يختلفُ عن العقابِ المفروضِ بعد القراءات الآثمةِ لأشعارِ أوفيد، أو أَدْهَى من ذلك، عندما كتبَ أشعارًا تُحاكي أوفيد.

وكَبُرَ خمسين، وكَبُرَ معه الحبُ الذي يُكنُّه آرنْ للحصانِ السّفادة. وفيما كان الصيفُ يُغطّي جوتلاند بعُذوبَتِهِ، استيقظَ آرنْ بعد بِضْعِ ساعاتٍ من النومِ، وتسلّلَ إلى الإسْطَبْلِ، وتناول البَرْدَعَةَ واللجامَ، وهَمْهَمَ بِبِضْعِ كلماتٍ، وتقدّمَ خمسين قبلَ أنْ يستقبلَ فوق رأسِه قُبلاتِ الولدِ ومُداعباته.

امتطَى آرنْ ظَهْرَ جوادِه، وانتقلَ هو وخمسين في هدوءٍ إلى الأرضِ المُسيَجةِ فتخطّى خمسين السياجَ بوثبةٍ ناعمةٍ ورشيقة، ثم شَرَعا يَخِبَّانِ لبعضِ الوقتِ، وما لَبِثَتْ وَتيرَتُهُما أنْ زادتْ بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى صارا أسرعَ طاقَمٍ يَطَأُ أرضَ الدنمرك. كان خمسين من فصيلةٍ كانت السُرْعَةُ على المساحاتِ الشاسعةِ تعني شيئاً آخرَ غير خُطَى الخيولِ الشماليةِ على مسافاتٍ قصيرة.

على غرار فرسانِ يوم القيامةِ توغلا عَبْرَ الوِهادِ وغاباتِ الزّانِ النادِرَةِ. وفي بعضِ الليالي كانا يَصِلانِ أحياناً إلى غايةِ البحرِ، ممّا كان يُعَرِّضُهُما للسَّيْرِ بالوتيرَةِ نفسِها حتى يَتَسَنَّى لهما الوصولُ في الوقتِ المحدَّدِ فيُدْرِكا صَلاةَ السَّحَرِ.

وسرعان ما شاعَ في الجِوارِ أنّ فارِسًا كالشّبَحِ، نذيرَ شُؤْمٍ بالتأكيد، أو كائنًا من الجِنِّ، يجتازُ الأراضيَ بسرعةٍ لا يتخيلُها أحدٌ، حتى في المَنَامِ، يَرْكَبُهُ غولٌ ذو أسنانٍ قاطِعةٍ، ومُدَرَّعٌ بسيفٍ من النارِ.

بَيْدَ أنّ السيفَ كان مِنْ خَشَبٍ، بِهِ نواةٌ من حديدٍ ليزدادَ ثِقَلا. لكنّ آرنْ، في مُخَيِّلَتِهِ كان يمتطِي جوادًا وبيدِه سيفٌ كان يمكنُ أنْ يكونَ مِنْ

نارٍ. كان يُديرهُ بيدهِ اليسرى، ويُغَيِّرُ الزّمامَ فجأةً ليُمْسِك به بيدِه اليُمْنَى. لكنّ السيفَ لم يكنْ مُهِمًّا كثيرًا. بل كان السيفُ وكأنه يسعَى لأنْ يُخفِّفَ به مِنْ رَوْعِهِ، بالتمرّنِ على استعمالِ السيفِ وهو يمتطِي جوادًا لِمُتْعَةٍ في نفسِه- بدلاً من أنْ ينامَ نَوْمَ الأبرارِ كما يأْمُرُ به الربُّ.

كانت السرعةُ تُبْهِرُه. وكان خامسين، على الرغم من صِغَرِ عُمرِه، يملكُ قُوَّةً لم يَرَها آرنْ في أيِّ بهيمةٍ أخرَى في حياتِه قط. كان آرنْ يتصوّرُ أنّ خمسين تُحرّكُه قوةٌ خارقةٌ، قُوَّةٌ لم يخلقْها غيرُ الربِّ وحدَه، وكأنّه، على ظَهْرِ خمسين، قد باتَ أقربَ إلى الربِّ كثيراً.

تلك، بطبيعةِ الحالِ، كانتْ فكرةً آثِمَةً. وقد كان آرنْ يعرفُ ذلك، فكان يُصلّي ويطلبُ التّوبَةَ.

لكنْ، يا لها مِنْ وتيرة! ويا لها من سُرعة! هكذا كان يقول لنفسِه، حتى في صلواتِه الأكثر امْتِلاءً توبةً ونَدَامَةً.

الفصل الخامس

في يوم عيدِ الميلادِ نفسه من عامِ البركةِ ١١٤٤، تكبَّدَ مسيحيُّو مملكةِ القدس أسوأَ هزائمِهم منذ غَزْوِ الأرض المقدّسة. ففي أوروبا المسيحيَّة، رأى الكثيرُ في سُقوطِ مدينة إيدَسْ، كارثةً حقيقية. لكنْ لا أحدٌ تصوّر أنّ هذا الحدثَ يُنْذِرُ ببدايةِ نهايةِ الاحتلالِ المسيحي، لأنّ التفكيرَ بمثلِ ذلك الأمرِ، ولو لِبُرْهَةٍ، شَتيمَةٌ وإهانَة.

في ذلك التاريخِ، بعد مُرورِ نصفِ قرنٍ على الغزوِ الذي دَفَعَ فيه المسيحيون أكثرَ من مئةِ ألفٍ من أرواحِ البشرِ، كانت مملكةُ القُدس تمتدُّ من غزّةَ في جنوب فلسطين، إلى أنطاكيا، مرورًا بالقدس، وحيفا، وساحلِ لبنان. لكنّ أرضًا مسيحيةً محصورةً هامةً كانت تَقْبَعُ من حولِ مدينة إيدَسْ، من فوق أنطاكيا، ومع هذه الأخيرةِ كانت تُراقِبُ كافةَ الطُّرُقِ المُؤَدِّيَةِ إلى بغدادَ، والقدسِ، ودمشقَ، وإمبراطوريةِ الشرق في القسطنطينيةِ. وكانت إيدَسْ، بعد القدس، تُشكِّلُ أهمَّ قَلْعَةٍ عند المسيحيين.

لكنّ المدينةَ ما لبثتْ أنْ سقطتْ، ونُهِبَتْ، وطُوِيَتْ في مجاهِلِ النسيانِ، على يدِ أحدِ قُوّادِ الحربِ، لم تكدْ أوروبا تسمعُ عنه شيئاً تقريباً. كان اسمُه عماد الدين زَنْكِي. وقد انتهَى غزوُ إيدَسْ في حَمَّامٍ من الدّماءِ. لقد قُتِلَ خمسةُ آلافٍ من الإفرنج، وستةُ آلافٍ من الأَرْمَنِ، ومسيحيُّون آخرون من عَيْنِ المكانِ، بعد سقوطِ القلاع. وفي المقابلِ، سَمَحَ زنكي لثلاثِمئةٍ من اليهودِ بأنْ يُقيموا في المدينة، مع الأملِ في إعادَةِ إحيائِها من جديد. كان اليهودُ بالفعل أقربَ إلى المسلمين منهم إلى المسيحيين، بعد أنْ اكتسبَ هؤلاء المسيحيون تلك العادةَ الغريبةَ في إبادةِ اليهودِ كلّما التَقَوْا بهم.

كان عِمادُ الدين قائدًا قَوِيًا، وطموحًا وفَظًا. صحيحٌ أنّ انتصارَهُ قد أثار

فرحةً عظيمةً في العالمِ الإسلامي، لكنّ الناسَ كانوا يخشونَه أيضًا، وكانوا يُحبّذون أكثرَ بكثيرٍ لو يُحقّق انتصاراتِه بعيدًا عن المكان الذي يوجدون فيه.

فلعلّ فظاظتَه تحديدًا هي التي كانت تَصْنَعُ ضَعْفَه. ولعلّ الجيشَ المسيحي المهيبَ الذي كان يتأهّبُ للصليبيّةِ الثانيةَ حتى ينتقِمَ لإيدَسْ ويُنقذَ الأرضَ المقدسة، كان سينتصرُ على زنكي، على الرغم مما كسبه هذا الأخيرُ من تجربةٍ في الحرب ضدّ الفرسانِ الإفرنج.

غير أنه لم يُحِطْ إرادتَه في الاستيلاءِ على دمشقَ بأيِّ سرٍّ من الأسرارِ، ومن ثم تشديد الخناقِ على المسيحيّين.

لم يكنْ سكانُ دمشقَ يرتجّون حماسةً لوُجودِ هذا القائدِ المتقلّبِ الفظِّ داخل أسوارِهم. ففي طريقِه إلى دمشق لم يجدْ زنكي بُدًّا منْ أنْ يُحاصرَ بعلبك. ولَكَمْ اشتدّ غيظُه لطولِ مُدّةِ ذلك الحصارِ. وهكذا فعندما استسلمتْ بعلبك، بعد أن ضَمِنَتْ الحاميةُ حصولَها على إجازةِ مُرورٍ، أمَرَ زنكي بِضَرْبِ أعناقِ المدافعين كافة، باستثناءِ القائدِ العام الذي سُلِخَ حيًّا.

ظنّ عمادُ الدين زنكي، بلا شكٍّ، أنَ هذا العملَ سيزرعُ الرُّعْبَ ما بين سكانِ دمشق، ويُضْعِفَ مُقاومتَهم. لكنه حصل على عَكْسِ ما أراد. لقد اسْتَنْجَدَتْ دمشقُ إلى مَلِكِ القدس المسيحي، لأنَ المَدينَتَيْنِ، على اختلافِ دياناتِهما، كانتا تخشيان كثيرًا مِثْلَ ذلك الغازي. فلولا فظاظةُ زنكي لكان التحالفُ ما بين دمشق والقدس مستحيلا. ولولا التحالفُ ما بين دمشقَ والقدس لكان وَسِعَ المسيحيينَ أنْ ينتصِروا خلال الحملةِ الصليبية الثانية. ومع ذلك إذاً، كانت فظاظتُه في النهايةِ، في خِدْمَةِ الله أكثرَ ممّا كانت في خدمةِ الرّب.

وعندما أدركتْ جيوشُه أنّ الحربَ قد وضعتْ أوزارَها هذه المرّةَ – أيْ أنهم لنْ يتمكّنوا أبدًا من الاستيلاءِ على دمشق ونَهْبِها– عادُوا إلى ديارِهم مُحمَّلين بغنائِمِهم، راضِينَ قانِعين. لقد أسَّسَتْ هذه الجيوشُ واقعًا سارياً في هذا الجزءِ من العالمِ المشترَك بين الجيوشِ المسيحية والجيوش المسلمة. فسواءٌ حاربَ في سبيلِ اللهِ أو في سبيلِ الربِّ فإنّ مَنْ جَمَعَ غنيمةً وبَقِيَ على

قيدِ الحياةِ لا يحملُ سوى فكرةٍ واحدةٍ ألا وهي العودةُ إلى ديارِه.

وإذْ أدركَ ذروةَ هيجانِه فاجأَ عِمادُ الدين زنكي خَصِيَّهُ المسيحي وهو يشربُ الخمرَ من مؤونتِه الشخصية. بيد أنه اكتفى بالتّلفّظ بالتهديداتِ التي تَقْتَضِيها قِلَّةُ الحياءِ هذه، جزاءً على ذلك العملِ، وقرّر أوّلا أنْ يرتاحَ حتى يفكِّر في الأمرِ. أمّا الخَصِيّ الذي تصوّر عن حَقٍ بأنّ سيّدَهُ سوف يُقرّر في حقّهِ أصنافًا من العِقابِ لا يقلُّ بعضُها فظاعةً عن بعضِها الآخرِ، فقد فضّلَ أنْ ينتهزَ فرصةَ قيلولةِ سيِّدِه ليَطْعَنَهُ بالخنجر.

ولعل في ذلك ما كان قد يَنْفَعُ المسيحيين، لأنّ غنائم الزنكي كانت ستُوَزَّع ما بين أبنائه. وكان هذا الاقتسامُ سيستغرقُ وقتًا طويلا، بل ولعله سيقودُ إلى حروبٍ ما بين الإخوة أنفسِهم. وفي هذه الحالةِ ستجدُ الحملةُ الصليبيةُ نفسَها في وَضْعٍ مثالي.

لكنّ الله شاءَ غير ذلك. لأنّ الذي أخذَ الخاتم - إشارة القيادة- من يدِ والدِهِ القتيلِ، مِنْ بين الأبناءِ كافة، هو محمود، إذْ ما لبث هذا الأخيرُ أنْ تلقَّى لَقَبَ نور الدين.

وَرِثَ نورُ الدين عن والدِهِ صِفاتٍ حربيةً كثيرة، فما انفكَّ ينتصرُ على المسيحيين. بيد أنه، على خلافِ مُعظَمِ الذين حاربوا الغزوَ الأوروبي فقد تعامَلَ مع الإيمانِ الحقيقي بقدرٍ كبيرٍ من الجِدِّيَّة. فقد أحاطَ نفسَه بكلّ الأُدباءِ والمثقّفين، وكلّ الذين يملكون حقَّ الحديثِ في المساجدِ. فكان يستدعيهم، أو يُكافِئَهُمْ، حتى يَنْشُروا أسطورةَ نور الدين: قائدٌ لا يحارب في سبيلِ مصلحته الخاصة، ويحترمُ القرآنَ دائمًا، ويمنع على حَرَسِهِ شُرْبَ الخمرِ، ولا يقتلُ المهزومينَ أبدًا، ولا يُقَدّمُ مصلحتَه على مصلحةِ الإسلامِ مطلقًا. وسرعان ما أيقظَ نورُ الدين الورعَ الديني في النفوسِ. لكنّه تَوَقَّى الاستيلاءَ على دمشق، واتّخذَ من حَلَب عاصمةً له.

مع نور الدين، ومع خَلَفِه صلاحِ الدين على الخصوص، بات الوجود المسيحيُّ في الأرضِ المقدسةِ لا أملَ في تحقيقِه. لم يكنْ سقوطُ القدسِ سوى مسألةِ وقتٍ ليس إلا. لكنّ هذا السقوطَ لا يستطيعُ أنْ يَرْوِيَهُ إلا مَنْ كتبَ عنه فَوْرَ

وُقوعِه، وكان على دِرايةٍ سابقةٍ بِمُجْرَيَاتِ الأحداثِ، وقادراً على سَرْدِها.

* * *

عندما انتشرَ نبأُ سقوطِ إيدَسْ في أوروبا، أثارَ النبأُ من البلبلةِ قدْرَ ما أثاره من الرّوعِ والذُّهول معًا. كان وكأنَ العالَمَ المسيحيّ لم يستوعبْ مثْلَ ذلك الأمْر، طالما أنّ استرجاعَهم للقبر المقدّس، كان قضيةً عادلةً، ومن ثمّ لا يمكن بحكم هذه الصفةِ، أنْ تكون الهزيمةُ مآلَها.

وإذا لم يَأْتِ رَدٌّ المسيحيَّةِ بسرعةٍ وبقوّة، فقد يُفَكِّرُ الكَفَرَةُ في الهجومِ على القدس، وفي ذلك باعثٌ عسكريٌّ خالصٌ من السّهلِ فَهْمُ منطقِه حتى عند رجالِ الإيمان.

نشِطَ البابا أُوجينْ الثالث بسرعةٍ في إطلاقِ الحملةِ الصليبيةِ الثانية، حتى يُتيحَ للمسيحيينَ الدخولَ إلى القبر المقدَّس، وإلى باقِي أماكنِ الحجِّ الأخرى. لقد الْتَفَتَ أوّلاً إلى المَلِكِ لويس السابعِ الذي كان يحمِلُ هُمومًا زوجيةً غايةً في التعقيدِ حتى صار أصغرُ عُذْرٍ منه للذهابِ إلى ساحة الحرب خليقاً بأنْ يخضَعَ للفحصِ والتحليلِ. ولعلّ الأمرَ كان يمكن أنْ يكونَ أفضلَ بكثيرٍ لو حملتْ تلك الحملةُ الصليبيةُ، فضلاً عن منافعِها المألوفةِ في الحربِ، مَغْفِرَةً للذّنوبِ، ودُخولاً إلى الجنَّة.

لكنّ لويس السابع، في البدايةِ، لم يحْصُلْ على أيِّ توفيقٍ حين حاولَ أنْ يُقْنِعَ أَتْباعَه بخوضِ معركةٍ مُكْلِفةٍ وطويلةِ الأمَدِ على السواء. فأولئك لم يكونوا يقاسمونَه مشاكلَه الزوجيةَ، وبصفتِهم بارُوناتٍ أو كُونْتَاتٍ (مفردُها كُونتْ)، كانوا راضينَ عنْ حياتِهم كأحسنِ ما يكونُ الرِّضا، في مناطقِ نفوذِهم.

وحين وَهنَ عزمُه عَهِد لويس السابع بِهُمومِه إلى البابا الذي تصرّف بما تُمْلِيه هذه الوضعيةُ الحسّاسةُ، إذْ لجأَ إلى استدعاءِ برنار دي كليرفو.

في تلك الأثناءِ كان برنار دي كليرفو الرَّجلَ الأكثرَ نفوذاً في العالم الروحي، وعلى الأرجحِ، أفضلَ خطيبٍ في العالم الغربي. فعندما علِم الناسُ

أنّ برنار دي كليرفو سيُلقِي مواعِظَه في كاتدرائيةِ فيزيلاي، في شهر آذار من عام ١١٤٦، كان تهافتُ الجموعِ عليه من الكَثْرَةِ ما جَعَلَ التفكيرَ في أنّ الكاتدرائيَّة لنْ تتّسِعَ لتلكَ الجموعِ، أمرًا بَديهيًا. ولذلك أقيمتْ منصّةٌ خارجَ المدينةِ، ولم يجدْ برنار دي كليرفو داعِيًا لإلْقَاءِ مواعِظَ طويلةٍ لكي يُشْرِعَ عشراتُ الآلافِ منَ الناسِ في الْتِمَاسِ الأَصْلِبَة.

لقد أعدّوا كَمّاً من الأَصْلِبَةِ من الكَتّانِ قام برنار بتوزيعِها أوّلا على المَلِكِ وأتباعِه، لأنّ الباروناتِ أنفسَهم والكونتاتِ صِعَابَ المِراسِ لم يكنْ يَسَعُهُم أنْ يقاوِمُوا موجةَ الحماسةِ والإيمانِ التي أَلَمَّتْ بهم، ولا غيرها من كافةِ الموجاتِ الأخرى. لقد أخذ برنار دي كليرفو ينتزِعُ قِطَعًا من ملابسه الخاصةِ حتى يُعطِي للأعضاءِ الجدد صليبًا من كتّانٍ. فهم بهذا العملِ يُؤَدُّون القَسَمَ بأنهم سيشاركون في الحربِ المقدسةِ، وبأنهم، من ناحيةٍ أخرى، قد باتوا مُهَيَّئِين لأنْ يُكَفِّرُوا عن خطاياهم.

وبفخرٍ واعتزازٍ، كَتَبَ برنار دي كليرفو إلى البابا على النحو التالي:

«*لقد أصدرتُم الأمرَ وقد أَطَعْتُ. وشاءتْ القوةُ التي أصدرتْ الأمرَ أنْ تُؤتِي طاعَتي ثمارَها. فتحتُ فَمِي. وتكلّمتُ، وسرعان ما تضاعَفَ عددُ الصليبيين على نحوٍ لا يُعَدُّ ولا يُحصَى. وخَلَتْ القُرى والمدنُ من سُكّانها. ولم يكدْ يظلُّ فيها سوى رجُلٍ واحدٍ عن كلِّ سبعةِ نساءٍ، وفي كلِّ مكانٍ صِرْنا نرَى أراملَ ما يزالُ أزواجهنَّ أحياءً يُرزَقون.*»

انتشرتْ هذه الحماسةُ الدينيةُ عَبْرَ أوروبا بقوةٍ مماثلةٍ لتلك القوةِ التي أثارها نور الدين حول حَلَب، على الرغم من أنّ البعضَ كان يجهلُ كلَّ شيءٍ عن البعضِ الآخر. ولم يجدْ برنار دي كليرفو بُدّاً من أنْ يقومَ بسَفَرٍ طويلٍ، ومن أنْ يُرَدِّدَ كلماتِه يوماً بعد يومٍ، في بورغونيا، وفي اللُّورين، وفي مناطق الفلاندر على السواء.

لكنّ هذه الحماسةَ ما لبثتْ أنْ أثارتْ في ألمانيا مشكلةً كتلك التي ظهرتْ خلال الحملةِ الصليبيّةِ الأولى. ولم يجدْ مطرانُ كولونيا بُدّاً من أنْ يستدعِيَ برنار دي كليرفو على وجهِ السرعة، لأنّ راهبًا سيسترسيًا يُدْعَى

بيتر الموقّر كان يجوبُ ألمانيا لِيَنْشُرَ رسالةً مماثلةً لِرسالةِ برنار دي كليرفو فيما يتّصل بالحربِ المقدّسةِ، وإنْ اختلفتْ عنها اختلافًا جوهريًا فيما يتعلّق بمصيرِ يهودِ أوروبا.

وفي أعقابِ هذه المواعظِ، حدثَ قَتْلٌ لليهودِ في كولونيا، ومايانس، ووُورْمس، وسبير، وستراسبورغ. لقد أُبِيدَ يهودٌ عنْ آخرِهم في بعض الأماكن.

أصدر برنار دي كليرفو أمرَه لـِ بيتر الموقّر بأنْ يُكَفِّرَ عن خطاياهُ، وبأنْ يلتزمَ الصمتَ لسنةٍ كاملةٍ، وبأنْ يعودَ على الفورِ إلى ديرِهِ في كلُوني، وبأنْ لا يتدخّلَ في ما يَسْتَعْصِي عليه فَهْمُه.

ووَجَدَ برنار دي كليرفو، نفسَه مضطرًا لأنْ يقومَ بجولةٍ إلى ألمانيا. وهناك، وعلى الرغم مِنْ أنه لم يجدْ بُدًا من اللجوءِ إلى مُترجمين، فقد اسْتَعْطَفَ الكثيرَ من الناسِ لصالحِ قضيةِ الحربِ المقدسةِ. لكنّه لم يدّخِرْ شيئًا من سُلْطَتِه أيضًا حتى يُوقِفَ الاضطهادَ والتعذيبَ، مُرَدّدًا في هذا الشأنِ أنَ «مَنْ يعتدي على يهوديٍّ بُغْيَةَ قتلِه فهو كمَنْ اعتدَى على المسيحِ شخصيًا.»

وعلى هذا النحو الْتَفَّتْ الجموعُ الهائجةُ منْ جديدٍ حول ما يَهُمُّهُمْ من الشؤونِ، وصارتْ الحملةُ الصليبيةُ الثانيةُ حقيقَةً. والْتَحَقَ كونرادْ، مَلِكُ ألمانيا بِـ لويس السابع، واجتاز جيشٌ هائلٌ أوروبا، فسَلَبَ ونَهَبَ في طريقِه، باسمِ الحربِ المقدَّسة. وحين وصلتْ إلى القسطنطينيَّة، كانتْ القواتُ الفرنسيَّةُ والألمانيَّةُ قد بلغتْ من الخلافِ ما جعَلها لا تعرفُ مَنْ منها ستكونُ سبّاقةً لسَلْبِ ونَهْبِ هذا البلدِ أو ذاك، ولذلك السّببِ لم تجدْ بُدّاً منْ أنْ تُقرّرَ أي طريق ستسلك إلى القدسِ. واختار كونرادْ المرورَ عَبْرَ آسيا الصُغرى، بينما سار لويس السابع بمحاذاةِ السّاحل، قبل أنْ تلتقِي القُوَّتان من جديدٍ في أنطاكيا.

وكان من المنتظرِ أيضًا أنْ يلتحِقَ بالحملةِ جيشٌ من الصّليبيين الإنجليز. لكنّ الإنجليزَ لم يذهبُوا أبعدَ من البرتغال، فحاصَروا لَشْبُونَةَ. صحيحٌ أنّ هذه

الأخيرةَ في مصافِّ أهمية القدسَ، لكنّها كانتْ مُسْلِمَة.

وبعد أربعةِ أشهرٍ من الحصارِ، وَعَدَ الإنجليزُ المدافعين، بإجازةِ مرورٍ. واستسلمتْ الحاميةُ، وبعد مُرورِ بعضِ الوقتِ شرَع المسيحيُّون في الصَّلْبِ والسَّلْخِ والبَتْرِ، وفي قَطْعِ الأعناقِ، وفي الحَرْقِ والاغتصابِ والنّهبِ، باسم الربِّ –ولِخَلاصِ أرواحِهم الأبديّ. لكنّ الإنجليز سرعان ما تَعِبُوا من الحربِ المقدّسةِ فعادوا إلى ديارِهم– باستثناءِ البعضِ الذين أقاموا مستوطنات صغيرة.

كان كُونْرَاد، ملكُ ألمانيا، قد اختار عبورَ آسيا الصغرى من داخلِ الأراضي، بدلاً من أنْ يسيرَ بمحاذاةِ الساحل، مُعْتَقِداً أنّ هذا الطريقَ سيمنحُه مزيداً من النّهْبِ. وقد هُيئَ له أنْ يشهدَ تدريباً بِحَجْمِ الطبيعةِ عمّا يمكنُ أنْ يحدُثَ في حالِ تعرَّضَ جيشٌ أوروبي مجهّزٌ تجهيزاً ثقيلا، لهجوم على يدِ الخيّالةِ الشرقيَّةِ خفيفَةِ العتادِ والعُدَّةِ. وقد انقضّتْ عليه قواتٌ تُركيةٌ في دوريليوم، فَقَدَ تسعةَ أعشارِ قُواته فيها.

وعندما التقتْ القُوَّتان الأوروبيَّتانِ في أنطاكيا – كان هلاكُ القواتِ الفرنسيةِ فيها أقلَّ من هلاكِ القواتِ الألمانيةِ بكثير، فاستقبلَها الكونتْ ريموندْ استقبالاً فَخْماً. وقد التحقَ بها أيضاً بُودْوَانْ، مَلِكُ القدس. فكان الوقتُ إذاً وقتَ احتفالاتٍ، ومِنْ بعدِها وَقْت إعداداتٍ دقيقة.

لم يكنْ مُحارِبُو جيشِ الربِّ القادِمون للتوِّ، يجهلون كلَّ شيءٍ عن زِنْكي وحسب، بل كانوا فضلا عن ذلك يجهلون أنه قد فارَقَ الحياةَ، وأنهم باتُوا يُواجهون عَدُوًّا أَخْطَر بَأْساً، مجسّداً في شَخْصِ ابنه نور الدين.

كان الإفرنجةُ المُقيمون في عينِ المكانِ أَدْرى بالوضعيةِ إلى أبعدِ الحدودِ الممكنة. كان عليهم إمّا استعادةُ إيدَسْ – سقوطُ هذه المدينةِ كان قد أثار الحملةَ الصليبيَّةَ، وقد يكون لهذا الانتصارِ أهميةٌ سيكولوجيةٌ هائلةٌ للطرفَيْنِ الموجودين سواء بسواء. وإمّا الهجومُ مباشرةً على حَلَب ونور الدين. فهذه المعركةُ سوف تأتي آجلا أمْ عاجِلا– وكان من الخيرِ أنْ يَتِمَّ الاستعدادُ لها بأسرعِ ما يمكن، حين يتوفّرُ أكبرُ عددٍ من القوات.

لكنّ لويس السابع وكونراد، اللذين قلّما كانا يُدْرِكان علاقاتِ القِوَى التي كانت تتحكّمُ في هذا الجزءِ من العالمِ، ما لبثا أن قرّرا مُهاجمةَ دمشق. ففي رأيِهما أنه لو تمكّنا من غزوِ أهمِّ مدينةٍ بعد القدس، لَفَتَحُوا الحملةَ الصليبيَّةَ بانتصارٍ ساحقٍ سوف يَرْتَدُّ صداهُ إلى العالمِ كافّة. وكان لهما أيضاً سببٌ آخرُ لم يُجْهِرا به، وهو أنه مِنَ المُثْمِرِ لهُما أكثرَ أنْ يَنْهَبَا دمشق. وإنْ تعذَّرَ عليهما كثيرٌ من الغنائمِ، فعلى الأقلِ سَيُعَوِّضَانِ خَسَائِرَهُما.

حاولَ الإفرنجةُ أنْ يَشْرَحَوا ما في الهُجومِ على دمشقَ من مخاطرَ فادِحة. لكنْ من دون جدوى. لقد لقيتْ اعتراضاتُهم الرّفَضَ من قِبَلِ كلا المَلِكَيْنِ اللَّذين كانا يحكُمان أقوى الجَيْشَيْنِ.

سارَ الجيشُ المسيحي إذاً في اتجاهِ دمشقَ، وهو ما كان، لاعتباراتٍ كثيرةٍ، جُنُوناً حقيقياً.

لم تكنْ دمشقُ أهمَّ مدينةٍ إسلاميةٍ في المنطقةِ وحسب، بل وكانت أيضاً المدينةَ الإسلاميةَ حليفَةَ القدسِ الوحيدةَ. لذلك فمَنْ يَنْقُض هذا الميثاقَ يُثْبِتُ أنّ الوَعْدَ المسيحيَّ ليس له أيةُ قيمة. وما أكثرَ ما كانتْ هذه النقطةُ تُخيفُ على الخصوصِ فرسانَ الهيكلِ الذين كانوا العَمُودَ الفقري للفُرسان الغربيّين.

وأَدْهَى من ذلك، أنهم لو فعَلوا لَلَعِبُوا لُعبةَ نور الدين الذي ما انفكَّ ينادي بالوحدةِ ضدَّ الكُفْرِ، وبالتُّقَى من أجلِ التَّكْفِيرِ عن كلِّ الهزائمِ الماضية. فَمَا منْ وسيلةٍ أَنْجَعَ لِتَوْحِيدِ المسلمين منْ مُهاجمةِ دمشق.

عندما بدأ الجيشُ المسيحيُّ مَسِيرَهُ نحو دمشق، لم يُصَدّقْ سكانُ المدينةِ آذانَهُم، لفرطِ حماقةِ الأمرِ وخُلُوِّهِ من الصوابِ. لقد انطلقتْ الحمائمُ المهاجرةُ في الاتجاهاتِ كافة، ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى وصَلَ إخوةُ نور الدين وحلفاؤُهم بقواتِهم المَهِيبَةِ، من الجنوب ومن الشرق.

وبعد مُرورِ أربعةِ أسابيع فقط على حِصارِ دمشق، حُوصِرَ المسيحيون على يَدِ جيشٍ أَقْوَى منهم مَرَّتَيْن. وفضلاً عن ذلك، فقد اختارُوا لِمُعَسْكَرِهِم أقلَّ الأماكنِ ملاءمةً، في جنوبِ المدينة، فلَمْ يوفِّرْ لهم ذلك المكانُ أيَّ حمايةٍ،

وقد سارَع سكّانُ دمشقَ إلى رَدْمِ كلِّ الآبار. ولم يرَ قُوَّادُ حُرّاسِ الهيكلِ سوى تفسيرٍ واحدٍ لذلك الترتيبِ التكتيكيِ الأحمق: فإمّا كونراد، وإمّا لويس السابع،كانا فاسِدَيْنِ، فَتَلَقَّيَا رشوةً حتى يَخْسَرَا.

وسرعان ما أضحتْ المواقعُ المسيحيةُ مواقعَ لا يمكنُ الصمودُ فيها، بلْ ولم يجدْ المسيحيون سبيلاً لإقامةِ آلاتِ الحصارِ فيها، فكان الهروبُ خَيْرَ سبيلٍ لنَجاتِهِم.

وعندما رفَع الجيشُ المسيحيُّ المعسكرَ وتقهقرَ نحو الجنوبِ، تَعرّضَ للهجوم على يدِ الخيّالةِ العربيةِ الخفيفةِ التي ظلت بمَنْأى عنْ أي مَرْمَى، فأمطرتْ الفارّينَ بِوَابِلٍ من السِّهامِ. وكانت الخسائرُ فادِحةً، وحامَتْ رائحةُ الجُثَثِ لشُهورٍ طويلةٍ فوق أجزاءِ كبيرةٍ من الأرضِ المقدّسة.

على هذا النحو انتهتْ الحملةُ الصليبيةُ الثانيةُ، بحصارٍ دامَ أربعةَ أيامٍ، وبهزيمةٍ مُرْعِبَةٍ مردُّها الحماقةُ أساساً.

قرّر الملكُ كونراد، الذي اغتاظَ منْ لويس السابعِ مرّة أخرى، أنْ يعودَ إلى ألمانيا، سالِكاً هذه المرّةَ أكثرَ الطُّرقِ أمَاناً، على ساحلِ آسيا الصغرى.

لم يعدْ لويس السابع يمتلك جَيْشاً قَوِياً. ولذلك اختار أنْ يسلُكَ طريقاً بحرياً، من أنطاكيا إلى صقلية. وفي البحر تعرَّضَ أسطولُه للهُجومِ والنَّهْبِ على يد الأسطولِ البيزنطي. وبعد هذه الواقعةِ أَعْرَضَ كونراد ولويس السابع، إلى الأبد، عنْ أيِّ مشروعٍ صليبيّ.

وعند عودتِه إلى فرنسا، لَقِيَ لويس السابع حياةً لا تطاقُ مع زوجتِه. كانت الحملةُ الصليبيةُ الثانيةُ إخْفَاقاً مُرعِباً. لقد أخذَ نور الدين دمشقَ منْ دون أنْ يُشْهِرَ سيفاً، أو يُطْلِقَ سَهْماً !

منطقياً، ضاعت مملكةُ القدسِ نهائياً. فلم يَعُدْ ثمةَ أملٍ يُعَلَّقُ على القُوّاتِ الأوروبية العُظمَى، بعد ما تَكَبّدَتْهُ من هزائمَ، أياً كانت قدرةُ برنارْ دي كليرفُو على الإقناعِ، وأياً كانت وُعُودُهُ بالخلاصِ والمغفرةِ لِمَنْ كانوا يسخرون من الحربِ المقدسةِ ويهزؤُون بها. غيْرَ أنه مرّ وقتٌ طويلٌ قبْلَ أنْ

تتحرَّرَ القدسُ على يدِ المؤمنين. وليس نور الدين هو الذي سيُنَظِّفُ المدينةَ من هؤلاء الهَمَجِ الأوروبيين المحتلّين. وذلك بِسَبَبِ كهنُوتٍ رَهبانيٍ.

كان حُرّاسُ الهيكل يَنْتَمُون لأَصْلِ كهنوت السيسترسيين نفسه: لقد أَمْلَى قواعدَهُ برنار دي كليرفو نفسُه. في الأصلِ أُسِّسَ هذا الكهنوتُ كنَوْعٍ من الشرطةِ الدينيةِ، من أجلِ حمايةِ الحُجاجِ المسيحيين، ما بين القدس ونهرِ الأردن على الخصوص. كانت عصاباتُ قُطّاعِ الطرقِ من العَرَبِ، بالفعل، ترَى أنَّ مُهاجمَةَ هذا الدَّفْقِ من الحُجاجِ الذين كانوا يتوجّهون إلى نهرِ الأردن للاستحمام، أسهلُ لها وأكثرُ مكسباً. في البدايةِ، بَدَتْ فكرةُ اللجوءِ إلى رُهبانٍ مُحاربين، على الأقلِّ، فكرةً مُخالِفَةً للمعهودِ. بيد أنّ الفكرةَ ما لبثَتْ أنْ انتشرتْ بسرعةٍ خارج الأرضِ المقدسةِ، وأحسَّ عددٌ من أفضلِ الفرسانِ في أوروبا أنهم مَعْنيُّونَ بالأمرِ. لكنْ لم يُنْتَخَبْ منهم سوى القليلِ. فأفضلُ الفرسانِ فقط، ممَّنْ كان إيمانُهم أكثرَ صِدْقاً، هُم الذين حُظُوا بالقبولِ في داخلِ الكهنوتِ. وقد شكّل فرسانُ الهيكلِ أفضلَ قوةٍ خيّالةٍ عرفَتْها الأرضُ المقدسةُ – أو أيّ بلدٍ آخر– على الإطلاق.

قلّما كان العربُ، بوجهٍ عام، يُكِنُّونَ احتراماً للمُحاربين الغربيّين. فهؤلاء المحاربون كانوا، في غالبِ الأحيانِ، مُجَهّزِينَ تجهيزاً ثقيلا، فلا يُحْسِنُونَ رُكوبَ الخيلِ، ولا يَطِيقُون الحرارة. وفوق ذلك فلَمْ تكنْ القناعةُ نُقْطَةَ قُوَّتِهِمْ. وكان ثمةَ نوعٌ من الفرسان الذين لا مفرّ منْ تفاديهم إنْ لم تكنْ علاقةُ القوّةِ عشرةَ فرسانٍ مُقابلَ فارسٍ واحد. بل وحتى في هذه الحالةِ، قد يكون الانتصارُ مُكْلِفاً للغاية. لأن فرسانَ الهيكلِ لا يستسلِمون على الإطلاق. وعلى خلافِ بقيّةِ الفرسانِ فلم يكونوا يَخْشَوْن الموتَ بأيّ حالٍ. فقد كانوا على يقينٍ راسخٍ بأنّ حَرْبَهُمْ حربٌ مقدّسةٌ، وبأنهم في لحظةِ موتِهِمْ على أرضِ المعركةِ، سيلتحِقُون بالجنةِ فوراً. وفضلاً عن ذلك، فإنّ نَمَطَ حياتِهم الزاهدةِ، وقواعدَهم المُتَّبَعَةَ في الدير، المُتَّصِفَةَ بالصّرامةِ القاسيةِ، تمنَعُهُم من القيامِ بأيّ شكلٍ من أشكالِ النَّهْبِ، ومنْ الإفراطِ في الأكلِ والشربِ، وهي الأشياءُ التي عادةً ما ترافقُ أيَّ انتصارٍ. وكانت قواعدُهم

تأمرُهُمْ أيضاً بأنّ الوقتَ الذي لا يُكرَّسُ للحربِ أو للعِبادَةِ يجب أنْ يُسْتَثْمرَ في التّدريبِ العسكريِّ لفائدةِ المُنخرطين الجدد، وقُدَمَاءِ المحاربين.

كان الفرسانُ الذين يحملون المِعْطَفَ والدِّرْعَ الأَبْيَضَيْن، المُزَيّنَيْنِ بالصليبِ الأحمر، يُمثّلون الأملَ الوحيدَ لمَمْلَكَةِ القُدس.

* * *

ويوم صار صوتُ آرنْ نشازاً وتعذّر عليه الغناءُ، اقتنعَ بأنّ الربَّ قد عاقَبَهُ بطريقةٍ لم تكنْ قاسيةً عليه وحسب، بل ولم يفْهَمْهَا أيضاً. فمِنْ المؤكّدِ بالفعل أنه لا بُدَّ اقتْرَفَ ذَنْباً خطيراً فاستحقَّ عنه مِثْلَ ذلك العقابِ. لكنْ كيف يقْتَرِفُ المرءُ مثلَ هذا الذّنْبِ وهو لا يعلَمُ عنه شيئاً؟ لقد أطاع آرنْ، وأحبَّ إخوتَه، ولم يقترفْ كَذِباً، وقد اجتهدَ في أنْ يقولَ الحقيقةَ في أثناء اعترافاتِه مع الأبِ هنري، حتّى فيما يتّصِلُ منها بالعادَةِ السِّرِيَّة، وبالأفكار الآثمة. وقد قَبِلَ من دون أنْ يرفَّ له جفنٌ كافةَ أنواعِ العقابِ التي أنزلَها به الأبُ هنري، وقد لقيَ الغفرانَ دوماً. وفي هذه الحالةِ لماذا يعاقِبُهُ الربُّ بِمِثْلِ هذه القساوة؟

وطلَب منْ الربِّ أنْ يَغْفِرَ له هذا السؤالَ الذي طرَحَهُ على نفسِه، وهو السؤالُ الذي قد يُوحِي بأنّ العقابَ الربّانيَّ عِقابٌ ظالِمٌ. وأضاف آرنْ أنه قد رغِب في أنْ يَعْرِفَ ما سِرُّ خطيئتِه حتى يُصْلِحَ نفسَه في يُسْرٍ. لكنَّ الربَّ لم يُجِبْهُ قط.

وتفاجأ آرنْ من الأخِ لودويغ دي بيتيكور، مُعَلِّم الموسيقى في فيتا شولا، الذي لم يُلْقِ لِظاهرتِه بَالاً كثيراً. وحاولَ الأخُ لودويغ أنْ يُخفِّفَ منْ رَوْعِ آرنْ، مُوَضِّحاً أنّ الأمرَ يَسيرُ بحسبِ مَجْرَى الأمورِ الطبيعي، وبأنّ كلَّ الأولادِ سوف يَفْقِدُون أصواتَهم النديَّةَ ذات يومٍ، وأنه سيأتي وقتٌ سيَنْعَقُون فيه مثلَ الغِرْبَانِ. وهكذا يُصبِحُون كباراً، مثلما كَبِرَ آرنْ واشتدَّ عُودُه. بيد أنّ الأخَ لودويغ لم يَسَعْهُ أنْ يُؤكِّدَ إنْ كان صوتُ آرنْ سيسمحُ له بأنْ يُغَنِّي منْ جديدٍ بعد ذلك التغَيُّرِ الكامِلِ. ولذلك لم يَشْعُرْ آرنْ بالمُواساةِ حقاً.

كان آرنْ يَعْتَبِرُ الغناءَ مُهِمَّتَهُ الأساسيةَ في فيتا شولا: فهناك كان يشعرُ في أثناء القُدَّاساتِ، أنه يُنْجِزُ أفْضَلَ ما لديه. صحيحٌ أنه أثبتَ أنه شخصٌ مفيدٌ في أثناء بناءِ قُبَّةِ الجرَسِ، لكنه أنجزَ في الغناءِ ما عجز عنه بقيّةُ الإخوةِ. أما في بقيَّةِ الميادينِ فلَمْ يكنْ سوى صبيٍّ يتعلَّمُ من الآخرين جميعاً. وفي رأيه أنّ المُهِمَّات كافة مُتْعَةٌ للرّوحِ وللجسدِ على السواء، سواء كانت المتعةُ من الكُتبِ أو الخيولِ، أو منْ تمارينَ يُؤدِّيها برُفْقَةِ الأخِ جيلبرتْ. بيد أنَّ هذه المُهِمَّات كانت تبدو أكْثَرَ نَفْعاً له منها للإخوة. ولمّا كان آرنْ يُحبُّ الإخوةَ فقد حَرِصَ على أنْ يظلَّ خَليقاً بهذا الحبِّ الأخويِّ فيُجازيهِمْ خَيْرَ الجزاء. ولذلك إذاً كانَ الغناءُ أفْضَلَ وسيلةٍ للوصولِ إلى تلك الغاية.

صار آرنْ عاجزاً عن الغناءِ، حتى وإنْ سمِعَ أنغاماً صحيحةً في رأسِه. فكان وكأنه يَفْقِدُ توازُنَهُ فجأةً، فلا يَقْوَى على المَشْيِ، أو على الجَرْيِ، أو على رُكوبِ الخيل. كان الأخُ لودويغ قد أعلنَ بأنّ حضورَ آرنْ لم يَعُدْ ضرورياً في أثناء القُدّاسات، ورأى الغلامُ في ذلك عِقاباً قاسياً جزاءَ فَشَلِه.

لكنّ الأبَ هنري أَبْدَى من ناحيتِه، بعضَ الصَّبْرِ. لماذا يشقُّ على الوَلَدِ أنْ يفهمَ بداهةَ الأشياء؟ من الواضحِ أنه لم يكنْ كافياً أنْ يشرحَ له أحدٌ معنى تغيُّرِ الصوت. وبالمثلِ، فلو ذكَّرَهُ أحدٌ بأنّ للرجالِ أصواتاً تختلفُ عن أصواتِ الأولادِ لما فهِم ذلك أيضاً. لكنّ هُمُومَ آرن الطُّفَيْلِيَّةَ ربما كانت أكثرَ إثارةً للقلقِ ما دامت تُعبِّرُ عن شيءٍ آخر...عن عُزْلَةٍ كبيرة. فلو كَبِرَ آرن ما بين أطفالٍ آخرين، في داخِلِ الديرِ، أو خارِجَه لكان سَهُلَ عليه أنْ يرى نفسَهُ كما هي نفسهُ: طفلا، أو ربما أخاً قادِماً، لكنْ ليس أخاً كاملا.

فإذا كان الكهنوتُ السيستيري يستقبلُ عدداً أكبرَ من الأطفالِ في طائفتِه الدينيةِ فَلأَسبابٍ لاهوتيةٍ وليس لِدَوَاعٍ عمليةٍ أو اقتصادية. فالأولادُ الذين يكبرون في داخلِ الديرِ قد يُحْرَمون من حُرّيتِهم الفرديةِ والفكريةِ، وعندما يصيرون كباراً لا يجدون خِياراً آخرَ أمامَهم سوى أنْ يصيروا رُهْباناً.

يَذْكُرُ الأبُ هنري جيداً أنه ناقَشَ المسألةَ مع الأبِ ستيفان، في ذاتِ اللحظةِ التي وَصَلَتْ فيها والدةُ آرن إلى فارنيم، لكيْ، على حدِّ قولِها، «تَهَبَ ابنَها

إلى الربّ»، حتى تذعنَ لمشيئَةِ الربِّ، وربما أيضاً لكي تُكَفِّرَ عن ذُنوبٍ اقْتَرَفَتْهَا. لقد تَنَبَّأَ رَئِيسا الدّيرِ بالمسألةِ وقرَّرا أنْ يُرَبِّيا آرن تربيةً قائمةً على أكبرِ قَدْرٍ من الحريةِ حتى يتلقَّى نداءَ الربِّ المحتملِ بروحٍ كاملة.

وإنْ كان آرن عاجزاً عن تقبُّلِ وجودِ تغيُّرِ الصّوتِ بوصفه عنصراً حتميّاً للحياةِ، ففي ذلك تحذيرٌ. فإن قارنّا الأمرَ مع عالَمِ الدنيا خارج الأسوارِ فإن آرن أكثرُ ثقافةً من أيّ رَجُلٍ، على الأقلّ في ذلك الشمالِ الهمجِي. ناهيكَ عنْ أنه يستعملُ الأسلحةَ أفضلَ منْ أيٍّ كان.

ومن ناحيةٍ أخرى، فقد كان بريئاً براءةً كاملةً فيما يرتبطُ بالعالم الزمني. فمنْ المتعذّرِ أنْ يجلسَ إلى طاولةِ مُواطنيه من غيرِ أنْ يُصابَ بالدُّوار. فلا يمرُّ يومٌ واحدٌ لا يرى فيه الناسَ وهم يكذِبُون ويقتَرِفُون أعظمَ الآثامِ كلّ الأشياءِ التي يرى فيها آرن على الأرجحِ أمثلةً نظريةً عاليةً تُستعمَلُ لأغراضِ التشبيد.

لم يكن آرن يعرف شيئاً اسمه الغرور، اللهم إلا من خلال الأمثلةِ التي قد يَعْثُرُ عليها في النصوصِ المقدَّسةِ. أما النَّهَمُ فشيءٌ يفوقُ مخيِّلَتَه، وكذلك البخلُ. وأما الغضبُ فلا يعرفُ منه سوى الغضبِ الرَّبَّاني، الذي يراهُ غضباً حقيقياً لا رَيْبَ فيه. ففي عينيْ الأبِ هنري لا يعرفُ آرن عنْ الحَسَدِ شيئاً، بل إنه على العكس، يفيضُ إعجاباً بالإِخْوَةِ الذين يعرفون أكثرَ ممّا يَعْرِفُ، ويُكِنُّ لَهُمْ امتِنَاناً لا حدَّ له عندما يُقاسِمُه هؤلاء الإخوةُ مَعْرِفَتَهُم. ومن أين له أنْ يعرِفَ شيئاً عن الكَسَلِ هو الذي يفيضُ حماسةً وحيويّةً في كلِّ ما يؤدّيه من مهمّاتٍ يوميَّة؟

ويبقَى الفجورُ. كان آرن يحمِلُ، على ما يبدو، رؤيةً مُبَالَغاً فيها عن الطابعِ الآثمِ لهذه التلوثاتِ الفرديةِ. وقد تذكَّر الأبُ هنري في ابتسامٍ كيفَ ربطَ آرن تغيُّرَ الصوتِ «عقابِ الربِّ» بالآثامِ المُرعبة. لقد رأى سخريةً حقيقيةً في أنْ يُصلّي آرن من أجلِ أنْ يحتفِظَ بصوتِه، ويتوسّلَ في الوقتِ نفسه من أجلِ أنْ يتخلّصَ من تلكَ الحَكَّةِ التي كانت تجعلُ الامتناعَ عن الإثمِ أَمْراً غايةً في الصعوبة.

لا شك أنّ أقوالَ الأبِ هنري، في تلك الأثناءِ، قد فاقَتْ إدراكَهُ، لأنه سَخِرَ من السؤالِ وهو يؤكِّدُ أنْ لا بد من وُجودِ طريقةٍ غاية في البساطةِ للاحتفاظِ بذلك الصّوتِ النديِّ، وللتخلُّصِ من تلك الحَكَّةِ، وأنّ علاجَ ذلك أمرٌ ليس جديراً بأنْ يُنْصَحَ به.

لم يفهمْ آرن ذلك التَّلْميحَ. وارتبكَ الأبُ هنري لذلك أيما إرباكٍ، ولم يجدْ بُدّاً من أنْ يشرحَ بأنّ الأولادَ الصغارَ لا يُخْصَوْنَ في الأديرةِ، حتى وإنْ غنَّى هؤلاء غِناءً أخّاذاً. وشرحَ أخيراً أنّ تغيُّرَ الصوتِ ليس خطيئةً لكنّه جزءٌ من النظامِ الطبيعي للأشياءِ، وربّانيَّتِها.

بيد أنّ الأبَ هنري كان على يقينٍ راسخٍ بأنّ الربَّ كان يهيِّئُ مشيئَةً خاصةً لآرن الشاب. وريثما يَكْشِفُ الربُّ عن مشيئَتِه فَمِنْ واجبِه أن يُهيِّئَ آرن لِمَوْهِبَتِه القادمة. وقد سَعَى لذلك ما وَسِعَهُ السّعيُ، لكنْ لعلّ ذلك لم يكنْ كافياً. فسواءٌ طالَ الزمنُ أم قَصُرَ سيكتشفُ آرن أيَّ عالمَ يُشْبِهُ عالَمَ الدنيا، عالَمَ ما وراءَ الجدار. وإلا فسوف يظلُّ بَرِيئاً براءةَ أيِّ مولودٍ جديدٍ، يومَ يُصبحُ رَجُلاً، ومثلُ هذا الرّجُلِ لنْ يكون عاقِلا. وذاك لا يمكن أن يكون ما شاءَهُ الربُّ له حقاً.

* * *

عندما ضَرَبَتْ عواصِفُ الخريفِ الساحِلَ الغربي لــ جولاند كان ذلك زَمَنَ غَرَقِ السُّفنِ أيضاً. كان جَمْعُ محتويات حُطامِ السُّفنِ الغارقةِ على طولِ الشواطئِ الرَّمليةِ حقاً عريقاً من حقوقِ سُكانِ قُرَى الصيدِ. لكنّ المَلِكَ فالديمار كان قد حَرَّمَ منذ ذلك الوقتِ، أنْ يتعاطَى أيِّ شخصٍ، ذلك النشاط، باستثناءِ رُهبانِ فيسكول. وبهذا القرارِ ضَرَب عُصفورين بحَجرٍ واحد. فَجَمْعُ الحُطامِ ليس عَمَلاً خالياً من المخاطرِ، لأنّ مَنْ يعتقدُ أنه قد وَجد لُقيةً قد يُفاجَأُ بشخصٍ آخر وقد لَحِقَ به ليُطالبَه باقتسامِ تلك اللُّقْيَة. وقد يَحْدُثُ أنْ يَقْتَتِلَ المزارعون والصيادون بِسببِ غَنيمةٍ من الغنائم، وبذلك تُبَدَّدُ وتضيعُ الثرواتُ التي تُلْقِي بها الآلهةُ.

والآن وقد صار جمعُ تلك البقايا مَزِيةً مقصورةً على الرهبانِ، وبالأحرى

مزيةٌ يَكْفلُها خَتْمُ المَلِكِ، فلا ريب أنّ الأمورَ سوف تسيرُ سيراً حَسَناً. وعلى مَنْ كان الصيدُ نشاطَهم أنْ يُقْصِرُوا هذا النشاطَ على الصيدِ وحدهُ من أجلِ خَيْرِ الجميع. فالرّهبانُ أَدْرَى مِن غيرِهم بما تجودُ عليهم تلك البقايا من فائدة، ولذلك يَسْعَوْن لاستعمالِها على خَيْرِ وَجْهٍ. فمِنْ الحصافةِ أن يُنْقِذَ الرهبانُ تلك الخيراتِ، ويُصَلِّحُوها، ثم يَبِيعُوها إلى أشخاصٍ آخرين أَضْعَف عَقْلا، بدلاً منْ أنْ يَتْرُكَ جَهَلَةٌ أشياءَ مفيدةً تتقوَّضُ على يدِ اللّصوص.

لكنْ على الساحلِ رأى البعضُ أنّ ليس من العدلِ أن يتنازلوا عنْ عادةٍ عريقةٍ عَرَاقةَ الدّهرِ.

البعضُ قالوا إنّ الرّهبانَ ينهالون على البقايا مثل سحابةٍ من الجرادِ، فلا يتركون منها شيئاً لِلْعَيْنِ. وفي تلك الادعاءاتِ ما هو صحيحٌ حقاً، لكنْ فيها أيضاً ما هو من وَحْيِ الغيرةِ والحَسَدِ. لم يَجِدْ رُهبانُ فيسكول ما يدعو للعجلةِ في أعمالِهم، إلا في حالِ قرّرتْ نزواتُ الطقسِ غير ذلك. كانوا يعملون بِبُطءٍ، وبمنهجيةٍ، وفي ضوءِ النهارِ، وكانوا، على خِلافِ سُكانِ الساحلِ، يستفيدون من كلِّ شيءٍ يَعْثُرُون عليه، فيما كان الآخرون يَكْتَفُون بما يبدُو لهم ثميناً ولا يجدون عناءً في نَقْلِه. كان الرهبانُ يَجْلِبُون كلَّ شيء إلى فيتا شولا: الألواحُ المكسورة يستعملونها في إعْدَادِ النار، والحوافُّ والدِّعاماتُ يستعملونها في بناءِ قواربهم الخاصة، والصوف يغزلونها في وُرَشِ النسيجِ، والبذورُ التي تنتهِي إلى الحقول، والحبوبُ التي تذهبُ إلى الأسواق، والجلود التي تُحْمَلُ إلى المدابِغِ، وسبائكُ الحديد التي تُؤخَذُ إلى المِصْهَرِ، وعُدَّةُ المراكب التي تُرْفَعُ إلى الوُرش، والحُلِيُّ والأشياء الثمينة التي تسافرُ إلى روما. وفضلا عن ذلك كانوا يفعلون شيئاً لم يكنْ جامِعُو وناهِبُو تلك البقايا ينشغلون بها أبداً: كانوا يَمْنَحُونَ قَبْراً مسيحيّاً لكلّ الأموات.

كانت الحملةُ كهذه تستغرقُ عشرةَ أيام كاملة أحياناً. وكانت معظَمُ الأشياءِ تُنْقَلُ فوق عَرَباتٍ ثقيلةٍ تَجُرُّها الثيرانُ، وكان وَزْنُ الحمولةِ الواحدةِ يجعلُ مسارَ العَوْدَةَ إلى فيسكول أطولَ مَرَّتَيْنِ منْ مسارِ الذهابِ منها.

كان الأخُ جيلبرتْ يُرافِقُ هذه العرباتِ دائماً، ليس لأنَّ قوّتَه الهائلةُ قُوَّةٌ مفيدة في غالب الأحيان، لكنْ لأنه مع آرن، يصيران قادِرَيْنِ على قَطْعِ مسافاتٍ طويلةٍ على الساحل في وقتٍ وَجيزٍ. فلا تكادُ حُمولاتُ فيسكول تصلُ إلى الشواطئ، حتى يُشْرَعَ في إقامةِ مُعَسْكرٍ، ثم يذهبُ آرن والأخُ جيلبرتْ، كلٌّ من ناحيتِه، لجمْعِ المعلومات. وكان الأخ غوي، البروتوني، يُرافِقُهما دائماً. فلا أحدَ في فيتا شولا كان يعرفُ كما يعرفُ هو، البحرَ ومخاطِرَه، وهيجاناته، وثرواته. وكان الإخوةُ يشاركون في هذه الحَمْلَةِ بالتناوب، على نحو ما أعدَّهُ لهم الأبُ هنري. وكان كلُّ الإخوة تقريباً يحرصون على المشاركةِ في تلك الحملة: كانت المهمةُ جديدةً، والبحرُ يسرُّ الناظرين، وكان من المُبْهِرِ أَنْ يَرَوْا ما أخذَه الربُّ مِنْ البَحّارةِ بِيَدٍ ليُسَلِّمَهُ باليدِ الأخرى لأَكْثَرِ خُدّامِه وفاءً وطاعة.

كان آرن شاكراً مُقِرّاً بالفضلِ مَرَّتَيْن. كان يُطلق خمسين بما يعنُّ له من سُرعةٍ على طولِ الضفافِ المتراميةِ الأطرافِ، وبالضبطِ فوق الصخورِ التي تتحطَّمُ عليها الأمواجُ، حيث الرملُ صلبٌ وكثيفٌ. وحيث ينطلقُ خمسين في خطٍّ مستقيم، يجعلُ الفارسَ يشعرُ وكأنه يتقدّم في حُلْمٍ. لكنْ في الوقت نفسِه كان الأمرُ مُهمةً نافعةً لإخوتِه، مثلما كان النشيدُ نافعاً فيما مضى، عندما كان قادِراً على الإنشاد.

ذات يومٍ، وخلال عامِهِ الثاني كَكَشّافٍ حَدَثَ أمرٌ غريب. فليس بعيداً عن الشاطِئِ في غابةِ الصنوبرِ المتناثرة تعرّضتْ عربةُ فيتا شولا وهي في طريقِ العودة، لهجومٍ على يدِ قُطّاعِ طرقٍ سُكَارَى. لم يكونوا قُطّاعَ طُرق كباراً بل نَهّابُو حُطَامِ السُّفُنِ الغارقةِ، ساخطون محبطون، أفرطوا في شُرْبِ الجعةِ في قرية قريبة، وقد وضعوا أيديَهُم على قُلوبِهم من خوفِهم على نفوسِهم عندما رأوا أولئك الرهبانَ وهم يسرقون ما هو حقٌّ لرجال البحر. لكنهم كانوا يحملون رِماحاً وسُيوفاً، وكان أحدُهم وهو يركبُ حِصاناً بطيئاً يُلَوِّحُ مُهدِّداً بِفَأْسِ حربٍ قديمة.

توقفتْ عرباتُ البلوط المثقلة، ذات العجلات الحديدية، في أزيزٍ

وصريرٍ.لم يُبْدِ الرهبانُ أيَّ إشارةٍ من إشارات الهروب، بل أطرقُوا رُؤوسَهم وشَرَعُوا يُصلّون. وأدار رجلُ الفأسِ حصانَه في رُعونةٍ نحو الأخِ جيلبرتْ الذي كان يقودُ القافلةَ مع آرن من خلفِه. وعلى الفور أخذ آرن يُقلِّدُ الأخَ جيلبرتْ، فأَسْدَلَ غِطاء ثيابِه وشرعَ يُصلّي حتى وإن لم يَعْلَمْ لِمَنْ يُصلي. وصَرَخ الرجلُ المسلحُ في الأخِ جيلبرتْ بأنْ يَبْتَعِدَ الرهبانُ عن العرباتِ، لأنّ بقايا السُّفُنِ الغارقةِ تعود شرعاً إليهم، إليهِ هو ولِرجالِه. ولم يَرُدْ عليه الأخُ جيلبرتْ لأنه كان غارقاً في صَلاتِه. فازداد الرجلُ لذلك شراسةً، وأضاف بألفاظٍ فظةٍ أنّ هذه الصلواتِ لنْ تُجدِي نفعاً. وصارت العرباتُ على وَشَكِ أنْ تُفْرَغَ من حُمُولَتِها في الحال.

هنا أجاب الأخُ جيلبرتْ في هُدوءٍ بأنه لم يُصَلِّ من أجلِ شيءٍ بسيطٍ بساطةَ بَقَايَا السفنِ الغارقةِ، بل من أجلِ النفوسِ التائهةِ. نفوسُ أولئك الذين كانوا على وشكِ أن يَجْلِبُوا الشقاءَ لأنفسِهم على مدى ما تبقَّى لهم من عُمْرٍ على هذه البسيطة. وظلّ الرجلُ فاغِرَ الفاهِ. ثم وبعد أنْ ضاعَفَ غضبَه تقدَّم بحصانِه وتَهَيّأَ لتسديدِ ضَرْبَةِ فأسٍ هائلةٍ إلى الأخِ جيلبرتْ.

كان آرن يمتطِي ظَهْرِ خمسين، على مسافةِ بِضْعِ أمتارٍ من خَلْفِه. وقد عَرَفَ بالسَّلِيقَةِ ذاك الذي كان الأخُ جيلبرتْ سيُقْدِمُ عليه من فِعْلٍ. فعندما رَفَعَ الناهِبُ المُثَمَلُ فأسَهُ بِكِلْتا يَديه وسَدَّدَ – كانت الضربةُ قاتلةً لو فَعَلَ – قام الأخُ جيلبرتْ بِحَرَكتَيْنِ دقيقتين من الفَخِذِ لا تكادُ تُحَسُّ، فخَطَى نَصِيرُ خُطوةً إلى الجانبِ، ثم خطوةً إلى الخلف. فضَرَبَ الرجلُ ضربتَهُ في الفَراغِ، فَأَسْقَطَتْهُ حركَتُهُ هذه من على السَّرْجِ، فوجدَ نفسَه مُلْقًى أرضاً على ظَهْرِهِ.

لو كان هذا تمريناً ما بين آرن والأخِ جيلبرتْ، ولو كان آرن وَجَدَ نفسَه على الأرضِ، لكان الأخُ جيلبرتْ سَحَقَ يَدَهُ على الفورِ، ولأخذَ سَيْفَه، ولَكان عَنَّفَهُ تَعْنيفاً كثيراً.

هنا بَقِيَ الأخُ جيلبرتْ على ظَهْرِ نصير، وهو يمسكُ بالزِّمامِ في لِينٍ بين خَناصِرِ يديه.

وقفَ اللصُّ المذلُولُ من غير عناءٍ، ورفَع فأسَه وهاجَم من جديدٍ، على رِجْلَيْهِ هذه المرّة. وكانت النتيجةُ هيَ هيَ تماماً. ولم يجدْ خصماه بُدّاً من الضّحِكِ عليه، فزادَه ذلك غضباً وسُخْطاً.

وعندما أمسك فأسَهُ للمرّةِ الثالثة رفَع الأخُ جيلبرتْ كفّهُ في هُدوءٍ، وشرَحَ أنْ لا أحدَ يعترِضُ على السّرقةِ، إنْ كانت السرقةُ حقاً هي الغايةُ من ذلك الهجوم. لكنه أصرَّ على أنْ يَرْدَعَهُ.

«لكَ هذا الخيار، قال في هُدوءٍ، وهو يمنحُ نصير حُريَّةَ الحركة، حتى يُبيّنَ أنَّ أيَّ هجومٍ جديدٍ سوف يكون بلا فائدة: فإمّا أنْ تأخذَ ما نَوَيْتَ أَخْذَهُ، فنحن لا نستطيعُ ولا نرغبُ في مَنْعِكَ عن ذلك بالقوة. لكنْ عليكم أنْ تعرفُوا في هذه الحالةِ أنكم ستُصبحُون أشراراً، ومُتَّهَمِينَ بارتكابِ خطيئةٍ يُعاقِبُ عليها القانون بأشدِّ العقاب. وإمّا أنْ تَتُوبُوا وتعودُوا إلى بُيوتِكُم. وفي هذه الحالةِ سوف نَغْفِرُ لكُم خطيئتَكُم ونُصلّي من أجلِكم».

لكنَّ المُهاجِمَ لم يُصْغِ إليه بهذه الأذن. فردَّدَ مثلَ الأحمقِ أنّ بقايا السفنِ الغارقةِ مِلْكٌ لسُكانِ الساحل منذ الأزلِ. وأشْهَرَ المتواطِئُون معه سُيوفَهم وفُؤوسَهم. وفجأة قَذَفَ أحدُهم بِرُمْحِهِ صَوْبَ الأخِ جيلبرتْ راساً.

كان رُمْحاً ثقيلاً وقديماً، في حَدِّهِ حدٌّ واسعٌ. ووَسِعَ آرن من الوقتِ حتى يَتَنَبَّأَ بذلك الذي بات حُدُوثُه وشيكاً. فَمَالَ الأخُ جيلبرتْ إلى إحدى الجهاتِ قليلا، وأمسكَ بالرُّمحِ في الهواءِ وأدارَهُ نحو اللصوصِ الذين ظنُّوا لحظةً أنه سَيُهاجِمُهم. بل وقد وَسِعَ آرن أنْ يقرأَ الخوفَ في عُيونِهم. لكنّ الأخَ جيلبرتْ ما لبث أنْ خَفَضَ الرُّمْحَ نحو رُكْبَتِهِ، وكَسَرَهُ وكأنَّ الأمرَ مجردُ غُصَيْنٍ، وتخلّصَ من الشظايا في ازدراء.

«نحن خُدَّامُ الربِّ، فلا نستطيعُ أنْ نُحاربَ وأنتم تعرفون هذا جيداً! قال صائحاً. لكنْ إذا كنتم تُصرُّونَ حقاً على شقائنَا فاسْرِقُوا ما طابَ لكُم أنْ تسرِقُوا. فلا حيلةَ لنا على مَنْعِكُمْ من ارتكابِ هذا الجنون».

تَقَهْقَرَ الرجلُ صاحبُ الفأسِ نحو المتواطِئين معه. وصار النّقاشُ حاداً. وجَمَعَ الأخُ جيلبرتْ من حولِه إخوتَه وآرن وقال لهم إنْ تفاقَمَ الوضعُ فعلَى

كلِّ واحدٍ منهم أنْ يُطْلِقَ ساقَيْهِ للريح. فليس باليدِ حيلةٌ غير الفرار. وتلقّى آرن الأمْرَ بأنْ يظلَّ بعيداً عن اللصوص، وفي حال نُشوبِ أيِّ عُنْفٍ أنْ يَرْكُضَ إلى الدير ويروِي ما شَهِدَهُ من أحداثٍ.

بدا اللصوصُ مُصِرِّينَ على أَخْذِ ما رَغِبوا فيه من الحُمولَةِ الثقيلة. لكنَّ مشكلةً ما لبثتْ أنْ واجَهَتْهُم. فلنْ ينجَحُوا في قَتْلِ كلِّ الشُّهودِ، كما كان يُقْتَلُ في الماضي البحارةُ المغلوبُ على أمرِهم الذين كانوا إذا أدركُوا الشاطئَ ظنُّوا أنهم باتُوا في مأمنٍ، ليَكْتَشِفُوا أنَّ سارِقِي بقايا السفُنِ الغارقةِ في انتظارهم. لكنّهم لم يُفْلِحُوا هذه المرَّةِ في التخلص من الرَّاهِبَيْنِ الفارِسَيْن. فقرّروا أنْ يُنَفِّذُوا عَمَلَهُم وهم يأمُلُونَ أنه ما دام لم يُقْتَلْ منهم أحدٌ فإنّ الانتقامَ المَلَكِيَّ لنْ يطولهم. ثم إنهم لم يُجَرِّدُوا الرّهبانَ إلا من جُزءٍ ضَئيلٍ من حُمولتِهم.

استولَى اللصوصُ على ذلك الذي بدا لهم ذا قيمةٍ، وعلى ما وَسِعَهُمْ حَمْلُه، فيما وَقَفَ الراهبان على بُعْدِ مسافةٍ، يَدْعُوان لهذه النفوسِ الضَّالَة. ولم يكدْ اللصوصُ يَنْتَهُون من جَريمتِهم حتى ابتعدُوا وهُم يَصْرُخون. وحَمَلَ الراهبانِ الحُمولةَ وأقفلا راجِعَيْنِ إلى فيتا شولا.

وبعد أن عادا إلى الديرِ وَجَّهَ الأبُ هنري رسالةً إلى المَلِكِ فلديمار الذي كان قد فَقَدَ امتيازَه. وبعد مرورِ بعض الوقت أُوفِدَ بجنودٍ لإيقافِ المُجرمِينَ. وجرى التوقيفُ في يُسْرٍ. وعاد الجنودُ بمعظمِ المُمتلكات التي سُرِقَتْ في فيتا شولا. وتمَّ شَنْقُ اللصوص كافة.

كان وَقْعُ الحدثِ قوياً على نَفْسِ آرن، وَحَثَّ في رُوحِه تأمُّلا طويلا. لقد أحسَّ بالإشفاقِ على أولئك اللصوصِ الذين استبدَّ بهم الشُّحُّ، تلك الخَطيئَةُ الكبرى التي أدّتْ إلى ضَياعِهم، وكانت سَبَباً في ما سيلْقَوْنَهُ من هُمومٍ أبَدِيَّةٍ في الجحيم. وفَهِمَ أنهم أحسُّوا الإجحافَ في حُقوقِهم لأنَّ نَهْبَ بقايا السّفنِ الغارقةِ حقٌّ منْ حقوقِهم الأزلية. وكان يؤلِمُهم بالتأكيد أنْ يَقْبَلُوا بأنْ يقدِمَ رُهبانٌ على نَزْعِ مَصْدَرِ قُوتِهم. وفضلا عن ذلك فقد كانوا ثُمَالَى. فحتى وإنْ كان آرن لا يعرفُ عن السُّكْرِ سوى القليل – بعضُ الإخوةِ كانوا يُفرطون

أحياناً في الشُّربِ ويُثْبِتُونَ بذلك أنّ الخَمْرَ تُفْقِدُهُمْ صوابَهم، فيكون جزاؤُهم عقاباً قوامُه الخبزُ الحافي والماء- فقد ظنّ أنه فَهِمَ أنّ الذي يتصرّفُ تحت تأثيرِ الشرابِ لا يُقَدِّرُ حقاً عاقِبَةَ تصرُّفاتِه حقّ قَدْرِها.

لَكَمْ شقَّ على آرن أنْ يفهمَ السببَ الذي جَعَلَ الأخَ جيلبرتْ يتصرَّفُ على ذلك النحو. فعلى أيِّ حالٍ لم يكنْ اللصوصُ سوى صيّادينَ يجهلون كلَّ شيءٍ عن الأسلحةِ التي كانوا يحملونَها في أيديهم. كان حَرِياً بالأخِ جيلبرتْ أنْ يُجَرِّدَهُمْ من أسلحتِهم من دون عناءٍ، ويُرْغِمُهم على الفرار. وبهذا لما كانوا ارتَكَبُوا سَرِقَةً، ولما اضطرَّ جنودُ المَلِكِ لِمُطارِدَتِهم، ولَمَا شُنِقُوا في النهاية. أليس جديراً بِحُبِّ الإنسانِ لأخيه الإنسانِ، إنْ كان هذا الحبُّ حُباً حقيقياً، أنْ يذهبَ به إلى حدِّ مُحاولةِ إقناعِ هذا الإنسانِ بالتخلِّي عن حماقَتِهِ، ما وَسِعَهُ ذلك؟

تردَّدَ آرن في مُناقشةِ هذه المسألةِ مع الأخِ جيلبرتْ. فما دام هذا الأخيرُ، قد تصرَّفَ على ذلك النحوِ فلا بد أنه كان على يقينٍ بِما فَعَلَهُ.

لكنّ آرن تناول المسألةَ مع الأبِ هنري مُعْتَرِفاً له بأنه ما يزال يُصلّي لِرُوحِ اللّصُوصِ الذين لقوا حَتْفَهُم شَنْقاً.

ولم يجدْ الأبُ هنري أيَّ اعتراضٍ على أنْ يُصلّي آرن منْ أجْلِ أرواحِ أولئك المساكين. ففي ذلك ما يبيّنُ أنّ الولدَ قد تشبّعَ كثيراً بنموذجِ حياةِ اليسوعِ. وذلك في رأيِهِ لَشَيْءٌ طيِّبٌ إذاً.

في المقابلِ كان من دواعِي الخوفِ أنْ لا يَفْهَمَ آرن السببَ الذي جعَلَ الأخَ جيلبرتْ يُحْجِمُ عن استعمالِ العُنْفِ. إنّ الأخَ الذي يَقْتُلُ رجلاً سوف يضيعُ حتماً. فـ«لا تَقْتُلْ قط» كان أَمْراً لا اعتراضَ عليه.

وقال آرن أنّ الكتاباتِ المقدّسةَ تحتوي على العديدِ من التّرتيباتِ المُخالفَةِ للعقل. فهكذا فشِلَ الأخ غوي البروتوني، حتى تلك اللحظة، في أنْ يُقْنِعَ الدنمركيين بأكْلِ بَلَحِ البَحْر. ففي فجورد سرعان من نَمَتْ زراعةُ بَلَحِ البحرِ منذ قُدومِ الأخ غوي إلى فيتا شولا. لكنْ حتى تلك اللحظةِ لم تَحِقْ ولائمُ بَلَحِ البحرِ بشتّى ألوانِها إلا للأخوة وحدهم. لأنَّ دنمركيي ليمفجورد كانوا

يقولون حسب «دوتيرونوم ١٤،٨» فإنّ كل ما ليس له حَرَاشفُ وزعانفُ لا تأكُلوه فهو غيرُ صِحِيٍّ لكُم.»

«دوتيرونوم١٤،١٠ قال الأبُ هنري مُصَحِّحاً. أما ١٤،٨ فهو ينصُّ على تحريمِ أكْلِ الأرنبِ البريِّ والخنزير.» وفي ذلك ما يُوضِّحُ المشكلةَ نفسَها، أو على الأقلِّ الوَجْهَ الآخرَ لتلك المشكلة، مادام الدنمركيون لا يَرَوْنَ أيَّ اعتراضٍ على أكْلِ الخنزيرِ والأرنبِ البَرّي. كان على آرن أنْ يعرِفَ حقاً أنّ ثمةَ فارِقاً كبيراً ما بين مُحَرَّماتٍ صغيرةٍ عديدة والمحرَّماتِ الحقيقية. فلو بَحَثْنَا عن مُحرّمات صغيرةٍ في الكِتابات المقدسة لاكتشفنا بينها مُحرّماتٍ كثيرةً تافِهةً كثيراً- لا يجوزُ أنْ نَقُصَّ شَعْرَنا بطريقةٍ مُعَيَّنَةٍ عندما نَبْكِي مَيِّتاً- ومُحرّمات أخرى مُبَالَغٌ فيها، أو محرمات مِنْ ما قَبْلَ المسيحيَّة، كواجِبِ قَتْلِ مَنْ يَعْتَرِضُ على أمْرِ أبيه أو أُمِّه.

لكنْ مرّة أخرى كان المهمُّ أنْ نتعلَّمَ كيف نَفْهَمُ الكتابات المقدَّسة. وهنا كانت القاعدةُ أنْ نَقْتَدِي باليسوع. فَمِنْ الاقْتِدَاءِ به عَلَّمَ الأبُ هنري كيف نَفْهَمُ النصَّ. لنستخلصَ أنّ القتلَ جُزءٌ من الأشياءِ الأكْثَرِ تحريماً.

لكنّ آرن لم يستسلمْ. وباستعمالِه المنطقَ الذي ما انفكّ الأبُ هنري يَزْرَعُه في دِماغِه على مدى كلِّ تلك السنواتِ، قال مؤكداً إنّ رسالةً يمكنُ أنْ تُؤَدِّيَ إلى القتلِ، كما يقتلُ السيفُ تماماً. فَبِكِتَابَتِه إلى الملكِ فالديمار حَكَمَ الأبُ هنري بالإعدامِ على أولئك اللصوصِ الذين يَتَقَرَّرُ مَصِيرُهُم منذ اللحظةِ التي يَتَلَقَّى فيها المَلِكُ الرسالةَ من فيتا شولا.

هكذا يمكنُ أنْ يُقْبِلَ المرءُ على القَتْلِ سَهْواً، من دون اللُّجوءِ إلى القوّة. فلو كان الأبُ هنري، مثلا، قَتَلَ فَرْدَيْنِ أو ثلاثةً من أولئك اللصوصِ المساكين، أَلَمْ يَكُنْ بذلك قد ارتَكَبَ خطيئةً صُغْرَى نِسْبِيّاً؟

لكنّ آرن ما لبثَ أنْ أخذته الدهشةُ، لأنّ الأبَ هنري لم يُقاطِعْه. بل أشار إليه هذا الأخيرُ بإشارةٍ من يَدِهِ حتى يَشْرَحَ بَرَاهِينَه.

إذاً، فإذا كان الأخُ جيلبرتْ قد ارتكبَ خطيئةً صغيرةً ينالُ عليها عِقاباً لِشَهْرٍ أو شهرين اثنين، ولو كان ضَرَبَ بشدَّةٍ، وأرغم الآخرين على الفرارِ

لكانت النتيجةُ طيّبة. فلَمَا كان السارِقون سارِقينَ، بلْ سُكَارَى حَمْقاء حَسْب. ولَمَا كانوا ارتكبُوا السرقةَ، ولَمَا كانت نهايتُهمُ إلى حَبْلِ المِشْنَقَة. ولَمَا أصبح أطفالُهم يتامَى، وزوجاتُهم ثَكلَى. فلو وَازَنَّا بين الحَسَنِ والسّيِّئِ في هذه المُعادلةِ لاكتشفنا أنّ الأخَ جيلبرتْ بِلُجُوئِه إلى القوةِ، من دون غَضَبٍ، قد تصرّفَ عن حُسْنِ نيّة. وفي هذه الحالةِ لم يكنْ تصرُّفُه تصرُّفاً سيّئاً. وهذا ما كان سانت برنار نفسُه يُرَدِّدُه دائماً.

وصَمَتَ آرن. لقد استبدّتْ به الدهشةُ حتى صار عاجزاً عن الاستمرار في براهينِه، وهو يَرَى الأبَ هنري غارقاً في أفكارِه، مُقَطَّبَ الجَبِينِ، كَكُلِّ مرَّةٍ لا يريدُ فيها أنْ يُزعِجَهُ أحدٌ عندما يُحاولُ أنْ يَحُلَّ مشكلة.

ظلّ آرن ينتظرُ في أناةٍ، طالما الأبُ هنري لم يَطْرُدْهُ. ومع ذلك فقد حَمْلَقَ في آرن، ثم ابْتَسَمَ في وَجْهِه ابتسامةَ تشجيعٍ، وربَتَ في لُطفٍ على يَدِه.

«يا بُنَيَّ، إنكَ تُثيرُ دهشَتي وأنت تُظهِرُ هذه الفِطْنَةَ في مجالٍ ليس مِنْ تَفَوُّقِك وامتيازِك. لقد لَمَسْتَ مَسْألتَيْن، حتى وإنْ كانتا مُرْتَبِطَتيْن. يقينُك بأنّ خطيئةً صُغرى من الأخِ جيلبرتْ كانت خليقةً بأنْ تَحُولَ دون وقُوعِ ما هو أَدْهَى وأمرّ لَيَقِينٌ صائبٌ حقاً، من الناحية الشكلية. لكنه يقينٌ خاطئٌ. إنّ استدلالَك قابِلٌ لأنْ يكون صالِحاً بشرطٍ واحدٍ وَحيد: كان على الأخَ جيلبرتْ، في اللحظةِ التي كان يملكُ فيها الخِيارَ بين اللجوءِ إلى القوّةِ – وهي أسوأ خطيئةٍ لو ارتكبَها – وبين التصرُّف على نحو ما تصرَّفَ بالفعلِ، أنْ يعرِفَ أيضاً أيَّ عاقبةٍ سيلْقَاها ذاك التصرُّفُ. وبعيداً عن أيِّ سُوءِ معامَلَةٍ منّي إليك، عليَّ أنْ أوضِّحَ مع ذلك أنّ مَنْطِقَ استدلالِكَ، حتى وإنْ ثَمَّنَهُ أرسطو، يفترِضُ أنّ الأخَ جيلبرتْ لم يعدْ هُوَ نفسهُ حقاً – نَفْسٌ خَطّاءَةٌ وذائقةٌ الموتَ– بل صار رَبّاً. الربُّ الذي يرى الحقيقةَ والغَيْبَ. لكنّ هذا مثالٌ بَنّاءٌ، لأنه يُرِينا بوضوحٍ وجَلاءٍ مَدَى رُعُونَتِنَا، نحن البشرُ، عندما نسعَى للتصرّفِ باتباعِ أَحْسَنِ النّوايا الممكنة. أجلْ، إنه مِثالٌ يَبْعَثُ على التَّقْوَى، أيما تَقْوَى!

«الكائنُ البشري خطَّاءٌ وذائِقٌ الموتَ، – لكنَّ الربَّ... إنّ الربَّ

يَرَى الحقيقةَ والغيْبَ. لكنْ هذا مثالٌ بَنَّاءٌ، مادام يُرِينا بوضوحٍ مُتَنَاهٍ مَدَى اتساعِ رُعونَتِنا، نحن البشر، عندما نسعَى في تصرُّفاتِنا لاتّباعِ أَحْسَنِ النَّوايا الممكنة. أجَلْ، إنه مثالٌ يبعثُ على التقوى.

«لا يبعثُ على التَّقوَى إطلاقاً، في حالِ الأشخاصِ المساكين الذين يَنْزَلِقُون نحو الخطايا، ويُشْنَقُون ويَغْرَقُون بعد ذلك في دَوَّاماتِ الجحيم الأبدية، أجاب آرن الذي ما لبث أنْ عُوقِبَ بعشرةِ «باتر نوستر» بسببِ تلك الوَقاحَة.

وفيما كان آرن يتلُو صلواتِه، وهي الوَقْفَةُ التي لجأ إليها الأبُ هنري حتى يتأمّلَ قليلا، اكتشفَ هذا الأخيرُ في هَلَعٍ بأنه لم يَعُدْ على يَقينٍ من حُجّتِه المضادة.

ألم يكن مُبالِغاً حينما أكَّدَ أنّ الأخَ جيلبرتْ يجبُ أنْ يكون رَبّاً حتى يَتَنَبّأَ بأنّ التأنّي في استعمالِ القُوّةِ من دونِ غَضبٍ، كان سَيُحْدِثُ من الخيرِ أكثرَ ممّا كان سيُسَبِّبُه منْ التَهْدِئَةِ التي يأمرُ بها اليسوعُ في العادة؟

ألم يكنْ بالأحرى خليقاً بالأخِ جيلبرتْ أنْ يُحْجِمَ عن كلِّ شَكْلٍ من أشكالِ العنف، أيّاً كانت الظروفُ، احتراماً للعُقوبة التي أُنْزِلَتْ به مُقابلَ الخَطايا التي ارتكبَها في أثناء الحرب المقدَّسة؟ ولم يَفُتْ الأخ جيلبرتْ أنْ يقتُلَ الكثيرَ من الناسِ عندما كان يدافع عن ممتلكاتِ الكنيسة. فهل اكتفَى الأخُ جيلبرتْ عندئذ بلا تبصُّرٍ للعِقاب الذي أُنْزِلَ به؟

في هذه الحالةِ كان ضميرُ الأخِ جيلبرتْ صافياً رائقاً، ولا تشوبه أيُّ شائبَة، راضِياً عن الطريقةِ التي تصرّف بها. لكنّ آرن الصّغيرَ أَثْبَتَ لأوّل مرّةٍ، وبصورةٍ أفضل، إيماناً حقيقياً.

في انتظارِ ذلك، من الأسْهَلِ أنْ يأتي التَّطَرُّقُ إلى المسألةِ الكبرى التي طرحَها آرن. وسيعودُ الأبُ هنري إلى البَقِيَّةِ فيما بعدُ، عندما يتسنّى له من الوقتِ ما يكفيه لِمَزِيدٍ من التأمُّل.

«لِنَعُدْ إذاً إلى المسألةِ التي عَرَضْتَ لها، قال الأبُ هنري في نعومةٍ مُتَنَاهِيَة عندما انتهَى آرن من قراءةِ نصوصِ «باتر نوستر» العشرة. والحالُ

أنّ سانت برنار يؤكدُ أنّ ما نَفْعَلَهُ عن حُسْنِ نِيَّةٍ لا يمكن أنْ يقودَنا إلى الشرّ.

ففي أيِّ حالةٍ يَكْتَسِي اليقينُ أكبرَ قَدْرٍ من الأهميةِ الفعلية؟

« في حالةِ الصليبيّةِ، بطبيعة الحال.

«بالضبط! بيد أنّ الصليبيَّةَ تتمثَّلُ أساساً في قتْلِ عَرَبِ الشرق، أليس كذلك؟ وحَظْرُ القَتْلِ لا مقامَ له في هذا الظَّرفِ؟ وفي هذه الحالة لماذا؟

«لأنّ هذا يحدثُ بمباركةٍ من الأبِ المقدّسِ، أجاب آرن في حَذَرٍ.

« نعم، لكنْ هذا تفكيرٌ دائري، لقد طلبتُ منك أنْ تُجيبَ عن السؤال.

«لأنه علينا أنْ نُقِرّ بأنّ الخَيْرَ الذي عَمِلْنَاهُ من أجلِ حِمايةِ سان سيبولك، في سبيلِ المؤمنين أفضلُ بكثيرٍ من الشرِّ الذي يرتكب في قَتْلِ عَرَبِ الشرق.

« نعم، أنت على الطريقِ الصحيح، قال الأبُ هنري. لكنْ حتى حينما طَرَدَ اليسوعُ التُّجارَ من المعبدِ فَلَمْ يُفكّرْ في قَتْلِهِمْ أبداً ، أليس كذلك؟

«نعم، لكنه ومن خلال غَضَبِ أبيه الربّ، الذي يختلفُ تماماً عن غَضَبِنا نحن البشر، استعملَ القوّةَ الضرورية. لقد طرد حقاً التجارَ خارجَ المعبد. لم يكن في حاجةٍ لقَتْلِهِمْ. وكان الأخُ جيلبرتْ على عِلْمٍ بكلِّ ذلك.

«هيّا، لِنَعُدْ إلى السؤال!» قاطَع الأبُ هنري آرن فجأة. لكنه راح منْ وراءِ هَيْئَتِه الغاضبة يبتسِمُ وهو يُفكّر أنّ آرن قد وَجَدَ فجأة ذريعةً مُفْحِمَة لِصالح موقِفِه. ولو كان الأخُ جيلبرتْ لجأ إلى القوّةِ المُتَأَنِّيَة لَتصرّفَ تماماً مِثْلَ اليسوع في المعبد.

«هل أدار اليسوعُ ظهرَهُ للجنود يوماً؟ هل حَكَمَ عليهم بالموتِ لأنهم كانوا جنوداً؟ تابع الأبُ هنري بصوتٍ غاية في النعومة.

«لا، لا أعتقدُ ذلك حسب ظني... فالأمرُ مثل قطعةِ النقدِ....» أعطِ ما لقيصر لقيصر وما للرب للرب.». وبالطبع نجدُ الشيء نفسه تقريباً في الإنجيل، حسب سانت لوك ٣,١٤: هكذا كان الجنودُ يسألونه: «ونحن ما الذي يجب علينا فعلُه؟» فيقول لهم: «لا تقترِفُوا عُنْفاً ولا خَطأً في حقِّ أيِّ أحدٍ، واكتفُوا بما تكسبون.» فإذا كان الجنودُ يتصرّفون بشرفٍ عندما لا

يكونون جنوداً...فليس من حرجٍ إذاً أنْ يصبحوا جنوداً؟

«بالضبط! وماذا يفعلُ الجنود؟

«إنهم يقتلون الناسَ. مثل الجنود الذين جاؤوا بعد الرسالةِ التي أَرْسَلْتُمُوهَا إلى الملِكِ، يا أبي. لكنْ هلْ لجنودِ ومُلوكِ عالَمِ الدنيا، بِنَا، شأنٌ من الشؤون؟

« سؤالُك مُهِمٌّ للغاية، يا بُنيّ. لأنكَ ببساطةٍ تطلبُ الأمرَ التالي: هل ثمةَ أوضاعٌ يمكنُ فيها لأشخاصٍ مثلي ومثلِكَ أن يقتُلوا؟ أرى أنكَ تتردّدُ، وقبل أنْ تقولَ حماقةً قد تَنْدَمُ عليها من غيرِ داعٍ، سأجيبُ عن السؤالِ نيابةً عنك. هناك استثناءٌ بالفعل. إن اليسوع في رحمتِه الواسعة، يقولُ بالطبع إنه لا يحقُّ لنا أن نَقْتُلَ أطفالا آخرينَ من أطفالِ الربِّ، سواء كانوا جنوداً رُومانِيّينَ، أو دنمركيين، كما هو الأمرُ في حالِنا. لكنّ شعباً بعينِه ليس مَشْمُولا في مَحْظورِ الربِّ، وأظنُّ أنكَ أدركتَ أيَّ شَعْبٍ أَقْصِد؟

«عَرَبُ الشرق!

« بالضبط! لأنّ عربَ الشرقِ هم أَبْشَعُ الأجناسِ التي وَضَعها إبليسُ فوق الأرض. ليسوا رجالاً بلْ شياطينَ في هَيئةِ بَشَرٍ. فهم لا يتردّدون في خَوْزَقَةِ أطفالٍ مسيحيّين فوق رِماحِهم، ثم شَوْيِهِمْ كي يملؤوا بُطُونهم بعد ذلك. فهم مَعْرُوفُون بتقاليدهم الفاسِقةِ، وبسُكْرِهِمْ التي لا تَعْرِفُ حدوداً، وبمُمارسَتِهِمْ الدائمة للِّواطِ والمُتاجرَة بالحيوانات. فهم حُثالةُ الأرضِ، وكلُّ عربيٍّ من الشرقِ يُقْتَلُ فهو مَشْهَدٌ يُغْبِطُ الربَّ، ومَنْ يَقْتُلُ عَرَبَ الشرقِ يُقَدِّمُ عَمَلا مُقدّساً وكان ثوابُه الفردوس!»

صار الأبُ هنري يزدادُ حَمِيَّةً كلّما وَصَفَ جَهْلَ عَرَبِ الشرق. وكانت عَيْنَا آرن تُحَمْلِقَان فيه. كانت هذه الكلماتُ تفوقُ إدراكَه، فقد صَعُبَ عليه أنْ يتصوَّرَ مشهدَ أولئك المُقَزِّزِينَ وهم يَشْوُونَ أطفالا مسيحيين، كما لم يَسَعْهُ أنْ يَفْهَمَ كيف يمكنُ لهؤلاء الشياطين أنْ تكون لَهُمْ وجوهٌ كَوُجُوهِ البَشَر.

لكنه لم يجدْ أيَّ عناءٍ في فَهْمِ أنَّ قتْلَ كائناتٍ بهذا القدر من الشرِّ عملٌ ينمُّ عن وَرَعٍ، وقد خَلُصَ أيضاً إلى أنّ ثمة فارقاً لا حدَّ له بين هذه

الزُّمْرةِ من الدنمركيين الذين صاروا عصاباتٍ على حين غرّة، وبين عربِ الشرق. ففي حالةِ «لنْ تَقْتُلَ قط» لم يكنْ ثمةَ استثناءٌ. وفي الحالَةِ الأخرى كان العكس.

لكنّ هذه الخلاصةَ الواضحةَ جداً لم يَكُنْ لها أيُّ بُعْدٍ عمليٍّ، هنا في الشمال.

* * *

في خلالِ الأعوامِ التي لم يتسنَّ فيها لآرن أنْ يَعْمَلَ بالغناءِ، تغيّرَ وتغيّرتْ مهمّاته أيضاً. من قبلُ كان يَمضي ساعاتٍ كثيرةً كلَّ يومٍ مع الأخِ لودويغ والإخوةِ المُنْشِدِين. وصار بعد ذلك يَقْضِي ذلك الوقتَ مع الأخِ غوي، على الشاطئ. وقد علّمه الأخُ غوي كيف يصنعُ الشباكَ، وكيف يصيدُ ويديرُ القوارب. ومن قَبِيلِ الحيطةِ سَهِرَ الأخُ غوي على تعليمِه الغوصَ والسباحة.

ومع الأخِ جيلبرتْ كان عامِلاً وتلميذاً معاً. لقد أوكلَتْ إليه في المصهرِ أعمالٌ ما انفكت تَثْقُلُ وتَثْقُلُ، وما فتئتْ تَفْتُلُ عضلاتِه كلّما ازدادَ عُمْراً. لقد صار يُتْقِنُ مُعظمَ الأعمالِ الجارية، حتى صار قادراً على إنتاجِ مصنوعاتٍ أَتْقَنَ جَوْدَتَها حتى صارت جاهزةً للبيع. لكنْ ظلتْ صناعةُ السيوفِ هي الحقلُ الوحيدُ الذي لم يصلْ فيه إلى ما وصلَ الأخُ جيلبرتْ من إتقانٍ لذلك الفنّ.

خديجةُ وعائشة، الفَرَسان الصغيرتان، أنجبتْ كلٌّ منهما ثلاثةَ مُهُورٍ، وقد أصبح خمسين خيلاً فَحْلاً لا يقلُّ قوةً عن نَصِير. كان آرن مسؤولاً عن العنايةِ المقدَّمَةِ لخيول ما وراء البحر، وعن تدريبِ المُهُور والسَّهَرِ على أنْ يظلَّ نَصير وخمسين داخل سياجِهما. إذْ كان ينبغي أنْ لا يَسْفَدَ نَصير وخمسين الفَرَسَيْنِ الشّمالِيَّتَيْنِ، ما دام الأخُ جيلبرتْ لم يُقرِّرْ ذلك، بعد دراسات دقيقة.

توقَّعَ الأخُ جيلبرتْ أنّ خيولَ ما وراء البحر تُدرُّ أموالاً طائلة. لكنَّ

توقُّعاتِه لم تتحقّق إلا الهُوَيْنَا. كان عظماءُ رجالِ المملكةِ يأتون لشراءِ السيوفِ وإهداءِ النباتاتِ إلى زوجاتِهم. وقد كانوا ينظرون إلى تلك الخيولِ الأجنبيةِ في خَشْيةٍ. ففي أعيُنِهِمْ كانت تلك البهائمُ هزيلةً جداً وبلا مقاومةٍ. في البدايةِ لم يَحْمِلْ الأخُ جيلبرتْ تلك الملاحظاتِ على مَحْمَلِ الجِدِّ، متسائِلاً إنْ لم يكنْ أولئك يضْحَكون على ذَقْنِه. وعندما أدرك أنّ هؤلاء الهَمَجَ صادِقُونَ فيما ذهَبوا إليه إلى حدِّ التّباهي بخيولِهِم، تَرَوّعَ لِمَا رآهُ وصُعِق.

وفي الأخيرِ أتاحتْ له الظروفُ خدعةً من الخُدَعِ فأثبتتْ نَجاعتَها، لكنها ما لبثتْ أنْ جعلتْ ضميرَهُ يُؤَنِّبُه أيما تأنيبٍ. لقد جاءَه دنمركيٌّ على ظَهْرِ فَرَسٍ من الشمالِ، لَحِيمَةٍ وصَعْبَةِ المِراسِ. ومن بينِ كلِّ مزايا مطيَّتِهِ هذه ذَكَرَ سُرعتَها، مؤكداً أنّ حصانَه أسرعُ بكثيرٍ من أيِّ حصانٍ من الأحصنةِ «الهزيلةِ» والأجنبية. وهنا خطَرَتْ للأخِ جيلبرتْ فكرةٌ، فاقترحَ على الفارسِ النَّبيلِ أنْ يقوم بِسِبَاقٍ قِوامُهُ الذهابُ لغايةِ الشاطئِ والعودةِ منه إلى الديرِ. وزيادة على ذلك فإنّ أخاً شاباً واحداً من الإخوةِ سَيَمْتَطِي واحداً من الخيولِ الجديدة. فإنْ وَصَلَ السيدُ الدنمركيُّ أوّلا فَلَنْ يَدْفَعَ شيئاً مقابلَ السيفِ الذي اختاره في تلك اللحظةِ. ففي مِثْلِ هذه الوضعيةِ قد يجدُ أيُّ مُبْتَدِئٍ ما يُغْرِيهِ لأنْ يُحدّدَ مُقابِلاً لهذا الرِّهانِ – أنْ يلتزِمَ الفارسُ الدنمركي في حالِ خسارتِه، بشراءِ شيءٍ، حِصانٍ مثلا. لكنّ اللّعبَ من أجلِ المالِ خطيئةٌ كبرى. بيد أنّ هذا الرّهانَ لم يكنْ لَعِباً، ما دامت النهايةُ مؤكَّدة. أمّا التصرُّفُ وكأنّ الأمرَ ليس كذلك فهو خَطيئةٌ أيضاً. لكنّها خطيئةٌ أقلُّ خَطراً ممّا لو كانت لَعِباً من أجلِ المالِ حقاً. وقد أَلْزَمَ الأخُ جيلبرتْ نفسَه بالتّوبةِ فعاقَبَهَا في الأسبوع التالي.

تعلّم آرن إذاً ومِنْ حيثُ لم يتوقَّعْ، أنه سيقوم بالسباقِ، على ظَهْرِ خمسين، مع رَجُلٍ ثَخِينٍ كان حصانُه مزوّداً بالصّفاتِ نفسِها. ولم يَكَدْ يخرجُ من الديرِ حتى بادر آرن الأخَ جيلبرتْ بالسؤال. وقد أصابه من الذهُولِ ما جَعَلَهُ يُخاطِبُه باللاتينيَّةِ، فيما لم يكونا يتخاطبان إلا بالفرنسيَّةِ: هل كان عليه أنْ يَرْكُضَ رَكْضاً سريعاً، أم كان عليه أن يُمْسِكَ بمطيَّتِه حتى يستطيعَ

الحصانُ المسكينُ الذي يُشبه «الجنبُون» أنْ يُطيعَ أوامِرَه؟ وأَمَرَهُ الأخُ جيلبرتْ أنْ ينطلِقَ بأقصَى ما يُمْكِنُه من سُرعةٍ. وأطاع آرن، كعادته.

كان قد وَصَلَ إلى الديرِ عائداً، فيما كان الفارسُ الدنمركي ما يزال في مُنْتَصَفِ المَسِير.

هكذا اكتشفَ أحدُ الأسيادِ من رينغستيد، وهو من عُشّاقِ السباقِ والرهاناتِ، أنّ خُيولَ فيتسكول النحيلةَ يمكنُ، على الأقلِ، أنْ تُفيدَ في مزرعةٍ من المزارع. فانْتَشَرَتْ الإشاعةُ إلى أنْ بَلَغَتْ روسكيلد، وبدأتْ خيولُ فيتا شولا تجلبُ الكثيرَ من المال. لكنْ بِقَدْرٍ أقلَّ ممّا تخيّلَه الأخُ جيلبرتْ.

منذ تلك اللحظةِ صارت التمارينُ التي يقودُها الأخُ جيلبرتْ مع آرن لا تقوم على التوازنِ أو السرعةِ وحدهما، بل على نِقاطٍ أكثر دِقَّة. فكانا يَمْضِيَان نحو ساعةٍ كاملةٍ في داخلِ سياجِ فحلِ الخيلِ، ويتقاطعان وهما يُنَفِّذان مُناوراتٍ دقيقة، ويتقهقران، ويَشَبّان بحصانيهما، ويستديران، ويتقدّمان من الجانب أو بِالعَرْضِ. وكانا يُعَلِّمَانِ الخيولَ أيَّ دَفْعٍ تَعْنِيهِ هذه الهيئةُ أو تلك من الهيئاتِ، أو هذه الخُطوةُ أو تلك من الخطوات. وعندما يمرُّ كلُّ شيءٍ على خيْرِ ما يرام، يرى آرن الأمرَ مُمْتِعاً، بل يراه رتيباً أحياناً، على الأقلِّ حين تصبحُ تلك التمارينُ إجبارية. أمّا إذا جاءتْ التمارينُ حُرَّةً، كُلّما تَدَرَّبا بِسَيْفٍ من الخشبِ، أو بِرُمْحٍ من الرِّماحِ، فهي بالتأكيد أكثرُ إثارةً وحماسةً.

أضحتْ التدريباتُ مَشْياً على الأقدامِ أكثرَ فأكثرَ ثِقَلا، وبات الأمرُ مرتبطاً بالضَّربِ والاحترازِ على الخصوصِ – كان آرن يستعملُ منذ وقتٍ طويلٍ سيفاً حقيقياً من الفولاذ. لكنْ لَمّا صار الأخُ جيلبرتْ يَنْتَقِدُهُ أكثرَ ممّا يَمْتَدِحُهُ بكثير، ولمّا لم يكنْ آرن قد رأى من قبلُ سوى شخصٍ واحدٍ يستعمِلُ السيفَ أيقنَ يَقيناً صادِقاً بأنه ليس سوى رَجُلِ سيفٍ ردِيءٍ. لكنه لم يستسلمْ لأمْرِهِ قط. لأنّ وَهَنَ العزيمةِ خطيئةٌ كُبرى.

وكان الأمرُ مختلفاً اختلافاً كامِلاً عن عَمَلِه مع الأخِ غوي. لقد عزَفَ هذا الأخيرُ عن فكرةِ إقناعِ الدنمركيين في ليمفجورد بأكلِ بَلَحِ البحر. فتربيةُ

هذه الرَّخَويَّات بات مُقتصِراً على جُزءٍ صغيرٍ من مشاريعهِ، ولَمْ يعدْ يَفِي سوى بحاجاتِ طبّاخي الأقاليم في فيتا شولا.

لم تكنْ مهمّةُ الأخِ غوي جلْبَ الأرباحِ إلى الديرِ، بل نَشْرُ محاسِنِ الحضارة، بإعطائه المَثَلِ الطيبِ للآخرين. كانت الغايةُ الأولى من عَمَلِه تُشبِهُ غايةَ الإخوةِ الذين يَزْرَعون الأرضَ ليس من أَجْلِ بَيْعِ ثمارِها بل في سبيلِ التعليم. لكنّ الأخَ غوي ما لبث أنْ بدأ يفشلُ فشَلاً كاملاً في محاولتِه إدخالِ هذه العادة الغذائية.

لكنَّ الأمرَ سار بشكلٍ أفضلَ مع عَتادِ الصيدِ وبناءِ القوارب. فعندما رأى رِماحَ الصيدِ ذات الحدِّ المُسَطَّحِ عند سُكّان ليمفجورد، طلبَ من الأخِ جيلبرتْ أنْ يَصْنَعَ له رِماحاً مزودةً بثنياتٍ - وقد وزَّع منها من حولِه. وبالمثلِ، عندما اكتشف أنهم يَصيدون في نهرِ فجورد بواسطة العتادِ الثابت أخذ يصنَعُ شراكاً للقاع، وفضلا عن ذلك كانت شِباكُه أكثرَ ليونةً بسبب حَجْمِ الثقوب الأوسَعِ، وبسبب رِقَّةِ المواد المستعملة.

ففي عامين اثنين ليس إلا، صار آرن يُتْقِنُ أيما إتقانٍ تقنيةَ صناعةِ الشباكِ التي كان الأخُ غوي يقول إنها عملٌ كان حَرِياً أنْ ينجزَها عاملٌ من عُمّالِه. ولم يجدْ آرن ذلك العمَلَ شاقاً، بل وجدَه مُمِلّاً ورتيباً.

وما لبثتْ مشاريعُ الأخِ غِوي أنْ تحققَتْ، فقد صار الناسُ يأتون شيئاً فشيئاً من ليمفجورد إلى فيتا شولا، ليَتعلّموا اسْتِعْمَالَ الشِّبَاك المنجرفة فيها، وفي ذلك قاسَمَهُم الأخُ غوي ما يملكُه من معرفةٍ، وكان آرن النَّاقِلَ بينهم.

غير أنّ ذلك كان يقتضِي من الأخِ غوي أنْ يترك آرن وحدَه في حظيرةِ القوارب، عندما يصطحب الصيادين الدنمركيين لكي يُرِيَهُمْ كيف يستعملُ الشباكَ المنجرفة. لكنّ الذين جاؤوا ليتعلّموا صناعةَ الشباكِ الجديدة كانوا جميعُهم نساءً - صبايا أو عجائز.

هكذا وجدَ آرن الذي اقتصَرَتْ تجربَتُه مع النساءِ على صورةِ أمِّهِ الوهمية عندما يصلي لها في المساء، نفسَه مُحاطاً بالنساءِ على حينِ غرّة. فقد بدأتْ هؤلاء النساء يتَسَلَّيْنَ بهذا الشابِ الذي ارتبكتْ مِشْيَتُه، واحْمَرَّ

وجهُه خجَلا، واضطربتْ كلماتُه، وأطرقَ حتى انكشَفَتْ جُمجُمَتُه المكلَّلَةُ بدائرةٍ صغيرةٍ حَلِيقَة، بدلاً من عَيْنَيْهِ الزَّرْقاوَيْن.

كان آرن يعرفُ، نَظَرِياً، كيفَ يَجْدُرُ بأُستاذٍ أنْ يتصرّفَ، لأنّ الأساتذةَ الذين عرفَهم كانوا كُثْراً. لكنّ الذي ظَنَّهُ من معرفةٍ في نفْسِه عن التعليمِ لم يكنْ ينطبقُ على واقعِه اليومي. فلم تُظهرْ طالباتُه لا الطاعةَ ولا الجِدّيةَ المطلوبة. فقد كُنَّ يَمْزَحْنَ، ويضحكْن، بل كانت النساءُ الأكبرَ سِناً يُداعِبْنَ رأسَهُ في لُطفٍ ومودّة.

لكنه ظل يَكُزُّ على أسنانه، لأنَّ مُهِمَّةً كانت في انتظارِه، وكان عليه أنْ يُؤدِّيَها في إتقانٍ. وبعد برهةٍ تجرّأَ فرفَع رأسهُ. وبعد مرورِ بعضِ الوقتِ صارتْ نهودُهُنَّ وابتساماتُهنّ المرِحَةِ وعيونُهنّ غيرُ المتحفِّظة مَحَطَّ أنظارِهِ الجريئة.

كانت تُدْعَى برجيت، وكان لها شعرٌ أصهبُ كثيفٌ تُهَذِّبُه بُوريةٌ تغطّي ظهرَها. كان عمرُها مثل عُمرِه، وكثيراً ما كانت تطلبُ من آرن أن يُرِيَها من جديدٍ ما كانت تعرفُه. فكان إذا جلس بجانبِها أحسَّ بحرارةِ فَخِذَيْها، وإذا تظاهرتْ بِالتعَثُّرِ في الأشياءِ وتَلَمُّسِها أمْسكَ بيدَيْها حتى يُرِيَها مرّةً أخرى كيفُ تُظْفِر عُيونَ الشبكَة.

لم يدركْ آرن أنه قد صار منذ ذلك اليوم خَطَّاءً. ولذلك السببِ أمضَى ما وَسِعَهُ من وَقْتٍ حتى لا يَنْتَبِه الأبُ هنري إلى ذلك الذي كان سَيَحْدُث لا محالة. لكنّ الأب هنري لم ينتبه إلا بعد فوات الأوان.

لم يسبقْ لآرن أنْ رأى في حياتِه أجملَ من برجيت، باستثناءِ خمسين. وقد أخذ يحلُمُ بها، وقد أفاقَ من نومه ليلاً وبه تَلوُّثٌ عَفوِي. وأخذ يرغبُ فيها نهاراً أيضاً. وعندما صَفعَهُ الأخُ جيلبرتْ لأنه لم يلتزِمْ الحذرَ في أثناء التدريب لم يفهمْ آرن ذلك الذي أصابَه.

عندما طلبت منه برجيت أنْ يأتِيَهَا بواحدةٍ من مزروعاتِ الدير التي تفوحُ مثلَ الحُلْمِ ظنَّ آرن أنها تريد ليمونيةً أو خُزامَى. وسؤالٌ عادي منه إلى الأخِ لوسيان ألْهَبَ قرارَه: النساءُ يَعْشَقْنَ الخُزامَى، غَمْغَمَ الأخُ لوسيان،

من دون أنْ يدري أيَّ شُعْلَةٍ قد أَلْهَبَها !

في البدايةِ سَرَقَ آرن بعضَ الأفنان من الخُزامى. لكنّ آرن، في اليومِ الذي قَبَّلَتْهُ على الجَبينِ، ومن حيث لم يَرَهُ أحدٌ ما لبث أن فَقَدَ عقلَه. وفي المرّةِ الموالية عاد بِكَوْمَةٍ كبيرةٍ فأخذَتْهَا منه برجيتْ في ابتهاجٍ. ورآها وهي تبتعدُ وتقفزُ فوق الطاولة.

هكذا وَجَدَ الأخُ غوي تِلميذَه، فاغِرَ الفاهِ، شارداً حائراً. لكنّ حُلْمَ اليقظة ما لبث أنْ اصطدمَ بِنهايةٍ قاسية.

في اللحظة نفسِها اكتشفَ الأخُ لوسيان فراغاتٍ غريبةً في زراعات الخُزامى.

عوقِب آرن لأسبوعين بالخبزِ الحافي والماء – وبأسبوع من الصّمتِ. ولما كان لا يملكُ زنزانةً فرديةً –كان ما يزال يُقاسم المرقَدَ مع العديد من الإخوة لايْ – فقد أمضى عقوبتَه في زنزانةٍ خاليةٍ في حيّ الإخوة. لم يكنْ يرافِقُه سوى نسخةٍ كاملةٍ من الكتاباتِ المقدَّسة.

فَهِمَ آرن واحدةً من هاتَيْنِ الخطيئَتين الكبيرتين. أما الخطيئةُ الأخرى فقد أفلتَتْ منه، حتى وإنْ سَعَى في حرارةٍ إلى طَلَبِ المغفرةِ من القدِّيسة العذراء، وحتى وإنْ اجتهد في حرارةٍ أنْ يفهمَ تلك الخطيئة.

لقد سرَق الخُزامَى، و هذا شيءٌ ملموسٌ ومفهوم. كانت هذه العُشْبَةُ مطلوبةً، تُنْزَعُ خارجَ الديرِ. وقد خلَط آرن بين ما كان من قَبيلِ الهِبَةِ– مثل تعليمِ صناعةِ الشِّباكِ– وبين ما كان يُستعمَلُ في جَلْبِ الأرباحِ – مثل أعمالِ الأخِ جيلبرتْ، أو نباتاتِ الأخِ لوسيان. لكنّ بعضَ النباتاتِ كانت من فصيلة غراسيا، مثل البابونج.

وحَسَبَ الأبُ هنري حِسابَ ذلك أيضاً. فحتى وإنْ ظلّتْ السَّرِقَةُ سرِقةً ومَساساً غريباً بقواعدِ الديرِ، فإنَّ مَرَدَّ الأمرِ جَهْلٌ في الشبابِ. لقد أصْغَى الأبُ هنري في عنايةٍ إلى قراءةِ الأخ غوي لذلك الحدَثِ، فكلّفته تلك القِراءةُ تأنيباً أيضاً. لقد استخفَّ الأخُ غوي بِضَلالِ آرنْ، ذاهباً في ذلك إلى حدِّ الادّعاءِ بأنّ الأخَ هنري لو رأى الصبيّةَ لَمَا بَدَا له الأمرُ غريباً بتاتاً. فمَا كان يَحِقُّ للأخِ غوي أنْ يقولَ ذلك، وهو ما خَبِرَهُ على الفورِ على حسابِه.

لا، خطيئةُ آرن الكبرى أنه خَبِرَ الرّغبة. فلو كان أخاً كامِلا لكان عقابُه خُبزاً حافِياً وماءً لِستَّةِ شهورٍ كاملة، ولاقتصرتْ أشغالُهُ على تنظيفِ المطابخِ والمراحِيض.

في عُزلتِه تلك لم يجدْ آرن أيَّ صعوبةٍ في أنْ يُدركَ أنّه قد اقترَفَ ذَنْباً حين سَرَقَ الخُزامَى، وأنه تابَ عن ذَنْبِه ذاكَ. بيد أنه تعذّرَ عليه أنْ يفهمَ ما الذي يجعلُ حبَّهُ لِــ بِرْجِيتْ وهيامَه بها خطيئةً أعْظَمَ من خَطيئةِ السرقة. ولن تُغيِّرَ كراهِيَّتُهُ في الأمْرِ شيئاً، مثلما لم تُغيّرْ الغُرفةُ الباردةُ ولا السريرُ الغليظُ من ذاكَ الأمرِ شيئاً: فكلّما تمدَّدَ عليه رآها أمامَه. وما إنْ يَستغرقَه النومُ حتى يَحْلُمَ بوجْهِها الذي يملؤُه النَّمَشُ، وبِعينيها البُنِّيَّتَيْنِ، ورِجْلَيْها الحافِيَتَيْن اللّتين تَطآنِ الرَّمْلَ بخفةِ الرّشا. وفوق ذلك كان جسدُه يتصرَّف تصرّفاً شائناً كُلّما أَغْمَضَ العَين. وعندما يَضَعُ أحدُ الإخوةِ دَلْواً من الماءِ البارِدِ في زنزانتِه عند الصباحِ، لا يجدُ آرن بُداً من أنْ يبدأَ بتنظيفِ تلك الآثارِ التي تَنُمُّ عن خطيئةٍ لا مِرَاءَ فيها.

كان إذا كرّس نفسَه لقراءةِ الكتاباتِ المقدسةِ وكأنَّ الشيطانَ يقودُه نحو ما لم يكنْ يحقُّ له أنْ يَقْرَأ. وقرّرَ أنْ يُغمِضَ عينيهِ وأنْ يفْتَحَ صفحةً بالمصادفة. فوَقَعَ على هذه الصفحة:

لأنّ الحبَّ قويٌّ مثلَ الموت،

فالغيرةُ عنيدةٌ مثلَ مملكةِ الموت،

حُمّاهُ مثلَ حُمَّى النار،

شُعلةُ الله هي.

المياهُ الكبرى لا يمكنُ أنْ تُخْمِدَ الحُبّ،

ولا الأنهارُ تَغْمُرُهُ.

لو أنّ أحداً وَهَبَ كُلَّ ممتلكاتِ بَيْتِه

من أجْلِ الحُبّ،

فلنْ يَجْلِبَ لنفسِه سوى الازدراء   (نشيد الأنشاد، ٨: ٦-٨

حاولَ آرن عبثاً أنْ يستعمِلَ معارفَه حول الكيفيةِ التي ينبغي أن تُقْرَأُ بها كلمةُ الربِّ وتُؤَوَّلُ، لكنه لم يتمكَّنْ من أنْ يجعلَ الحُبَّ خطيئةً. فهذه القوةُ التي يتحدّثُ عنها الربُّ الأبُ ذاتُه كنعمةٍ كُرِّمَ بها الإنسانُ، قوةٌ لا يستطيع المحيطُ أنْ يَغْمُرَها، ولا أحدَ يستطيع إِخْفَاءَها، ولا يَملكُ الموتُ قُدْرَةَ الانتصارِ عليها... أَجَلْ، كيف يمكنُ لهذه القوةِ أنْ تكونَ خطيئةً ؟

وبعد مُرورِ أسبوعٍ من العِقابِ صار مِنْ حقِّ آرن أنْ يتحدَّثَ من جديد. وهنا بدأ الأبُ هنري يُؤَنِّبُهُ قائلا:

« ما دام كلُّ الناسِ مُتَّفِقِينَ في أَمْرِ سَرِقةِ الخُزامَى هذه. ثم حاوَلَ أنْ يُفْهِمَ الشابَ الهائِجَ معنَى الحُبِّ. أَلَمْ يَصِفْهُ سانت برنار وَصْفاً غايةً في الوضوح ».

المرءُ يبدأُ بِحُبِّ نفسِه أوّلا مِنْ أجلِ نفسِه. ثم يتعلَّمُ المرءُ كيف يُحِبُّ ربَّه، ليس حُبًّا في الربِّ، ولكنْ هنا أيضاً حُبًّا في نفسِه. ثم بعد ذلك يُحِبُّ المرءُ ربَّه حقاً، من أجلِ الربِّ ذاتِه. وأخيراً يحبُّ الإنسانُ نظيرَهُ الإنسانَ.

في هذه العملية، تكون الـــ «كوبيديتاس» cupiditas ، أو الرغبة، الكامنةُ في قَلْبِ كُلِّ شَهيّةٍ بشريةٍ، خاضعةً للمُراقبة وتصبحُ «كاريتاس»caritas. وهكذا تُقْصَى كلُّ هذه الرغبةُ الفظّةُ، ويصبحُ الحبُّ صافِياً. وكلُّ هذا كان أمراً أساسياً، أليس كذلك؟

وقَبِلَ آرنْ على مَضَضٍ بأنَّ ذلك، في حدِّ ذاتِه، أمرٌ أساسي – مثلَ كُلِّ أشخاصِ فيتا شولا، كان يعرفُ كتاباتِ برنار دي كليرفو معرفةً كاملةً. لكنْ، على نحو ما بلغه، لا بد من وُجودِ نَوْعَيْنِ من الحبِّ. كان يحبُّ الأبَ هنري بالتأكيد، وكذلك الأخ جيلبرتْ، والأخَ لوسيان، والأخ غوي، والأخ لودويغ، وكلَّ باقي الإخوة. كان آرن يستطيع من دون تردُّدٍ أن يُغْرِقَ عينيةِ الزّرقاوَين في عَيْنَيْ الأب هنري البُنِّيَتَيْن، وكان يعرفُ أنّ الأبَ هنري يستطيع أنْ يقرأ في رُوحِه رأساً.

لكنْ ذلك لم يكنْ لِيُعَبِّرَ عنْ كلِّ الحقيقة... وأخذَ آرن يصيحُ فجأةً بِنَصٍّ من نصوصِ نشيدِ الأنشادِ.

ما الذي قَصَدَهُ الربُّ بذلك؟ وعن ماذا كان أوفيد يتحدّثُ في النصوصِ التي قرأها، عَرَضاً، عندما كان أصغرَ عُمْراً؟ ألم يكنْ أوفيد يُذَكّرُ كثيراً بكلمةِ الربِّ، من حيث بعضِ الأوجه؟

بعد عَرْضِه المُسْهِبِ أَطْرَقَ آرن في احتشامٍ. فَلَمْ يَسْبِقْ أنْ دخَلَ في مثلِ ذلك الجَدَلِ مع الأبِ هنري، وتوقّع أسبوعين من العِقابِ الإضافي. ولو حَدَثَ ذلك لَبَدَا الأمرُ مُنْصِفاً في حقِّه، ما دام لم يَتُبْ عن ذُنوبه.

لكنّ ردَّ الأبِ هنري جاء مختلفاً تماماً، وكأنه سَعِدَ بِسَماعِ تلك الأقوالِ، حتى وإنْ كان من الطبيعي أنْ لا يُشاطِر تصورات آرن.

«إرادتُك قويةٌ، وعقلُكَ ما يزال حُرًّا، بل وجامحٌ أحياناً جُموحَ الخيولِ التي تمتطِيها. وهذا شيءٌ طيّبٌ، لأني خَشِيتُ كثيراً أنْ أكونَ قدْ كَسَرْتُ رأيَك الحُرَّ، مما كان سيجعلُكَ عاجِزاً عن فَهْمِ الربّ يومَ يُناديك. وبعد هذا، لِنَرَ الآن ما الذي جعلكَ تُخْطِئ».

وشرح الأبُ هنري المسألةَ في هُدوء. نعم، لقد أعطَى الربُّ للإنسانِ غريزةً جنسيةً ليس فيها من شيءٍ مُخْجِلٍ على الإطلاق.

«وهي ما تحدّثَ عنه نشيدُ الأنشادِ، مثلا. كانت مشيئةُ الربِّ أنْ يُعَمِّرَ الإنسانُ الأرضَ، وكلّما كان العملُ الضروريُّ لهذا الواجبِ مُمْتِعاً إلا ورَفَعَ مِنْ شأْنِ هذه المشيئَة. وإذا كانت غايةُ أحدِ المقدّساتِ الربّانية، وهو الزواجُ، هو الإنجابُ، فليستْ هذه الرّغبةُ خطيئةً على الإطلاق.»

استخلصَ آرن على الفورِ نتيجةً غريبةً وهي أنّ على الرَّجُلِ والمرأةِ أنْ يَسْعَى كلٌّ منهُما لإيجادِ الشخصِ الذي يحبُّه، لتُبارَكَ بعد ذلك غريزتُهما الجنسية بِصِلاتِ الزّواجِ. ورأى الأبُ هنري هذه الفكرةَ مُسَلِّيةً للغاية.

لكنّ آرن لم يقِفْ عند هذا الحد، بعد أنْ حَثَّهُ على ذلك حِلْمُ الأبِ هنري. ماذا لو لم يكنْ الحبُّ في ذاتِه، أي ذلك الشكلِ من الحبِّ الذي تَحَدَّثَ عنه نشيدُ الأنشادِ، شيئاً سيئاً، بل عِلى العكسِ، شيءٌ يروقُ للربِّ، ولماذا كان هذا الشيءُ محظوراً على أكثرِ خُدَّامه طاعةً؟ وباختصارٍ، كيف يمكنُ للحبِّ أنْ يكون خطيئةً كبيرةً جَزاؤُها الخُبْزُ الحافي والماءُ والكراهيةُ، في حالِ

جَرَّنَا هذا الحبُّ إليه جرّاً، وكيف يمكن أن يكون الحبُّ في الوقتِ نفسِه، نِعْمَةً من الربِّ لعبادِه؟

« وماذا بعد، قال الأبُ هنري وقد تسلّى كثيراً بالسؤالِ، لا بدَّ مِنْ أنْ نُبيِّنَ الفارِقَ ما بين عالَمِ الدنيا والعالمَ الروحي. إننا نَتْبَعُ هذا العالمَ الروحي. إنه نقطةُ البداية. لكنْ ظني أنك تريدُ أمثلةً ملموسة. لأنكَ تعرف أفلاطونَك. تَأَمَّلْ كلَّ هذه المراعِي الخضراء في فيتا شولا، تَأَمَّلْ نباتاتِ الأخ لوسيان وثمارَه، والمعارِفَ التي يَنْقُلُها إلى الناسِ. تأمَّلْ الأعمالَ التي يُنجِزُها الأخُ جيلبرتُ في المصهَر، والكيفيةَ التي يُرَبِّي بها الخيولَ. تأمّلْ الكيفيةَ التي يُباشِرُ بها الأخُ غوي، الصَّيد. لعلك لاحظتَ أنني لا أتحدَّثُ حَديثَ الاستعارةِ، بلْ أكتفي بما يُمْلِيهِ المُخطّطُ العملي. فإنْ أنتَ فكَّرْتَ في كلِّ هذه الأشياءِ، فأيُّ معنًى تستخلِصُه منها؟»

« إنّنا نفعلُ الخيرَ لِمصلحةِ غيرِنا. فمثلما الربُّ راعِينا نستطيع نحنُ أنْ نرعَى العبادَ. نُعطيهِم حياةً أفضلَ بما نملِكُ من مَعْرِفَةٍ وعمَلٍ. أهذا ما أردتَ قولَهُ، يا أبي؟»

« أجلْ، يا بُني، هو ذلك بالضبط. إنّنا كَشّافُو الربّ في المجهول. لكنْ مَنْ تُرى قال هذا ؟»

« سانت برنار، بالطبع!»

« بالطبع. إننا نفحصُ المجهولَ، ونتحكَّمُ في الطبيعةِ، ونسعى لعِلاجاتٍ نُداوي بها الشرَّ، ونستعمِلُ الخُبْزَ على نحوٍ أفضلَ. فهذا ما نفعلُه بصورةٍ عمليةٍ، ومن هنا، وعلى غرارِ البذرةِ التي نزرعُها، نَنْشُرُ كلِمَةَ الربِّ، ونزرعُ الكيفيةَ التي يجبُ أنْ تُفْهَمَ بها هذه الكلمةُ. هل تَفْهَمُني؟»

« بالتأكيد، لكنْ كيف يحدُث أنْ... عفواً، أبي، إنْ طرحتُ هذا السؤالَ ثانيةً، بصورةٍ ملموسة. اغفرْ لي وَقَاحَتي، إني أفهمُ ما تقولون في ما يتّصِلُ بِعَمَلِنا. لكنْ لماذا لا يحقُّ لإخوةِ كَهْنُوتِنا أنْ يَنْعَمُوا بِمُتَعِ الحب؟ فإذا كان الحُبُّ طيِّباً فلماذا نُحْجِمُ عنه ونَمْتَنِع؟»

– الردُّ مُزْدَوَجٌ، قال الأبُ هنري الذي تسلَّى في الظاهرِ بانشغالاتُ

تلميذه. إنَّ لِمَوْهِبَتِنا وعَمَلِنا، بصفتنا خُدّاماً للربِّ على هذه الأرضِ، ثمناً. وهذا الثمنُ هو كالتالي: علينا أنْ نُكرِّسَ رُوحَنا وجَسَدَنا لخدمةِ الربِّ. وإلا فلنْ نتمكّنَ أبداً من إنجازِ أيِّ شيءٍ ذي شأنٍ. تخيَّلْ قليلا لو أنّ الإخوةَ كان لهم نساءٌ وأطفالٌ في كلِّ زاويةٍ؟ فماذا سيكونُ مظهرُنا؟ سوف نمضي نصفَ أوقاتنا على الأقلِ في عَمَلِ شيءٍ آخرَ غيرِ الذي نفعله الآن. وسوف يُصيبُنا القلقُ على مُمْتَلَكاتنا، وعلى ما سوف يَرِثُه أطفالُنا من بعدنا! إنّ أَمَلَنا في الفَقْرِ يؤدي الوظيفةَ نَفْسَها التي يُؤدّيها أَمَلُنا في العِفَّة. إنّنا لا نملكُ شيئاً، ومِنْ بعدِنا سوف تَسْتَعْمِلُ الكنيسةُ ما قد استعمَلْناهُ نحنُ وأنشأْنَاهُ.»

وتأمَّلَ آرن هذه الأقوال. لقد تابَع منطقَ بُرهانِ الأبِ هنري،، كما كان مُمْتَنّاً لهذا الأخيرِ لردِّهِ عليه من خلال أمثلةٍ دُنْيَوِيَّةٍ، بدلا من أنْ ينطلقَ في نظرياتِ أفلاطون وسانت برنار حول مختلفِ مراحِل الروحِ البشرية. بيد أنه لم يكنْ راضياً، وأحسَّ أنَّ البُرهانَ ينقصُه شيءٌ – كأنْ يتساءَل المرءُ لماذا كان التلوُّثُ المتوحِّد شيئاً مُرْعِباً؟ أهو نوعٌ من شَرَهِ الرُّوح، مَنْ يدري؟ أم هو شيءٌ يُحَرِّفُ أفكارَ الربِّ تحريفاً! لقد اعترفَ آرن في خَجَلٍ جَمٍّ أنه يستحيلُ حقاً أنْ نُفَكّرَ في الربِّ وفي ذلكَ الأمْرِ معاً.

وعندما رأى الأبُ هنري أنّ آرن قد فَهِمَ وقَبِلَ بالشروحَ التي تلقّاها، في مُعظمِها على الأقل، قرّرَ أنْ يكون الأسبوعُ الثاني من العِقابِ الموجَّهِ لآرن، في المطابخ، مع الإخوةِ القادمين من النواحِي. مع الخبزِ الحافي والماءِ، وفي ذلك إغواءٌ قاسٍ، لكنه قد يُقَوّي الإرادةَ في رُوحِه.

* * *

كانت المطابخُ تشكِّلُ أكثرَ الأماكِنِ ازدحاماً في كاملِ فيتا شولا. كان الإخوةُ العامِلون في الحقولِ يعودون لأداءِ صَلاةِ الأصيلِ. أمّا الإخوةُ العامِلون في المَصَاهِرِ ومشاغِلِ النجارةِ، وفي قَطْعِ الحجارةِ، والنسيجِ، وأشغالِ الحِدادةِ، والطوبِ، وفي الإسطبلاتِ، والزريبةِ، وفي خَلايا النحلِ والبستانِ، فكانوا يتوقّفون جميعاً عن العملِ في الليلِ، ويجدون جميعاً الوقتَ

للقراءةِ، من دون أن يتسبَّبَ ذلك في تأخرِ عملِهم اليومي.

لكنّ المطابخَ لم تكنْ تعرفْ سوى ساعتين اثنتين من السكونِ، بعد قُدّاسِ الليلِ، عندما تتعبُ الأفرانُ، وبعدما يُنَظَّفُ كلُّ شيءٍ وتُجْلَى الأواني. بيد أنّ العملَ لا يلبثُ أنْ يعودَ مِنْ جديدٍ مع أوّلِ دُفْعَةٍ من الخبزِ. ثم تمتلئُ المطابخُ بالإخوةِ والإخوةِ لايْ. وقد كانت الساعاتُ التي تسبقُ الوجبةَ الرئيسةَ، وهي العَشاءُ، أكثرَ الساعاتِ ازدحاماً. إذ يَلْتَقِي عشرةٌ من الإخوةِ في عملٍ متواصلٍ، وعلى عَجَلٍ في أغلبِ الأحيان. ففي كلّ يومٍ يجب إطعامُ من خمسين إلى ستّين فاهاً، بحسب عددِ الإخوةِ المُسافرين، وبحسبِ عَدَدِ الضّيوف. كان الأخُ ريجيورو وأصلُه من مدينةِ نيم، هو السيدُّ الآمرُ في المطابخِ، مع أَخَوَيْهِ كاتالان ولويس، اللذين لم يكونا قد التحقَا بالكهنوتِ بعدُ، لأنهما، بلا شكٍّ، لم يَمْلِكَا أبداً وَقْتاً كافياً للدراسة.

منذ اليومِ الذي شَرَعَ فيه آرن يُقدِّمُ الطعامَ والشرابَ في المطابخِ صار الضَّأْنُ في قائمةِ وَجْبَةِ العَشاء. بدأ آرن بالبحثِ عن الرُّعاةِ، وأتَى بِبَهِيمَتَيْنِ اقتادَهُما إلى المسلخِ الكائنِ بجوارِ المطابخ. لم يُؤْتَ بِالبَهيمتين من أجلِ إعْدَادِهِما للأكْلِ، لكنْ ما دام الضأنان اللذان نُحِرَا قَبْلَ عشرةِ أيام قد صارا جاهِزَيْنِ للاستهلاكِ، فقد صار من الواجبِ تعويضُهما بِضأْنَيْنِ آخَرين في الحُجرةِ الباردة، ليُصْبِحا بِدورِهما جاهِزَيْنِ للأكلِ بعد عشرةِ أيام. فالهَمَجُ وحدهم هُم الذين يأكلون اللحمَ الذي لم يُعَلَّقْ في الكُلاب مُقَدَّماً.

لم يَرُقْ لآرن كثيراً أنْ يَحْمِلَ الضَّأْنَيْنِ البَرِيئَيْنِ إلى المطبخِ. لقد وَضَعَ زِماماً حول رَقَبَتَيْهِما، ثم جَرَّهُما جرّاً لَيِّناً عندما توقَّفَا لكي يَقْطَعَا خصلةً من عُشْبٍ لم تَرُقْ لهما كثيراً. وعندئذٍ فكّر في كلِّ مُقارناتِ الكتاباتِ المقدسة التي تَصِفُ العلاقةَ ما بين الراعِي الطيّبِ وقَطِيعِه، وأيقنَ في تلك اللحظةِ بالذات أنه لم يكنْ راعِياً طيّباً.

وحينما وصَلَ إلى المسلخِ أَخَذَ أحدُ الإخوة لايْ، وهو قليلُ الوَداعةِ، البهائمَ وعلّقها على الفور في كُلابٍ ثم نَحَرَها. وفيما كانت الحياةُ تُفارِقُ البهائمَ أمسكَ الأخُ لايْ بمكنسةٍ وفَتَحَ إحدى قنواتِ الماءِ ونظّفَ الأرضيةَ

المبلطةِ مِنْ الدَّمِ الذي تسرّب في إحدى قنواتِ الصّرف.

حَمَلَ آرن الجلودَ الساخنَةَ إلى المدبغةِ، والأمعاءَ إلى حُجرةِ الغَسِيل. ثم ذهب لِيُحْضِرَ مزيداً من قِطَعِ الجليدِ لِيَحْمِلَها إلى الغرفة البارِدةِ حيث صار الهيكلين العظميين مُتَدَلِّيَيْنِ إلى جانبِ العُجول، والخنازير، والأبقار، والإوز والبط. كان يجب وضعُ قِطَعِ الجليدِ في جدولٍ صغير حتى يصلَ الماءُ إلى نظامِ التصريف. كانت الغرفةُ قاتمةً وباردة، وقد اقشعرَّ بدنُه وهو يرشُّ الجدران المبلطةَ بالماءِ الجامد. كان السقفُ عالياً جداً، ولم يكنْ به سوى فَتْحاتٍ صغيرةٍ ينفذُ منها النورُ وتَتَسَرَّبُ رائحةُ عُفونةِ الهياكِلِ العَظْمِيّة.

وعندما دَخَلَ إلى المطبخِ كانت الضُّؤُون قد قُسِّمَتْ ونُقِّعَتْ مع مزيجٍ من زيتِ الزيتون، والثومِ، والنعناعِ، والأعشاب الريفية. كانت الأفرانُ الكبرى موقدةً، وكانت الشواءُ وسلاسل الظَّهرِ ستُطْهَى في الفرن بعد أنْ تُنْقَعَ نَقْعاً كافياً. وفي هذه الأثناء تُقَسَّمُ الأكتُفُ والباقي إلى قِطعٍ صغيرةٍ وتوضَعُ في القُدور الكبرى. وعند العشاء يُقَدَّم حساءُ الضأن، والبنجرُ والملفوف. وتُقَدَّمُ المشوياتُ مع الخبز الأبيض، وزيت الزيتون وجبن الماعز، وتُتْبَعُ بالكرز المُعَسَّلِ والبندقِ المشوي.

لم يكنْ الناسُ في فيتا شولا يَشْرَبُون الخمرَ في كامِلِ الأيام. ولم يكنْ ذلك مرهوناً بقواعدِ الديرِ بل بِسَبَبِ صُعوباتِ نَقْلِ كميّاتٍ كافيةٍ من الخمرِ من بُورغُونيا إلى الشمال. لذلك إذاً كان الأخُ روجييرو هو الذي يُقَرِّرُ متى يُوَزَّعُ الخمرُ أو الماءُ أثناءَ الوجباتِ. وقد رأى أنّ الخمرَ يليقُ كثيراً مع لحمِ الضأنِ فأرسلَ آرن إلى الخمّارةِ ليأتِيَ منه بِنِصْفِ برميلٍ صغير. وكان عليه أنْ يحرِصَ على جَلْبِ الخمرِ من قاعِ الخمّارة، حيث الخمرُ أطولُ عُمْراً، وقد أشار إليه الأخُ بالتحديدِ إلى الماركةِ المطبوعة على البرميل الصغير. لكنّ آرن عاد بالبرميلِ السيِّءِ فوق عربَتِهِ ونال لِقَاءَ ذلك بعضَ التأنيبِ: إنّ هذا الخمرَ ربما يكوِن لائقاً في طقوسِ القربان المقدَّسة، لكنه لا يليقُ لِغَدَاءِ مسيحي. وصُدِمَ آرن بسببِ تلك المُزْحَةِ الفَظّة، ولم يجدْ بداً من أنْ يعودَ إلى الخمّارةِ مرّةً أخرى.

وعندما قُدِّمَ العشاءُ وانهالَ الإخوةُ على الوجباتِ عاد آرن إلى المطابخِ وتناولَ مغرفةً من خيطِ الماءِ الشروبِ الذي يَصِلُ رأساً إلى المطبخِ– وهو الماء الذي لم يكن ينبغي أنْ يُخْلَطَ بينه وبين جدولِ الصَّرْفِ القادمِ من المغسل. وشرب من هذا الماء الطريِّ، وثمّن هِبَةَ الربِّ هذه. ثم صلَّى صلاةَ طويلةً وأكل خُبْزَهُ الأبيض.

لم يشعرْ بأيِّ حَسَدٍ إزاءَ إخْوانه. كان هؤلاء، في فيتا شولا، يتناولون طعامًا عاديًا جدًّا. وكان هُوَ حين ينتهِي من طعامِه، يشرعُ في تنظيفِ المَرَاجلِ ومُراقبتها التي تحوي ما سَيَلِي منْ طعام.

بعد قُدّاسِ مُنتصفِ الليلِ كان لا بد من تنظيفِ المطبخِ تنظيفًا كاملاً، ومن كبِّ كاملِ النّفاياتِ، إما في قنواتِ الصّرفِ التي تتّصِلُ بمجرى الماءِ ثم بِنَهْرِ فجورذْ، وإمّا على كومةِ السّمادِ خلْفَ المطابخِ، في وسطِ نباتِ القُرّاصِ. كان الأخُ لوسيان متشدّدًا في الطريقةِ التي يُعامَلُ بها السّمادُ، لمِاَ للسّمادِ عنده من أهميّةٍ أساسيةٍ في أعماله.

وعند الانتهاء، صار منْ حقّ آرنْ أنْ يخلُدَ إلى النومِ ساعتين، قبل موعدِ دُفْعَةِ الخُبزِ الجديدة. بيد أنّ ما بذلَه منْ هِمَّةٍ في المطبخِ الذي بلغتْ حرارتُه أقصَى ما تبلغُه الحرارةُ، حال دونَه والظَّفَر بهدوءِ النّفسِ، إذْ ما انفكتْ إيقاعاتُ المطابخ ووتيرتُها ترتجُّ في جسدِه.

كان ذلك ذات ليلٍ من ليالِي الصيفِ التي نحسُّ فيها ببوادرِ نَدَاوَةِ الخريفِ الأولى. كانت السماءُ صافيةً، يعلوها القمرُ في مطلعه الجديد.

لَبِثَ آرنْ بعضَ الوقتِ على أدْراجِ المطابخِ، وراح يتأملُ النجومَ في السماء. كانت أفكارُه تنتقلُ من عملِ اليومِ الشاقِّ، إلى روائحِ الأفرانِ القويّةِ، وإلى الحديثِ الذي جَمَعَهُ بالأبِ هنري خلال الصباحِ. وكان على يقينٍ بأنه لم يفهمْ بعدُ كلّ شيءٍ عن أسرارِ الحُبّ.

ثم ذهب إلى حظيرةِ خمسين وناداه. وتنفّضَ الحصانُ السفادُ حين سَمِعَ إشارةَ النداءِ واقتربَ على الفور بخُطًى رشيقةٍ، وهو يَرْفَعُ ذَيْلَه. كان خمسين ما يزال حِصانًا يافِعًا، لكنه كان قد كَبُر، وكان ثوبُه قد تحوَّل من

الأبيضِ إلى لونِ السُّحبِ الرماديةِ. وقد صار تحت ضوءِ القمرِ يبدو بلونِ الفضّة.

ومن غير أنْ يعرفَ السّببَ، ضمّ آرنْ عُنُقَ الحصانِ بين ذراعيه، وداعبَه وأخذَ يَبْكِي. وصار جسمُه يرتعشُ تحت وَطْأَةِ مشاعِرَ لم يجدْ سبيلا إلى فَهْمِها.

« أُحبّكَ، خمسين، أجلْ، في الحقيقةِ أنا أحبّكَ، قال مُتَمْتِماً، وانهالتْ دموعُه مثلَ السّيلِ. وفي قرارةِ نفسِه، أحسّ آرنْ أنه يحمِلُ أفكاراً آثمةً لم يسعْه أنْ يجدَ لها تفسيرًا.

ولأوّلِ مرّةٍ قرّر أنّ ثمة أشياءَ لا يمكنُ أنْ يَعْتَرِفَ بها.

الفصل السادس

أخيراً وَجَدَ ديرُ فارنيم اسمَه: موناستيريو بيتا ماريا دي فارنيم. أحسّ الأبُ هنري الذي استقرَّ من جديدٍ في مَنْسَخِه العزيزِ على نفْسِه، بقشعريرةٍ من فَرْطِ الفرحةِ وهو يُخطِّط ذلك الاسم. فها هو ذا الديرُ في النهايةِ يُوهَبَ بكاملِه إلى العذراءِ القدِّيسة، لأنها، بِتَجَلّيها للسيدة سيغريد في خِضَمّ تكريسِ كاتدرائيَّة سكارا، لَعِبَتْ دوراً أساسياً في ميلادِ ذلك الدير. وأخيراً سوف يصبحُ هذا الأخيرُ قابِلاً لأنْ يَحْيَى حياةً كريمة.

كان للأب هنري، بالتأكيد، كلُّ الحقِّ في أنْ يغتبِطَ، وهو ما حاولَ التعبيرَ عنه في رسالتِه الطويلة. لقد كسَب السيسترسيون مباراةً مُعقَّدةً وخطيرةً ضد الإمبراطور الجرماني، فريدريك باربروس. وقد لعِب الأبُ هنري دوراً فيها، مثلما لعِبَ صديقاهُ إسكيل، مطرانُ لوند، والأبُ ستيفان، في ألفسترا. تُرى، مَنْ كان يتوقَّعُ مثلَ تلك الأحداثِ، عندما، باشرَ هو وستيفان، قبْلَ عشرينَ عاماً، رِحْلتَهما الطويلة نحو الشمال؟

كان الإمبراطورُ الجرماني قد أَقْصَى البابا ألكسندر الثالث، وفرَض بابا غير شرعي بديلاً عنه في روما، فكتور الرابع، الأكثر مُلاطفةً ومُراوغة. وكان على العالم المسيحي أن يختارَ بين البابا الحقيقي وبين البابا المُغْتَصِبِ. لكنّ المَخْرَجَ من تلك الأزمةِ لم يكنْ مَضموناً بتاتاً.

كثيرٌ من الناس كانوا يخشون الإمبراطورَ الجرماني، ويحرِصُون على نَيْلِ حُظْوتِه وأفضالِه. ومن دَواعي الحسرةِ أنّ مَلِكَ الدنمرك، فلديمار، كان واحداً من بين هؤلاء، يقْتَفِي أثرَهُ في ذلك عددٌ من مطارنتِه الأكثر وَجَلا. لكنّ إسكيل، مُطرانَ لُوند، وصديقَ السيسترسيين، انحازَ إلى البابا الحقيقي، ألكسندر الثالث، فأُكْرِهَ في أعقابِ ذلك على المنفَى.

بطبيعةِ الحالِ، كان الرِّهانُ الحقيقيُّ للكفاحِ يتّصِلُ بمسألةٍ أَقْدَم عهداً: هل كان على الملوكِ والأباطِرة أنْ يُمارسوا سُلطتَهم على الكنيسة، أمْ كان على الكنيسةِ أنْ تتخلّصَ منْ كلّ وِصايةٍ دُنْيَوِيَّة؟

لقد سَجّلَ السيسترسيون انتصاراً مُهِمّاً في سفيلاند، وفي غوتالاند، وأقنَعُوا الملِكَ كارل سفيركرسون، ذلك الذي لم يكنْ يعرفُ فريدريك باربروس بما فيه الكفاية، بأنْ يَتَّقِي شَرّهُ، ويُنْشِئَ مُطرانيةً جديدةً على سفيلاند، وعلى أوسترا غوتالاند، وفاسترا غوتالاند. لم تكنْ وضعيةُ مَقَرِّ هذا الأخيرِ تهمُّ كثيراً، ما دام المقرُّ قد أُسِّسَ فعلا: لقد أَحْجَمَ الملكُ سفيركر بطريقةٍ استراتيجيةٍ، عن اختيارِ مدينتِه لينكوبينغ لفائدةِ أوسترا أروس، الواقعةِ في سفيلاند. وقد قَبِلَ السيسترسيون بذلك على الفور، لأنّ المُهِمَّ هو ضَرْبُ الحديدِ ما دام حامياً.

هكذا، كان الأبُ هنري، حاضِراً في كاتدرائيَّة سانس، عندما كرّس إسكيل، بحضورِ البابا، ستيفان مُطراناً جديداً لسفيلاند، وأوسترا غوتالاند وفاسترا غوتالاند. ولمّا كان مطرانُ النرويج وَفِياً للبابا الحقيقي أيضاً، فقد دار الكفاحُ إذاً لِغيرِ مصلحة فريدريك باربروس، ولغير مصلحة البابا غير الشرعي الذي جاء به أيضاً. كان إسكيل قد أَنْهَى عَوْدَتَهُ إلى الدنمرك، مُنْتَصِراً، وكان ستيفان قد استقرّ في أوسترا أروس. وهكذا انتهَى الكفاحُ إلى انتصارٍ.

لم يكنْ وُجودُ أخٍ سيسترسيّ على رأس المُطرانية الشماليةِ الثالثة انتصاراً طفيفاً. صحيحٌ أنّ فارنيم قد استفادتْ في السابقِ من مزايا الملِكِ ايريك جيدفرسون، لكنّ خَلَفَه، كارل سفيركرسون كان قد أمّنَ للديرِ ممتلكاتٍ ومزايا، بل ووَهَبَ من أراضيه الخاصةِ أيضاً، من أجلِ إنشاءِ ديرٍ سيستيرسي في فريتا، في أوسترا غوتالاند.

وهذه المرّة لنْ تشهدَ الأديرةُ صراعاتٍ مع التاج، كالذي شَهِدَتْهُ فارنيم في عهدِها.

بالفعل، كانت امرأةٌ تُدْعَى دُوتَر، قد وَهَبَتْ للسيسترسيّين، ملكيَّتَها

الكبرى في فِيباي، بالقرب من سيغْتونة، تماماً كما وَهَبَتْ والِدَةُ آرن فارنيم من قبلِها. وكما كان الحالُ في فارنيم، فقد أراد أقاربُ في فيباي أنْ تظلّ تلك الهبةُ باطِلة.

بيد أنّ جِيرْ، ابنَ دُوتَر، لم يكنْ ينتظرُ أيّ دَعْمٍ من المطران ستيفان، الذي سرعان ما تمكّن من التّصديقِ على تلك الهِبَةِ من الملِكِ كارل سفيركرسون. لكنّ جِيرْ لم يَؤُلْ إلى عَوَزٍ، لأنه وَرِثَ من كافةِ مُمتلكاتِ والدتِه الأخرى. لكنْ بات من المُهِمِّ بعد ذلك أنْ لا يتعرّضَ مبدأُ الهِباتِ المُعطاةِ إلى السيسترسيين، نفسُه، لأيِّ طَعْنٍ أبداً.

ولم يكدْ مستقبلُ فارنيم يصبحُ آمناً مضموناً حتى صار من المُلِحِّ تجديدُ حيويةِ كلِّ ما كان موجوداً في ما مضَى. لقد كُتِبَ البقاءُ لفارنيم، بالفعل، باثني عشر أخاً، ليس إلا، تمثّلَتْ مُهِمَّتُهُم الأساسيةُ في صيانةِ الدير حتى لا يستحيلَ برمَّتِهِ أنقاضاً.

في خلال تلك السنوات كلّها، تَفَوَّقَتْ فيتا شولا على فارنيم. فكان من الطبيعي أنْ يقودَ الأبُ هنري، شخصياً، أشغالَ التجديدِ فيها، وأنْ يَغْتَرِفَ طاقاتٍ جديدةً في فيتا شولا. ومن أجْلِ ذلك حرّر رئيسُ الدير تعليماتٍ في ذلك الشأنِ، بعد أنْ أنْهَى مديحَه وإطراءَه للكيفيةِ التي انتصرَ بها أكثرُ أولياءِ الرَّبِّ وَرَعاً على فريدريك باربروس.

كان الأخُ جيلبرتْ وآرن من بين الذين نُودِيَ بهم إلى فارنيم. ففي خلال السنواتِ العشرِ التي أمضاها في فيتا شولا، أنشأ الأخُ جيلبرتْ مَصَاهِرَ ظلت تشتغِلُ بصورةٍ جيّدة، ودرّبَ الإخوةَ لايْ على تشغيلِها. أمّا في فارنيم فقد صار الأمرُ معكوساً، حيث صارت المصاهرُ تدور في إبطاءٍ. فكان من الطبيعي أنْ يُنادَى بالأخِ جيلبرتْ مرّةً أخرى.

في المقابلِ، كانت حالُ الأخِ لاَيْ الشاب آرن، أكثرَ تعقيداً. لقد تلقّى آرن معارِفَه من الأخِ جيلبرتْ أساساً، وبالتالي فإنْ قُدِّرَ لهذا الأخيرِ أنْ يجيءَ إلى فارنيم، فالأوْلَى بآرن، منطقياً، أنْ يلبثَ في فيتا شولا.

لكنّ الأبَ هنري كان يحملُ لآرن مشاريعَ كثيرة. مشاريعُ لم يكنْ بعدُ

قد رَغِبَ في الكشفِ عنها، كما لم يرغبْ في أنْ يودِعَها في رسالةٍ تنتهي إلى أرشيف السيسترسيين.

هكذا قنَّعَ الأبُ هنري نواياهُ جُزئياً، فأَمَرَ بأنْ يُنْقَلَ عددٌ قليلٌ من خيولِ فيتا شولا إلى فارنيم، حتى يرى إنْ كانت أفكارُ الأخ جيلبرتْ ستُؤَثّرُ في مُتَوَحِّشي فاسترا غوتالاند، أكثرَ من تأثيرِها في مُتَوَحِّشي الدنمرك. وأضاف أنه يترِكُ للأخ جيلبرتْ عنايةَ الاهتمامِ بالتفاصيل العمليّة كافَّة في ذلك الشأن. وبعد أن حُرِّرَ هذا المقطعُ الشّائِكُ من النصِّ الذي لم يستطعْ الأبُ هنري أنْ يقولَ فيه كلَّ الحقيقةِ، وهو مع ذلك عاجزٌ عن الكَذِبِ، انتقلَ إلى أعمالِ البَسْتَنَةِ. وكان سيأتي إلى فارنيم أفضلُ إخوةِ لايْ، الذي تَلَقَّى تكوينَه على يدِ الأخِ لوسيان، لكي يُقْبَلَ في الرّهبانيةِ كأخٍ كامل العضوية. وكان على الأخِ لوسيان أن يضطلعَ بمسؤوليةِ السّهرِ على أنْ تصِلَ النباتاتُ الملائمةُ بكمياتٍ كافيةٍ، مع الطُّعومِ والبذور وكلّ اللوازم.

وبعد أنْ أنهَى رسالتَه الطويلةَ، أمضَى الأبُ هنري بعضَ الوقتِ في تنميقِ الحروفِ التي قد يستعصي فَكُّها. وحين وَضَعَ ريشتَهُ تنفّس الصعداءَ في رِضاً، وتأمّلَ مَنْسَخَهُ الغالي على قلبه. لقد ظلّ دوماً يعتبرُ هذه الغرفةَ وكأنها بيتُهُ الروحي، فهي المكانُ الذي يُؤدّي فيه أهمَّ ما عليه من مُهمّات. لكنّ العديدَ من رُفوفِ المكتبةِ كان يُعاني من فُغُورٍ رهيبةٍ، لكنّ تلك الرفوف ما لبثت أنْ رُتِّبَتْ بعدَ حينٍ ترتيباً لائِقاً. ففي هذه الغرفةِ سوف يُنهِي عملَه. وحين يأتي أجلُهُ سيُدْفَنُ تحت الكنيسةِ حيث ترقدُ السيدةُ سيغريد.

تكوّمَ إلى الخلفِ في أريكةٍ من الجِلْدِ البالي، وأجالَ عينَيْه في شُقوقِ السقفِ، مشغولَ البالِ بمهمّات عَمَليّةٍ متنوعةٍ، وبالنَّسَقِ الذي كانت ستُنْجَزُ به تلك المهمّاتُ، ثم تذّكرَ فجأة لحظةَ الانتصارِ في كاتدرائيَّة سانْسْ.

كانت الكاتدرائيَّة آيةً في الجمالِ الذي كان، بلا شك، سيَخْلِبُ لُبَّ الأخِ جيلبرتْ، الأكثرِ خِبْرَةً منه بتقنيات البناء. كان البناءُ قد شُرع فيه بأسلوبٍ جديدٍ كلّ الجدّة، تتّجه فيه القِبَبُ نحو الأعلى، لتُعطِيَ بذلك، الانطباعَ بأنها ترنو إلى الربّ، بدلاً من أن تُشكّل حاجزاً بَشرياً بعيداً عن السّموات. ففي

رأيِ الأبِ هنري أنَّ للحُجرةِ صلةً وثيقةً مع الإيمان. إذْ لا بد من إيجادِ التّناغمِ ما بين الشكلِ والمضمونِ، لا سيما إنْ كان المكانُ مقدّساً. فأيُّ حِمْلٍ زائدٍ من الزّخارفِ يُشكّل عائقاً قد يُلْهِي الأفكارَ عن العَلِيّ. لكنّ الشّكلَ الذي يتّجِه نحو الرّبِ ذاته، حتى وإنْ كان بسيطاً وبواسطةِ الحجارةِ وحدَها، فهو الذي يرسمُ صلةً مختلفةً وربانية. فهل يقتضي الأمرُ تدبيرَ مخططاتٍ جمالية، واستقدامَ بُناةٍ من هنالك؟ لا، فبالنظرِ إلى وَضْعِ فارنيم الحالي، لا بد أوّلا من الاهتمامِ بتحسيناتٍ أكثر أهمية. إنّ الانشغالَ بالجمال الشكلي وحده قَبْلَ كلِّ شيءٍ، معصيةٌ !

* * *

لم يشعرْ آرن أنه في بيتِه وبين أهلِه، لا في فارنيم، ولا في فيتا شولا. لا، فهو لا يحسُّ أنه في بيتِه وبين أَهْلِهِ إلا حيثما يُوجدُ الإخوةُ، وعلى الخصوص الأخ جيلبرتْ والأب هنري.

وكان أصعبُ ما في أمرِه، وهو يغادرُ فيتا شولا، أنْ يتركَ فرسه خمسين خَلْفَه. لقد قرّر الأخُ جيلبرتْ، أن يبقَى خمسين في الدنمرك من أجل التّكاثُر. فقد رَسَمَ على الطاولةِ رُسوماً معقّدة، تُبيّنُ أيَّ خُيولٍ أنجبَها خمسين، وأيّها أنجبَها نصير، وفي ذلك ما يفسِّرُ لماذا كان يجبُ على نَصير وعلى فَحْلِ خَيْلٍ صغيرٍ أنجبه خمسين وعائشة، أنْ يَتْبَعَاهُ إلى فارنيم، ولماذا وَجَبَ أنْ يبقَى خمسين في فيتا شولا. ولم يتمكّنْ آرن من أنْ يُبدِي في الأمرِ رأياً.

كان فحلُ الخيلِ الصغيرُ يحمِل ثوباً أشقرَ اللونِ، مُرَقَّطاً باللونِ السِّنجابي. وبعد الرحيلِ، شرَحَ الأخُ جيلبرتْ لآرن، بأنّ فَحْلَ الخيل ذاك يُدْعَى خِيمال، وهو ما كان يعني «الشمال» في لُغةِ الخيول الخَفِيَّة. وحين رأى الأخُ جيلبرتُ الحُزْنَ في عينَيْ آرن، قال له بأنّ ما مِنْ داعٍ يدعو لأنْ يخجَل. إنَ مَنْ يَدَّعُون أنَ الحصانَ ليس سوى شيءٍ بلا روحٍ، ومن ثمّ شيء لا يمكن أنْ نُحبّه، هُمْ أناسٌ لا يَفْقَهُون! فهُمْ على حقٍّ من وجهةِ نظرٍ شكليَّة، لكنّ العالمَ يغصُّ بأناسٍ هُمْ على حقٍّ من حيث هذه النقطةِ أو تلك، لكنّهم

عاجزون عن الفهم. لقد أقسم الأخُ جيلبرتْ أمام الربِّ بأنّ الكثيرَ من عبادِه يَعْتَبِرُون حُبَّ خُيولٍ مثل خمسين، أمراً مُحِقّاً.

في المقابل، لا بد من أنْ نرضَى بِفُقْدانِ خُيولِنا، مثلما نَفْقدُ ذات يوم واحداً من أقاربنا أو إخوتنا. ناهيك عن أنّ الخيولَ لا تعيشُ عُمْراً يطولُ طُولَ عُمْرِ البَشَر. وقد أكّد الأخُ جيلبرتْ لآرن أنه سوف يَبْكي أكثرَ مما يَبْكي حِصانٌ واحدٌ طَوالَ حياتِه. وكذلك يحدُثُ مع الأجدادِ المُسنّين، ومن ثمّ ليس عليه مِنْ إثْم بأيِّ وَجْهٍ من الوجوه. فالحزنُ والحِدادُ سُنَّةٌ من سُنَنِ الحياة، على نحو ما خَطَّطَها الرّبُّ وسَوَّاهَا.

شدّدَ هذا من عَزْمِ آرن قليلا، ولا سيما قد عرَف أنْ ليس إثماً إنْ هو ترَك خمسين وراءَه.

فحتى وإنْ صار في نظرِ الآخرين رَجُلاً، فقد ذَرَفَ آرن بعضَ الدَّمْعِ وهو يغادر فيتا شولا. لم يَرَهُ أحدٌ باستثناءِ الأخِ جيلبرتْ. ولا أحدَ كان سَيَفْهَمُه، اللّهم سوى الأخ جيلبرتْ. بالفعل، ما الذي كان يعرفُه الإخوةُ الآخرون إذاً، عن خُيول ما وراء البحر؟

في سانت بارتيليمي، وفي عِزّ الحصادِ في فاسترا غوتالاند، لَمَحَ آرن قُبَّةَ الجَرَسِ في فارنيم وهي تَرْتَسِمُ من بعيدٍ، وتتّضِحُ شيئاً فشيئاً وسط قِمَمِ أشجارِ السنديان.

لم يَتَبَيَّنْ المكانَ، ولم يكنْ ذلك هو الذي أثار انفعالَه. لكنه عرَف أنه المكانُ الذي دُفِنَتْ فيه أمُّهُ، أُمُّهُ التي كان يُصلّي من أجلِها كلَّ مساءٍ منذ الطفولة. كانت وكأنها ما تزال حَيّةً في تلك الأماكن، بينما لم يكنْ يبقَى منها سوى العِظامِ. في زاويةٍ من زوايا ذاكرتِه استحضرَ آرن صورةً غامضة: لم يكنْ سوى طفلٍ صغير، يحضُرُ قُدّاساً لراحةِ الموتَى، وسْط غُرباء عنه لم يكونوا قد أصبحوا بعدُ إخوتَه الأعزاءَ. وعبَر آرن بابَ الدّيرِ، من دون أنْ تراهُ عيناهُ حقاً، وتعرّف على المكان، وإنْ لم يكدْ يَلْحَظُ سعَةَ الخرابِ فيه. وبعد أنْ حَيَّى الأبَ هنري الذي جاء لاستقبالِهما، استأذنَ وهُرع إلى الكنيسة. وجثا عند مَدْخَلِها، ورَسَمَ إشارةَ الصليبِ على صدرِه، ثم اقتربَ من المَذْبَح.

هنا وَجد أَخَوَيْنِ من إخوةِ لايْ وهما يُديران الإزميلَ والمطرقة. كانا يَسْحَبَان كُتلةَ الصخرةِ التي كانت تُغطِّي قَبْرَ أمّه، والتي رُسِمَتْ فوقَها إشارةٌ دقيقةٌ لا تكاد تُرى. فالآن وقد حقّقَ السيسترسيون انتصاراً على السُلطاتِ الدُّنيويةِ، وصار ديرُ «موناستريو بيتي دي فارنيم « مكاناً آمناً للإخوةِ وللأمواتِ على السواء، قرّر الأبُ هنري إجْلاءَ ضريحِ السيدةِ سيغريد. كان من المقرّرِ أنْ تنتَهيَ أشغالُ الإجلاءِ قبل وُصولِ الموكبِ القادمِ من فيتا شولا، لكنّ الطقسَ كان رحيماً بقدر ما كانت الرحلةُ قصيرةً أيضاً.

في خَجَلٍ حَيَّى آرن الأخوَين لايْ، باللاتينيَّة، تلك اللغة التي لم يكنْ يعرِفها إلا قليلا، ثم حيّاهُما بالفرنسيةِ التي لم يَكُونا يفقهان منها شيئاً، ثم بالإسكندنافيَّة القديمة أخيراً. ثم جثَا وشَكَرَ الرّبَ الذي وَفَّقَهُ في بلوغ غايتِه سَليماً.

شعَر آرن وهو يقرأُ الشاهدةَ وكأن أمَّه حَيَّةٌ تُرزَق، ليس بِرُوحِها فقط، بل مثل كائنٍ من لَحْمٍ وعَظْمٍ صار يبتسِمُ له في تلك اللحظة. هنا كانت سيغريد ترقدُ في رحمةِ الرّبِ الأبدية، واهِبَةُ فارنيم، صاحبةُ الأثرِ الطيب، المولودةُ في ١١٢٧ من عام البركة، المتوفيةُ العام ١١٥٥. تحت الشاهدة، رأى شَكْلَ أسدٍ وشَكْلا آخرَ لم يتبيّنه. لم يرَ آرن صورةَ أمّهِ وحسب، بل شَعَرَ أيضاً أنه قد نَشَقَ رائِحتَها وسمِع رنَّةَ صوتِها.

وفي أثناء قُدّاسِ التّرحيبِ، صار ذِكْرُ أمِّه يرِد في كلّ مرّةٍ عند كلّ شُكْرٍ للرّب، وكان ذلك يملؤه بمشاعرَ لم يكنْ يفهمُها كلَّ الفَهْم. بيد أنه قرّر أن يُنَوِّهَ بذلك الشُّكْرِ عند بَوْحِهِ القادِم، إذْ خَشِيَ أنْ يكون قد أَبْدَى في ذلك القُدّاسِ قليلا أو كثيراً من الغُرور.

* * *

خلالَ الأسابيعِ التي سبقتْ إعادةَ تنصيبِ الأبِ هنري في وظائفه كرئيس لديرِ فارنيم، والتي كان سيحضُرُها المطرانُ ستيفان شخصياً، عمِل آرن والأخُ جيلبرتْ بضراوةٍ في مُساعدةِ الأخوين لايْ. كان عليهما أنْ يُنَظِّفا سدَّ

القناةِ الرئيسةِ، إذْ كانتِ القناةُ التي تحمِل المياهَ إلى مختلفِ العجلات شِبْهَ منهارة، فلم يكنْ التيارُ يُوفِّر سوى عُشْرٍ من قُوّته الأصلية، وكانت الرَّحَى والمُسنّناتُ تستدعيان تصليحات عديدة. كانَ الماءُ مُحَرِّكَ الديرِ ومُطَهِّرَهُ على السواء، ولا يقلُّ عنه أهميةً في المغسلِ والمطابخِ كقوةٍ لدَفْعِ المنافخِ والرَّحَى والمطارق. وبسبب ما كان لتلك المُهِمّةِ من أهميةٍ كبيرةٍ فقد أُعْفِيَ الذين يُكرّسون لها أنفسَهم، منْ دَرْسِ النهارِ وقُدّاساته. كان آرن ينهارُ بعد صلاةِ السّتارِ، وينامُ حتى صلاةِ السّحَرِ، نوماً لا تتخلَّلُهُ أحلامٌ. كانت أيامُ العملِ تتوالَى، وتُعْطِي مزيداً من الانطباعِ بأنّ مَجْرَى الزّمنِ قد تعطّلَ فَذَابَ في لحظةٍ واحدةٍ منَ ذلك العملِ المُتّصِلِ الدؤوب.

لكنْ، في اليوم الذي عَبَرَ فيه المطرانُ بابَ الديرِ، مع حاشيتِه، عاد الماءُ لِيَسيلَ من جديدٍ في المغسلِ وفي المطابخ، وصارتْ غُرَفُ الاستقبالِ من جديدٍ مُبَلَّطَةً ونظيفة. وفي إحدى المصاهرِ صارتِ المطرقةُ تُدوّي من جديدٍ فوق السندان.

بعْد قُدّاسِ التّنصيبِ تقدّم المطرانُ للإخوة، بالوَعْظ، فيما يتصل بانتصارِ الخيرِ على قِوَى الشرِّ. ومنذ ذلك الوقتِ صارتْ رهبانيةُ السيسترسيين قويةً في تلك الزاويةِ من العالَم، فلَمْ تَعُدْ تخشَى أيَّ تهديدٍ من العالمِ الخارجي. أما التهديدُ الجواني، النابعُ من خطايا كلِّ امْرِئٍ، فهو قائمٌ بالفعل، وقد يجذبُ إليه الزَّهْوُ والكسلُ واللامبالاةُ ما يستحقّه من عذابِ الربّ. وعليه، فلا أحدَ يملكُ الحقَّ في أنْ ينامَ على ما حقّقَهُ في سابِقِ أيّامِه، إذْ على كلّ واحدٍ أنْ يُواصِل مُهِمَّتَهُ بذاتِ الدَّأْبِ والمثابرة.

وبعد طعامِ الشُّكرِ انسحبَ المطرانُ ستيفان والأبُ هنري إلى ذلك المكانِ من البَهْوِ الذي تعوّدا الجلوسَ فيه. وتحادَثا طويلاً في مسائلَ حَرِصَا في الظاهرِ على ألا يُشاطِرَهُما فيها بقيةُ الإخوةِ، فتحدّثا بصوتٍ خافتٍ، ولم يسمعْ الإخوةُ الذين كانوا يعمَلون في الحديقةِ التي خَلَتْ من الزّرعِ، سوى بِضْعِ كلماتٍ، عندما رفَع أحدُ رَجُلَي الكنيسة المُبَجَّلَيْن، صوتَه على حين غِرّة.

وبعد مرور ساعةٍ بدا وكأنهما توصّلا إلى اتفاقٍ، فأحْضَرا آرنْ، المُنْهمِكَ في تصليحِ آليةِ المنفاخِ في إحدى المصاهِر.

توجّه آرنْ إلى المغسلِ واغتسلَ غُسْلاً كاملاً، وسأل نفسَه إنْ كان سيُحَلِّقُ رأسَه، وهو ما كان قد أَهْمَلَ فِعْلَه خلال الأسابيع الماضية، بعد أنْ استغرقته الأشغالُ على قنواتِ المياه. وحين مرّر يدَه فوق رأسِه أحسّ بخصلةٍ من الشَّعْرِ بطول نصفِ الإبهام. فلا يجوزُ أنْ يَظْهَرَ بهذا المظهرِ أمام مُطرانٍ، ولكنه، من ناحيةٍ أخرى، لا يستطيع أنْ يتباطأ عندما أرْسَلَ هذا الأخيرُ في طلبِه.

اقترب آرن، في خَجَلٍ، وجثا أمام المطران، وقَبَّلَ يدَهُ، وتوسّل إليه بأنْ يغفِرَ تَوَانِيَ مَظْهَرِه. وشرَح الأبُ هنري أنّ آرن كان واحداً من المجموعةِ التي أُوكِلَتْ إليها مهمّات خاصةٌ في أثناء الأسابيع الماضية. ومَحَا المطرانُ ذلك بحركةٍ من يدِهِ وطلب من آرن أن يجلس، وفي ذلك حُظوةٌ نادرةٌ.

واتّخذ آرن لنفسِه مكاناً فوق مَقْعَدٍ من الحجارةِ أمام رئيسَيْ الدير. بيد أنه لم يطمئن لهذا الوَضْعِ، لأنه لم يفهمْ لماذا يُلِحُّ الرّجلان على التحدّثِ إليه، هو الذي ليس سوى أخٍ شاب من الإخوة لايْ. لم يَتخيلْ يوماً ذلك الذي كان ينتظِرُه، ليَقِينِه بأنَّ حياتَه قد خُطَّتْ من قبلُ، وأنها ثابتةٌ ثَبَاتَ مجرَى النجومِ في اللامتناهِي.

«هل تذكرُني، أيها الشاب؟» سأله المطرانُ في وُدٍّ. ومن غريبِ الأمرِ أنه نطَق بالفرنسيَّة وليس باللاتينيَّة.

«لا يا سيدي، عليّ أنْ أقول في صِدْقٍ إنّني لستُ أذكُرُكم»، أجاب آرن، في ارتباكٍ وهو يُحدّق في الأرض.

« خلال لقائنا الأخيرِ حاولتَ أنْ تَضْرِبَني، ووَصَفْتَني بالراهبِ العجوز، وصَرَخْتَ فيَ بأنكَ لا تنوِي قضاءَ حياتِك في قراءةِ كُتُبٍ مُمِلّة. لكنّني أفترضُ أنك قد نسيتَ هذا أيضاً»، أَرْدَفَ المطرانُ بلهجةٍ مُكسّرة. لكنّ قساوتَه كانت من التَّصَنُّعِ الفظِّ ما جَعَلَ الجميعَ يلاحظونها، باستثناء آرن.

«سيدي، ألتمسُ عَفْوَكم إلى أبعد ما ينتهي إليه الالتماس. الحُجَّةُ الوحيدةُ

التي يمكنني ذِكْرُها أنني لم أكنْ آنذاك سوى طفلٍ صغير». واحْمَرَّ وَجْهُ آرن من فرْط الخجل، وهو يجتهدُ، عَبَثاً، في أنْ يتخيّلَ كيف وَسِعَهُ أنْ يجرؤَ على أنْ يرفعَ يَدَهُ على مُطرانٍ. وفي هذه اللحظة انفجرَ المطرانُ والأبُ هنري، ضَحِكاً.

«هيا، هيا، أيها الشاب، كنتُ أمازِحُك. لم أَحْضُرْ إلى هنا سَعْياً لِرَأْبِ إهانةٍ صغيرةٍ كانتْ وانتهتْ! فحسب ما يقالُ، فالأجدرُ بي أنْ أشكُرَ الرّبَّ لأنكَ لم تحاولْ أنْ تضربني اليوم. لا، لا تطلبْ العفوَ ! بلْ اسمعْني جيداً. لقد فكّرنا، أنا وصديقي العزيز هنري في أمرِك. على كل حالٍ فقد فكّرنا في ذلك من قبلُ عندما وصلتَ إلينا، طفلاً. ولا شك أنك تعرفُ أنك وصلتَ إلينا بِقُدْرةٍ مُعجزةٍ، أليس كذلك، يا بنيّ؟

« لقد قرأتُ النصَّ، لكنني لستُ أذكرُ منه شيئاً. لستُ أذكرُ إلا ما قرأتُ.»

«لكنْ، إذا كان سانت برنار، والرّبُّ، قد طلَباك مِنْ عالَمِ الأمواتِ واقتاداك إلينا، فما النتائجُ التي يمكننا استخلاصُها؟ فهل فكّرتَ في هذا السؤالِ؟» هذه المرة تحدّثَ المطرانُ بلهجةٍ فاعلةٍ، وكأنّ الحوارَ في الآخِرِ قدْ بَدَأَ حقاً.

«عندما كنتُ طفلا، وقعتُ من أحدِ الحصونِ، وأَرْفَقَ بِيَ الربُّ، وبوالديّ ربما أيضاً، وبصلواتِهما الصادقة. هذه هي الحقيقةُ التي يمكننا اعتبارُها حقيقةً ثابتة»، أجاب آرن الذي لم يجرؤْ على رَفْعِ عينيه.

«أجل، أجل، لكنك لا تتقدّم إلا قليلا، أجاب المطرانُ، وفي صوته شُبْهَةٌ من نفادِ الصّبر. لِنَأْتِ الآن إلى السؤال التالي: لماذا؟»

«كنتُ دوماً عاجزاً عن الإجابةِ عن هذا السؤالِ. رأفةُ الربِّ ورحمتُه تفوقان إدراكَ الإنسان. ولا أظنني وحدي في مثلِ هذه الوضعية.»

«آه! لقد بدأتُ أتعرّفُ على الفَتى المشاغبِ الذي حاول أن يُكدِّر صَفْوي، ووَصَفَني بالرّاهب العجوز. جيد، أيها الفتى، هيّا واصِلْ الدفاعَ عن نفسِك! لا، لستُ أَسْخَرُ، بل أنا مسرورٌ بأنْ تُقدِّم حُجَجَكَ. لم نَصْنَعْ منك

خُضْرَةً مُطيعةً في حديقةِ الرّب، لقد ظللتَ تحتفظُ بحرّيتِكَ في الاختيار، ونحن سُعداء بذلك. لقد شرح لي الأب هنري كثيراً بأنك تمتلكُ هذه الميزة. والواقعُ أنني لم أتحدثْ الفرنسيَّةَ منذ وقتٍ طويل، ألا ترى مانِعاً في أنْ نَنْتَقِل إلى اللاتينيَّة؟»

«لا، يا سيدي الأعظم.»

«طيب. في الواقع كانتْ نِيَّتِي أنْ أُكِيلَكَ بِكَيْلِك، ليس أكثر، لأننا، عندما الْتَقَيْنَا في المرّةِ الأخيرة، هَزِئْتَ بِلُغتي الإسكندنافيَّة القديمة. لكنّ هذه المُزْحَة، في النهاية، لم تجدْ أيَّ صَدًى، ففَرَنْسِيَّتُكَ رائعة. وكيف صار ذلك ممكنناً، مادامت الدراسةُ باللاتينيَّة؟»

«لقد قُضِيَ بأنْ أتحدّثَ اللاتينيَّةَ في الدراسة، وفي كلِّ ما له صلةٌ بالرّوحيات، وبأن أتحدّثَ الفرنسيَّةَ في أثناء نِصْفِ مهمّاتي، واللغةَ الإسكندنافيَّة القديمة مع الإخوة لايْ الذين لا يُتْقِنُون الفرنسيَّة.» ورفَع آرن رأسَه لأوّل مرّة، ونَظر إلى المطران رأساً. فقد وَسِعَهُ أخيراً أنْ يتجاوزَ ارتباكَه.

«استعدادٌ هائلٌ. من الطيّب أن تحتفظَ بلغتك الأم، لاسيما إنْ انتهتْ الأمورُ كما أظنُّها، تَمْتَمَ ستيفان. دعْني أطرحْ عليك سؤالاً دقيقاً، أريد ردّاً صريحاً عليه. هل خاطبكَ الرّبُّ ؟ هل أَبْدَى غاياتِه فيك ؟»

«لا، يا سيدي الأعظم. لم يُوَجِّهْ إليَّ الربُّ حديثاً مباشراً أبداً، وأنا أجهلُ كلَّ شيءٍ عن غاياتِه بالنسبة لِشخصي.» هذه الإجابةُ ما لبثتْ أنْ أغرَقَتْ آرن في حالةٍ من الإرباكِ، وكأنه أحسَّ بالخجلِ لأنه لم يَتَلَقَّ تعليماتٍ مباشرة من الرّبِّ – الذي بَعَثَ فيه الحياةَ بِقُدْرَةٍ معجزة. كان وكأنه صار، بسبب خطيئةٍ من الخطايا، غيرَ خليقٍ بمآرِب الرّبِّ الأصلية، أيّاً كانت تلك المآرب.

وتأمّلَ الرجلان إجابةَ آرن في هدوءٍ. وظلاّ صامِتَيْنِ لوقتٍ طويل، ثم تبادلا نظرةً في النهاية. وتَنَحْنَحَ الأبُ هنري، وهو ما يفعلُه دائماً كلما تهيّأَ للانطلاق في شرحٍ طويل.

«بُنَيَّ العزيز، انْصِتْ إليّ في عناية، ولا تَخَفْ. أنا وصديقي ستيفان أخذْنا قراراً نراهُ القرارَ الوحيدَ الوجيه. إنّنا مثلُك نجهلُ تماماً فَحْوَى الغاياتِ التي خَصَّكَ بها الرّبُّ، بيد أننا نعرفُ أنّ الأمرَ أمرٌ خاصٌّ. إنّ جَهْلَنا جميعاً مرهونٌ ربما بِكَوْنِ أنّ نِدَاءَهُ ما زال بعيداً. إنّ مُهمّتَنا، ومُهمّتَكَ، هو أنْ تستعدَّ لهذا النداءِ قَدْرَ الإمكانِ، أليس كذلك ؟»

« أجلْ، بالطبع، يا أبي.»

«نَشْأتُكَ طَيِّبة، وعملُ يَدَيْكَ مصدرُ فَرْحَتِنا، داخلَ الجدران. لكنك لا تعرفُ شيئاً عن العالمِ الخارجي. لذلك عليك بالذهابِ إليه، لكيْ تتعرّفَ عليه. ستعودُ إلى حِصْنِ والدِك، في أرناس، الذي يقَع على مَسِيرِ يوم واحدٍ بالخيلِ من هُنا. يومُ خَيْلٍ شمالي...أتفهمني...يومٌ بِخَيْلٍ من خُيول ما وراء البحر، ويستغرقُ هذا نصفَ يومٍ، كما أفترِض. على أيّ حالٍ، فهذا هو الأمرُ الذي نُوَجِّهُهُ إليك اليوم. وعليك أنْ تعودَ إلى ذلك الذي كان منزلَكَ قديماً.

«أنا...أنا سأُطيعُ أَمْرَكُما، بالطبع.» أحسَّ آرنْ وكأنَّ الكلماتِ ستظلُّ محبوسةً في حَلْقِه. وشَعَرَ أنه تلقَّى ضَرْبَةً خارِقةً، وكأنه فُصِلَ، وصُدَّ صدّاً عن الطائِفَة المقدَّسة.

«أرى أنّ أَمْرَنا لمْ يُغْبِطْكَ قط،» لاحظَ المطران.

«لا، يا سيدي الأعظم. لقد حاولتُ أنْ أُؤَدِّيَ واجباتي، هنا، في بيتِنا، لستُ أدّعِي التفاخرَ وأنا أقول هذا، لكنْ ظني أنْ لابد من أنْ أُضيفَ أنّي بِصِدْقٍ قد بذلتُ أقصَى ما استطعتُ إليه سبيلا.

«أنتَ سِيسْتِرْسِيّ، يا بُنيّ، أجاب المطرانُ. فَكِّرْ في الموضوع، فأنتَ واحدٌ منّا إلى الأبد، لأنّ ما بُنِيَ لا يمكنُ هَدْمُهُ. لعلّ قدَرَك أنْ تصيرَ واحداً منّا إلى الأبد، هنا، داخلَ الجدران، لكنّ هذا ما نجهلُهُ تحديداً. ربما ستعودُ بعد أنْ تكتشفَ أنّ العالمَ الخارجي ليس مُهَيَّأً لكَ، وتكونَ مستعداً لأنْ تُعبِّرَ عن رغباتِك الدّيرية. لكنْ عليك أوّلا أنْ تتعرّفَ على ما لا يمكنُ لأيِّ قراءةٍ أنْ تُعَلِّمَهُ إياك. لأنّنا لا نريدُ إلا ما فيه خَيْرُكَ، ويجب أنْ تعرِفَ أنّ الأبَ

هنري وأنا نفسي نُحبُّكَ حقاً، وأننا سوف ندعُو لك بالخيرِ حين تَلْتَقِي بالعالم. لكنْ يجب أنْ تتعلّمَ أشياءَ عن هذا العالم، هذا كلُّ ما في الأمر.»

«متى أستطيعُ العودَة ؟ وكم سأبقَى هناك ؟ » سأل آرنْ، وقد فاضَ أَمَلا. فهو إذاً لم يُطْرَدْ إلى الأبد، بل عليه فقط أنْ يَخْبرَ تجربةً محدودةً في الزّمن.

«عندما يشاءُ لكَ الربُّ ذلك. وإلا أعطاكَ مهمّةً أخرى عندما تصبحُ خارج الجدران. اسألْ الربَّ في صلواتِكَ، لأنّنا لا نستطيعُ نحنُ أنْ نُقرّرَ شيئاً، ما دام الأمرُ بينَك وبين الربّ.» وتظاهرَ المطرانُ بالقيامِ، وكأنّ المقابلةَ وصلتْ إلى النهاية. ثم إذا بفكرةٍ تخطرُ على بالِه.

«آهْ، بل هناك شيءٌ آخر، يا بني. فحين تدخلُ العالمَ، اعلمْ أنّ إخوتَك سيدعُون لك بالخير، واعلمْ أيضاً أنّ المطرانَ صديقٌ لك. في وُسْعِكَ دوماً أنْ تأتي إليَّ وتبوحَ لي بهمومِك. لا تنسَ هذا !»

وعلى ذلك، قام المطرانُ ستيفان، ومدّ يدَهُ لآرنْ الذي جَثَا، مُطأطِئَ الرأسِ، وقبّلَ اليدَ الممدودةِ من قَبيلِ الطاعة.

* * *

غادر آرنْ فارنيم، مُثْقَلَ الذِّهْنِ والقلبِ معاً. فعلى الرغمِ من شُروح الأبِ هنري ومواعظِه العديدة فَقَدْ ظلّ يلازمُه الشعورُ بأنه يُكابدُ عِقاباً، وكأنه لم يُثْبِتْ جدارةً في الانتماءِ إلى طائفةِ الإخوة.

والْتَمَسَ لنفسِه تسليةً في الغِناء. وحين اكتشفَ أنّ الغناءَ يُسْعِفُه تغيُّرَ مزاجُه، حتى صار يُغنّي للفَرَحِ بدلا من أن يُغنّي لمواساةِ روحِه. وفضلا عن ذلك، صار يُغَنِّي ما بين إخوتِه، أَفْضَلَ قليلا من بعضهِم، وأقلّ جودةً من بعضهِم الآخر، لا أكثرَ من ذلك ولا أقل. لكنْ، في تلك اللحظةِ بالذات ما لبِثَ الغناءُ أنْ غمَرَهُ بِفَرْحَةٍ مُفاجِئةٍ، أكبرِ بكثيرِ من فَرْحَتِهِ في ذلك الزّمن الذي كان فيه صوتهُ النديُّ في الخورس، ساطِعاً متألِّقاً.

وفيما كان مِزاجُه يتغيَّرُ، أحسّ آرنْ بِشيءٍ من الهَيَجانِ يتملَّكُه. كان يجهلُ كلَّ شيءٍ عن العالَمِ الخارجِي، وهو لا يكادُ يَذْكُرُ أرناس التي

كانت بَيْتَهُ في سالِفِ الأيام. فهو ما يزال يَذْكُر بُرْجاً عالياً، وقَلْعةً مُحاطةً بالحُصون كان يلعبُ فيها بالطَّوْقِ مع أطفالٍ آخرين، وفيها علَّمَهُ أبوه كيف يستعملُ قوساً. لكنْ اسْتَعْصَى عليه أنْ يستعيدَ صُوراً واضحةً عن ذلك المكانِ الذي عاش فيه. لقد رآى آرنْ غرفةً كبيرة مُعْتِمَةً، بها مدفأةٌ، لكنه قلَّما وَثِقَ في ذاكرتِه، لأنّ كلَّ ذلك صار يبدو له اليومَ قَصِيّاً وغريباً. لذلك إذاً سوف يرَى أرناس بأُمِّ عينيه هذه المرّة، ابتداءً من يوم غَد. فقد يصلُ إليها في المساءِ نفسه فوقَ مَطِيَّةٍ أجودَ وأفضل، لكنْ، فالحالُ أنّه سيركبُ حِصاناً إسكندنافياً عجوزاً وبطيئاً. حِصانٌ يرى الأخ جيلبرتْ أنه لا يصلحُ للتكاثُر، ولا لأيّ شيءٍ آخر غيره. لكنْ ما دام الأخُ إيرلند في أرناس حالياً، حتى يُعَلِّمَ القراءةَ لأطفالٍ جُدد، فسيكونُ في متناوَلِه حِصانٌ وَديعٌ يعودُ به إلى فارنيم. فالأبُ هنري يَفْتَرِضُ أنّ وجودَ إيرلند لنْ يكون ضرورياً عند عودةِ آرنْ إلى بيتِه.

على المرءِ أنْ يَرْضَى بِقَدَرِه، كما يشاءُه الرّبُّ له. فلا جدوَى من التَّشَكّي، ومنْ أنْ نقولَ رَغِبْنَا في أنْ نكونَ شخصاً آخرَ، أو في مكانٍ آخر. بل على العكسِ من ذلك علينا أنْ نفيدَ من أوضاعِنا، لأنّ في ذلك أفضلَ وسيلةٍ لأداءِ مشيئةِ الرّبِّ. كان الأخُ روجيرُو آخرَ واحدٍ في سلسلةٍ طويلةٍ من الإخوةِ يُرَدِّدُ تلك الكلماتِ على آرنْ قَبْلَ رحيلِه. لقد غادر الأخُ روجييرو، فيتا شولا أيضاً في اتجاهِ فارنيم، لأنّ الأبَ هنري وَجَدَ الطعامَ فيها رَديئاً، إنْ لم نقُلْ رديئاً رَداءةَ الشمال.

في أثناء الوداعِ، أذرفَ الأخُ روجييرُو دمعةً صغيرةً قبل أنْ يبوحَ لآرنْ بالمَؤُونَةِ التي أتاحت له أنْ يُقاوِمَ أسبوعاً على الأقل. وكان الأخُ روجييرُو قد مَسَحَ احتجاجاتِ الشابِ قائلا إنّ ذلك لنْ يضيرَ إنْ كان لهذا الأخيرِ شيءٌ ولو قليل يَهَبُهُ عندما يصلُ إلى بيتِه. فعلى غرارِ بقيةِ الإخوةِ في فيتا شولا كان الأخُ روجييرُو على قناعةٍ بأنّ آرنْ قد التحقَ بالدير لأنّ والديه كانا فقيرَيْن، وكان عليهما أنْ يَسُدَّا رَمَقَ أفواهٍ كثيرة.

وبعد مرورِ بضعِ ساعاتٍ لَمَحَ آرنْ سُكَارَا من بعيدٍ، ولَمَحَ قُبَّتَيْ جَرَسٍ

الكاتدرائيَّة التي انتصبتْ فوق كُتلَةٍ من البيوت الخشبية. وسرعان ما اشتمَّ نَتَانَةَ المدينةِ، لأنها كانت تَصِلُ مع الريحِ المواجهةِ. دخانٌ، وعُفونةٌ، ونِفَايةٌ وبُرازٌ حيوانية، وكانت هذه الروائحُ المجتمعةُ من القُوَّةِ ما جَعَلَهُ يَهْتَدِي إلى سبيلِه حتى وإنْ كان الظلامُ دامِساً.

وعند اقترابِه منَ المدينةِ استيقظَ فضولُ آرنْ بفعلِ وَرْشَةِ عَمَلٍ كبيرة. ولَفَّ حولها لَفّةً صغيرةً لِيُلاحِظَ سَيْرَ الأعمالِ فيها، كما لَمَحَ حِصْناً قَيْدَ التّشييد.

ما فتئَ آرنْ يَنْذَهِلُ أكثرَ فأكثرَ بذلك المشهدِ. فقد انهمكَ جَمْعٌ من الرجالِ في العملِ، وراحَ مُعظمُهم يُزْلِجُونَ كُتَلا من الحجارةِ فوق جُذوعِ أشجارٍ، لكنَّ العملَ بدا وكأنه يسيرُ ببطءٍ شديد. لم يرَ أيَّ بَكَرَةٍ ولا أيَّ رافِعةٍ ولا أبسطَ آلةٍ من آلاتِ الرَّفْعِ الأخرى، إذْ بدا كلُّ شيءٍ وكأنّه يُنْجَزُ بقوّةِ العَضلاتِ وحدَها. لم يكنْ هناك سوى رجالٍ بملابسَ رَثّةٍ يَتَعرَّقُون دَماً وماءً، يُراقِبُهم رجالٌ مُسلَّحون تعلوهُم مِلامحُ غيرُ مُرِيحَة. فلا أحدَ كان يَجْنِي مُتْعَةً من عملِه ذاكَ.

لم تكنْ تلك القِلاعُ مرتفعةً إلا نادراً، وقد تشكَّلَتْ أساساً من رُدَمٍ يمكنُ أنْ تُرْكَبَ في يُسْرٍ كما تُرْكَبُ الخيلُ – وكان يمكنُ خمسين أنْ يجتازَ الحاجزَ بقفزةٍ واحدة.

لم يكنْ آرنْ يعرفُ سوى القليلِ عن الحروبِ، وعن أعمالِ الدفاعِ، اللهمّ إلا ما قرأه عن استراتيجيةِ وتَكْتِيكِ الرّومان. بيد أنه تصوّر أنّ ذلك الحصنَ الذي يجري بناؤهُ قد يَصْعُبُ الدفاعُ عنه لو شَيَّدَ المُهاجِمون أبراجاً مفتوحةً وتقدّموا بها نحو المعاقِل. لكنْ، لعلَّ الأساليبَ الرومانيةَ أساليبُ تجاوزها الزمنُ.

لَمَحَ أحدُ المراقِبين آرنْ، فاقتربَ منه وصَرَخَ فيه بشيءٍ ما. ولم يفهمه آرن، لكنه حَزَرَ أنْ عليه أنْ يَبْتَعِدَ، وأنه غيرُ مُرَحَّبٍ بهِ. وعلى الفور قدَّم آرن اعتذارَهُ ووَجَّهَ مَطِيَّتَهُ اللاّمباليةَ في اتجاهِ المدينة.

كانت سكارا مُحاطةً بالمعاقِلِ أيضاً، وكانتْ هذه تتكوّنُ منْ حِبَاكٍ، ومنْ

أكوامٍ من حُزَمِ الحَطبِ والرُّدَمِ. وقد انتصبتْ فيها خِيَمٌ كثيرةٌ أمام المدخلِ، وفيها كان بعضُهم يُنْشِدُون أغانيَ أجنبيّةً ويعزفون قِطَعاً موسيقية. وحين اقتربَ آرنْ منها اكتشفَ أنّ رجالاً قد تكدّسوا في تلك الخِيَمِ ليَحْتَسُوا الجِعَةَ. وقد الْتَهَم بعضُهم منها الكثيرَ، لأنهم كانوا ينامُون على الأرضِ رأساً. ورأى في اندهاشٍ امرأةً تبعثرتْ ملابسُها، وهي تترنَّحُ مُتَّجِهَةً نحو خيمةٍ أخرى أصغرَ حَجْماً، ولَمَحَ أيضاً رجُلا يتغوَّطُ في الخَلاءِ بلا أدنى حَياءٍ.

لم يفهمْ آرنْ أيَّ شيءٍ من تصرفاتِ أقاربه. كانت الدهشةُ تُقْرَأُ على ملامِحه، لأنّ ثلاثةَ فتيانٍ ضحِكوا منه. غير أنه لم يجدْ بداً من أنْ يمرَّ بجانِبهم حتى يَعْبُرَ البابَ. ودَمْدَمَ الفتيانُ ببعضِ الكلماتِ وقطَعوا أمامَه الطريق.

«هنا لا بد مِنْ دَفْعِ هِبَةٍ للفقراءِ حتى يُسْمَحَ بالمرور، أيها الراهبُ الصغير! قال أكبرُ الثلاثةِ سِنّاً وأكثرُهم جَسارة.

«لستُ أَمْلِكُ شيئاً مُهِمّاً أقدّمُه، أجاب آرنْ في حُزْنٍ جمٍّ. ليس عندي سوى قليلٍ من الخبز و... »

«حَسْبُنَا شيءٌ من الخبز، لأننا لا نملكُ شيئاً. كم عندك منه، أيها الراهب الصغير؟ »

«عندي خمسةُ أرغفةٍ مخبوزةٍ هذا الصباح.»

«ممتاز. نحن نريدها! نَاوِلْنا هذا الخبز» قالوا بصوت عالٍ. وتَفَرَّسُوا في وجهِ آرنْ الذي أشرقَ بالفرحِ فجأة.

وأغبطَ آرنْ أنْ يُمْتِعَ أخاهَ الإنسانَ بمثلِ هذه السهولة، ففَتَحَ مِزْوَدَهُ وأَخْرَجَ أرغفةَ الخبز. وعلى الفور استولى الفتيانُ على الأرغفةِ وهربوا مسرعين من دون أنْ يقولوا كلمةَ شُكْرٍ واحدة. وفي ذُهولٍ نظَر إليهم آرنْ وهُمْ يهربون. وقد راوده شعورٌ غامِضٌ بأنه قد خُدِعَ، لكنْ لم يسعْه أنْ يفهمَ ما الذي يجعلُ أحدَهم يُسيء إليه. وعلى الفورِ تَمَلَّكَهُ النَّدَمُ على سُوءِ نِيَّتِهِ تلك تجاه أخِيه الإنسان.

وعندما أراد أنْ يجتازَ بابَ المدينةِ، حالَ رَجُلان مُسلّحان دون مُرُورِه.

فطَلَبَا منه أوّلا اسْمَهُ، وماذا جاء به إلى هناك. وأجاب آرنْ أنه آرنْ، أخٌ من إخوةِ لاَيْ فارنيم، وأنه جاء لزيارةِ الكاتدرائيَّة، وأنه سيواصل طريقَه قريباً. فأَفْسَحَا له المرورَ وهما يضحكان، وأضافَا أن عليه أنْ يَحْذَرَ ارتكابَ أيِّ عَمَلٍ لا يَعِي معناه. وحين رَأَيَا سِيمَاءَه المشدوهة، ضَحِك الرجلان كثيراً.

ولم يكدْ آرن يصلُ إلى المدينة حتى تردّد. فالطريقُ الذي كان عليه أنْ يَسْلُكَه جَلِيٌّ واضحٌ، لأنَّ بُرْجَيْ الكاتدرائيَّة كانَا بادِيَيْنِ للعيانِ من كلِّ حَدْبٍ وصَوْبٍ. لكنّ الزِّبْلَ كان مُنْتَشِراً حول كلِّ البيوتِ الخشبية، فظنّ آرنْ أنْ لا مفرّ من أنْ يَلُفَّ حول المكانِ حتى يتفادَى تلك الأوْحَالَ وتلك النّفاياتِ. ثم رأى جُندياً خيّالا يسلُك الزُّقَاقَ المؤدّيَ رأساً إلى الكاتدرائيَّة. كانت حوافرُ الخيلِ عند كلِّ خطوةٍ تغوصُ في الوَحْلِ وبُرَازِ الحيوانات، وفي العُفُونَة. وبكثيرٍ منَ الترددِ سلَك آرنْ الزّقاقَ في الاتجاه المعاكسِ حتى وإنْ داعَبَتْ النّتانةُ مَنْخَرَيْهِ. كان الوقتُ صباحاً، أو بالأحرى الساعةَ التي يعتبِرُها الناسُ صباحاً في المدينة، لأنه سمِع مراتٍ عديدةً الدِّيَكَةَ وهي تصيح، وكاد في مناسباتٍ عديدةٍ وهو يسيرُ، أنْ يتلقَّى رَشّاً من محتويات الأوعيةِ أو القدور وهي تُقْذَفُ من النوافذ. عندئذٍ أدرك آرنْ أنّ الناسَ يعيشون مع أنْعَامِهم ودَواجِنهم. وأصابهُ ذلك بالذهولِ أكثر ممّا أثارَ في نَفْسِه من تقزّزٍ واشمئزاز.

وعندما ترَكَ الزقاقَ في النهاية، وجَدَ نفسَه أمام الكاتدرائيَّة، ومِنْ حولِها ساحة كبرى، مع صُفوفٍ من الخِيَمِ حيث الناسُ يُتاجِرون. وكانت الأرضيةُ أَنْظَفَ أيضاً.

ونَزَلَ في حَذَرٍ منْ على حِصانه، وهو يتحرّزُ أين يضعُ قدمَيه، ورَبَطَ العِنَانَ بأحدِ الأعمدةِ أمام الكاتدرائيَّة حيث رُبِطَ حصانان آخران. وتردّد آرنْ لحظةً، متسائِلا إنْ كان سيُطْلِق لِفُضُولِه العِنَانَ ويرى ما يُباعُ في تلك الخِيَمِ، أم كان عليه أنْ يتوجّه للربّ أَوّلاً. وما كاد يُفْصِحُ عن سؤالِه حتى خَجِلَ منْ تردّده. وعَبَرَ بابَ الكاتدرائيَّة وجَثَا، ثم رَسَمَ إشارةَ الصّليبِ على صدرِه.

كان المكانُ مُفرطاً في خُلْوَتِهِ وفي عَتَمَتِهِ، فلَمْ يجدْ آرنْ بُدّاً من أنْ ينتظرَ قليلاً حتى تَعْتَادَ عَيْنَاهُ على العَتْمَة. كانت نحو عشرين شمعةً تتوقَّدُ بالقربِ من المذبحِ، وقد رأى امرأةً تُضيءُ شمعةً قبل أنْ تَجْثو للصلاة.

ثم إذا بِخُورسٍ يشرعُ في إنشادِ بعضِ التراتيل. لكنّ المنظرَ لم يكنْ جميلا. وقد ميّز آرن بوضوحِ صَوْتَيْن اثنين كانا يُنشِدان نَشَازًا. وملأهُ الأمرُ بالدَّهَشِ، وكأن صاحبَيْ هذين الصوتين كانا يسخران من الربِّ وهما يُنشدان في بيتِه على ذلك النحوِ.

وانتقلَ إلى جَناحٍ كَنِيسيٍّ مجاورٍ لكي يتأملَ، ويحاولَ أنْ يفهمَ ذاك الذي رآه وسمِعه، قبل أن يشرع في الصلاةِ. لم يشعرْ بالراحةِ في بيتِ الربِّ ذاك. بالقربِ من المذبحِ، عُلِّقَتْ بُسُطٌ كبيرةٌ صارخةُ الألوانِ، وصُورتان لِقِدّيسَيْنِ، وصورةٌ للعذراء القدِّيسة، رُسِمَتْ بالأزرقِ والأحمرِ، والأخضرِ والذهبي. وكان النورُ الذي يمرّ عبْر زَخارفَ من زُجاجٍ في أعلى بُرْجِ الأجراسِ المقابلِ له، يصلُ مكسَّراً إلى ألوانِ الطّيْفِ كافة. ووجد آرن أنّ هذه الفَخْفَخَةَ تُوحي بالزّيفِ. كانت اللوحةُ المُجسِّدةُ للمسيح مُفْعَمَةً بالذّهب والفضةِ، وكأنّ الربَّ لم يكنْ إلا أميرًا دُنيَويًا. وجَثَا، وصَلّى أوّلا حتى يُكَفِّرَ عن ذنوبِه، ثم دعا الربَّ أنْ يَغفِرَ لهؤلاء الرجالِ الذين عمِلوا من بيتِهِ ملجأً سَيِّءَ السّمعة.

وما لبث أنْ شَعَرِ بحرارةٍ غريبةٍ وهو يجلسُ على الكرسي الصغيرِ، وكأنَّ الصخرةَ صارت تُحدّثُه. وتذكّر أنه قد جَلَسَ في هذا المكانِ قَبْلاً، حتى وإنْ بدا له الأمرُ مستحيلا. ثم تجلّتْ له أمُّه بعد ذلك، وابتسمتْ فيه. لكنّ الرؤيةَ ما لبثتْ أنْ تلاشتْ في اللحظةِ التي باشر فيها الخورسُ ترتيلا جديدًا أَزْعَجَ مَسْمَعَهُ كثيرًا.

كان الخورس يُنْشِدُ بِصَوْتَيْن اثنين لا ثالثَ لهما، لكنه كان يُنْشِدُ نشيدًا ناشِزًا، لأنّ الذي كان يقودُ الصوتَ الثاني كان يجرُّ الآخرينَ إلى الخطإِ جرًّا. وإذْ ظنّ أنّ بمقدُورِهِ أنَ يُقدِّمَ حَسَنَةً متواضعةً، وقَفَ آرن إلى جانبِ الخورس وقادَ الصوتَ الثاني، في إحْكامٍ. فهو يحفَظُ الكلماتِ منذ نعُومةِ أظْفاره.

في البدايةِ ظنّ آنْج، الكاهنُ الذي يقودُ الخورس، أنّ الربَّ قد مازَحَهُ، وأنه قد صَحّحَ الجميع. ثم ما لبث أنْ اكتشفَ أنّ أخاً صغيراً من الإخوة لايْ، مِنْ فارنيم قد احتلَّ مُقدّمَةَ الصوتِ الثاني في الخورس. ولم يكدْ ينتهِي الترتيلُ حتى وضَع الكاهنُ، آرن في قلب الخورس لِمَا تبقّى من القُدّاس.

بعد ذلك أراد العديدُ من المُغَنِّينَ أن يسألوا آرن، لكنّ الكاهنَ أخذَه على الفور جانِباً واقتادَه إلى المَوْهِفِ أي المكان الذي يلبس فيه رجال الدين ثيابهم المقدسة. وقد نَفَذَ من فَتْحَتَيْنِ صغيرتين في الغرفةِ قَدْرٌ من النورِ يَكْفِي لرُؤيةِ مَلامِحِ مُحَدّثِه. ودَعا الكاهنُ آرن للجلوسِ وقَدّم له جَرَّةَ ماءٍ، مُداعِباً إياهُ بالقولِ إنَّ الجرّةَ وما فيها ليست سوى مُكافأةٍ متواضعةٍ لِغناءٍ بذلك القَدْرِ من الجمالِ.

لم يدركْ آرن أنّ الأمرَ مَزْحَةٌ حَسْب، فَرَدَّ على الفور أنه لا يريدُ أيَّ مكافأةٍ جَزاءً لِغِنَائِه. وعندما سألَه آنجْ عن اسمِهِ اكتفَى بالقولِ إنّ اسمَهُ آرن مِنْ فارنيم.

وانتعشَ الكاهنُ حين أيقنَ أنه حقّقَ اكتشافاً سعيداً. لقد بات جَلِياً أنه أمام شابٍّ لم يرَ فيه السيسترسيون أخاً جديراً بهم فطردُوه لِسَبَبٍ من الأسباب. وصار هذا الأخُ إذاً سَنَداً جاهِزاً مُرَحَّباً به في الخورس أيّما ترحيب. فمهما قِيلَ في حقِّ هؤلاء الكَهنةِ الغرباء، فإنّ أناشيدَهم تُغْبِطُ الملائكةَ، وما مِنْ شكٍّ في ذلك بتاتاً.

ومادام لا أحدَ من قبلُ خاطَبَ آرن بِنوايا خَفِيّة فقد تعذّر عليه أنْ يَفْهَمَ مَعْنَى الأسئلةِ التي باغتهُ الكاهِنُ بها.

فهل غادر فارنيم لكي يعود إلى بيتِه ثانية؟ آه، نعم، وماذا كان يفعله أهلُه؟ أوه، لقد ماتت أمُّه – رَحمةُ الربِّ عليها. لكنْ، ما الذي كان يفعله أبوه؟ كان يَكَدُّ ويَجِدُّ ككلّ الناس. أكان يعملُ في الأرض إذاً؟ كمدير؟ أم كَمُياوِمٍ؟

أجاب آرن بأفضلِ ما وَسِعَه أنْ يجيب، من دون كَذِبٍ، اللهم إلا حين سُئِلَ إنْ كان والدُه غنياً؟ فقد أجاب بـــ «لا»، لأنّ كلمةَ «غنِيّ» في رأيه، كلمَةٌ شائنةٌ، والحالُ أنه لم يكنْ يحبُّ أنْ يُغَذّي نفسَه بأفكارٍ مُخْجِلةٍ في حقِّ والِدِه. وكان لا يعرفُ مَعْنَى «مدير»، ولا معنى «مُياوِم»، لكنه كان يشكُّ

في أنْ يكونَ والدُه «مُديرا» أو «مُياوِماً».

لكنَّ كلَّ شيءٍ صار، في المقابلِ، واضحاً في ذِهْنِ الكاهن. إنّ مُحَدِّثَهُ ابنُ فلاحٍ فقيرٍ، ربما كان قِنّاً من الأَقِنَّةِ المُعْتَقِين، مسؤولا عن إطْعامِ أفواهٍ كثيرةٍ، وشاءَ أنْ يتحرَّرَ من أحدِها فأرسلَهُ إلى الدير. وكان الشابُ سيرجعُ إلى البيتِ، بِشَهِيَّةٍ ضاريةٍ، غير قادرٍ على أنْ يفعلَ شيئاً آخرَ غير صلاةِ المائدة. كانتْ فرصةً لتقديمِ الخيرِ للجميعِ – وكان عليه أن ينقضّ على هذه الفرصة Carpe diem

فلعل الشاب نفسه تمنّى هذا المخرج، لكنه كان خجولاً خَجَلاً يجعلُه لا يجرؤُ على أنْ يقول ذلك من غيْرِ لَفٍّ ولا دَوران.

«أخي الشاب لايْ، ظني أننا نستطيع أن نُسْعِدَ بعضَنا بعضاً خدمةً لمصلحة الجميع،» قال الكاهنُ، راضياً عن خُلاصَاته.

«إذا كنتُ أستطيعُ أنْ أساعدَك فلا تتردّدْ. لكنْ ما الذي يمكنُني فعلُه؟ لست سوى أخٍ مغلوبٍ على أمرِه مِنْ الإخوةِ لايْ»، أجاب آرن من دون كذِبٍ، ما دام قد قال ذلك صِدْقاً.

«أجل، ما أكثرَ الفقراء على هذه الأرض. لكنّ الربَّ يَهَبُ فَضْلَهُ للفقراء، وإليكَ أنتَ يا آرن – لقد قُلْتَ لي بالفعل أنْ أناديكَ آرن، أليس كذلك؟ جيد إذاً، لقد تَلَقَّيْتَ حقاً هِبَةً عُظمَى من الربِّ!»

«نعمْ، هذا صحيح،» أجاب آرن، وهو يُطرقُ رأسَه في تواضُعٍ جم. كان يفكِّرُ كيف أنّ الربَّ قد أعاد إليه الحياةَ، حتى وإنْ لم يستطيعْ أنْ يفهمَ كيف صار الكاهنُ على درايةٍ بأمرِه ذاك

«يسعدني كثيراً إذاً، أنْ أُعْلِنَ لك أنّك تستطيعُ أن تُخلّصَ أباكَ وتخلِّصَ نفسَك من هَمٍّ كبيرٍ، وأنْ تقومَ في الوقتِ نفسه بِعَمَلٍ سوف يحبُّه الربُّ كثيراً. فهل أنتَ مُهيّاً لِسماعِ العَرْضِ الذي سأقدِّمه لك؟» انحنَى الكاهنُ على آرن، وهو يشْعُر بالانتصار، وقد فَغَرَ فاهَهُ وكشَفَ عن أسنانٍ بُنِّيَّةٍ، ورائحةٍ كريهة.

«أجلْ يا أبي، أجاب آرن وهو يتقهقر. بيد أنني عاجزٌ عن فَهْمِ ما تفكِّرُ به، يا أبي.

«نستطيعُ أنْ نُوفِّرَ لك المأوى والغذاء. وملابِسَ جديدةً أيضاً، إنْ بَقِيتَ هنا والْتَحَقْتَ بِخُورس الكاتدرائيَّة. إنّ في ذلك شَرَفاً كبيراً لِشابٍّ فقيرٍ مثلك، أتعلم؟ لكنْ، صحيحٌ أيضاً أنكَ تَلَقَّيْتَ موهبةً من الربِّ، وأنتَ تعرفُ ذلك أيضاً.»

وذُهِلَ آرن لِمَا سَمِع، فَلَمْ يَقْوَ على الردّ. وفجأةً فهِمَ أنّ الكاهنَ يَعْتَبِرُ غِناءَهُ عاديًّاً جداً، مثْل مَوهبةٍ من الربّ – ولا يرى أنّ الربَّ قد أعادهُ من مملكةِ الأموات. أجلْ، لم يجدْ آرن حقاً ما يقوله.

«أجل، إني أفهمُ انْدِهاشَك، أضاف الكاهنُ، وهو راضٍ كلّ الرِّضا عن نفسِه. فلسنا نضربُ دائماً عصافيرَ كثيرةً بِحَجَرٍ واحدٍ. فَكِّرْ قليلا: لنْ يكون لأبيكَ فاهٌ إضافيٌّ يُطْعِمُهُ، وسوف نُغْبِطُ الأحياءَ والأمواتَ معاً بِقُدّاساتٍ أكثرَ جمالا، وأنت ستحصلُ على المأوَى، والغذاءِ وملابِسَ جديدةٍ. ويا مِنْ خيرٍ جمٍّ في يومٍ واحدٍ! إذاً، اتَّفَقْنا؟ أليس كذلك؟

« لا... بل أقصدُ أنني فهمتُ فِكْرَتَك» أجاب آرن، مَدْهُوشاً. فأياً كان الثّمنُ فهو لم يرغبْ في أنْ يَقَعَ في فَخِّ هذا الكاهنِ الذي كانت تَنْبَعِثُ منه رائحةٌ كريهة. لكنه لم يَعْرِفْ كيفَ الخروج من ذلك المأزِق. لم يَعْرِفْ كيف يقول لا لِشخصٍ يَدِينُ له الناسُ بالطاعة.

وظنَّ الكاهنُ الذي اختلطَ عليه أمرُ ذلك الذي رآهُ، بأنّ القضيّةَ مُنْتَهِيَةٌ. ونَهَضَ وهو مُصِرٌّ على رَسْمِ تفاصيلِ تَعَهُّدِ الشابِ المنشد.

«تعالَ معي! سنذهب الآن إلى جناح المنشدين. هناك ستلتقي بالآخرين، وقد تحصلُ على سريرٍ تنفرد به.

«هذا، هذا غيرُ ممكن! صاح آرن، بصوتٍ خائِبٍ، أقصدُ أنّ...إنني مُمْتَنٌّ كثيراً لِكَرَمِكُمْ، يا أبي، لكنْ... هذا ليس ممكناً...»

وفحص الكاهنُ الشابَ الذي طال الإكليلُ فوق رأسِه، وكشفتْ يداهُ الجاسِئَتَان عن أعمالٍ مُرهِقةٍ ووضيعة. كيف يستطيعُ هذا الغلامُ الأرعنُ أنْ يَرْفُضَ عَرْضاً كريماً؟ وفق ذلك بدا وكأنه يتعذّبُ من قَوْلِ لا.

– لقد تركتُ حصاني في الخارج. فأنا مسؤولٌ عنه، وعليَّ أن أصطحبَه معي لأسلِّمَه لأخٍ آخر من الإخوةِ لايْ.

«كيف؟ أعندَك حصانٌ؟ هذا غير ممكن! أريد أنْ أرى هذا بِأُمِّ عينيّ!»

وسار آرن خَلْفَ الكاهنِ إلى الكاتدرائيَّة، فيما راح هذا الأخيرُ بيثمِّنُ قيمةَ الحصان. وتوصّل إلى مبلغٍ جاوزَ كثيراً تلك القيمةَ التي مَنَحَها لآرن قبل قليلٍ، في شَكْلِ مأوىً وغذاء.

وهنا، في رَحْبَةِ ذلك المكان، كان حصانُ آرن واقِفاً حقاً، منكَّسَ الرأسِ، وقد بدا عليهِ التَّعَبُ حقاً. وقَدَّرَ الكاهنُ أنّ البَهيمةَ فاخرةٌ. وفي هذه الأثناء اكتشفَ آرن في هَلَعٍ أنّ خُرْجَه الذي حوَى نَقَانِقَ وجَنْبُون، التي أهداهُ إياها الأخُ روجيرو قد اخْتَفَتْ، وتساءَلَ أين يمكنُ أنْ تكون قد ذهبتْ. وأَطْرَى الكاهنُ البهيمةَ، فردَّ آرن مُعترِضاً بأنّ الحصانَ لا يملكُ أيّ شيءٍ مميّز يستحقُّ كلَّ ذلك الإطراء. بل كان في المقابل، يُحبِّذُ لو عَرَفَ مكانَ نَقانقِهِ وجَنْبُونِه. واستشاطَ الكاهنُ لذلك غَضَباً: أيُّ غَبَاءٍ هذا الذي يجعلُ آرن يترُك مثلَ تلك الأشياء في متناولِ السارقين؟

وأحسّ آرن بالخزيِ لِمَا أصابه من سَرِقَة، ولِمَا التصقَ به من خطيئةٍ كبيرة التصاقاً مباشراً. وفي سذاجةٍ سأَلَ إنْ لم يكنْ بالإمكانِ البحثُ عن السارقين واستعادَةُ المفقوداتِ منهم، لو أخذوا وَعْداً بالصَّفْحِ عنهم. فانفجرَ الكاهنُ لِكلامِ آرن ووَصَفَهُ بالغباء. ورأى آرن في ذلك الوصفِ إذْلالاً لذاته.

وفيما ذَهَبَ لِيَلْتَمِسَ مِنْ الكاهنِ أنْ يَغْفِرَ ما بَدَرَ منه مِنْ غَبَاءٍ، وإنْ كان الغباءُ عن حُسْنِ نيَّةٍ، إذا بالكاهنِ يَبْتَعِدُ عنه وهو يَرْغِي ويستشيطُ غضباً على الخيولِ وعلى الأغبياءِ معاً. وصلَّى آرن بعضَ الوقتِ للأرواحِ البائسَةِ التي أَغْوَتْهَا السرقة. وأضاف في صلاتِه أنه يَحْمِلُ قِسْطاً مِنْ المسؤولية في ما حَدَثَ قبلَ حِينٍ. لقد تَرَكَ خُرْجَه بالفعلِ، وبذلك أَوْقَعَ في الإغراءِ مَنْ ضَعُفَتْ أرواحُهم وخَوَتْ بُطونُهُم.

* * *

في شمال سكارا كان يقام عند عائلةِ غونار حفلُ زفافِ غونار دي

ريديبرغا الذي كان مديراً لــ توركال، عميدِ مَجْمَعِ الرهبان. والعميدُ الذي حضَر شخصياً حفلةَ الزواج، كان فَرِحاً بما أمكنَه تَرْتِيبُهُ لمديرِه، لأنَّ ذلك الــ غونار لم يكنْ وَسِيماً قط، ولم يكنْ يَملِكْ شيئاً يُقدِّمُه لمؤخَّرِ المَهْرِ. لكنْ، حين فكّر في ما يَكْسِبُه مديرهُ، ما لبث أن رَأَفَ بِه، واتخّذ ما وجَبَ اتخاذُه من أجلِ إيجادِ زوجةٍ له.

استفاد أحدُ المزارعين من ذوي الثراءِ الواسعِ، يُدْعَى تِرْجِيلْس دي توربوجورنتورب، من مُساعدةِ العميدِ في وَضْعِيَّةٍ صعبةٍ، وفي لحظةِ ضَعْفٍ، وقد وَعَدَهُ بأنْ يَردَّ له تلك الخِدمةِ. وتجسَّدَتْ تلك الخِدْمةُ في زواجِ غونفور، ابْنَتِه الصُّغرى، بغونار دي ريديبرغا. وكان هذا الزواجُ يُرضي أشخاصاً كُثْراً: كان تِرْجِيلْس فَرِحاً لأنه لم يكنْ مُرْغَماً على دَفْعِ مَهْرٍ ذي قِيمة، وهو ما كان يمكنُ أنْ يكون لو زَوَّجَ ابْنَتَهُ زَواجاً لائقاً. ورغم قِلَّةِ مَوارِده وسماجَةِ خِلْقَتِهِ وَجَدَ وغُونار دي ريديبرغا، نفسَه، عَرِيساً لِزوجةٍ بالغةِ الجمال.

اعتقدَ العميدُ أنه قد تصرّف لِخَيْرِ الجميعِ، وبخاصةٍ لخيرِ غونار، مديرِه الوفيِّ، الذي، لولا ذلك لَمَا وَسِعَهُ أنْ يجدَ زوجةً مُخصبة. ولَمَّا كان غونار يؤدِّي واجباتِ إدارتِه أفضلَ أداءٍ، ويجلبُ للعميدِ سبعةَ أضعافِ ما كان يُنْفِقُهُ، فقد كان من الحصافَةِ أنْ يحرِصَ العميدُ على أنْ يكون للبيتِ أطفالٌ يملؤونه. وعلى هذا النحو يمكنُ لممتلكاتِه أنْ تظل في حوزةِ العائلةِ نفسِها، من دون أن يضطرّ للتخلُّصِ من غونار عندما يتقدَّمُ به العمرُ وليس له أطفالٌ يُعِيلُونَه ويَهْتَمُّون بشؤونه.

كلُّ الناس إذاً كانوا فَرِحين، إلا غونفور التي ظلت تبكي لأسبوعٍ كاملٍ بلا انقطاعٍ قبل أنْ تُرْغَمَ على قولِ نَعَمْ أمام العميدِ، وأن تُفْصِحَ عمَّا تراه ضرورياً من الرغباتِ لكي يتمَّ الاحتفالُ بزواجِها.

كان استهلاكُ هذا الزواجِ في ليلةِ الدُّخْلَةِ على الخصوص هو الذي يُصادِقُ على هذا القِرانِ في أعينِ الجميعِ، وفي أعينِ الكنيسةِ على السواء. نساءٌ أكبرُ سِناً شَرَحْنَ لها بِأَدَقِّ التفاصيلِ واجباتِ الفتاةِ، وقد صَمَّتْ غونفور

أذنَيْها حتى لا تَسْمَعَ كلّ تلك الفظاعات.

لقد توسَّلتْ إلى أبيها بأنْ يُجَنِّبَهَا ذلك الرجلَ الدَّميمَ، وأنْ يُتيحَ لها أنْ تتزوَّجَ بدلاً عنه غونارا آخرَ، كان ثالِثَ أبناءِ لانغافريتين، أي من المزرعةِ المجاورة. لقد كان الشّابَّان يتمَنَّيان بحرارةٍ أنْ تجري الأمورُ كما تمنيا لها أنْ تجري.

لكنْ هنا غَضِبَ تِرْجِيلس: فلم يكنْ يملكُ الوسائلَ المطلوبة. كانت لانغافريتين، بالفعل، مزرعةً لا تقلُّ كِبَراً عن مزرعتِه، ولو وافقَتْ العائلتان على ذلك القِران لكان مَهْرُ غونفور أكثرَ أهميةً. ومن دون مَهْرٍ لائقٍ فلَنْ يُنْظَرَ إليه كَرَجُلٍ جديرٍ بالشَرَف. فلم يكنْ لهذا الأمرِ من حَلٍّ مناسِبٍ، ولم تُغيِّرْ منه توسُّلاتُ غونفور أيَّ شيء. لقد سَعَى والِدُها لأنْ يُخَفِّفَ عنها روعَها، مؤكدا أنّ نزواتِ أيِّ عروسٍ حديثَةِ العَهْدِ بالزواجِ آيلةٌ للزوالِ بعد حينٍ. فلا تكاد تُنجبُ أطفالا تعنى بتربيتهم حتى لا يَبْقَى لتلك النزواتِ أيُّ أَثَرٍ يُذكر.

صارت غونفور إذاً عروساً بفستانِ العُرْسِ، فيما كان الرجالُ من حولِ المأدُبَةِ يستمتِعون بأطيبِ المأكولاتِ. كانت كلُّ مَزْحَةٍ من مُزَحِهم حول اضطجاعِ العَرُوسَيْنِ الذي كان كلّ واحدٍ يصِرُّ على حُضورِه، تَقَعُ من نفْسِها وكأنها وَخْزُ إبَرٍ غُرِسَتْ في جِلْدِها. كان عريسُها في غايةِ السُّكْرِ، وكان الرجالُ يُنْزِلُون بِظَهْرِه أكبرَ الضرباتِ وهم يُصدِرون حركاتٍ مُخلَّةً بالحياءِ، يُومِئُون بها إلى عُضْوٍ في حَجْمِ عُضْوِ الحصان. وقد ارتجَّتْ غونفور لذلك أيما ارتجاجٍ، وتوسَّلَتْ إلى العذراء القدِّيسة بأنْ تأخُذَها في الحالِ، من دون أنْ يُكْتَبَ لها ذلك انتحاراً أو خطيئةً، وأنْ تُجَنِّبَها ذلك المَقْتَ المُقيت. لكنْ في قرارةِ نفسِها كانت تعرفُ عن يقينٍ أن العذراءَ القدِّيسة لنْ تُلَبِّيَ لها ذلك الاسترحامَ. فقريباً سيضيع كلُّ حُلْمٍ، وقريبا سيفُضُّ بكارتَها هذا الرجلُ الدميمُ، ولا مناصَ من أنْ تُوَسِّعَ فَخِذَيْها على نحو ما شَرَحَتْهُ باقِي النساءِ شرحاً مُستفيضاً.

وفيما كانت تنظرُ إلى الشمسِ وهي تغربُ وتُعْلِنُ بذلك عن تلك الليلةِ

التي لا تَرْحَم، إذا بغونفور تسمعُ العذراءَ القدِّيسة وهي تتحدَّثُ إليها في جَلاءٍ. فصرخَتْ غونفور، وتركتْ الطاولةَ على عجلٍ، وعَبَرَتْ البابَ، ثم شَمَّرَتْ ثَوْبَها وأطلقتْ للريحِ ساقَيْها.

مرَّ بعضُ الوقتِ قبل أنْ يَفْهَمَ الرجالُ السُّكارى ذلك الذي حَدَثَ قبل بُرهة، بل لم يلحظْ معظمُهم تلك العروس عند هُروبِها. وأخيراً استقامُوا على أَرْجُلِهِمْ المرتعشة وانطلقُوا يتعقّبون العروسَ الهاربة. وقد صَرَخَ أحدُهم: «خَطَفُوها ،خَطفوها! خَطَفوها!»

عاد القطيعُ الثَّمِلُ أدراجَهُ ليتسلح بالسيوفِ والحِرابِ، وأسْرَجَ الخيولَ في ارتباكٍ ورُعونة. كانت النساءُ ما زِلْنَ يُشاهدن في وَجَلٍ، العروسَ غونفور وهي تَعْدُو على طريقِ سكارا.

كان آرن يمتطي حصانَه في هُدوءٍ، خاوِيَ البطن. لم يستعجلْ أمرَهُ، لأنه كان يعرفُ أنّ السماءَ من دون قَمَرٍ، ومن دون نجومٍ، وأنّ عليه أنْ يَعْثُرَ على مأوًى ينامُ فيه ليلاً. فهو لنْ يُدْرِكَ أرناس قَبْلَ غداءِ اليوم التالي.

وعندئذٍ إذا بامرأةٍ تُقْبِلُ عليه مُسْرِعَة، وقد شرَّعَتْ ذِراعَيها، وتجحَّظتْ عيناها وتَبَعْثَرتْ ملابسُها. وأصيب بالذهولِ فأوْقَفَ حصانَه في الحال وتأمَّلَها، عاجِزاً عنْ فَهْمِ ما جَرى، وحتى عنْ مُبادَرتها بأقلّ تحيّة.

«أنقذوني، أنقذوني من الشياطين!» صاحتْ الفتاةُ التي ما لبثت أنْ انهارتْ من فرطِ الإنهاكِ، أمام حوافرِ حصانه.

نزل آرن من على مَطيتِه، مذعوراً خائِفاً. كان يَعِي أنّ التي أمامَه في خطرٍ، لكنْ، بأيِّ طريقةٍ يمكن أنْ يُنْقِذَها؟

جثا إلى جانبِ الفتاةِ اللاهِثة، وفي هُدوءٍ مدّ يَدَهُ إلى شَعْرِها الكستنائي، لكنه لم يجرؤْ على مُداعَبَتِه. ورَفَعَتْ عينَيْها إليه، فامتلأَ نظرُها وملامِحُها بالفرحة، وانطلقَتْ في حَديثٍ غامِضٍ، تحت أنظار آرن الناعِمة، عنْ العذراءِ القدِّيسة التي أرسلتْ إليها مَلاكاً حارِساً. وعند سماعِهِ لتلك الكلماتِ ظنَّ آرن أنْ لعلَّ الآنسةَ ليستْ في كامِلِ وَعْيِها.

في هذه الحالِ عَثَرَ معازيمُ الزفافِ، على العروسِ الهاربةِ، وعلى

مُخْتَطِفِها. وقد انقضَّ أوائلُ الواصِلِينَ على العروسِ التي أخذتْ تصرُخُ صُراخاً يُفَتِّتُ القلوبَ. فقد رَبَطوا رِجْلَيْها ويَدَيْها، ووضَعوا قطعةً من القماشِ على فَمِها. وأمسَكَ رَجُلان بآرن من ذراعَيْهِ، وطأطآ رأسَه جَبْراً، فَلَمْ يَصْمُدْ آرن لذلك ولم يُبْدِ أيَّ مقاومة.

ثم وَصَلَ غونار دي ريديبرغا بِدَوْرِه، ومُدَّ بِسَيْفٍ للعريسِ، ما دام القانونُ يُبيحُ له أنْ يَقْتُلَ الخاطِفَ إنْ وُجِدَ مُتَلَبِّساً. وحين رأى السيفَ عالياً طَلَبَ آرن في هُدوءٍ أنْ يؤدّي صلواتِه. ورأتْ الجماعةُ أنّ في ذلك إرادةً مسيحيَّةً ليس من الأدبِ والحِشمةِ رفْضُها.

لم يشعرْ آرن بأيِّ خوفٍ وهو يَجْثُو، إلا من المفاجأة. فهل لهذا السببِ أنقذَ الربُّ حياتَه في ما مَضى، لكيْ يُقْطَعَ اليومَ رأسُه على يدِ جماعةٍ من السُّكارى اعتقَدُوا اعتقاداً راسِخاً أنه قد نَوَى فِعْلَ الشرِّ في حقِّ تلك المرأة؟ فالأمر أكثرُ حُمْقاً من أنْ يكونَ حقيقة. لم يُصَلِّ آرن من أجلِ حياتِه هو، بل من أجل أنْ يعود الرُّشْدُ إلى عُقولِ تلك الكائناتِ البائسة وهي على وشكِ أنْ تَقْتَرِفَ خطيئةً كبيرة.

كان منظرُ آرن، بالتأكيد، يدعو للشفَقَة، وهو يُصلّي من أجلِ كلِّ الرجالِ الحاضِرين الذين اعتقدوا بأنَّ حياتَه هي التي سَتُفارِقُهُ قريباً. لقد رأوا غُلاماً يملأُ خَدَّيْهِ زَغَبٌ، ويرتدي لباساً رَثّاً، وعلى رأسِه آثارُ الإكليل. بدأ أحدُهم يُصلي من أجلِ آرن، وقال آخرُ أنه ليس من الشجاعةِ قَتْلُ راهب يافعٍ لا حول له ولا قوة. فَحَرِيٌّ أنْ يُزَوَّدَ بسيفٍ يُدافِعِ به عن نفسِه ويموتُ مَوْتَةَ رَجُلٍ. وسَرَتْ هَمْسَةُ قَبُولٍ بين الحاضرين، وفجأةً رأى آرن سَيْفاً شمالِياً يسقُطُ أمامَه.

فشكرَ الربَّ في إمعانٍ قَبْلَ أن يمسِكَ بذلك السيف غيرِ المُهَذَّبِ، إذ عَرَفَ من ذلك السيفِ أنه سوف يَلْبَثُ حَياً.

وبدوره وَصَلَ توركل، عميدُ مَجْمَعِ الرهبان في سكارا. وكان لِمَا رآه هناك، أو بالأحرى لِمَا خُيِّلَ إليه أنه قد رآه، شأنٌ عظيم.

عندما اندفَعَ غونار دي ريديبرغا، وهو يرفعُ السيفَ عالياً، لِيَضَعَ حَداً

لذلك البؤسِ الذي خَرّب زَفافَهُ، اكتشفَ فجأة أنه يَضْرِبُ في الفَراغ. لم يفهمْ ما حَدَثَ، لأنه لم يَعِ أنه ثَمِلٌ ثَمَلا كبيراً.

وضَرب مرةً أخرى في الفراغِ، وأخرى، ثم أخرى.

ورأى آرن أنّ الرجلَ الذي أمامَه لم يكن خَطِراً، وقال لنفسِه أنّ الأمرَ على الأرجحِ، محسوبٌ على السُّكْرِ. وذلك أفضلُ، لأنه، بذلك لنْ يُعَرِّضَ نفسَه لتوجيهِ الإساءَةِ إلى أخيهِ الإنسان.

في المقابلِ ظنَّ غونار دي ريديبرغا أنّ الأمرَ كابوسٌ ليس إلا. وقد شَرَعَ رفاقُه يسخرون منه، وكان في كُلِّ مرةٍ يُوَجِّهُ ضَرْبَةً إلا وَوَجَدَ ذلك الشيطانَ- ولا يمكن في نَظَرِهِ أنْ يكون إلا شيطاناً- في مَكانٍ آخر. أجل، فذلك الشيطانُ لا يفرُّ منه، ولكنه لا يَقِفُ أبداً في المكانِ المتوقَّعِ أنْ يَقِفَ فيه.

ظل آرن يدورُ حول مُهاجمِه على الجانبِ السيِّءِ، وهو يُمسِك بالسيفِ بيدِهِ اليسرى، لأنّ الأخ جيلبرتْ كان يقول دائماً إنّ من الصّعوبةِ بمكانٍ أنْ يُحارِبَهُ أحدٌ وهو يمسكُ السيفَ بهذه الكيفية. لم يكنْ آرن في حاجةٍ قط لأنْ يحمِيَ نفسَه بِسيفِه، وكان حَسْبُهُ أنْ يتحرّك بلا انقطاع. كان يأمُلُ في أن يشعر الرجلُ الكَهْلُ بالتَّعَبِ سريعاً فيتخلّى عنه. وهكذا لنْ يُصابَ أحدٌ منهما بجراحٍ، حين يتدخَّلُ الربُّ ليُنْقِذَهما معاً.

أحسّ غونار دي ريديبرغا بالإذلال، وبدأ يشعرُ بالخوف. فطلبَ من جُوار، وهو جندي كبير، أنْ يساعده في مُهِمَّتِه. ورأى جُوار أنّ الزّوجَ قد لَقِيَ من الإذلال بما فيه الكفاية، سيما وأنه رأى أنّ الشابَ يُدَبِّرُ أمرَهُ بأساليبَ يَسِيرَة. وفي إصرارٍ رَمَى بنفسِه في المعركةِ حتى يُنْهِيَ الأمرَ بسرعة. لكنَّ اعتراضاتِ العميدِ على ذلك لم تُجْدِ نَفْعاً.

فجأة وَجَدَ آرن نفسَه في خَطر. فاستولى عليه الخوفُ ونَقَلَ سيفَه إلى اليد اليمنى، ثم استدارَ بِسُرْعَةٍ ودافَع عن نفسِه لأوّلِ مرّةٍ وهو يُسدِّدُ لخصمِهِ ضَرْبَتَيْنِ سريعتين.

سقَط غونار دي ريديبرغا أرضاً، مَقْطُوع الحَلْقِ، فيما انهارَ جُوار وهو يَعْوِي بعد الضَّرْبَةِ التي أصابته في عُمْقِ خاصِرَتِه.

وتصلّبَ الجميعُ. لقد رأى مَدْعُوُّو الزّفاف شيئاً ما كان يمكنُ أنْ يَحْدُثَ. شيءٌ لا تَصْنَعُهُ سوى المعجزة.

أمّا آرن فقد شَلَّهُ الرُّعْبُ، إذْ رأَى بِأُمِّ عينيه أنّ الرجلَ الذي هاجمَه يَئِنُّ على الأرض، وهو يَنْزِفُ دَماً، وأنّ الرَّجُلَ الثاني الذي أَتْقَنَ استعمالَ السيفِ، يُعاني جُرْحاً مُميتاً. وترك آرن الذي أرهقهُ فعلهُ، سيفَه يسقُط على الأرضِ، وأطرقَ برأسِه واستعدَّ لأن تُقْطَعَ رأسُه في اللحظة الموالية، على يدِ أيٍّ من الرجال الذين حَضَرُوا.

رَفَعَ العميدُ ذراعَيه إلى السماء، وأَنْشَدَ ترتيلا، وفي ذلك ما يحولُ دون أيِّ هجوم ضد آرن، في تلك اللحظة على الأقل. ثم تحدّث كل بقوةٍ عن المعجزة التي حدثَتْ لتوِّها: كائنٌ بريءٌ كلّ البراءة يحميه العَلِيُّ بسببِ براءَتِه. لقد رأى العميدُ الملاكَ جبريل بوضوحٍ وهو يقودُ ذراعَيْ الطفلِ المسكين الأعزل. وبسرعةٍ شَهِدَ معظمُ الأشخاصِ الحاضرين بأنهم رأوا الشيءَ نفسَه... المعجزة، وكيف قاوم راهبٌ صغيرٌ مُحَارِبَيْنِ كبيرين.

وفُكَّتْ أواصِرُ العروسِ التي حَمَدَتْ الربَّ الذي بَعَثَ إليها شخصاً لِيُنقِذَها في آخرِ لحظة. وأنشدَ الجميعُ بعضَ التراتيلِ، لكنّ آرن لم يَقْوَ على مجاراتهم.

طلَب العميدُ من آرن بعد ذلك أن يُخبرَه من أين جاء، وقرّر أن يصطحبَ بنفسِه الغلامَ المسكينَ إلى فارنيم. أما جثمانُ غونار دي ريديبرغا فسوف يُنْقَلُ إلى بيتِه، فيما سيُنْقَلُ الرجلُ الجريح فوق نَقَّالَة.

وأنهَى العميدُ كلامَه وهو يرفَعُ صوتَه، ثم سأل مَنْ نادَى»خَطَفُوها!« ثلاثَ مراتٍ، فأطرقَ الجميعُ رؤوسَهم، ولم يردُّوا بكلمة. ثم طَلَبَ إنْ وُجِدَ بينهم من يُؤمنُ أنّ ذلك الراهبَ الصغيرَ القادمَ من فارنيم، مُخْتَطِفٌ حقاً. لكنْ لا أحدَ أكَّدَ ذلك.

* * *

فارِسان اثنان، مختلفان كلّ الاختلاف، وصلا في ذلك الصباح الجميلِ من أيامِ الخريف إلى فارنيم. لقد بدأتْ أشجارُ القيقبِ، والسنديانِ والزّانِ

تَكْتَسِي بألوانٍ صفراءَ وأخرى حمراءَ.

كان توركل، عميدُ مَجْمَعِ سكارا للرهبانِ، يَشِعُّ بمزاحٍ فَرِحٍ، لأنَ الربَّ أكرمَهُ كَرَماً لا حدَّ له فأشْهَدَهُ على مُعجزة.

أما آرن الذي التزمَ الصَّوْمَ منذ فِعلتِه الشائنَة، وأصرّ على أنْ يمضي الليلةَ في الصلاةِ في الكاتدرائيَّة، فقد صار شاحِباً، بعد أنْ أثْقَلَتْ الخطيئةُ فُؤادَه ولُبَّهُ. كان آرن يعرفُ جيداً أنّ خِطابَ الراهبِ المُلْتَهِبِ خِطابٌ خالٍ من الصحة. لقد رَأَفَ به الربُّ حين أعطاهُ سيفاً، لكنه كان أقْدَرَ على الدفاع عن نفسِهِ من دون أنْ يَجْرَحَ أحداً. والحالُ أنه قد أفرطَ في هذه النِّعْمَةِ فاقترَفَ أسوأ الخطايا. وكان يعرفُ أنه خاسِرٌ لا محالة. بل وقد أدهشَهُ أنّ الربَّ لم يَقْتُلْهُ في اللحظةِ التي ارْتَكَبَ فيها ما لا يَقْبَلُ عَفْواً ولا مغفِرة.

انتقلوا تحت شَجَرَتَيْ لسانِ العصافير، اللتين كانتا كُلَّ ما بَقِيَ من أراضي أُمِّ آرن التي أَهْدَتَها للسيسترسيين فيما مَضَى، ثم عَبَرُوا البابَ. واستأذن آرن في أنْ يذهبَ إلى الكنيسةِ من دون تأخّرٍ. هناك سيُصلي حتى يستعِيدَ من القوةِ ما يكفيه لكي يُبوحَ بذُنوبه.

التَمَسَ له توركل في فَخْرٍ لِقَاءً لدى الأب هنري، لأنّ في حوزتِه أخباراً عظيمةً يريدُ أنْ يَرْوِيها.

كانت المحادثةُ ما بين الرَّجُلَيْن غريبةً جداً. فلم يجدْ الرجلان مشقَّةً في أنْ يَفْهَمَ كلٌّ منها الآخرَ وحسب، لأنّ لاتينيَّةَ العميدِ لم تكن تَقِلُّ رَداءةً عن لغة «نُوروا» للأبِ هنري، بل كان العميدُ يَتَّقِدُ حماسةً بأنْ ليس لقصّتِهِ أيّ معنَى. وقد طلب الأبُ هنري منه أنْ يَهْدَأَ، وأهداهُ كأساً من النبيذِ، وتوسّل إليه أنْ يُعيدَ قصّتَه من البداية.

وكان الأبُ هنري كلّما أدركَ حَجْمَ الكارثة التي حَدَثَتْ لتوِّها إلا واسْتَعْصَى عليه أكثر فأكثرَ أنْ يَفْهَمَ انبِهارَ العَميدِ بها.

كان من البداهةِ أنّ آرن لم يكنْ خاطِفاً إطلاقاً. لكنّ شقَّ كثيراً على الأبِ هنري أنْ يَدْفَعَ زميلَه الجاهِلَ لأنْ يَشْرَحَ له كيف أمكنَ له يُلْبِسَ آرن مِثْلَ تلك التُّهْمَة.

ثم إذا أخطأ أحدُهم وأعطَى آرن سيفاً فَمِنَ البديهي أن تنتهي المسألةُ إلى قاتِلٍ ومُحْتَضِرٍ. يبدو أنّ الربَّ قد ابْتَلَى الأشخاصَ المجتمِعين في ذلك الزفافِ بِبَلاءٍ مشؤوم. أو لعله عاقبَهم لِقَسْوَتِهِمْ وغَبائِهم أمام امرأةٍ وَجِلَةٍ لاذَتْ بالفرارِ، وفي حقِّ أوّلِ قادمٍ اعتبَرُوه خاطِفاً. كان الأمرُ بالتأكيدِ عادةً هَمَجِيَةً، سيما وأنهم اعتقَدُوا بحقِّهِم في القَتْلِ من دون أيّ شَكْلٍ آخرَ من الحُكْمِ في حقِّ ذلك الذي أمسَكوا به. لكنْ، من ناحيةٍ أخرى، كانت ثمة قوانينُ قد سُنَّتْ في هذا الجانب من العالم أيضاً، وقد ظنَّتْ تلك الأرواحُ الضالَّةُ أنها تصرّفَتْ عن حُسْنِ نيَّة.

لكنْ كان في الأمرِ ما لا يمكنُ استساغتُه بأي حالٍ من الأحوال. كان هذا العميدُ الجاهلُ على يقينٍ بأنَّهُ كُرِّمَ بِحضورِ معجزةٍ، كان الملاكُ جبريلُ يقود فيها كلَّ حركةٍ من حركاتِ سيفِ آرن.

حدّثَ الأبُ هنري نفسَه بأنّ المَلاكَ جبريل لو رأى حقاً ذلك الذي كان سيحدُث، لَمَا سَعَى لِنَجْدَةِ آرن، بل لِنَجْدَةِ الشخصين الفظَّين البَليدَيْن. وبالطبع، احتفظَ الأبُ هنري بتلك الأفكارِ لنفسِه.

غدَتْ القضيةُ مُلتبسةً كثيراً عندما طلب العميدُ توركل مساعدةَ الدير، حتى تُسَجِّلَ صِلتَه بالمعجزةِ تسجيلا خَطِّياً، قَبْلَ أنْ تَنْطَفِئَ الرؤيةُ من ذاكرتِه، وما دام يذكُر أسماءَ الشهودِ عليها، جميعاً.

سعَى الأبُ هنري لتوضيحِ ذلك الطلبِ فأصرّ على أنْ يَشْرَحِ توركل قَوْلَ قوانينِ البلادِ في شأنِ تصرّفات الأخ آرن. إذاً، لقد حُوِّلَ العميدُ عن طلبِه لمدّةٍ طويلة.

تقول القوانين إنّ المُختطِفَ حين يُقبَضُ عليه في الحالِ ينبغي أنْ يُعدَمَ في الحال. اللهم إلا إذا ثَبَتَتْ براءتُه، ففي هذه الحالةِ يصبحُ قتلُهُ جريمة.

لقد قرّر الملكُ أن يُعْلِنَ المحلَّفُونَ براءَةَ آرن، وبأنّ معجزةً قد حدثتْ بالفعل، وأنّ هذا الأخيرَ سَيُعْلِنُ الـ تينغ براءَته - في حالِ وصلتْ المسألةُ إلى هذا المستوى. ومن ناحيةٍ أخرى، فإنْ رغِبَتْ عائلاتُ الضحية، أو أدهَى من ذلك عائلاتُ الضحيَّتَيْن، في أنْ تَرْفَعَ القضيةَ أمام الـ تينغ، فعندئذٍ

سوف تُطرَحُ مسألةُ معرفة إنْ كان آرن يمتلكُ أشخاصاً بإمكانهم أنْ يُؤَدُّوا القَسَمَ باسمه – شريطة أنْ لا يكونَ هؤلاء الأشخاصُ من الغرباء. فهل تلك هي الحالُ؟ وهل يَنْتَسِبُ آرن إلى سُلالة من السلالات؟

«أجَل، أجاب الأبُ هنري، مُتَنَفِّساً الصعداء. إنّ هذا الشابَ ينتسبُ حقاً لِسُلالةٍ معروفة. اسمُه آرن ماغنوسون من أرناس، وأبُوه هو ماغنوس فولكسون، وخالُه بيرجر بروزا دي بيالْبو. واللغمان إسكيل قريبٌ له، إلخ، إلخ. الغلامُ إذاً واحدٌ من عائلَةِ فولكونغر، حتى وإنْ كنتُ أشكُ أنْ يَفْهَمَ معنى المسألة. فلن تكون ثمة مشكلةٌ في أنْ يَنُوبَ أحدُكم في الإجابةِ عنه.»

«لا، بالتأكيد لا، شكراً لله! صاح العميد. سوف أعلنُ للعائلاتِ على وَجْهِ السرعةِ بأنْ لا تَنْتَظِر شيئاً من الـ تينغ. وأَفْضَلُ من ذلك، فلنْ تستطيعَ هذه العائلاتُ أنْ تعترِضَ على صِحَّة علاقتهِ بالمعجزة!»

فحتى وإن بدا لِرَجُلَيْ الكنيسةِ أنهما قد وَجَدا حَلا سَهْلا لمشكلةٍ مشروعة، فقد كانت تختلِجُهُما حالاتٌ ذِهنيةٍ مختلفة. ولم تَسَعْ الفرحةُ العميدَ الذي بدا وكأنه يسبحُ من فَوْقِ سحابةٍ صغيرة. وبذلك أَنْقَذَ علاقتَهُ بالمعجزةِ التي كان سيتحدَّثُ عنها كثيراً في الكاتدرائيَّة. وفوق ذلك فسوف تُدَوَّنُ تلك المعجزةُ على أفضلِ رقٍّ، بأيدي مَنْ كان التّدوينُ على الرقِّ من صَميمِ اختصاصِهم.

أحسَّ الأبُ هنري الذي كان يعرفُ أنّ ما مِنْ معجزةٍ حَدَثَتْ حقاً، بالعَزَاءِ، لأنّ آرن صار غيرَ مُعَرَّضٍ لأيِّ قانونٍ من قوانين فاسترا غوتالاند القاسية العمياء. لكنه كان يُشْفِقُ على آرن، ويأسفُ لخطيئَتِهِ هُوَ في حقِّهِ، لأنه رأى أنّ الأخَ جيلبرتْ، وهو نفسُه، يتحمّلان قِسْطاً كبيراً من المسؤولية في ما حَدَثَ قبل حين.

«أيمكنني الاستعانةُ بِناسِخٍ يُعينُني على هذه القضيةِ المهمَّة؟ سأل العميدُ وقد احمرّ وَجْهُهُ من فرط الإثارة.

« بطبيعةِ الحال، يا أخي، أجاب الأبُ هنري بوتيرةٍ مذهلة. سنُحَقِّقُ ذلك في الحال.»

أتَى الأبُ هنري بِنَاسِخٍ وشرَح له بالفرنسيَّةِ بأنّ العميدَ الأُمِّيَّ لا يتحدثُ هذه اللغةَ، وأنْ لا بد من مُعاملتِه بِلُطفٍ، ومن كِتَابةِ كلِّ ما يُمْلَى عليه، ومن تجنُّبِ أيِّ اعتراضٍ حتى وإنْ بدا كلُّ شيءٍ منه بلا معنى.

بعد أن توجَّه العميدُ إلى مَنْسَخِهِ بخُطَى فَتَىً يافِعٍ، قرّر الأبُ هنري أنْ يلتحِقَ بآرن المسكين. وكان يعرفُ عن يَقِينٍ مكانَ وجوده.

الفصل السابع

كان العميدُ توركل رجلا صاحبَ عقلٍ عمليٍّ وضميرٍ كلّما تعلّقَ الأمرُ بالمالِ، ولا سيما مالُه هو. وكان مُديرُه غونار دي ريديبيرغا قد تَرَكَ للتوِّ هذه الأرضَ وهو في عزّ قُوَّةِ العُمرِ، ومن دون أن يُنْجِبَ للمستقبلِ مديرين يخلِفونَه. وقد انقطع حَفْلُ زواجِه انقطاعاً غايةً في الحُزن.

وبعد أنْ أفاقَ من هَوْلِ ذلك الحَدَث، ومِنْ تلك الرّحمةِ التي كُرِّمَ بها لِيَشْهَدَ معجزةً من مُعجزاتِ الربِّ، بدأ يفكّر في أَحَطّ عواقبِها الدنيوية. لكنّ شيئاً ما انفكَّ يُلِحُّ عليه كثيراً، وهي حاجتُه السريعةُ إلى مديرٍ جديد لـــ ريديبرغا.

ولمّا كان هو المرشدَ الديني لـِ غونفور، فما لبث اعترافُ هذه الأخيرةِ أنْ أوحَى إليه ببعضِ أفكارٍ غاية في البساطة. صحيحٌ أنها قد تَمَنَّتْ مَوْتَها ومَوْتَ زوجِها القادم، ولذلك السببِ أنزلَ بها توركل أسبوعاً من العقابِ اللَّيِّنِ، لكنّها اعترفتْ أيضاً بأنّ أُمْنياتِها الآثمةَ مردُّها مَيْلٌ بِنَفْسِها لِشابٍ يُدْعَى غونارْ أيضاً.

وما لبثَ العميدُ أنْ عرَفَ بأنّ ذاك الذي يُدعَى غونار أيضاً، القادِمَ من لانغافريتين، هو الابنُ الثالثُ من أبناءِ المزرعةِ. فما كان يمكنُ لهذا الابنِ، أن يتزوجَ في الظروفِ العادية، لأنّ مثلَ ذلك الزواجِ سيُؤدّي إلى انقسامِ لانغافريتين إلى ثلاثةِ أقسامٍ من الإرثِ، كلّ قسمٍ منها أصغرُ من أنْ يَفِي بالحاجة. كان غونار شاباً حازماً يميلُ إلى زراعةِ الأرضِ بدلاً من استعمالِ الأسلحةِ في خدمةِ سيّدٍ من الأسياد.

طَلب تُولكر الشابَ غونارْ للحضورِ على عَجَلٍ، واستمَع إلى اعْتِرافِه، ومِنْ هنا رأَى كيف أنّ لكلِّ شيءٍ مخرجاً. وقدْ اشتاق الشابُّ لغونفور بقدر اشتياقِها إليه.

كلُّ شيءٍ سيكون على أحسنِ ما يرام لو صار الشابان المُديرَين الجديدَيْن

لِــ ريدييبيرغا. كان تِرْجيلْس دي توربوجورنتورب، والدُ غونفورْ، بالتأكيد، قد خطّط لابنتِه عريساً أفضلَ من ابنٍ ثالثٍ. لكنْ في وضعيّته تلك لم يكنْ من السَّهلِ تزويجُها، أياً كان جمالُها، لأنّ قصةَ زواجِها الدموية، سرعان ما شاعتْ أخبارُها في كاملِ فاسترا غوتالاند. والحالُ أنّ العميدَ لم يُسْهِمْ في أمْرِ زواجها ولو بالقليل، رغم تحمُّسِه في ذِكْرِ المعجزةِ في كلِّ موعظةٍ من مواعظه. فالأضمنُ إذاً، في رأْي تيرجيلس الذي كان مالِكاً لمزرعتِه، أنْ يُزوّجَ ابنتَه حين تحلُّ أدنى فُرصة.

وبالنسبة لِــ لارسْ كوبرْ دي لانغافريتين، والدِ الشاب غونار فلا ضيرَ إطلاقاً في أنْ يرى ابنَه الثالثَ وقد تزوّج، وبالكيفيةِ التي يختارُها الولد نفسُه. فالوالِدان كِلاهما يُوفّران وبالقدر نفسِه إمّا مَهْراً مُؤجّلا أو صِداقاً. ولنْ يَدَع الشابان أبَوَيْهِما يَنْعَمَان براحةِ البالِ لوْ أَدْرَكَا تلك الاستطاعةَ التي باتت مُتاحةً لهما.

وبصفتِه مُرشداً دينياً لغونفور فقد زرَع العميدُ أوّلَ بذرةٍ من خلال حوارٍ معمَّقٍ، ثم أعاد الكرّةَ مع غونار. وفيما بعدُ صار من اليسيرِ جمْعُ الأبوين معاً، وجَرَتْ العلميةُ في هِمّةٍ، إذ صار بالإمكان تنظيمُ الخِطْبَةِ بلا أيِّ تأجيل.

وأقيمتْ الخِطبةُ في ريدييبيرغا، في يومِ سانتْ ميشيل، عند انتهاءِ موسمِ الحصاد. وبطبيعةِ الحالِ، حضر العميدُ تلك الخطبةَ ليؤكدَ الصلاتِ ما بين غونفور وغونار. وقد تناول الكلمةَ في هذه اللحظةِ من الاحتفالِ حين كان معظمُ المدعوّين ما يزالون على ريقٍ كاملٍ حتى يُنْصِتُوا إلى وَعْظِ رَجُلِ من الكنيسة، وقد دَعاهُم إلى مباركةِ معجزةِ الربِّ الذي جَمَعَهُمْ في النهاية رغم كل التّوقّعات.

كان ذلك عند غونفورْ أجملَ يومٍ في حياتِها. أيُّ أهميةٍ في حياةٍ تحياها في ظروفٍ أقلّ ازدهاراً منْ ظروفِ ميلادِها؟ فها هي ذي منذ الآن تجلسُ إلى جانبِ غُونارِ(ها)، ذاك الذي تصوّرتْ أنها قد فَقَدَتْهُ إلى ما لا نهاية. فمنْ أعماقِ اليأسِ صَعَدَتْ مرّة أخرى إلى قمَم السعادة. ولَكَمْ كان يُغْبِطُها أنْ تَتَفَانَى في غُونار، بل وقد عزّ عليها أنْ يَجِدا نَفْسَيْهِما مُضطرَّيْن لانتظار

قُدومِ الربيعِ حتى يتزوّجا. لكنّ ذلك لم يكنْ سوى حِمْلٍ خفيفٍ للغاية، لأنَّ لو كلُّ شيءٍ كان كما خَشِيَتْ بحقٍّ أن يكون لكانتْ اليومَ مساءً تِلْوَ المساءِ تحت رحمةِ ذلك العجوزِ الكريهِ، وذاك على الأقل، ما أكّدته لها ثرثراتُ العجائزُ.

كان يسعُها أنْ تلتقيَ بغونارْ كأطيبَ ما يكونُ اللقاءُ، شريطةَ أنْ يكون شخصٌ بينهما. وبعد أنْ دامتْ الحفلةُ ساعاتٍ طِوالا، خَرَجا معاً إلى الساحةِ ليَشْهَدا مَغيبَ الشمس. وأَمْسَكَ كلٌّ منهما بيدِ الآخر، وغمَرتهما الغبطةُ بأنْ يَقْضِيا ما تبقّى من عُمرِهما معاً، وبأنْ يَكْبُرا ويَمُوتا في هذه المزرعة التي وإنْ كانت بالكادِ أقلَّ شأناً من مزرعةِ طُفولَتِهما، لكنّهما فِيها مَعاً.

كان في نَفْسِ غونفورْ طلبٌ شقَّ عليها كثيراً أنْ تعرِضَه عليه. لكنّ خَطيبَها لم يُبْدِ فيه أيَّ اعتراضٍ، ففرّجَ ذلك عن رُوحِها كثيراً.

صحيحٌ أنها ستظلُّ إلى الأبدِ مدينةً للقدّيسةِ العذراء التي أنْقَذَتْهَا في آخرِ لحظة من مخالبِ الشقاء. ومن المؤكد أنها لنْ تُفرِط أبداً في ذِكْرِ ذلكَ في صلواتِها.

لكنْ، حتى وإنْ لم يكنْ المرءُ سوى أداةٍ في يدِ الربِّ، وحتى وإنْ عَصِيَ كلُّ شيءٍ من دون مشيئَتِهِ، وحتى وإنْ كان كلُّ شُكرانٍ آيلاً إليه حتماً، فلمْ تجدْ بُدّاً من التفكير في ذلك الشابِ الذي كان أداةً من أدوات الربِّ. لقد بدا هزيلا واهِياً وخليقاً بالشّفقةِ، في ثوبِه ذاك الرثّ، عندما كان السّكارى الأفظاظُ على وشكِ أنْ يضربُوا عُنُقَه! ومع ذلك فقد أنقذها، بلْ وقد أنقذَ كِليهِما معاً.

رغِبَتْ غونفورْ، إذاً، في أنْ يَهَبَا لِديرِ فارنيم الحِصانين الكُمَيْتَيْنِ اللذين تسلّماهُما كَهديةٍ لخِطبتِهما، ورغِبَتْ في أنْ يزورَا الديرَ معاً ويُعَبِّرا عن امتنانِهما لذلك الراهبِ الصغير الذي أمّنَ سعادتَهُما بعد أنْ خاطَر بحياتِه من أجلِهما.

ووَجَدَ غونارْ الفكرةَ رائعةً، وهنّأَ غونفورْ بها. بلْ وقد اقترَح مُرافقتَها إلى فارنيم لذلك المَسْعَى.

وكان لِلَفْتَتِهِمَا تلك أثرُ البلْسَمِ على رُوحِ الشابِ الذي لم يكنْ بذلك القدرِ من الهشاشةِ، ولا من صِغَرِ العُمرِ إلا في ذاكرةِ غونفور.

* * *

عمِل الأخُ جيلبرتْ في مصنع الأسلحةِ ستةَ أيام، جَرَفَتْهُ إليه الحُمّى، والغضبُ، والإلهامُ الرباني. لقد أهمَل معظمَ واجباتِه الأخرى، لكنّ الأبَ هنري لم يَقُلْ في ذلك الشأنِ كلمةً واحدةً، وما انفكتْ ضرباتُ المطرقةِ تَرِنُّ في مِصْهَرِ فارنيم، حتى في غَمْرَةِ بعضِ لحظات الخُلوة.

فمنذُ زمنٍ طويلِ لم يَسْبِكْ الأخُ جيلبرتْ سيفاً واحداً وِفْقاً للطُّرقِ الجديدةِ، فليس من الصَّوابِ أنْ يَبِيعَ مثلَ ذلك السلاحِ لأولئك الهَمَجِ القادمِين من الشمالِ، وفضلا عن ذلك، فأولئك لا يملكون حتى مجرد الحُلْمِ بِدَفْعِ الثّمَنِ الحقيقي مقابلَ ذلك الصَّنِيع. وفوق ذلك لم يكونوا بحاجةٍ إلى سيفٍ من الفولاذ، مُرَصّعٍ بأسلاكٍ معدنيةٍ، لأنهم بالكادِ لا يكادون يُحسِنُون استعمالَ سُيوفِهم الخاصة.

في صناعتِه للسيوفِ الشماليةِ،كان الأخُ جيلبرتْ ينطلقُ من ثلاثةِ أنواعٍ من الحديدِ، يُمْزِجُها وهو يُثْنِي المادةَ مرّاتٍ عديدة ويُسَطِّحُها من جديد. ومِنْ هذا الخليطِ يحصلُ على بعضِ اللُّيونَةِ التي تَحْفَظُ للشَّفرةِ من البَرِيقِ والزخرفةِ بالقَدْرِ الذي يطيبُ للشماليين. ففي رأيِهم أنّ السلاحَ إذا ازدادَ زخرفةً ازدادَ حِدّة. فإنْ نُفِخَ في الشّفرةِ وهي باردةٌ، يُفضِّلُ أنْ يُمثِّلَ الرسمُ المنقوشُ عليها صورةَ ثُعبانٍ. لكنّ السيوفَ التي كان الأخُ جيلبرتْ يَسْكُبُها كانت أَمْتَنَ من السيوفِ التي شاع تداوُلُها في ذلك الجزءِ من العالم.

لكنّ السيفَ الذي كان يصنعُه في تلك اللحظةِ من اليأسِ اللعينِ كان يَتَشَكَّلُ من قطعةٍ واحدةٍ من الفولاذِ. لم يكنْ رجالُ الشمالِ يعرفون فنَّ تحويلِ الحديدِ إلى فولاذ. ولهذا الغرضِ استعمَلَ الأخُ جيلبرتْ أفضلَ ما أُتيحَ له من مَعْدَنٍ. فما انفك يَصْهَرُ الحديدَ على مدَى ثلاثةِ أيام كاملة، وقد غلّفَه في الفَحْمِ، والجِلْدِ والطُّوبِ حتى يُحوِّلَه إلى فولاذ. ثم صَهَرَ هذا الفولاذَ

في طبقاتٍ من الحديدِ الأكثرِ مرونةً. وكان مع كلِّ ضَربَةِ مِطرقَة، ومع كلِّ دُعاءٍ، يُنْهِي في بُطءٍ وبطريقةٍ فعالة، عمَلا فنّياً لا يوجدُ له مثيلٌ إلا في دمشقَ، أو في ما وراء البحر، حيث رجالٌ آخرون غيرُه تعلّموا تقنياتِ أهلِ الشرقِ وفنونَهم. كان للأخ جيلبرتْ أفكارٌ مختلفةٌ، إنْ لم نَقُلْ منحرفة، كلّما ورد ذكرُ أهْلِ الشرقِ، وهو الأمرُ الذي كان الأخُ جيلبرتْ يتفادَى الخوضَ فيه. فحتى وإنْ كان هو نفسُه يعرفُ أنّ خَطّاءً مثلَه لم يَهْتَدِ إلى رئيسِ ديرٍ أكثر ذكاءً، وأكثر نُعومةً من الأبِ هنري، فقد كان يعرفُ عن يَقينٍ أيضاً، أنّ أهلَ الشرقِ أَعْجَزُ من أنْ يُؤلِّفُوا موضوعَ نقاشٍ عاقِلٍ فيما بينهم، وذاك لاعتبارات عديدة.

في اليومِ السادسِ من العَملِ كان مُتقدِّماً جداً. في ذلك اليوم، جاء أخٌ وَجِلٌ من أهلِ لايْ فأزعجَه كثيراً، وكاد يُصابُ بالهَلَع حين رأى الأخَ جيلبرتْ في هيئتِه المضطربة، شاخِصَ البَصَرِ، مُشَعَّثَ الشَّعْرِ. لقد جاء إليه الأخُ لايْ مبعوثاً من قِبَلِ الأبِ هنري الذي أرسله في دَعْوَةِ الأخِ جيلبرتْ للحُضور، أياً كان عملهُ في المِصْهَر.

فَكَفَّ عن العَمَلِ في الحالِ وتوجّه إلى المغسلِ حتى يكون خليقاً بِمُرْشِدِهِ الديني.

كان الأبُ هنري في انتظارِه في المنسخ.لم يكن الخريفُ قد تقدّمَ كثيراً، لكنّ المساءاتِ صارتْ أكثرَ رُطوبةً ولم يتعوّدْ الأبُ هنري على بَرْدِ الشمالِ قَطّ، وفي ذلك يكمنُ اختيارهُ للمنسخ، بدلا من مَقْعَدِ الحديقةِ الخشبي.

«مساء الخير، عزيزي فولكاين» قال الأبُ هنري بلهجةِ المَزْحِ وهو يَلْمَحُ الأخَ جيلبرتْ وقد أقبلَ عليه نظيفاً متعرّقاً، وهو يُطأطِئُ رأسَهُ حتى يَعْبُرَ البابَ الذي أُعدّ لرجالٍ أقلَّ طُولا منه.

«مساء الخير، أبي العزيز جوبيتر»، أجاب الأخُ جيلبرتْ بالوتيرةِ نفسِها قَبْلَ أنْ يجلسَ أمام الطاولةِ التي كان الأبُ هنري يكتبُ عليها.

ساد الصمتُ لحظةً فيما كان الأبُ هنري يُنْهِي كتابةَ صفحةٍ قبْل أنْ يُجففَ في بطءٍ ريشتَه. ثم تَنَحْنَحَ. كان الأخُ جيلبرتْ والكثيرُ غيرُه في فارنيم، وفي فيتا

شو لا، يعرفون أنّ تلك إشارةٌ لشَرْحٍ قد يطول كثيراً أو قليلا.

«سأحصُلُ على اعترافِ آرنْ بعد لحظاتٍ، قال الأبُ هنري وهو يتنهّدُ بعمقٍ. وسأمنحُه الغُفرانَ. في الحالِ. لم يكنْ يَتَوَقّعُ ذلك. وهو لا يحبُّ ذلك لأنه مفعمٌ بالنّدمِ بسببِ خطيئتِه، كما تعلم. عزيزي الأخ الحبيب، يجب أنْ تعرفَ بأنني سَبَرْتُ حقاً قلبي وأحشائِي حول هذه المسألةِ، وليستْ استنتاجاتي طيبةً لا إليكَ ولا إليّ. إنّ ما حَدَثَ ليس خَطَأً منْ آرنْ، بل هو خطؤُك أنتَ وخَطَئِي. إننا من ناحية نعيشُ صراعاً ما بين عالم الدنيا، ما بين القانون المألوف – حتى وإنْ بدا لنا هذا الجزءُ من العالَمِ هَمَجِيّاً– وما بين قانونِ الربِّ، من الناحية الأخرى. فلا القانونُ الدنيوي ولا القانون الربّاني يؤثّران في آرنْ. فالأمرُ ينطوي عندي وعندكَ على شيء من الحساسيةِ. ولعلكَ فهِمتَ قصدي. وعليه، أرجوكَ أنْ تتكرّمَ بألا تقولَ لي «هذا ما قلتُه أنا من قبلُ!»

« أجلْ، أيْ أبي، لقد قلتُ ذلك حقاً. كان علينا أنْ نُعَرِّفَه بِمَنْ هُوَ. فلو كان عَرَفَ من هو حقاً حين التقى بأولئك المزارعين السكارى...

«لَمَا كان تألَّمَ أحدٌ. أجلْ، أعرفُ ذلك ! قال الأبُ هنري، وقد طغَى أسفُه على غضبِه. على أيِّ حالٍ فإنّ ما حَدَثَ حَدَثَ، وعلينا الآن أنْ نفكّرَ في ما سوف يأتي. سأشرعُ الآن في محاولةِ إفهامِ آرنْ بأنهُ قد غُفِرَ ذَنْبُهُ، ولنْ يكون ذلك يسيراً. وسأستعينُ بالربِّ على ذلك، فأنا أحبُّ هذا الطفلَ كثيراً. فعندما ذهب في ذلك اليومِ ليبحثَ عن والدِه، رأيتُ فيه كائِناً نادراً نُدْرَةَ رَجُلٍ بلا خَطيئة... »

« إنه بيرسيفال، هَمْهَمَ الأخُ جيلبرتْ. نعمْ، إنه في الحقيقةِ، بيرسيفال صغير.»

«هو ماذا؟ آه نعم...هذا...» هَمْهَمَ الأبُ هنري، وقد اضطربَتْ أفكارُه. وصَمَتَ بُرهةً. «الأخ جيلبرتْ، هذه هي أوامِري بصفتي رئيسَ الدير: عندما يأتي آرنْ إليك، قلْ له بأنه قد أدرك النقاطِ التي لا أستطيعُ شَرْحَها. أتفهمُ ما أريدُ قَوْلَهُ ؟

« أجلْ! جيداً! يا أبي، وسأُطيعُ أوامِرَك»، أجاب الأخ جيلبرتْ بما وَسِعَهُ من جِدّيَّة.

وهزّ الأبُ هنري رأسَه من دون أنْ يقولَ كلمةً واحدة، ثم نهضَ وابتسم وهو يُشيرُ بيدِه. وظلَّ الأخ جيلبرتْ جالساً برهةً طويلةً، مُتوسِّلا إلى الربِّ أنْ يُلْهِمَهُ القوّةَ والكلماتِ الصحيحةَ عندما يُنَفِّذُ الأمرَ الذي تلقّاهُ توّاً.

* * *

قضَى آرن عشرةَ أيامٍ في زَنْزَاناتٍ مخصّصةٍ لضيوفِ فارنيم. لكنه أزاحَ فَرْشاتِ القشِّ، والأغطيةَ الحمراءَ وجلودَ الخرفانِ. وعاقبَ نفسَهُ بنِظامٍ من الصّمتِ، والخبزِ والماء.

ووَجَدَهُ الأبُ هنري شاحباً، وكأنّ الحزنَ جَمَّدَ نظرَهُ. لم يسعْه أنْ يعرفَ أيَّ تصرُّفٍ سيتصرّفُه الشابُ معه، وإنْ كان يحتفظُ بكاملِ عقلِه، وإنْ كان سيفهمُ ما سيقالُ له. وقرّر الأبُ هنري إذاً بأنْ يكتفي بمظْهرِ وظيفتِه في البداية، وبأنْ لا يُظْهِرَ لا مُواساةً ولا قسوة.

«إنني على استعدادٍ لِسَماعِ اعترافِك، يا بنيَّ، قال الأبُ هنري وهو يجلسُ على الفَرْشَةِ الصلبةِ، ويشيرُ إلى آرنْ بأنْ يجلسَ إلى جانبِه.

«إني أرجُو عفوكَ، أيْ أبي، لأنني أَذْنَبْتُ...» وتوقَّف آرنْ عن الحديثِ في اضطرارٍ، ثم تَنَحْنَحَ، لأنَ أيامَ الصمتِ العشرةِ قد أنهكتْ صوتَه. « لقد اقترفتُ أخْطَرَ الخطايا جميعاً، ولا شيءَ يَشْفَعُ لي. لقد قَتَلْتُ رَجُلَيْن اثنين فيما كان أسهلُ لي أنْ أَجْرَحَهُما جُرْحاً خفيفاً. قَتَلْتُ رَجُلَيْن فيما كنتُ أعرفُ أنه كان خَيْراً لي بكثيرٍ أنْ أموتَ أنا نفسي وألتحقَ بالربِّ من دون أنْ أُثْقِلَ كاهلي بهذه الخطيئة. وعليه، فإنني على استعدادٍ لِتَقَبُّلِ أيِّ عقابٍ تُنْزِلُهُ بي، أيْ أبي. ولا شيءَ سيبدُو شاقاً عليّ.

«أهذا كلُّ ما عندك؟ أليس ثمةَ شيءٌ آخرُ تريدُ قولَه ما دُمْنا معاً؟ سألَ الأبُ هنري بلهجةٍ خفيفة، لكنه نَدِمَ على ذلك في الحالِ، لأنه أعْطَى بذلك القولِ، الانطباعَ بأنه قد سخِرَ من عذاباتِ ذلك الشاب.

«لا... هذا كل شيءٍ. بالطبع، راودتني أفكارٌ سيئةٌ وخاطئةٌ حين سَعَيْتُ لأنْ أُحَمِّلَ غيري خطَئِي، لكنَّ كلَّ هذا يندرجُ في صميم ما أبديتُه أمامَك من بَوْحٍ»، أجاب آرنْ، وقد بدا مُتَلَبِّكاً.

وشعَر الأبُ هنري بالارتياحِ وهو يسمعُ مدَى الجلاءِ الذي ردّ به آرنْ على سؤالِه المُرْبِكِ. لكنْ هنا كان سيقولُ أمراً خارقاً، عفو الربِّ ورحمته التي تفوقُ في غالبِ الأحيانِ إدراكَ البشَرِ. وتنهّدَ الأبُ هنري في قوةٍ، وتوسّل للربِّ للمرّةِ الأخيرةِ قَبْلَ أنْ ينطقَ بالكلمتين الحاسمتين. وانتظرَ أيضاً أنْ يمنحَهُ الربُّ ما يَلْزَمُهُ من عَوْنٍ .

"Te absolvo" إني أغفرُ لكَ باسم الأبِ والابنِ والروحِ القدس، يا بُنَيَّ». ثم رَسَمَ إشارةَ الصليبِ على آرنْ، ثم رَسَمَها بدورِهِ على نفسِه.

وتفرَّسَهُ آرنْ، وكأنه تحوّل إلى حَجَرٍ، وقد شقَّ عليه أنْ يفهمَ الكلماتِ التي سمِعَها لتوّهِ. وانتظرَ الأبُ هنري أنْ تتجلّى معاني كلماتِه كاملةً على آرنْ. ثم تَنَحْنَحَ لِيُشيرَ بذلك إلى أنه سيُلْقِي عليه شَرْحاً.

«نعم، إنَّ رحمةَ الربِّ واسعةٌ، بالتأكيد، لكنّكَ صِرْتَ منذ اليوم، طَليقاً من الخطيئةِ، أيْ بُنَيَّ! لقد غَفَرْتُ لك بصفتي مُعرّفَكَ (أيْ الكاهن الذي يستمع إلى اعترافك)، وبصفتي خادماً خَنُوعاً للربِّ، وبِعَوْنِه. لِنَسْعَدْ بذلك، لكنْ لنأخذْ الأمورَ بِجِدٍّ. اِعْلَمْ جيداً أنّ الوقتَ الذي أمضيتَه في العزلةِ لكيْ تسألَ الربَّ، قد جعلتُه أنا لمصلحتك أيضاً. وإنْ كان الربُّ قد قال لكَ شيئاً آخرَ غيرَ الذي قاله لي، ففي ذلك قصدٌ دقيقٌ لا محالة. لقد واجَهْنا مسألةً من أصْعَبِ المسائلِ، ومنْ أَعْسَرِ ما رأيتُ منها بصفتي مُعَرِّفاً. وعلى هذا النحو، كان العذابُ الذي عانَيْتَهُ خلال الأيامِ الأخيرةِ التي أعلنتَ فيها توبَتَكَ عنْ صِدْقٍ، جُزْءاً من مِحْنَتِك.»

«لكنْ... ليس الأمرُ بأي حالٍ من الأحوال...ممكِناً....إنه قَتْلُ نُفُوسٍ!»

«لا تُقاطعْني، سَوف تَرَى، قَال الأبُ هنري بصوتٍ رَزِينٍ، لأنّ آرنْ أضحى أكثرَ تعقُّلا مما كان يخشاهُ. ففي حالَتِنا هذهِ، يكون عالَمُ الربّ

مزدوَجاً، وعلينا أنْ نرى هذا العَالَمَ بكاملِه. هناك عالَمٌ خارجَ الديرِ، أي عالَمٌ خارجَ الجدرانِ، بقوانينِه الغريبةِ جداً أحياناً. وحسْب هذه القوانينِ فأنتَ لستَ مُذْنِباً. إلى هذا الحدِّ يظلُّ، الأمرُ بسيطاً. لكنْ، عندنا عالَمُنا العُلوي، الكائنُ ضمنَ الجدرانِ، والذي يَفْرِضُ علينا شروطاً أعلى بكثير. ففي المقامِ الأولِ خطيئتَي وخطيئةُ الأخِ جيلبرتْ أعظمُ من خطيئتِك فيما يتّصل بالقَتْل. سأشرحُ لك هذا بالتفصيلِ بعد قليل. وفي المقامِ الثاني، علينا أنْ نسعَى لرُؤيةِ عَمَلِك بعَيْنِ الربِّ، وإنْ كان الأمرُ عَصِيّاً علينا، نحن الخطّائينَ المساكين، وعلينا أنْ نحاولَ أنْ نعرفَ ما الذي أراده الربُّ. كنْ على يقينٍ تامٍّ بأنّ الربّ لم يسهرْ على رعايتِك بسببِ هذا العملِ خصيصاً. مُهِمَّتُك، وموهبتُك ما زالتا تنتظرانِك - أياً كانت هذه المهمة وهذه الموهبة. لكنّ الربَّ لجأ إلى أكثرَ ما يملكُه من أدواتٍ فعاليةً لمُعاقبةِ الرجالِ الذين أخطؤوا خطيئةً كبيرة. لأنّ الوضعيةَ كما يلي: لقد أرغَمُوا امرأةً شابة، غونفورْ، التي صادفتَها أنتَ لأوّلِ مرةٍ في الطريقِ، على الزواجِ من رَجُلٍ لم تكن تُكِنُّ له سوى التقزّزِ والاشمئزازِ. وقد أرغموها على ذلك الزواجِ لغايةٍ في نفوسهم. وحين حاولتْ، بدافعِ اليأسِ، أنْ تهربَ منْ مصيرِها المشؤوم، استشاطَ الرجالُ غَضَباً، وتهيؤُوا بذلك لِقَتْلِ أوّل شخصٍ يصادفونه. وقد كذَبُوا، إذْ أكّدوا أنّ ذلك الشخصَ مُخْتَطِفٌ، لأنه، والحالةُ هذه، صار في وُسْعِهِمْ، حسب القوانين المحليةِ، أنْ يقتلُوه على الفور. وغضِب الربُّ إذْ رأى ذلك، وأعاقَ مصائرَ أولئك الرجالِ وعاقبَهم بتلك القسوةِ التي لا يَقْدِرُ على مثلِها غيرُه. وهكذا، لَمْ يكنْ العميدُ تُورْكلْ مُخْطِئاً كلَّ الخطإِ عندما ادّعَى أنه رأى مَلاكاً يُسَدِّدُ يَدَك، حتى وإنْ كانت قصّةُ تلك المعجزةِ، الخ، الخ... مَحْضَ ثرثرةٍ فارغة. كنتَ أداةَ الربِّ، ونفّذْتَ عقابَه، وهو ما لم تكنْ ربما قادراً على فعلِه لو لم يُضَلِّلْكَ الأخُ جيلبرتْ وأنا نفسِي. ولهذا غُفِرَ لكَ وصرتَ بلا خطيئةٍ، يا ابني. وصيامُكَ ينتهِي اليومَ، لكنْ كُنْ معتدلاً في المساءِ، فمِنَ الحذرِ أنْ لا تأكلَ بنَهَم بعد امتناعٍ طويلٍ عن الأكلِ. هذا كلُّ ما في الأمر.»

لم يُجِبْ آرنْ شيئاً، وتركه الأبُ هنري يتأمّل. كان لا بد من أن يُمْهِلَ

هذه الكلماتِ، الوقتَ الكافي، حتى تستقرَّ في ضميرِ آرنْ.

لم يجدْ آرنْ ضيراً في رؤيةِ المنطقِ الصريحِ الذي ملأ كلماتِ الأب هنري. بيد أنّ هذا المنطقَ يفترضُ بأن يقوم كلُّ دَبْشٍ على حقيقةٍ، وعلى خنوعٍ مطلقٍ أمام الربِّ. وإلا صار الأمرُ محضَ سفسطةً. خَجِل آرنْ من ردّةِ فعلِه الأولى وهو يسمعُ الكلمتين اللتين نطقَ بهما الأبُ هنري، معتقداً أنّ هذا الأخيرَ قد وهنَتْ قناعاتُهُ بدافعِ حبٍّ مُشَوّهٍ نحو ابنِه، وبأنه قد هيَّأَ لنفسِه لُطْفاً خصّ به هذه الحالةِ الخاصة. لكنّ الأمرَ هنا صار ضَرْباً من النميمةِ، وقد أدرك آرنْ أنه لم يكنْ يسعْه أنْ يَمْتَنِعَ عن الخطيئةِ، بعد مرور لحظاتٍ قصيرةٍ على غُفرانِه. لكنّ الوقتَ لم يكنْ مناسِباً لأنْ يُقِرّ بِذَنْبِه مرّةً أخرى.

«لِنَرَ الآنَ مسألةَ خطيئتي وخطيئةِ الأخِ جيلبرتْ، وحِصَّتَنا من المسؤوليةِ فيما حدَث، أرْدَفَ الأبُ هنري، مُتَنَهِّداً. في الخارجِ، في هذه الدنيا، نُقيمُ الفوارقَ بيننا وبين الرجالِ، وكأنهم لا يملكون جميعاً الروحَ نفسَها. فالأمرُ ليس كما هو عندنا، حيث لا أحدَ أكثرَ وأجْدَرَ من أحدٍ تقريباً. في الخارجِ لا يُعَيَّرُ رجلٌ من حيث روحه، ولا يُنظَر أوّلا لنَظيرِه: إننا نرى قِنّاً أو مَلِكاً، أو يارلا، أو عَبْداً صار حُرّاً، أو نَرَى رجلاً أو امرأةً لهما أو ليس لهما أجدادٌ نبلاء، مثلما تحكمُ أنتَ، أو الأخُ جيلبرتْ على الخيول تماماً! هذا ما يحدثُ في هذه الدنيا، وا أسفاه!

«لكنْ لكلِّ الرجالِ أجدادٌ بالتأكيد، وكلنا من آدمَ وحواء، وكلُّنا نولَد عُراةً لا فرقَ لبعضٍ في ذلك عن بعضٍ ! قال آرنْ مُعترِضاً، وفي صوتِه نَبْرَةُ اندهاشٍ.

«بالتأكيد، كلّنا لنا أجدادٌ. لكنْ، حسب نظام التقييم هذا، يكون لِلبعضِ أجدادٌ أكثر نُبْلاً من البعضِ الآخر، ولبعضِهم أهلٌ أغنياءٌ يَرِثُون منهم.

«إذاً، إن وُلِدَ أحدُنا غنيّاً ظلَّ غنيّاً، وإنْ كان لنا أجدادٌ نبلاء، ظَلَلْنَا نبلاءَ أيضاً، من دون الحاجةِ لأنْ نفعلَ مَن أجلِ ذلك شيئاً؟ نُصبح نبلاءَ، سواء كنّا طيّبين أو سيئِين، أغبياءَ أو نُبَهَاء؟»

«بالضبط. وهكذا صار لبعضِهم أقنّةً اليوم. لكنك كنتَ تعرفُ ذلك على أيِّ حالٍ، أليس كذلك؟ »

«أجلْ، كان لأبي أقنةٌ. إنه أمرٌ لم أفكّرْ فيه منذ زمنٍ طويل، وكأنّ الأمرَ ذِكْرَى لم تَرُقْ لي إطلاقاً. ففي صلواتي فكّرتُ في أمي على الخصوصِ، لكنني لم أفكرْ في أبي قدْر ما فكرتُ فيها، وبقدْرٍ أقلَّ في كونِه كان يملكُ أقنَّةً. غير أني ما زلتُ أذْكُرُ أنه قد قَطَعَ رأسَ أحدِ الأقنَّةِ ذات يومٍ. نسيتُ السببَ، لكنني لم أنْسَ ذلك المشهدَ أبداً. »

«صحيح. وإني لأخشَى أنْ يكون لأبيك أقنَّةٌ اليوم أيضاً. فهو بالفعل، ينحدر من سلالةٍ نبيلةٍ، وهذا يعني أنّ هذا شأنُك أيضاً. فكِّرْ في الأمرِ. فحتى وإنْ لم نتحدثْ في هذا الموضوعِ من قبلُ، فإنّ ثمة سلاحين فوق بَلاطةِ قبْرِ أمِّك. رأسُ تنّينٍ وسيف – إنهما سِلاحَا أمِّك. وثمة أسدٌ واقفٌ– وهو سلاحُ أبيك. إنها أسلحة الفولكونغر، وهو ما يعني أنكَ أنت أيضاً من الفولكونغر، حتى وإنْ كنتَ، على الأرجحِ، لا تفهمُ ما الذي يعنيه هذا.

«لا.» قال آرنْ، وقد شقَّ عليه أنْ يتخيّلَ ما الذي يمكنُ أنْ يعنيَه أنْ يكون غيرَ الذي هُو.

فأجاب الأبُ هنري بنبرةٍ جافة:

«واقعياً، هذا يعني التالي: من حقِّك أنْ تمتطِيَ حصاناً، وأن تحملَ سيفاً، ومن حقِّكَ أنْ تحمِلَ درعاً مع أسلحةِ الفولكونغر، ولو كان غِلاظُ الطِّباعِ رَأَوْكَ كذلك لَمَا حَلَمُوا بمُهاجمتِك قط. ولو لم يكنْ لك لا سيفٌ ولا دِرْعٌ لكان حَسْبُكَ أنْ تقولَ لهم اسمِك... آرنْ ماغنوسون أرناس، لتتلاشَى على الفورِ حَمِيَّتُهم العدوانية ضدّك. هذا ما لم أقلْهُ لك قط. لم أشْرَحْ لك منْ تكونُ أنتَ في أعْيُنِ الآخرينَ في هذه الدنيا، وقد كنتُ في ذلك مُخْطِئاً. ولو سَعَيْتُ للاعتذارِ لقلتُ إنّنا هنا، في داخل الجدران، لا نرى الآخرَ بهذه العين. ولم أرغبْ في أنْ أُخْضِعَكَ لإغراءِ الادِّعَاءِ بأنك أنبلُ منَ الآخرين. وظنّي أنّك تفهمُ هذا، بلْ وتَصْفَحَ له أيضاً.

«لكنّ هذا، على أيّ حالٍ، لا يكفي لأنْ يجعلني غَيْرَ الذي أنا؟ فأنا كما

خلقني الربُّ، شبيهٌ بكلِّ إخواني، وشبيهٌ بك، أو شبيهٌ بالأقنَّة. وهذا ليس لا خطأ ولا ميزة. وفضلا عن ذلك، لماذا هذه النفوسُ الشقيَّة التي أرادتْ مَوْتِي كانت ستُحْجِمُ عن قَتْلِي لو سمعتْ اسمِي ؟ ففي رأيِ هؤلاء النفوس لم أكنْ سوى راهبٍ صغيرٍ، عاجزٍ عن إدَارَةِ سيفٍ! تُرى، لماذا كان هذا الاسمُ سيجعلُهم يرتَجِفُون ؟»

«لأنهم، لو كانوا رفعوا أيديهم عليك، لَمَا بَقِيَ أحدُهم حياً أكثرَ من بضعةِ أيام. أقول وأؤكد، لا أحد. فلو فعلوا، لَتَصَدَّى لهم مجموعُ الفولكونغر، عائلتك. وما من مُزارعٍ واحدٍ، في هذا البلد المشؤوم، يفكِّرُ لحظةً واحدةً، في أنْ يقترفَ مثلَ هذه الحماقة. هكذا تسير الأمورُ، في الخارجِ، في العالم. ولا بد من أن تُعَوِّد نفسَك على هذه الفِكرة.

«إنني لأرفضُ أنْ أتقبَّلَ فكرةَ عالَمٍ فاقدٍ لصوابِه وسَيِّئٍ كمثلِ هذا العالم. وأنا لا أحب أن أعيش في هذا العالم. »

«بل عليك أن تعيشَ فيه. لأنّ ذلك ما بُتَّ فيه وتقرّر. ستعودُ قريباً إلى هذا العالَمِ. هذه أوامري.»

«إني أطيع أوامرَك، لكن...»

« ما مِنْ لكنْ! لنْ تحملَ الصَّلْعَةَ الدائريةَ على الرأسِ بعد اليوم. وستُوقِفُ صيامَك منذ الآن، لكنْ عليك بالأكلِ في اعتدالٍ في البداية. بعد العشاءِ، ستلتقِي بالأخ جيلبرتْ، وسيقولُ لك بقيّةَ الحقيقةِ عن ذاتِك، عن هذا الجانب الذي لا تعرفُه أيضاً.»

نهضَ الأبُ هنري على مَهْلٍ من على الفَرْشَةِ الخشبية. وفجأةً أحسَّ أنه صار عجوزاً ومشدوداً، ولأوّل مرّة قال لنفسه بأنه قد أدْرَكَ خريفَ العُمْرِ، وبأنّ الزمنَ يجري. فلعله لنْ يعرفَ أبداً ما أَضْمَرَهُ الربُّ مِنْ مقاصِدَ لابنِه الغالي.

«سامِحْني، يا أبي، هلْ لي أنْ أسألك سؤالاً أخيراً؟ » قال آرنْ، في يأسٍ.

« بالطبع، يا ابني. لك أنْ تسألَ ما طابَ لك منْ أسئلةٍ أخيرةٍ، لأنّ الأسئلةَ لا تنتهِي أبداً.

«ما هي خطيئتكُما إذاً، أنتَ والأخ جيلبرتْ ؟ إنه ما لم يسعْني فهمُه بَعْدُ ؟

« الأمرُ بسيطٌ، يا بني. لو كنّا قلنا لك مَنْ أنتَ، لَمَا وجدتَ في نفسِك داعياً للقتل. لقد أخْفَيْنَا عنك الحقيقةَ ظنّاً منّا أنّنا بذلك سوف نَحْمِيك. لكننا حَمَيْناك بِكِذْبَةٍ، وقد ذَكّرَنا الربُّ بقوةٍ بأنّ الشرَّ لا يخرجُ منه أيُّ طيّب، ولم يكنْ عندك نوايا سيئة. سنلتقي عند صلاةِ الأصيل !»

ترك الأبُ هنري، آرنْ، وحيداً لساعاتٍ كان هذا الأخيرُ في حاجةٍ إليها لكيْ يحمدَ ربّه. ولم يكدْ الأبُ هنري يُغْلِقُ البابَ من خلفِه حتى جثا آرنْ وشكَر ربَّه، والعذراء القدِّيسة، وسانتْ برنارْ الذين أنقذوا روحَه برحمتِهم الواسعة. وفي صلواتِه أحسَّ آرنْ أنّ الربَّ يستجيبُ له، لأنّ الحياةَ بدأتْ تدبُّ في جسدِهِ كمثلِ تيّارٍ حارٍّ من الأملِ، وكشَيْءٍ طبيعيٍّ طبيعةَ الجُوع.

* * *

كانت غونفور وكأنها مُنْتَشِيَةٌ بطيبتِها الخاصة. كان تضحيةً كبيرةً ذلك الذي كانت هيَ وغونار سيقومان به، لأنّ الكُمَيْتَيْنِ كانتا تمثِّلان تقريباً نصفَ ما يمتلكان، وإعطاءُ هذا القَدْرِ لم يكنْ أمراً هَيِّناً. لكنْ كان من العدلِ القيامُ بتلك الهبةِ، وكانت فخورةً بأنّ الشكَّ لم يُساوِرْهُما في ذلك وهما يَقْتَرِبانِ من ديرِ فارنيم. وكما اعتقدت غونفورْ فقد استجابتْ العذراءُ القدِّيسة إلى أكثرِ دعواتِها حميميةً، ليس بمنحِهَا خلاصاً بالموتِ، لكنْ بإرسال راهبٍ صغيرٍ إليها، استطاع بضربتَيْ سيفٍ أنْ يُغيّر إلى الأبدِ حياتَها وحياةَ غونار. لقد هُيّئَ لهما أنْ يعيشا معاً إلى أنْ يُفَرّقَ الموتُ بينهما، وما مَرَّ يومٌ واحدٌ إلا وشكرا فيه العذراءَ القدِّيسة التي مَنَحَتْهُما أغلَى ما يملكان في الدنيا.

فحتى وإنْ لم يكنْ الراهبُ الصغيرُ سوى أداةٍ متواضعةٍ للعذراء القدِّيسة، فقد كان على الرغم من ذلك، الرجلَ الوحيدَ الذي كان يسعُهُما أنْ يتوجَّها إليه بكثيرٍ من الشّكر والعِرفان. وقد كان هذا الرجلُ ينتمِي للديرِ الذي هو المكانُ الوحيدُ في هذا العالمِ الذي يمكنُ أنْ يُقدِّما فيه قربانَهم إليه. ما فتىء والدُ غونارْ يُلَقّنُها أهميةَ القَرابين، حتى وإنْ كانتْ من حينٍ لآخرَ تُضحِّي

تَقَرُّباً من آلهةٍ أخرى غير أقداسِ الربِّ.

انتقلتْ غونفورْ إلى الدير في إثْرِ غونارْ، وتبعتهما على إثرِها بيرجيتْ، والدته، وكريستينا، أختُ غونارْ. وقد تملَّكها احترامٌ جمٌّ لجدران الدير، ولتلك الساحةِ المبلطةِ التي يرتدّ صدَى الأحذيةِ فيها، ولكلِّ تلك الأزهارِ المتلألئَةِ في حديقة الملجأِ الصغيرة. وقد تملَّكَها وقارٌ عميقٌ، لأنه لا يكادُ المرءُ يدخلُ ذلك المكانَ حتى يُحِسَّ وكأنه في حَضْرَةِ الربِّ حقاً.

ربطا الخَيْلَيْنِ، وفي وُدٍّ أقْبَلَ عليهم الأخُ الذي أُعِدَّ لاستقبالِهم، وسألَهُم عن دَواعِي قُدومِهم. وشَرَحَ له غونارْ أمرَهُم، فدَعاهُم الأخُ للجلوسِ على المقاعدِ الحجرية بالقرب من نَبْعِ الماءِ، ثم عاد إليهم بالجِعَةِ والخُبْزِ اللذين باركهُما قبل اقتسامِهِما بينهم، ثم انطلقَ ليُحْضِرَ رئيسَ الدير.

وظلّوا ينتظرون وقتاً طويلا، لكنّهم لَبِثُوا صامِتِينَ، متأثّرِينَ أيّما تأثُّرٍ بصمتِ ذلك المكان. وحدّثَت غونفورْ نفسَها بأنّ طريقَ العودةِ الطويلِ سوف يكون عَسيراً، وهي جالسةٌ وراء بيرجيتْ وكريستينا. لكنها كانت كعادتها وَثُوقَةً بنفسِها. تُرَى، ما الذي تمثّله كُمَيْتَان اثنتان، حتى وإنْ كانتا رائعَتَيْنِ، مقارنةً بالحبِ الذي منحهُ الراهبُ الصغيرُ إيّاهُما منْ طَرَفِ الربِّ؟

أخيراً انفتح بابٌ حديديٌّ صغيرٌ عند أقْصَى الملجأِ، وأقبلَ عليهما رئيسُ الدير المُبجّلِ. كان شَعْرُه يشكّل طوْقاً ذَهَبِيّاً حول رأسِه، وقد بدا أصغرَ سِناً من عينَيْه المتلألِئَتَيْنِ حياةً. وباركَهما ثم جلس، وقطَع بدورِه قطعةً من الخبزِ، باركَها أيضاً ثم دخَل في صلبِ الموضوعِ رأساً. لماذا يُصِرُّ الناسُ الذين ليسُوا أغنياءَ – وتساءَلا كيف عرَف رجلُ الكنيسةِ ذلك، ما دام قد لَبِسَا أبْهَى ثيابِهما – على تقديمِ قُرْبانٍ، وبذلك القدْرِ من الأهميةِ، لخُدّام الربِّ الأوفياء؟

وشقَّ عليها قليلا أنْ يفهَما الأبَ هنري، وظلَّ غونار الذي كان يتأهّبُ للحديثِ، صامِتاً. وتحدّثتْ غونفور باسمِهما إذاً، ولم يجدْ غونارْ في ذلك أيَّ إساءةٍ إليها. وأوْضَحَتْ بأنها أوْدَعتْ آمالَها الأخيرةَ ما بين يدَيْ العذراء القدِّيسة، وبأنّ الخلاصَ قد تجلَّى في شَكْلِ راهِبٍ صغيرٍ. وكانت عاقبَةُ ذلك

أنْ تمضيَ بقيَّةَ أيّامِها مع الرَّجُلِ الذي تراهُ أعزَّ الرجالِ في دُنياها.

وأنْصَتَ رئيسُ الدير إليهما في عنايةٍ فائقةٍ، وكان من حينٍ لحينٍ يطرحُ سؤالا لم تكنْ غونفورْ تُدْرِكُ أهميتَه. وفجأةً بدَى الرجلُ الوقورُ وكأنه يُشِعُّ فرَحاً جوانياً. ثم أبدَى رِضَاه، وكأنّ الأفكارَ التي تراودُه تَلْقَى صدىً وقبولا عند سامِعَيْها، وكأنه عرَف أنهما سيأتيانِ إلى فارنيم. ثم تلا صلاةً بتلك اللغةِ الغريبة.

وطلَب إحضارَ أحدِ الرّهبان، وإذا برجلٍ قويِّ البنيةِ يظهرُ بدَوْرِه، وقد امتلأ عَرقاً وسُخاماً، وفحَص الحِصانَيْنِ مُتَأَفِّفاً ساخطاً. ثم توجَّه إلى مُرشدِهِ الديني في لُغَةٍ لم يَسْبَقْ أنْ سمِعاها من قبلُ، ولم يفْهَما منها كلمةً واحدة.

«الشكرُ للربِّ على قُربانِك الجميلِ»، قال الأبُ هنري، فيما أمسكَ الراهبُ الضخمُ بزمامِ الفرسِ وأخذ يحدّثها حديثاً هادئاً. وبدا وكأنّ الفَرَسَ الرائعَ لم يَلْقَ عنده أيّ بالٍ بتاتاً.

«قربانُك هائلٌ، وأمنيتُك في أنْ تَهَبَا إلينا مِلْكاً ثميناً لخليقٌ بفائقِ الاحترام»، أَرْدَفَ الأبُ هنري. لكننا نستطيع أنْ نَقْبَلَ الفرسَ وحدَه، لأنّ الحصانَ السفّادَ لا يُجْدِينَا نَفْعاً. لكنْ، لا تَرَيَا في هذا ازدراءً واستخفافاً، لأنّ الأعمالَ بالنيّاتِ، ولعلَّ القدِّيسة أُمّ الربِّ قد أشفقَتْ عليكما، فرأتْ في قُربانِكُما عملاً جليلاً. وعليه أرجوكُما أنْ تحتفِظا بالحصانِ السفّاد.»

وفيما كانا يتردّدان في إجابتِهما، أرسلَ الأبُ هنري إشارةً خفيفةً إلى الأخِ جيلبرتْ الذي انحنَى مثل سيّدٍ، ثم أخرجَ الفرسَ من خلال بابٍ من خَشَبٍ ما لبث أن أغلقَه من دونه. وفَرِح غونارْ لذلك أيما فرحٍ، لأنه ما كان يستطيع الانفصالَ عن الحصانِ السفّاد. بيد أنّ الفرسَ كثيراً ما بدتْ حَرُونَةً، ولكم أدهشَهُ أنْ يتمكّن ذلك الراهبُ من أنْ يُمْسِكَ بزِمامِها ويقتادَها من دون أنْ تُبْدِيَ أدْنَى مقاومةٍ. وانطلاقاً من مبدأِ أنّ الرهبانَ لا يفقَهون شيئاً في الخُيولِ، قال لنفسِه لعلَّ الفَرَسَ تأثَّرتْ بذلك الجوِّ المَهِيبِ الذي مَسَّهُما أيضاً عندما دخلا إلى بيتِ الربِّ ذاك.

وبعد أنْ لاحظ أنّ غونفور وغونار قد رَضِيا في امتنانٍ بنصفِ رَفْضِه

ذاك، سألَهُما الأبُ هنري سؤالا شكلياً إنْ كان يسعُه أنْ يردَّ جميلَهُما، كأنْ يَتَشَفَّعَ لهما بالدعوات، مثلا ؟

فسألتْ غونفور، وقد احمرَّ وجهُها، إنْ كان في الوُسْعِ أنْ يشكرَا الفَتَى الراهبَ شخصياً. وطَلَبَتْ العَفْوَ عن الطلبِ الوَقِحِ، وأضافتْ أنها وخَطيبَها مُتَّفِقَانِ على ذلك الالتماس.

فلعلّها توقّعتْ أنّ الراهبَ العجوزَ قد يجدُ طلبَها في غيرِ موضعِه، لكنها تعزّتْ عن ذلك حين رأته يتلطَّف، ويقول إنّ فكرتَها رائعةٌ. ونهضَ في وقارٍ، كَمِثْلِ رَجُلٍ شابٍّ ثم توقَّفَ، وكأنّ شيئاً خطرَ ببالِه على حين غِرّة.

«لكنْ، عليكما أنْ تنفرِدا بلقائهِ، قال وهو يرسمُ ابتسامةً عريضةً كَشَفَتْ عن فراغٍ كبيرٍ في أسنانِه السّفلى. سوف يشعُر هذا الشابُ بالإرباكِ من غَيْر داعٍ لو ظلّ رئيسُ الدير يترصَّدُه، فهو لم يَعْتَدْ على تَلَقِّي الشُّكر. لكنْ لا عليكما، فهو مِنْكُما، ويفهمُ كلَّ ما تقولان.»

وبارك الأبُ هنري ضيوفَه، ثم توارَى من خِلال بابِ السنديانِ، بِخُطًى سريعةٍ، وهو يُدَنْدِن.

وظلا برهةً يتساءلان كيف يُفسّران ذلك الموقفَ، لكنهما لم يُفْلِحا. فعلى أيِّ حالٍ لا يبدو من غير اللائقِ لِراهبٍ شابٍ أنْ يجدَ نفسَه وحيداً برفقةِ ضيوفٍ، حتى وإنْ كان بعضهُم نساءً.

وبعد الغُسْلِ، أقبلَ آرن عليهم في احتشامٍ. فَجَثَتْ غونفور أمامَه وأمسَكَتْ بيدَيْهِ، وقد يَسَّرَ ذلك وجودُ خطيبِها وأختُ الخطيبِ وأمِّه. ثم أخذتْ تُغْدِقُ عليه الشكرَ والامتنان.

هُنا، أدركتْ أنّ اليَدَيْن اللّتين كانتْ تُمسِكُ بهما لم تَكُونا بالتأكيد يدَيْ طفلٍ يافعٍ. لقد كانتْ هاتان اليدان قَوِيّتَيْن ومَتِينَتَيْنِ مثل الحَجَرِ، وكأنهما يدَا والدِها أو يدَا سَبّاكٍ. لكنْ، عندما التقَى نظرُها بنَظرِ آرنْ، أحسَّتْ وكأنّ ذلك الوجهَ الناعِمَ لا يتناسبُ مع مثلِ تلك اليدين، وقالتْ لنفسها لعلَّ العذراء القدِّيسة لم تُرْسِلْ إليها راهباً شابّاً نحيلاً واهِياً.

واحمرّ آرنْ، وهو لا يعرفُ كيف سيتصرّفُ أمام تلك الوضعية. فمن

ناحيةٍ كان عليه أن يحترمَ صِدْقَ امتنانِ المرأةِ الشابةِ، ومن ناحيةٍ أخرى، ارْتَأَى أنها لا تُوَجِّه شُكْرَانَهَا لِمَنْ يستحقُّ الشُّكرَ حقاً. وسَحَبَ يديه في ألمٍ ودعاها لأنْ تنهضَ، وبارك شُكرَها وذكَّرها بأنّ الشُّكرَ ينبغي أنْ يُوَجَّهَ إلى العلِيّ العظيمِ. ووافقتْ غونفورْ في الحالِ، ووعدتْ بأنها ستفعلُ ذلك حتى آخر يوم من عُمرِها.

وبعد أنْ صافَحَ آرنْ بقيّةَ الزوّارِ، وبعد أنْ شعرُوا بمثلِ ما شَعَرَتْ به غونفورْ من قوّة في تلك اليدين، جلَسوا جميعاً وخَيّمَ عليهم هدوءٌ مُرتبك.

هنا، أحسّ غونار بأنْ لا مَناصَ منْ أنْ يتكلّم قَبْلَ فواتِ الأوانِ فيندمَ على ذلك على مدَى العُمرِ. فضلا عن أنّ رجلا مُعزَّزاً عليه أنْ يقول ما يُفكّرُ به.

وشرح غونار إذاً، في البدايةِ بِجُملٍ مقتضبةٍ ومرتبِكة، أنّ غونفور وهو نفسه قد شعَرا في السرِّ، كلّ منهما نحو الآخر، وعلى مدى سنواتٍ، بأنهما ما انفكا يدعوانِ الربَّ بأنْ تجمعهُما معجزةٌ من معجزاتِه، حتى وإنْ ظلَّ أبواهُما يصِفان أحلامَهما بالتِّيهِ الصبياني. الحالُ باختصارٍ أنه قد أحسّ بأنه لا يستطيعُ أنْ يعيشَ من دون غونفور، وأنّ غونفور لا يمكنُ أنْ تعيشَ من دونه. ويومَ زَفافِها لم يعدْ يَتَمَنَّى حياةً من بعدها. ومثلُه لم تتمنَّ غونفور حياةً من بعدِه أيضاً. حتى وإنْ كانت العذراءُ القدِّيسة قد أشفقتْ عليهما في النهايةِ، فإن آرنْ، على أيِّ حالٍ، هو الذي كان عَوْنَهَا، وهو الذي حَقَّق إرادتَها.

وعند سماعِه لهذه الأقوالِ، ولهذه المحاولاتِ المُحبطَةِ في التّعبيرِ عنْ معنَى الرحمة، أحسّ آرنْ بالتَّبْجيلِ قدْر ما أحسَّهُ من امتنانٍ. فكان وكأنّ ما رَضِيَ به في النهاية – أنّ غفرانَ الأبِ هنري غفرانٌ عادل– يمثِّلُ أُسُسَ بيتٍ ودِعاماتِه، لكنْ ليس بيتاً مُكتَمِلا. لكنْ مع هِبَةِ هذا الحبِّ التي تلقّاها المزارعون البسطاءُ منه، وشكرُوه عليها، هي أكثَرُ أدواتِ الربّ تواضعاً. كان الأمرُ وكأنّ هذا البيتَ قد صار مُكتمِلا على حين غِرَّة، بجدرانِه، وأسوارِه، ونوافذِهِ المُحْكَمَة.

«غونار، صديقي، قال وهو مغتبطٌ في قرارِه، إنّ ما قلتَه لي سوف يُلازمني دائماً، فكُنْ بذلك مُوقِناً. لكنَّ الهِبَةَ الوحيدةَ التي يسعني أنْ أقدّمَها

لكَ هي كلماتُ الكتاباتِ المقدسةِ. فلا تَنْزَعِجْ بها قبْل أنْ تقرأَها. لأنّ حُبَّكَ هو الذي انتصرَ على كلِّ شيءٍ. لقد رأتْ العذراءُ القدِّيسة حبَّكَ، ولهذا السببِ أشْفَقَتْ عليك. فانْصِتْ إذاً إلى كلماتِ الربِّ، واعْمِلْ على أنْ تعيشَ هذه الكلماتُ في قلبِكَ دوماً.

«اجعلني مثْل خَتْمٍ فوق قلبِك
مثْل خَتْمٍ فوق ساعِدِك
لأنّ الحبَّ قويٌّ مثْلَ الموتِ
والغيرةُ قاسيةٌ مثْل مملكةِ الأمواتِ
حرارتُها مثْلَ حُمّى النار
شعلةُ (النبي) يخْبِى
المياهُ العاليةُ لا يسعُها أنْ تطولَ الحبَّ
ولا تستطيعُ الأنهار أنْ تغمُرَهُ،
لو أعطَى أحدُهم كلَّ ممتلكاتِ بيتِه
للحبِّ
فلنْ يجلبَ لنفسِه سوى الاحتقار.»

قرأ آرنْ النصَّ في لغةِ غونفورْ وغونارْ حتى يَسْهُلَ عليهما فهمُه. وردَّدَهُ مرّاتٍ عديدةً حتى يَسَعَهُما تذكُّرُه، وذكَر لهما الفقرةَ التي أُخِذَ منها النصُّ في الكتاباتِ المقدسة: ترتيل التراتيل ٨، ٦-٧ .

ولحظةَ مغادرتِهما، صافحَهما، وسألَتْه غونفورْ عن اسمِه، ولأوّل مرّةٍ حاول آرنْ أنْ يكشفَ عن اسمِه، الاسمِ الذي ينتَمي لعالم ما بين الجُدران، آرنْ ماغنوسون أرناس. لكنه لم يَقْوَ على ذلك، إذْ بدا له الاسمُ مَزْهُوّاً، فقال ببساطةٍ إنّ اسمَه آرنْ.

وعندما تقدّم غونار بحصانِهِ، وخطيبتُه أمامَه فوق السَّرْجِ، وذراعَاها حول خَصْرِهِ، تنفَّس بعمقٍ، كأنَّ هواءَ الخريفِ الطريِّ لم يَسْبَقْ أنْ كان

بَهِياً كمثلِ بَهَائِه في ذلك اليوم. وانطلقَ غونار وهو يحتضِنُ زوجتَه بين ذراعيه،، ويُحِسُّ بِحرارَتِها ودقّاتِ قَلْبِها. ومَعاً راحَا يُردّدان كلماتِ الربِّ حول حُبِّهما المنتصر.

أقبلَ الليلُ مسرعاً في ذلك المساءِ، وانقلبَ الطقسُ عاصفةً هوجاء. لم يكنْ يسعهما أنْ يتحدّثا في الخارج، وقد تَلَقّيا الأمرَ بأنْ يَنْفرِدا بِنَفْسَيْهِما في غرفة الخُلْوَة. وفيما كان يستعجلُ الوصولَ إلى ذلك اللقاءِ، صلّى آرن لغونفورْ وغونارْ، ودَعَا لَهُما بأنْ يَجِدا في طريق عودتهما مأوىً أدْفأَ من الحب الذي يكتَنِفُهُما. لكنه قال في نفسِه أيضاً، إنّ الحبَّ الذي بينهُما أقدَرُ على حِمايتِهما منْ كلِّ الرياحِ، مِنْ ضَرباتِ رياحِ الوُجودِ، ومنْ العاصِفةِ التي كانتْ على وَشَكِ الهُبُوب.

كان الأخ جيلبرتْ في انتظارِه منذ حينٍ في غُرفة الخُلوة، وهو في غايةِ النظافةِ، مُبَلَّلَ الشّعْرِ. وتأرْجَحَتْ شُعلاتُ الشّمعدانات الثلاثةِ قليلاً عندما فتَح البابَ وأعاد غَلْقَهُ بسرعة. وتلَوَا «باتر نوستر»، ثمّ صَلّيَا في صَمْت.

وعندما رَفع الأخُ جيلبرتْ عينَيه، كان نظرُه مَليئاً بالحبِّ لتلميذِه، ومليئاً أيضاً بحزنٍ غامضٍ سَبَقَ لآرنْ وأنْ لَمَحَهُ في بعض الأحيان.

«كما تعرف، أنا جيلبرتْ دي بوم، أخٌ في رهبانيَّتِنا. لكنْ هذا كان هو اسمِي أيضاً في رَهبانيةٍ أخرى، قريبةٍ جداً من رهبانيتِنا، رهبانية مسلحة إنْ صحَّ القول، ولَها الأبُ الروحيُّ نفسُه، وظنني أنكَ عَرَفْتَ مَنْ أقصدُ.

«سانتْ برنارْ دي كليرفو»، قال آرنْ وهو يجمَعُ يديه فوق طاولةِ السنديان الكبيرة. ثم أطْرَقَ برأسِه ليُظهِرَ أنه كلُّه آذانٌ صاغية.

«بالضبط، إنه هو وليس أحداً غيرَه. فهو الذي أسَّس جيشَ الربِّ المقدّس، ورهبانيةَ حُرّاس الهيكل، وقد دافعتُ في سبيل الربِّ طوالَ اثني عشرَ عاماً. كنتُ إذاً جُندياً في ما وراء البحر لمُدَّةِ اثني عشر عاماً، والتقيتُ في المعركةِ بأكثر من ألفِ رجلٍ... رجالٌ طيّبون ورجالٌ سيِّئون، بواسِلُ وجُبناء، كامِلون وعاجِزون. ولم يَهْزِمْني أحدٌ منهم بتاتاً. وكما هو واضحٌ لك كلّ الوضوح، فإنّ في الأمرِ جانِباً لاهُوتِيّاً – أنا لا أتحدثُ فقط عن

الجانبِ المرتبطِ بالرِّجْلَيْنِ واليَدَيْن. الحالُ أنني لم أَلْتَقِ قط بمنْ هو نَدٌّ لي في السيفِ، أو الرّمحِ، أو الخيلِ، ولستُ أقولُ هذا بِدافعِ الغرورِ، فأنتَ تعرفُ جيداً أنْ لا أحدَ منّا كذلك. أقول هذا لأنَّ قولي هو الحقيقة، ولكيْ تَفْهَمَ بالضبطِ مَنْ عَلَّمَكَ فنَّ استعمالِ السيفِ، والرُّمح، والدّرع، وربما ما هو أَهَمُّ منْ ذلك، فنّ القتالِ على الخيلِ. وقبْل أنْ أواصِلَ حَديثي، عندي إليكَ سؤالٌ، أطرحُه عن فضولٍ: ألم يخطرْ لبالكَ هذا ؟

« لا، قال آرنْ، وقد أربَكه أنْ يكتشفَ بأنه ما انفكَّ يُنازِلُ الحديدَ مع سيِّدٍ بارَكَهُ الربُّ. لا، ليس في البدايةِ على أيِّ حالٍ، لأنه لم يكنْ في الساحةِ غيرُنا نحن الاثنين. لكنْ هنا، عندما فَكَّرْتُ في الرجال الذين حاوَلُوا أنْ يقتلوني، بتلك الطريقةِ البليدة الصبيانيةِ التي كانوا يُديرون بها سُيوفَهم، لم أجدْ بداً من أنْ أسألَ نفسي بعضَ الأسئلة. إنَّ الفارقَ بينهُم وبينك، أخي العزيز جيلبرتْ، فَارِقٌ سحيق.»

« أجلْ، لِنَتَحَدّثْ في الأمرِ قليلا. ليس ثمةَ هُجوم، على العكس، ظني أنّ هذا سيجلبُ لك خَيْراً، قال الأخُ جيلبرتْ، وكأنه يُغَيِّرُ موضوعاً بموضوعٍ، وكأنه قال ما كان عليه أنْ يقول. إنْ كنتُ فهمتُك جيداً، فقد أتاكَ رَجُلٌ من الخلفِ واستهدفَ رأسَك، أهذا ما حَدَثَ فعلا؟ »

« أجلْ، ظني أنّ الأمرَ كذلك...»، أجاب آرنْ، في اضطرابٍ. فلم يَسْتَسِغْ المَنْحَنى الذي سار فيه الحديث.

«بالطبعِ، لقد تحاشَيْتَ الضربةَ بمهارةٍ وغيَّرتَ السيفَ إلى يدِك الأخرى في آنٍ. أمّا الرجلُ الذي كان أمامَك فقد لانَ خطبهُ لأنه لم يكنْ ينظرُ إلى سيفِك بل إلى رأسِك الذي تَوَقَّعَ أنْ يراهُ يتدحرجُ على الأرضِ. ورأيتَ أنه قد تَعَرَّى فضَرَبْتَ ضربتَك في الحالِ. إلا أنك فكّرتَ أيضاً في أنْ تُغيّرَ موقِفَك فجأةً، وفي أنْ تَبْتَعِدَ حتى لا يَطُولَكَ الرَّجُلُ الآخر. ورفَعَ الآخرُ سيفَه، لكنه لم يجدْ بُدّاً من أنْ يُغَيِّرَ الرِّجْلَ التي يستنِدُ إليها. فضربتَ أنت ضرْبتَك القويةَ، ما بين الكوعِ والرُّكبةِ، أي منْ حيث كان مكشوفاً. هكذا حدثَ هذا، منْ دون أنْ يَسَعَ أحدَكُما وقتٌ للتفكيرِ في ذلك، أليس كذلك؟»

تحدّثَ الأخُ جيلبرتْ وهو مُغمَض العينين، وكأنه رأى في داخِلِه خَيْطَ ذلك الحَدَثِ.

«نعم، هذا بالضبطِ ما حَدَثَ، أجاب آرنْ، مرتبكاً. لكنني... »

«دَعْنَا مِنْ «لكنْ»، قال الأخُ جيلبرتْ وهو يرفَع يدَه. لا تعتذرْ عنْ هذا بعد اليوم. لقد أخذتَ غُفْرانَك. لِنَعُدْ إلى ما أمَرَنِي الأبُ هنري بأنْ أشرحَه لك. بالفعل، لو كان هؤلاء المزارعون الثائرون ثلاثةً أو أربعةً، لما كان هناك فَرْقٌ، ولَكُنْتَ قَتَلْتَهُم جميعاً. بصدقٍ أقول أنْ ليس هناك مَنْ يُضاهيكَ في السيفِ، في هذا البلدِ على الأقل. والآنَ، تخيلْ لو أننا تعارَكْنا لِحَدِّ الموتِ. ففي رأيِكَ ما الذي يمكن أنْ يحدث؟»

«حتى قَبْلَ أن تَرْمُشَ عيناايَ مَرّتين تكون أنتَ قد لامَسْتَنِي...أو ثلاث، ربما...». كان آرنْ عاجِزاً عنْ أنْ يتخيّلَ هذا المشهدَ السخيف.

«لا، مُطلقاً! لستُ أتحدثُ عن تمرينٍ، وهو ما كُنا نفعلُه دائماً، يجري معي، أنا الآمرُ، وأنت المُطيع. لكنْ، لو فكّرْتَ من تلقاءِ نفسِك، ولو أُجْبِرْتَ على ذلك، فكيفَ ستُقاتِلُ ضدي؟»

«لا يسعني أنْ أتخيّلَ أفكاراً تُشْعِرُني بهذا القدرِ من الذّنب. لنْ أرْفَعَ السلاحَ أبداً ضدَّ من أحبُّه، أجاب آرنْ، وكأنه فكّر في الأمرِ تحديداً.

«إني آمرُكَ بذلك. إننا نتطرّقُ لمسألةٍ نظريةٍ، وما مِنْ داعٍ للمُراوغة. إذاً، نظرياً، كيف ستُقاتِلُ ضدي؟ »

«لنْ أبدأ بالهجوم عليك..» قال آرنْ بِنَبْرَةٍ مُرتابةٍ. واستمرَّ يُفكِّرُ كما فُرِضَ عليه أنْ يُفكِّرَ. «لو هَجَمْتُ عليك، لَحَسَمَتْ قوتُك ومَدَى ضرباتِكَ نهايةَ القتال. عليّ أنْ أتحاشاكَ طويلا، وأنْ أَحُومَ حولك، وأنْ أنتظرَ إلى أنْ... »

«نعم؟ قال الأخُ جيلبرتْ في ابتسامةٍ خفيفة... إلى أن؟

«إلى أنْ تُتاح فرصةٌ، تكون فيها في وضْعٍ لا يُسْعِفُكَ فيه لا وزنُك ولا قوتُك. لكنني لنْ أقْدِرَ أبداً...

«هذا ما يحدثُ عندما تأخذُ في التفكيرِ بنفسِك! ومِنْ هنا لِنَنْتَقِلْ إلى شيءٍ آخرَ أهمّ. إنّ فكرةَ الأبِ هنري في ألا يَكْشِفَ لك عنْ هُوِيَّتِكَ من السَّهْلِ أنْ

تفهمَها من وجْهَةِ نظرٍ منطقيةٍ خالصة، أليس كذلك؟ كان علينا أن نَقيَكَ بأيِ ثمنٍ، من الغرورِ، لا سيما فيما يتعلَّقُ بأمورٍ تُعْتَبَرُ عندنا أشياءَ بلا قِيمَة. لقد درَّبْتُ إخْوَةً كثيرين في ما وراء البحر، فكنّا لا نفعلُ شيئاً آخرَ عندما نُنْهِي معارِكَنا. بيد أنني لم أرَ سوى القليلِ من الرجالِ الذين يملكون مثلَ ما تملكُ أنتَ من مواهبَ في استعمالِ الأسلحة. وعندك سِرّانِ يجعلانِك قوياً جداً. وإني أفترضُ أنك تعرفُ السرَّ الأوّلَ، أليس كذلك؟ »

«أستطيعُ أنْ أنقُلَ سَيْفِي من اليدِ اليمنى إلى اليدِ اليُسرى، » أجاب آرنْ بصوتٍ منخفضٍ، وكأنه خجِل من أَمْرٍ لا يدري عنه شيئاً.

«إنه هذا نفسُه، وسأكشِفُ لكَ الآن عن السرِّ الثاني. لستَ كبيراً في العُمْرِ قط، مُقارنةً بي. إنّ أكثرَ من نصفِ الرجالِ الذين قد تُنازِلُهُمْ قد تراهُم أكبرَ وأقْوَى. لكنكَ على مدَى عُمْرِك كلِّه لم تُنازِلْ إلا شخصاً واحداً أكبرَ منك سِناً. وهو أفضلُ ما يمكنك فِعْلُهُ. إذاً لا تَخْشَ أبداً مَنْ بَدَا لك أقْوَى، واحْذَرْ منْ كانتْ قامتهُ مثل قامتِك، أو مَنْ كانتْ قامتُه أقصَر مِنْ قامتِك. وثمة شيءٌ آخرُ لا يخلُو من أهميةٍ بالغة. إغراءُ الغرورِ الذي كان يُشْغِلُ الأبَ هنري كثيراً، إغراءٌ حقيقيٌّ، وإنْ كان إغراءً أقلّ ممّا كان يتصوّر. فَلَكَمْ رأيتُ رِجالاً كثيرين يمُوتُونَ بسببِ الغرور تحديداً، لأنهم أظْهَرُوا في قلْبِ المعركة، وهُم يُنازلون خصْماً أقلَّ بأساً، أو رَجُلاً رأوا فيه ضُعفاً، ثقةً زائدةً بالنّفْسِ. أجل، لقد رأيْتُ الكثيرَ من الرجالِ وهم يموتُون وعلى شِفاهِهم ابتسامةُ غرورٍ. فَلْتَذْكُرْ هذا جيداً! فَلْتَذْكُرْهُ! لأنه، إذا كان أيٌّ كانَ مِنْ مُواطنيكَ أقلّ قُوَّةً منك عند التدريب، فإنّ يقيني أنّ أياً كان قادرٌ على إصابتِك بِجُرْحٍ، أو على قَتْلِكَ في اللحظةِ التي تَقَعُ فيها فريسةً للغرورِ. فالربُّ لا يملكُ عِقاباً أفضلَ منْ هذا العقابِ، ضدَّ مَنْ يرتكبُ على هذا النحو خَطِيئَةً وسِلاحُه في يدِه. وكذلك الأمرُ في حالِ الغضبِ والبُخْلِ. لا تَنْسَ أبداً أنَّ الفنَّ الذي لُقِّنَ لك داخِلَ هذه الجدرانِ، فنٌّ مُباركٌ. إذاً، إذا أنتَ رَفَعْتَ السيفَ وأنتَ ترتكبُ خطيئةً فسيُلاحِقُك عِقابُ الربِّ. للمرَّةِ الثالثةِ أقول لا تَنْسَ ذلك أبداً. آمين.»

ظلا هادِئَيْن بعضَ الوقت: أخذَ آرنْ يتأملُ إحدى الشّموعِ الطويلة، وقد أخذ الأخُ جيلبرتْ يتأمَّله خلسةً. كانا كلاهُما ينتظران، وكأنّ كلَّ واحدٍ منهما لم يجرؤْ على المبادرة بالحديث أوّلا، خوفاً منْ أنْ يرغبَ الثاني في الحديثِ عن شيءٍ آخر.

«لعلك تتساءلُ أيّ خطيئةٍ قادَتْني من فارسِ الهيكل إلى السيسترسيين؟

«أجل، الأمرُ واضحٌ وضوحَ ماءِ الصّخرِ. بيد أنني لا أتخيَّلك أَذْنَبْتَ ذَنْباً عظيماً، يا أخي جيلبرتْ العزيز. فهذا لا يُصَدَّق.

«فذاك لأنك لا تعرفُ العالَمَ الخارجي، لأنّ العالَمَ مَلِيءٌ بالخطايا والإغراءاتِ. إنه مُستنقعٌ تَكْثُرُ فيه الأحابيلُ.كانت خطيئتي هي السِّيمُونِيّة، أكبرُ خطيئةٍ في قواعد كَهْنُوت الهيكل. فهلْ علِمْتَ ما هي خطيئتي؟

«لا»، أجاب آرنْ، مُنذهلا. لقد سَمِعَ بألْفِ خطيئةٍ، كبيرةٍ وصغيرةٍ، لكنه لم يسمعْ شيئاً عن هذه السّيمونيَّة.

«وهو أنْ تتقاضَى أجراً مقابل خِدْمةِ الربِّ، قال الأخُ جيلبرتْ، مُتأوِّهاً. ففي كَهنوتنا، بالتأكيد، نُدير الكثيرَ من المالِ، فكان من العسيرِ أحياناً أنْ نُمَيِّزَ فيه الخطيئةَ حقاً. لكنني لنْ أَلْتَمِسَ لذلك عُذراً، لقد اعترفتُ بِذَنْبِي وما زلتُ أَدْفَعُ ثمنَ عِقابي على ذلك إلى يومِنا. وعلى هذا النحو لم أُحْظَ بسعادةِ الموتِ في سبيلِ الربِّ، والسيفُ في يدي، موتاً مقدّساً. لكنْ، لولا خطيئتي هذه التي قادَتْني إلى هذه الخدمةِ السلمية، لما التَقَيْتَ بي أبداً، ولكُنْتَ رجلاً مُختلفاً تماماً عمّا أنتَ اليوم. من الخيرِ أنْ نتأملَ الأمرَ مَلِياً، ما دام للربّ غايةٌ في كلّ ما يَحْدُث.

«أعِدُكَ بألا أخدَعكَ، وبألا أُخَيِّبَ أمَلَكَ، أخي الغالي.، أجاب آرنْ متأثراً.

«هُومْ، قال الأخُ جيلبرتْ، وهو يميلُ ويتأملُ وَجْهَ آرنْ وعينيهِ الجاحِظَتينِ. وُعُودُك يجب أنْ تنتظرَ قليلا، إذْ عليك أنْ تَبوحَ بأمنياتٍ مُشابهةٍ حتى قَبْلَ أنْ تُفكِّرَ فيها. وريثما يَصِلُ ذلك يتوقفُ حديثُنا عند هذا الحدّ، وإني لآمُرُك بأنْ تقضي الوقتَ ما بين منتصفِ الليلِ وطلوعِ النهارِ في الكنيسةِ. اِبْحَثْ عن الربِّ في قلبِكَ في هذه الليلةِ العاصِفة، فالأمرُ يأتي

من الأبِ هنري. هيا، أَسْرِعْ في السَّعْيِ إلى النومِ لِبِضْعِ ساعاتٍ. وسنلتَقِي عند منتصفِ الليل.»

«سأُطيع أوامرَك.»

نهض آرنْ، وانْحَنَى أمام سيّدِه والتحقَ بخَلِيَّتِه، وقد ملأَهُ العزمُ على السّهرِ لغاية موعد قُدّاسِ منتصفِ الليل. ونام على الفور.

ظل الأخُ جيلبرتْ بعضَ الوقتِ بالقربِ من الشموعِ المتأرجِحَة. ثم نَفَخَ فيها وتوجَّهَ بِخُطًى واسعةٍ إلى المِصْهَرِ الذي ظلّ أخوانِ اثنان ساهرَيْنِ عليه أثناء حديثِه مع آرنْ. فلم يكنْ قد أَنْهَى عملَه فيه، وقد جاء ليستعمِلَ بقايا الزيوتِ السرية التي جَلَبَهَا منْ ما وراء البحر. وفضلا عن ذلك كان عليه أنْ يُنْهِي بعضَ تفاصيلِ الزينةِ.

* * *

بعد قُدّاس منتصفِ الليلِ، لَبِثَ آرنْ وَحْدَه في كنيسة فارنيم، فأَمْضَى فيها بضْعَ ساعاتِ الصباحِ جاثِياً أمام قبرِ أُمِّهِ، بالقرب من المذبح. فحين تَطولُ الصلواتُ يَحِقُّ للمصلي أنْ يتناول حَامِيَات الرُّكْبَتَيْن من غُرفةِ ملابس القُداس.

كان آرنْ مضطرباً بسببِ هُوِيَّتِه، وكأنه صار شَخْصَيْن اثنين في شخصيةٍ واحدة. فمن ناحيةٍ، كان آرنْ، أخاً من عائلةِ لاينْ فيتا شولا، أكثر منه أخاً من فارنيم. ومن ناحيةٍ أخرى، كان آرنْ ماغنوسون أرناس، وهو ما كان يَرِنُّ في أذنِه كَلَقَبٍ، أكثرَ ممّا يرنُّ فيها مَا يُحِسُّ أنه هُوَ حقاً. خلال تلك الليلة العاصفة، توسَّلَ إلى الربِّ بأنْ يَهْدِيَه إلى ما هو طيبٌ في هذين الشخصين، ودَعَا سانتْ برنار بأنْ يهديَه أيضاً إلى تجنُّبِ الوقوعِ في الخطيئةِ، وما أكثَر الخطايا في هذا العالم. وأخيراً صلّى منْ أجْلِ أنْ لا يقعَ في خطيئةِ الغُرور على الخصوص.

فإنْ كان الغرورُ هو ما يجبُ أنْ يتفاداهُ قبل كلِّ شيءٍ فهو غُرورٌ لم يخطُرْ لِبالِهِ على الفور. كان آرنْ بالفعل، يستطيعُ أنْ يُحِسَّ في يَقينٍ أنه

خالٍ منْ مِثْلِ تلك الخطيئةِ التي لم يكنْ يعرفُ عنها إلا القليل. تلك الخطيئةُ التي كان الأبُ هنري والأخُ جيلبرتْ يَخْشَيَانِهَا أَيَّمَا خشيةٍ فَلَمْ يَجِدَا بُداً من أنْ يَكْتُما عنه أشياءَ عن نفسه.

في صلواتِه، أَسْكَتَ آرنْ العاصفةَ ومَجْرَى الزمنِ، أو قُلْ إنه قد بلَغَ في صلواتِه من العُمْقِ ما جَعَلَ الزَّمنَ يَنْعَدِمُ كلياً. وهكذا أقبلَ الفجرُ على عَجَلٍ، وهدأَتْ العاصفةُ أيضاً.

ولكمْ أدهشَه أنْ يرى الخُورس بكاملِه وقد جاءَ ليَقِفَ خلْفَ المذبح، بل وقد ألْقَى إليه بعضُ المُغَنِّينَ غَمْزَةَ تَوَاطُؤٍ. وخالَ أنَّ القُدّاسَ قُدّاسُ وَداعٍ أخِيرٍ، منْ صِنْفِ القداساتِ التي تقامُ عندما يتأهبُ أَخٌ أكثرُ شأناً منه، للرحيل.

لكنه سمِع صريرَ أوتارٍ وبكراتٍ فَتَبَيَّنَ أنهم يُنزلون جُرْنَ المعمدانيةِ بالقربِ من الباب. فالتفتَ في خِفَّةٍ ولَمَحَ أنّهم يُعِدُّون الماءَ المبارك. هنا، لم يَعُدْ يفهمُ شيئاً.

ثم بدأ الخورس يُنْشِدُ للربِّ لحناً من أَقْوَى ألحانِ الشّكر، وقد تجلَّتْ فيه القُوَّةُ والمَمْلَكَةُ الخالدتين. ولاحظ أنّ المُنشدين يتعاطون مُهِمَّتَهُمْ بكاملِ الجِدِّيةِ. ومع بعضِ المقاطِعِ كان يُدَنْدِنُ مُغْمَضَ العينين، فتملؤه القُشعريرةُ تارةً والاحْتِرَاقُ تارةً أخرى، وكأن قلبَه يمتلئُ نوراً ويندَفِعُ نحو الربِّ بقوةِ النشيدِ الخفيَّة.

وعندما رفَع آرن رأسَه في أثناء أحدِ المقاطعِ البطيئةِ اكتشفَ بعضَ المنشدين الذين كانت أعناقُهم تمتدُّ نحو جُرْنِ المعمدانيةِ، من دون أنْ يُؤثِرَ ذلك في دِقَّةِ أصواتِهم بتاتاً. والتفتَ بدورِه إلى جرن المعمادانية. ففي حياته كلِّها لم يرَ قط شيئاً أذهله بمثلِ ما أذْهَلَهُ ذلك المشهد. كان الأبُ هنري يُبارِكُ سَيْفاً كان الأخُ جيلبرتْ يمسكُ به أمامَه. كان السيفُ قد رُشَّ بالماءِ المُبارَكَةِ وكأنه عُمِّدَ تَعْميداً. كان المنظرُ غريباً مُدْهِشاً... سيفٌ في بيتِ الربِّ!

وبعد أنْ أنْشَدَ الخوس «تو دوم» Te Deum المهيبَ بكاملِه تقدّم الأبُ هنري والأخُ جيلبرتْ بالقربِ من المذبح. كان الأخُ جيلبرتْ يحملُ السيفَ بين يديه المَمْدُودَتَيْنِ وكأنه يحمِلُ قرباناً أو شيئاً مقدّساً. ووُضِعَ السيفُ في

لِينٍ في وسطِ المذبحِ، وتَلاَ الأبُ هنري «الباتر نوستر» وحَذَا الجميعُ حذوَه. ثم التفتَ الأبُ هنري نحو آرنْ وأشار إليه بأنْ يَقِفَ إلى جانبِ ضريحِ والدَتِه. وهنا أَنْشَدَ الخورس ترتيلا بالفرنسيَّةِ لم يَسْمَعْهُ آرنْ منْ قبلُ قط، ولم يكنْ المُنشِدون يُتْقِنُونَهُ كما يُتْقِنُونَ بقيَّةَ التراتيل. وقد ظلَّ حفلُ القدّاسِ يفوقُ إدراكَ آرنْ، حتى عَصِيَ عليه سَمَاعُ كلماتِ الترتيلِ. لكنّ عَيْنَيْهِ المُحَمْلِقَتَيْنِ لم تُفَوِّتاً شيئاً ممّا كان يدورُ من حولِه.

وُضِع السيفُ إذاً فوق قَبْرِ والدتِه، أمام آرنْ بالضبطِ، وَوُجِّه مقبضُهُ نحو المذبحِ، ونحوَهُ وَجِّهَ حَدُّهُ. كان سيفاً رائعَ الجمالِ، قِوامُه شفرةٌ من المعدنِ الساطعِ لم يرَ له آرنْ مثيلاً من قبلُ قط. كان مقبضُ السيفِ وغصناهُ الذَّهَبِيَّانِ يُشكّلان صَليباً. وقد حُفِرَ على عارِضةِ السيفِ نقشٌ يقول: IN HOC SIGNO VINCES، بهذه الإشارة تنتصِر. وعلى الفورِ فهِم آرنْ أنّ الانتصارَ لا يتحقّقُ إلا بتلك الإشارةِ وحدَها.

لقد أُعِدَّ المقبضُ بحيثُ يتلاءَمُ مع يَدَيْهِ خصيصاً. لقد عايَرَ السيفَ بالنظرِ ورأى أنه يشكّلُ امتداداً لذاتِه. كان الطِّلاءُ الذهبيُّ يَلْمَعُ ببَريقِ كلِّ جديد. لكنّ هذا الطِّلاءَ الذّهبيَّ لم يكنْ يمتُّ بصلةٍ للثراءِ أو الخُيَلاءِ. فعند بُزوغِ نورِ النهارِ سيمنحُه بريقُ السيفِ ثقةً أكبرَ ممّا يحتاجُه لِصَدّ أيِّ هجوم.

وجثا الأبُ هنري والأخ جيلبرتْ على الجانبِ الآخر منْ ضريحِ السيدةِ سيغريدْ، في مقابلِ آرنْ، وعَمَّ الصمتُ في الكنيسةِ، وكأنّ كلّ واحدٍ حَبَسَ أنفاسَه. وهَمَسَ الأبُ هنري للأخِ جيلبرتْ بأنْ يُواصل البقيّةَ، ما دام يعرف الطّقْسَ أفضلَ منه. وارتسمتْ على شَفتَيْ الأخِ جيلبرتْ الذي امتلأ برُوحانيةِ اللحظةِ، مقدِّمةُ ابتسامةٍ وهو يسمعُ هذا التّلطيفَ. وشخصَ ببصرِه في عينيْ آرنْ.

«آرنْ، أخُونا وعزيزُنا، قال بالفرنسيَّةِ وبصوتٍ قوي ردّتْ صداهُ جدرانُ الكنيسة، ردِّدْ مَعِي القَسَمَ التالي:

«أنا، آرنْ ماغنوسون، أُقْسِمُ باليسوع المسيح،
وبالقبر المقدّس، وبالهيكل

بأنني لنْ أُشْهِرَ أبداً السيفَ الذي أحمِلُه هنا
عن غضبٍ، أو عن مصلحةٍ شخصية.
هذا السيفُ سيُستعمَل في سبيلِ قضيةِ الربِّ المقدسة،
وفي سبيلِ الحقِّ، وشرفِ إخوتي، وشرفِي .
بهذا الإيمان، وبهذه الصليب.
سوف أنتصِرُ.
لكنْ، إنْ أنا قصَّرْتُ يوماً في إيماني،
فَشرعاً سيقتلني الربُّ
آمين.»

كرّر آرنْ اليمينَ بالفرنسيَّةِ مرّتين، ومرّةً باللاتينيَّة، وهو يُمْسِكُ بالسيفِ من النّصلِ بكلتا يَدَيْه. وأمسكَ الأبُ هنري بالسيفِ، وقبّلَهُ، ثم أخذَه بين يديه وصلّى في صمتٍ، مُغمضَ العينين. ثم التفتَ إلى آرنْ وقال له بِضْعَ كلماتٍ.

«لا تَنْسَ أبداً ما قَطَعْتَه على نفسك منْ يمينٍ إلى الربِّ، يا بنيّ. فهذا السيفُ الذي سيظلُّ سيفَك منذ الآن ما دُمْتَ حَيّاً، هو سيفٌ مُباركٌ – ولا يحملُه سوى أنتَ وحدَك، أو فارسٍ من فُرسان الهيكلِ. هذا السيفُ وما شابَهَهُ واحدٌ من سيوفٍ هي وحدَها السيوفُ المقبولةُ في بيتِ الربّ، فلتذْكُرْ ذلك جيداً. فاحْمِلْهُ من دون أنْ تُقَصِّرَ في حقِّ الشّرفِ الذي يتساوَى مع شرفِه.»

وبِيَدَيْهِ المرتَعِشَتَيْن قليلا أعاد الأبُ هنري السيفَ إلى آرنْ. وفي لحظةٍ بَدَا هذا الأخيرُ متردّداً قبل أنْ يمسِكَ بالسيفِ، وكأنه خَشِيَ أنْ يَحْرِقَه ذلك السيف.

وعندما أمسك به ما بين يديه، أنْشَدَ الخورس ترتيلا جديداً من الثَّنَاءِ والمدْح.

* * *

ذهب آرنْ في اليوم نفسِه. لكنّ الإعدادَ لذلك الانطلاقِ من فارنيم كان هذه المرّة أفضلَ من الانطلاقِ الأوّلِ الذي سرعان ما انتهَى إلى مأساةٍ.

لم يكنْ الحصانُ الذي امتطاه غير خِيمال، وهو الحصان الذي استُعْمِلَ في التكاثرِ لمدةِ عامٍ ولم تعدْ خدماتُه ضروريةً للدير في الحال. لقد خُلِعَتْ على آرنْ ملابسُ رماديةٌ وحمراء، كمثلِ رَجُلٍ من العالم الفاني – آرنْ نفسُه لم يَذْكرْ أنه قد لبس قَبْلا شيئاً آخر غير مِسْحِ الأخ لايْ. وقد قُصَّ شعرُه أيضاً، فصار قَصِيراً، لكنْ في تَسَاوٍ حول الرأس، ولم يَبْقَ سوى آثارِ دائرةِ القَصّ.

كان الأخُ روجبيرو قد منحَه محفظةً ثقيلة لا يمكن لأيٍّ كانَ أنْ يَسْلبَها منه فور عُبوره الى خارج أسوار فارنيم. فقد حوتْ فضلا عن المُؤَنِ، عيّنةً جميلةً من الأعشابِ التي كان يجبُ المحافظةُ عليها في مكانٍ رَطْبٍ في أكياسٍ من الجلد، وكذلك البذور وبزرات الفواكه.

كان السيفُ العجيبُ قد قُلِّدَ بِخاصِرَتِه بواسطةِ رباطٍ بسيطٍ من الجلد، ذلك السيفُ الذي خَفَّ وزنُه في يدِه حتى بدا وكأنه جزءٌ حيٌّ من ذاتِه، وتوازنَ حتى صار بإمكانه أنْ يُنَظّف أظفارَ رِجْليه من دون الحاجةِ إلى الإمساكِ به بِكِلْتا يديه.

في بِضْعِ كلماتٍ، وباعتزازٍ لم يجدْ لإخفائه سبيلا شرَح له الأخُ جيلبرتْ كلَّ شيءٍ عن ذلك النوعِ من السيوفِ، وما يُمَيِّزها عن الأسلحةِ التقليديةِ. لا، ربما لم أشرحْ لك كلَّ شيءٍ، أضاف الأخُ جيلبرتْ في استحياءٍ. لكنْ، لنْ يفوتَ آرنْ أنْ يكتشفَ ذلك بسرعة.

كان آرنْ قد ودّع كل واحدٍ، متأثراً أيما تأثرٍ بالحبِّ الذي يُكنّه له كلُّ واحد، حبّ لم يكنْ قد فهِمه قط قبل القدّاسِ الأخير الذي رأى فيه وسمِع بالـغَ الجِديّةِ التي أبْدَاهَا المُنشِدونَ في أجملِ وداعٍ وَدّعُوه به.

في النهاية، لم يبقَ إلا هو، والأبُ هنري والأخُ جيلبرتْ في قاعة الاستقبال، وأشار إليه الأبُ هنري بأنْ يقفَ، فقفَزَ آرنْ من على سَرْجِ خيمال الذي نَفَذَ صَبْرُه.

«شيءٌ أخير، قَبْلَ أنْ تنطلقَ نحو هذه الدنيا، قال الأبُ هنري قبل أنْ يتوقف، خوفاً من أنْ تسبقَه مشاعِرُه. إنك تحملُ سيفاً قوياً على جَنْبِك، وأنتَ

تعرفُ ذلك. لكنْ لا تَنْسَ أقوالَ سانت برنار: «أيها المحاربُ في سبيل الربّ، ما هي أسلحتُك؟ أليستْ قَبْلَ كلِّ شيءٍ دِرْعَ إيمانِك، وخوذةَ خلاصِك، ودِرْعَ دماثتِك؟»

« نعم، يا أبي، أُقسمُ بأنني لنْ أنساهُ أبداً»، أجاب آرنْ وهو ينظرُ إلى رئيس الدير من دون أنْ ترمشَ له عينٌ.

«إلى اللقاء، يا فارس بِرسيفال الصغير»، قال الأبُ جيلبرتْ قبل أنْ يضربَ بالسوطِ الخيلَ الهائجَ، الذي انطلقَ للتوّ لِيَعْبُرَ المَمَرَّ المُبَلّطَ الضيّقَ المُطِلَّ على العالم الخارجي.

«هل كان حَذِراً كلَّ الحذَر؟ هَمْهَمَ الأبُ هنري، كان يمكنُ أنْ يَسْقُطَ من على الحصان.

«آرنْ لا يسقطُ من على الحصان. وفضلا عن ذلك فليس بالتأكيدِ هذا ما يُهدّدُه الآن»، أجاب الأخ جيلبرتْ وهو يبتسمُ منْ هُمومِ رئيسِ الدير التي لا معنى لها.

«لكنني لا أستطيبُ قط هذه البلاهاتِ عن بيرسفال، والغرال، وأغانيه المبتذلة»، قال الأبُ هنري وهو يَبْتَعِدُ فجأة. لكنْ كعادتِه في غالب الأحيان، استدارَ ليُضيفَ بِضْعَ كلمات.

«برسيفالْ هنا، برسيفالْ هناك، هذه القصصُ على وشكِ أنْ تُنْسَى، مثل كلِّ الترهات !

«تُرهاتٌ أرى أنكَ تعرِفُها جيداً، أيْ أبي»، ردَّ الأخُ جيلبرتْ، في ضَحْكَةٍ وَقِحَةٍ لم يسبقْ أنْ أبداها لرئيسِ الدير.

لقد تأثرا أيما تأثر بذلك الوداعِ، حتى وإنْ لم يُظهراه. لكنْ، على خِلافِ الأبِ هنري، كان الأخُ جيلبرتْ على يقينٍ من أنه سيرى آرنْ مرةً أخرى. لأنه، على خلافِ رئيسِ الدير، كان على يَقِينٍ أيضاً من فَحْوَى القَصْدِ الذي كان الربُّ يُضْمِرُهُ لذلكَ الشاب.

الفصل الثامن

في منتصفِ ذلك العصرِ كان سِيرْ ماغنوس عَكِرَ المزاجِ، كثيرَ الشُّرْبِ. كان يكابدُ تأنيبَ الضميرِ، لأنه لم يستطعْ أنْ يمنحَ حُبَّه لآرن، ابنَه الثاني الذي كان، رغم ذلك، الابنَ المفضّلَ عند حبيبَتِه سيغريد.

لم يكنْ، حتى وهو ثَمِلٌ، يُسَلّمُ بأنه أبٌ لابْنَيْنِ كبيرين لا يَجْلِبَانِ إلى بيتِه الشرفَ الذي يُدينانِ به إلى ميلادِهما. حقاً، أيُّ جدوى في أنْ يسيلَ الدّمُ المَلَكِيّ في عُروقِ وَلَدَيْنِ إذا كان الناسُ يُشيرون إليهما بالبَنَانِ، ويضحكون منهما هُزْءًا، حين يمرّون بهما ؟

ففي حالِ إسكيل، كان ماغنوس قد استسلم للأمرِ الواقع، لأنّ الناسَ كانوا يُعانون في فَهْمِ ذلك الذي يمكنُ أنْ يكون مُثْمِراً في المستقبلِ، مثلَ التجارة وطُرقِ زراعةِ الأرضِ، وما يملأُ الصناديقَ بِقِطَعِ النَّقْدِ الذهبيةِ الجديدة. كان إسكيلِ مُؤهلا لتلك الشؤونِ بحكمِ موهبتِه العاليةِ، حيثُ سيترك وراءَه ضعفَ ما وَرِثَهُ. أما الذين كانوا يهزَؤُون من مَيْلِه للأداءات الفُحولية فلم يكونوا سوى جَهَلةٍ، وأشخاصٍ عاجزين عن إدراكِ ذلك الذي كان الربُّ يريد قولَه حين تحدَّث عن جهود الإنسان في الأرضِ. وفي ما كان مُهِمّاً حقاً سوف يكون إسكيل سيّداً لأرناس، ثَرِياً وذَكِياً، وما من رَيْبٍ في ذلك قط.

وأَمّا أنْ لا يكون ابنهُ الأكبرُ مُحارباً فليس ذلك عاراً كبيراً عليه. وفضلا عن ذلك فإذا لم يلجأْ إسكيل إلى السيفِ وإلى الدّرعِ، فسوف يبلغ عُمْراً أطولَ، وتَصيرُ أرناس مزدهِرة.

في المقابلِ، كان تعذُّر الفُحولةِ كُلّياً عن ابنه الثاني مَصْدَرَ عارٍ. لقد سمِع ماغنوس رجالا من حَرَسِه يَصفون آرنْ بـــ «راهبة فارنيم». وقد آثَرَ تجاهُلَ الشتيمةِ وتصرّفَ وكأنّ شيئاً لم يكنْ. وكان من بَليغِ الرّوعِ أنْ

يَبْدُوَ الحرسُ على حقٍّ في تلك النقطة. لم يكنْ ماغنوس يفهمُ ما الذي فَعَلَه الرهبانُ بالطفلِ النَّبيهِ الذي يَذْكُرُ عنه أنه تعلّم رِمايةَ القوسِ بأسرع وقتٍ. صحيحٌ أنهم كانوا يَتْلُونَ دعواتٍ جميلةً على الطاولةِ منذ عودةِ آرنْ، لكنْ قلّما كان ذلك يجلبُ عزَّةً للحصن.

كان الغلامُ قد وصَل ذات يوم من أيام الربيع البَهِيَّة، على فَرَسٍ كان من النحافةِ ما جَعَلَهُ يثيرُ الكثيرَ من الضّحكات. وأَدْهَى من ذلك، كان آرنْ يحملُ سيفاً بَدَا وكأنه قد صُنِعَ للنساءِ خِصيصاً، لو سلّمنا أنّ الأمرَ مُمْكنٌ حقاً. كان السلاحُ طويلا جداً، وخفيفاً جداً، وكان بريقُه يصرخُ بأنّه لم يُصْهَرْ صَهْراً مُتقَناً. وكان ماغنوس قد سارع إلى وَضْعِهِ في مخزنِ بُرْجِ الأسلحةِ، حتى يُوفِّرَ عن الغلامِ البَرِيءِ تهكُّماً مُسيئاً.

إنّ على الأبِ أنْ يُحِبَّ أبناءَه الشرعيّين، فتلك وَصِيّةٌ من وَصايا الربِّ. لكنّ المسألةَ تتوقّفُ على معرفةِ إلى أيِّ حدٍّ يمكنُ للخيبةِ والعارِ أنْ يخدِشَا هذا الحبَّ إلى الحدّ الذي يجعلُه في النهاية غيرَ خليقٍ بهذا الاسم.

بطبيعةِ الحالِ كان ثمةَ مسألةٌ أخرى وهي معرفةُ إنْ كان بالإمكانِ أنْ يجعلُوا من الغلامِ رَجُلا، لكنْ يبدو أنّ الغلامَ قد أمضَى من الوقتِ لدى الرهبانِ ما جَعَلَهُ يصبحُ واحداً منهم. وعلى هذا النحو صار الأمرُ، من بعضِ الأوجُهِ، وكأنّ في البيتِ راهباً، فلم يعدْ بالإمكانِ التحدُّثُ بحريةٍ حول طاولةِ الأكل، عند المساء، وصار من الواجبِ حِفْظُ اللّسانِ حتى لا تبدُو الكلماتُ كلماتٍ وَثنيَّةً .

وفضلا عن ذلك، كان آرنْ قلّما يشربُ، وهو ما بدا منه منذ العَشاءِ الأوّلِ الذي كان يمكن أنْ يكون قَصْفاً ووَليمَة. وإذْ اتّبَعَ ماغنوس في ذلك حكمةَ الابن الذي عُثِرَ عليه في الكتابات المقدَّسةِ، نَحَرَ ماغنوس عِجْلا سميناً، أو بالأحرى خنُّوصاً دَسِماً، مادام ذلك اللحمُ أكثرَ نُعومةً. لقد لبسَ الجميعُ ثيابَ العِيد، وأُعطِيَ لآرنْ الملابسُ التي لم يعدْ إسكيل يرتَديها، بعد أنْ ورِثَ هذا الأخيرُ صِفاتِ والِدِ جدّه، فُولْكْ البَدين.

لكنْ لم يَفُتْ أحداً في السهرةِ أنْ يُلاحظَ أنْ آرن لم يكنْ قويَّ البنيةِ.

لقد اكتفى بِرَشْفَتَيْنِ من الجِعةِ، وأكل الخنّوصَ بصعوبةٍ جمّة، وكأنه امرأة. وحتى وإنْ اجتهدَ في أنْ يكون لطيفاً فقد بدا مُنعزلا قليلا، فشقَّ عليه أنْ يفهمَ المَزْحَ، وأنْ يُدرِك يدَ العَوْنِ التي مَدَّها إليهِ أولئك الذين كانوا يسعون إلى عَوْنه. فعلى أيِّ حالٍ لم يَظْهَرْ عليه بتاتاً أنه قد وَرِثَ عن أمِّهِ خِفَّةَ الذِّهنِ وطُولَ اللسانِ.

فما دام الثَّمَلُ يَفُكُّ العقلَ بقَدْرِ ما يُطلِقُ اللسانَ، فقد نَوَى ماغنوس شرّاً وكرهاً: لقد أصبح آرنْ مثلَ امرأةٍ بين الرّهبان. فالناسُ مِمَّنْ قلّ إيمانُهم، والمُلْحِدُون، يروُون بالفعلِ مثلَ تلك القصصِ حول بعضِ خطايا الرُّهبان الشَّائِنَة.

وسعَى ماغنوس، الذي تشوّشَ عقلُه قليلا، لأنْ يعرفَ إنْ كانت مَنْزِلةُ آرنْ الذي بدا أفضلَ ما بين النساء، يعني أنه يُقْبِلُ على تلك الفظاعةِ المُمَيِّزَةِ للرهبان، أو إنْ كان ذلك الاستعدادُ للتَّفاهُم مع النساءِ أكثرَ من الرجالِ، يُثْبِتُ العكسَ.

وفكّر أوّلا في الخِزْيِ والعارِ، مادام هؤلاء الرجالُ المهزومون يُشْبِهُون النساءَ، ويُفَكّرون مثلهنّ تماماً.

بعد ذلك فكّر تفكيراً مُعاكساً. فلأنه إذا استسلمَ رجلٌ لفظاعةٍ مثيلةٍ، كمثلِ الزِّنا مع عِجْلةٍ، أفلا يسعَى سِرّاً في البحثِ عن تلك العِجْلة؟ لم تكنْ أرناس تفتَقِدُ لأقِنّةٍ، لكنْ ما دام كلُّ الناسِ يترصّدون الابنَ الأبلهَ العائدَ، فإنّ أدنى محاولةٍ للإساءةِ إلى هؤلاء الأقنَّةِ الصغارِ سيُفَجِّر في الحالِ عاصفةً من الإشاعاتِ التي قد تَصلُ إلى آذانِ الأسيادِ لا محالة.

لا، لم يكن آرنْ لِوَاطِياً، فلو كان كذلك لكان الأمرُ أسوأ وَصْمَةٍ ممكنة لأبيهِ ولعائلته سواء بسواء. وفي هذه الحالِ لَمَا كان في الأمرِ بُدٌّ من اغتيالهِ لاستعادةِ شَرَفِ البيت.

وفي غضبٍ شديدٍ صرَخ ماغنوس في وَجْهِ خَدَمِهِ الذين فزعوا منه أيّما فَزَعٍ بأنْ يحمِلوا إليه جِعَةً، ففعَلوا من دون ضجيجٍ، وفي سُرعةِ البرق.

وبعد أنْ أفرغَ نصفَ قَدَحٍ من الجِعَةِ، وتأمّل أفكارَه الأخيرةَ، سالتْ

دموعَه في حسرةٍ. فلا شكَّ أنه قد أفرَط في إساءةِ الظنِّ بآرنْ، ابنِه الشرعيّ، هذا الذي كانت زوجتُه سيغريد تتمسّكُ به تمسُّكها بِحَدقةِ العين. فماذا كانت نوايا الربِّ إذاً؟ بادِئَ ذِي بَدْءٍ كان يجبُ التبرُّعُ بِشَخْصِ آرنْ الصغيرِ إلى الربِّ، لأنّ الإشاراتِ إلى هذا الموضوعِ لم تتركْ أدنى شكّ. فإنْ صار آرنْ رَجُلَ كنيسةٍ حتى آخرِ أيامِه، فإنّ الأمورَ سوف تسيرُ على أحسنِ ما يرام، في أفضلِ العوالمِ، لأنّ ماغنوس لم يكنْ مِمَّنْ يُنكِرُون ذلك الخيرَ الجمَّ الذي جَلَبَهُ الرهبانُ إلى فاسترا غوتالاند. بل كان على العكسِ أوّلَ مَنْ يعترِفُ بأنّ جزءاً كبيراً ممّا أُدْخِلَ من تحسيناتٍ إلى أرناس كان مِنْ صُنْعِ الرهبان.

لكنْ، بدلا من أنْ يؤدي عَمَلَ الربِّ في ديرٍ من الأديرةِ، أُرْسِلَ آرنْ ثانيةً إلى ما كان بيتَهُ في الماضي، نِصْفَ رَجلٍ ونصفَ راهبٍ. فما دلالةُ ذلك يا تُرى؟ إنّ الذين يؤكّدون أنّ سُبُلَ الربِّ منيعةٌ وغامضةٌ يَعُونَ كلَّ الوعيِ ما يقولون.

لكنْ لعلَّ الأدهَى من ذلك أنّ آرنْ كان يصرُّ في عنادٍ على العَمَلِ كَقِنٍّ. فبعد عَوْدَتِه بأيامٍ قليلةٍ كان الأقنةُ يحفُرون، ويُشَيِّدون ويُطَرّقون طرقاً في كلِّ مكانٍ في الحصنِ. وقد اجتَهدَ ماغنوس ما وَسِعَهُ الجهدُ في أنْ يشرحَ لابنِه بأنه لا يرى داعِياً لأنْ يُنْهِكَ نفسَه على ذلك النحو، لأنّ الحصنَ لم يكنْ ينقُصُه أقنةٌ عاطِلون عن العملِ في تلك الفترةِ من السنةِ. لكنّ آرنْ ظل يتفرَّغُ من مُهِمَّةٍ إلى مهمّة أخرى. وكان من الصعبِ معرفةُ إنْ كان ذلك سيجلِبُ خيراً، بيد أنه لم يكنْ من حُسْنِ التدبيرِ مَنْعُهُ من تلك المهمّاتِ قَبْلَ معرفةِ نتائجِها.

لكنَّ شيئاً، على أيِّ حالٍ، ما لبث أنْ نال تقديرَ الجميعِ، بما فيهم أكثرُ الحُرّاسِ استخفافاً بآرنْ. لقد صفَّحَ آرنْ كلَّ خُيولِ الحصنِ بنوعٍ من الحديدِ يندمِجُ بإحكامٍ فوق مُقدّمةِ الحوافِرِ فيمنعُ الحديدَ من السقوطِ. لقد استجوبَ ماغنوس الحرّاسَ والأقنةَ الذين يعملُون في المصاهرِ، فاعترفَ الجميعُ وأقرّوا بما تحقّقَ من تحسُّنٍ.

ورأى ماغنوس وإسكيل أنّ ما مِنْ تطوّرٍ يَدْخُلُ إلى أرناس إلاّ وكان

عملاً طيباً. لكنْ، لَكَمْ أزعجهما أنْ يعملَ آرنْ، الابنُ الشرعي، في الدخان والسخامِ، مثلما يعملُ القنُّ في الدخانِ والسخام، وأنْ لا يستحْيي لذلك ولا يخجَل. فعلى العكس، كان يُثْني على الربِّ في أثناء صلاةِ المائدة، التي كان يَتْلُوها باللغةِ الشماليةِ القديمة، على ما أنجزَهُ مِنْ أعمال.

أبدَى إسكيل قَدْراً أقلّ مِمَّا أَبْدَاهُ والدُه من ارتياب، وأكّدَ أنه لا يجوزُ ازدراءُ المعرفة. وفضلا عن ذلك، كانت تلك المعارفُ اليدويةُ العديدةُ التي لقَّنَهَا الأقنةُ لأخيهم قابلةً لأنْ تُنْقَلَ بدورها إلى غيرِهم. فإذا كان آرنْ يكتفِي بِتَلْقِينِ الأقنةِ بعضَ الأشياءِ، فإنّ هؤلاء سرعان ما يُصبحون قادرين على تنفيذِ الأشغالِ بأنفسِهم. لكنْ كان عليهم أنْ يتعلّموا أوّلا، وما مِنْ شخصٍ آخرَ قادرٍ على تعليمِهم سوى آرن نفسِه. وفضلا عن ذلك فلَمْ يكنْ من اللائقِ ازدراءُ تلك الأشغالِ التي كانت تسعَى لتطوير الحصنِ، لأنّ في ذلك ما ينفعُ الجميع.

واطمأنَّ ماغنوس إذاً حين فكّر أنّ ما يُقدّمه آرنْ من تجديدٍ للحصنِ سوف يُسْنِدُ أرناس ويُثْرِيها. وعليه، كان لا بد منْ أنْ يُقْبِلَ الأقنةُ على التعلُّمِ بلا تأخيرٍ، حتى يكفَّ آرنْ عنْ جَلْبِ العارِ لِعائلتِه وهو يتعرّقُ دماً وماءً.

بدأتْ الجعةُ تُحَوِّل ماغنوس إلى رَجلٍ عاطفي، فقال لنفسِه إنه من الطيِّبِ أنْ يسودَ كلُّ ذلك التفاهمِ بين آرنْ وزوجة أبيه، إيريكا جوارسدوتر. لم يعرفْ ماغنوس ما الذي كان آرنْ وزوجتُه يفعلانِه في المطابخِ، فلَم تَطَأْهَا قَدَمَاهُ أبداً، لكنّ إيريكا كانت تبدو سعيدةً كلّ السعادةِ بما كان يُنْجَزُ في تلك المطابخ. وفضلا عن ذلك، كان من الخيرِ أنْ يُحْسِنَ أحدُ سادةِ الحصنِ مُعاملتَها. كان إسكيل لا يطيقُ زوجة أبيه - أما هو، ماغنوس، فصحيحٌ أنه كان قد أعطاها الكثيرَ من الأطفالِ، ما دام ذاك نَصيبَهُم، لكنْ كان لا بد من انتظارِ حَمْلٍ ثالثٍ لكيْ تُعطيَه وَلَداً في النهاية. وهذا الأخيرُ لنْ يذهبَ عند الرهبانِ. لا، لنْ يذهبَ، وسيتكفَّلُ الحراسُ بتكوينِه، منذ المَهْد.

كانت إيريكا تعاني من نَقِيصةٍ فيها. صحيحٌ أنها كانت جميلةً، لكنها كانت إذا فتحتْ فاهَها شَعَرَ الناسُ أنَ بِحَلْقِها عاهةً، فيخالون وكأنّ كلماتِها

تخرجُ من أنفِها وليس من شَفَتَيْها. ولذلك كان بعضُ الأشخاصِ ممّنْ قلَّ أَدَبُهُمْ، يُقهقهون لذلك أحياناً، فتُحْجِمُ إيريكا عن الكلامِ أمام الغُرباء. وكانت فوق ذلك تُبدي تحفظاً في أثناء المآدبِ، وعندما تسهرُ على راحةِ المدْعُوّيين. ولذلك كان ماغنوس لا يطيقُ زوجتَه إلا في عَناءٍ، فيَسْرَحُ في سيغريد في غالبِ الأحيان. فما مِنْ شخصٍ كان أقربَ إليه مثلما كانت سيغريد، وذاك أمرٌ لم يُسِرْهُ إلا لنفسِه، وللربِّ وحده.

لكنْ في المقابل، لم يكنْ يخفَى على أحدٍ أنّ إيريكا كانت ابْنَةً لأخِ المَلِك، وأنها مِنْ سلالَةٍ مَلَكِيَّة، وأنّ البِنْتَيْنِ والابنَ الذين أنجبَتْهُم كانوا كذلك أيضاً، وذلك مِنْ جانِبَيْنِ اثنين.

* * *

كان مَلاكٌ قد قَدِمَ إلى أرناس. وكان إذا لَمَسَ شيئاً صار هذا الشيءُ أفضلَ أو أكثرَ جمالا. وكان هو الذَّكَرَ الوحيدَ الذي يُوجِّهُ الحديثَ إليها... إريكا جواردسدوتر، وكأنها كائنٌ قد وُهِبَ عَقْلا. لم يَبْدُ عليه حَرَجٌ من نَشَازٍ في صوتِها، بل كان على العكسِ يعتذرُ لِعَدَمِ تحكُّمِه في لُغَةِ طُفولَتِه، لأنه أمضَى الكثيرَ من الوقتِ عند الدنمركيين. وعلى خِلافِ أخيهِ فلَمْ يُعامِلْها كشخصٍ غَريبٍ اغتصَبَ مَكانَةَ أُمِّهِما.

وغداةَ مأدُبَةِ الترحيبِ، وبُعَيْدَ الفَجْرِ بقليلٍ، جاء آرن ليَلْتَقِيَ بإيريكا في المطابخِ، بعد أنْ اغتسلَ وتخلّصَ من كلِّ روائحِ السُّكْرِ، فيما كانت هي تبدأُ يوماً طويلا من العَمَلِ مع الخَدَم. وبِأدبٍ جمٍّ طلَبَ منها أنْ تُرِيَهُ الفضاءَ الذي كانت تسودُ فيه بصِفَتِهَا سيّدةَ البيتِ، وقاما بجولةٍ حول مخازنِ المُؤَنِ والمطابخِ. ومن الأسئلةِ التي طُرِحَتْ عليها أدركتْ إيريكا أنّ آرنْ يعرفُ أكثرَ بكثيرٍ ممّا يعرفُه الرجالُ عن الكيفيةِ التي تُسَمَّدُ بها الأرضُ، وتُخزَّنُ بها اللحومُ، ويُطْهَى بها السَّمكُ، وأنه لا يَخْجَلُ لذلك بتاتاً.

وما لبثت الأشياءُ أنْ تغيَّرتْ، سيما وأنّ آرنْ لم يدّخِرْ جهداً في جَعْلِها تُقرّرُ بنفسِها ما تراه مُناسباً، شارِحاً لها ما الذي كان عليها فِعْلُه من دون

تأخيرٍ، وما كان يمكنُ لها تأجيلُه.

كانت أرناس أشبهَ بقَرْيةٍ مُحاطةٍ بِمَجارٍ مائيةٍ من النَّاحِيتَيْن. ففي أَقْصَى الناحيةِ المُطلَّةِ على بحيرة فانيرن، كان الحِصْنُ والأسوارُ، ومَجْرَيا الماءِ المُوَجَّهَانِ في قنواتٍ يُشكّلان خَندَقَيْنِ حول ذلك الحصنِ وتلك الأسوارِ. لكنّ أوساخَ المدابغِ والمراحيضِ والمسلخِ والمغسلِ كانت تصِلُ مع مَجْرَيَيْ الماءِ. وقد رأى آرنْ أنّ ذلك هو الذي جعل عيونَ الأقنةِ تحمرُّ وأنوفَهم تسيلُ، وجِلْدُهم يمتلئُ بِبُثُورٍ بَشِعَة. ولذلك السببِ أيضاً كان العديدُ من حَدِيثِي الوِلادةِ نادراً ما تُكْتَبُ لهمُ الحياةُ طويلا.

كان لا بد أن تُصْرَفَ الأوساخ في المستقبل، في المجرَى المائي الواقعِ على الناحيةِ الشَّرْقية. لقد خَطَّ آرنْ على الرّملِ رسماً إجمالياً، وبيَّن لها كيف يمكن لمجرىً مائي أنْ ينتقلَ من جانبٍ إلى آخرَ مُروراً بالمطابخ. فبهذا الدَّفْقِ المستمرّ يمكنُ توفيرُ الكثيرِ من الوقتِ، والحفاظُ على نظافةِ المكانِ وعلى جودةِ الغذاءِ في آنٍ. وفضلا عن ذلك سوف تتحسّنُ المطابخُ، إذْ ستَحُلُّ مَحَلّ الطوبِ أرضيةٌ مبلّطةٌ ومبنيةٌ، وستكون هذه الأرضيةُ مائلةً بعض الميلِ لكي تنسابَ منها المياهُ المستهلَكة.

لكنَّ تلك التغييراتُ سوف تستغرقُ وقتاً طويلا. لذا كان من الأسرعِ إقامةُ مُرَبَّعاتٍ زراعيةٍ ما بين المطابخِ. وقد شَرَع آرنْ في تنظيفِ كلِّ الفَضاءاتِ ما بين صُفوفِ بيوتِ الأقنةِ، وفي إزالةِ المُخلَّفاتِ التي يتمُّ نقلُها بواسطة العَرَباتِ. كان جزءٌ من تلك المُخلَّفاتِ يُستعمَلُ في السَّمادِ، ويُحْرَقُ الجزءُ الباقِي. وقد حَرِص آرنْ على أنْ تتولّى إيريكا بنفسِها إعطاءَ الأوامرِ، حتى يرى الناسُ من حولِها أنّ سيدةَ الحصنِ هي التي تتّخذُ القراراتِ كافة.

كان من الأصْعَبِ إدخالُ تغييراتٍ تتّصِلُ بالفَضلاتِ البشرية، وهي التي يمكن أنْ تتحوّل إلى أسمدةٍ هائلةٍ، شريطةَ ألا تنتهي إلى الماءِ أو إلى الغِذاء. فبدلا مِنْ أنْ يقضيَ الأقنةُ حاجتَهم حيثُما طابَ لهم فلنْ يجدوا بُداً بعد ذلك من أنْ يستعمِلوا المراحيضَ الخاصة، وإنْ خالفوا عرَّضوا أنفسَهم

لأقْسَى التوبيخ والتعنيف.

وتذمّرَ الأقنةُ أيّما تَذَمُّرٍ منْ تلك التغييراتِ، لكنّ إيريكا جواردسدوتر أبدتْ إزاءَهم صرامةً وحَزْماً، لأنها صارت الآن تَثِقُ في آرنْ ثقةً كاملة.

لقد أمضتْ إيريكا خمسةَ أعوامٍ مُريدَةً في الرهبانيةِ في أحدِ الأديرةِ قبْلَ أنْ يُخرِجَها أبوها منه لكي يُزوِّجَها. كانت إذاً على درايةٍ كاملةٍ بما كان آرنْ يُرشِدُها إليه. فلعلها ظنّتْ أنّ ذلك النظامَ الأفضلَ لا مكانَ له إلا داخلَ الجدرانِ، حيث كلُّ شيءٍ أنظف ممّا لو كان خارجَ تلك الجدران، وكأنّ للنظافةِ بُعْداً رُوحياً. لقد فَتَحَ وصولُ آرنْ عَيْنَيْها، إذْ حَثَّها على التفكيرِ بأنّ لذلك النظامِ مَكاناً في حياةِ الديرِ اليوميةِ، مثلما في داخلِه تماماً. وقد احمرّ وجهُها حين فكّرتْ من جديدٍ في الخطأِ الذي اقْتَرَفَتْهُ حين استقبَلَتْ آرنْ بعباراتٍ لاتينيّةٍ أعَدَّتْها بعنايةٍ وكأنّ اللاتينيَّةَ كانت ستُخفِي عاهتَها. لكنّ آرنْ ردّ عليها بِبشاشةٍ مُستعمِلا جُمَلا طويلةً لم تكدْ تفهمُ نِصْفَها، لكنها تظاهرتْ باقْتِفَاءِ الحوار. لكنه ما لبث أنْ اكتشفَ ارتباكَها فأخذَ يُعبّر بالنوروا. لكنّ الجميعَ سمِعَهُ وهو يشرحُ لها أنه مِنْ غَيْرِ المُستَحَبِّ أنْ يظلَّ الآخرون في عُزلةٍ عن الحوارِ، لأنهما الشخصانِ الوحيدان اللذان يتحدثان اللاتينيّةَ في أرناس.

فَما دام الحديثُ بينهما قد صار متواصلا كلَّ يومٍ، وما دامتْ هي قد أصبحتْ تعرفُه خيْرَ المعرفةِ، فما لبثتْ أنْ ذَكَّرَتْهُ بِخطئِهِ، فضحكا معاً لذلك كثيراً. عندئذ قصَّ عليها آرنْ أنه مرّ بتجربةٍ أغْرَبَ من ذلكَ عندما التقَى لأوّلِ مرّةٍ براهبٍ من رُهبانِ فورشيم. فقد بَدا له أنْ لا حَرَجَ عليه أنْ يتحدّثَ باللاتينيّةِ مع رَجُلٍ من الكنيسة، فحيّاهُ أحسنَ تحيةٍ، وعَرَّفَه بنفسِه، قائلا إنه قد سُرَّ بِعَوْدَتِه لِكنيسةِ الطفولة. ولَمّا كانت باحةُ الكنيسة تغصُّ بالناسِ فقد ردّ عليه الراهبُ وكأنه يتحدّثُ اللاتينيَّةَ حقاً، فيما لم يكنْ الأمرُ كذلك. وقد أخذ آرن يُحاكِي الكلماتِ التي جاء وَقْعُها في الآذان كالتالي تقريباً: "Pax vobiscum hummmelidumdum, pater noster et Ave Maria krusilurum hokuspokusum,Hönsum et gåsum per aspera ad astra. وانفجَرت لذلك قَهْقَهَاتُهُما. وأضاف آرنْ أنْ لعلَّهُ شَعَرَ بإرباكِ

شديدٍ وهو يستَمِع لاتينيَّةَ الأبِ المطبوخة، فلَمْ يعرفْ بماذا يُجيب. لقد انتهَز الراهبُ تلك الفرصةَ لكي يقولَ للأشخاصِ المجتمعين، وبِصوتٍ حازمٍ: نَعَمْ، إنّ اللاتينيَّة ليست سهلةً على الشبابِ بتاتاً. وعلى هذا النحو اعتذرَ الراهبُ ورَمَى آرنْ بِرَمْشَةِ عينٍ وَقِحَةٍ، وسارَع بالانتقالِ إلى الجانبِ الآخر من الفِناء.

صار آرنْ وإيريكا يضحكان ضَحِكاً قوياً حتى أدمعتْ عيونُهما، ووَقَعَ كلٌّ منهما في أحضانِ الآخر. وداعَبَتْ إيريكا خدَّ آرنْ في لِينٍ. وهنا استولى الخوفُ على آرنْ فابتعدَ عنها وتوسّل إليها بأنْ تَعْفُوَ عنه.

مع قُدُومِ آرنْ صارتْ أيامُ إيريكا جوارسدوتر في أرناس أكثرَ بهجةً، ولم تَعُدْ واجِباتُها المنزليةُ تمثِّلُ الوِزْرَ نفسَه. وقد صارت تَغْتَسِلُ عند الفَجرِ في جَذَلٍ، على نحوٍ لم يكنْ يَخْطرُ لها على بالٍ. وسرعان ما لاحظ عُمّالُ الحصنِ أنّ المأكولاتِ المقدَّمةَ صارتْ أطْيَبَ بكثيرٍ فأَسْدَيَا لها مَدْحاً وإطراءً لم يسبقْ أنْ سمِعَتْ بمثلِهما. لقد أَطْرَوْا على الخصوصِ، الجمبون المُقَدَّد.

جَلَبَ آرنْ من فارنيم نَقانِقَ وشَحْمَ الخنزير، وحتى وإنْ اختفَى كلُّ شيءٍ تقريباً في أثناء مأدبةِ الاستقبالِ من دون أن يَنْتَبِهَ أحدٌ لِغذاءِ الرهبانِ ذاك، فقد سألَتْه إيريكا كيف أُعِدَّ ذلك الطعامُ. كان آرنْ قد صنَع مدخنةً من الخشب المطليِّ بالقَار، وبعد ذلك أَعَدَّ بِضْعَ قِطَعٍ من الخنزيرِ، ثم أَرْشَدَ إيريكا إلى طريقةِ إعدادِ ذلك الطعام. وسرعان ما صارتْ إيريكا وخَدَمُها يُدَخِّنونَ الخنزيرَ الذي صار كأنه يأتي من الديرِ رأساً.

لكنّ آرن كان قد عَكَفَ على أَمْرٍ آخرَ. كان الخشبُ المطليُّ بالقارِ كافياً لمكانٍ بسيطٍ مثل المَدْخَنِ، لكنْ في المقابلِ كان المكانُ في حاجةٍ إلى طُوبٍ لإنجازِ بعضِ الأعمالِ في المطبخ. لم ترَ إيريكا آرنْ إذاً عندما كان هذا الأخيرُ يَبْنِي مصنعاً للطوب. كان الصلصالُ الملائمُ متوفِّراً في المنحدرِ الصخريّ الواقعِ أعلى الدِّباغةِ، على الضفّةِ الشرقية. وقد احتاج آرنْ إلى أسبوعٍ كاملٍ حتى يُقْنِعَ أقنَتَهُ الذين باتوا على نظافة، بأنْ يضَعوا الصلصالَ في القوالبِ الخشبيةِ المُتَساوِيَةِ الأحجامِ قبل أنْ يَشْرَعوا في طَهْيِها، كما

يُطْهَى الخُبزُ. إلا أنّ الطَّهْيَ كان أطولَ وأعلَى، ويحتاجُ إلى منافِخَ أيضاً. وبعد قليل من الوقتِ، انتصبَ مخزنٌ للطوبِ بجانبِ المطابخِ. وجَلَبَ آرنْ إيريكا إلى الورشةِ وشرَح كيف سيقوم جليدُ بُحَيْرَةِ فانيرن بتبريدِ غُرفةِ الطوبِ، حتى في أكثرِ أيامِ الصيفِ قَرّاً. ولم يَكدْ يُنهي كلامَه حتى أخذتْ هي في الضّحِك: فالجميعُ يعرفُ أنّ لا وجودَ للجليدِ في فصلِ الصيفِ. ولأوّلِ مرّةٍ بدا آرنْ مُهاناً، فظلَّ هادِئاً، مُطْرِقاً، وكأنه يجتهدُ في أنْ لا يقول شيئاً تحت وَقْعِ الغضبِ. ثم شرَح لها في هُدوءٍ كيف الحصولُ على ذلك الجليد. لا، ليس الأمرُ معجزةً قط: فلو احْتُفِظَ بالجليدِ على ذلك النحو لأَمْكَنَ استعمالُه في الصيف.

في صلواتِها المسائيةِ ما انفكتْ إيريكا تشْكُر الربَّ الذي أرسلَ إليها هذا الابنَ السخيَّ، ذلك الذي حتى وإنْ لم يكنْ ابنَها فهو يُعامِلها مثلَ أمٍّ ويمنحُ للمكانِ معنىً ظَلَّ يخلُو منه من قبلُ. لكنّها لم تجرُؤْ على أنْ تقولَ للربِّ ما كانت تُفكّرُ به كلَّ يوم: أنها تُشَبِّهُ آرنْ بِقُدومِ مَلاكٍ حقيقي إلى أرناس.

* * *

ظلّ إسكيل مُتردّداً. فهو لا يعرفُ ما الذي يفكّر به إزاء هذا الأخ الأصغر الذي قدِم فجأةً إلى باحةِ الحصنِ، وهو يمتطي مثلَ قَمْلَةٍ، حصاناً قبيحَ المنظرِ، وكأنه يعود مرّةً أخرى من مملكةِ الأمواتِ، التي زَعَمَ أنه نَجَا منها ذاتَ مرّةٍ بأعجوبة.

كان شعورُه الأوّلُ شعوراً أقربَ إلى الحُبِّ الأخويّ، لأنّ إسكيل، أكثرُ من غيرِه، يَذْكُرُ ذلك اليومَ الذي انفصلا فيه أمام بابِ الحصنِ، والذي رَكَضَ فيه خَلْفَ العربةِ التي حَمَلَتْ آرنْ، قبل أنْ يتعثّر في إحدى آثار عجلاتِ تلك العربة. ففي ذلك اليومِ لَمَحَ والدموعُ تُغْرِقُ عينيه، أخاهُ وهو يتوارَى في سحابةٍ من الغبارِ، في رحلةٍ ربّانيّةٍ أبديّةٍ مُبْهَمَة.

عندما ضَمّ آرنْ إلى صَدْرِه أَحَسّ فيه أوّلا الهُزالَ وسوءَ التغذيةِ. ثم ضَمّه أخُوه بقوّةٍ وكأنه الدُّبُّ حتى كادَ يفقدُه نَفَسَهُ. أجلْ، كان هذا اللقاءُ لحظة

فَرْحَةٍ تكاد تكون لحظةً بلا نِهاية.

لكنْ منذُ المساءِ الأوّلِ، بدا إسكيلُ في أثناءِ المأدبةِ، مُنْشَغِلا بأَمْرِ أخيهِ الصغيرِ الذي بَدَا وكأنه لم يَذُقْ طعْمَ الفَرحِ، وصار يأكلُ برعونةٍ تكاد تُلامِسُ قلّةَ الأدبِ، ويشربُ الجِعَةَ مثلَ امرأةٍ جزِعَةٍ.

وبدأ الضجرُ يلوحُ عندما ابتعدَ الأبُ والأخُ البكرُ عن آرنْ، حينما لَمَسَ هذا الأخيرُ ضَيْقَهُما، وحينما سعَى لِرُفْقَةِ الأقنّةِ والنساءِ عِوَضاً عنْ رُفْقَةِ الرجالِ. وكان الحرسُ أوّلَ منْ قَطّبَ، ورَفَعَ الأعْيُنَ إلى السماءِ وجَمَعَ كَفّاً حانِقَةً وراءَ ظهْرِ آرنْ. حاولَ إسكيلْ أنْ يَصُدَّهُمْ عن ذلك، لكنه لم يجرؤْ، لأنه كان أقْرَبَ إلى مُقاسَمَتِهِم تلك المشاعِرِ التي تَجَلّتْ عَبْرَ تَهَكُّماتِهِم.

صار والدُهُما بعد ذلك قليلَ الكلام كلّما ورَد ذكرُ آرنْ. لقد اتّفَقَ مع إسكيل على أنْ يترُكا الوقتَ يَمُرُّ، وأنْ يَمْنَحا آرنْ فُرصةَ التصرُّفِ مع الأقنةِ والنساءِ كما يحلُو له التصرُّفُ، قَبْلَ جَرِّهِ في لُطْفٍ إلى الانشغالِ بأمورٍ أخرى، إنْ هو رَغِبَ فيها.

كان كلٌّ واحدٍ مُنْهَمِكاً في شُؤونِه، ولم يَسْعَ لاماغنوس ولا إسكيل أنْ يَرَيا عنْ قُرْبٍ ذلك الذي كان آرنْ يفعلُه مع الأقنةِ وفي المطابخِ، في الجزءِ الجنوبي من الحصنِ الذي قلما كانا يدخلان إليه.

إلا أنّ بعضَ الأُمورِ لم تكنْ لِتخْتَفِي عن الأنظارِ. فبعضُ أنواعِ اللحوم الجديدةِ كانت تُعْرَضُ على طاولاتِ الأكلِ، وقد تلذّذَ إسكيل بِجَمْبُون مُدَخَّنٍ لم يكنْ لا قاسياً ولا جافاً ولا مُمَلّحاً، كذلك الذي كان يُخصّصُ لأوقاتِ الشتاءِ العويصةِ. بل كان ذلك الجمبون يُسيلُ لُعَابَهُ لمجردِ التفكير فيه. وفضلا عن ذلك، لَمْ يَفُتْ أحداً أنْ يُلاحِظَ كَمْ تغيّرتْ إيريكا، لأنها صارت تتحدّثُ بلا ضَيْقٍ رغم فظاظةِ صوتِها، وتضحكُ وهي تردُّ على الأسئلةِ المتعلقة بما يُقَدَّمُ من جديد الأطعمةِ في أثناء الوجبات.

كان إسكيل يرحّبُ بما يجري من تغييراتٍ، وقد فهِمَ في النهايةِ أنّ زوجة أبيه أَكْثَرُ جُرْأَةً من والده في تلك المسألة بالذات. فإنْ كانت التغيّراتُ طيّبةً جَلَبَتْ الازدهارَ، وإنْ لم تكنْ كذلك فلا مَفَرَّ من التغييرِ مرّةً أخرى. هكذا كان

شأنُ أرناس، ولهذا السببِ كان حصنُهُما يكبرُ ويزدادُ ثراؤهُ، أكثرَ مما يكبرُ ويزدادُ ثراءُ الممتلكاتِ التي لا تَشْهَدُ تغييراً.

لم يَطِقْ إسكيل البقاءَ طويلا في الجَهْلِ، وتوسَّلَ إلى آرنْ أنْ يُرِيَهُ ما طرأ من تغييرٍ. وفرِح آرنْ لذلك أيما فَرَحٍ، إلى حَدِّ السعادةِ تقريباً، وكاد يُفارِقُ طاولةَ الأكلِ حتى يَعْرِضَ أعمالَه على أخيهِ الأكبرِ.

ولمّا رأى إسكيل ما رآه تغيّرَ رأيُهُ رأساً على عَقِبٍ. فلم يكنْ آرنْ مُحرّضَ تلك التغييراتِ وحَسْبُ، بل كان يعرفُ أيضاً ما يفعلُه على وجهِ التحديدِ. وأَقرَّ إسكيل بِلا لفٍّ أو دورانٍ أنّه قد أخْطَأَ حين تسرَّع في إبداء الحُكْم.

لقد بدا له حيُّ الأقنّةِ مختلفاً كلّ الاختلاف، لأنّ كلَّ النفاياتِ والأوساخِ قد نُظِّفَتْ، كما كانت تُنَظَّفُ الاستطبلاتُ في الشتاء تقريباً. إذ صار في الوسعِ السيرُ في ذلك المكانِ من دون أنْ يَتَحَسَّسَ السَّائرُ مَوْقِعَ القَدَمِ.

ما لبث إسكيل أنْ نَدِمَ على مَزْحَتِهِ الأولى. لقد أقرَّ بالفعل أنَّ المكانَ صار أجملَ بكثيرٍ، لكنْ لعلَّه من غيْرِ المُفيدِ كثيراً السَّعْيُ من أَجْلِ أنْ يعيشَ الأقنَّةُ عِيشَةَ البَشَرِ الأحرارِ.

عندئذٍ شرَح له آرنْ بكاملِ الجِدّيةِ أنّ الأقنةَ تحسَّنَتْ صِحَّتُهُم بعد أنْ اختفَتْ الأوساخُ، وأنّ الأطفالَ صاروا كُثْراً، وأنّ أقنّةً في صِحّةٍ جيدةٍ خيرٌ من أقنةٍ سُقْمٍ، مثلما أقنةٌ على قَيْدِ الحياة خيرٌ من أقنةٍ مَوْتَى، وأنّ أمراضَهم، فوق ذلك، قد تُعْدِي الأسيادَ، وأنّ النظافةَ في النهايةِ تعُودُ بالنَّفْعِ على الجميع. ثم عَرَضَ مشاريعَه الخاصة بِمَجْرِيَيْ الماء، مُوضِّحاً أنّ أحدَهُما سيظلُّ نظيفاً، فيما سيُخَصّصُ الثاني للمراحيضِ التي ستُجَنِّبُ تصريفَ البُرازِ في أيِّ مكان. وفضلا عن ذلك سوف يُسْتَخْدَمُ البرازُ في السَّمادِ، وبذلك إذاً سوف يُقَدِّمُ خَيْراً بدلا من أنْ يَنْشُرَ أمراضاً.

كان للجِدِّيَةِ التي تحدّثَ بها آرنْ عن مِثْلِ تلك الأشياءِ الوَضِيعَةِ وقْعٌ هائلٌ على إسكيل. فمِنْ ناحيةٍ بدا ذلك تافِهاً، مثل مُزْحَةٍ بائخَةٍ، لكنْ من الناحيةِ الأخرى كان الأمرُ هو البداهةُ عينُها. بالفعلِ، ما الذي يمكن أنْ يقال في مِثْلِ تلك الإجراءاتِ البسيطةِ، وفي أنْ يكون الأقنّةُ أنفُسُهم قادرينَ على

تطبيقِها، وفي أنّ ذلك سوف يجلبُ تغييراتٍ كبرى؟ ذلك يعني المزيدَ من الفوائدِ المُنْجَزَةِ بقليلٍ من العملِ، ومِنْ دون أنْ يُكلِّفَ الأمرُ فِلْساً واحداً.

بالقربِ من المطابخِ أراهُ آرنْ كيف صارتْ الأوساخُ والسَّمادُ تتحوّل إلى أحواضٍ يُزْرَعُ فيها البصلُ والكُرّاثُ، وبُقُولٌ أخرى لم يكنْ إسكيل يَدْرِي عنها شيئاً. وفي داخِلِ المطابخِ فُوجِىءَ بِرُؤيةِ أرضيةٍ مُبَلَّطَةٍ: ما الفائدةُ منْ تجْمِيلِ مكانٍ لا تعملُ فيه سوى النساءِ والأقنّة؟ في هذه اللحظةِ ضحِك آرنْ لأوّلِ مرّةٍ، وكأنّ جديتَه قد تَفَتَّقَتْ قليلا، وشرَح أنّ الجماليةَ لم تكنْ نِيّتَهُ الأولى، لكنّ الأمرَ قَبْلَ كُلِّ شيْءٍ تقديمُ غِذَاءٍ صِحّيٍّ ولذيذٍ، وهو ما سوف يستفيدُ منه الجميعُ لا محالة.

عندما رأى إسكيل غرفةَ التدخينِ مرّةً ثانيةً، حين شرَحَ له آرنْ الطريقةَ التي يُدَخَّنُ بها الجمبون، وعندما تأمّلَ البناءَ الطوبيّ الذي سوف يصبحُ نموذجاً كاملا للمخزنِ، مع الجليدِ والعَتْمَةِ وسيلةً لِحفْظِ الموادِ في أثناءَ الصيفِ، تأثّرَ لذلك أيّما تأثُّرٍ حتى اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ بالدَّمْعِ. فلم يَعُدْ يُساوِرُه بعد ذلك أيُّ شكٍّ في أيِّ شيءٍ. صحيح أنّ آرنْ لن يحظَى بأيِّ احترامٍ من الحُرّاسِ البُلَدَاءِ ثَقِيلِي الفَهْمِ، بيد أنه قد جاءَ بمعلوماتٍ مبارَكةٍ من الديرِ، وهذا العِلْمُ سوف يُطَوّرُ أرناس تطويراً هائلا. أجلْ، لقد ظلّ كلُّ شيءٍ جامِداً لسنواتٍ طويلةٍ، حتى وإنْ كانت أرناس تُحْسِنُ تَدْبيرَ أمورِها في ميادينَ أخرى.

ضمَّ إسكيل آرنْ إليه وسأله العفوَ إنْ هو لم يفهمْ أنّ أخاهُ كان أخاهُ حقاً، وأنه لا يقلُّ عنه طِيبَةً أيضاً. ووَاسَاهُ آرنْ، ووَاسَى نفسَه أيضاً. كانا مُتأثِّرَيْنِ كثيراً، وكان الخدمُ من حولِهِما ينظرون إليهما، في فُضولٍ ممزُوجٍ بالدّهْشَة.

وعندما اكتشفَ إسكيلُ ذلك استدرك خطأَهُ، ووجّه نظراتٍ غاضبةً إلى الخَدَمِ الذين ما لبثوا أنْ تَوَارَوْا في الحالِ. ثم اقْتَرَحَ على آرنْ مُرافقَتَهُ إلى الغرفةِ التي تُدَوَّنُ فيها الحساباتُ، في الصَّوْمَعَةِ، وتناوُلَ إبريقٍ صغيرٍ أو إبريقين من الجِعةِ معاً.

أوشكَ آرنْ أنْ يقولَ له إنّ عَملا كثيراً ينتظرُهما، وأنه لا يَسَعُهُما رؤيةُ ثِمَارِ ما يُنْجِزانِهِ بِعَرَقِ الجَبِينِ إلا عند انتهاء يومٍ كاملٍ من العمل والكدِّ. لكنه ما لبثَ أنْ استدركَ نَفْسَهُ: لا يجوزُ لقواعدِ حياتِه الماضيةِ أنْ تُؤثِّر في العلاقةِ التي صار يُقيمُها مع أخيه. لقد صلَّى خصيصاً من أَجْلِ مثلِ ذلك الاعترافِ، لأنه أَحَسَّ بالمسافةِ والخَشْيَةِ لدى أبيهِ وأخيه، وتألَّم لذلك كثيراً. لكنه تمنىَّ أيضاً أنْ يُقَدِّرا في الأخيرِ ذاك الذي كان يفعلُه، ويَفْعَلُه على أَحْسَنِ وَجْهٍ أيضاً. فَلَيْسَ ذَنْباً أنْ يَشْرَبَ جِعَةً مع أخيه، حتى في عِزِّ منتصفِ النهار.

سعَى سيرْ ماغنوس في البحثِ عن ذريعةٍ يتذرَّعُ بها حتى لا يصطحبَ آرنْ معه في رِحْلَةٍ كان سيقوم بها إلى النرويج، حيثُ سيُناقِشُ ميراثاً عائلياً. وكم كان يشقُّ عليه أنْ يكونَ إسكيل معه في تلك الرحلةِ، لأنّ الولائمَ النرويجيةَ كثيراً ما تتحوّلُ إلى ألعابٍ بالأسلحةِ المتداولةِ بين الحاضرين كلّما فَعَلَتْ الجِعَةُ فيهم فِعْلَتَها. فمَنْ لم يكنْ سريعَ الحركةِ، أو كان متقدِّماً في العُمْرِ بما يكفي لأنْ يقولَ «لا» لصِغارِ العُمرِ، عَرَّضَ نَفْسَه لوَضْعٍ سَيئ منْ قِبَلِ العائلاتِ النرويجية.

وعلى الرغمِ من الخَطَرِ، أصرَّ ماغنوس على أنْ يصطحِبَ إسكيل معه، لأنَّ القضايا ستكونُ غايةً في الصعوبةِ، وفي مَقْدُورِ إسكيل أنْ يَحْسِبَ حِساباً ذِهْنيّاً، قيمَةَ المُمتلكاتِ المنظورِ فيها، ذَهَباً، حتى وإنْ شربَ من الجعةِ قدْراً كبيراً. لقد تحدّثَا في الأمرِ طويلا وخَلُصَا إلى أنّه منْ عَيْنِ العَقْلِ بَيْعُ هذا الإرْثِ النرويجي، ولْيَسْتَأْ لذلك من يشاء! فمن قبيلِ الشَّرَفِ أنْ يُحافظَ الناسُ عادةً في النرويجِ، مثلما الأمْرُ في فاسترا غوتالاند، على الإرْثِ، وأنْ يسهَرُوا على ألا يَنْتَقِلَ منهم إلى أيدي أسرةٍ أخرى.

لكنّ الفائدةَ من امتلاكِ مَوْقعٍ على ضِفافِ نَهْرِ فجوردْ الكبير فائدةٌ محدودةٌ إنْ لم يرغبْ المالِكُ في أنْ يَمْتَلِكَ المكانَ بنَفْسِه. فهنا الأمرُ مختلفٌ كلّ الاختلافِ، لأنّ فجوردْ خالٍ من الجليدِ على مدارِ السنةِ، وهو ما يُوَفِّرُ مَوْقِعاً للتملُّكِ، أفضلَ منْ مَوْقِعِ ضِفافِ فانيرن.

فأيٌّ من الناسِ لو كان في مَكانِهما لاختارَ تَعْيِينَ مُزارِعٍ أو قريبٍ نرويجي للعنايةِ بالأرضِ، لكنّ ماغنوس وإسكيل كان من رأيهما أنّ الملكيةَ في هذه الحالةِ لنْ تُدِرَّ شيئاً، لأنّ ما مِنْ عائلةٍ نرويجيةٍ تستطيعُ أنْ تدفعَ إيجاراً مُناسباً للأرض.

لكنْ في المقابل، لو بِيعَتْ المُلكِيةُ لَحَصَلُوا على مَبْلَغٍ من المالِ الرَّنّانِ المُترنِّحِ الذي يمكن استعمالُهُ بحكمةٍ وعن دِراية. ولَمَّا كان آرن قد عادَ إلى الحصنِ فقد كان لا بد من التفكيرِ في أنه قد يَرِثُ هو أيضاً. ألم يكنْ من الأعْقَلِ شِراءُ أراضٍ آمنةٍ بالقربِ من أرناس، أو على حُدودِ أراضي آرن، في جَنُوبِ سكارا، أو حتى شِراءُ جُزء من أراضي عائلة آلْ هُوسبي؟ فذاكَ على أيِّ حالٍ أَضْمَنُ لآرن مِنْ إرسالِهِ إلى أولئك النّرويجيين العُدْوَانِيِّين.

في غضون ذلك لم يجدْ ماغنوس ذريعةً يتذرّعُ بها لِيُعْلِنَ إلى ابنِهِ أنه لن يأخُذَه معه إلى النرويج. وفي تلك الفترةِ من الخريفِ كان سفارت وابْنُهُ كول يصطادان الأيِّلَ والخنزير البريّ. لقد جاءَا منها بِغَنائم كثيرة. وقد وَضَعَ منها آرن وإريكا كَمَّا كبيراً في المدخن، لأنّ آرن كان قد أكّدَ أنّ تدخينَ لَحْمِ الطَّرِيدَةِ أفضلُ من تَمْلِيحِهِ وتجفيفه. وفيما كان الشرحُ الشاقُ يقتربُ مع اقترابِ السَّفَرِ، ما لبث آرن أنْ قدّمَ الْتِمَاساً إلى أبيهِ. لقد رَغِبَ في أنْ يُرافقَ سفارتْ وكول، وأنْ يتعلَّمَ الصيد.

وسَعِدَ ماغنوس بذلك أيَّ سعادَة. فهو من ناحيةٍ، يتفادى على ذلك النحو الاندفاعَ في شَرْحٍ مُحْرِجٍ حول الآباءِ النرويجيين، وحُبِّهِمْ للسيفِ والبيرةِ. ومن ناحيةٍ أخرى، لقد أظهرَ آرن لأوّلِ مرّةٍ أهميةً غيرَ ذاتِ أهمية لِشَيْءٍ ينتمِي لحياةِ القصر. فالناسُ يحترمون دائماً الصيادَ الماهِرَ، حتى وإنْ كان قِنّاً.

بيد أنّ ماغنوس كان يَشُكُّ كثيراً في قُدرةِ آرن على تَعَلُّمِ أيِّ شيءٍ في فَنِّ الصّيدِ الصّعْبِ والفَحْلِ أيضاً. ففي السَّرَّاءِ والضَّرّاءِ يظلُّ ابنُهُ نِصْفَ راهِبٍ ليس أكثر.

ولم يكنْ يراودُ سفارتْ أيُّ أمَلٍ أيضاً، لكنْ كان عليه أنْ يُطيعَ. وحينما

عَلِمَ أنّ عليه أنْ يأخذَ معه النصف الثاني الآخرَ من القِطْعَةِ، عرفَ كيف ستجري الأمورُ لاحقا. فَقَبْلَ خَرِيفَيْنِ اثْنَيْنِ ماضِيَيْنِ اضطر للقيام بمثلِ ذلك مع إسكيل. صحيحٌ أنّ هذا الأخيرَ لم يكنْ قد استدارَ بدنهُ مثلَ استدارةِ البرميلِ، لكنه أضحَى شخصاً مزعجاً لا يُطاق، ولم يُقدّم الصَّيْدُ أيَّ شيءٍ. لا، لم يكنْ من السَّهْلِ أنْ يصطحبَ الصيّادُ ابنَ سيّدٍ، هو الذي يُقَرِّرُ كلَّ شيءٍ، لكنه لا يَفْقَهُ أيَّ شيءٍ.

لكنّ سفارت كان أكثرَ حَيْرَةً في أَمْرِ آرن. أمّا إسكيل فكان أكثرَ شَبَهاً بأبيه. لقد قَدَّمَ له الأقنةُ الآخرون، آرن، على أنه رَجلٌ مُقْتَدِرٌ، رجلٌ يُتْقِنُ عَمَلَ كَلِّ ما لا يعرفهُ الأسيادُ، فضلا عمّا يتمتَّعُ به من طَبْعٍ لَيِّنٍ. لم يَرْفَعْ يَدَهُ على أحدٍ أبداً، ولم يَجْلِدْ أحداً أبداً، ولم يَرْفَعْ صوتَه على أحدٍ أبداً.

افترضَ سفارت أنّ الأمرَ مرهونٌ بِدِيانَةِ الأسيادِ وما فيها من فُضولٍ، أكثرَ مما هو مرهونٌ بالقِيلِ والقالِ الذي يُذيعُهُ الحُرّاس. فَمِنْ وُجُوهٍ عديدةٍ حقاً كانت ديانةُ الأسيادِ غَيْرَ مفهومةٍ. كانت آلِهَتُهُمْ من الكَثْرَةِ ما جَعَلَ الناسَ لا يَفْهَمُونَ فيها شيئاً. وفوقَ ذلك، كانت تلك الآلهةُ تُعاقِبُ الناسَ ليس على أعمالِهم الخاصةِ، لكنْ على ما كانوا يُفَكّرون به. وكأنَّ الآلهةَ قادرةٌ على سَماعِ ما يُفَكِّرُ به الناسُ! ثم، مَنْ يدري كيف كانت تلك الآلهةُ تُطَبِّقُ قِصاصَها على أفكارٍ خاطِئَةٍ؟

يَذْكُرُ سفارت جيداً أنّ آرن قد تخطّى الحواجزَ حتى يتعقَّبَ قاقاً وهو طائر اسود يشبه الغراب، وأنه من حُسْنِ حظه أنه سقَط فوق رُكام من الثلج. بالطبع، فَقَدَ الغلامُ نَفَسَه لبعضِ الوقتِ قبل أنْ يستعيدَ وعيَه ثانيةً، لكنْ هنا كان الأسيادُ قد توجَّهوا بالدُّعاءِ لآلِهَتِهِمْ، وَوَعَدوا بأشياءَ كثيرة. وفي الآخرِ أرسلُوا الغُلامَ بعيداً. لكنْ تعذّرَ عليهم أنْ يعرِفوا إنْ كان ذلك عِقَاباً أَنْزَلُوهُ بالغُلام أو بأنْفُسِهم.

على أية حالٍ، كان مِنْ الواضحِ أنه أدَّى عُقوبَتَه، وعادَ ثانيةً. لكنه لم يَكُنْ يُشْبِهُ أحداً. لقد رأى سفارتْ، آرن في المِصْهَرِ، ولم يَجِدْ بداً من أنْ يُقِرَّ على مَضَضٍ بأنه، هو الحدَّادُ الأفضلُ في أرناس، ليس بِيَدِهِ ما يُعَلِّمُه لذلك

الغُلام. والحقُّ يقالُ إنّ العَكْسَ هو الصحيحُ، وهو ما لم يكنْ من السَّهلِ على سفارت، أن يُصَدِّقَهُ ويَسْتَسيغَهُ.

عند لحظةِ الذهابِ، ما لبثت أشياءٌ كثيرةٌ أنْ كَدّرَتْ صَفْوَ سفارت. فما دام ابنُ السيدِ سيُرافِقُهُما في السفَرِ، فقد ذَهَبا لِيُحْضِرا أسلحةً من مَخْزَنِ الأسلحةِ. وما لبثت الطريقةُ التي أَمْسَكَ بها آرن الأقواسَ وجَمَعَها من دون أيِّ جُهْدٍ، أنْ نَبَّهَتْ سفارت أنّ الغلامَ سَبَقَ وأنْ استعملَ أكثرَ من قوسٍ واحدٍ في حياتِه. وزيادةً على ذلك، فقد تناولَ من دون تردُّدٍ أكثرَ السِّهام مُلاءمةً للقوسِ الذي اقتناهُ. كان سفارت يحمِلُ أفكاراً غامضةً حول ما يفعلُه المسيحيون في أَدْيِرَتِهِمْ، وأيقن أنهم يتدرَّبون على رِماية القوس بطريقةٍ لا تتَّفِقُ بالكاملِ مع المُزَحِ التي اعتاد الأقنة إشاعَتَها في ذلك الشأن.

بعد أنْ وَضَعُوا البَرَادِعَ فوق أحصِنَتِهِمْ، أخرجوا مَطِيَّاتهم لكي يُسَرِّجُوها، وقد قال كول لآرن في حَذَرٍ أنَّ باستطاعتِه أنْ يأخذَ أيَّ حصانٍ من أَحْصِنَةِ الرُّهبان، فقد كان له الحقُّ في مَطِيَّةٍ أفضلَ من حصانِ الراهبِ ذلك الذي لم يَكُنْ ظاهِرُهُ يُوحي بالثِّقَة حقاً. وانفجرَ آرن ضَحِكاً، من دون فَظاظةٍ. وأضافَ أنه عندما يَصِلُونَ إلى أرضٍ مكشوفَةٍ، سيُرِيهِمْ أنّ حِصانَه ليس أيَّ حِصانٍ!

لم يكنْ سفارت خبيراً في الأحصنة، لكنه لم يكنْ جاهِلا بها كُلَّ الجَهل. لقد كان يُنْعِلُ خُيُولَ أرناس جميعها، باستعمالِ كلِّ الحُذْوَاتِ الجديدةِ التي كانت حقاً أفضلَ من كلِّ الحُدوات التي كانت تُسْتَعْمَل فيما ما مضى. وكان يمتطِي الخيلَ كسائرِ الذين يهتمّون بالخيولِ، سواء كانوا من الرجالِ الأحرارِ أو من الأقنّة، سواء كانوا من الأسيادِ أو من الخُفَراء. لكنه سرعان ما أدرَكَ أنه لا يَرْكَبُ الخيلَ كما يركَبُه آرن. وعندما صاروا بَعيدين عن المزرعة أخذ آرن يُلْزِمُ حِصانَه بأشياءَ غريبة. لقد أضحتْ البهيمةُ التي لم يكنْ ظاهرُها يُوحي بالثقةِ وهي متوقفة قويةً وحَيَوِيةً تحت حافزِ ذلك الشاب. فلو تخيلنا حِصانَ أودين لقلنا إنه يُشْبِهُهُ حقاً.

شقَّ على القِنَّيْنِ وآرن أنْ يَفْهَمَ بعضُهم البعضَ الآخر، فَجَعَلَهُمْ ذلك

صُمّاً بُكْماً بالكامِلِ تقريباً، على مدى الساعاتِ الأولى.

لكنْ، ما كادُوا يَصِلُون إلى غاباتِ كينيكول الصنوبرِية في أعالي هوسابي، حتى أَبْدَى آرن مَهارةً فائقةً في الصيدِ، مثلَ أخيه البِكْرِ تماماً. بيد أنَّ أشياءَ كثيرةً كانت تُفَرِّقُ بينَه وبيْنَ إسكيل. فهو يَفْهَمُ عندما يُخْطِئُ، ويعتذرُ، ويسألُ في الحالِ كيف يُصَحِّحُ خَطأَهُ.

فعندما رأوا لأوّلِ مرّةٍ، أيائلَ وهي تمرحُ في بَراحِ الغابةِ، على بُعْدِ مَسافةٍ قريبةٍ، اقتربُوا والريحُ قُبالَتَهُمْ. كانت الريحُ تُحْدِثُ دَوِياً في أوراقِ الأشجارِ بما يكفِي لبَلْبَلَةِ سَمْعِ الأيَائل واقترابِهَا من مَدَى الرّمَايةِ، حتى وإنْ كان الوقتُ نهاراً. لقد لَمَحَ سفارت وكول الأيائلَ قَبْلَ أنْ يَلْمحَها آرن الذي صاحَ بدورِهِ فجأةً عندما رآها. ولَمّا كان الأقنةُ قد سَمِعُوا صياحَ آرن كَمَا سَمِعَها سفارت وكول تماماً، وأدركوا ذلكَ الذي كان سيَحْدُثُ بعد حينٍ، أطلقوا سيقانَهُم للريح وهُم يَثِبُون وَثْباً.

في ذلك المساءِ، والجميعُ حولَ النَّارِ، ألقَى آرن الكثيرَ من الأسئلةِ الصبيانيةِ التي رَدَّ عليها سفارت وكول في أناةٍ، من غير أنْ يُفْصِحُوا عن آرائِهم في تلك الأسئلة. نعم، لا بد دائماً من الاقترابِ وجهاً لوجهٍ مع الريحِ، وإلا اكتشَفَتْ الأيائلَ والخنازيرُ البريّةُ، بل وكلُّ الحيوانات، أنّ ثمةَ مَنْ يقترِبُ منها. نعمْ، إنها تَسْمَعُ صوتَ اقترابِ رَجُلٍ منها على مدىٍ سَهْمٍ واحدٍ منها إنْ لم يكنْ ثمةَ رِيحٌ، وإلا تقلصتْ المسافةُ إلى النصفِ. لا، لا ينبغِي الرميُ على الحيواناتِ التي عندَها قرونٌ، فلَحْمُهَا ليس طَيِّباً، لا سيما في تلك الفترةِ من السَّنَة، عندما تكون في حالةِ شَبَق. نعم، فَلَحْمُ الذكورِ يفوحُ ببِوْلِهَا بشدةٍ عندما تكون شَبِقَة. وكذلك الشأنُ مع الخنازيرِ البريةِ. لا، لا ينبغي الرَّمْيُ على كبارِ ذُكورِ الحيواناتِ، بل على مُتَوَسِّطِها حَجْماً. وإذا حُظِينا بِصَيْدِ خنزيرةٍ بريّةٍ كان الأمرُ أفضلَ، لأن صغارَ الخنازيرِ تتجمَّعُ من حولِها عندما تُشْرِفُ على الموتِ. وهنا، إذا شاءتْ الآلهةُ، تُقْتَلُ كلُّ هذه الحيوانات الصغيرة تِباعاً، لأنّ لَحْمَها لذيذٌ حقاً.

وفيما كانوا يُجِيبُون في أدبٍ على أسئلةِ ابنِ سيِّدِهِمْ الجاهِلة، إذْ بهم

يسمَعُون صِياحاً يَصْعَدُ من قَلْبِ الغابةِ. فَقَفَزَ آرن وفَتَّشَ عن قَوْسِهِ وجعبتهُ ونَظَرَ إلى سفارت وكول، اللذين لَبِثَا ساكِنَيْنِ من دون حِراكٍ، مُبْتَسِمَيْنِ في هُدوءٍ. وحين لاحظَ أنهما لم يُظهِرا أيَّ خوفٍ عاد للجلوسِ ثانيةً وسألَهُما بِحركاتٍ من عَيْنَيْه.

شرَحَ له سفارت أنّ لِلْجَهَلَةِ أسماءً كثيرةً يَصِفُونَ بها هذا الدَّوِيَّ، من صرخةِ حربِ ملِكِ الجبالِ، إلى صِيَاحَاتِ القَزَمِ الانتقامية. لكنَّ الصياحَ لم يكنْ سوى صوت نَزِيبِ أَيَلٍ كبيرٍ في حالةِ شَبَقٍ. فهذا الدويُّ يُرْعِبُ أكثرَ الناسِ في قَلْبِ الغابةِ، لكنه دويٌّ يُمْتِعُ أُذُنَ الصيادين. وذاكَ يعني، في عِزِّ الفَجْرِ، أنهم سَيُحْظَوْنَ بإيجادِ الظَّبْيَةِ والرَّشَا التي يُفَتِّشُ عنها أَيَلٌ عَجُوز. فلو اقْتَفَيْنَا نَزِيباً في الظلامِ لكان أَأْمَنَ وَسِيلَةٍ للالتقاءِ بإناثِ الأيائلِ وأبنائِها، التي مآلُها المطابِخُ، لُحوماً جافةً ومُمَلَّحَة.

قبل الفجرِ توغَّلوا في بُطءٍ داخلَ الغابةِ لكي يَتَحَسَسُوا آثارًا للأيائلِ والظبية. كان يشقُّ عليهم التقدّمُ في هدوءٍ بسببِ الصَّقيعِ الذي امتدَّ طوالَ الليلِ. لقد كانت الأوراقُ والبلوطُ تُصِرُّ، حتى تحت أقدامِ سفارت وكول الحَذِرَة. ففي آذانِ هذين الأخيرَيْنِ كان آرن يُحْدِثُ من الأصواتِ قَدْرِ ما تُحْدِثُه فِرْقةٌ من الحُرّاسِ المُدَجّجين بالسلاحِ من الرأسِ إلى أخمصِ القَدَمَيْن. وقد ظنّا أنّ صَدَى آرن في آذانِ الأيائلِ الحساسة، كصدَى الرانياروك تماماً أي نهاية العالم في الكوسمولوجيا الشمالية القديمة.

عندما توقّفَ سفارت، كانوا قد وَصَلُوا إلى بَراحٍ بالقربِ من إحدى البِرَك. بالطبعِ، كانت أمامَهما رِيحٌ خفيفَةٌ، لأنه لم يكنْ يَسَعُ لا سفارت ولا كول أنْ يَتَقَدَّما على نحوٍ مُختلف. بيد أنّ البِرْكَةَ كانت في قَلْبِ البراحِ حيث تصاعَدَ ضَبابٌ كثيفٌ، وإنْ كانوا يسمعون نَزِيبَ الأَيائل فقد تخلَّلَ أسماعَهم صَوْتُ بعضِ الظبيةِ والرَّشَا من حينٍ لحينٍ. كانوا بعيدين جداً، لكن لم يكنْ بيدِهم أيةُ حِيلَةٍ. فلو حاولوا أنْ يتقدّموا في البراحِ لانكشَفُوا، ولذلك لم يَبْقَ أمامَهم سوى أنْ ينتظِرُوا.

وبعد هُنَيْهَةٍ سألَ آرن بصوتٍ منخفضٍ، كما تعلَّم ذلك من قبلُ، لماذا

لا يُصوِّبون؟ فهَمَسُوا له أنَّ الأيائلَ بعيدةٌ جداً، وأنه ليس بالإمكانِ إصابتُها، اللّهم إلا إذا قَصُرَتْ المسافةُ إلى النصفِ. وفي سذاجةٍ أجابهم آرن أنَّ في وُسْعِهِ أنْ يُطلقَ سَهْمَه.

رَغِبَ سفارت في أنْ يَرُدَّ على تلك الحماقاتِ بِهَزَّةٍ من رأسِه، لكنه فكّرَ في حِكْمَةِ أنّ خَيْراً أنْ يتعلَّمَ آرن ذلكَ من حيثُ لا يدري، مِنْ أنْ يَتَعَلَّمَهُ مِنْ فَاهِ أُيَلٍ من الأيائل. فردَّدَ إذاً ذلك الذي قالَه بالأمسِ: من وَرَاءِ الكَتِفِ، وفي الرِّئَتَيْن. في هذه الحالةِ لنْ يتحرّكَ الأُيَلُ. فإنْ تلقى السهمَ في مستوى خَفيضٍ جداً قَفزَ الأيَلُ وأرسلَ إلى الآخرينَ خَوْفَهُ. وإن أُصِيبَ الأيَلُ في رِئَتَيْهِ ولم يُبْدِ حِراكاً، ساعتَها يمكنُ إصابةُ أَيَلٍ غيْرِهِ.

وَضَعَ آرن سَهْماً على حَبْلِ قوسِه، وأمسكَ به بإبهامِ يَدِهِ اليُسرى، ثم رَسَمَ الصَّلِيبَ على صَدْرِهِ. ثم انتظَروا.

مرّ وقتٌ طويلٌ بَدَا لآرن، بالتأكيدِ، أطْوَلَ ممّا بَدَا للآخَرَيْن. وتوقَّفَتْ ثَلاثةُ أيائل. كانتْ، على الرغم من الضّبابِ، باديَةً للعيانِ. رَبَّتَ آرن بهدوءٍ على كَتِفَ سفارت، وبنظرةٍ أَلْقَى إليهِ السؤالَ. وهَمَسَ سفارت في أُذُنِ آرن بأنَّ الأيائلَ تَقِفُ في المكانِ المناسبِ، لكنّها بَعِيدَةٌ جداً. وقال آرن في إشارةٍ أنه قد فَهِمَ.

فجأةً وَتَّرَ آرن قوسَه وصوَّبَ لمسافةِ ذراعٍ تقريباً من فوقِ الرشا التي كانت تقف في أفضَلِ مكان. وتركَ السهمَ ينطلقُ من دون تردّد. وسمِعوا السَّهْمَ وهو يُصيبُ الهَدَف. ورأوا الرشَا متوقفةً، وكأنها لم تُفهَمْ أنّ الموتَ أصابَها. وبسرعةٍ أطلق آرن سَهْمَهُ مرّةً أخرى، وسمِعُوا الأيائلَ تَنْتَفِضُ.

على الفورِ رغِبَ آرن في أنْ يغوصَ في قلبِ الضبابِ لكي يرى النتيجة، لكنّ كول ما لبث أن صَدَّهُ مِنْ ذراعِه، وفي الحالِ نَدمَ على تلك الحركة. ولم يغضبْ آرن لذلك على الإطلاق، وأبدى رِضاهُ. كان عليهم أن ينتظروا حتى تُزيلَ الشمسُ ذلك الضباب.

تمدّد سفارت وكول بالقربِ من إحدى الأشجار مُدَثَّرَيْنِ بمعطَفَيْهما، ثم نَامَا. وجَلَسَ آرن، لكنّه لم يَجِدْ للنومِ سبيلا. لقد رمى بأفضلِ ما وَسِعَهُ مِنْ

رَمْي، وهو على يَقِينٍ أنه قد أصاب بسهْمَيْه الأُولَيَيْنِ. لكنه لم يكنْ على يَقِينٍ من السَّهْمِ الثالث، وقد شكَّ أنَّ أمراً مَا لَمْ يكنْ على ما يُرام. فلعلَّه أطلَقَ بسرعةٍ كبيرة، أو ربما كان عَصَبِيّا جداً. في الحالِ كان قلبُه يخفُقُ بقوةٍ شديدة، حتى ظنَّ أنّ القِنَّيْنِ قد سَمِعَا تلك الخفقات.

وعندما أبانتْ الشمسُ عنْ المَرْأَى، نهضَ سفارت وأيقظَ ابنَه، ثم تقدَّمُوا في البَرَاح. كانتْ الرشا الأولى تَئِنُّ في المكانِ التي أُصيبَتْ فيه، ولم يكنْ ذلك أمراً مُدْهِشاً، قال سفارت وهو يَفْحَصُ البَهيمة. لقد اجتازَ السهمُ رِئَتَيْها. ولهذا السببِ لم تتحركْ. فلم تَشْعُرْ بأيِّ أَلَمٍ، ولَمْ تَقْفِزْ إذاً!.

لم تكنْ أنثى الأيِّلِ هناك، لكنَّ سفارت وكول سرعان ما وَجَدا آثارَ دمائِها. فقد فحَصَاها وأَبْدَيَا رِضَاهُما. وأكّد كول أنَّ أُنْثَى الأيِّلِ قد أُصيبتْ أيضاً في رِئَتَيْها، وأنهما سيعثران عليها مَيِّتَةً ليس بعيداً عن ذلك المكان. ثم غَرَزَ سَهْماً في الأرضِ لكي يُعَلِّمَ المكان. ثم فتَّشَ هو وأبوه المكانَ الذي كان الأيِّلُ الثالثُ يوجَدُ به عندما أُطلقَ آرن سِهامَه. ووَجَدَا الدَّمَ على غُصْنٍ من العُشب، فاشْتَمَّاهُ وكأنهما قد عَرَفا، مَرَّةً أخرى، كلَّ ما حَدَث.

أعْلَنَ سفارت أنّ أُنْثَى الأيِّلِ، تلك كانت تعاني جُروحاً مُبْرَحَةً، لم تَمُتْ بعدُ. كانت على الأرحَجِ على مسافةِ مِتْرَيْنِ أو ثلاثٍ من السَّهْم. فلم يَبْقَ أمامَهم سوى أنْ يُحْضِرُوا الخيولَ، إذْ كان لا بد من أنْ أنْ يَدَعُوا تلك الأنثى تَهْنَأَ بِمَوْتِها .

وعندما عادُوا إلى مَطيّاتهم أضحتْ أقوالُ سفارت وكول، صحيحَةً كلَّ الصحة. فأُنثى الأيِّلِ الثالثةُ التي أصابَها آرن في الآخرِ، كانت قد فارقَتْ الحياةَ فعلا، لكنْ على مسافةٍ أبعدَ قليلا. وقد وَضَّحَ سفارت لآرن أنّ سَهْمَهُ قد أصابَ البَهِيمةَ إلى الوراءِ قليلا. واعتذرَ آرن لذلك في خَجَلٍ، لكنّ سفارت لم يَسَعْهُ أنْ يَكْبُتَ ابتسامَة. وشَرَحَ له بأكبرِ قَدْرٍ من الجِدّيَةِ أنَّ الأيِّلَ حتى وإنْ كان يَقِفُ في المكانِ المناسب، في لحظةِ انطلاقِ السَّهم، فمِنْ الممكنِ جداً أنْ يتقدَّمَ خطوةً إلى الأمامِ في أثناءَ مَسَارِ السَّهْم إليه. وذلك هو ما حَدَثَ بالضبط.

وقد أطلقوا في الصيدِ من جديدٍ عند نهايةِ الظهيرة، لكنْ من غَيْرِ جدوى. وقد شَرَحَ سفارت أنّ الريح قد خَفَّتْ، وأنّ الحيوانات تَسْمَعُ جيداً أدنَى التحرّكات.

لكنْ عند هُبوطِ الظلام كانوا مُنْشَرِحِي الصُّدُور تماماً: لقد عُلِّقَتْ الأيائلُ الثلاثةُ بعد إفراغِها، على غُصْنِ سِنْديانٍ مَتين. كان الحظُّ حليفَهم.

وفي السهرةِ أهْدَى سفارت وكول قُلُوبَ الحيواناتِ إلى آلِهَتِهِما، مُعْتَقِدَيْنِ، أنّ ابْنِ السيّدِ، بلا شَكٍّ، لا يَفْهَمُ شيئاً من حَرَكاتِهم، ولا شيئاً ممّا يقولون. لكنهم ما لبثوا في اللحظةِ التي ذَهَبُوا فيها للعَشاءِ، أنْ غَرِقُوا في الإحْرَاج. كان كول قد جَمَعَ غُصَيْنَات وَرْدٍ أدخَل فيها قِطَعاً من الكَبِد، والرونيون قبل أنْ يَشْوِيَها على النار. لكن آرن سرعان ما أثار دهشتهم حين أبدى استعدادَه لكلّ منها، على الرغم من أنها طعامٌ للأقنة أصلا. لقد أكَلَ آرن بِشَهِيَّةٍ، وقد طلب المزيدَ منها، ولم يَلْمَسْ لحمَهُ المُمَلَّح بتاتاً. وقد قَرَّبَ ذلك ما بين الرجالِ الثلاثة، وجعلهم أكثر تلقائية.

وبعد أن تَدَثَّرُوا بمعاطِفِهم استمتعوا بدِفْءِ النارِ أيما استمتاع. عندئذٍ تجرَّأ سفارت وسأل إنْ لم يكن في الأمرِ حَرَجٌ لو سَعَى لِتَعَلُّم استعمالِ القوسِ على ذلك النحو، في ديرِ اليَسوع الأبيض. واغتبطَ آرن الذي فَهِمَ أنه قد أحسنَ الرمْيَ، لذلك السؤال. ففكّرَ في الأمرِ وقدَّرَ في قرارِه ذلك الامتيازَ الذي جَعَلَهُ يَحْصُلُ على مُعَلِّمٍ مثل جيلبرتْ. فشَرَحَ أن رمايةَ القوسِ ليست أمراً مستساغاً عند الرهبانِ، لكنه رغم ذلك حُظي بأستاذٍ منهم، لَبِقٍ جداً. وضحِك سفارت وكول مِنْ أعماقِ قَلْبَيْهِما، وهما يَسْمَعَانِ ذلك الحديثَ، وأضافا أنهما يُحَبّذانِ كثيراً الالتقاءَ بذلك الأستاذ. وأجابَ آرن بِنَبْرَةِ المَزْحِ قائلا إنّ الأمرَ ممكنٌ جداً، شريطةَ أنْ يُعَمَّدَ سفارت وكول. عندئذٍ قطَّبَ القِنَّانِ وتَجَهَّمَا.

وحتى يَمْحُوَ مُزْحَتَهُ الجارِحَة، أضافَ آرن ما يلي: فأياً كانتْ الأفكارُ التي قد تُراوِدُهُم في شأنِ أديرةِ اليسوع الأبيض، فتلك عالَمٌ لا أقنَةَ فيها، وفيها لِكُلِّ رَجُلٍ من القيمةِ ما لأخيهِ فيها. لكن آرنْ لم يحصُلْ مِنْ إجابةٍ

سوى الصّمت. بيد أنّه أصرَّ على ألا يتركَ ذلك الموضوعَ، وسأل بِكُلّ بساطةٍ ما الذي يجعلُ سفارت وكول قِنَّيْنِ. فكثيرٌ غيرُهُما حُرِّرَتْ رِقابُهم، فَلِمَ والحالةُ هذهِ،لمْ تُحَرَّرْ رِقابُ سفارت وعائلتِه، مثلا؟

لم يجدْ سفارت بُداً من أنْ يردَّ، وقد أخذ يشرحُ في بُطءٍ بأنّ الأمرَ مرهونٌ بما يمكنُ أنْ نعرفَه ونفعلَه بعد أنْ تُحَرَّرَ الرّقابُ. فالأقنةُ الذين يزرعون الأرضَ أكثرُ استعداداً للتحرّر من الصيادين أو البنّائينَ. فالمزارعون يستطيعون أنْ يستصلِحوا أراضيَ لفائدةِ أرناس، ويحصلون على حُريّتِهم مُقابِلَ العَمَلِ في المزارع. لكنَّ منتوجَ الصيد – كالجلودِ في الشتاءِ واللَّحْمِ في الخريف– يذهبُ رأساً إلى أرناس، ولا يمكنُ للقِنِّ أنْ يُصبحَ حُرّاً إنْ لمْ يعملْ شيئاً آخرَ غيرَ هذا النشاطِ. وكذلك الشأنُ مع عَمَلِ البناءِ والعملِ في المصهَر. وعندما ظنَّ سفارت أنه قد ذَهَبَ في حديثِه أَبْعَدَ ممّا يَحِقُّ له، وأنه قد أَبْدَى وقَاحَةً، أضافَ أنه لا يَشْكُو منْ شيءٍ، إذْ لِمَ الشكوَى ما دام نَجّارُو البناءِ في الوَضْعِيَّةِ نفسِها!

أخذَ آرنْ في التأمُّلِ، فيما ظلَّ القِنَّيْنِ صامِتَيْن. ثم قال إنه يرى ذلك النظامَ غَيْرَ عادِلٍ، لأنّ جِلْدَ القاقُوم والسمُّور، في رأيِه، يُدِرُّ مِثْلَ ما يُدِرُّه الشَّعيرُ على الأقلِ. وهنا انْفَجَرَ كُول ضَحِكاً، وعندما سأله آرنْ عنْ سَبَبِ الضحِكِ أجابه في إيجازٍ أنه مِنْ الصعبِ إيجادُ وَسِيلةٍ لتعريفِ الاستعبادِ تعْرِيفاً صحيحاً. ورَشَقَهُ سفارتْ بِضَرْبَةٍ في الرِّجْلِ حتى يُسْكِتَه.

لم يَنْزَعِجْ آرنْ، بأيِّ حالٍ من الأحوالِ، لِتَطَفُّلِ كُول، بل أَبْدَى في قرارَتِهِ كُلَّ الرِّضا. ثم ما لبث أنْ اعتذرَ له، لأنه لم يُفَكِّرْ في الأمرِ جيداً، ووَضّحَ أنّ كُول على حقٍّ كلّ الحق. فلَنْ يَجْرُؤَ على تَمَلُّكِ شَخْصٍ آخَرَ، أبَداً.

ولمّا لم يَجِدْ لا سفارت ولا كولُ ما يُضيفانه، انْطَفَأَ الحوارُ من تلقاءِ نفسِه. وتَلا آرنْ أَدْعِيَةً للجميعِ، وتدثّر بمعطفِه وأَغْطِيَتِه، موحياً بذلك أنه قدْ نامَ في الهواءِ الطّلْقِ مرّاتٍ عديدة، وقد تظاهرَ بأنه لم يَسْمَعْ شيئاً ممّا قاله الرَّجُلان مِنْ بَعْدِ ذلك.

لكنْ شقَّ على كُول وسفارتْ أنْ يناما في الحالِ. لقد الْتَصَقَ أحدُهما

بالآخر حتى يَتَدَفَّأَ كُلٌّ منهما بالثاني، ولَبِثَا لِوَقْتٍ طويلٍ يتأمّلانِ ابْنَ الربِّ، ذلك الغريب، ويتأملان آلِهَتَهُ التي لم تَقِلْ عنه غَرَابةً.

* * *

أفاقَوا منْ نَوْمِهم قبلَ طُلوعِ الفجرِ بكثيرٍ، بسببِ الصَّقِيعِ، والْتَهَمَوا الحَسَاءَ الذي كان سفارتْ قد شرَعَ في إعدادِهِ في الليلةِ الماضيةِ. وقد تناوبَ سفارتْ وكُول على إضافةِ الحَطَبِ والماءِ في أثناءَ الليل. وفضْلا عنْ الحَساءِ المُكَوّنِ من البَصَلِ وشرائحِ لَحْمِ البقَرِ الصّلبِ، فقَدْ أكلوا الخبزَ الأسمرَ، فَتَدَفّؤوا بذلك أيما دِفْءٍ.

كانت تلك الصبيحةُ رائِقَةً، وعندما انحدروا في سُفوحِ كينيكول، مُثْقَلينَ، رأوا كلَّ أراضِي أرناس التي امتدّتْ تحت أقدامِهم. صارتْ الشمسُ المشرقةُ تُلَوِّنُ بحيرة فانيرن بِلَوْنِها الذّهبي، فاستنشقَ آرنْ لفحاتٍ عميقةً من الهواءِ النَّقِيِّ الصافي. ومن بعيدٍ شاهدَ كنيسةَ فورشيم، ومن هناك صار في وُسْعِهِ أنْ يُفَتِّشَ عن أرناس، لكنْ لم يَسَعْهُ رغم ذلك، رُؤيتُها.

كانت سفوحُ الجبالِ مُغطّاةً بأشجار السنديانِ والزّان. لكنّ الحقولَ المحروثةَ في أَسْفَلِ الجبالِ صارتْ سوداءَ وفضيَّةَ اللونِ بِفِعْلِ ذلك الصّقيع. وحَدّثَ آرنْ نفسَهُ بأنّ العالمَ لا يمكن أنْ يكون أجملَ مما هو في ذلك المكانِ، وأنْ لَعَلّ الربَّ خَلَقَ ذلك المكانَ في وَقْتٍ سعيدٍ. وأخذ يُغنّي من فَرْطِ فرحَتِه، لكنه لَمَحَ مِنْ طَرَفِ العين أنّ هذا الغناءَ قد بدأ يُخيف سفارتْ وكُول، فكفَّ في الحالِ عنْ الغناءِ. وتردّد في أن يسألَهُما عنْ سَبَبِ خَوْفِهما: هل هو سِحْرُ اليسوعِ الأبيض؟ لكنه أَحْجَمَ عنْ السؤالِ لأنه أدرَك أنّ منْ الخَيْرِ أنْ يُبْدِي الحِيطَةَ في كلماته. فالرَّجُلان قِنَّانِ إلى حَدِّ النُّخاعِ، فلا غرو أنْ تُخيفَهما الحُريّةُ أكثرَ ممّا تَسْتَهْوِيهما.

لَذابَتْ الشمسُ الجليدَ وبَدّدَتْ صَدَى خُذوَاتِ الخيولِ المزعجة. وصار لَوْنُ فانيرن يميلُ الآنَ إلى الأزرقِ، لكنّهم ظلوا ينحدرون نحو الأسفلِ أكثرَ فأكثرَ حتى احتجبتْ مياهُ البحيرةِ عن أَعْيُنِهِمْ فلَمْ يرَوْها ثانيةً قبل عَوْدَتِهِما إلى الحصن.

عادوا إلى أرناس في حُدودِ مُنتصفِ النهارِ، وحيَّتْهُم الجموعُ بِصياحِ الفَرْحَةِ عندما رأتْهُم يحمِلون معهم ثلاثةَ أيائل بعد صَيْدٍ سريعٍ جداً. وأطلَقَ الأقنةُ صِياحاً عالياً ورفَعُوا أدواتِهم ليُظْهِروا فَرْحَتَهم بنجاحِ آرنْ في قَتْلِ ثلاثِ بهائم. ولم يُخْفِ آرنْ بعضَ الفَخْرِ، لكنه ما لبث أنْ توجَّه بالدعاءِ إلى سانتْ برنار أنْ يرعاهُ، وأنْ يَحُولَ دُونَه والشعور بالغرورِ، أبغض الأشياءِ على نفسِه.

وبسرعةٍ سَلَخُوا الأيائلَ وقَطّعُوها، وأرسلوا الجلودَ إلى الدباغة. وإذْ صاروا بَعيدِينَ عن مكانِ الصيدِ فلَمْ يعدْ آرنْ غِرّاً، كان عليهم أنْ يُعِدّوا اللّحمِ، وقرّر آرنْ من دون تردّدٍ، المهمّاتِ التي كان يجبُ القيامُ بها. وقال لنفسِه ما دام في استطاعةِ سفارتْ وكولْ أنْ يُعلِّمَاهُ فَكَّ آثارِ الدَّمِ، والانتقالَ من دون ضجيجٍ، فَبِدَوْرِهِ يستطيعُ أنْ يُعلِّمَهُما كيف يُدَخِّنَانِ اللحمَ ويَحْفَظانه.

قُطِّعَتْ الأفخاذُ والأكتافُ بعنايةٍ وأُرسِلتْ إلى المَدْخَنِ. وعُلِّقَتْ الأطواقُ والأعْمِدَةُ الفِقْرِيّة في مَعَالِقَ من حديدٍ في المخزن الجديد المبنيِّ بالطوب. ومن دون مماطلةٍ حمّل سفارت وكول ما تَبَقّى من القَلْبِ، والرِّئَة، والكُليةَ والخاصِرة. ثم ترك إيريكا جوارسدوتر تتكفَّلُ بما دُخِّنَ من قِطَعٍ. وشَرَحَ لها ولِخَدَمِهَا الطريقةَ التي ينبغي أنْ تُهيّأَ وتُدَخَّنَ بها كلُّ قطعةٍ. وبعد ذلك طلَب من سفارتْ وكولْ، في أَدَبٍ، إنْ لم يكنْ من الحكمةِ العودةُ إلى الصيدِ في الحالِ، ما داموا يستطيعون الوصولَ إلى عينِ المكانِ في ذاتِ المساءِ، والشُّرُوعَ في الصيدِ في صباحِ اليومِ التالي. وأخذَ الرَّجُلان يتفحّصانه في اندهاشٍ، ثم أَبْدَيَا مُوافقَتَهُمَا. وذَهَبَ كولْ لِيُحْضِرَ بعضَ جُلُودِ الضأنِ الإضافية، وبعضَ الخُبْزِ الطريِّ، ثم انطلَقوا.

في طريق كينيكولْ حاول آرنْ أنْ يفهمَ إنْ لم يكنْ قد تصرّفَ على عجَلٍ، وإنْ لم يَكُنْ الرَّجُلان يَنْوِيَانِ قضاءَ ليلَةٍ هادئَةٍ في الدِّفْءِ قَبْلَ استئنافِ السَّيْرِ، وإنْ هما يُشاطِرانه همَّتَهُ وحَمِيَّتَهُ. فلَمْ يُقَدِّما له سوى أجوبَةٍ مُبْهَمَةٍ، واستنتجَ من كلامِهِما أنّهما لم يُفَكّرَا في استئنافِ السَّيْرِ على وَجْهِ السّرعة.

وتخيَّل آرنْ أنهما لم يتعامَلا من قبلُ مع رَجُلٍ كَلِماتُهُ صريحةٌ صراحةً كاملة. وأدركَ آرنْ أنْ لا مجالَ لتغييرِ أيِّ شيءٍ في العَجَلَةِ. شيءٌ واحدٌ يجب أنْ تحسب حِسابُهُ: أنْ يكونَ لهما قُدْوَةٌ يَحْتَذِيَان بها. فلنْ يستطيعَ إنقاذَ هذَين الشخصين إنْ هو وَجَّهَ إليهما أوامرَ صارِمَة.

وما كادُوا يعودون إلى سُفوحِ كينيكولْ حيثُ صارتْ غاباتُ السنديانِ أكثرَ كثافةً، حتى لَمَحُوا عنْ بُعْدٍ قطيعاً من الخنازيرِ البريةِ. وما لبثَ سفارتْ الذي رأى تلك الخنازيرَ قبْلَ غيره أنْ أوْقَفَ حِصانَه. لكنَّ آرنْ ظلَّ يَسْبُرُ المكانَ طويلا قبل أنْ يكتشفَها بِدَوْرِه. بيد أنّ الخنازيرَ البريةَ كانت أَقْرَبَ إليهما ممّا تصوَّرُوا. كانت خراطيمُها مُتَّجِهَةً نحو الفرسانِ، وكأنها تنتظرُ معرفةَ نَوايَا الأعداءِ قَبْلَ الشروعِ في الفِرار. ومِنْ فوقِهم كانتْ الغاباتُ مُتناثِرةً، ومن السَّهْلِ اجتيازُها على ظَهْرِ الأَحْصِنَة.

جاء آرنْ بخيمال إلى جانبِ خَيْلِ سفارتْ الفَحْلِ الشمالي الثقيل، وسأله إنْ كان في الإمكانِ إطلاقُ السهامِ على تلك البهائمِ. واجتهدَ سفارت في أنْ يشرحَ له في أدبٍ أنّ الطريدةَ سوف تفرُّ منهم إنْ هُمُ اقتربُوا. ورَدَّ عليه آرنْ بنفادِ صَبْرٍ أنّه قدْ فَهِمَ منه ذلك، لكنّه أضافَ «إنّ الخنازيرَ البريَّةَ الصغيرةَ ليستْ أسرعَ في رَكْضِهَا من الخيلِ، أليسَ كذلك؟

لَمَسَ آرنْ تَنْهيدَةَ سفارتْ قَبْلَ الإجابة. وشَرَعَ سفارتْ يَشْرَحُ كما يشرحُ لِطِفْلٍ أنَّ أيَّ حِصانٍ في أرضٍ مُسَطَّحَةٍ سيلْحَقُ حتماً بِخِنزيرٍ بريٍّ، سيما إن كان ذلك الحصانُ حصانَ آرنْ. والحالُ أنهم لم يكونُوا في أرضٍ مُسَطَّحَةٍ. فإنْ هُمْ أدركوا خنزيراً بريّاً فما الذي يمكنُ أنْ يَفْعَلَهُ أيُّ فارسٍ من فوق، من على صَهْوَةِ جوادِه؟

وبابتسامةٍ عريضةٍ تناولَ آرنْ قَوْسَهُ، ومَطَّ وَتَرَهُ – وكان أَقْسَى قَوْسٍ في أرناس – وأَخْرَجَ بعضَ السِّهامِ منْ كِنَانَتِه، ووَضَعَها في يدِه اليُسرى، وفكَّ جُزْءاً من مَتَاعِهِ وأعطاهُ لسفارت. ثم سألَ أيّ البهائمِ ينبغي رَمْيُها إنْ تمَّ اللّحاقُ بها. فأطْرَقَ سفارتْ وهو يَعُضُّ خَدَّيهِ حتى لا يَهْزَأَ منه ضَحِكاً، وأجابَ أنْ عليه أنْ يَرْمِيَ الخنازيرَ البريةَ الصغيرةَ، أو ذاتَ الأحجامِ المتوسطةِ.

وأشار آرنْ بالموافقةِ، وتوجَّه في بُطْءٍ نحو الخنازيرِ البريَّةِ، وكأنّ تلك الخنازيرَ ستظلُّ تُراوِحُ مكانَها في انتظارِ الموتِ. لم يَقُلْ سفارت وكول شيئاً واكتفيا بِهَزِّ الكَتِفَيْنِ، لاهِيَيْنِ مُتَسَلِّيَيْنِ.

في اللحظةِ التي اختفتْ فيها الخنازيرُ البريةُ، انْتَفَضَ حِصانُ آرنْ، وبدا وكأنه يَطيرُ من فوق الأرض. ووَسِعَ سفارتْ وكول أنْ يَرَيا آرن وهو يرمِي سَهْمَهُ الأوّلَ، من دون أن يُمْسِكَ بِزِمَامِ الحِصانِ. وأصاب السّهمُ هدفَه. ثم لم يَسْمَعا سوى صَدَى الحوافِرِ على السَّفْحِ، وصُراخِ أحدِ الخنازير البريّةِ، يَلِيهِ صَدَى خنزيرٍ ثانٍ!

كان سفارت وكول في حاجةٍ إلى وقتٍ أَطْوَلَ حتى يَفْهَما ما حَدَثَ. وما لبثا أنْ عَثَرا على الخنزيرِ البريِّ الأوّلِ، فأفْرَغاهُ. لكنهما في المُقابِلِ وَجَدا بَعْضَ العَناءِ في أنْ يَفْهَما مِنْ سير آرنْ كيف رمَى رَمْيَتَهُ، وأين كانَ يقفُ، وفي أيِّ اتجاهٍ اتّجَهَ الخنزيرُ البريُّ بعد الإصابَةِ. ففي هيجانِ اللحظةِ لم يَنْتَبِهْ آرنْ لذلك، بيد أنهُ ما إنْ جُنَّ الظلامُ حتى تبيَّنَ أنَّ الخنازيرَ البريّةَ الثلاثةَ كانت مُعَلَّقَةً فوق أَحَدِ الأغصانِ، كما كان ينبغي أنْ تكون معلقة!

لكنهم لم يجدُوا بُدّاً من تنصيبِ المُعَسْكَرِ في مَكانٍ أَخْفَضَ مما كان مُتَوَقَّعاً. وكان الأمرُ يستحِقُّ ذلك، ما دامُوا قد قَتَلُوا ثلاثَ بهائِمَ إضافيةً بذلك القَدْرِ من السهولة. لكنْ كان عليهم أنْ يَعُودُوا إلى أرناس على وَجْهِ السرعةِ، لأنّ لَحْمَ الخنزيرِ البريِّ أكثرُ عُرْضَةً للتّعفُّنِ من لحْمِ الأيائلِ.

وحين جَلَسُوا قُرْبَ النارِ شقَّ عليهم أن يشرعوا في الحديث. لكنَّ سفارت ما لبث أنْ غَمْغَمَ بذلك الذي كان يختلِجُ في فؤادِه: ما مِنْ رَجُلٍ يسعُهُ أنْ ينطلقَ بسرعة كبيرةٍ فوق حصانِه، وأنْ يُسَدِّدَ في الوقتِ ذاتِه، سيما في الغابة. فذاك ليس مُمْكناً إلا بِقُوَّةِ السّحر وحده.

اِنْتَابَ الخوفُ آرنْ، لأنه ظنّ في البدايةِ أنّ السِّحْرَ حَرامٌ على الوثنيّين، مثلما هو حَرامٌ على المسيحيّين. وأكّدَ لهم أنه لن يُقْبِلَ أبداً على أيِّ سِحْرٍ، لأنّ في ذلك ذَنْباً أيما ذَنْبٍ. ثم أدرك فجأةً أنّ أَقْنَّةَ والدِهِ لا يَعْتَبِرون السِّحْرَ خطيئةً على الإطلاقِ، بل كانوا على العكسِ يُبْدُونَ رغبةً في مَعْرِفَةِ طريقةِ

إحْدَاثِهِ، ما دام السِّحْرُ يتيحُ مثلَ ذلك القَدْرِ من النتائجِ في أثناءَ الصيدِ. ففي رأيهم أنَّ السِّحْرَ شيءٌ طَيِّبٌ للغاية.

أَغْرَقَ كلامُهما آرنْ في هاويةٍ من التأمُّلِ، لأنه لم يجدْ ما يجيبُ به. وفي النهايةِ أخذ يشرحُ شَرْحاً طويلا أنه أمضَى حياتَه في التَّدَرُّبِ مع خُيولٍ رائعةٍ، مثل خيمال، وبقيادةِ مُعلِّمٍ بارعٍ. فذاك وحده، وليس غيرَ ذلك، هو الذي يُفَسِّرُ قُدْرَتَهُ على رُكوبِ الخَيْلِ والرَّمْيِ، في آنٍ.

وقد فَهِمَ بسرعةٍ أنهما لم يُصَدِّقا كلامَه. لقد ظلَّ كُول الذي صار أكثرَ جُرْأَةً من والدِهِ بعد أنْ صار برُفْقَةِ آرنْ، يتحدثُ حَديثاً غامِضاً لبعضِ الوقتِ، مُلَمِّحاً إلى أنّ آرنْ يرفضُ مُقَاسَمَتَهُما سِحْرَه. وأضاف أنّ الأمرَ صحيحٌ، لأنهما ليسا سوى أَقِنَّةٍ، فيما كان آرنْ سيّدَهم.

ظل آرنْ مشدوهاً. ودَعا طويلا أنْ يأتِيَ سانتْ برنار لِيُسْعِفَهُ ويُظْهِرَ الحقيقةَ لــ سفارت وكول. كان يجبُ أنْ تظلَّ تلك الحقيقَةُ خاليةً من أدْنَى شُبْهَةٍ من شُبُهاتِ الشَّعْوَذَة.

* * *

كان ألغوتْ بالسونْ في هوسابي يمتلكُ بالفعلِ أراضيَ وغاباتٍ، لكنه لم يكنْ يَعْتَرِفُ إلا بثَرْوَتَيْنِ اثنتين ليس إلا. وهما ابْنَتَاهُ كاتارينا، وسيسيليا، اللتان كانتَا تُفارِقانِ طفولَتَيْهِما، وتَتَفتَّحانِ كوردتين على الحياةِ. فكثيراً ما كان يقول إنهما قُرَّتَا عينيه. لكنْ، لمّا كانَتَا تُبْدِيانِ إشارات المَكْرِ، والتمرّد، لا سيما كاتارينا، فقد كانتا أيضاً سَبَبَ هُمُومِهِ الكبرى. لكنه لم يكنْ يَقُولُ عن أمْرِهِما شيئاً للعلَن.

عندما كانت كاتارينا في الثانيةِ عشرة من عُمرِها كان على وشك أن يزوجَها لماغنوس فولكسون في أرناس، وهو ما غَمَرَها بفرحةٍ وسعادة كبيرتينِ، وبِالصَفَاءِ، في وَقْتٍ كان حالكاً وكئيبا جداً. ذلك أن زوجة أبيها دُورُوتيا رُوريكسدوتر قد فارقتْ الحياةَ للتوِّ، وهي على سرير الولادة، ومعها ذلك الذي كان سيكون طفلَها الأوّلَ.

ولو كانت ابنتُه تزوَّجتْ ماغنوس فولكسون من آرناس لَكانَ زَواجُها قِرَاناً مَلَكِيّاً، بل وأَفْضَلَ منه، لأنَ أَراضيَه كانت مُحاطةً بالأراضي التابعةِ لعائلةِ إيريك، وعائلةِ الفولكونغر. صحيحٌ أنه كان وزيراً للمَلِكِ كارل سفيركرسون في هوسابي التي كانتْ مِلْكاً مَلَكِيّاً. وكان منْ دَواعِي الشَّرَفِ الاهتمامُ بمثلِ ذلك الحِصْنِ. وفوق ذلك فقد كان مَوْقعُ هوسابي، على كينيكولْ، أَفْضَلَ من أيِّ مِلْكيَّةٍ أخرى من مُمْتَلَكاتِها.

لكنّ الارتباطَ بالمَلِكِ كارل سفيركرسون لم يكنْ يخلُو من مخاطِرَ في فاسترا غوتالاند ، لأنّ السفيكر بِقَدْرِ ما كانوا أَقْوِياءَ في أوسترا غوتالاند بِقَدْرِ ما كانوا ضُعَفاءَ في فاسترا غوتالاند. ففي اليوم الذي سيُغْتَالُ فيه الملكُ كارل على أيدي الآخرين – وكان ذلك مَصِيرَ الملوكِ دوماً – فلن تكون الحياةُ سعيدةً في هوسابي إنْ صار هُوَ سيّدَها.

وبالتالي، فقد كان يمكنُ لِكُلِّ شيءٍ أنْ يستقيمَ نحو الأفضلِ لو كانت كاتارينا أصبحتْ سيّدةَ حِصْنِ أرناس. فلو كان ذلك لَمَا كان ألغوتْ وَضَعَ كلَّ «بَيْضَاتِهِ في السلّةِ نَفْسِها». فأياً كانت العائلةُ التي كان يمكنُ أنْ تتربَّعُ على العَرْشِ، فإنَّ عائلتَها كانت ستُصبحُ فيها حَلِيفةً، وتظلُّ أملاكَها محميّة.

كلُّ ذلك ذَهَبَ هباءً منثوراً. لأنّ ماغنوس فولكسون اختارَ في النهايةِ أنْ يتزوّج واحدةً من عائلةِ إيريك. كان يستحيلُ على ألغوتْ أنْ يُؤَنِّبَ ماغنوس على ذلك القرارِ العاقلِ. فلم يكنْ يَسعُهُ سوى أنْ يَنْدُبَ حَظَّهُ السَيِّئ. كان قد طَرَقَ هذا الموضوعَ أيضاً مع ماغنوس، وكان يَعْرِفُ أنّ كِلَيْهِما يُولِيَانِ لِواقعِ تَجَاوُرِ أراضيهِما، من الأهميةِ فوقَ ما يستحقُّ.

بيد أنه لم يكنْ قد فاتَ الوقتُ كثيراً لكيْ تصبحَ هذه الثِّقةُ أمْراً مُحقَّقاً، لأنّ ماغنوس كان له ابنٌ بِعُمْرِ كاتارينا وسيسيليا. وإسكيل، الابنُ المعنيُّ سوف يصبحُ ذاتَ يوم سَيِّدَ أرناس. بلْ ويبقَى أنَّ هذا الرأيَ هو الأَفْضَلُ، وإلا لَمَا وَجَدَتْ كاتارينا بُداً من أنْ تتزوّجَ رَجُلا أَكْبَرَ منها سِنّاً بكثير.

لكنّ مُشْكِلَةَ طَبْعِ ابنتيه، الفَظِّ، ظلّ قائما. فلا هذه ولا تلك أَبْدَتْ الحِشْمَةَ المطلوبةَ برُفْقَةِ الشّبانِ. كان هذا السلوكُ يُقَلِّلُ من جاذبِيَّتِهِما، وفي أسوأ

الحالاتِ كان سيُعَرِّضُ زواجَهُما لأنْ يُصبحَ مستحيلا. لذلك إذاً قرّر ألغوتْ أنْ يَفْصِلَ إحداهُما عن الأخرى. فعندما كانت كاتارينا في الحِصْنِ كانت سيسيليا مُبْتَدِئَةً في دِيرِ غوديم. وعندما عادتْ سيسيليا جاءَ دورُ كاتارينا لِتَتَعَلَّمَ الانضباطَ وكذلك الكثيرَ من المعارِفِ المُفيدةِ لِسَيِّدَةِ حِصْنِ أرناس القادِمَة. لم تَكُنْ هذه النقطةُ نقطةً هيّنةً، لأنها هي التي سَتَرْفَعُ من قَدْرِ الفَتاتَيْن، وإنْ هُما لم تُبدِيَا أيَّ امْتِنَانٍ حينما علمتا بأنهما سَتُفَصَلانِ وتُرَبَّيَانِ على ذلك النحو، في الدير. لكنّ كاتارينا كانت على وشكِ العودةِ إلى غوديم، ولذلك فلمْ تُلْقِ للأَمْرِ بَالا كثيراً.

كان إرسالُ البناتِ على ذلك النحوِ إلى غوديم سيُكلِّفُ الكثيرَ من الفضة. ففي غوديم لا تَقْبَلُ الراهباتُ دَفْعاً آخرَ غيرَ الفضة. لكنَّ ألغوت قدّر أنّ الإنفاقَ ضروريٌّ، لأنّ ذلك المبلَغَ سوف يَجْلِبُ سبعةَ أضعافٍ إنْ أُحْسِنَ زواجُ الفتاتَيْن. وفضلا عن ذلك فقدَ كان له سببٌ آخرُ غيرُ متوقَّعٍ لإقامةِ أعمالٍ مع ماغنوس فولكسون الذي يكاد على ما يبدو يملكُ مبالِغَ هائلةً من الفضة في خزائنِه. فمن بَيْعِ خَشَبِ السنديان إلى أرناس، حصَلَ ألغوت على المبالغِ الضرورية، ومنها على كيفيَّاتٍ عديدةٍ لإطراءِ مَحَاسِنِ بَناتِهِ التي كانتْ تُساهِم فيها تلك النَّفقات. وقد أتاح له ذلك أيضاً أنْ يُذكِّر ماغنوس بِوَعْدِ الزواجِ المبتور، وبِكَوْن أنّ كاتارينا وسيسيليا بإمكانِهِما أنْ تُمَثِّلا صَفْقَةً طيّبةً لِكِلَيْهِما.

كان ألغوتْ بالسونْ قد سَمِعَ فقطْ بأنّ الابنَ الثاني لماغنوس الذي أُرْسِلَ إلى الديرِ منذ طفولتِه الأولى، قد عاد تَوّاً إلى أرناس. بيد أنه كان يُشاعُ أنّ هذا الوَلَدَ لنْ يَجْلِبَ إليه أيَّ فخْرٍ، لأنه عادَ بعد أنْ صار نِصْفَ راهِب.

وبدا له آرنْ في البدايةِ أنه يستحِقُّ مِثْلَ تلك الإشاعاتِ، عندما ظَهَرَ هذا الأخيرُ في ليلةٍ من ليالي الخريفِ الباردةِ الغائِمَة، قبلَ أسبوعين على موعدِ انعقادِ الــ تينغ الكبير في أكسيفَلا. كان آرنْ قد وصَل برُفْقَةِ قنَّيْنِ اثنين، يُرافِقُهُم حِمْلٌ ثقيلٌ من الأيايلِ والخنازيرِ البريةِ، قائلينَ إنهم مُصرُّونَ على أنْ يُقَدِّموا لـِ هوسابي حصةً من الصيدِ. كان ماغنوس فولكسون وألغوتْ

قد أَبْرَمَا اتّفاقاً يقول: عندما يصطادُ سُكانِ أرناس فوق أراضي هُوسابي، التي كانت أكثرَ غِنىً بالصيدِ، لأنّ الخنازيرَ البريّةَ كثيراً ما تأتي إلى غاباتِ السنديانِ في فَصْلِ الخريفِ، وَجَبَ عليهم تسليمُ رُبْعِ الصّيدِ إلى ألغوتْ على سبيلِ التعويضِ.

كان صيدُهُم مثمراً جداً، فكلّ ما حَمَلُوهُ كان يجبُ أنْ يَبْقَى في هوسابي، وقرّروا الرجوع الى آرناس على الفور لأنّ أكبرَ الأقنَةِ عُمْراً أكّد أنه قادرٌ على أنْ يتعرّفَ على طريقِه حتى في قَلْبِ الظلام.

واعْتَرَضَ ألغوتْ على الأمرِ فوراً. إنه مِنْ غيرِ اللائقِ السماحُ لهم بالرجوع في قَلْبِ الليلِ خصوصا لِمَنْ أَتَوا للتوِّ بكمّيةٍ هائلةٍ من الصيدِ. وفضلا عن ذلك فهي فرصةٌ ثمينةٌ لِجَمْعِ كاتارينا بواحدٍ من أبناءِ أرناس، حتى وإنْ كان آرن أسوأَ الاثنين. وقال ألغوتْ أيضاً إنّ هذا سيُتيحُ لكاتارينا بأنْ تفضّل الابنَ البِكْرَ في أفضلِ حالٍ.

هكذا أُعِدَّتْ وليمةٌ صغيرةٌ في هوسابي، قبلَ عيدِ القِدّيسينَ بقليل. فما أن اقْتِيدَتْ الخيولُ إلى الإسطبلاتِ، وما أنْ وُضِعَ الصَّيْدُ ما بين أيْدِي طبّاخي هوسابي واقْتِيدَ أقنةُ آرن إلى مساكنِ الخَدَم، حتى جاءت كاتارينا لتلتقيَ بوالِدِها. وبلهجةٍ بريئةٍ أعلنتْ بأنه من غيرِ اللائقِ أنْ ينام الضيفُ مع الآخرين، فأهلُ أرناس معروفون بِمُعاملاتِهم المُرْهَفَة. لقد أَمَرَتْ إذاً بأنْ ينام آرنْ على سريرٍ نظيفٍ في واحدٍ من بيوتِ الضيافة التي كانت ستُغْلَقُ في أثناءِ الشتاء. وغَمْغَمَ ألغوتْ بالموافقةِ من دون أنْ يفهمَ من الأمرِ شيئاً، أو بالأحرَى من دون أنْ يُحاولَ أنْ يَفْهَمَ نوايا ابْنَتِهِ كاتارينا.

كان آرنْ يَشْعُرُ باستحياءٍ جمٍّ لأنه لم يَنْزِلْ يوماً ضيفاً على أحدٍ، ولم يكنْ يعرفُ كيف يتصرَّفُ في مثْلِ تلك المناسبة. لقد علّمَهُ سيّدُه في آرناس أنه من غيرِ اللائقِ أنْ يراه الناسُ يأكلُ ويشربُ قليلا جداً. وبينما كان يَنْزَعُ سَرْجَ خِيمال ويُضَمِّدُهُ، قرّرَ أنْ يَفْعَلَ كلَّ ما بِوَسْعِهِ حتى يأكلَ كما يأكلُ الخنزيرُ، ويشربَ كما يشربُ الثُّقْبُ، حتى لا يَخْجَلَ أبوهُ به. من حسن الحظ لم يَسَعْهُما أنْ يأكُلا لِساعاتٍ طويلةٍ، لأنّ الأرضَ الرَّطْبَةَ جعلتْ أبحاثَهُما

صَعْبَةً وشاقّة. وبالتالي فلم تُعْوِزهُ الشَّهِيَّةَ للأكلِ بتاتاً.

ذَهَبَ إلى الساحةِ لكي يَغْتَسِلَ في عَيْنِ الماءِ. وتوقَّفَ الأقنةُ عنْ العَمَلِ حينما رأوْه، وابتعدوا جانبا وأشاروا بأيادهم من خلفه. لكنّه لن يتخلّى عن عادته حتى ولو كان عليه أنْ يأكلَ مِثْلَ الخنزيرِ فَما مِنْ داعٍ يدْعوه لأنْ تكون رائحته كذلك.

استراحَ قليلا في كُوخِ الخشب الذي أُعِدَّ له خِصّيصاً. وحين تمدّدَ أخذَ يتأمّلُ السقفَ، ورأى في وضوحٍ أيائل وخنازيرَ بَرِّيَّةً في الظِّلالِ التي تُلْقيها الشّمعة. كان فَرِحاً لأنهُ أنجزَ شيئاً كان في عَيْنَيْ والِدِه يحمِلُ قِيمَةً تفوقُ ما أنجزهُ مؤخراً من أعمالِ الطوبِ والبناء. ونامَ مع هذه الفِكْرَةِ المُنْعِشَةِ، وهو يرَى البهائمَ البريّةَ ترقصُ تحت عينيه.

كان الليلُ قد أَسْدَلَ سِتارَهُ عندما جاء أحدُ الأقنةِ فأَيْقَظَه في هُدوءٍ. ونهضَ آرنْ في هَلَعٍ: هلْ ثمةَ مَنْ يُفَسِّرُ ساعاتِ نَوْمِهِ تلكَ بأنّه قد اسْتَخَفَّ بالوَلِيمَة؟ وطَمْأَنَهُ القِنُّ قائلا: على العكس، ما تزالُ الاحتفالاتُ في بدايتِها، وعليه فقط أنْ يَتْبَعَهُ. لقد تطلَّبَ شَوْيُ اللُّحُومِ وقتاً طويلا.

وعند دُخولِه إلى قاعةِ هُوسابي الكبرى أحسّ آرنُ وكأنّه ارْتَحَلَ عَبْرَ الماضي. كانت القاعةُ المُظْلِمَةُ تَسْتَنِدُ إلى صَفَّيْنِ منْ الأعْمِدَةِ المنقوشةِ وقَدَّرَ آرنْ أن ثِقَلَ السّقْفِ المصنوعِ منْ القَشِّ والطينِ يقتضِي ذلك. لقد ضمّ المكانُ ثلاثَ فَتْحَاتٍ في السقفِ، لكنّ آرنْ تَلَقَّى مع ذلك بعضَ قطراتِ المَطَرِ على وَجْهِهِ وهو يمرُّ بجانبِ النارِ المُنْبَعِثَةِ من خَشَبَاتٍ كبيرةٍ كانت تَتَّقِدُ في وسط القاعة. كانت الأعْمِدَةُ المُربّعةُ مُزَيَّنَةً بطولِ قامَةِ الإنسانِ، بِرُسومٍ حمراءَ تُمَثِّلُ التنّينَ وحيواناتٍ خُرافيةً أخرى. وكانت الجدرانُ من حوْلِ قاعةِ الشرفِ مُزيّنةً برسومٍ مشابهةٍ. ووَجَدَ آرنُ هذا المَسْكَنَ بارِداً، ومُظْلِماً، ووَثَنِيّاً أيضاً.

وعندما اكتشفَ أنّ ألغوتْ وابنتَه كاتارينا قد لَبِسَا ثيابَ الحَفْلِ، ومثلهما لبسَ الرجالُ الأربعةُ المجهولون منْ حولِهِما، انتابهُ الخجلُ، لأنّه كان يرتدي ملابسَ الصيدِ المصنوعةَ من الصُّوفِ الخَشِنِ ومنْ جِلْدِ الأيِّلِ. لكنْ لم يكنْ

بيدِه حِيلَة. فقد صار الجميعُ يشخصُ إليه، وكأنّهم ينتظرون منه حركاتٍ بعَيْنِها. وقال:»سلامُ الربِّ عليكم»، ثمّ انْحَنَى مُبْتَدِئاً بالسيدِ وابنتِه. ولَمَحَ ابتسامةً مِلْؤُها الاحتقارُ على شَفَتَيْ كاتارينا فظنّ أنْ لعلّه كان خليقاً به أنْ يقول أكثرَ ممّا قال، أو يفعلَ أكثرَ ممّا فَعَل.

لم يكنْ ألغوت بالسونْ يملكُ أيَّ مُبرّرٍ لأنْ يترُكَ ضيفَه المُميَّزَ ينتظرُ في حَيْرةٍ أكثرَ ممّا انتظر. فنهضَ وأمْسَكَ بيَدِ آرنْ وأخذَه إلى الساحةِ الشّرفيّة، إلى يَمِينِه. ثم طلَبَ إحضارَ قَرْنِ الشرابِ الكبيرِ الذي كان في هُوسابي منذ عَهْدِ الملكِ أولوف سكوتْكُونُوغْ، ومَدَّهُ رسمياً إلى آرنْ لكيْ يَفْتَتِحَ هذا الأخيرُ بدايةَ الاحتفال.

لم يَجِدْ آرنْ بداً من أنْ يَدْرُسَ ذلك المشروبَ لحظةً قَبْلَ أنْ يَحْمِلَهُ إلى شَفَتَيْه.لم يَنْدَهِشْ لِوزْنِه لكنّه دَهِشَ للصُّوَرِ الوَثَنِيَّةِ التي كانت تُزَيِّنُه، ودهِشَ لذلك الصَّليبِ المسيحِيِّ الذي أُضِيفَ إليه بعد مُرورِ وقتٍ طويل، مِنْ بابِ إخفاءِ الخطيئَةِ في ما بَدا. وقد فَهِمَ أنّ الجميعَ ينتظرون منه أنْ يُفْرِغَ الإناءَ. وأخذَ نفَساً وفَعَلَ ما وَسِعَهُ أنْ يَفْعَلَ: فقد ظلّ يشْرَبَ إلى أنْ ضاقتْ نَفْسُه تحت الأنظارِ المتيقِّظَة. وعندما وَضَعَ القَرْنَ، كان ما يزال يملؤهُ ثُلُثُ الجِعَة. ثم أخذَ ألغوتْ القرنَ وأسكبَ ما بَقِيَ فيه على الأرضِ ثم وَضَعَهُ مَقْلُوباً فوق الطاولة. وطَرَقَ الضُّيوفُ الطاولةَ، في إشارةٍ إلى أنّ الضيفَ قد شرَّفَ بَيْتَهُم بِشُرْبِهِ حتى آخرِ قَطْرَة في الإناء. لكنّ آرنْ اسْتَشْعَرَ في الحالِ أنّ العَشاءَ لنْ يَتْرُكَ عندهُ أيَّ ذِكْرَى طيبة.

وَجِيءَ لكلٍّ واحدٍ باللحمِ المشويِّ، وأباريقَ كبيرةٍ من الجعة. كانَ لحمَ أَيّلٍ ولحمَ خنزيرٍ بريٍّ مَطْهِيٍّ بالسفود. وكما توقَّعَ آرنْ كان الأيّلُ قاسِياً، وجافاً وخالياً من التوابلِ، باستثناء المِلْحِ الذي ضُنَّ به كثيراً. لقد شَوَوْا إذاً بهيمةً كانت حَيَّةً في ذلك الصباح نفْسِه، وهو ما كان الأخُ روجييرو يَعْتَبِرُهُ حَراماً يكاد يكون مثلَ الشّتيمة. ووَعَدَ آرنْ نفسَه بأنْ لا يُخفِي رِضاهُ، وبأنْ لا يُبْدِي ضَجَراً من أيِّ شيءٍ. ولذلك إذاً أطرَى على الفورِ ذلكَ اللحمَ وشَرِبَ في شَرَهٍ وطَقْطَقَ شَفَتَيْهِ مثلما يفعلُ أصحابُ النسبِ العريقِ. إلا

أنه لم يجدْ ما يقولُه في ذلك، لكنَّ ألغوتْ ما لبث أنْ أسعفهُ عندما سألَه عن الصيدِ، فما مِنْ رَجُلٍ قويّ البنيَةِ تتاحُ له فرصةُ لِيَمْدَحَ فيها مآثِرَهُ، إلا أصبح في الحالِ ثرثاراً مثلَ شاعرٍ بُطولي، حتى وإنْ كان طَبْعُهُ سَكُوتاً.

لكنّ آرنْ لم يكنْ يعرفُ كيف يتبجّحُ كما يتَبَجَّحُ الناسُ، فأجابَ بِكلماتٍ مختصرةٍ. وفي المقابلِ أطْرَى جُهُودَ أقنَّتِه، لكنّ الضيوفَ لم يُثمّنُوا ذلك على الإطلاقِ. في بدايةِ تلك المأدبةِ ظلّ الحديثُ يتباطأُ مِثلَ سمكةٍ نهريةٍ صغيرةٍ فوق دَرْبٍ جافٍّ. وأخيراً طَلَبَ ألغوتْ من آرنْ إنْ كان قد أصابَ بعضَ الحيواناتِ، وهو ما سوف يسمحُ له، لآخرِ مرّةٍ، بأنْ يُزَيِّنَ قِصّتَهُ منْ دون أنْ يُسيءَ به أحدٌ ظنّاً. وأجاب آرنْ مُطأطِئَ الرأسِ بأنه قد قَتَلَ سِتّةَ إيِّلَةٍ، وسبعةَ خنازيرَ بريّةً، وما لبث أنْ أضافَ أنّ أقنّتَهُ قد قتلُوا العَدَدَ نفسَهُ تقريباً. وسادَ الهدوءُ من حولِ الطاولةِ. لم يفهمْ آرنْ أنّ لا أحدَ صَدّقَهُ، بل أنّ الجميعَ، على العكس، قد قدّروا أنّ مِنْ حقّهِ أنْ يُبالغَ قليلا، لكنْ ليس من حَقِّهِ أنْ يكذبَ بصورةٍ سفيهَةٍ وَقِحَةٍ.

سأل أحدُ الشبابِ مِمَّنْ كانت صِلَةُ قرابته مع ألغوتْ قد غابتْ عن آرن قليلا، هذا الأخيرَ، وبلهجةٍ متعاليةٍ، إنْ كان آرنْ قدْ ضَيَّعَ بعضاً من الرّمْياتِ، أَمْ أنه سَعِدَ بإصابةِ سِهامِه للهَدَفِ من أوّلِ وَهْلَةٍ. ولم يرَ آرنْ الخطرَ في ذلك وقال الحقيقةَ: إنه قَتَلَ كلَّ البهائمِ بِسَهْمِهِ الأوّل. وضحِكَ الشابُ هازِئاً ورَفَعَ إبريقَهُ الصغيرَ لِيَشْرَبَ على صِحّةِ رامِي السِهَامِ اللامعِ. وحَيَّاهُ آرن بكاملِ الجِدِّيَةِ، لكنّ سرعان ما امتلأ وَجْهُهُ حُنْقاً عندما لَمَحَ التَّهَكُّمَ في عَيْنَيْ كلّ واحدٍ. لكنْ، ما دام قد قال الحقيقةَ فكيف يمكنُ أنْ يكون قَوْلُ الكذِبِ عَيْنَ العَقْلِ حقاً؟ إنه السؤالُ الذي يَسْتَحِقُّ تَأَمُّلا، لأنّ آرنْ أخذ يُمَنّي نفسَه أنه لو اخْتَرَعَ أكاذيبَ لكانتْ أَعْفَتْهُ من تلك السُّخْرِيّةِ.

وأسْرَعَ ألغوتْ بَالْسُونْ لنَجْدَةِ آرنْ وهو يسألُه عن أخبارِ النباتاتِ الجديدةِ التي زُرِعتْ في الديرِ. لكنّ الشابَ الذي كان قد بدأ يسخرُ من آرنْ لم يُرِدْ أنْ يَدَعَهُ يخرجُ من الورطةِ مُنْتَصِراً. ثمّ ومِنْ رَمْشَةِ عَيْنٍ إلى كاتارينا بدأ يقول إنّ منْ العارِ أنْ يَحْصُلَ مُتَبَجِّحُونَ، من النِّساءِ الجميلاتِ، على مزايا

لَيْسُوا أهلا لها أصلا. ثم أضاف أقوالا أخرى ناقمَةً، وأَدْرَكَ آرنْ أنّ ذلك الشابَ العُدوانيَّ مُغْرَمٌ بكاتارينا، والحالُ أنّ الأمرَ لم يكنْ يَهُمُّهُ إطلاقاً.

وحاول ألغوتْ مرّةً أخرى أن يُغَيِّر مجرَى الحديثِ نحو حديثٍ هادئٍ في موضوعِ الديرِ، وبعيداً ما وَسِعَ البعدُ عن الرَّمْيِ بالقوس. لكنّ توردْ جيرسونْ كان يرغبُ في أنْ يَهْزِمَ آرنْ شَرَّ هزيمةٍ، ما دام مُصِرّاً على أنْ يَكْبُرَ في عَيْنَيْ كاتارينا. واقترحَ أنْ يُؤْتَى بِقوسٍ، وأنْ يقوما بمسابقةِ رَمْيٍ صغيرةٍ، ما دامت القاعةُ طويلةً جداً. ووافقَ آرنْ على الفورِ، وهو ينظرُ من طرَفِ العين إلى ألغوتْ بالسونْ الذي كان يتأهبُ للكلامِ لكيْ يَمْنَعَ تلك المُبارَزَة.

وأُرْسِل الخَدَمُ لإحضارِ قوسٍ وجُعَبٍ من السهامِ، وأقاموا حُزْمَةً من القشِّ بالقربِ من البابِ على الطَّرَفِ الآخر من القاعةِ، على مسافةِ خمسٍ وعشرين خُطوةٍ. وأمسكَ توردْ جيرسونْ بالقوسِ والسِّهامِ وقال بصوتٍ قويٍّ بأنّ المسافةَ قصيرةٌ ولا تَكْفِي للقذْفِ في اتجاهِ خنزيرٍ بريٍّ. وأضاف بأنّ سيرْ آرنْ، بما أوتِيَ من موهبةٍ عاليةٍ، قد يُرْضِيه أنْ يُظْهِرَ مواهبَه أوّلا، وأنه على استعدادٍ كاملٍ لأنْ يَنُوبَ عنه بعد ذلك.

ونهَضَ آرنْ من دون تردُّدٍ، يحدُوهُ إصرارٌ منْ غَيْرِ انفعالٍ. وقد استاءَ أيما استياءٍ للوضعيةِ التي وَضَعَهُ فيها صِدْقُه وإخلاصُهُ، لكنه أراد أنْ ينتهِيَ الأمرُ بسرعةٍ، ولَمْ يكنْ للأمرِ، حَسْبَ فَهْمِهِ، سوى مَخْرَجٍ واحدٍ. والتحقَ بـ توردْ جيرسون بخُطىً حثِيثَةٍ، وأخذَ منه القوسَ، وأشْهَرَهُ بسرعةٍ، واختار في عنايةٍ سِهَاماً ثلاثة. وأمسكَ باثنين منها في يُسْراهُ ووَضَعَ الثالثَ فوق الحَبْلِ. ثم ربَطَ القوسَ وأَحْكَمَ الرَّبْطَ حتى يَتْبَعَ السهمُ أطْوَلَ مَسارٍ ممكنٍ، ثم رمَى السّهمَ. ووَقَعَ السهمُ في وسطِ الهَدَفِ، تحت المركزِ بالضبطِ، بِحَجْمِ إبهامِ اليدِ تماماً. وصار آرنْ يعرفُ كيف يقذفُ القوسُ، وقَذَفَ السّهْمَيْنِ الباقِيَيْنِ، على مَهَلٍ، وبنَتِيجَةٍ أفْضَلَ قليلا. ثم مَدَّ القوسَ لِـ توردْ جيرسونْ في صَمْتٍ، وعاد ليجلسَ في مكانِه.

وشَخَصَ تُورْد جيرسُونْ، الذي صار وَجْهُهُ أبيضَ مِثْلَ الثلجِ، بِبَصَرِه

إلى السِّهامِ الثلاثةِ المجتمعةِ في قَلْبِ المَرْمَى. لقد فَهِمَ أنه قد خَسِر الرَّمْيَ، لكنه لم يجدْ سبيلا للخروجِ من المأزقِ الذي وَضَعَ نفسَه فيه. فكلُّ الحُلولِ بَدَتْ له متساويةً في خِزْيِها. بيد أنه لم يَخْتَرْ منها أفضلَها، إذْ رَمَى القوسَ رَمْياً، وغادَر القاعةَ من دون أنْ يَنْبِسَ بكلمةٍ واحدة، فيما كانت الضّحكاتُ تُدَوّي في مِسْمَعَيْه.

وصلّى آرنْ من أجلِه، وهو يَتَمَنّى لِرَوْعِ الفَتَى أنْ يَخْفُتَ، ولغُرورِه أنْ يُعَلِّمَهُ شيئاً. ومن ناحيتِه تذكَّر كلماتِ سانت برنار حول الغرورِ، ودعا أنْ لا يكون ذلك البرهانُ شيئاً آخرَ غير البرهان.

وعندما أفاق أَلْغُوتْ بالْسُونْ من دَهْشَتِه أمامَ مواهبِ آرنْ، صار وجهُه يشِعُّ غِبْطةً، وسعَى لأنْ يشرَبَ كلُّ الأشخاصِ الجالسين إلى الطاولةِ، على صحةِ آرنْ الذي أثبتَ للتوّ براعتَه في رَمْيِ السِّهَام. وجِيءَ بِجِعَةٍ قويةٍ، فأحسّ آرنْ بالانتعاشِ يَغْمُرُ صدرهُ شيئاً فشيئاً. وسرعان ما وَجَدَ للّحْمِ الجافِ الطريِّ طَعْماً طيّباً. واجْتَهَدَ في أنْ يشرَبَ الجعةَ مثلَ فتىً قويِّ البِنْيَةِ.

منذُ تلك اللحظةِ صارت كاتارينا تخدمُ آرنْ بنفسِها. كان ذلك سُلُوكًا لَبِقًا منها، وهو ما كان خليقًا بها أنْ تَسْلُكَه منذُ البدايةِ، ما دامتْ قدْ جَلَسَتْ حيث تجلسُ سيدةُ البيتِ، وما دام آرنْ قد جَلَسَ في المكانِ الشرفيّ. في البداية كان آرنْ في عينيها، غبيًّا وَرَدِيئًا. أمّا الآن فقد باتَ مُهِمًّا.

وسارعتْ بالجلوسِ إلى جانبِه، وقد أحسَّ آرنْ بِجِسْمِ الفتاةِ وهي تُحدّثُهُ، حديثًا ما انفك يزدادُ نَزَقًا كلّما ازدادَ إطراؤُها لِبَلاغةِ كلماتِ آرنْ. وقد صارتْ يَدَا كاتارينا تُلامس يَدَيْ آرنْ من حينٍ إلى حينٍ وكأنّ الأمرَ محضُ مصادفةٍ ليس إلا.

لو كان أَلغوتْ بلسونْ أَحْسَنَ التّحكّم في عائلته لكان أنَّبَ ابنتَه، ولا سيما أنه لم ينسَ قِلّةَ حَياءِ كاتارينا وسيسيليا. لكنه ظنّ أنّ الأمرَ سيختلفُ اختلافًا هائلا إنْ وَجَّهَتْ فتاةٌ حركاتِها السّفيهَةَ إلى قَريبِ شابٍّ مُعْتَدٍّ بنفسِه وفقيرٍ مثلِ توردْ جيرسونْ، أو إلى سيّد شابٍّ منْ أسيادِ أرناس. لقد غضّ الطّرفَ

إذًا عمّا لا يفوتُ الأباءَ الطيّبين رُؤيتَه وتأديبَه بقسوةٍ وصَرامة.

كلُّ هذه الجعة صَعَدَتْ بسرعةٍ إلى رأسِ آرنْ، وكاد يُدركُ بعد فواتِ الأوانِ أنْ كان عليه أنْ يَسْتَفْرِغَ، وقد عبَر القاعةَ على عَجلٍ حتى لا يُلطّخ الغرفةَ التي يُقَدَّمُ فيها الطعامُ. وقد لَفَحَهُ الريحُ الباردُ، وبعد أنْ تقيّأ ما ظَنَّهُ نصْفَ أيّلٍ وبرميلا من الجعةِ، استولى عليه النَّدمُ، ورأى أنْ ليس خليقًا به أنْ يُصَلّي في تلك اللحظة.

ومسَح فاهُ في عنايةٍ، واستنشقَ نفخاتٍ كبيرةً من الهواءِ النَّديِّ. وإذْ أيْقَنَ أنّ تصرُّفَه سيكون تصرُّفَ غَبِيٍّ مَهْما فَعَل، عاد ودَخَلَ لكي يتمنَّى ليلةً هادئةً لِمُضَيِّفيه. ثم شكرهُم على الطعامِ الفاخرِ، وخرجَ ثانيةً على قَدَمَيْن مَشْدُودَين، لكنّهما ثابِتان. واقتربَ من غديرِ الماء الغارقِ في الظلامِ والضبابِ الرّطبِ، ونَضَحَ جِسْمَهُ بالماء المُنْعِشِ، مُؤَنّباً مُعَنِّفاً نفسَه، ثم عاد إلى كُوخِه فوجَدَ فَرْشَهُ، وانْهَالَ عليه مثلَ ثَوْرٍ صريع.

وعندما لم يُسْمَعْ في الحصنِ صوتٌ سوى صوتِ الشخيرِ تسلَّلَتْ كاتارينا إلى الخارج في هُدوء. لكنّ ألغوتْ بالسونْ، الذي لا يُسْعِفُهُ النومُ بعدَ مثل تلك السهراتِ الثمِلةِ، سمِعَها تَخرجُ، وفَهِمَ مَقْصَدَها جيداً. فلو كان أباً صالحاً لَمَنَعَها من الخروجِ في الحالِ، ولَعَجَّلَ بِعِقابِها.

لكنّ الأبَ الطيّبَ لم يَسْتَطِعْ مَنْعَهَا من الخروجِ، حتى ولو مِنْ أَجْلِ أنْ يُوَفِّقَ أخيراً في أنْ يَضَعَ واحدةً من بناتِه في آرناس.

الفصل التاسع

مَنْ يَرى الفولكونغر مُجْتَمِعِينَ على ذلك النحو في أرناس، وكان على غيرِ درايةٍ بأمرِهم، يخالُ أنهم يتأهَّبُون للحرب. لكنَّ أيَّ شخصٍ على عِلْمٍ بكلِّ شيءٍ قد يَعْتَبِرُ ذلك المَخْرَج أمراً معقولا للغاية.

جيشٌ هائلٌ كان يَنْحَشِرُ مُزْدَحِماً في ساحةِ الحِصْن، وكان صدَى النِّعَالِ وطَقْطَقَاتِ الأسلحةِ والأصواتِ الوَجِلةِ يَرِنُّ ما بين الأسوار. كانت الشمسُ عند شُروقِها، تُنْبِئُ بيَوْمٍ باردٍ لا ثَلْجَ فيه. ولذلك ستكون السُّبلُ سالكةً. وقد عَبَرَتْ عربتان مُثْقَلتانِ، البابَ الواسعَ، وهما تَئِزّانِ أزيزاً حتى تُفْسِحَا المكانَ أمام الفُرسانِ. كان الفرسانُ ينتظرون رؤساءَ الفولكونغر الذين كانوا يُؤَدُّون الصلواتِ في البُرْجِ، وقد صرّح بعضُهم أنّ تلك الصلواتِ قد تَدُوم طويلا في حالِ أقام الراهبُ الصغيرُ ذلك القُدّاس. وحتى لا يُصيبَهم البردُ، أو لَعَلَّ بدافعِ التسليةِ، انطلقَ أربعةٌ من حُرّاسِ أرناس في اللعبِ بالأسلحةِ، بينما أخذ الأقنةُ المذعُورون يُهَدِّئُونَ خُيُولَهم الهائجةَ، وأخذَ الآباءُ يُسْدُون تشجيعاتِهم ونصائحَهم الطيبة.

كان آرنْ بالفعلِ هو الذي يُقِيم ذلك القُدَّاسِ مع والده، وإسكيل، وعمِّه بيرجر بروزا، لأنهم كانوا في حاجةٍ إلى مَعُونَةِ الربِّ وإلى مَعونةِ كلِّ القِدِّيسِينَ، قَبْلَ تلك الحَمْلَةِ. فهذه قد تَنْتَهِي نهايةً طيبةً، لكنّ الحربَ قد تُدَمِّرُ فاسترا غوتالاند تدميراً سريعاً.

وعند خُروجه إلى ساحةِ الحصنِ رأَى آرنْ الحُرّاسَ الأربعةَ الذين كانوا يُوَجِّهون ضَرباتٍ قويةً بالسيفِ. فتوقّفَ في الحالِ، مُنْدَهِشاً أمام أولئكَ الرجالِ، المتوسَّم فيهم زَهْرَة الحَرَسِ الرَّحِيم، الذين لا يُحْسِنُون استعمالَ السيفِ. وفاقَ ذلك إدراكَه. فإذا كانوا رجالا أقوياءَ البِنْيةِ، ويحمِلُون دُروعاً

حديديةً وأعلامَ فولكونغر، فإنهم أشبهُ بالصِّبْيةِ، ولا يعرِفون أبسطَ مبادئِ استعمالِ السيفِ والدرع.

ولم يكدْ ماغنوس يلحَظُ اندهاشَ وَلَدِهِ حتى ظنَّ أنْ لعلَّ آرن شَعَرَ بالخوفِ، فأمَّنَهُ من خوفِ أولئك الرجالِ، ما دام هؤلاء تحت إمْرَتِهِ. فهم مُحارِبون عِظامٌ، وفي ذلك طَيِّبٌ لمصلحة أرناس.

هنا، ولأوّلِ مَرَّةٍ منذ وقتٍ طويلٍ، بدا آرن شخصاً ساذَجاً. وفجأةً سَطَعَ نَظَرُهُ، وأكّدَ أنه لم يَخْشَ هذه المبارزةَ بتاتاً، وأنه مُطمئنٌ لرؤيةِ هؤلاء الرجالِ وهُمْ يحمِلون الأعلامِ نفسَها التي يحملُها. فلم يرغبْ في أنْ يَجْرَحَ والدَه وهو يقولُ له ما يفكّر به من عدَمِ أهليةِ أولئكَ الحُرَّاس. لقد بدأ آرن يفهمُ أنه من الحكمةِ كلّ الحكمةِ عدَم قولِ الحقيقةِ في عالَمِ الدنيا.

وشَعر ماغنوس بمزيدٍ من الأسفِ وهو يرى آرن يَضَعُ إلى جانبِه السيفَ الذي تلقّاهُ من الرهبانِ، ذلك السيفَ الذي سوف يجلبُ إليه سخريةَ الناسِ جميعاً. وعلى الفورِ ذَهب إلى مخزنِ الأسلحةِ وأعْطى آرن سيفاً نرويجياً قوياً وجميلا. لكنّ آرن تمرَّدَ ثانيةً، وأصرَّ على رُكوبِ حِصَانِ الرهبنةِ الوَهِنِ الهزيلِ، بدلا من فَحْلِ ذلك الخَيْلِ القادمِ من الشمال.

حاولَ ماغنوس أنْ يشرحَ له أنّ الفولكونغر كانوا سيُقَدّمون لأعدائهم عَرْضاً للقُوّةِ، ودعاهُ لأنْ يُساهِمَ في ذلك العَرْضِ الجماعي، مِنْ دون أنْ يُعرِّضَ نفسَه للسخرية. فمِنْ قبيلِ السخريةِ حقاً أنْ يحمِلَ ابنُ نَجْلِ واحدٍ من قادَةِ السُّلالةِ سيفاً أُنْثوِياً، ويركَبَ خَيْلاً تافِهاً.

وتمالَكَ آرن قَبْلَ أنْ يُجيبَ. وبأكثر ما وَسِعَهُ من هُدوءٍ قال إنه على استعدادٍ لأنْ يركبَ واحداً من فُحولِ الخيولِ الثقيلةِ، لكنه يُؤْثِرُ استغناءَه عن أيِّ سيفٍ، على أن يتنازلَ عن سَيْفِه هو.

أخيراً غادرتْ الفرقةُ أرناس، لتلتحِقَ بـــ تينغ غوتالاند، تلك الدورة التي كان سيَحْضُرها الملكُ كارل سفيركرسون لأوّلِ مرّةٍ في خلال عامين، والتي كان سيُحْسَمُ فيها الخِيارُ هذه المرَّةِ، ما بين الحربِ والسلام.

كان قائدُ الحَرَسِ يمتطِي حِصانَه في مُقَدِّمةِ الفرقة، وهو يحمِلُ عَلَمَ

الفولكونغر الذي رَفْرَفَ فوق إحدى الرِّماح. وفي إثْرِهم بيرجر بروزا، وماغنوس فولكسون وهما مُرْتَديان اللونَ الأزرقَ الذهبي، ومُدَثَّران بمعطفَيْهما وفَرْوِهِما المصنوع من جلدِ السمّور، وعلى رَأْسَيْهِما خُوذةٌ متلألئة. ومن وراء السرجِ على الجانب الأيسر علّقَا دِرْعَ الفولكونغر مع الليثِ الذهبي المنتصِبِ للحَرْب. ومن خلفهما مباشرةً سار إسكيل وآرن وقد لَبِسَا مثلَ ما لَبِسَ رؤساءُ البيت، وحَمَلا ما حَمَلُوهُ من سلاحٍ. وفي أعقابهما سار صَفٌّ مزدوَجٌ من الحُرّاس وهم يحملون رِماحاً تُرفرِفُ فوقها أعلامٌ الفولكونغر.

وكان سيلتحقُ بهم عددٌ مماثلٌ من فولكونغر جنوبِ البلادِ وغَرْبِها. وفضلا عن ذلك، كان الإيريك سينضمّون إليهم أمام سكارا حتى يُبَيِّنُوا أنهم يأتون إلى الـ تينغ كأقوى فريقٍ، وأنّ الحربَ سوف تحوّلُ الفولكونغر والإيريك أعداءً للمَلِك كارل. لأنّ العائلتين مرتبطتان برباطِ الدّم، وكذا بإرادَتَيْهِما المشتركةِ بألا تُعْلِنَا طاعةً أو انصياعاً. في غوتالاند كان تينغ كُلّ الرجالِ يتهيَّأُ للانعقادِ على ضِفافِ حصنِ أكسيفلا المَلَكِي.

فلو لم يكون إسكيل إسكيلا وآرن آرناً، لَمَا كفّ الشابان اللذان ظلا يَسيرَان جَنْباً إلى جنبٍ وقتاً طويلا، عن الحديث عن الكفاح من أجل السلطةِ التي كانا بلا ريبٍ مُرْتَبِطَيْنِ بها. لكنّ إسكيل أَبَى إلا أنْ يستمِرَّ في الحديثِ عما يهمُّه من شؤونٍ في النرويج.

أما آرن، فقد ظل صامتاً منذ عودتِه من الدير. فغداة الليلة التي أمضاها في هوسابي، رَكَضَ إلى فارنيم لكي يَبُوحَ بِذَنْبِه إلى الأب هنري. وبعد أن عاد إلى أرناس أعدَّ على الفورِ خوذاتِه التي كان هُوَ وأُخُوه سيحمِلانها. فلَمْ يُغيّر من مظهرِها الخارجي شيئاً، فيما كان مَظْهَرُها الداخلي مُنَجَّداً تنجيداً يَقِي أُذُنَيْهِما من قرٍّ برد الشتاء.

وأخيراً رأى أسكيل أنْ ليس معقولا أنْ يمتَطِي أخوَانِ حِصانَيْهما جَنْباً إلى جنبٍ منْ دون أن يتبادلا كلِمةً واحدة. وأدركَ أنْ خَيْراً أنْ يُبادِرَ هو بالحديثِ، وأنه إذا تحدّثَ عن هُمومِهِ فإنّ آرن سيَبُوحُ على الفور بهمومِه.

وأخذَ إسكيل يشرحُ أنّ الشؤونَ النرويجيةَ تسيرُ على خَيْرِ ما يُرام، وأنّ أمورَ المزارعِ في داخِل العائلةِ تسيرُ دوماً في دقةٍ وإتقان، وأنّ مالا نرويجياً كثيراً قد رُحِّلَ، وفي ذلك خيرٌ طيبٌ لأرناس. وأفضلُ من ذلك أنّ أهلَ المزارعِ توصّلوا إلى بَيْعِ تلك الأراضي من دون إثارةِ أيِّ شِجَارٍ، أو استياء.

كانت حيرةُ أسكيل مُنصبةً على شيء آخر، حول ما يُسمَّى في اللغة النرويجية «klippfisk » – أي الغادُس المملَّح والمجفَّف. ففي لوفوتين، وهي إقليمٌ يقع في شمالِ النرويج، كان يُصطادُ من هذا السمكِ أكثرُ ممّا يَسَعُ أكلُهُ وبيعُه في كاملِ البلادِ، فتوفَّرت كميةٌ من الغادس المجفف الذي يمكنُ شراؤُه بِثَمَنٍ بخس. وفوق ذلك كان من السهلِ نقلُه، وهو يُحْفَظُ لوقتٍ طويلٍ. فكّر إسكيل في أنْ يشتريَ كلَّ السمكِ المتوفّرِ في النرويج ثم بيعه في فاسترا غوتالاند وأوسترا غوتالاند. كان ثمة فتراتٌ كثيرةٌ من الصيام، ولا سيما الأربعون يوماً من الصوم المسيحي الكبير، التي كان يحظَرُ فيها أكلُ اللحوم. فالسمكُ الذي كان يمكنُ صيدُه حَوْضَيْ كِلا الغوتالاندين، وفي البلطيقِ لم يكن كافياً، سيما لِمَنْ يسكنون بعيداً عن السواحل، مثلما هو الشأنُ في سكارا أو في لينكوبينغ.

ومما أدهشَ إسكيل أنّ آرن كان يعرف سرّ ذلك الأمر تماماً، حتى وإنْ كان يُسمِّي هذا الغادس «باكبالو»، ويؤكدُ أنه قد أكلَ منه في فتراتٍ كثيرة، وليس فقط في فتراتِ الصومِ وحده. كان ذلك السمكُ شائعاً في الأديرةِ منذ زمنٍ بعيد. وأكّدَ آرن أنه لو أمكنَ إقناعُ سكانِ المدينة بأهميةِ السّمكِ المجفَّفِ – وهو ما لم يكنْ سَهْلا بحكمِ طبْعِ سُكانِ المدينة الانطوائي – فإن ذلك سيجلِبُ الكثيرَ من المالِ لِمَنْ يُبادِرُ بالتفكير في الأمرِ أوّلا. فالمؤكدُ أنّ ذلك السمكَ من السهلِ حملُه وتخزينُه، وكانت الحاجة إلى الطعامِ الطيّبِ كبيرةً في أثناء الصوم، وفي فصول الشتاء الطويلة، اللهم إلا إذا كان الناسُ يعيشون في ديرٍ، بطبيعةِ الحال.

ما لبث الأمرُ أنْ أغبطَ إسكيل الذي بات على يَقِينٍ أنَّ بِحَوْزَتِه فكرةً جدُّ

مُثمِرَة. فقد رأى زُمَراً من أهالي المدينةِ يأكلون سَمَكَهُ بنَهَم، فقرّرَ أنْ يُرسِلَ في الحالِ عربةً إلى أهلِه في النرويج، ويُقَدِّمَ طَلَبيَّةً هائلةً من ذلك السمكِ. أجلْ، كان السمكُ المجفَّفُ موعوداً لمستقبلٍ باهِر.

عندما مرّت مقدمّةُ جيشِ الفولكونغر أمام كنيسةِ فورشيم، لم يرَ الناسُ الفرسانَ الأواخِر. ولا أحدَ عرَف إنْ كانت أجراسُ الخطرِ هي التي تُقْرَعُ أَمْ أجراسُ الفرَح، وقد تجمَّع المزارعون لِيَرَوْا ذلك المشهد، لكنّهم مكثُوا صامِتينَ من فَرْطِ انفعالِهم، فما من أحدٍ كان يعرِفُ إنْ كانت تلك الفرقَةُ ستُلْقِي بالبلادِ إلى أهوالِ الحربِ، أم أنها كانت ستحمِي السلامَ وتَصُونُه. فالحربُ في نَظَرِ أيِّ مزارعٍ بسيطٍ إشارةٌ للشقاءِ، أكثر مما تُبَشِّرُ بالأمَل.

وبعد توقُّفٍ قصيرٍ في منتصَفِ الطريق، تضاعَفَ حَجْمُ الفريق مع وُصولِ فرعٍ من الأسرة. وفي هدوءٍ طلب إسكيل من آرن ما الذي جَعَلَهُ صَمُوتاً، ولماذا ذهب إلى ديرِ فارنيم. فلم يَفُتْ إسكيل أنْ يُلاحظَ أنّ آرن قد فَرَضَ على نفسِه عشرةَ أيامٍ من التوبةِ، وملابسَ خَشِنَةً، والخُبْزَ الجافَ والماء. وما لبث إسكيل أن أضاف بأنْ ليس في نِيَّتِهِ أنْ يقطعَ آرن سِرَّ البَوْحِ، فهما أخوَانِ على أيِّ حالٍ. وما بين الإخوةِ يمكنُ أنْ يتحدّثَ كلُّ واحدٍ عن هُمومِه، وليس عن السَّمَكِ والمالِ وحدهما.

ورَوَى آرن من دون لفٍّ أو دورانٍ بأنه أهانَ نفسَه عندما ثملَ وتَقَيَّأَ في هوسابي، وفوق ذلك فقد مارس مع امرأةٍ ليلا ما لا يمكنُ أنْ يُمارَسَ إلا ضمنَ العلاقاتِ الزوجية. فهذه التصرُّفاتُ البلهاءُ ملأته نَدَماً.

لكنّ أقوالَ آرن لم تُخِفْ إسكيل بتاتاً. بل انفجرَ ضَحِكاً، فالتفتَ أبوهُما إليهما ووَبَّخَهُما بالنَّظَرِ، وهو يقول: إنّ الفولوكونغر لا يذهبون إلى الـــ تينغ من أجلِ المزاحِ!

وبصوتٍ منخفضٍ ومَرِحٍ قال إسكيل إنه يفهَمُ كلَّ شيءٍ، لأنه ليس من الصعبِ أنْ يَحْزَرَ ما حَدَثَ. وفضلا عن ذلك فما مِنْ داعٍ للانشغال بالتَّقَيُّؤ. فالتقيُّؤُ يعني أننا قد أَكَلْنا كثيراً وشَرِبْنَا كثيراً، وأننا بالتالي قد اسْتَطَبْنَا الوليمةَ كثيراً. أمّا عن كاتارينا، فحتى وإنْ لم ينتهِ الموضوعُ، فمنْ الممكنِ جداً أنْ

يجدَ آرن وإسكيل نفسَيْهما مرتبطَيْن برباطِ الزواج مع كاتارينا وسيسيليا. بيد أنّ ألغُوتْ بالْسُون هوسابي كان يُنْفِقُ من المالِ أكثرَ ممّا يكْسِبُ منه، ولم يكنْ يَفْقَهُ شيئاً في الصَّفَقَات، حتى صار في غايةِ الإمكانِ أنْ تلتحِقَ أراضيه في النهايةِ بأراضي أرناس، من دون أيّ داعٍ لأيّ زواجٍ. لكنْ، لمّا صار نفادُ الصبرِ يتعاظمُ أكثرَ فأكثر في هُوسابي، صارت كاتارينا تسعى إلى تَعْجِيلِ مَشيئةِ الربِّ. عندئذٍ أكّدَ إسكيل أنَّ الأمرَ لم يعدْ موضوعَ ضحكٍ بل موضوعَ قَلَقٍ وانشغال.

لم يَسَعْ آرن أنْ يضحكَ من ذلك الذي أصابه. فقد حاول عَبَثاً أن يُدير المسألةَ من الأوجُهِ كافة، فلَمْ يجد سبيلا لأنْ يُنْكِرَ أنه مسؤولٌ عما ارتكبَه بمِلْءِ إرادتِه من تصرّفاتٍ - حتى وإنْ سوّدَتْ مِلْءَ إرادتِه تلك كميةٌ كبيرةٌ من الجِعَة. لكن على غرار إسكيل، عالجَ الأبُ هنري تلك الخطيئةَ بِبَساطةٍ لم يكنْ آرن يتوقّعُها، واستخلصَ منها نتائجَ شبيهةً بنتائجِ أخيه. لقد أوقعتْ امرأةٌ شهوانيةٌ وضنينَةَ، آرن في الفخِّ بواسطةِ الجعةِ، وبِحَركاتِها البهلوانية التي لا تَقِلُّ خُبْثاً عن حَرَكات الثُّعْبَان. ولأسبابٍ كثيرةٍ لم يستطِعْ آرن البريءُ أنْ يَحْمِيَ نفسَه من تلك الأحابيل.

فلذلك السببِ لم يَنَلْ سوى عشرةِ أيامٍ من العقاب، وتخلص من تلك الخطيئةِ في نَظَرِ الربّ. لكنْ شقَّ على آرن التّمتُّعُ بما كان يمكنُ أنْ يكون عَزاءً كبيراً في نَظَرِ إسكيل وفي نظرِ الأبِ هنري على السواء. إذ كان وكأنه لم يبقَ أمامه ما يكفِّرُ عنه بعد أنْ أخطأ خطيئةً عُظمَى لِثاني مرّة. فلم يتمكّنْ آرن من التخلُّصِ من فِكرةِ أنّ الخطيئةَ ما زالتْ في ذاتِه، حتى بعد أنْ غُفِرَتْ خطيئتُه. لأنه لا يكاد يذكرُ أنه أُكْرِهَ أو أُرْغِمَ على ذاك الذي فَعَلَهُ عندما مَنَحَتْ كاتارينا نفسَها له.

* * *

كان الملكُ كارل سفيركرسون يقفُ على قلاع أكسيفلا برُفقةِ أقاربه. وعندما رأى الفولكونغر والإيريك يركَبون خُيولهم نحو الـــ تينغ، كان

الأمرُ وكأن مدّاً أزرقَ يزحفُ إليه زَحْفاً، كانت ألوانُ الفولكونغر تتشكل من الأزرق والفضي، وألوانُ الإيريك من الأزرق والذهبي، وكانت الرّماحُ مع الشهابِ زرقاءَ اللّونِ ترتَفِعُ إلى ما لا نهاية. لا، إنهم لا يأتون إلى الـــ تينغ برُفْقَةِ بعضِ المُحَلَّفِينَ، لكنْ مع جيشٍ حقيقي، ولم يكنْ اتجاهُ ذلك التحركِ عسيراً على الفهمِ. والأدْهَى من ذلك كله أنهم لم يكونوا يحمِلون فوق رُؤوسِهم، جوار جيدفرسون وحفيدَه ماغنوس فولكسون وحسب، كما كان يمكن توقُّعه، لكنهم حملواْ كذلك بيرجر بروزا دي بيالْبو. وكان ذلك يعني أنّ عائلةَ بيالْبو، وهي الفرعُ الأقوى في الفولكونغر، قد تحالَفَتْ مع العدوِّ أيضاً.

ومن حُسْنِ الطّالعِ أنّ الطامعَ في التّاجِ، الشابِ كنوت إريكسون – ابن الملِكِ إيريك جيدفرسون، لم يكنْ في عِدادِ ذلك الجيش الأزرق. لأنه سيكون من الصعبِ الاحتفاظُ بالهُدْنَةِ في أثناءِ انعقادِ الـــ تينغ. لكنّ غيابَ كنوت إريكسون كان ينبئُ بإرادَةٍ طيّبةٍ في الحِفاظِ على السِّلْم.

لم يُداوِلْ الملكُ كارل كثيراً مع رِجالِه. لقد رأوا جميعاً وفَهِمُوا ما رآه وفَهِمَهُ. ولقد نَوَى كارل أنْ يُعْلِنَ نفسَه مَلِكاً على فاسترا غوتالاند في أثناءِ الـــ تينغ، إذ بات يستحيلُ مُذّاك أنْ يكون الملِكُ من الفولكونغر والإيريك الذين يُظهرون هناك قُوَّتَهُمْ بذلك القَدْرِ من الاستعراض.

بيد أنه، ومِنْ دون إظهارِ أيّ ضُعْفٍ، كان لا مفرَّ من اختيار الحلِّ الأقلّ ضرراً، وهو جَعْلُ الـــ تينغ يُقِرُّ بابْنِ الملِكِ، البِكْر، يارلا على رأسِ فاسترا غوتالاند، حتى وإنْ كان سفيركر ما يزالُ رَضيعاً.

بعد ذلك كان الأملُ قائماً في مَخْرَجٍ مُلائمٍ للخصامِ بين إديموند أولفبان وماغنوس فولكسون. لقد أُعِدَّ الفَخُّ بعنايةٍ فائقةٍ، ومن بعض الأوجهِ كان ماغنوس هو الحَلقَةُ الأضعف للفولكونغر. فإنْ تيسّر كَسْرُ تلك السلسلة، كان ذلك في حدِّ ذاتِه انتصاراً هائلا.

نصّب الفولكونغر والإيريك مُعَسْكَرَهُم في غربِ الـــ تينغ. مِنْ بعيدٍ بَدَا المعسكرُ مُنعزِلا، وكان ذلك تماماً هو الهدفُ المنشود.

التحقَ السفيركر وأقاربُهم، بصحبةِ نجلِ الملك، بـ كُول وبوليسلاف، شَقيقَيْ كارل سفيركرسون، شَرْقاً. وعلى هذا النحو صار غربُ الـ تينغ أزرقَ اللون، وبلِوَنْ الذهبِ والفضة، فيما لم يكن شرقُه سوى أحمرَ تماماً، وذهبياً وأسود. لكنّ القوات المتواجدة فيه كانت لا تقِلُّ عنهم عدداً.

أمّا عائلات فاسترا غوتالاند التي لم تَنْضَم لأيٍّ من الطرفين فقد تجمّعَتْ في الشمالِ وفي الجنوب. كانت ألوانُهم أكثر تنوُّعاً، لأنّ الكثيرَ منهم اعتقدوا أنّ الذهابَ إلى الـ تينغ بثيابِ الرجال الأحرار، وليس بالسلاح، أكثرُ لياقةً وأدباً.

لن تُفْتَتَحَ الجلسةُ قبل منتصفِ النهار، عندما تُدرك الشمسُ ذروتَها. لذلك إذاً ثمة وقتٌ كافٍ للتداولِ والمشاورة. كانت أسلحةُ الفولكونغر، والأسدُ الذهبي، وأسلحةُ الإيريك، والتيجانُ الثلاثةُ بخلفيتها اللازوردية، منتصبةً أمام أكبرِ خيمةٍ في المعسكر الأزرق. كانت أسلحةُ الفولكونغر الجديدة تمثلُ تحدّياً في وجهِ الملكِ كارل سفيركرسون، لأنهم بذلك يُظهِرون أنهم يعترِفُون بإيريك جيدفرسون، مَلِكاً، ما دامتْ التيجانُ الثلاثةُ تُجَسِّدُ أسلحتَه. ومَنْ يُحَيِّ الملكَ إريك جيدفرسون بدلا من الملكِ كارل سفيركرسون، فهو يُبْدِي عَداءً صريحاً. وقد كان العَداءُ من الوضوحِ والجلاءِ ما جَعَلَ كلَّ واحدٍ على يقينٍ بأنّ كارل سفيركرسون هو المُحَرِّضُ على قَتْلِ إيريك جيدفرسون، وأنّ ماغنوس هنريكسن المسكين لم يكنْ سوى أداةِ القَتل. لقد بَلَغَ ذلك الدنمركي من سُوءِ الحظِ، ما جَعَلَ كارل سفيركرسون يسحبُ منه كُلّ أعوانه، ويتّجِهُ إلى الريف ضِدَّ قاتِلِ الملِك، حتى في اللحظة التي ظنّ أنه منتصرٌ في أوسترا أورروس، مع ملكٍ مَيِّتٍ عند قَدَمَيْه في لينكوبينغ.

وهكذا نال كارل سفيركرسون التاج. وقد شاع أنه أرسلَ إديموند أولفبان لمساعدةِ ماغنوس هنريكسون في قَتْلِ إريك جيدفرسون، وأنّ إديموند أولفبان نفسَه هو الذي قَطَعَ رأسَ المَلِكِ إريك.

فإذا كانت هذه الإشاعةُ ثابتَةً فلأنَ ماغنوس كان على خِلافٍ مع قاتِلِ الملك، وكان لزاماً التفكيرُ بعنايةٍ في الكيفيةِ التي كان سَيُنْهِي بها ذلك

الخِلاف. كلُّ واحدٍ كان يُدرك بوضوحٍ أنّ الرِّهانَ لا يقفُ عند حدودِ بعضِ أراضي المزارعة، الواقعة عند الحُدودِ بين أراضي أرناس وبين الأراضي التي مَنَحَها بوليسلاف، شقيقِ الملِك، لـــ إديموند.

لكنْ، لو احتفَظَ كلُّ واحدٍ بِهُدوئِه، لَحُلَّتْ المسألةُ من دون أيِّ صعوبةٍ خاصة. كان اللاغمان كارل إسكيلسون، حفيدُ اللغمان كارل إدسفارا، مرتبطاً بالفولكونغر، فِعْلا! وكان قَبْلَ حينٍ قد دَخَلَ في خَيْمةِ الفولكونغر.

وفي الخيمةِ تواجدَ أيضاً جوار جدفرسون، وبيرجر بروزا، وماغنوس وابناؤهُ ورؤساءُ حُرّاسُ الفولكونغر والإيريك الأربعة.

كان الجَدَلُ سيدُورُ حول أَمْرَيْن اثنين. وقد تناول الكلمةَ كارل إسكيلسون، الرجلُ صاحبُ أعلى الرُّتَب. وقد ذَهَبَ إلى الهدفِ رأساً. فإذا كان الملكُ كارل ينوِي أنْ يُعْلِنَ نفسَه مَلِكاً أيضاً على فاسترا غوتالاند، وإذا كان جميعُ الفولكونغر وجزءٌ كبيرٌ من الإيريك يَشْجُبُونَهُ، فستظل المسألةُ مقبولة. فما مِنْ لاغمان واحدٍ، وما مِنْ مُطرانٍ واحدٍ سوف يرضَى بتَتْوِيجِهِ. غير أنّ إشاعةً سَرَتْ بأنّ الملكَ كارل ينوي طلبَ مُوافقةِ الـــ تينغ بتعيينِ ابْنِهِ سفيركر، يارلا على فاسترا غوتالاند. لكنْ كيف سيكون الردُّ في هذه الحالة ؟

أجاب بيرجر برورزا بأنّ ذلك قد يضحَى مُهِمّاً جداً. إذْ بذلك سوف يتفادَى الملكُ كارل جَلْبَ السخريةِ على نفسِه، وبالتأكيدِ سوف يجعلُه ذلك أقلَّ حُباً للخصام. وستُفلِتُ فاسرتا غوتالاند من تاجِهِ، وإنْ هو أصرَّ على أنْ يُصبحَ رضيعٌ يارلا فقد يُرضِي ذلك غرورَه، لكنه لا يؤدي إلى نتيجَة. فلنْ يكون هذا اليارل سَيْفَ الملكِ قَبْلَ سنواتٍ عديدة. لكنْ في انتظارِ ذلك سيظلُّ هذا اللَّقبُ مجردَ كلمة. وباختصار، فبذلك سيتِمُّ تفادِي حربٍ ما بين طرفَيْ قِوَى مُتَساوِية، وهي، إنْ حدثتْ، أسوأُ الحروبِ الممكنة.

وعلى الفورِ وافقَ جوار إدفرسون، وماغنوس فولكسيون على ذلك. وبدورِهما أضافَا أنّ مثلَ تلك الحربِ لا بد من تجنُّبِها بأيِّ ثمنٍ. إذْ سوف يَدْفَعُ المنتصرُ فيها ثمنَ انتصارِه غالِياً، وسوف يجِدُ نفسَه مُحاطاً بالأرامِلِ والأيتامِ،

ناهيك عن الأراضي المحروقَة والمنهوبة.

عندئذٍ قال كارل الليغمان بأن الجميعَ مُوافِقون، ولم يَعْتَرِضْ عليه أحدٌ.

ثم تطرّقَ الحاضرون لِنِزاعِ المِلْكِيّةِ ما بين ماغنوس وإيموند أولفبان، رَجُلِ الشابِ بوليسلاف. كانت هذه المشاجرةُ تُخْفي أَمْراً من الأمورِ وراءَها. كانتِ المسألةُ بالفعل، هزيلةً وغريبةً فلا يُعْقَلُ أنْ تُرْفَعَ أمام الـ لاندستينغ landsting أي دورة من دورات التينغ. كان الهدفُ يمكنُ أنْ يُثِيرَ بالفعلِ خلافاً يُفْضِي إلى حَرْبٍ من الحروب. لم يكنْ بوليسلاف، شقيقُ الملكِ كارل، سوى طفلٍ عاجزٍ عن أنْ يُضْمِرَ مثلَ تلك الأفكارِ العُدوانيةِ من تِلْقاءِ نفسِه. كان الملكُ كارل هو الذي يُحرِّك الخيوطَ، وهو الذي يتحرّشُ بالآخرين.

قال كارل إنّ النزاعَ ينبغي أنْ يُحَلَّ بحذقٍ وبَراعةٍ، إنْ شاؤُوا المحافظةَ على السلام. والحالُ أنّ الطَّرَفَيْنِ كان كلٌّ منهما قادِراً على أنْ يأتيَ مِنْ الشهودِ بقَدْرِ ما يَقْدِرُ عليه الطرفُ الآخر من الشهودِ، وفي ذلك ما يجعَلُ الصراعَ قابِلا لأنْ يمتدّ إلى ما لا نهاية. وهكذا لن ينتهيَ النزاعُ كما يشاءُ له القانونُ أنْ ينتهِي. وفي هذه الحالة، أيُّ إجراءٍ يليقُ اتّباعُه؟ فهل يخطرُ لماغنوس حلٌّ من الحلول؟

في كلماتٍ قليلةٍ شرَح ماغنوس أنه توصّلَ إلى النتائجِ نفسِها: إن القضيّةَ لنْ تنتهِي بحضورِ الشهودِ. كان يُفكّر في أنْ يَعْرِضَ مُصالحةً، مع مَنْحِ ثلاثين مَارْكاً من الفضة للمزارع اللواتي كُنَّ جَوْهَرَ الخِلافِ. فلعلَّ ذلك المبلغَ يزيدُ عشرةَ ماركاتٍ عن قِيمَتِهِنَّ الحقيقية، بيدَ أنّ هذا المبلغَ ليس مُرتفِعاً جِداً لو أَمْكَنَ التخلّصُ على ذلك النحو من ذلك النِّزَاع. والحالُ أنّ الحِفاظَ على سَلامةِ البلادِ مقابلَ عشرةِ ماركاتٍ فقط، لا يُكَلِّفُ غالِياً بأيِّ حال.

ووافقَ اللغمان وشرَح الترتيبات. في البدايةِ يأتي استدعاءُ الشهودِ، حتى يرى الجميعُ أنّ النزاعَ لا يمكنُ أنْ ينتهِي على ذلك النحو. وبعد ذلك يأتي ماغنوس إلى التينغ بِـ مَارْكاتِه الفضية الثلاثين، ويقترِحُ مُصالَحَة.

وعندئذ يسهلُ على اللاغمان، وعلى مُخلَّفيه أن يُعْلِنوا مُوافقتَهم على هذا الخِيارِ، ولا أحدَ يَستطيعُ الاعتراضَ عليه.

رُفِعَت جلسةُ المجلسِ على هذه النَّبْرَةِ من الرِّضا، وخَرَجَ الجميعُ من الخيمةِ، وذهب كلُّ واحدٍ ليُناقشَ الأمرَ مع أهلِه.

عايَنَ إسكيل وآرن الخيولَ والأسلحةَ، ووَجَّها التَّحيّةَ لأفرادٍ من عائلَتَيْهِما ممّن كان إسكيل يعرفهم، ولأفرادٍ مِنْ عائلةِ الإيريك الذين لم يكنْ يعرفهم. ثم شرَحَ إسكيل لأخيهِ مُجرياتِ دورةِ الـ تينغ. وعرف منه آرن أنه لا يجوزُ حَمْلَ السيفِ في داخلِ الدائرةِ المرسُومةِ بالجيرِ والمُجسِّدَةِ لحُدودِ الـ تينغ. وكان على آرن أنْ يعرف عن ظهر قلبٍ أيضاً كلماتِ اليَمينِ الذي كان سيتلوهُ، منْ دون تردُّدٍ، ومن غَيْرِ ارتباكٍ، وإلا بَدَتْ كلماتُه مَشْبُوهَةً. وكانت الكلماتُ كالتالي: «بقدر ما هي الإلهةُ حقيقيةٌ معي فكذلك حَقِيقيَّةٌ تكون كلماتي».

لم يجدْ آرن مشقّةً في ترديدِ هذه الكلمات، بيد أنه اعترضَ بالقولِ إنّ ذلك يُخالفُ الوصيَّةَ الأولى. كانت تلك الكلماتُ مَهِينَةً، إذْ أيُّ آلِهَةٍ يمكنُ أنْ تكون معه؟ وكيفَ يمكنُ تأديةُ اليمينِ فوق أَصْنَام؟

مَحَا إسكيل مخاوِفَه بِقهقهةٍ، ووَضَّحَ له أنّ تلك الصيغةَ حتى ولو عادَتْ لأزمنةٍ غابرةٍ فإنّ فَحْوَى اليمينِ يعودُ للربِّ وحده. وحتى يُقْنِعَ آرن بذلك قرأ عليه مقدّمة قانون غوتالاند الذي لا يَدَعُ مجالا لأيِّ شكٍّ حول تلك النقطة:

«اليسوع يأتي في المقامِ الأول في كُلِّ قانون. وتأتي بعد ذلك التعاليمُ المسيحيةُ وكافةُ المسيحيين: الملِكُ، والمزارعون، وكلُّ الرجالِ الأحرارِ، والرهبانُ، وكل المتعلمين».

وشَعَرَ آرن بالرِّضَا ومَزَحَ قائِلا إنّ إسكيل يدخلُ ضمن صِنْفِ المزارعين، بينما عليه أنْ يكتفيَ هو بِصِنْفِ المتعلّمين. لكن كان من الواضحِ جداً أنّ الحقَّ كان بجانبِهما.

وفي الساعةِ المتّفَقِ عليها بارك المطرانُ بِنْغتْ، مطرانُ سكارا الـ تينغ، ثم أعلن كارل اللغمان بصوتٍ قويٍّ افتتاحَ الدورةِ، وقال إن مَنْ يقطَعُ

هُدوءَ الـــ تينغ سوف يكون غادِراً شريراً. وتصاعَدَ هتافٌ من الرجالِ الألفِ المجتمِعِينَ عندما صَعَدَ الملكُ كارل بهدوءٍ لِيلتحِقَ بـــ اللغمان في أعلَى مكانٍ في الـــ تينغ. وسيعرفُ الجميعُ بعد قليلٍ إنْ كان الهدوءُ هو الذي سينتصِرُ في النهاية.

وما كادَ الجميعُ يرون الملكَ حتى رأَوا أيضاً أنه يحمِلُ رضيعاً بين يديه. وكثيرُون فَهِمُوا دلالةَ تلك الحركةِ، وتنفّسُوا الصّعداءَ. لقد تحقّق الهدوءُ، ما دام كارل سفيركرسون ليس في نيتِه أن يطالِبَ بِتَاجِ فاسترا غوتالاند بِقُوّةِ السيفِ.

وجَرَى كلُّ شيءٍ كما توقّعَ كارل وبيرجر تماماً. رَفَعَ كارل سفيركرسون ابنَه عالياً جداً، وطلبَ من الـــ تينغ أنْ يُعْلِنَ عن يارْلـِ (ه) الجديد، سفيركر فاسترا غوتالاند. ومن ناحيةِ السفيركر، والرجالِ المجتمِعين بالقرب من كول وبوليسلاف، وأشقاء المَلك، دَوَّتْ كلمةُ نَعَمْ. ثم أدارَ كلُّ واحدٍ أنظارَهُ المُتَوَتِّرَةَ ناحيةَ الـــ تينغ، حيثُ هَيْمَنَ اللّونُ الأزرقُ، وحيثُ وَقَفَ في مقدّمة الصفوفِ جوار إدرفردسون، وماغنوس فولكسون، وبيرجر بروزا.

هَمَسَ بيرجر بروزا في ابتسامٍ بأنّ الأمرَ يقتضِي الانتظارَ بعضَ الوقت. وخَمَدَ الهُتافُ ولم يُسْمَعْ بعد ذلك سوى صَريرِ الريح. ثم رَفَعَ الرؤساءُ الثلاثةُ أياديَهم مثل رَجُلٍ واحدٍ، ومن ورائِهم ارتفعتْ غابةٌ من الأيادي، ودوَّى الـــ تينغ بصوتٍ من الابتهاجِ. ووَسِعَ المطرانَ بنغت أنْ يُباركَ الجارلَ الجديدَ الذي كان يَصْرُخُ بملْءِ رِئَتَيْه. لقد بَدَا الحفلُ حَفْلَ تَعْمِيدٍ أكثرَ منه حَفْلَ تَبْرِيكٍ لأعلى وُجَهاءِ فاسترا غوتالاند.

وتطرّق الـــ تينغ بعد ذلك لِقَضايا لا تهمُّ سوى بعضِ الأشخاصِ – جرائم قَتْلٍ وجُروح – ، ثم أُوتيَ ببعضِ مُتْلِفي الكنائسِ لِتَسْلِيَةِ الأشخاصِ الذين قَدِمُوا من بعيدٍ. كان لا بد من انتظارِ ما بعد الظهيرةِ للفَصْلِ في الخِلافِ القائمِ ما بين ماغنوس فولكسون وإديموند أولفبان، قاتِلِ المَلك. هَبَّتْ ريحُ القلقِ الشمالي المتجمد على الـــ تينغ عندما وصلتْ من كل حدٍّ وصَوْبٍ مجموعةٌ من الرّجالِ وهم يرتدون ألوانَ السفيركر. كان جَلِياً أنهم ينتظرُون

حَدَثاً مُهِمّاً، حتى وإنْ كان الخلافُ عادياً جداً.

في البدايةِ كلُّ شيءٍ جرى على نحو ما توقَّعه الفولكونغر. قَدّمَ شاهِدان عن كلِّ طرفٍ اليمينَ، وأقْسَما بالآلهة أنّ الأراضيَ موضوعَ الخلافِ مِلْكٌ منذ العُصور الغابرةِ للرجلِ الذي يكفلانه.

وَضَعَ ماغنوس فولكسون مالَهُ، وأعلنَ أنه على استعدادٍ للمُصالحة. وطلب من الطرفِ الخصمِ أنْ يَقْبَلَ المالَ، لأنّ الثمنَ صحيحٌ، ولأنّ السلام ما بين الجيرانِ أغلَى من ذلك المالِ كله. بيد أنّ إديموند أولفبان ما لبث أنْ رفَضَ العَرْضَ في إصرارٍ، لكنّ كارل ومُحلّفيه حَكَمُوا على الفورِ لفائدةِ المصالحةِ من دون أنْ يَنْسَحِبُوا للتّداولِ في الأمرِ. وتصاعدتْ همساتُ الخَيْبَةِ ما بين الحاضرين، لأنّ كلَّ واحدٍ، صار يدركُ أنّ الخلافَ قد حُلَّ، وأنه لنْ يذهبَ أبعدَ ممّا ذَهَب.

تقدّم إيموند أولفبان، وفي ازْدِرَاءٍ وَضَعَ قَدَمَهُ فوق المالِ الذي مُنِحَ له في الحال. ثم رَفَعَ يدَهُ اليُمنى لكي يُشيرَ إلى أنه يريد أنْ يقولَ شيئاً. وسادَ صمتٌ مشحُونٌ بالتوتر، لأنّ إديموند بَدَا ساخِطاً ومُهَدِّداً.

- سوف أطيعُ، كَكُلِّ واحدٍ، قرارَ الـ تينغ، قال بصوتٍ مُدَوٍّ. لكنْ مِنْ المؤسفِ أنْ يَعْلُوَ المالُ على الشرفِ والحقِّ. ومِنْ المؤسف أيضاً أنْ أَجِدُنِي مرغماً على قَبُولِ مصالحةٍ مع رَجُلٍ لا شرفَ له، مثل ماغنوس فولكسون، لأنكَ يا ماغنوس، لستَ نَداً لِأيِّ رَجلٍ، ولستَ تحمِلُ قَلْبَ رَجُلٍ، وليس وَلَدَاكَ بأفْضَلَ منكَ. فهما مجردُ جِراءٍ، الواحدُ راهِبَة، والثاني برميلٌ من الجعة.»

وبعد ذلك أشار إديموند أولفبان إلى أحدِ حُرّاسه بأنْ يَجْمَعَ المالَ، فيما ظلَّ هو بلا حِراكٍ يُحَدِّقُ في أعدائه بنظرةٍ حاقدة. لكنّ الشخصَ الوحيدَ الذي تقاطَعَ نظرُه مع نظرِه هو ذاك الذي وَصَفَهُ بِالْجَرْوِ قبل بُرْهَة، رجلٌ شابٌّ ذو عَيْنَيْنِ بَرِيئَتَيْن كان يتطلّع إليهِ من دون أنْ يَبْدُوَ عليه أيُّ شعورٍ بالخوفِ، بل الشعورُ بالاندهاشِ والرأفة.

عمَّ الالتباسُ والخَشيةُ الـ تينغ، وسارَع الكثيرُ إلى الابتعادِ، لأنّ السلامَ

الذي كان يبدو مؤكداً قَبْلَ قليلٍ، بات الآن معرَّضاً لِخَطرٍ عظيم.

وما لبث أنْ انعقدَ على الفور مجلسٌ في خَيْمَة الفولكونغر للتداوُلِ في ذلك الأمرِ. كان الجوُّ ثقيلا، لأنَ جوار إدرفرسون وبيرجر بروزا اللذين كان في حوزةِ كِلَيْهِما بعض المبادئِ من القانون، بدآ يستشعرانِ ما ينصُّ عليه القانونُ في حالِ نَطَقَ أحدُهم بمثلِ تلك الشتائمِ في الـ تينغ، وفي الكيفية التي يجبُ الردُّ بها على تلك الشتائم. وعلى أيِّ حالٍ فلن يُقدِّمَ المالَ أيَّ حَلٍّ هذه المرّة.

كان عليهم أنْ ينتظروا قُدُومَ كارل، اللاغمان، لكي يُفْصِحَ لهم عن ذلك القانون: كان الانتظارُ حَزيناً، ولم يَفُهْ أحدٌ بِكلمة. وقد حَرِصَ إسكيل على أنْ يُؤتَى ببرميلٍ من الجعةِ، وبِقَدَحٍ كبيرٍ لكلِّ واحدٍ. لكنّ الجميعَ شرِبُوا في صَمْتٍ كما تُشْرَبُ الجعة في بِدايات الجنائز.

وعندما دَخَلَ كارل إلى الخيمةِ لمسَ كلُّ واحدٍ حُزْنَهُ وهُمومَه. وقد حَيَّى الحاضرينَ على عَجَل، ثم انطلقَ رأساً إلى بيتِ القَصيد.

«أيْ أهلي، أراكُم تَسْعَون لمعرفةِ ما يقولُه القانونُ في الشتائمِ التي نُطِقَ بها. سأقولُ لكُم الآنَ ما يقولُه القانون، وعليكم أن تُقرِّرُوا من التصرّفِ في الأمرِ ما تَرَوْنَهُ أكثرَ حَصافةً ورشاداً. لأنني لا أملكُ ما أقولُه في هذا الأمر. فالقانونُ من الوضوحِ والبَيِّنَةِ فيما يتصلُ بالشتائم التي خَرَجَتْ من فاهِ إديموند ما يجعلني لا أشكُّ في أنّ إديموند قد شارك في العديدِ من المجالِسِ لكي يلمسَ الحقَّ كُلَّ الحقّ. وإليكم ما يقوله القانون:

لاحظ كارل أنه قد جيءَ للحاضرين بالجعةِ فتوقّفَ، وتناوَلَ قَدَحاً وأفرغَ فيه بعضَ الرّشفاتِ وشَرِب. ثم وضَع القَدَحَ، ومَسَحَ فاهُ بظَهْرِ كَفِّهِ، ثم أخذ يتلُو القانونَ بصوتٍ رخِيم:

إذا نطقَ أحدُهم بالشتائمِ التالية في حقِّ شخصٍ آخر، «لستَ نِدّاً لِرَجُلٍ، وليس لك قَلْبُ رَجُلٍ»، وجَب عليهما أنْ يَلْتَقِيَا عند مُفْتَرَقِ الطُّرقِ الثلاثة. فإنْ حَضَرَ المسيءُ ولم يحضُرْ المُساءُ إليه فسوف يوصَفُ هذا الأخيرُ بما قد وُصِفَ به، فلا يمكنُ أنْ يُؤدّي يميناً، ولا أنْ يكونَ شاهِداً، مثلما الأمرُ

في شِجارٍ بين رَجُلٍ وامرأةٍ. وعلى العكسِ، فإنْ حضرَ المُساءُ إليه ولم يأتِ المُسيءُ سيصرُخُ المساءُ إليه ثلاثَ مراتٍ: «يا مجرم!» ثم يرسمُ إشارةً على الأرض. فلا أسوأَ مِنْ شخصٍ لا يجرؤُ على تحمُّلِ تَبِعَاتِ أقوالِه. سيلْتَقِي الرجُلانِ وهُما مُسَلَّحانِ. فإنْ وَقَع المساءُ إليه فسيكون بالإمكانِ المطالبةُ بنصفِ الأضرارِ التي تُطْلَبُ في حالةِ قَتْلٍ. وإنْ وَقَعَ المُسيءُ فلا أسوأَ من جريمةٍ، وانتهاكِ حُرمةِ الكلمات، فيدفَعُ رأسَه ثمناً للسانِه. ويظلُّ موتُه من دون عِقابٍ.»

ظلّ الرجالُ المجتمعون في الخيمةِ هادئِينَ، يتأمّلون ذلك القانون. أمسكَ كارل، اللغمان، جعَتَهُ وبسرعةٍ اتجهتْ الأنظارُ إلى بيرجر بروزا الذي ظلّ مُطرقَ الرأس. وقد فَهِمَ أنه مناطٌ بأنْ يُفْصِحَ بِصوتٍ عالٍ عن الشقاءِ الذي بات يَضْرِبُهُم، وهو الشقاءُ الذي كان الجميعُ قد بدؤُوا يفكِّرُون فيه، لأنَ أخاهُ ماغنوس كان مُمْتَقِعَ اللونِ ومشلُولا.

«يرى الكثيرُ من الناسِ الشُّرفاءِ، نعمْ، الناس الأقوَى منّا، المجتمعون هنا، أن الالتقاءَ بإديموند أولفبان يُساوِي مَوْتاً حقيقياً. وذلك بالضبط ما فكّر فيه الملكُ كارل ومستشارُوه، ولهذا السببِ فقط مُنِحَتْ إديموند الأراضي المجاورةُ لأراضي أرناس. لأَخِي ماغنوس أنْ يختار التالي: فإمّا أنْ يلتقي بإديموند والسيفُ في يدِهِ، وإمّا فهو رجلٌ بلا شَرَف. لستُ أتمنّى مثلَ هذا المأزقِ حتى لألدِّ أعدائي. لكنه هُنا، بَيْنَنَا، وليس عندي من نصيحةٍ أقدّمُها له.»

لم يقل ماغنوس شيئاً. وفوق ذلك لم يبدُ راغِباً في قَوْلِ أيِّ شيءٍ في الحال. ولذلك تناول جوار إدرفرسون الكلمة.

«لقد جازَى المَلِكُ كارل جُهودَنا من أجلِ المحافظةِ على السلامِ شرَّ الجزاء. إنّ سلوك كارل سفيركرسون لَيُنْبِئُ بأنّ الحربَ قادمةٌ آجِلا أم عاجِلا، وجميعُنا نَفْهَمُ ذلك. وكنوت إريكسون، ابنُ أخي، لم يَحْضُرْ هذا الـ لاندستينغ لأنه يعرفُ أنّ حضورَهُ سوف يُعَرِّضُ السلامَ للخَطر. لكنّ كنوت هو الذي حَرَمَهُ كارل سفركرسون، بالكَذِبِ والقَتْلِ، مِنْ والدِه ومِنْ التَّاجِ

على السواء. وكُلُّنا نعرفُ أنه سيَحِينُ بعد قليلٍ وقتُ غَسِيل شَرَفِنا. هكذا، أهلي الأعزّاء، أطلبُ منكم: لماذا يُطْلَبُ ماغنوس أنْ يُضحّي بِنفسِه؟ كلُّ الناس يدركون أنّ هذه المناورةَ الآتيةَ من كارل سفركرسون لا تخدُمُ سوى مَأرَبٍ واحد: اغتيال قائدِ الفولكونغر في فاسترا غوتالاند حتى قَبْلَ نُشوبِ الحرب. كارل سفيركرسون سوف يكسبُ الكثيرَ من وراءِ ذلك. أمّا نحن فسوف نخسرُ الكثيرَ من وراءِ ذلك. الكثيرُ من الناس سوف ينضمّون إلى رايةِ الفولكونغر، خلْف ماغنوس فولكسون. في المقابلِ، لعلكم سَتَغْفِرُون صراحَتي إنْ قُلْتُ إنّه ليس من المؤكدِ أنْ يسيرَ هذا الكمُّ من الرجالِ خَلْفَ إسكيل ماغنوسون في المعركة. فإنْ قُدِّرَ الموتُ لماغنوس من أجلِ قَضِيَّتِنا، وإذا كان موتُه مشيئَةَ الربِّ، فخيرٌ له أنْ يموتَ في واحةِ الوَغَى في الحربِ القادمة. بإمكاننا، نحنُ الإريك والفولكونغر أنْ نغادرَ المكانَ في الوقتِ نفسِه. وعلى هذا النحو سَنُظْهِرُ إصرارَنا المشترك. وهذا هو رأيي.

«هذا كلامٌ مُصِيب، يا قريبِي العزيز، أجاب بيرجر بروزا وهو يَتَلَوَّى في كُرسيّه، وهو ما يعني عند الذين يعرفونَه، أنه يفكّرُ في العكس تماماً. بيد أنّ القانونَ واضحٌ كل الوضوح. فإذا لم يذهبْ ماغنوس إلى المعركةِ الخاصة، فهو مجرمٌ، ورجلٌ خالٍ من الشرف، بل وغيرُ أهْلٍ لأنْ يكون شاهِداً. ومثلُ هذا الرجلِ لا يمكنُ أنْ يقودَ الفولكونغر، فهذا ما لم يحدُثْ من قبلُ قط، ولنْ يحدُثَ مستقبلا أبداً. إننا نعرفُ ذلك، وكارل سفيركرسون يعرفُه أيضاً، وكذلك مستشاروه المحتالون الذين وَضَعُونا في هذا المأزق. على ماغنوس أنْ يختارَ ما بين أمْرَيْنِ اثنين، وحتى وإنْ صَعُبَ عليّ أنْ أقولَ هذا إلى أخِي، فمِنْ الواجب عليّ أنْ أقولَه، لأنّ تلك هي الحقيقة. فإما أنْ يستنكِفَ ويَنْجُوَ من الموتِ، وإمّا أنْ يَقْبَلَ بمعركةٍ خاصة، لا يُنْقِذُهُ فيها شيءٌ سوى المعجِزَة. لكنْ ذاك خيرٌ له، لأنَّ نهايةَ هذه المعركةِ غيرُ محسُومةٍ مُسْبَقاً. وفي المقابل، فإنّ مَنْ يَهْرُبُ عنْ جُبْنٍ يكون قد قرَّرَ قرارَهُ النّهائي. تِلْكُمْ هي الوضعية.»

نهض كارل في هُدوءٍ وصرّح بأنه لا يملكُ شيئاً يُضيفُه حول هذه

المسألةِ، مادام فَحْوَى القانونِ لا يُفْسِحُ مجالا لأيِّ شكٍّ من الشكوكِ، ولأنّ القرارَ إذا كان من الصَّعْبِ اتخاذُه أصلا فهو لا يريد أنْ يجعلَهُ أكثرَ تعقيداً بإعطاءِ رأيِه فيه. وخَرَجَ مِنْ الخيمةِ وهو يهزُّ رأسَه في هَمٍّ وغَم.

وعمَّ صمتٌ طويلٌ في أعقابِ خُروجِه. كان الجميعُ ينتظرون أقوالَ ماغنوس، لأنّ الخيارَ خيارُه، حتى وإنْ لم يرتبطْ بحياتِه وحدها، بل وبِشَرَفِ الفولكونغر أيضاً.

«لقد اتخذتُ قراري، قال عندما صار الصّمتُ لا يكاد يُطاق. غداً عند الفجرِ سوف أذهبُ إلى ذلك المكانِ من التينغ الذي يُدْعَى بتقاطع الطرقِ الثلاثة، وسوف ألتقي بإديموند أولفبان في معركةٍ فريدة، كما يُمْلِيه القانون. فليكنْ الربُّ مَعِي. أرجُو دعواتِكُم. لكنْ ليس ثمةَ مخرجٌ آخر، لأنّ ما مِنْ أحدٍ من عائلتِنا يَقْبَلُ الفضيحةَ، وصحيحٌ أنْ لا أحدَ يسيرُ خَلْفَ رَجُلٍ لا شرفَ له.»

مَكَثَ إسكيل وآرن في آخرِ الخيمةِ، وما منْ أحدٍ أبدَى اهْتِماماً لهذين الشابين. وحين سمع إسكيل والدَه يَحْكُمُ على نفسِه بالموتِ بدا وكأنه على وشكِ أنْ يذرفَ الدَّمْعَ، لكنه تماسكَ وتمالكَ نفسهُ. ولم يجرؤْ أحدٌ على كَسْرِ ذلك الصّمتَ الحَرِجَ الذي أعقب أقوالَ ماغنوس، لأنّ كلَّ واحدٍ أيّدَ خِيارَ ماغنوس. لكنّ آرن الذي حرّكته قوةُ اليأس، ما لبث أن تناوَلَ الكلمة.

«نَسْتَسْمِحُكُمْ، نحنُ ابنَيْ ماغنوس، التدخّلَ في هذه المسألة، قال بصوتٍ مِلْؤُهُ التردّد. لكنّها تهمُّنا نحن أيضاً، حسب ظنّي على الأقل. أليس صحيحاً أننَا جميعاً تعرّضْنَا للشتم مثلما تعرّضَ والدُنا عندما وَصَفَنا «هذا» الـ إديموند بالجِراءِ، والربُّ أعْلَمُ بماذا أيضاً؟»

«نعم، هذا صحيح، أجاب بيرجر بروزا بنبرةٍ كئيبة، فأنت وإسكيل تعرّضْتُما للشَّتم مثلما تعرّضَ وَالدُكما. لكنْ على ماغنوس أنْ يُدافِعَ عن شَرَفِكُما.»

«ألم يَقُلْ القانونُ إنّنا نملكُ الحقوقَ نفسَها التي يملكُها والدُنا في الدّفاعِ عن شرفِنا؟» سَأَلَ آرن في بَراءةِ الأطفالِ، حتى إنّ جُزءاً من الرجالِ المجتمِعين لم يَتَمَالَكُوا عن الابتسامِ رغم خُطورة اللّحظة.

«ذلك لا يزيدُ في شأنِ ماغنوس إذا هو بدلا من أنْ يُدافعَ عنْ حَقّهِ كَرَجُلٍ، أرسَلَ واحداً من ابْنَيْهِ الشَّابَّيْنِ إلى المذبح»، هَمْهَمَ بيرجر بروزا بِنَبْرَةٍ حامِضَةٍ قَبْلَ أنْ يخرجَ ليقضيَ حاجتَه الطبيعية..

لم يتردّد آرن كثيراً قَبْلَ أنْ يلتحقَ ببيرجر بروزا. لقد اضطرَّ للبحثِ عنه لحظة، لأنّ الليلَ سرعان ما أَسْدَلَ سِتارَه خلال المداولات. واقتربَ مِنْ عَمّهِ الذي كان يتهيّأ لِفَكّ بنطالِه الواسع، ثم حَدّثَهُ من دون تردّد.

عمّي العزيز، عليّ أنْ أقولَ لك أمراً مُهمّاً وحقيقياً. وعليك أنْ تُصدّقني، لأن الوقتَ ليس وقتاً لأقوالٍ كاذبَة. والحالُ أنّني، مِنْ بيننا نحن الثلاثة الذين شُتِمْنَا شَرَّ الشتيمةِ، أَفْضَلُ مَنْ يُديرُ السيف. وظني أيضاً أني أستطيعُ التغلُّبَ بسهولةٍ على هذا الذي يُدعَى إديموند، أو عليكَ أنتَ نفسك، أو على أيّ واحدٍ من حُرّاسِنا. عليك إذاً أنْ تسعَى بشكلٍ أو بآخر لأنْ أكونَ أنا مَنْ يذهبُ إلى تلك المعركةِ الفريدةِ، وليس والِدي المسكين.»

ذُهِلَ بيرجر بروزا بهذه الكلماتِ حتى نَسِي أنه على وشَكِ التبوُّل. لم يكنْ يعرفُ سوى القليلِ عن آرنْ، اللهم إلا أنّ الجميعَ يَسْخَرُ مِنْ كُلِّ ما كان له صلةٌ بينَه وبين الأديرةِ، وهو ما لم يَغِبْ عن إديموند أولفبان أيضاً، لأنّ هذا الأخيرَ وَصَفَ آرن بالراهبة. وهنا قال له هذا الشابُ المتمسِّكُ بِوَرَعِه في قُوّةٍ، شيئاً لم يَكُنْ ليكون صَحيحاً، لكنْ قالَه وعلى وجهِهِ سيماءٌ لم تُوحِ بأيِّ إشارةٍ من إشاراتِ الكَذِب. لم يعرِفْ بيرجر بروزا ما الذي يُصدّقُهُ: فَلَمْ يَبْدُ الغلامُ مجنوناً، حتى وإنْ أَوْحَتْ كلماتهُ بالجنون حقاً. كانت شكوكُه جَلِيّةً، لأنّ آرن أَبْدَى نفادَ صبرٍ قَبْلَ أنْ تُخامِرَهُ الفكرة.

«عمّي العزيز، أنت أطولُ مني بكثير، بِطولِ هذا الإديموند تقريباً، أليس كذلك؟ خُذْ يَدِي وَضَعْ رِجْلَيكَ بجانبِ رِجْليّ.» ومدَّ يدَهُ إلى بيرجر بروزا الذي أمسكَ بها من دون تفكير. وقد دَهِشَ كثيراً من تلك اليَدِ الممدودةِ، فيما جَعَلَ آرن أَرْجُلَهُما في وضْعٍ مُنْحَرِفٍ، وكأنهما في لُعْبَةِ كِبَاشٍ عادية.

«هكذا، قال آرن فرِحاً جداً. حاوِلْ أنْ تَقْلِبَنِي بِقُوّتِكَ، قُوّتكَ التي تَفُوقُ قوتي!»

وأطاعَ بيرجر بروزا في فُتورٍ مثيراً بذلك ضحكاتِ آرن. ثم أعادَ الكَرَّةَ بكامل قِواهُ، وفجأةً وَجَدَ ظَهْرَهُ في الطين. وفي ذُهولٍ نَهَضَ وأمسكَ بِقَبْضَةِ ابنِ أخيهِ القوية. لكنه وَجَدَ نفسَه على الأرضِ ثانيةً، وكأنّ في مقدورِ الغُلامِ أنْ يَفْعَلَ به ما شاء له أنْ يفعلَ. وبعد المحاولةِ الثالثةِ رَفَعَ آرن يَدَهُ لِيُوقِفَه.

«اسمعني جيداً يا عَمُّ: هكذا يسعني أنْ أقاوم إديموند أو أياً غيرَه. والآن سأشرحُ لك الأسبابَ. ففي خلال السنوات التي أمضيتُها في الديرِ تدرّبتُ يومياً على استعمالِ الأسلحةِ مع رَجُلٍ كان فيما مضى حارساً للهيكلِ في الأرض المقدَّسة. وإني لأُقْسِمُ بالعذراء القدِّيسة، وباسْمِ القدِّيسِ برنار، أنني أحسنُ مَنْ يُديرُ السيفَ، من بيننا جميعاً. وأنتَ تعرفُ أنّ رجُلا مِثلي لنْ يَكذبَ على أحد، فأَوْلَى ألا يكذبَ على أهلِه، وأوْلَى أيضاً ألا يكذبَ في وَقْتٍ خَطيرٍ كَمِثْلِ هذا الوقت.»

أحسّ بيرجر بورزا أنّ يقينَ آرن وأقوالَه الحيويةَ قد لامَسَتْهُ بِدَوْرِه، وكأنها تَجَلّ حقيقي. وما لبث أنْ أيقنَ أنّ آرن يقول الحقيقةَ. وعندما فَحَصَ نتائجَ تلك الحقيقةِ تألَّقَ فَرَحاً وضمَّ ابنَ أخيه بين ذراعيه. وفَهِمَ بيرجر بروزا الذي لا تخفَى عنه أسرارُ الصراعاتِ من أجلِ السلطةِ، أنّ كان يراهُ الفولكونغر كارثةً قبل حينٍ قد يَنْقَلِبُ انتصاراً، أياً كان مخرَجُ المعركةِ الفريدة. فإما يكون آرن هو المنتصِرُ فيها، وإما الخاسِرُ فيها، لكنْ بقدرٍ من الشّرفِ أعظمَ مما لأبيه. وهُنا سوف يبدو انتصارُ إديموند أكثرَ مَدْعاةً للشَّفَقَة.

أثار بيرجر بروزا مفاجأةً وغَضَباً كبيرَيْنِ عندما قال إنّ آرن سوف يبارزُ إديموند أولفبان. كان هذا القرارُ يُبَرِّرُه أنّ آرن كان أكثرَ مَنْ تَلَقَّى الشّتْمَ، إذْ لم يَصِفْهُ إديموند بالجَرْوِ وحسب، بل أساءَ أيضاً إلى بَيْتِ الربِّ الذي تَرَبَّى فيه آرن.

واعترضَ ماغنوس على ذلك في قوة. وفي نفس الوقتِ الذي نجا فيه من الموتِ – وهي الحياةُ التي كان قد بَدَأَ يُوَدِّعُها– رأى أنّه سيفْقِدُ ابْناً.

وفوق ذلك، ما الذي كان سيُقالُ في رَجُلٍ لا يجرُؤُ على الدّفاع عن حقّه بنفسِه، ويُرسِلُ ابنَه الأصغرَ سِناً ليَحُلَّ محلَه؟ ناهيك عنْ أنه لَمْ يَحْمِلْ آرن على مَحْمَلٍ مِنْ الجدِّ عندما كان هذا الأخيرُ ينصَحُ في إصرارٍ بإرسالِ مَنْ يُحْسِنُ استعمالَ السيفِ إلى تلك المعركةِ الفريدة.

في انذهالٍ فارق جوار إدفرسون الفولكونغر لذلك الليل. وكان الحُرّاس الأربعةُ لا يَقلّون عنه ذُهولا، ولم يجدُوا بُداً من أنْ يغُضّوا النظرَ لِتَحِيَّةِ آرن الذي كان الزَّغبُ ما يزالُ يَمْلأُ وَجْنَتَيْه.

وما كادُوا يَنْفَرِدُون بالمكانِ حتى أَمَرَهْم ماغنوس بأنْ يُصَلُّوا في أثناءِ الليلِ، وبأن يُطِيلُوا في الصلاةِ ما وَسِعَهُمْ أنْ يُطيلُوا. ووَجَدَ آرن ذلك الاقتراحَ رائعاً، لكنّه ما لبِثَ أنْ بَلْبَلَ الجميعَ حين أخذ يُصَلّي من أجلِ حياةِ إديموند أولفبان، ومن أجلِ خَطاياه وغُرورِه.

* * *

عند الفجرِ اجتمعَ عددٌ كبيرٌ من الرجالِ حول المكانِ المُسَمَّى بمفترقِ الطرق الثلاثة. وسوف لا تَنْسَى كاملُ فاسترا غوتالاند ذلك اليومَ لزمنٍ طويلٍ، وسوف تُروَى حكاياتٌ عجيبةٌ كثيرةٌ عن ذلك اليوم. كان المكانُ يقع على مَسيرِ ثلاثِ سهامٍ من التينغ، ولم تَعُدْ الهدنةُ فيه ساريةً. أجل، قليلٌ من الرجالِ كانوا قد غادروا المكانَ عشيةَ ذلك اليوم، حتى بعد انتهاءِ دورة الـ تينغ، لأنّ ما مِنْ أحدٍ رَغِبَ في أنْ يُفوِّتَ المعركةَ التي قد تُفَجِّرُ تلك الحرب المنتظرة.

وما من أحدٍ في الفولكونغر، والإيريك رفَعَ المعسكر، لأنه كان يجبُ أنْ يُبَيِّنُوا للملكِ، ومن دون أيِّ لَبْسٍ، أنّ مَنْ يقتلُ واحداً من ذَوِيهِم فهو يُسدّدُ سِلاحَه لكلِّ واحدٍ منهم. فكان إذاً من الأهمية بمكانٍ أنْ يظلُّوا إلى جانبِ مَنْ كان سَيَفْقِدُ حياتَه من أجلِ الشّرفِ، لأنه من الواجبِ مسانَدَةَ الأهلِ من المهدِ إلى اللحدِ. وقد الموتُ في هذه الساعةِ تحديداً هو الذي سَيَضْرِبُ حتماً.

وَصَلَ الفولكونغر والإيريك من الغربِ، في هُدوءٍ وعِزّةِ نَفْس. أمّا

رجالُ الملِكِ فقد قدِمُوا من الشرقِ، وهم يتحدّثون حديثاً فَرِحاً مَرِحاً. كانوا يعرفون أنّ النصرَ لنْ يُفْلِتَ منهم إطلاقاً. وإذا كان ماغنوس فولكسون سيُنْقِذُ حياتَه بِعَدَمِ الحضورِ، فإنَّ النّصرَ سيكونُ حليفَهم، لأنّ الفلكونغر سوف يَجْلِبُون العارَ على نفوسِهم. وإذا واجَهَ ماغنوس فولكسون إديموند أولفبان، فالنصرُ مضمونٌ أيضاً. لكنّ مَشْهَدَ النّصرِ سوف يكون أكثرَ إمتاعاً.

وصل بيرجر بروزا وماعنوس فولكسون وابناهُ أوّلا، مُدثّرين بمعاطفهم الزرقاء الثقيلة، وعلى رؤوسِهم خُوَذٌ، وهم يحمِلُون في اليدِ اليسرى الدِّرعَ المميَّزَ لأسلحةِ الفولكونغر. ومَكَثُوا ينتظِرون بِلا كلام. وعن عمْدٍ وصل إديموند أولفبان وأتباعُه متأخّرينَ.

كان الهواءُ بارداً، وكانت الشمسُ التي كانت ستُشْرِقُ رأساً فوق ظهورِ رِجالِ المَلِكِ تُلوِّنُ السماءَ بحُمْرةٍ أشبهَ بِحُمْرَةِ الدّماء. وقد خَمَّنَ كلٌّ واحدٍ أنّ اليومَ يومٌ جميلٌ للموتِ. وقد سُمِعَتْ هَمساتٌ نفادِ الصَّبْرِ في انتظارِ انبثاقِ الأشعةِ الأولى للشمسِ التي تُعْلِنُ بدايةَ المعركة.

انفجرتْ صرخةُ حَرْب ما بين رجالِ الملكِ عندما برزَتْ في الأفقِ أوّلُ قِطْعَةٍ من الكوكبِ في الأُفُقِ. وتنحّى إديموند أولفبان عنْ معْطَفِه، واستلَّ سيفَه الطويلَ وتقدّم إلى منتصفِ واحةِ الوغى بخُطىً طويلةٍ وقويةٍ.

بيد أنّ ما منْ أحدٍ توقّع ذلك الذي حدَثَ فيما بعدُ. لقد خَلَعَ أصغرُ أبناءِ ماغنوس فولكسون، ذلك الذي طالما وُصِفَ بالراهبةِ، معطفَهُ وخوذتَه، وفَرْوَه، واستلَّ سيفَهُ الطويلَ الواهنَ، وقَبَّلَهُ وهو يتلُو ترتيلا لم يَصِلْ إلى أسماعِ أحد. ثم رسمَ الصليبَ على صَدْرِهِ وانطلقَ من دون تردُّدٍ لمبارزةِ إديموند.

بدأ الصمتُ يدبُّ بين آلافِ الرجالِ المجتمعينَ في ذلك المكان، ثم ما لبثُوا أنْ أظهَرُوا استياءَهُم في هدوء. وصار كلٌّ واحدٍ يرى أنّ الراهب الصغيرَ لا يحمِلُ حتى دِرعاً واقياً، فأدنى ضَرْبَةِ سيفٍ سوف تُرْدِيهِ قتيلا. بل ولقد تخلَّى عنْ خوذتِه أيضاً.

رأى إديموند أولفبان في الأمرِ إهانةً فظةً. كان يُراد منه أنْ يتراجَعَ عنْ

المبارزةِ أو أنْ يقتُلَ من دون شرفٍ ولدا صغيراً لا حول له ولا قوة. وفكّر الفولكونغر في ذلك أيضاً، ودَهِشُوا مثلما دَهِشَ رجالُ الملكِ عندما رأوا الشابَ آرن وهو يحلُّ محلَّ أبيهِ في تلك المبارزةِ القاتلة. بيد أنّ الأمرَ كان رِهاناً مجنوناً، لأنّ مَا مِنْ أحدٍ ظنَّ أنّ إديموند أولفبان رجلٌ قادرٌ على أنْ يُثْبِتَ رحمتَه، أو يتنازلَ عن مبارزةٍ كان النصرُ مؤكداً له فيها. لكنّ رجالَ الملك أقرّوا أنّ ذلك الغلامَ شجاعٌ، ما دام يُضحّي بحياتِه من أجل أنْ يُنقِذَ حياةَ أبيه وشرفَ اسمه.

لم يقعْ إديموند اولفبان في هذا الفخِّ، بل قرّرَ أنْ يَرُدَّ على شتيمةِ الفولكونغر بجَعْلِ نهايةِ هذه المبارزةِ نهايةً شرسةً ومُهينَة. فاندفَعَ نحو آرن والسيفُ عالياً حتى يقطعَ في الحالِ رأسَهُ.

في اللحظةِ المواليةِ كان إديموند أولفبان يَئِنُ أرضاً. فلعله سدّد نحو رأسِ خَصْمِهِ بكثيرٍ من الاندفاع والعجلة، لأنه أخفق في إصابتِه إخفاقاً فادِحاً. لكنّ الغلام لم يُسْعِفْهُ حُضورُ البديهةِ فأضاع تلك الفرصة الربانية، وظل جامداً ينتظرُ نهوضَ بَطل الملكِ الفظّ وانطلاقِه في الهجومِ مرّة أخرى.

وفي مرّاتٍ ثلاث، استهدَفَ إديموند خصمَه، وفي المرّاتِ الثلاث تجنّبَ آرن تلك الضرباتِ حتى من دون أنْ يُبْعِدَها بسيفِه، مُكْتَفِياً من دون عناءٍ، بالدوران في حلقةٍ دائريةٍ حول إديموند. ففي البدايةِ ظنّ المتفرّجون من بعيدٍ، أنّ إديموند يلعبُ لُعبةَ القط والفأر الميؤوسة. لكنّ الذين كانوا على مقربةٍ رأوا بوضوحٍ كاملٍ أنّ الأمرَ مختلفٌ تماماً.

صعدتْ بعضُ الضحكات المنعزلةِ من بين الفولكونغر والإيريك، وما لبثت ساحةُ المعركةِ أنْ دوّت بقهقهاتٍ موجّهةٍ لإديموند الذي لم يَسَعْهُ رغم جهودٍ عنيفةٍ سوى توجيهِ ضرباتٍ قويةٍ في الفراغ.

بدأ آرن يحسُّ بتأثيره الحقيقي. فحتى وإنْ كان خصمُه طويلَ القامة، فهو لا يملكُ لا قوّةَ الأخ جيلبرتْ ولا العُشرَ من حِذْقِه. كان لا بد قبل كلِّ شيءٍ من إنقاذِ حياةِ إديموند، ومن عدم الاستسلامِ للغرور. فبعد قليلٍ عندما يصبح نفَسُ إديموند قصيراً وثقيلا، سننتقلُ إلى الهجومِ المضاد. كان آرن

فَرِحاً لأنه لم يِسْتَسْلِمْ للنصائح والالتماس، ولأنه لم يحمل لا خوذةً ولا دِرعاً. فإنْ هو يرْغَبُ في الانتصارِ من دون قَتْلٍ، عليه أنْ يتحرّكَ بسرعةٍ، وأنْ يمتلكَ رؤيةً واضحةً في كلِّ لحظة، لأنّ أيَّ خطأٍ سوف يُكلّفُه حياتَه.

عندما أخذ آرن يُدافِعُ عن نفسِه فجأةً، كانت حركاتُ إديموند بطيئةً بُطْأً يمكنُ لكلّ واحدٍ أنْ يُلاحِظَه. وقد زادَه آرن إرهاقاً وهو يردُّ ضرباتِه بسيفِه أو بِدِرْعِه، ردّاً مُنْحَرِفاً يجْعَلُ ضرباتِ خَصْمِهِ تنحرفُ نحو الأرضِ رأساً. وكم من مرّةٍ انبعثتْ الشراراتُ من سيفِ إديموند كلّما ارتطمتْ ضرباتُه الغليظةُ بالصخرةَ. وكان آرن يتظاهَرُ بانتظارِ وصولِ تلك الهُجوماتِ إلى الوَجْهِ مباشرةً، لكنه كان في كُلِّ مَرَّةٍ يُثْنِي مِعْصَمَهُ فتَجُرُّ ضرباتُ إديموند هذا الأخير جرّاً. ولم ينتَظِرْ آرن كثيراً قَبْلَ أنْ ينهارَ إديموند محمُولا بقُوَّتِهِ وثقلِ وَزْنِه. وتقدَّم آرن نحوه في وَقارٍ ووَجَّهَ حَدَّ السيف لِعُنُقِه. ولأوّلِ مرّةٍ خاطبَ إديموند الذي كان راكِعاً مُنْهَكاً، وبدا أجلُه الأخيرُ وشيكاً.

صار المتحاربان في منتصفِ ساحةِ المعركة، بعيدَيْن جداً عن صَخَبِ وصِياحِ المتفرجين، حتى لا يَسْمَعَ أحدٌ منهم حَديثَهما. بيد أنّ المتفرجين ما لبثوا أن تنبّؤوا أنّ الذي كان يُوصَفُ بالراهبِ الصغير قد مَنَحَ الحياةَ لإديموند شريطةَ أن يتخَلّى هذا الأخيرُ عن دِرْعِه، اعترافاً باستسلامِه. وبَدلا من ذلك ابتعدَ اديموند عن سيفِ خَصْمِهِ المُهَدِّدِ، ثم نهَضَ وتواصلتْ المبارزة.

وهنا، حتى رجال المَلِكِ لم يجِدُوا بُداً من تَقبُّلِ الحقيقة، ومن أنْ يُدركوا ما لم يكونوا يرغَبُون في رؤيتِه أو فَهْمِه. فالفولكونغر الذي وصفَه إديموند بالجِروِ وبالرّاهبةِ كان يفُوقُه في كلّ شيء. ولم يكنْ ذلك لا مُعجزةً ولا سحراً ولا صدفةً. لأنهم رأوه كثيراً فلا يمكنُ أنْ ينخدِعُوا به. وقد أخذَ المحارِبون المجرّبون يُعلِّقون على ما رأوه، وبِما أوتوا من معرفةٍ ما انفكُّوا يجتهِدون في معرفةِ كيف يُدير آرن سيفَه. وقد أجمعوا على الاعترافِ بأنّ لآرن موهبةً هائلة. لقد وَجَدَ إديموند أولفبان مُعَلِّمَه! صارتْ السخريةُ والضحكُ يتصاعَدان أكثرَ فأكثرَ في مُعسكر الفولكونغر. وفي مُعسكرِ المَلِك، توسَّل

البعضُ من إديموند أنْ يستسلِم، وأنْ يُلقي دِرْعَه. لقد رأوا جميعا أنّ آرن قد عَفَا عنه أكثرَ من مرَّة!

لكنّ إديموند أولفبان وَضَعَ شَرَفَهُ عالياً جداً. فلنْ يستسلمَ لِجَرْوٍ، وقد حاربَ من قبلُ كثيراً لِيَعْرِفُ أنَّ وضعيةً يائِسَةً قد تنقَلِبُ فجأةً من دون أنْ يكونَ في الأمرِ مُعجِزَة. وتابَع المُنازَلَة إذاً بِقَدْرٍ أكبرَ من الحَذَرِ، وتحرَّك كثيراً حتى يقتصِدَ في قواه.

أثار ذلك اضطرابَ آرن بُرهةً، وفَهِمَ عندئذ أنّ إديموند لنْ يَسْتَسْلِمَ، ومع ذلك فكم كان حريّا به أنْ يفهمَ أن الاستسلامَ هو الشيءُ العاقلُ الوحيدُ. بالفعلِ كان على إديموند أنْ يرى أنّ ضرباتِه لا تُحقِّقُ أهدافَها أبداً، وأنّ آرن يمكنُ أنْ يُصيبَهُ إذا ابْتَغى ذلك. حدّثَ آرن نفسَه أن عليه أنْ يحتفِظَ بصفاءِ الذِّهْنِ، وألا يستسلِمَ للغرور، حتى وإنْ بَدَا إديمواند غيرَ قادرٍ على إيذائِه. فوَضَعَ دِرْعَه إذاً حتى يَدْفَعَ خَصْمَه إلى هُجوماتٍ رعناءَ جديدةٍ، ومِنْ ثم إلى فَقْدِ المزيد من قواه.

صَعَدَتْ هَمْسَةٌ مِنْ الفَزَعِ الشديدِ منْ الحاضرين عندما رأوا آرن يَضَعُ درعَهُ، وأكثر من ذلك يَنْقُلُ سَيْفَهُ إلى يَدِهِ اليسرى، لأنّ ذلك يوفِّرُ لإديموند مزيداً منْ القدرةِ لكي يُوَجِّهَ له واحدةً من ضَرَباتِه المُميتَة. وأَكَلَ إديموند مِنْ الطُّعْمِ ورَمَى بنفسِه في هُجوماتٍ اختلطَ فيها اليأسُ بالهَيَجَانِ. وصار لآرن الذي كان يدورُ في الاتجاهِ السيِّئِ أَوْفَرُ الحُظوظِ لكيْ يضرِبَ في رأس إديموند وفي رَقَبَتِه. لكنْ لم يَفْهَمْ أحدٌ سببَ تَرَدُّدِه.

صوَّب آرنْ نحو نقطةٍ محدّدَة. لا، إنه لَمْ يُصوّب لا ناحية الرأسِ ولا ناحية عُنقِ إيموند، بل ناحيةَ مِعْصَمه الأيمن الذي لم يَحْمِهِ دِرْعُه الشمالي. وكان كُلّما حامَ حول إديموند اتّسَعَتْ الفَتْحَةُ، لكنه ظلّ ينتظرُ لحظةَ اليقينِ، وفجأةً ضَرَبَ آرن لأوّلِ مرّةٍ بكاملِ قواه.

تعالَتْ صرخَةُ رُعْبٍ من الرجالِ الكُثْرِ المُلتقّينَ عندما رأوا سيفَ إديموند الثقيلَ يطيرُ في الفضاءِ، مع يدِهِ اليُمنى المتشبِّثَة بمِقْبَضِ السيف.

انهارَ إديموند في صَمْتٍ على رُكْبَتَيْهِ، وترَك دِرْعَهُ يسقطُ، وشدّ بيدِه

اليُسرى على مِعْصَمِهِ المقطوعِ حتى يُوقِفَ نَزيفَه.

اقتربَ منه آرنْ وغَرَزَ سيفَه في عُنُقِه. وظلّ كلٌّ واحدٍ بِلا حِراكٍ ينتظرُ الضَّرْبَةَ القاتلةَ التي كانت من حَقّ آرنْ الكامل.

عِوَضاً عن ذلك، استحوذَ آرنْ على الدّرعِ الأحمرِ الذي حمَلَ صورةَ الغريفون وهو نوع من الكلاب الصغيرة، له فروة ذات شعر كالأسلاك، وأدار ظَهْرَهُ لخَصْمِهِ، والتقط دِرْعَه، ثم الْتَحَقَ بأبِيه وناوَلَهُ دِرْعَ إديموند.

وسارع بعضُ رِجالِ بوليسلافْ إلى حَمْلِ إديموند بعيداً عن الأنظار.

وبِدُمُوعِ الاعتزازِ والارتياحِ رَفَعَ ماغنوس فولكسون الدِّرْعَ المُغْتَنَمَ، منْ قَبيلِ الانتصار. وأشْهَرَ الفولكونغر سُيوفَهُم، وضَرَبُوا بها دُروعَهم وهُمْ يُطْلِقُون صَرْختَهُم في الحرب.

لم يَنْسَ أيٌّ مِنْ الرجالِ الحاضِرينَ ذلك اليومَ. أمّا الذين لم يوجدوا في المكانِ عينِه فقد سمِعُوا مِنْ الأخبارِ ما جَعَلَهُمْ يخَالُون وكأنّهُم عايَشُوا تلك المعركة.

الفصل العاشر

مثل هَبَّةِ ريحِ الخريفِ عاد كنوتْ إريكسون، الطامِعُ في العرشِ إلى فاسترا غوتالاند. توجَّهَ في البدايةِ إلى عَمّه جوار جيدفرسون، واحتفل بمقدماتِ عيدِ الميلاد في كنيسةِ إيريكسبيرغ. وكان عليه بعد ذلك أنْ يزورَ العديدَ من أقاربه، وكان بإمكانِه أنْ يدَّعِي أنه جاء للصيدِ. كان فصلُ الشتاءِ ملائِماً في فاسترا غوتالاند، فلم يكنْ ارتفاعُ الثلجِ عَصِياً على الخيولِ والأقنة، لكنه كان يُعيقُ فِرارَ الذئابِ. ففي مِثْلِ فُصولِ الشتاءِ هذه جرتْ العادةُ أنْ يتوجّه صيّادون بارعون من الشبابِ من حصنٍ إلى حصنٍ ويلتمسونَ تنظيمَ مُطارداتٍ. بيد أنّ مواضيع كثيرة كانت قابلةً للنقاش عِلاوةً على الصيدِ، في أعقابِ انتصارِ الفولكونغر والإيريك في لاندسينغ أكسيفلا ، وكان ذلك يهمّ كنوت في المقامِ الأول.

كانت أرناس تشكّلُ أوّل مرحلةٍ وأهمّها في رِحْلَتِه. كان كنوت ورِجالُه مرتقَبين فيها لأنهم أَوْفَدُوا إليها مُسْتَكْشِفاً عشِيةَ ذهابهم إليها. أما ماغنوس فقد أرسَلَ سفارت وكُول وكُلّ الأقنة الجاهزينَ، إلى الغاباتِ في شمالِ الحصنِ لاقتفاءِ آثارِ الذئاب.

كانوا شباباً أقوياءَ، ومُتّقدينَ نشاطاً، وكان نِصفُهم نرويجيّين، دخَلُوا إلى باحةِ الحصن. وهُرع الخدمُ لكي يتكفّلُوا بخيولهم. وبِوَثبةٍ واحدةٍ قفَزَ ايريك إيريكسون من على سَرْجِه واقتربَ من ماغنوس وهو يُفرِجُ ذراعَيه. ثم ضمّ آرن بين ذِراعيه بقوةٍ وقال إنّ اللقاءَ لقاءٌ عزَّ عليه كثيراً. كان بالفعل يتقاسمُ مع آرن واحدةً من أفضلِ ذكريات الطفولة. لكن آرن لم يفهمْ ما الذي قصدهُ، فذكّرهُ كنوت عندئذ بِنَبْرَةٍ فَرِحَة بذلك المساءِ الذي تسلّلا فيه إلى داخلِ الحصن لِيُصْغيا إلى شاعر والدِه النرويجي. ولم ينسَ أنّ شيئاً لا أقلَّ من قِديسٍ ومن مَلِكٍ قد بَال عليهما.

وأكد له آرن أنّ تلك الصورةَ بالتأكيد راسخةٌ في ذاكرتِه، لكنه أضاف أنّ الذكرى كانت بالتأكيدِ أكثرَ مُتعةً ممّا أحسّا به في تلك اللحظة. وضحِكا من أعماقِ قَلْبَيْهما، وكان وكأنّ صديقَين الْتَقَيا بعد سنواتِ فراقٍ طويلة. وضَع كنوت ذراعَه فوق كَتِفَيْ آرن ودخلا أوّلا إلى الحصن وهُما يتحدّثان بسرعة وبقوّة، وهو ما أمتع الحاضرين، لأنّ أحدَهما كان لحديثِه وَقْعٌ نرويجي، وكان لحديثِ الآخرَ وقعٌ دنمركي.

كان وكأن الربَّ ذاتَه يُبارِك هذه الزيارة، لأنّ الظروفَ لم تكنْ يوماً طيّبةً في أرناس مثلما كانت في ذلك اليوم.

صار ماغنوس منذ ذلك اليوم الأبَ المُجَلَّ لِوَلَدٍ انتصرَ على إديموند أولفبان في معركةٍ خاصة، وجَلَبَ شرفاً عظيماً لِبَيْتِه ولعائلةِ الفولكونغر على السواء. وابتَهَجَ إسكيل لأخيه الذي صار مثارَ إعجابٍ بعد أنْ كان مُحتقراً، ولأنه لم يَعُدْ ثمة ظلٌ لأيِّ شقاقٍ بين آرن ووالدِه. أما آرن فقد أحسَّ وكأنه الابنُ الضالُّ العائدُ إلى بيتِه أخيراً. كانت إيريكا جواردوتر تتلقّى التهانيَ من كلِّ شخصٍ، لأنّ كِلَى الأيِّلةِ بالبهارات والخنّوص بالعسلِ، التي قدّمتها في الحصنِ مع أطيبِ الجعة أثارتْ تهاليلَ الاندهاشِ والإعجابِ من قِبل كلّ المدعويين. لقد شرب كلٌّ واحدٍ على صحةِ ماغنوس، وعلى حظِّه في زوجةٍ رائعة. ولا أحدَ تظاهَر بأنه لاحظَ عِرّةً في النُّطقِ عند إيريكا.

لم يكنْ لكنوت إيريكسون أنْ يطمَعَ في الحصولِ على استقبالٍ أفضلَ من ذلك الاستقبال في ذلك المعقلِ من فاسترا غوتالاند الذي كان يعتبِرُه أساسياً في نجاح مشاريعه. فهو أيضاً كان سعيداً جداً ومطمئناً لنجاحِ تلك الزيارة.

وعندما لم يعدْ لأيِّ شخصٍ القدرةُ على أكْلِ أدنى فُتاتٍ إضافي انتقلتْ المناقشةُ إلى الموضوع الذي كان سيأتي عاجِلا أم آجلا: المعركة الفريدة في لاندستينغ أكسيفلا.

بدا آرن مُنزعِجا أيما إزعاجٍ وأجاب في تواضُعٍ أنه لم يقتلْ سوى رجلٍ واحدٍ ثقيلِ الظلِّ وغير مُدرَّبٍ، ومسلّح بسيفٍ أقلّ منه جودة. وفي الحينِ

طلب كنوت رؤيةَ السيفِ. تمنياتُ ابنِ مَلِكٍ وضَيْفِ شرفٍ لا بد من أنْ تُلَبّى من دون تأخير. وأتاه أحدُ الخَدَم بالسيف.

فوجِئَ كنوت وهو يَسْحَبُ السيفَ من غمدِه، ثم وازَنه. وتقدّم في القاعةِ وضَرَب الهواءَ بِضْعَ ضرباتٍ مركّزة. كان واضحاً أنه قد استعْمَل السيفَ من قبلُ مرات عديدة. بيد أنَّ السيفَ بدا له خفيفاً جداً، ومَرِناً جداً، مثلما كانت الإشاعةُ تصِفُه دائماً، وطلب من آرن أنْ يُوضّح له سِرَّ خِفّةِ ذلك السيف.

فاعترض آرن بالقولِ إنّ قيمةَ أيِّ سيفٍ لا تقاسُ بِاللُّهَاثِ الذي يُسَبِّبُهُ استعمالُ ذلك السيف. بيد أنّ إيريكا جواردوتر ألَحَّتْ عليه أنْ يُوضّح الأمرَ ويستعرضَ سيفَه، ومن دون تأخيرٍ استعرضَ سيفَه.

والتحقَ بِكنوت، وبِإذْنٍ منهُ سَحَبَ سيْفَه من غِمْده ورَازَهُ.

«عندك سيفٌ نرويجيٌّ ثقيلٌ وأنيقٌ بزخارِفه، يا صديقَ طفولتي العزيز، قال وهو يُلَوِّحُ بالسيفِ حالماً مُتفكِّراً. فإنّ مَنْ يضربُ به ضربةً صائبةً حتى الخوذةُ لا تُقاوِمُه! هيّا، انظرْ إليه قليلا!»

رفَع آرن السيفَ وكأنه يريدُ أنْ يضربَ المدفأةَ بمسطّحِ سلاحِه، ولو فَعَلَ لَكَسَرَتْ تلك الحركةُ الشَفْرَةَ عند مُنْتَصَفِها. فصرَخ كنوت لذلك، ومن فرطِ دهشتِه أمسكَ آرن ضَرْبَتَهُ، ثم ضَحِك وردَّ سيفَه إلى كنوت في احتشام ووَقَار. وأضاف أنه لم يُفكّرْ قط في الإضرارِ بذلك السيف الذي قد يُسقِطُ ممالِكَ بأسرِها.

ثم أخذ سيفَه ثانيةً ورفَعه، ثم ضرَب الصَّخرةَ بِكلِّ ما أوتي من قُوّة. ولم يَحْدُثْ شيءٌ، اللهم إلا ما ردّدَهُ السيفُ الفولاذيُّ من صَدَى.

«هذا هو الفارقُ، يا عزيزي كنوت، قال بِنَبْرَةٍ خَبيثةٍ وهو يُثْنِي حدَّ السيف. سيُوفُنا الشماليةُ المصنوعةُ من الفولاذ الصلبِ لا تنكسِرُ، ووَزْنُها يُعيقُ استعمالَها. وسَيْفِي به شفرةٌ ثُلثُها مَرِنٌ، فهو لا ينكسِرُ، واستعمالُه سهلٌ ميسور».

ما لبثت كلماتُ أرنْ أثارت الدهشةَ، لكنْ ليس الشكَّ. طلبَ كنوت أنْ يتبادل بعضَ الضربات مع آرن، وقد أطاع آرن. ومن قبيلِ تقديم البُرهان

على ما قاله، بادرَ بالردِّ على ضرباتِ كنوت. وصارت قوةُ السيفِ الثقيلِ تتلاشَى أمام قوةِ مرونةِ السيفِ الخفيف، ففيما بَدَا آرن وكأنه لا يبذلُ أيَّ جُهدٍ، كان كنوت يُنفِقُ جهوداً كثيرةً لكنْ من دون أيِّ وَقْعٍ. وفجأةً أدار آرن المقبضَ فغيَّرَ مجرى ضربةِ كنوت الذي ما لبثت قُوَّتُه أنْ جَرَفَتْهُ فانهارَ أرضاً. ورأى الآباءُ النرويجيون الأمرَ غايةً في الغرابة.

نهضَ كنوت من دون غضَبٍ، وهو يُبدي إعجاباً. ثم ضمّ آرن بين ذراعَيْه في وُدٍّ وقال إنّ على القدّيسين جميعاً السهرَ على أن تكون كلُّ السيوف على الجانبِ نفْسِه، لأنه لا يرغبُ في أنْ يَضَعَ آرن في عِدادِ أعدائِه.

وشرِبَ الجميعُ معاً احتِفاءً بهذه الكلمات، وبهذه الروحِ الودّية. وقد أحسَّ الجميعُ أنّ صِلاتهم تتجاوزُ صِلات القُربى.

وعندما قامتْ إيريكا جواردوتر لكيْ تُودّع الحاضرين اقتربَ منها إسكيل وقدّم لها الثناءَ وشكَرها، وبدوره تمنّى لها ليلةً هانئة. لم يفعلْ إسكيل ذلك من قبلُ أبداً، وقد أحسّتْ إيريكا بأنّ الثلوجَ التي ظلّت تقاوم حتى نهايةِ ذلك الرّبيعِ قد ذابَتْ أخيراً.

وعندما اقتربَ آرن بدورِه، هَمَسَتْ له بأنّ ما مِنْ أحدٍ حَصَدَ قَدْرَ ما حَصَدَهُ من الإطراءِ على طعامٍ أعدّه شخصٌ آخر. أمّا آرن الذي لم يُرِدْ أنْ يناقشَ الأمرَ، فقد قال بأنّ مطبخَ الحصنِ هو الذي أثنَى عليه الضيوفُ، وبأنّ كلاهُما قد عمِلا عمَلا شاقاً حتى يصِلا إلى تلك النتيجة. وأضاف آرن بِرَمْشَةِ عَيْنٍ أنّ الأمرَ ينبغي أنْ يظلَّ سِراً، وإلا اعتبَرَهُ النرويجيون الطيِّبونَ امرأةً ضعيفةً وجزِعَة مرّةً أخرى. ثم افْتَرَقَا بكثيرٍ من اللطفِ والمودّة.

انتهزَ اسكيل تلك الفرصةَ ليُعْلِنَ أنّ أولئك الذين كان ما يزال أمامَهم مكانٌ للجعة والهيدروميل يستطيعون مُرافقتَه إلى واحدٍ من الأبراجِ المطلّةِ على الساحة. كانت الغرفةُ باردةً، لكنَّ الخَدَمَ سوف يسارِعون بِجَلْبِ الجَمْرِ إليها. وهكذا سيتم إرضاءُ الذين يَنْشُدُون النّومَ في هَنَاء، والذين يرغَبون في أنْ يستمرُّوا في الصخبِ منْ دون أنْ يُزعِجُوا سيّدةَ البيت.

اختار كلُّ الشبابِ الصعودَ إلى البُرج. لكنّ ماغنوس ارتأى من بابِ

الحَذَرِ أنْ يُمَسِّي الجميعَ بالخَيْر.

كانت الغرفةُ ما تزال جامِدةً ولعل بُرودةَ ساحةِ الحصنِ قد فَعَلَتْ فِعْلَتَها، لأنّ الشبابَ حينما استعادوا ابتهاجَهم كان انسجامُهم مختلفاً.

وبكلماتٍ مُبَطَّنةٍ أخذ كنوت يُؤاخِذ آرن لأنه عفَا عن إديموند. لكنه ما لبث أنْ أضاف أنّ حركةَ آرن جديرةٌ بالتقدير، لأنّ إديموند أولفبان صار منذ تلك اللحظةِ موضوعَ تهكُّمٍ من الجميع. إذْ صار يُلَقَّبُ بإديموند أولفبان لو مانشو. لكنّ قاتلَ المَلِكِ لا يستحقُّ الحياةَ، وكان كنوت هو الذي سيُنْهِي ما شَرَعَ فيه آرن ولم يُكَمِّلْه.

امتَقَعَ وَجْهُ آرن وهو يسمعُ تلك الكلمات، ولم يعرِفْ بما يجبُ أن يُجيب. لم يكنْ في حاجةٍ لأنْ يُجيبَ لأنّ إسكيل ما لبث أنْ تدخّلَ، لكنْ بكيفيةٍ لم يتوقّعها أحد.

أكّدَ إسكيل أنه يفهَمُ نوايا كنوت حَقّ الفَهْم، وأنه لا يَعْتَرِضُ عليها بتاتاً. بيد أنّ تلك المشاريعَ كانت تتضمن بعضَ الضيرِ سوف يكون من السَّهلِ بالتأكيد التغلُّب عليه ما بين أقربِ الأقرباء.

نَشَرَ خريطةً فوق إحدى الطاولات، وأضاءَها بواسطةِ شمعة، وطلَب من كلِّ واحدٍ أنْ يتقدّم لِيَرَى ما في تلك الخريطة. وإلى جانبه مالَ الجميعُ عليها في فُضولٍ.

وَضَعَ إسكيل أصبُعَه أوّلا فوق أرناس، ثم راح يُتابِع مجرَى نهر تيدان، مُنطلقاً من الشرق، في أسكيبيرغا، ثم توقّف عند فورسفيك، على ضفافِ بحيرةِ فاتيرن حيث حصنُ إديموند أولفبان، أو بالأحرى لو مانشو، قال إسكيل مُصَحّحاً.

«فَكِّرُوا، قال وهو يُشير إلى أراضي إديموند، إديموند في فورسفيك الآن، وحيداً في أرضِ العَدُوّ، مع ذِراعٍ ناقِصة. ليستْ هذه الوضعيةُ وضعيةً مُريحةً وآمنة على الإطلاق. فليس أمامَه أيُّ مساعدةٍ يَرْجُوها من الشاب بوليسلاف، وسوف يمرُّ وقتٌ طويل قبل أنْ يُظهِرَ كارل سفيركرسون خلقتَه الطريفة في فاسترا غوتالاند. فإنْ استطعنا شراءَ مزرعَتِه، صِرْنَا نحن في

أرناس، نمتلِكُ كافةَ الأراضي الواقعة ما بين فانيرن وفاتيرن. كلُّ الطرقِ وكلُّ التجارةِ سوف تكون ما بين أيدِينا. وسيكون ذلك خطوةً كبيرة إلى الأمام.

* * *

توقّعَ إسكيل أنّ يفهمَ كلُّ واحدٍ لكنْ بَدا جلياً أنّ الأمرَ غيرُ ذلك. وأجاب كنوت بِنَبْرَةٍ باهتةٍ أنه لا يفهَمُ ما الذي يجعلُ القَضِيّتَيْنِ مُرتبِطتَيْن إحداهُما بالأخرى.

وأفصحَ إسكيل، من دون لَفٍّ أو دوران أن لعل من الحيطةِ تسويةَ تلك المسألةِ قبل أنْ يُفْرَضَ على قاتِل الملك المصيرُ الذي استحقّه. وإلا انتَقَلَتْ أراضيه إلى واحدٍ من عائلتِه، من عائِلةٍ مُعاديةٍ. والحالُ أنّه بالنظر إلى تلك الوضعية، فإنّ إديموند بالتأكيد، قد لا يَعْتَرِضُ قط على الذهاب إلى أراضٍ أكثرَ أماناً. ولعلّ بالإمكانِ شراءَ فورسفيك منه بِسِعْرٍ مُنخفضٍ. ولعلَّ التفاوضَ في شأنِها لنْ يكونَ مستَعْصِياً.

بِضحكاتٍ مُدوّيةٍ أظهرَ رَجُلا كنوت، جير إيرلندسين، وإلينغ لوفور، الذي كان اسمُه على مُسمّاه، أنهما قد فَهِما. وما لبث الجميعُ أنْ ضحِكوا إلى حَدّ الدّمْعِ، إلا آرن الذي لم يسعه أنْ يفهمَ دَواعيَ ذلك الضحكِ الصاخب.

ودقَّ الجميعُ قَدَحاً بِقَدَحٍ لفكرةِ إسكيل الرائعة، ووَعَدُوا بأنّ المسألةَ سوف تنتَهي على وَجْهِ السرعة. وبكيفية مُثمرةٍ للغاية.

«عزيزي إسكيل، لم يكنْ يسعك قط أنْ تُقدّم التماساً أكثرَ يُسْراً، قال جير إيرلندسين ما بين رَشفَتَيْ جعةٍ. وظني أنّ إديموند لومانشو لنْ يَجِدَ يُسراً في رَفْضِ ما عَرَضْتَه عليه، حتى وإنْ كان العَرْضُ دَنيئاً. بوسعكَ أنْ تَدَعَنا في هدوءٍ لِنُكْمِلَ الباقِي، ومن الممكنِ أيضاً أنْ تستردَّ جُزءاً كبيراً من مالِك!»

«بقدر ما أنا قائِدُكُم ومَلِكُكُمْ القادم، أُقْسِمُ بأنّنا سوف نُشَرِّفُ أهلَنا الأعزاء!» صاحَ كنوت إيريكسون. وانْصَهَرَتْ الضحكاتُ من جديدٍ، ولم

يفهمْ آرن مرّةً أخرى أيّ قَضايا سُوِّيَتْ حقاً.

قَبْلَ أن يتقدّم الليلُ كثيراً، اقترَح نرويجي آخر، إيفيند جونسون أنّ الأوانَ قد آنَ لِسَماعِ الشاعرِ وهو يروِي قصصَ الأجدادِ، ومواضيع أخرى تَرْفَعُ من هِمَّةِ العقولِ. وتقدّم الشاعرُ أورم رونفالسين، وانتظرَ أنْ يجلسَ كلُّ واحدٍ جلستَه المريحةَ وفي يَدِهِ كأسٌ من الجعة. توقّع أهالي فاسترا غوتالاند، بالتأكيد، قِصصاً عن حملاتٍ بحريةٍ نحو الغرب، لأنّ مثلَ تلك القصصِ مُحَبَّبَةٌ كثيراً. لكنّ الشاعرَ البطولي رَوَى حكايةً خُرافيةً مختلفةً تماماً.

حدث ذلك يوم الصّعود، وفيه كانت بشائرُ عِدّةٌ جَلِيّةٌ في السماء. في ذلك اليومِ كان القديس إيريك يَحْضُر قدّاساً في كنيسة الثالوث في أوسترا أروس، عندما أنذرهُ أحدُ الرجال. كان العدوُّ قريباً من المدينةِ، وكان لا مفرَّ من الذهابِ مع جيشٍ قويٍّ لمواجهتِه، مِنْ دون تأخيرٍ. فردَّ سانت إيريك على ذلك قائلا: «دَعْني أوّلا أُنْصِتْ في هُدوءٍ إلى هذا القدّاسِ العظيم. وأَمَلِي أنْ يتيحَ لنا الربُّ سماعَ كلامِه في مكانٍ أكثر مَهَابة». بعد ذلك سلَّمَ رُوحَه للربِّ، ورَسَم الصليبَ على صدرِه، وخَرج من الكنيسة، وحَمَلَ السّلاحَ كما حَمَلَهُ الرجالُ. وعلى رغمِ ضُعْفِ عَدَدِهم، فقد انطلقُوا في شجاعةٍ إلى مُلاقاةِ ذلك العدو.

العدوُّ ورّطَهم، ووَجّه قِواهُ كافة إلى شخصِ الملِك. وعندما أسقَط العدوُّ باسمِ الربِّ، الملِكَ الذي فُرِكَتْ يداهُ وجبينُهُ بالزيوتِ المقدسةِ، كبَّدَهُ جُروحاً عديدة. وعلى الرغم من أنه بات قريباً من الموتِ فقد أوسَعُوه في وَحْشِيّةٍ بُصاقاً وسِباباً. وبلا رحمةٍ قطَع إديموند أولفبان، مُرْتَزِقُ كارل سفيركرسون، رأسَ القدِّيسِ إيريك المبجَّل. وهكذا غادر القدِّيسُ إيريك الحربَ الظافرةَ من أجل السلام، ومملكَتَه في الدنيا، ليلتحِقَ بمَمْلَكةِ السماوات. لكنّ نَبْعاً من الماء ما لبث أنْ انفجرَ في المكان الذي سقطتْ فيه رأسُه. وهي إلى اليوم تَسِيلُ وتحمِلُ اسمَ الملِك. وقد حقّقَ ماءُ النَّبْعِ مُعجزاتٍ كثيرة. وهكذا يظلُّ سانت إيريك اليومَ حياً بينَنا، وسوف يظلُّ لقرونٍ من القرونِ حياً!»

عندما أنهى أورم رونفالسين نصَّه سادَ الغرفةَ صمتٌ ثقيل، وما من

أحدِ صفق الإبريقَ الصغيرِ على الطاولة ليُطالبَ المزيدَ من البِيرة. وطلب كنوت من آرن أنْ يتلو صلاةً قصيرةً لأبيهِ، وحتى تكتَسِي الصلاةُ قُوّةَ أكثر طلَبَ منه أنْ يَنْطِقَها باللاتينيَّةِ. واعتذر آرن لأنّ الحزنَ كان ما يزال يُكَدِّرُ صَفْوَهُ، وكان يكدِّرُ صفوهُ أيضاً شيءٌ أشبهُ بالغضب والسّخط.

كافأ كنوت إيريسكسون أورم رونفالسين، المتعلّمَ، لكي يُشيِعَ ذلك النصَّ في كلِّ بيتٍ يَقِفُ عنده. كان كنوت يريد ألا يَغيب أمرُ النصِّ عن أيِّ شخصٍ في البلاد.

في اليوم التالي جاء الصيدُ مُثمِراً في أرناس، إذ قُتِلَتْ ثمانيةُ ذئابٍ. وما مِنْ شيءٍ كان أفضلَ من تلك الجلودِ للوقايةِ من بردِ الشتاءِ.

* * *

كان قداسٌ كبيرٌ سيقامُ في كنيسة هوسابي، وهي كنيسةٌ مَلَكِيّة. لكنْ ما من مَلِكٍ واحدٍ سيحضُر ذلك القدّاس، لأنّ كلَّ رجالِ فاسترا غوتالاند كانوا يُعارِضُون المَلِك. وفي المقابلِ كان كارل اللغمان، وهو أعلى سُلْطةٍ في البلادِ، سيحْضُرُ ذلك القدَّاسِ. وبالتالي سيحْضُرُ الفولكونغر قُدَّاسَ أعيادِ الميلادِ في هوسابي، وليس في كنيسَتِهِم في فورشيم.

قبلَ ذلك الموعدِ بأيامٍ قليلةٍ بَعَثَ راهبُ فورشيم رسالةً حملَها أحدُ الرجال. لقد تلقَّى طلباً من راهبِ هوسابي، لأنه كثيراً ما تفاخَر بامتلاكهِ لمنشدينَ ماهِرين في أثناءِ قُدّاساته. هل سيطيبُ لآرن الحضورُ قبل الموعدِ إلى هوسابي للتدرّبَ مع الكورس، حتى يكون قدَّاسُ أعيادِ الميلادِ أفضلَ؟ فكّرَ آرن أنه لا يملكُ رَفْضَ ذلك الطلبِ المطبوعِ بطابع المسيحيَّة. إذْ تخلى عن مجرفتِه وتهيّأ من دون تأخيرٍ لِرُكوبِ الخيل وشَدِّ الرِّحالِ حتى هوسابي. رَغِبَ ماغنوس في أن يُرافقَهُ حُرّاسٌ، لأنَّ مَنْ يتوصّلُ إلى قَتْلِ آرن سوف يَكْسِبُ شهرةً ذائعةً، ومِنْ ناحية أخرى سوف يَنْظُرُ السفيركر إلى موتِه بِعَيْنٍ راضِيةٍ. لكنّ آرن رَفَضَ قائلا بأنّ لا أحدَ يجرؤُ على التصدّي له في وَضَحِ النّهار.

ضَحِكَ ماغنوس لذلك، لأنه أدركَ أنّ خطأَهُ في حقِّ حِصانِ آرن كَمِثْلِ خطئِهِ في حَقِّ سيفِه، وكمثلِ خطئِهِ في حَقِّ مواهبِ آرن في استعمالِ ذلك السيفِ وفي رُكوب ذلك الحصان. واعتذَرَ ماغنوس لكلِّ ذلك ولم يَبْقَ عندهُ ما يُضيفُه إلى تلك النقاط.

انطلقَ آرن عند فَجْرِ اليوم التالي، مُجَهَّزاً خيرَ الجِهازِ، ومُدَثَّراً بجلودِ الذئابِ، وهو يحمِلُ في جعبتِه ثياباً كهنوتية. كان البردُ قارساً، لكنه ظلَّ يسيرُ بسرعةٍ طيّبة، وبذلك ظلّ خيمال وهو نفسُه يحتفظانِ بِدِفْئِهِما ولم يَعْرِقَا. وقد وصلا إلى هوسابي عند منتصفِ النهارِ. وبعد أنْ اقتادَ خِيمالَ إلى الإسطبلِ وكَسَرِ رَمَقَهُ في الدير، توجَّه آرن نحو الكنيسة، وهي أكبرُ كنيسةٍ في فاسترا غوتالاند، بعد كاتدرائيَّة سكالا، تعلُوها أجراسٌ هائلَةٌ شُيِّدَتْ في عُصورٍ غابرة.

كان آرن رائِقَ المزاجِ، لأنه يحبُّ الغِناءَ كثيراً. وفوق ذلك ففي ظنِّهِ أنّ كلَّ الناسِ يحفظون تراتيلَ أعيادِ الميلاد عن ظهْرِ قلبٍ، وأعيادُ الميلادِ بالتأكيد لحظةُ ابتهاجٍ تجعلُ الإنشادَ يسيراً، حتى وإنْ ظلَّ المُنْشِدُونَ بلا مُراجعةٍ زَمَناً طويلا.

غير أنّ آرن لم يكنْ في هذا الكورس وحدَهُ مَنْ تَلَقّى تكويناً في الإنشادِ على يدِ السيسترسيين. ففي خلالِ السنوات الأخيرةِ تدرَّبَتْ سيسيليا بَالْسدوتر، على الغناءِ، بالفعل، في دير غوديم، بالقربِ من هورنبورغشون مع أختِها كاتارينا.

سَمِعَ آرن صوتَها منذ اللحظةِ التي دَخَلَ فيها إلى الكنيسةِ الباردة. هذا الصوتُ الواضحُ النقيُّ هو الذي هَيْمَنِ على الأصواتِ جميعاً. توقّف آرن، مُنذهلا، وأَصْغَى. لم يسبقْ أن سَمِعَ أصواتاً بهذا القدرِ من الجمالِ، وحدّثَ نفسَه أنّ صوتاً نَدِياً من غلامٍ يتألّقُ بهذه الكيفيةِ في قلْب الكورس رُبّما حَقَّقَ التأثيرَ نفسَه في فيتا شولا. لكنَّ صوتَ تلك الفتاةِ كان أجودَ بكثير، ففي صوتِها المزيدُ من الطبقاتِ، ومنَ الحياةِ أيضاً.

وَقَفَ بعيداً عن المُنْشِدِينَ، ولم يَعْرِفْ صاحبَ ذلك الصوتِ الرباني.

في الحقيقةِ لم يكنْ أمرُ ذلك الصوتِ يُشغلُ بالَهُ كثيراً، وقد ظلَّ يُمْعِنُ النظرَ في الحجارةِ حتى يلتقِطَ كلَّ درجةٍ من درجاتِ الموسيقى.

وعندما غنَّى الكورس أربعةً من مقطوعاتِ الترتيلِ الستة عشر، توقّف الراهبُ قليلا لِيُصحِّحَ خطأً من الأخطاءِ ويؤنِّبَ واحداً من المنشدين في الصوتِ الثاني. وانتهزَ آرن هذه الوَقْفَةَ لكي يُحيِّي الراهبَ ويَنْحَنِي في خَجلٍ نحو المنشدين.

وإذا به يَرَاهَا لأوّلِ مرّة. كان وكأنه يرى بِرْجِيت للمرَة الثانيةِ على ضفافِ خليج ليمفجورد، بِرْجِيت وقد صارتْ كبيرة، بِرْجِيت التي كلّفته الكثيرَ من العِقابِ وكادت تَدْفَعُهُ إلى الشِّجارِ مع الأبِ هنري فيما يتصلُ بمعنى الحبِّ الحقيقي. كان شَعْرُها أَصْهَبَ كما عَهِدَهُ، يُمْسِكهُ ذَنَبُ الحِصانِ المُتَدَلِّي على ظَهْرِها، ونفس العَيْنَيْنِ العَسَلِيّتين الفاتحتين، ونفس السِّماتِ التي يَطْبَعُها شُحوبٌ ناعمٌ. كاد يَلْتَهِمُها بِعَيْنَيْهِ لأنها أَلْقَتْ إليه بابتسامةٍ مُداعبة، لِتُبَيِّنَ بذلك أنها اعتادَتْ أنْ يراها الناسُ على ذلك النحو. لم تكنْ تعرفُ هُويَّتَهُ، إذْ اكتفَى الراهبُ بالقولِ إنه طلبَ حُضورَ مُنْشِدٍ إضافي. وفضلا عن ذلك فلم يكنْ يعرفُ إنْ كان واحداً مِن أبناء أرناس سَيُكَلِّفُ نفسَه بالمجيءِ إلى شيءٍ زهيدٍ جداً مثل التراتيل.

كان راهبُ هوسابي مغتبطاً. وما انفك زميلُه الفظُّ في فورشيم يُطري بِلا استحياءٍ مواهبَ آرن، ولو أنّ هذا الأخيرَ ولو نِصْفُ المواهبِ التي وُصِفَ بها لكان قُدّاسُ أعيادِ الميلادِ بَلَغَ من الجمالِ ما لم يَبْلُغْهُ من قبلُ بتاتاً، ما دام الكورس أصبح يضمُّ مُنشداً نَدِيّاً عالي الموهبة. ولَمّا كان الراهبُ راهباً يحبُّ المزحةَ والمفاجآتِ فَلَمْ يتمالَكْ عن إعدادِ طُرْفةٍ صغيرة.

قال في إيجازٍ إنّ مُنشداً من مُنْشِدي خورنيةِ فورشيم جاءَ لِيُقابِلَه – رأى آرن في ذلك طريقةً لتقديمه غايةً في الغرابة – وأنّ الكورس سَيُنْشِدُ الترتيلَ نفسَه، لكنْ بِمُنْشِدَيْنِ اثنينِ لا ثالثَ لهما، مُنشدٍ واحدٍ لكلِّ صوت. وأشار إلى سيسيليا التي خرجَتْ من الكورس وتأمَّلَتْ في تَسَلٍّ مُزارِعَ فورشيم الذي كان يَرْمُقُهَا طولا وعَرْضاً.

فَهِمَ آرن أنها هيَ مَنْ تملِكُ ذلك الصّوتَ ذا الجمالِ الرباني، فأخذ يحدِّقُ فيها أكثرَ فأكثَر.

عندئذ أطاعتْ سيسيليا أَمْرَ الراهبِ وأَخَذَتْ تُنْشِدُ منفردةً الصوتَ الأوّلَ بنغمةٍ عاليةٍ جداً، حتى تَضَعَ ذلك المُنْشِدَ القادِمَ من فورشيم في مكانهِ الصحيح.

لكنها ما لبثت أنْ سَمِعَتْ، أو بالأحرى شَعَرَتْ بِكاملِ بَدَنِها أنّ ذلك المُنشِدَ الجديدَ يَضَعُ صوتَه قريباً جداً من صوتِها. فقد أَتْقَنَ مُواكبتَها حتى بَدَا وكأنَ صَوْتَيْهِما يَتَعَانَقَانِ في يُسْرٍ يُوحِي بأنهما قد أَلِفَا الغناءَ معاً. ولم يجدْ آرن بُدّاً مِنْ أنْ يرفعَ رأسَهُ، وكانت نظراتُهُما إذا الْتَقَتْ تخالُ وكأنَّ صوتَ الربِّ ينبثِقُ من فاهِ الآخر. عندئذٍ أخذتْ تُنغِّمُ لَحْنَها تَنْغِيماً، فتجعلُه مُعَقَّداً أيما تعقيدٍ، لكنه ما انفكَّ يُواكبُها بِذاتِ السهولةِ. وعند ذلك الحدِّ صارا لا يُعيرانِ بَاقِي أعضاءِ الكورس والراهبَ أيّ اهتمامٍ، لكنهما لم يَلْحَظَا كَمْ انبَهَرَ الآخَرُون بذاك الجمالِ كُلِّهِ، لأنّ نظراتِهما لم تَفْتَرِقا قبلَ الانتهاءِ من مقاطعِ الأغاني الستّة عشرة.

سارتْ التدريباتُ في ذلك اليوم سَيْراً طيباً. كان مزاجُ راهبِ هوسابي رَائقاً فأبْدَى نحو كلِّ واحدٍ لطفاً لم يَعْهَدْهُ منه أحدٌ من قبلُ حتى عندما يضطرُّ لأنْ يُوقِفَ أحداً عند حدّه. كان كلُّ واحدٍ على يقينٍ بأنّ تلك التراتيلَ المُبْهِجَة والبسيطة رائعة، لأنّ القدراتِ كانت كبيرةً مع مثل ذَيْنك العازفين المُنفردَين والكورس.

كان الجميعُ فَرِحينَ ورَاضِين ساعةَ العشاء. وعلى الفور انطلق آرن وسيسيليا اللذان لم يُتَحْ لهما الحديثُ من قبلُ، في مناقشةٍ حيويةٍ، إذْ رَغِبَ كلٌّ منهما في معرفةِ أَيْنِ تعلّم الثاني فَنَّهُ، وسرعان ما استفاضَا في الحديثِ عن دير غودهيم، وفيتا شولا، وفارنيم. ثم خَرَجَا إلى ساحةِ الكنيسةِ من دون أنْ تُفارقَ نظراتُ كليهما الآخرَ.كان حارِسا سيسيليا ينتظرانِها مع معطفِها وحِصانِها، إذْ كانا سيُرَافِقانِها إلى حصنِ هوسابي، لأنّ ألغوت قرّر أنها لن تتناولَ عشاءَها في ذلك المكان.

قام أحدُ الحارسين بخطواتٍ فظةٍ نحو المنشدِ الصغيرِ الذي دنَا كثيراً من تلك الفتاةِ التي كان مأموراً بالسّهرِ على فَضيلتِها. بيد أنّ الحارسَ الثاني الذي حَضَرَ لاندستينغ أكسيفَلا، ما لبث أنْ أمسكَ بذراعِهِ، ثم تجاوَزَهُ وانحنَى في أدبٍ جمٍّ أمام سير آرن أرناس.

كان وكأنّ سيسيليا ألغوتسدوتر قد جُرَّتْ جرّاً مِنْ قَلْبِ مُحادثتِها المحبّبة حول الغناءِ في الدير، إذْ خالتْ أنها لم تسمَعْ جيداً ما قيل. فذاك الشابُ الظريفُ، بنَظراتِه الناعمةِ، لا يمكنُ أنْ يكونَ ذلك الرجلَ القويَّ الذي يتحدّثُ عنه الناس في كلِّ أنحاء فاسترا غوتالاند.

«ما اسمك، أيها المغنِّي الشاب؟» سألتْ بصوتٍ متردّد.

«أنا آرن ماغنوسون من أرناس» أدرك آرن أنها أوّلُ مرّةٍ يقول فيها اسمَه الحقيقي. «وأنتِ، مَنْ أنتِ؟ أضاف وهو يُغْرِقُ نظرَه في نَظَرِ سيسيليا.

«أنا سيسيليا ألغوتسدوتر هوسابي»، قالت في خجلٍ، مُحْدِثَةً في آرن انطباعاً قوياً قُوّة الانطباع الذي أحدثَه فيها وهو يقولُ اسمَه. وفَهِمَ كلاهما عندئذ بأنّ الربَّ بلا شكٍّ هو الذي جمعَهما، بِالقوةِ نفسها التي التَقَى صوتُهما بها وامتزَجا في أثناءِ التراتيل.

* * *

ما مِنْ أحدٍ سيَنْسَى قُدَّاسَ أعيادِ الميلاد في كنيسةِ هوسابي في عام البركة ١١٦٦. فكلُّ واحدٍ يقرُّ أنه ما سمِع مِنْ قبلُ تراتيلَ شكرانٍ أجمل من تلك التراتيل في تمجيدِ الربّ. كان وكأنّ التعبَ الذي يشعرُ به الناسُ في قُدَّاسٍ طويلٍ لم يجدْ مكاناً في ذلك القُدَّاس بعينِه.

وإذْ أخذ كلُّ واحدٍ يتأمّلُ الشابَّ فولوكنغر الأشقر، في مِعْطَفِه الأزرق، والشابَّةَ بالْ الصهباء وهي تحمِلُ لَوْنَ بَيْتِهَا الأخضر، وهُما يُغَنِّيَانِ في غبطةٍ وقوّة كبيرتَين، لاحظَ بوضوحِ الغاياتِ التي كان الربُّ يُغذّيها لهذين الشابَّين. وإذا لم يلاحظْ والِدا الشابَّين ذلك، فما أكثرَ الناس الذين أَخْبَرُوهُما بذلك في

أثناء الوَليمةِ في حصنِ هوسابي. فكلٌّ واحدٍ رأى بوضوحٍ أنْ لا المال ولا الأعمال يمكن أنْ تقفَ ضد تلك الغاياتِ، مثلما أدرك كلٌّ واحدٍ إلى أيِّ حدٍّ كانت وضعيةُ ألغوت غاية في الصعوبة. كان الأمرُ وكأنّ السيدَ اليسوع يُخاطِبُ الجمعيةَ خِطاباً مباشراً عندما كان صوتُ الشابّين السماوِيَيْن ينشرُ نَبأَ أعيادِ الميلاد السعيد: إنّ الحبَّ هو ما يُصالح، الحبّ هو ما يُلغِي الشرَّ، ولَكَمْ كان الحب الذي رأوه وسمعوه في أثناء ذلك القداسِ قوياً وجَلياً!

رأى ألغوت بالسون ذلكَ تماماً مثلما رَآهُ كلٌّ الأشخاص الأقلّ رُتْبَةً منه في الكنيسة. فبصفته وزيراً للمَلِكِ في حِصنِ هوسابي، كان يجلسُ في الصفّ الأوّل، برفقةِ اللغمان كارل إسكيلسون، وسير ماغنوس. وكان ما رآه يملؤهُ أمَلا. لكنه كان يعرفُ عن خِبْرةٍ أنّ سير ماغنوس وابنَه إسكيل لا يَرْحَمَانِ في التجارة. وفوق ذلك صار آرن منذ ذلك الوقتِ يُثِيرُ كثيرَ إعجابٍ، وصار صديقاً مُقَرَّباً من كنوت إيريكسون الذي كان موعوداً لمستقبلٍ مَلَكِي. فمن هذه الناحيةِ إذاً كان الأملُ مُعرّضاً لأنْ يستحيلَ رَماداً. فلعل أُناسَ أرناس يفكّرون في طرفٍ أكثرِ شُهرةً، ولعلهم يُريدون ربْطَ الفولكونغر والإيريك بِصلاتٍ أشدَّ وأقوَى، ولعلهم يُفكرون في ابنةِ ملكٍ نرويجي. أما أحلامُ سيسيليا وآرن الجميلةُ فلن تُؤثّرَ كثيراً عندما تصيرُ الرهاناتُ جادّة.

ظل ألغوت بالسون يتأرجَحُ إذاً بين الأمَلِ واليأس وهو يدْرُسُ الفُرصَ المتاحة. وكان يضطربُ أيضاً عندما يفكّر في الوليمة التي كان سيُقدّمها، لأنّ الأمرَ كان وكأنه يحرقُ كلَّ مراكبِه، على غرارِ أجدادِ الحكايات النرويجية الخرافية، عندما كانت العودةُ أمراً مستحيلا.

كان واحدٌ من واجباتِ ألغوت أنْ يسهرَ على تمكينِ الملكِ من المجيءِ إلى الحصنِ كلما طابَ له المجيءُ، مع ما يراهُ من حاشيةٍ مُهِمَّة، لكيْ يستمتِعَ فيه بما يطيبُ له من وَقْتٍ. فخليقٌ بالحصنِ المَلَكِي أنْ يكونَ قادراً على تقديمِ وَلِيمَةٍ كبرى في أيّ وقْتٍ.

إذا كان الملكُ كارل سفيركرسون قد بعثَ رسالةً حتى يُنْبِئَ بِقُدومِه

إلى قُدّاسِ أعيادِ الميلادِ مع حاشيتِه، مثلما فَعَلَ ملوكٌ آخرون من قبلِه، فإن الأمرَ لا حَرَجَ فيه. لكنَّ لو أقدمَ على المجيءِ لكانَ في قُدومِه خطرٌ وعدمُ حيطةٍ، وحسبُنا في ذلكَ أنْ نُفكّرَ في ما تعرّضَ له سفيركر، والِدُ الملكِ، وهو في طريقِه إلى هوسابي تحديداً. وفوق ذلك فإنّ فاسترا غوتالاند ليست في الوقتِ الحالي أرضاً آمنةً لعائلَةِ السفيركر.

في المقابل، كان الفولكونغر، وعلى رأسهم اللغمان وأسيادُ أرناس، وحُرّاسُهم العديدون، قد قالوا بأنهم سيحتَفِلون بأعيادِ الميلادِ في هوسابي، وكأنَّ مزايا المَلِكِ صارتْ مَزاياهُم. وقد كان من الصّعبِ الردُّ بِـــ لا، لاسيما في حالِ التذرُّعِ بالسببِ الحقيقي الوحيد، وهو أنّ ذلك الحصنَ مِلْكٌ لكارل سفيركرسون، وليس لعائلةِ الفولكونغر. فلو قِيلَتْ الحقيقةُ لحَكَمَتْ بِمَوْتِه حتماً.

لكنَّ القبولَ بما فَعَلَهُ ألغوت بالسون كان يمكنُ أنْ يُكلِّفَهُ حياتَه أيضاً. فالآن صار الشتاءُ في عِزِّه مع كثيرٍ من الثلج، وما مِنْ جيشٍ ملَكيٍّ يمكنُ أنْ يأتيَ قَبْلَ الربيع. وقد لا يأتي. لكنْ إذا جاء الجيشُ الملكيُّ وانتصرَ فسيكون من الصعبِ أنْ يفسرَ أحدٌ لماذا كان في وُسْعِ المغلوبِ أنْ يأكلَ الاحتياطي الملكي في الحصن الملَكي. إذاً، لم يَبْقَ أمام ألغوت بالسونْ سوى أنْ يأمُلَ في انتصارِ الفولكونغر في الربيع، وإلا فلَنْ يَحْيَى بعد ذلك وقتاً طويلا. لم يَبُحْ بكلمةٍ واحدةٍ من هَمِّهَ لابنتِه سيسيليا، وكان على يقينٍ بأنها لم تفهَمْ شيئاً ممّا كان يجري.

بيد أنّ الوليمةَ كانت ناجحةً جداً. صحيحٌ أنّ ألغوت بالسون قلَّما شَعَرَ بالراحةِ في البدايةِ، مع اللاغمان الجالسِ إلى جانبِه، وفولكونغر أرناس الثلاثة في المقاعدِ الشَّرَفِيّة. وفضلا عن ذلك، لم يتردّدْ المدعُوُّون في التعبيرِ عن رأيِهم في كَرَمِ ضيافةِ المَلِك. بل ولم يتردّدوا حتى في الشُّرْبِ على صِحَّةِ الملكِ أيضاً، وفي الضحكِ بصوتٍ عالٍ أكثرَ فأكثر.

لم تجدْ سيسيليا وآرن أيّ فرصةٍ لأنْ يَلْتَقيَا على انفرادٍ في أثناءِ الوليمة. كان في وُسعِهما أنْ يتخاطبا بالنّظراتِ، إذ لم يكنْ يفصلُ بينهما سوى بِضْعِ

خطواتٍ ليس إلا. لكنّ الذي كانا يَتَبادَلانِه على ذلك النحو لم يكنْ ليُخْفى عن أعين الجميع.

ما لبث ماغنوس وإسكيل أنْ فَهِما أنَّ على عاتِقِهما مشكلةً جادَّة. لكنْ لا المكانُ ولا الوقتُ كانا يَسْمَحانِ بِتناولِ الموضوعِ مع آرن، أو فيما بينَهما.

بعد أعيادِ الميلاد في هوسابي، شدَّ الفولكونغر وحُرّاسُهم الرحالَ نحو الجنوب، وتوجَّهوا إلى إريكسبيرغ لقضاءِ بضعةِ أيامٍ عند عائلةِ جيدفرسون، وكنوت إريكسون، وعائِلَتَيْهِما.

وَصَلُوا إلى أرناس وهُم مُتْعَبونَ مِنْ مُتَعٍ كثيرة. لكنّ كنوت إريكسون ونَرْوِجِيّيهِ العُدوانيّين ما لَبِثُوا أنْ جاؤوا إلى أرناس. وإنْ هم أكّدُوا أنهم قادِمون للصيدِ، فقد كان عَتادُهُم يقول غيرَ الذي كانوا يَدّعُون.

وفضلا عن ذلك لَمْ يكنْ الوقتُ مناسباً للصيدِ، وهو ما كان، على ما يبدُو، مناسباً جداً لكنوت إريكسون، إذْ كان لديه الكثيرُ ممّا كان يريدُ مُناقشتَه مع الفولكونغر. كان يرغبُ في أنْ يتعرّفَ من إسكيل على القضايا التي كان مِلكُ سفيرْ والغوتارْ، القادم، سيُكَرِّسُ جُهودَه لها. كان لإسكيل الكثيرُ ممّا يمكنُه قولُه في هذا الشأن، وقد شرَح في البداية أنّ الذي سوف يُصبِح مَلِكاً على سفيلاند وأوسترا غوتالاند، يجبُ أنْ يُتاجِرَ أكثرَ مع الساكسن ولُوبيك. فلم يَفْهَمْ أحدٌ بالفعل أيَّ مَنْفَعَةٍ يمكنُ جَنْيُها منْ مدن بحر البلطيق، وكأنّ البلطيقَ ينتَهِي عند الحُدودِ مع الدنمرك. لقد أضحى هذا الطريقُ التجاري طريقاً مُربحاً كثيراً، لاسيما لو أُبْرِمتْ عقودٌ مع لوبيك، من أجلِ تحقيقِ الأمنِ. كما يجبُ السّهرُ على صَكِّ عُملات مَلَكِيّة جديدة، لأنّ زمنَ مُقايَضَةِ الفروِ بمنتجاتٍ أجنبيةٍ قد وَلّى إلى ما لا نهاية. ثم لا بد من إنشاءِ طريقٍ تجاري ما بين النرويج وشرقِ المملكة، وهو الطريقُ الذي سيَمُرُّ بِبُحيرةِ لودوز وبُحَيْرَةِ فانيرن، وأرناس، وأخيراً بحيرة فاتيرن. وسوف يُتيح هذا الطريقُ في يُسرٍ تجارةَ أسماكِ لُوفوتين الجافة، التي يمكنُ شراؤُها مقابل لا شيءٍ تقريباً، ثم بَيْعُها مقابل أرباحٍ جيدةٍ جداً.

تحمّس كنوت إريكسون كثيراً لفكرةِ هذه الأعمال، وقال إنّ إسكيل

سيكون مستشارَه الرئيسي في كافةِ مسائلِ التجارةِ والمالِ، لمجردِ حُصولِه على التيجانِ الثلاثة.

لكنْ، في تلك اللحظةِ كان ثمةَ مسألةٌ مُلحَّةٌ: إديموند لومانشو. فأراضيه في فورسفيك تشكلُ بالفعلِ الحلقةَ الناقصة على الطريقِ الذي يربطُ النرويج بسفيلاند وأوسترا غوتالاند. لكنْ ما دامت المسألةُ ستعودُ بالفائدةِ الوفيرةِ على أحدِ الطرفَين، وبفائدةٍ أقلَّ كثيراً على الطرفِ الآخر، فقد أكّد إسكيل أنه لا بد مِنْ تَسْوِيَتِها بواسطةِ الطريقة الجديدة، وهي العَقْدُ. لقد توفَّرَ الكثيرُ من الرقِّ ــ جلد حيوان، يُكتب عليه، ويستعمل لتجليد الكتب ــ في أرناس لتحريرِ ذلك العَقدِ، وقد سُئِلَ آرن إنْ كان يحسنُ التصرُّفَ في الأمر. وقال آرن الذي عَمِلَ أحياناً في ديوانِ مُطرانيَّة فيتا شولا، وفي فارنيم، أنّ الدّيرَيْنِ كثيراً ما كانَا يلجآنِ إلى عُقودٍ من ذلك النّوع. إذْ يكفي أنْ يُقالَ له مَنْ المشتَري، وماذا يشترِي، وممَّنْ يشتري، وبأيّ مبلغٍ، لِيُحَرّرَ العَقْدَ من دون تأخير.

استمع آرن في إيجازٍ إلى تعليماتِ إسكيل، ثم صَعَدَ إلى البُرج، وأخذَ ما كان يحتاجُ إليه في الغرفةِ التي يُحتفَظُ فيها بدَفاترِ الحِسابات، ثم اختفَى طوَال اليوم. وعند العشاءِ جاء بِعَقْدٍ جميلٍ مكتوبٍ على الرقِّ، ووَضَع عليه خَتْمَ ماغنوس فولكسون. ولَمّا كان العَقْدُ باللاتينيَّةِ، وما يليقُ به أنْ يكون ليكونَ صالحاً، اضطرَّ آرن لترجمتِه مراتٍ عديدة إلى اللغة العامية:

باسمِ الثالوثِ المقدّس، أنا ماغنوس، سير أرناس، وابْنَايَ إسكيل وآرن، نُعلِنُ إلى كُلِّ شخصٍ على قيدِ الحياة، أو مَنْ سيولَدُ مستقبلا، بأنّ الخلافَ المُشينَ ما بين إديموند أولفبان، وبيننا وأبنائنا، قد انتهَى منذ الآن، وبأننا قد أنْهَيْنَا هذا الخِلافَ بفضل الله ومُوافقةِ كلِّ واحدٍ، وعليه سيتنازَلُ لنا إديموند أولفبان عن مزرعةِ فورسفيك، مع مُروجِها، وغاباتِها، ومياهِ الصيدِ وكافةِ المنافعِ التابعةِ إليها، لِتصبحَ هذه مِلْكِيَّتَنا من دون قيدٍ أو شَرْط. وسيُدْفَعُ خمسون ماركاً من الفضةِ لإنجازِ هذا الاتفاقِ، إنجازاً كاملا.

بِعَوْنِ الربِّ، نحنُ، كنوت إيريكسون، مُنَظِّمُو هذه الدورةِ، وهذا الاتفاق، حَضَرْنا هذه الدورة، بحُضورِ العديدِ من الشُّهود. وحتى يُصبحَ الأمرُ

مُصَدَّقاً عليه ومؤكَّداً، قُمنا بإبرام هذا العَقْد، وعليه ختمُ ماغنوس، وكنوت، وبموجبِ السُّلطةِ التي تلقَّيْناها من سيِّدِنا المسيح، ومِنْ أُمِّه القدِّيسة ماريا العذراء، ومن كافةِ القدّيسين، فنحن سوف نُبْعِدُ كُلَّ مَنْ يُهاجِم أو يُهاجِمونَ هذا الاتفاق. ويشهدُ عليه أيضاً إسكيل وآرن ماغنوسون، وإيفيند جونسون، وأورم رونفالسين، ورنيار عميدُ فرشيم، والعديدُ من الآخرين الذين لا نرى ضرورةً لِذِكْرِهم جميعاً، لِكَثْرَتِهم.

ما لبث انفجارٌ حادٌّ أنْ انفجرَ بعد أنْ قرأ آرن النصَّ ثلاثَ مراتٍ حتى يفهمَ كلُّ واحدٍ فحواهُ حقَّ الفَهْمِ. لقد اعْتَبَرَ الآباءُ النرويجيون أنه لا بد من نِداءِ إديموند باسمِه الحقيقي: المانشو. لكنّ ماغنوس اعترَضَ على ذلك، قائلا إنه من المحتمَلِ أكثرَ أنْ يضَعَ إديموند خَتْمَهُ على وثيقةٍ تُعرِّفُه باسم إيموند أوليفبان. فحتى وإنْ كان «المانشو» ينطبِقُ على الحقيقةِ أكثر فإنّ الأمرَ قَبْلَ كلِّ شيءٍ يتعلَّقُ بإبرامِ قَضايا وليس بتوجِيه شَتيمَة، حتى وإنْ جاءتْ عن وَجْهِ حَقّ. وفي النهايةِ تَمْتَمَ الكبارُ بأنَّ كلَّ ذلك لا يُلْغِي الحُكْمَ بالموت.

بعد ذلك لم يرغبْ كنوت إيريكسون في أنْ يُعرَّفَ باسمِ عائلتِه وحسب، ولكنْ بِلَقَبِ rex sveorum و gothorum أيضاً. كان آرن هو الوحيدَ الذي يفهمُ تلك الكلماتِ، لكنّه اعترَضَ على ذلك قائلا إنه حتى وإنْ أصبحَ ذلك حقيقةً فإنّ الوقتَ غيرُ مناسبٍ للإعلانِ عنه بِصوتٍ عالٍ، لأنّ ذلك يعني «بَيْعَ جِلْدِ الدُّبِّ قبل قَتْلِه.»

لا أحدَ فَهِمَ شيئاً في تلك المشاجرةِ قبل أنْ يشرَحَ آرن أنّ تلك الكلماتِ تَعني «مَلِكٌ على عائلتَيْ السفيرْ والغوتار». وتحدّث ماغنوس وأعلنَ أنّ كافةَ الأشخاص الموجودِين يتمنّون بطبيعةِ الحالِ أنْ يكون الأمرُ كذلك في مُستقبلٍ قريبٍ، لكنَّ الكثيرَ من عائلةِ سفيرْ، ومِنْ عائلةِ غوتار يجهلونَ ذلك الأمرَ في الوقتِ الحالي، ويعتَبِرُون أنّ كارل سفيركرسون هو مَلِكُ سفيلاند وأوسترا غوتالاند. إذاً، فذلك العَقْدُ سوف يكتسِبُ مِنْ القيمةِ بِقَدْرِ ما يُعَبِّرُ عنْه من حقيقةٍ صارمة. إنّ كنوت إريكسون هو كنوت إريكسون، وسوف

يظلُّ كنوت إريكسون، حتى عندما يَصير مَلِكاً. فلو وُضِعَ خَتْمَهُ على هذا العَقْدِ فسيكون لهذا العَقْدِ القيمةُ نفسُها إلى الأبدِ، حتى من دون إضافةِ الكلماتِ الأربع.

ولَمّا لَمْ يَبْدُ على كنوت أيُّ رغبةٍ في التنازلِ في هذه النقطة، أكّد آرن أنه قد تحدَّثَ كما لو كان كنوتْ مَلِكاً حقاً، حتى وإنْ كانت الصيغةُ مُلْتَبِسَة. وأعادَ إذاً قراءةَ الوثيقةِ في كثيرٍ من التأنّي.

«... بموجبِ السُّلطةِ التي تلقَّيْناها من سيِّدِنا المسيح، ومِنْ أُمّه القدّيسة ماريا العذراء، ومن كافةِ القدّيسين، فنحن سوف نُبْعِدُ كُلَّ مَنْ يُهاجِم أو يُهاجِمونَ هذا الاتفاق..»

وشرح آرن أنه لو قُرِئ هذا الـــ «نحن» وكأنه يعني كنوت إريكسون وحده، ففي هذه الحالةِ يكون كنوت قد استمدّ سلطتَه من الربِّ، وهو ما ليس مُتاحاً إلا لِمَلِكٍ وحده. وفضلا عن ذلك، فإنّ الملكَ وحدهُ هو الذي يستطيعُ أنْ يحكُمَ على شخصٍ من الأشخاصِ بالإبْعَادِ. بالإمكانِ بالتأكيدِ أنْ يُفْهَمَ الضميرُ «نحنُ» وكأنه يعني مجموعَ الأشخاص المعنيّين، وفي هذه الحالة أنْ يُفْهَمُ التهديدُ بالإبعادِ وكأنّ مجموعَ الموقِّعين يعتقِدُون بأنهم قادرون على إقناع الـــ تينغ بإصدارِ مثلِ هذا الحكم. من المؤكد أنه لم يكنْ من السهلِ القولُ كيف يُفَسَّرُ ذلك، لكنْ ذلك تحديداً ما نَوَاهُ آرن. كان هدفُه أنْ يقولَ بأنّ كنوت هو المِلكُ بفضلِ من الرب، لكنْ منْ دون الإفصاحِ عنه.

وطابَ ذلك لكنوت الذي مَدّ الخَتْمَ لآرن وطلَبَ منه أنْ يُوَقِّعَ به على الوثيقة. ولم ينقُصْ سوى خَتْمِ إديموند. لكنّ الجميعَ اعتبَرُوا أنّ المسألة سوف تنتهِي قريباً، حتى وإن جَهِلَ إديموند كلَّ شيءٍ عن المسألةِ التي كان سَيُوَقّع عليها.

ومنذ اليوم التالي توجّه إسكيل وكنوت، والحُرّاسُ النرويجيون، ونصفُ حُرّاسِ أرناس إلى فورسفيك لأجلِ ذلك الغرض. وسأل آرن عن سِرّ كلِّ ذلك التسلُّحِ، فيما الأمرُ يمكنُ تَسْوِيَتُه بهدوءٍ بموجبِ مَبْلغٍ من الفضة. وردّ عليه إسكيل بالقول إنّ أفضلَ وسيلةٍ لتفادي المشاكلِ هو الحِرْصُ على

ألا يكونَ للطرفِ الآخر مثلُ تلك النوايا. وحول هذه النقطةِ سوف يكون للحُرّاس النرويجيين تأثيرٌ رادعٌ قوي. وفوق ذلك يجب أنْ يكون إديموند في صحةٍ جيدة، وفي حالاتٍ ذهنيةٍ طيبةٍ عندما يضع خَتْمَه على العَقد ، وإلا ذَهَبَ كلُّ شيءٍ أدراجَ الرياح. وظنّ آرن أنه قد فَهِم فَهَدَأ رَوْعُه.

في تلك اللحظةِ انْتَحَى به كنوت ناحيةً وقال له أنْ لعلَّ مِنْ غَيْرِ الحِكمةِ أنْ يُرافِقهم آرن، لأنّ وجُودَه قد يُحدِثُ أثراً سيئاً على إديموند. فالأمرُ قبل كُلِّ شيءٍ أمرٌ مرتبطٌ بالأعمالِ، والحالُ أنّ الأعمالَ شأنٌ من شؤونِ إسكيل، أكثرَ ممّا هي شأنٌ من شؤونِ آرن. لكنْ سوف يأتي قريباً وقتٌ تكونُ فيه مواهِبُ آرن أكثرَ نَفْعاً من مواهبِ إسكيل.

وَافقَ آرن من دون أيِّ عَناءٍ وبِسرعةٍ دَهِشَ لها كنوت كثيراً. كان آرن يحمِلُ مشاريعَ أخرى، وفي حَذَرٍ شرَحَ أنه فيما يُعالجُ أقارِبُه قَضاياهُم على ضِفَّتَيْ فاتيرن، فهو سيتّجِه إلى هوسابي. وعلى الفورِ فهِمَ كنوت قَصْدَه، لأنّ إسكيل كان قد حدَّثَه من قبلُ عن سيسيليا، وما قد يَتَسبَّبُ فيه ذلك من قَلَقٍ وهُمُوم.

في يوم سانت جيرترود بدأ الربيعُ ينشرُ أريجهُ في الفضاء، وقد صار الثلجُ أكثرَ مرونةً، لكنَّ الجليد كان ما يزالُ يُقَاوِم. وغادر أرناس فريقٌ مُثْقَلٌ بِحُمولَةٍ من العتادِ، ومُدَجَّجٌ بالسلاح. كلُّ شيءٍ كان محمُولا على الظُّهورِ أو الخيولِ، لأنَّ ما مِنْ طريقٍ واحدٍ كان سالِكاً بِالعَرباتِ أو المركبات الجليدية. وفضلا عن ذلك لم يكنْ لا إديموند ولا رجالُه يتوقَّعون زيارةً في تلك الفترةِ من السنةِ، وكان ذلك سيَجْعَلُ الأمورَ غايةً في السهولة.

رَكِبُوا خُيولَهم نحو الشمالِ حتى تِيدان التي كانت أسيرةَ الجَليد، وقد منحَهم ذلك فرصةَ الانحدارِ بسهولةٍ إلى غاية أسكيبيرغا التي قَضَوْا ليلتَهم فيها. وفي اليومِ التالي انطلَقُوا فَجْراً حتى يَبْلُغوا فورسفيك عند مَهبط الليلِ. فكذلك يستطيعون الدخولَ إلى الحصنِ قبل أنْ يكتشفَ رجالُ إديموند تَطَفُّلَهم.

بالفعلِ أخذُوا إديموند ورجالَه على حِينِ غرّة، وجرّدُوهم من أسلحتِهم

بسرعة. لقد سجنوا حُرّاسَه والرجالَ القادرين على حَمْلِ السلاح في مخازنِ المؤونَةِ وفي المِصهر، يَحْرُسُهم نرويجيون غير مُؤدّبين. ثم اقتيد إديموند إلى بيتِه الذي لم يَمْكُثْ فيه سوى إينجبورغ وزوجتِه، وجيرموند، ابنِه البكر، وأطفالِه الصغار الثلاثة. وُسِمحَ بِتَنَقُّلِ الخَدَم الضروريين، بعد التحقّق بعنايةٍ مِنْ أنهم لا يحملون أسلحة.

كان العشاءُ كَئِيباً، حتى وإنْ ثَمَّنَهُ في الظاهرِ إسكيل وإديموند. فلم يَبْدُ على صوتِهِما خَشْيةٌ ولا تهديد، فيما كان ضُيوفُهما يُجيبُون بِنُتَفٍ من الجُمل الحذِرة.

بدا إسكيلُ مع ذلك رائقَ المزاجِ، بل وقد شَرَحَ منذ البدايةِ أنه جاء للقَضايا التي قد يِتَّفقُ الجميعُ في شأنها. لكنْ، لعل من اللائقِ كما تقتضِيه العاداتُ والتقاليد، أنْ تكون البدايةُ بِمُتَعِ الطاولةِ، وبِدَقِّ الأقداحِ بالأقداح، وفي ذلك ما يجعلُ الحوارَ يسيراً بالتأكيدِ. وبعد أنْ أكلَ قليلا، وَضَعَ إسكيل على الطاولة صندوقاً من الفضة. وقد أغبطَ ذلك إديموند لأنه حتى وإنْ لم يكنْ في حاجةٍ إلى ذلك المال، فقد خَشِيَ أنْ لا يكون الأمرُ أمرَ مالٍ وحده، بل أمرَ حياتِه وحياةِ أطفالِه. وجودُ ذلك المالِ على الطاولةِ يَعْني إذاً أنّ المسألةَ مسألةُ أعمالٍ فعلا. لكنْ مع ذلك فلم يُخففْ ذلك من حالةِ التوتّر السائِدَة.

بعد مرورِ بعضِ الوقتِ اقْتَرَحَ إسكيل في أدبٍ أنّ الحديثَ ما دام سيدورُ في الأعمالِ، وما دام هذا النوع من الحديثِ سيجري ما بين رِجالٍ، فهو يُعطِي لزوجته إينجيبُورغَ، وللأطفال أمراً بالانسحابِ. وأطاعَ الخدمُ أيضا في الحال.

بعد ذلك تحدّث إسكيل حديثاً قليلا وطيباً. قال بأنّ الثّمنَ قد يبدُو مُنْخَفضاً قليلا، لأنّ قيمةَ فورسفيك أغلَى بالتأكيدِ من قيمةِ الخمسينَ ماركاَ من المال. وتوقّف إسكيل عن الحديثِ وفَتَحَ الصندوقَ، وأخْرج العَقْدَ الذي تَرْجَمَهُ إلى النُّرْوَا من دون أنْ يذكُرَ أسماءَ كلِّ الأشخاصِ المعنيّين، ولا سيما كنوت إيركسون. وعندئذ اقتنع إديموند بأنّ الموضوعَ موضوعُ أعمالٍ

حقاً، حتى وإنْ كانت أموراً مُزعجة.

لاحظَ إسكيل أنّ الثلاثينَ ماركاً من المالِ التي حَصَلَ عليها إديموند في أثناء لاندسينغ أكسيفلا، يجبُ أنْ تدخُلَ في المَبلغِ الإجمالي، ما دامتْ الثلاثين ماركاً قد دُفِعَتْ في سبيلِ المصالحةِ – مصالحة رفَضَها إديموند من قبلُ، لكنه يَفْعَلُ طيّباً لو قَبِلَ بها الآن.

أبدَى إديموند موافقتَه، مُضيفاً أنّ ثمانينَ ماركاً من المالِ تمثّلُ مبلغاً عادِلا، لا سيما إنْ توصّلَ الجميعُ فوق ذلك إلى مُصالحةٍ بواسطةِ تلك الوسيلة. وأجاب إسكيل بأنه مُغتبطٌ بأنْ يتمَّ التوصّلُ إلى اتفاقٍ بمثلِ تلك السهولةِ .

بيد أنّ إديموند لم يُبْدِ استعداداً لأنْ يَضَعَ خَتْمَهُ، ولأنْ يَقْبَلَ المالَ من دون أنْ يتسلّمَ بادِئَ ذي بَدْءٍ بعضِ الضّمانات. إذْ قلّما أيقنَ بأنه سيُنْهِي تلك الصفقاتِ فيما حُرَّاسُه مُحْتَفَظٌ بهم في السجنِ على يد محاربين نرويجيين معتوهين مِن أسوأ الخَلْق. وفضلا عن ذلك لم يفهمْ الدّورَ الذي يلعبُه ذلك المجهولُ في هذه القضية: فهو لا يعرفُ كنوت.

أجاب إسكيل بأنه يفهَم قلقَ إديموند. بيد أنّ لهذه المسألةِ حلاً غاية في البساطة: ففي اليوم التالي سوف يتِمُّ إعدادُ مركباتٍ جليدية يمكنُ أنْ تركبَها عائلةُ إديموند وحُرَّاسُها. ولا يجري إبرامُ العَقْدِ قبْلَ أنْ تُصبحَ العائلةُ والحُرّاسُ في أمانٍ. وهكذا لنْ يَجِدَ إديموند ما يخشاهُ على حياةِ عائلتِه وأقاربِه.

أبدى إديموند موافقتَه مرّةً أخرى، لكنه ما لبث أنْ أضافَ أنّ ثمنَ حياتِه الخاصة لنْ تُساوِيَ شيئاً عندما يجدُ نفسَه وَحِيداً في فورسفيك، مُحاطاً بِرجالٍ ليسوا أصدقاءَه.

تظاهرَ إسكيل بالتفكير، لكنْ ما لبث أنْ ذكّرَهُ بأنّ تلك هي الحالُ فعلا. لكنْ في أذهانِ أقاربِ إديموند كان ثمة فارقٌ كبيرٌ بين أنْ تُمْنَحَ لهم فرصةُ مغادرةِ المكانِ أحياءً مع سبقٍ كافٍ يُؤَمِّنُهُمْ من كلِّ خوفٍ على أرواحِهم، وبين التعرّضِ للموتِ في الحالِ لو لم يتم الوصولُ إلى اتفاق.

أكد إديموند أنه مُصِرٌّ على الوصولِ إلى حَلّ. لكن بَقِيَ عندَهُ مَطْلَبٌ: المالُ المدفوعُ ينبغي أنْ يذهَب مع وَالِدَيْه، على المركبات الجليدية.

اعترَض إسكيل بالقولِ إنه قلّما يُدْفَعُ ثمنُ الشيءِ قبل تَسَلُّمِه. فإنْ رفَض إديموند التنازلَ عن ملْكِه كما هو مُتَّفَقٌ عليه، فإنّ هذا المالَ الطيِّبَ سوف يضيعُ منه حالا. وأخيراً توصّلوا إلى حَلّ وسَط: نصفُ المبلغ سيذهبُ في الصباح، ويتسلّمُ إديموند الجزءَ الآخرَ منه بعد أنْ يَضَعَ خَتْمَهُ على العَقْد. وعلى ذلك ذَهَبُوا إلى النوم. وقد أمضَى جزءٌ كبيرٌ من رجال فورسفيك ليلةً سيئةً للغاية.

عند الصباحِ أُخْلِيَ سبيلُ نصفِ الحُرّاسِ حتى يَقْتَاتُوا ويُعِدُّون المركباتِ الجليديةَ المطلوبة. ووَدّع إديموند زوجتَه وأطفالَه، وحَمَلَ نِصفَ المالِ حَسْبَ الاتفاقِ، إلى المركبة الجليدية في مقدمةِ القافلة، ووَضَعَهُ إلى جانبِ إيجبورغ. ثم انطلقتْ المركباتُ الجليديةُ فوق جليد فاتيرن.

وانتظرَ الجميعُ في هدوءٍ إلى أنْ صارت المركباتُ الجليدية على مسافةٍ لا يمكن أنْ يتعرّضوا بعدها لأيِّ ملاحقة. وبذلك آنَ أوانُ إنهاءِ القضية. كان إديموند شاحِباً، وقد ارْتَعَشَتْ يَدُه اليُسرى عندما وَضَعَ خَتْمَهُ على العَقْدِ بمساعدةِ إسكيل. كان طَرَفُ عُضْوِهِ المبتورِ الأيمن يبعثُ رائحةً كريهةً ويَتَقَيَّح.

طوَى إسكيل الوثيقَةَ ووضعها في قميصِه، ثم دفع نحو إديموند بالصندوقِ الذي حَوَى باقي المبلغِ المتفَّقِ عليه، ثم غادر. ومكَثَ بعضٌ من رِجالِه في المكانِ لحمايةِ الحِصنِ حتى آخرِ الربيعِ، في انتظارِ قُدومِ مَنْ يحرسهُ مِنْ رجالِ أرناس.

خَرَجَ إسكيل، وهو يُبْدِي لإديموند مَزيداً من اللطفِ، ثم جَمَعَ حُرّاسَه وركِب مَطيتَهُ، وابتعدَ بلا عَجَل.

لكنْ لا أحدَ في المسكنِ أبدَى استعداداً لأنْ يسمحَ لإديموند بالرجوعِ إلى مركبته الجليدية. وعندما صار إسكيل على مسيرٍ لا يرى منه ولا يسمعَ شيئاً، خرج إلينغ لوفور، وإيجيل أولفسين إلى الباحةِ، وقتلا الحُرّاسَ الذين

كانوا ينتظرون سيِّدَهم ورَمَوْا جُثَثَهُمْ فوق المركبات الجليدية.

بعد ذلك عادُوا إلى المسكنِ وجَلَسُوا من دون أنْ يقولوا كلمةً واحدة. لم يكونُوا في حاجةٍ إلى الكلامِ، فكلٌّ واحدٍ سمِعَ وفَهِم.

عندئذ الْتَفَتَ كنوت نحو إديموند وخاطبَهُ بصوتٍ منخفِضٍ مفعمٍ بِمَقْتٍ بارد.

«إديموند لُو مانْشُو، لقد سألتَ مَنْ أنا، لأنّك ادّعيتَ أنك لا تعرف كنوت. سأقول لك اسمَه، لأنني لستُ أيَّ نرويجي. أنا كنوت إيركسون، ابنُ إيريك جيدفرسون، وإنْ كنتَ قد دَفَعْتَ الدَّيْنَ إلى إسكيل ماغنوسون فما زِلْتَ مَدِيناً لي.

فَهِمَ إديموند على الفورِ أيّ دَيْنٍ سَيَدْفَعُه. فقَفَزَ وكأنه فكّر في الهروب، لكنّ النرويجيين ما لبثوا أنْ أمسَكوا به وهو يضحكون. ثم دَفَعُوهُ إلى الباحةِ، رَكْلا ولَكْماً، وهُمْ يُوسِعُونَه شتماً. ثم ربطُوه إلى الأرض الجامدةِ بالأصفاد. وظل إديموند يئِنُّ على ظهرِه، مُستَنِداً رأسَه إلى قطعةٍ من الخشب.

قال جير أرليندسين إنه كان من الأفضلِ ربْطُ إديموند حول البَطنِ، وفي ذلك عَرْضٌ لِعَادةٍ نرويجيةٍ طيبة، أيْ الضربُ المبرحُ للقاتلِ الذي يستحقُّ الموتَ تحت التعذيب. لكن من الطيّبِ أيضاً بعدما تُكسَّرُ أضلاعُ قاتلِ المَلِكِ، أنْ يَنْتَزِعَ كنوتٌ قَلْبَ إديموند بِيَدَيْه الحافِيَتَيْن.

لم يَشَأْ إريكسون أنْ يسمَعَ كلاماً في الموضوع، لقد رفَضَ أنْ يُلَطِّخَ يَدَيْه بِدِماءِ شرّيرٍ. لا، فكما تُوصِي به الكِتاباتُ المقدَّسةُ، ينبغي أنْ يموتَ قاتلُ المَلِكِ بالكيفية التي قَتَلَ بها، أيْ بِقَطْعِ الرأس.

تصرَّفَ إديموند أولفبان مثلَ رَجُلٍ، ولم يَطْلُبْ الرحمةَ قط. وبِضَرْبَةِ سيفٍ واحدةٍ قَطَعَ كنوت إيركسون رأسَه. ثم وُضِعَت الرأسُ فوق أحدِ الرِّماحِ نُصِّبَتْ في وسطِ الباحة لِتَذْكِيرِ الأقنةِ بأنّ فورسفيك صار يحكمُها سَيِّدٌ جديد. والْتَحَقَ جُثمان إديموند بجثامين حُراسه، وجُرّتْ المركبةُ الجليديةُ فوق الجليدِ، ثم أُشعِلَتْ النارُ فيها.

ظلّ كنوت إريكسون ومعظمُ رجالِه يوماً إضافياً في فورسفيك. وقد فتّشُوا الدكاكينَ والمخازنَ وَوَجَدُوا ما كانوا يبحثون عنه: كمية كبيرة من

السنديان لبِنَاءِ الزورق المتوقَّع. ومكَثَ إيفيند جونسون، وجون ميكلسين، وإيجيل أولفسين، في فورسفيك من أجلِ بناءِ ذلك الزورقِ قبل أنْ ينْكَسِرَ جليدُ فاتيرن. فذاك عَمَلٌ شاقٌّ لا يقدِرُ عليه سوى النرويجيين.

عاد كنوت إيريكسون إلى فاسترا غوتالاند برُفْقَةِ فَرْقَتِهِ وبعضِ حُرّاس أرناس. لقد خَطا أوّلَ خطوةٍ مهمَّةٍ على الدَّرْبِ الطويلِ الذي كان سيقُودُه إلى التيجان المَلَكِيَّةِ الثلاثة.

* * *

إني أسمعُ صوتَ حبيبي!
ها هو ذا قد وصل،
وهو يقفِزُ فوق الجبال،
ويقفِزُ من على التلال
حبيبي يُشْبِهُ غزالة
أو ظبية
ها هو ذا يَقِفُ من خلفِ جِدارنا
يترصَّدُ من النافذة.
يترصَّدُ من خلف زَيِّهِ العسكري
حبيبي يأخذُ الكلمة،
يقول لي:
قِفي، أيْ حبيبتي
أيْ جميلتي، وتعالَيْ،
لأنّ الشتاء وَلّى
انتهتْ الأمطارُ، وتوارَتْ. (نشيد الأنشاد،٢، ٨-١١)

اندفعَ آرن نحو هوسابي وهو يُرَدِّدُ كلماتِ الربّ، وحوافرُ خيمال تُثيرُ مَدَرَاتٍ من التربة ومن الثلج الجامد. كان فَحْلُ الخيلِ مُلْتَهِباً، فيما كان آرن

يَغْلِي في داخلِه، حتى وإنْ فكّرَ أنّ الريحَ سوف تُنْعِشُه. كان بلا شكٍّ يعرفُ أنه ليس في أحسنِ حالاتِه الذهنيّةِ لكي يذهبَ إلى كنيسةٍ ليُنْشِدَ فيها مدائحَ الربِّ وشُكرانِه. وكان على يَقِينٍ أيضاً أنّ الأبَ هنري ربما تلقّى رُؤىً جِدُّ صارِمةٍ حول تلك المسألة.

كان يمتطِي خيلَه في جُنونٍ، لأنه لم يَجِدْ للأمرِ بديلا. كانت سيسيليا تَمْلأُ عقلَهُ أيما امتلاكٍ حتى صار، باستثناءِ الربِّ، لا يحمِلُ همّاً لأيِّ شيءٍ سِواها. كان وكأنّ إبليسَ أغواهُ بأفكارٍ خَبيثةٍ فسأله ما الذي يُؤثِرُه لو خُيِّرَ ما بين حُبِّ سيسيليا وحُبِّ الربِّ. وما انفكت تلك الأفكارُ تَنْدَسُّ فيه رغم ما بَذلَهُ من جُهْدٍ لإبْعَادِها، وكأنّ إبليسَ اكتشفَ في داخِلِه رُوحاً واهِنَةً أيما وَهَنٍ!

اضطرَّ للوقوف، ولأنْ يَنْزِلَ مِنْ على ظَهْرِ خيمال، ولأنْ يطلُبَ المعذرةَ لأفكارِهِ السوداء. وما انفك آرن يُصلي إلى أنْ غزاهُ البردُ، وأكثرُ من ذلك قليلا. ثم استأنفَ سَيْرَهُ بوتيرةٍ أكثرَ توازناً، لأنّ قُرْبَهُ من هوسابي باتَ يُعرِّضُهُ لعُيُون الناسِ الوشيكة.

وصلَ إلى الكنيسةِ قبل الموعدِ، وأودعَ خيمال الاستطبلَ، ونظّفَهُ وغطّاهُ حتى لا يَشْعُرَ بالبردِ في الحالِ، بعد ذلك السباقِ الملتهِب. نَظَرِ إليه خِيمال بِعَيْنَيْنِ سارِحَتَيْن، وكأنّ فحلَ الخيلِ أحسَّ بالإهانةِ، وأنه كشَفَ أمرَه.

كان اليومُ يومَ عيدِ البشارة. الزمن الذي تعود فيه الرافعاتُ إلى فاسترا غوتالاند، وحيث تُجَرُّ العَرَباتُ في حقولِ فيتا شولا، في الدنمرك. كان آرن ينوي الغناءَ في ذلك القُدّاسِ، وكذلك في قداسِ أعيادِ الميلاد. كانت ماريا العذراء هي حاميةُ فارنيم، وكان كافةُ المنشدين القادمين من الديرِ يحفظون عن ظهْرِ قلبِ كلَّ القُدّاساتِ التي كانت مُهْدَاةً إليها.

وعندما دَخَلَ آرن الكنيسةَ أحسَّ وكأنه يقترفُ خطيئةً، حتى وإنْ لم يَقِلّ غِناؤُه مع سيسيليا سِحراً وفِتْنَةً عن غنائهما في أعيادِ الميلاد. فالحالُ أنّ آرن كان في التراتيلِ التي تتحدّثُ عن حُبِّ القدِّيسة العذراء، ينظرُ في عَيْنَيْ سيسيليا رأساً، وَيَعِي كُلَّ كلمةٍ يُنْشِدُها. وكانت سيسيليا فوقَ ذلك، تستجيبُ لنظرتِه بالكيفية نَفْسِها.

ومنْ حيثُ لم يَدْرِ أنه يَجْرَحُ كرامةَ ألغوت بالسون، سمَح آرن لنفسه بأنْ يَمْكُثَ يومَيْنَ آخرَين في حصنِ هوسابي، حتى يتدرّبَ مع سيسيليا على تراتيلَ جديدةٍ، استعداداً للقُدّاس القادم. لقد أحسّ آرن من دون أنْ يهتَدِيَ لِسَبَب واضحٍ، أنّ ألغوت بالسون لا يملك أنْ يرفُضَ طَلَباً لواحدٍ من أبناءِ أرناس. وبالفعلِ لُبِّيَ الطلبُ من دون أيِّ خِلاف.

لكنّ كفاحاً مُسْتَمِيتاً ما لبث أنْ انفجَرَ ما بين الشابَّيْنِ، وما بين أولئك الذين كُلِّفُوا بمراقبتِهما. لقد أطلقَ آرن وسيسيليا العنانَ لِدَهَائِهِما حتى يَنْفَرِدَا بالحديث بينهما. وقد لاحظَ ألغوت وسَيِّداتُ الحصنِ أمرَهُما، وبدورهِم بذلوا ما في وُسْعِهِم حتى يُراقِبوهُما في كلِّ لحظة. وما مِنْ أحدٍ وَجَدَ ما يَعْتَرِضُ به عليهما طالما ظلا يجلسانِ في لياقةٍ في القاعةِ الكبرى، أو يُنْشِدان في تناغمٍ شُكرانَهُما للربّ. وفضلا عن ذلك سَهِرَ المراقبون على ألا يقترِبَ أحدُهما من الآخر كثيراً في جَلْسَتِهِمَا. وهكذا توسَّطَهما ألغوت عند العشاءِ، ولم يَسَعْ سيسيليا الاقترابُ من آرن إلا كلّما عادتْ لِتُقَدِّمَ له مزيداً من الجعةَ، وهو ما كان يُغْرِقُ آرن في عَذابٍ كبيرٍ لأنه أَقْسَم ألا يشرَبَ مثلَ ذلك القَدْرِ من الجعةِ إلا في وَليمَتِه الأولى في هوسابي.

قَبْلَ عيدِ البشارة بقليلٍ توجّه سون، خوري هوسابي، إلى المجمعِ الكهنوتي في سكارا الذي أشْرَفَ على تنظيمِه المطرانُ بِنْغتْ. فحتى وإنْ ظلتْ الطرقاتُ غيرَ سالكةٍ في ذلك الفصل من السنةِ، فقد تجمَّعَ عددٌ كبيرٌ من كَهَنَةِ المطرانية، وهو ما شَهِدَ عن سَعَةِ القلقِ الذي استولَى على فاسترا غوتالاند بعد لاندستينغ أكسيفَلا. فكلُّ واحدٍ كان يعرف أنّ كارل سفيركرسون لنْ يرضَى بأنْ يخسرَ سلطاتِه كافة على فاسترا غوتالاند. وبالمثلِ فَهِمَ كلُّ واحدٍ أنَّ الشخص الذي قد يعترِضُ على الملِكِ حتى يسلبَ منه عَرْشَهُ لن يكون شخصاً آخرَ غيرَ كنوت إيركسون. ففِي أسوأ الحالاتِ سوف يأتي الملكُ كارل إلى المنطقةِ ومعه جيشُهُ، وليس من السهلِ التنبؤ بِمَنْ سوف ينتصرُ على الثاني. ويبقَى أنّ في الأمرِ شيئاً مؤكداً، وهو أنّ مثلَ تلك الحربِ سوف تتسبَّبُ في دمارٍ رَهيب.

كان على المجمعِ الكهنوتي أنْ يُجيبَ عن هذا السؤال: هل كانت الكنيسةُ ستتّخذُ موقفاً لمصلحة هذا الطَّرَفِ أو ذاكَ من الطامِعينَ في السلطة الدنيوية؟ لقد أبدى عَدَدٌ مُتَسَاوٍ من الكهنةِ أصواتَهُم لمصلحة كُلِّ واحدٍ من أولئك الطامِعِينَ، بيد أنّ الأغلبيةَ رأتْ أنّ خَيْراً للكنيسةِ قبلَ كلِّ شيءٍ أنْ تُبدي حَذَراً، وألا تتورّطَ في تلك المعركةِ، لأنّ المخاطِرَ كثيرةٌ. وبعد ذلك ما لَبِثَ المجمعُ أنْ انضمَّ إلى ذلك القرارِ الذي كان سونْ واحداً من المُدافعين المتحمّسين عنه، لأنه وَجَدَ نفسَهُ مُندفعاً إلى تلك المعركةِ عندما اضطرَّ لإقامةِ قُدّاسِ أعيادِ الميلادِ بِحُضورِ عائلةِ الفولكونغر في كنيسةِ هوسابي المَلَكية.

لكنّ حديثاً جرى في أمورٍ أخرى أيضاً. لقد روى العميدُ على الخصوص، على مَنْ يهمُّهم الأمرُ، أنه كان شاهِداً على معجزةٍ: راهبٌ شابٌ أعزل، نَعَمْ أخٌ مِنْ عائلةِ لايْ من فارنيم، قَتَلَ مُحارِبَيْن اثنين، بمساعدةِ المَلاكِ جبريل.

في أثناء العَشاءِ في هوسابي فكَّر الخوري سُونْ، ثانيةً، في قصةِ المعجزةِ حينما رأى آرن، فَرَواها بدورِه. وأنْصَتَ إليه الجميعُ في عنايةٍ، إلا آرن الذي لم يَسْتَسِغْهَا. عندئذ ظنَّ الراهبُ أنْ لعلَّ آرن يعرفُ المزيدَ عن ذلك الحادثِ، ما دام قادِماً من فارنيم. بل ولعله يعرفُ ذلك الراهبَ الشابَ شخصياً. وأخيراً وَجَّهَ سُونْ أسئلتَه لآرن رأساً.

رأى الجميعُ أنّ السؤالَ قد أَحْرَج آرن، من دون أنْ يَفْهَموا سببَ ذلك الحَرَج. كان من الصعبِ أنْ يتوسّمُوا غِيرَةً من آرن في حقِّ واحدٍ من رفاقِه في الدراسة.

أجاب آرن بِنَبْرةٍ مُقْتَضَبَةٍ. لقد أحسّ أنه وَقَع في الفخّ. وفضلا عن ذلك، وعلى خِلافِ الكثيرِ من الناسِ، لَمْ يكنْ يَسَعُهُ أنْ يُجيبَ بِكِذْبَة. وإذْ تمسَّكَ بالحقيقةِ، بدأ بالقول إنّ العميدَ على خطأٍ، فلم تَحْدُثْ مُعجزةٌ قط، ولم يكنْ ثمة راهبٌ شابٌ أعزل – ما دام هو نفسُه ذلك الراهب الشاب. لقد غادر مزارِعون سُكارَى مُهَرْولِينَ، حَفْلَ الزواجِ الذي كانوا مَدْعُوِّينَ إليه،

واتّهَمُوهُ بخطفِ العَروسِ، فيما كان هو قد غادَرَ الديرَ قبل ذلك بساعات قليلة. وقد حاولوا أنْ يقتُلُوه، لكنْ حتى تبدُوَ الجريمةُ أكثرَ شَرَفاً أعطوه سيفاً حتى يُدافِع عن نَفْسِه.

عند هذا الحدّ توقّف آرن لِيُفَكِّرَ في الطريقةِ التي سيُقدّم بها تلك القَضيّة. كان يُفضّلُ أنْ يقِفَ عند ذلك الحدّ، ظناً منه أنه قد قال فيها ما فيه الكفاية، ولم يشعرْ بأي فخرٍ لِمَا صَدَرَ عنه، بل كان هذا السلوكُ، على العكس، يملؤُه نَدَماً. لكنّ تجربَتَه في عالَمِ الدنيا أَوْحَتْ له أنّ الناسَ قد يعتقدون أنه يسعَى للتبجُّح. ومع ذلك, فَإنْ وُجِدَ شخصٌ يُنَمِّقُ كلامَه بِدافعِ الخِداعِ فهو عميدُ الكهنوتِ الذي ادَّعَى بِدافعِ الغرورِ أنه شَهِدَ معجزةً، فيما لم يَكُنْ الأمرُ سوى فاجِعَة. بيد أنّ آرن فَهِمَ حقَّ الفَهْمِ أنَّ مِنْ الصعبِ شَرْحُ ذلك من دون الإساءةِ إلى العَميد.

قطعَتْ سيسيليا الصَّمْتَ وطلبتْ منه أنْ يُواصِلَ حديثَه. فرَفَعَ آرن رأسَه وقَاطَعَ نظرَها. فكان وكأنّ ماريا العذراء تخاطِبُه وتشرحُ له أيّ كلماتٍ ينبغِي استعمالُها لكيْ يُقَدِّمَ على نحوٍ طيّبٍ شيئاً سَيّئاً أصلا.

أَهْمَل آرن التفاصيلَ السيئة. فعن خطأٍ خطرَ لمزارعين سُكارى أنْ يَقْتُلُوا راهباً شاباً، لا حول له ولا قوّة، حتى وإنْ كان هذا الأخيرُ بمفردِه، وتعلَّم استعمالَ السيفِ على يدِ حارسٍ من حُرّاس الهيكل. كانت المعركةُ قصيرةً. ولم يكنْ فيها أيُّ معجزة، مثلما لم يكنْ في أكسيفَلا معجزة!

لكنْ، كان في القصةِ معجزةٌ، معجزةُ الحب. فَما لَمْ يَرَهُ العميدُ ولم يَفْهَمْهُ أيضاً هو طيبةُ ماريا العذراء المتناهية، تلك الطيبة التي تُبْدِيها للذين يلجؤون إليها. احمرَّ وَجْهُ آرن من كلماتِه الصَّلِفَةِ نحو العميدِ، لكنْ لم يَنْتَبِهْ إليها أحدٌ، فوجَد في ذلك شجاعةً على الاستمرار.

أَصْغَتْ العذراءُ القدِّيسة طويلا لِدَعَواتٍ حارّةٍ من امرأةٍ شابَّةٍ تُدْعَى غونفور، ولِدَعَواتِ شابٍّ يُدْعَى غونار. لقد هام بها وهامتْ به حتى صارا يُؤْثِرانِ الموتَ على أنْ يُحْرَما من سعادةِ العَيْشِ معاً، زَوْجاً وزوجةً، يُبارِكُهُما الربُّ.

في قمَّةِ اليأسِ تَوارَتْ غونفور في حَفْلِ زَواجِها، قبل إتمامِ الزواج. وهكذا تعرَّفَتْ على الرّاهبِ الشابِ، الذي كان يجهَلُ كلَّ شيءٍ عن ذلك الأمرِ، لكنّ العذراء القدِّيسة أَرْسَلَتْهُ لِكَيْ يُنقذَ غونفور. لقد أنقذها هذه الأخيرة من حياةٍ بائسةٍ أمْضَتْها مع رَجُلٍ لا تحبُّه لأنّ هذا الأخِيرَ قد قُتِل.

لكن العميدَ كان في حاجةٍ إلى مزارعٍ جديد للمزرعةِ التي جرى فيها ذلك الزواجُ، وصار غونار مزارعاً فيها. وهكذا استطاع غونار وغونفور أن يتزوّجا ويعيشا في سعادةٍ لِبَاقِي أيامِ العمر. وبمساعدة ماريا العذراء انتصرَ حُبُّهُما على كلِّ القوانين، وكافةِ العادات والقواعدِ الممكنة، لأنّ الحبَّ كان أقوى من كلِّ شيء. وهذا ما أظهرته القدِّيسة أمّ الربِّ عند استجاباتِها لصلواتِ غونفور وغونار اللّذين لجآ إليها في أحلكِ أوقاتِ اليأس .

استشهدَ آرن إذاً بمقاطِعَ من الكِتاباتِ المقدسةِ التي تتناولُ الحبَّ المنتصِرَ. كان يعرفُ تلك النصوصَ عن ظهْرِ قَلْبٍ، وبِلُغَةٍ عاميةٍ أيضاً، وكان لِمَا قرأهُ وَقْعٌ كبيرٌ على كلِّ واحدٍ من الحاضرين، ولا سيما سيسيليا، على نحو ما تَمَنَّى.

أكَّد راهِبُ هوسابي وهو يَسْرَحُ بِفِكْرِه، أنّ ما قالَهُ آرن قَبْلَ حينٍ، نابعٌ من صميمِ كلماتِ الربِّ حقاً. وأضافَ أنّ الحُبَّ قادرٌ على تحقيقِ المعجزاتِ، وأنّ لنا في ذلك أمثلةً كثيرةً في الكِتاباتِ المقدسة. من المؤكدِ أنه لم يكنْ من اليسيرِ فهمُه بالنسبةِ لأهلِ فاسترا غوتالاند، لأنّ الناسَ يسعَوْن للزواجِ، في نظرِ مُعظَمِهم، لأسبابٍ مختلفةٍ كلّ الاختلافِ عن أسباب غونفور وغونار. لقد قصَّ غونار بالتأكيد تلك القصةَ في رُوحٍ بنَّاءَةٍ للغاية، وقد قاسَمَهُ راهبُ هوسابي رأيَهُ ذاك: لقد أبانَتْ العذراءُ القدِّيسة عن مُعْجِزَةِ السيفِ والقُوَّة. وتلك قصةٌ خليقةٌ بأنْ نتأمَّلَهاً.

لم يَتَبَيَّنْ الضيوفُ المجتمِعُون حولَ الطاوِلَةِ، أيَّ دَرْسٍ يمكنُ استِخْلاصُه من تلك القِصَّة، حتى وإنْ كانت القِصّةُ قِصَّةً جميلة. ولم يَزِدْهُما راهبُ هوسابي توضيحاً. بيد أنّ هذا الأخيرَ حدّثَ ألغوتْ على انْفِرَادٍ بعد العَشاءِ، لكنَّ مَا مِنْ أحدٍ سمِع حدِيثَهُما.

فلعل هذه المحادثةَ هي التي وَضَعَتْ ألغوتْ في حالاتٍ ذهنيةٍ جديدةٍ، لأنه في صبيحةِ اليومِ التالي طلَب من آرن، ذلك الخيّالُ الرائعُ إنْ كان يَرْغَبُ في اصطحابِ سيسيليا في نُزْهَةٍ مَعَه، لكيْ يَسْتَمْتِعَا بذلكَ اليومِ الرَّبِيعِيِّ البَهِيِّ. ولم يتمنّعْ آرن.

هكذا ظلَّ آرن وسيسيليا يمتَطِيانِ حِصانَيْهِما جَنْباً إلى جنبٍ على سُفوحِ كينيكول الجنوبية. كانت أشجارُ صفصافُ الماءِ، والجداولُ المُنْتَفِخَةُ تَتَدَفَّقُ في المنحدراتِ، وقليلٌ من لطخاتِ الثلجِ التي كانت ما تزال تُغَطّي الحقولَ. يكاد الناظرُ إلى آرن وسيسيليا يخالُ أنهما لا يجرؤان على المحادثَة، لأنّ الحُرّاسَ كانوا يتعقَّبُونَهُما على مسافةٍ قريبة، يَرَوْنَهُما ولكنّهما لا يكادون يسمَعُون حديثَهُما. وقد عَصِيَ على آرن أنْ يقولَ بصوتٍ عالٍ كلَّ الكلماتِ التي أَعَدَّها في أثناءِ أحلامِهِ المُلْتَهِبَةِ، أو عندما يقطعُ السّماءَ على ظَهْرِ خيمَال. وتَاهَ في أوصافٍ صِبْيانِيَّة حول أجدادِ خيمال، واعتباراتٍ أخرى حول هَيْمَنَةِ خُيولِ الأرضِ المقدّسة.

لم يُثِرْ ذلك اهتمامَ سيسيليا إلا في اعتدالٍ، لكنّها ابْتَسَمَتْ لكي تُشَجِّعَهُ على الحديث. فهيَ كذلك حدَّثَتْ آرن حَديثاً مُطوّلا في أحلامِها، لكنّها كانت دائماً تتخيّلُ أنه سيقولُ الكلماتِ المناسِبَةِ أوّلا، فتُبْدِي رِضاها بها لكي يقولَ لها المزيدَ. لكنّ أحادِيثَهُ الطويلةَ حول مَزَايَا الخُيولِ تَرَكَتْ صَوْتَها مُتَلاشِياً.

بدأ آرن يَيْأَسُ من خَجَلِه، لقد خانَ وَعْدَهُ بأنْ يقولَ لسيسيليا كُلَّ ما كان يختلِجُ في فؤادِه. ودَعَا العذراءَ القدِّيسة أنْ تمنحَهُ قطعةً من الشجاعةِ التي كافأَتْ بها غونفور. وما لبثَتْ الكلماتُ أنْ غمَرَتْ شفتيه، وكأنّ القدِّيسة أمّ الربِّ صارت مُرْشِدَهُ ودَليلَه. فخفّفَ سُرْعةَ الخيلِ، والتفَتَ إلى الحُراسِ، ثم أغْرَقَ طَرْفَهُ في عَيْنَيْ سيسيليا:

أخذتِ قلبي

أيْ أختي، أيْ خطيبتي،

أخذتِ قلبي
بِطَرْفٍ واحدٍ من نظراتِك،
بحلقةٍ واحدةٍ من عقودك
ما أجمل حُبَّكِ
أيْ أختي، أيْ خطيبتي!
كم هو لذيذٌ حُبُّكِ، ألَذُّ من الخمرِ
وأريج شذاكِ
أطيبُ من كلّ بلسم.
شفتاكِ، أيْ خَطيبتي،
تُقَطِّرُ العسَلَ الصافي
العسلُ واللبنُ تحت لِسانِكِ،
وعِطْرُ ملابسِكِ
مثل عبيرِ لبنان (نشيد الأنشاد ٤,٩-١١)

أَوْقَفَتْ سيسيليا مَطِيَّتَها عندما سَمِعَتْ أقوالَ الربِّ، تلك الأقوال التي ألقَاهَا بها آرن إليها أخيراً. وحدّثته أيضاً بِعَيْنَيْها، لأنهما لم يَجِدَا بُداً مِنْ أنْ يَتَخاطَبا بالنظراتِ وحدها. ظلّتْ تَقِفُ بلا حِراكٍ فوق سَرْجِها، لكنّ نَفَسَها ظلَّ قَصيراً.

«لنْ تفهمَ أبداً، يا آرن ماغنوسون، كَمْ أنا مُشتاقةٌ لِسماعِ هذه الكلماتِ منكَ، قالت من غيرِ أنْ تُحَوِّلَ عنه نَظَرَها. كان هذا حالي منذُ اللحظةِ التي الْتَقَتْ فيها أطرافُنا، عندما جَمعَ نشيدُنا الأوّلُ بيننا. أُريدُ أنْ أكون لكَ، أكثرَ من كلّ شيءٍ في العالم.

« وأنا إليكِ أيضاً، يا سيسيليا بَالْسدوتر، أكثرَ من كُلِّ شيءٍ في العالمِ، أجاب آرن، بِنَبْرةٍ كانت من القُوّةِ ما جَعَلَها أَقْرَبَ إلى الدّعاء. أجل، كما يقولُ الربُّ، لقد أَخَذْتِ قلبي بِطَرْفٍ واحدٍ من نظراتِك. و لا أحبُّ أنْ أُفارِقَكِ أبداً».

رَكِبا حِصانَيْهِما بُرْهَةً في هُدوءٍ، ثم وَصَلا عند سنديانةٍ مُعَمِّرةٍ كانت تَنْحَني فوق سَيْلٍ صغير. ثم نزلا من على حِصانَيْهِما وجلَسَا مُسْتَنِدَيْن إلى تلك الشجرة. وتوقّف حُرّاسُ هوسابي بعيداً عنهما، من غير أنْ يعرِفوا إنْ كانا سَيَتَقَدّمان قليلا. فصوتُ الغديرِ، إذا لم يَقْتَرِبُوا منهما قليلا سيحولُ دونَهم وسماعُهما. وفي النهاية اختارُوا أنْ ينظرُوا ولا يسمَعُوا.

تَعَانَقَتْ يَدا آرن ويَدَا سيسيليا، من دون أن يقولا كلمةً واحدة، لأنهما أَحَسّا بقوةِ المعجزةِ التي تَسْكُنُهُما.

قال آرن إنه يريدُ الرُّجوعَ إلى أرناس، حتى وإنْ شَقَّ عليه الفُراقُ، لأنه كان مضطراً لأنْ يشرحَ الوضعيةَ لأبيهِ. فلعل بالإمكانِ إعلانَ خِطْبَتِهِما في الصيف القادم.

ما لبثتْ هذه الكلماتُ أنْ ملأتْ سيسيليا غبطةً وسعادة، لكنَّ ملامحَ وَجْهِها سرعان ما تَكَدَّرَتْ وتجهَّمَتْ.

«مثلُ هذه الغونفور، وهذا الغونار اللذين قُلْتَ فيهما كلاماً جميلا، فلعلنا سنحتاج إلى مساعدةِ ماريا العذراء. ثمة بالفعل عوائقُ كثيرةٌ تَنْتَصِبُ على طريق حُبِّنا، وأنت تعرفُ ذلك، أليس كذلك؟

– لا، لستُ أدري شيئاً. ما مِنْ جَبَلٍ مُرتفِعٍ جداً على الإطلاق. وما مِنْ غابةٍ عميقةٍ جداً على الإطلاق. وما مِنْ بَحْرٍ شاسعٍ جداً على الإطلاق. فَبِعَوْنِ الربِّ لا شيءَ سيقطَعُ الطريقَ أمامنا.

– لكنْ علينا أنْ نَلتمسَ بقوّةٍ رحمةَ الربِّ، أجابتْ مُطْرِقَة. فكما يعلمُ كُلُّ واحدٍ، فإنّ والدي هو رَجُلُ كارل سفيركرسون، وأبُوكَ هو رَجُلُ كنوت إيريكسون. إنّ والدي يخشَى على أيّامِه، وما دام كارل على قَيْدِ الحياة فلنْ يجرؤَ على الارتباطِ بهذا القدر من الوُضوحِ مع الفولكونغر. أجل، يا صديقي العزيز آرن، – كَمْ أنا سعِيدَة بأنْ أقولَ هذه الكلمات! – يَبْقَى أنَ حُبَّنا أمامَهُ، مع ذلك، أكثرُ من بحرٍ واسعٍ يجبُ أنْ نقطعَه، ما دام كارل سفيركرسون مَلِكاً، وما دام وَالِدِي وزيراً له».

لم تَخْمُدْ هِمَّةُ آرن على الإطلاقِ. كانت آمالهُ كبيرة، وقد ظلّ يعتقدُ

أنَّ ماريا العذراء تَقِفُ إلى جانبِه، وإلى جانِبِ سيسيليا. لكنْ، إذا كان يعرِف أشياءَ كثيرةً عن أفلاطون، وأرسطو، وسانت برنار دي كليرفو، وعن القواعد السيسترسية التي لم يَكُنْ أهلُ فاسترا غوتالاند يعرفون شيئاً في شأنِها، فإنه لا يعرفُ شيئاً عن القواعدِ التي تقودُ الصراعاتِ من أَجْلِ السلطةِ، تلك القواعد التي كان أهلُ فاسترا غوتالاند خُبَراءَ فيها.

وسَلَّمَا أَمْرَهُما كُلِّياً إلى إيمانِهِما بالحبِّ المنتصِر.

الفصل الحادي عشر

جلَسَ ماغنوس وإسكيل في قاعةٍ من قاعات البُرْجِ، ولم يكنْ حديثُهما ميسوراً. ومن حُسْنِ الحظِّ أنّ أيامَ آرنْ كانت مُثقلةً بالعَملِ كثيراً. كان ينشرُ كُتلا من الجليدِ على بحيرة فانيرن، شبيهةً في أحجامِها بحجارةِ البناءِ الضخمة. وكانت كُتَلُ الجليدِ تُنْقَلُ على مَركباتٍ جليدية إلى أرناس، وتُكَدَّسُ فوق بعضها في الغُرفة الباردة وتوضع بين طبقاتها طبق من النجارة. لقد أكّد آرنْ بأنْ لا مَنَاصَ من تنفيذِ تلك المُهمّةِ قَبْلَ أنْ يُصبحَ الجليدُ رَهِيفاً. نَعَمْ، لقد أَسْعَدَ ماغنوس وإسكيل أنْ ينشَغِلَ آرنْ إلى ذلك الحدِّ، فلولا انشغالُه لَشَقَّ عليهما الحديثُ في حُضورِه بينَهُما.

كانا كلاهُما يعرفان أنّ صِغارَ العُمْرِ من الفتيان والفتيات تستبدُّ بهم أحياناً وَسَاوِسُ مُضْنِيَة. فذاك جزءٌ من الحياة، وليس ثمةَ الكثيرُ ممّا كان يمكنُ فعلُه سوى انتظارِ مرورِ تلك الحالات، كما تمرُّ نزلةٌ ربيعيّة. وتَذَكَّرَ ماغنوس أنه خَبِرَ تلك الحالةَ في شبابِه، وما لبث أنْ غاص في ذكرياتهِ فتأثَّرَ ثم باحَ لإسكيل بأنّ زوجتَه ووالدة آرن واسكيل قلّما كان لها في البدايةِ من الأهميةِ في عَيْنَيْهِ أكثرَ مِنْ خيولٍ كُمَيْتَةٍ جميلة، أو مِنْ مكاسبَ طيّبة للضَّيْعَة. لكنْ مع مُرورِ الوقتِ صارتْ سيغريدُ أغلَى عندَه مِنْ أيٍّ شخصٍ آخر. وفوق ذلك، فحين يُفكّر ماغنوس في الأمرِ مَلِيّاً فإنه لا يجدُ بُدّاً من أنْ يُقِرّ بأنّ ما يسميه آرن حبّا، يستطيع أن يكون أساساً لعلاقة ناجحة. وعندما يفكر ماغنوس اكثر في الأمر فعليه أن يقرَّ بأنَّ إيريكا يورسْدوتّر صارتْ منذ عَهْدٍ قريبٍ أجملَ من ذي قبلُ، بل ومُمْتعةٌ أحياناً. وبالفعل فلَمْ يَبْدُ حُضورُها في الحِصْنِ مُمْتِعاً قطُّ، مثلما يَبْدُو له الآن. وفي ذلك ما يَدْعُوه آرنْ حُبّاً.

بَيْدَ أنّ هذه الحِكْمَةَ التي تُواكبُ العُمْرَ، لا يمكنُ نَقْلُها إلى صغار العمر عن طريقِ الكلماتِ وحدها. فلا جدوَى من استعمالِ العقلِ في هذا الموضوع الذي لا مكانَ للعقلِ فيه. مثلما لا جَدْوَى مِنْ أنْ نَقُولَ لِشخصٍ دَفَنَ للتوِّ أحدَ ذَويهِ إنّ الأيامَ كفيلةٌ بتضميدِ جراحه. فذاك صحيحٌ، لكنْ منَ العَبَثِ أنْ نقولَ ذلك في اللحظةِ التي يبلغُ فيها الحزنُ مَداه.

وكيف العملُ مع آرنْ وخِطَاباتِه التي يتمنّى فيها أنْ يُقامَ حفلُ الخطوبةِ منذ اليوم التالي، في هوسابي؟

يقولُ إسكيل إنْ لا بدّ من الاحتفاظِ برباطةِ الجأشِ، وهو أمرٌ يَسيرٌ في غيابِ آرنْ الذي كان عقلُه مثلَ الحديدِ الحامِي. ففي الأمرِ حسناتٌ وسيئاتٌ، ولا بد من المُوازنةِ بعنايةٍ بين هذه وتلك، مثلما يُوزَنُ المالُ في القِسطاس.

لكنّ في الأمرِ شيئاً يميلُ على الخصوصِ لِغيرِ مصلحة نوايا آرنْ: فلا أحدَ يعرفُ مَنْ سيحملُ تاجَ العرشِ في السَّنَتَيْنِ القادمتين. بيد أنهُ طالما ظلّ كارل سفيركرسون مَلِكاً، فالأجدرُ بِألغوتْ بَالْسُونْ أن يَحْذَرَ الارتباطَ بأعداءِ المَلِكِ، إنْ كان عاقِلا على الأقل. ومنْ ناحيتِهم، فلم يكنْ من الحكمةِ الارتباطُ بِعائلةٍ تُناصِبُ العِداءَ لكنوتْ إريكسون. فإنْ كان هناك شخصٌ يملكُ حظوظاً كبيرةً في أنْ يُصبحَ مَلِكاً، فإنه كنوت اريكسون.

لكنّ الحُجَجَ التي في مصلحة آرنْ حُجَجٌ لا يُسْتَهانُ بها أيضاً. فالآن وقد أصبحتْ فورسفيك على بحيرة فاتيرن تابِعةً لأرناس، فقد باتَ التحكّمُ كامِلاً على شمالِ فاسترا غوتالاند، تلك المنطقة الواقعة في جنوب تِيفيدِين، حيث تلتقِي الطرقُ التجاريةُ لِبُلْدانٍ أربعة. كانت النقطةُ الحساسةُ تَقَعُ بالقربِ من كِينِيكُولْ حيث أراضي ألغوتْ. فإنْ أمكن تأمينُ ضواحِي كينيكول، وجنوبِ فانيرنْ فسيكون ذلك مُفيداً جداً. وفوق ذلك، فسيكون أَلْغُوتْ في وضع صعب، وسوف يجدُ مَنْ يُقْنِعُهُ بأنْ يَهَبَ تلك الأراضي التي لم يكنْ يَزْرَعُها... صِداقاً.

لكنْ من المستبعدِ، على الأرجحِ، الوصولُ إلى تلك الصفقةِ، طالما كارل سفيركرسون على قَيْدِ الحياة. بيد أنّ ألغوتْ قد يكون أكثرَ استعداداً

لهذه الصفقةِ لو ترك كارل سفيركرسون حياةَ الدنيا بالسرعةِ التي تجولُ في خاطرِ كنوتْ إيريكسون.

وتلك كانت الخلاصة: فطالما ظلّ كارل سفيركرسون في أمانٍ في قَلْعَتِه في فاتيرن، فلا حيلةَ في الأمر. أمّا إنْ هو غادر هذا العالمَ، فسوف تُعْقَدُ في الحالِ تلك الصّفقةُ المهمة جدا لأرناس.

لم يَرَ إسكيل سوى عائقٍ مُحْتَمَلٍ واحدٍ، وهو معرفةُ إنْ كان بيرجر بروزا والـ تينغ العائلي يحمِلانِ رُؤىً أخرى حول تلك المسألة. لقد حَدَثَ ذلك تلك المرّة عندما نَوَى ماغنوس، الأب، الاحتفال بالزواج من سِيسِيلْيَا أو كاتارينا، للأسبابِ نفسِها. وقد وَجَدَ ماغنوس نفسَهُ في النهايةِ مع إيريكا يورسْدوتّر ، لأنّ الـ تينغ العائلي رأى ذلك الزواجَ أهمَّ وأَجْدَى.

أكّد ماغنوس أنه لم تَتَنَاهَ إلى سمْعِهِ مشاريعُ من ذلك النوع. لقد صارت صِلاتُه بعائلةِ إيريك وطيدةً، من خلالِ الزواج من إيريكا يورسْدوتّر. صحيحٌ أنّ كْنُوتْ كانت له شقيقةٌ تُدْعَى مرغريتا، لكنّها صارت زوجةً لِلْمَلِكِ سفيرْ، عاهلِ النرويج.

ومِثْلَما فَعَلَ بيرجر بروزا، أخو ماغنوس، اقترنَ بيرجر بِبريجيدا، نجلةِ الملكِ هارالد جِيلْ عاهلِ النرويج.كانت العلاقاتُ مع النرويج في أَوْجِ مَتانَتِها. لا، في تلك اللحظةِ لم يكنْ ماغنوس يرَى في أرناس زواجاً أهمّ من زواجِ آرن منْ كتارينا أو سيسيليا – ليس مُهِمّاً هذه أو تلك، حتى وإنْ أكّدَ آرنْ أنّ سيسيليا هي كلُّ شيءٍ في حياته، وأنْ لا سبيلَ لأنْ يُفكِّرَ في غيرِها.

لكنْ، بَقِيَ في الأمرِ قرارُ مَنْ سيُعْلِنُ ذلك لآرنْ. كانتِ الرسالةُ بسيطةً: فطالما ظلّ الملكُ كارلْ حيّاً يُرزقُ فلنْ يكون هناك زواجٌ.

ربما كانت هذه الكلماتُ بسيطةً، بيد أنه لم يكنُ من اليُسْرِ قَوْلُها لابْنٍ، أو لأخٍ يضطرمُ بتلك الحُمَّى، أو بذلك الجنونِ الذي يدعوه حُبّاً.

فهل كان على ماغنوس أنْ يُخْبِرَهُ بذلك، بِصفتِهِ أباً، ما دام أيّ قرارٍ يتعلَّقُ بالزواج يعودُ إليه شرعاً؟ أمْ كان ذلك يقع على عاتقِ إسكيل، بِصِفتِه

أخاً، ومادام يستطيعُ فقط أنْ يشرحَ الوضعيةَ، ولا يُغيِّرُها ؟ وتأمَّلا لِبُرْهَةٍ تلك المسألةَ الحساسةَ، لكنّهما ما لَبِثا أنْ حَسَماها في النهاية: سيُخْطِرُ إسكيلْ، آرنْ، بتلك المسألة.

* * *

وقبْل موعد «سانت تيبورس» بأسبوعٍ واحدٍ، وفيما كان الجليدُ ما يزالُ صامِدًا، وكان لَوْنُه قد أصبحَ داكِنًا، وَصَلَ كنوتْ إريكسون إلى أرناس مِنْ دون أنْ يُعْلِنَ أحدٌ عن قُدُومِه. وقد تَنَقَّلَ بمنتهَى السرعة، لا يُرافِقُه سوى جير إيرليندسين، والشاعرُ أورم رونفالسين، و بيرسْ لُوفُور. لقد قاموا بجولةٍ في فاسترا غوتالاند أتيحتْ لأورم رونفالسين فيها فُرَصٌ عديدةٌ لأنْ ينالَ أَجْرَهُ عن جَدارَة. وفي سكارا التي كان فيها لـــ كنوتْ رصيدٌ من الآذانِ والعُيونِ، اشْتَرَوْا معلوماتٍ ثمينةً من رَجُلٍ كان قد غادر لِتَوّه مصلحةَ كارل سفيركرسون في فيسينغو.

لم يقلْ كنوتْ شيئًا عن موضوعِ زيارتِه، بل شاءَ الحديثَ فقط عن آرنْ. وقد وجدَه في مكانٍ لم يكنْ يليقُ، في رأيه، بِرَجُلٍ في جَوْدَةِ آرنْ... في المطابخ، وسَط الأقنّة.

وتلبّكَ آرنْ وارتبكَ عندما طلب كنوتْ بأنْ يقوما في الحالِ بمسابقةٍ للرِّمايةِ بالقوس، وأقاما لذلك الغَرَضِ هَدَفًا في ساحةِ القلعة. وقد نُصِّبَ الهدفُ على مسارِ أربعين خطوةً، وهي المسافةُ التي رأى فيها آرنْ عُسْرًا على كنوتْ، لكنّ هذا الأخيرَ ظل مُصِرًّا. واختارا أكثرَ الأقواسِ متانَةً، واجتمَع الجميعُ في الساحة، لأنّ كلَّ واحدٍ كان يعرفُ أنّ ذاك الذي كان سَيَقِيسُ نَفْسَهُ بأحدِ أبناءِ آرناس هو الملكُ القادم. فلا أحدَ رغِب في أنْ يُفوّتَ ذلك المشهدَ، ولا أكثرَ من ذلك، في أنْ يُخاطِرَ بِألا يملِكَ شيئًا يَرْوِيهِ بعد ذلك.

ووَقَفَا جَنْبًا إلى جنْب. بيد أن آرنْ بَدَا وكأنه لا يملكُ أيَّ رغبةٍ في ذلك التمرين. عندئذ وَضَعَ كنوتْ يَدَيْهِ على كَتِفَيْ آرنْ وعهِد إليه بما فكّر فيه مَلِيًا.

« يا صديقَ الطفولةِ العزيز، إنّ مُهِمَّتَكَ أنْ تَهْزِمَ مَلِكَك، ولا شيءَ غير ذلك، وكأنّ كلَّ شيءٍ مرهونٌ بهذه السِّهام. تخيّلْ أنّ سيسيليا مرهونةٌ بها أيضًا، نَعَمْ، إنني على درايةٍ بالأمر. تخيّلْ أنني مَلِكُك، وأنني أستطيعُ أنْ أمنحَكَ إيّاها إنْ أنتَ غَلَبْتَني. هيّا، سأرمي أنا أوّلا. لا، لا تَقُلْ شيئًا، حسبُك أنْ تُسَدِّدَ رَمْيَكَ وتُصِيب.»

وفيما كان آرنْ يجتهِدُ في أنْ يستعيدَ وَعْيَهُ، بعد تلك الكلماتِ المُحْرِجَةِ، أطْلَقَ كنوتْ سِهامَه العشرة، فأثار الإعجابَ، لأنّ لا أحدَ كان يُصدّقُ بأنه سيكون نبّالا مَاهِراً.

وسدّدَ آرنْ بِدَوْرِه نحو الهدف، عابِسَ الوَجْهِ، وكأنّ كلَّ شيءٍ أضحَى مرهونًا حقًا بتلك السِّهام. وقد لاحظ كلُّ واحدٍ بأنّ فارقًا كبيرًا يَفْصِلُ ما بين النبّالَيْن، وأنَ آرنْ أفضلُ الاثنين.

أخذَ كنوتْ آرنْ بين ذِراعَيْه، وقال مؤكداً إنّه قد فازَ للتوِّ بِسيسيليا ألغوتسدوتر، زوجةً قادِمة. ثم غادَرا الساحةَ وانْتَقَلا إلى البُرْج، وطلَب كنوتْ إحضارَ الجِعة.

وعندئذٍ قدّم كنوتْ شُرُوحَهُ. لقد دقّت الساعة. فالمسألةُ بالنسبةِ إليه مسألةُ تَاجٍ، فيما المسألةُ بالنسبةِ لآرنْ مسألةُ سِيسيليا. كان كنوتْ إريكسون يتصرّفُ في العديد من المُخْبِرِينَ في البلاد، فكان يعرفُ كلَّ ما يحدثُ من أمورٍ مُهمّة، وكذلك كُلّ ما بَدَا أقلّ أهميةً، كَمِثْلِ الذي يُحَرّكُ آرنْ وسيسيليا.

أجاب آرنْ في عُبوسٍ بأنّ طالبَ العرشِ كان على درايةٍ بالأمرِ كلَّ الدرايةِ، لكنه لم يُدركْ الهدفَ من وراءِ مسابقةِ الرّمايةِ بالقَوْس. فلِماذا يُغامرُ بالفشلِ ملكٌ يَطْمَحُ إلى العرشِ، ومنْ ثمّ يَضَعُ نفسَه في عِدادِ الفاشِلين؟

في هذه اللحظةِ أحْضَرَ الأقنةُ الجِعةَ، وقد ابتسَمَ كنوتْ حين رآهُم، لأنه كان يُقَدّر نَفَادَ صَبْرِ آرنْ وفُضولَه. لكنّهما بدآ يَدُقّانِ القَدَحَ بالقدحِ، كما تقتضيه العادةُ. لكنّ كنوتْ سرعان ما رأى نَفَادَ الصَّبْرِ وقد اتّقدَ في عَيْنَيْ آرنْ. غير أنّ كنوتْ ما لبثَ أنْ أخذَ يتحدّثُ عن سانتْ إريك، أي والِدِه الذي كان طيّبَ المُعاشَرةِ مع كل واحدٍ، ولم يشتَرِطْ أيَّ شيءٍ لنفسِه،

وكان يُؤْثِرُ صلواتِه الطويلةَ وقميصَهُ الفظَّ المصنوع من شَعْرِ الماعزِ، على حياةِ القصر، ويُساعد الضُّعفاء، ويُؤنّب الأقوياءَ، ومات قدّيسًا على يَدِ أحدِ الأشرار. ولعلّ آرنْ قد سَمِعَ الكثيرَ عن كلّ ذلك، لكنه أحسَّ أنّ في الأمرِ شيئاً كان لا بد من إضافته.

كان والدُ إريك جيدفرسون يُدْعَى جيدفارد أورْكني، الذي أبحر مع سيغورد جورسلفار إلى الأرضِ المقدسة، وقَدّم لِمَلِكِ النرويج خَدَماتٍ جليلة. وعِرْفَانًا بخدماتِه تلك قدّم الملكُ سيغورد لـــ جيدفارد دوركني قِطْعَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ من الصليبِ الحقيقي الذي صُلب فوقَه المسيح. وكان الملكُ سيغورد نفسُه قد تلقّى قِطْعةً منه من يدِ الملك بالْدُوين من أوتْريمَر، مَلِكِ القدس.

توقّف كنوتْ في أثناءِ السّرد وسأل آرنْ إنْ كان قد سمِع شيئًا عن أوْتريمَر ما وراء البحر، فضحِكَ آرنْ في هُدوءٍ وقال أيْ نعمْ بإشارةٍ من رأسِه.

وَالِدُ كنوتْ، إذًا، قد وَرِث بدورِه، تلك القِطْعَتَيْنِ الصغيرَتَيْن من الصليب الحقيقي. لقد رَصَّعَهُما على صَليبٍ من ذَهَبٍ كان يحمِلُه في رَقَبَتِه دومًا. وعندما قَطَعَ إديموند لو مانشو رأسَه سقطتْ القطعةُ المقدَّسةُ على الأرض وحُمِلَتْ إلى مُدبِّرِ ذلك القَتْل: إلى ذلك الذي كان يُلقِّبُ نفسَه بالمَلِكِ، كارل سفيركرسون. لم يكنْ قاتلَ الملكِ وحسب، بل شريراً أيضًا استحْوَذَ على بقايا جِدُّ مقدّسة. ألم يرَ الرّبُّ مَقْتًا في أنْ يَحْمِلَ شريرٌ في رقبتِه صليبًا رُصّعتْ عليه قِطَعٌ صغيرةٌ من الصليب الحقيقي؟

وأجاب آرنْ أنّ الأمرَ مُريعٌ بالتأكيد، وبأنْ لا مناصَ من تصحيحِ ذلك بِلا تأخير.

وبابتسامةٍ عريضةٍ قال كنوت إريكسون بأنّ أوانَ الحزمِ قد آنَ. بيد أنّ الوصولَ إلى المكان الذي تُوجَد به تلك البقيةُ المقدَّسةُ يحتاجُ إلى مجموعةٍ صغيرةٍ من الرجالِ القادرين على الإبحارِ بِلا عَناءٍ، وعلى تحمُّلِ البرد، ويُتْقِنُونَ أحسنَ من غيرِهم، استعمالَ القوسِ والسيف.

ثمّةَ دافعٌ لهذه المسابقة، أردَفَ كنوتْ قائلا. كان هناك بالفعلِ رجالٌ

قادرون على الأعمالِ الماهرةِ في أثناءِ التدرّب، لكنْ سرعان ما كان ينكشِفُ عجزُهم في أثناءِ المعركة، حين تصبحُ الروحُ مُفعَمةً غَضَبًا وخَوْفًا. لقد بَرْهَنَ آرن عن قُوّتِه حين صوّب إلى هدفِه وهو يُفَكِّرُ في سيسيليا.

لا بد من التحرُّكِ الآن إذاً، أضاف كنوتْ. وسأل آرنْ إنْ كان مُهيّئًا للسّيْرِ خلفَه، مع سِتّةِ رجالٍ آخرين. وفيما بعدُ وَضّحَ كنوتْ أنه حينما يُصْبِحُ مَلِكًا، سيكون أوّلَ مَنْ سيُبَارِكُ الاقترانَ ما بين آرن وسيسيليا.

كانت تلك ثَالِثَ مرّةٍ يَسْمَعُ فيها آرنْ بأنه لنْ يحصُلَ على سيسيليا طالما ظل كارل سفيركرسون على قيدِ الحياة. فإنْ كانت الشكوكُ تُراودُ آرن من قبلُ، فها هي ذي تتلاشَى هذه المرّة.

* * *

عند وصولِهما إلى فورسفيك، على ضِفافِ فاتيرن، اكتشفا أنّ إيفيند جونسون، وجون ميكلسين، وإيجيل أولفسين أولاتيغ، قد شيّدوا قاربًا صغيرًا. كان ذلك القاربُ واسعًا، ولا يتطلّبُ أكثرَ من ثلاثةِ أزواجٍ من المجاديف. وقد اعتذر الحُرّاس النرويجيون لِتَعَذُّرِ نَحْتِ الرُّوناتِ المطلوبة، لكنّ صلاحيةَ الإبحارِ تَفَوَّقَتْ على كلّ الباقي، لأنّ الجليدَ كان على وشكِ الذَّوَبان. كان ذلك الزورقُ الذي بُني على شاكلةِ سفينةٍ نرويجية طويلةٍ، أسْرَعَ بكثيرٍ من أيّ زورقٍ من زوارِق فاسترا غوتالاند، ذات الشِّراعِ أو المجاديف – لاسيما مع جَدّافين نرويجيين –، ويمكنُ جَرُّهُ على الجليدِ بلا عَناءٍ. كان كنوتْ راضيًا أيما رضًا عمّا رآه، وقد شَرَحَ كلَّ شيءٍ بالتفصيل لآرنْ الذي لم يكنْ هو أيضًا أكثرَ درايةً بِالخِبْراتِ النرويجية، من بقيةِ أعضاءِ العائلة.

بعد انتظارٍ دام ثلاثةَ أيام آنَ أوانُ الانطلاقِ، فَتَلا آرنْ قُدّاسًا باللاتينية، ثم ذَكَّرَهُم كنوتْ إريكسون بأنّ الوقتَ قد بات حاسِمًا. وأنّ قُوّتَهُم تَكْمُنُ في كونهم ثمانيةَ رجالٍ ليس أكثر، وفي كونهم يَعْبُرُون مياهَ بُحيرةِ فاتيرن، وهو ما لم يتخيّلْهُ أحدٌ مُمكِناً. اعتقدَ كارل سفيركرسون، قاتلُ الملكِ وحَرَسُه أنهم

قد صاروا آمنينَ، والذين كانوا على الطَّرَفِ الجنوبي من جزيرة فيسينغو. لكنّ الربّ لنْ يقفَ إلى جانبِ ذاك الذي اغتالَ قدّيسًا لِغايةٍ في نفسِه. وبعد الانتصار، سينالُ كلُّ واحدٍ ما يستحقّهُ من جَزاء.

لم يَقُلْ كنوتْ أكثرَ من ذلك. كان الزورقُ قد هُيِّيء في الماءِ، بالقربِ من الضفة، حتى تنتفخَ آزرَتُه، وتُصبحَ كَتيمَةً بما يَفِي بالغرضِ. ثم جُرَّ الزورقُ خارج الماء بواسطة خيولٍ، وأُنْهِيَ شحنُه، ثم أمسكَ الرجالُ الثمانيةُ بِحَبْلٍ وأخذوا يجرّونَه إلى مكانٍ في عرض البحيرةِ لم يعدْ الجليدُ يحاصرُهُ. وبواسطةِ قاعِه المسطّحِ صار الزورقُ يَنْسابُ في يُسْرٍ فوق الجليد، والرّجال الثمانية كانُوا مع ذلك فوق الكفاية.

وبعد نحو نِصْفِ يومٍ، وفيما كانوا في وسط بحيرة فاتيرن تقريبًا، وفيما تراءتْ لهم جزيرة فسينغو من بعيدٍ، إذْ بهم يَصِلُون إلى صَدْعٍ في الجليد. كانت الريحُ تهبُّ من الغرب، وهي عاديةٌ في مثلِ ذلك الفصلِ، وتمكّنوا من رَفْعِ الشِّراع. وكانوا كلّما انحدَرُوا نحو الجنوبِ ازدادَ الصّدعُ اتّساعًا. وعند غُروبِ الشمسِ رأَوا أنّ الطَّرَفَ الجنوبي من فسينغو، وهو مَقْصَدُهُم، قد خَلا من الجليد تماماً. هناك أدركوا أنّ الربّ كان يُؤازرُهم. فلَوْ جاؤوا قَبْلَ ذلك بِيومٍ واحدٍ لَمَا وَجَدُوا بُدًّا من أنْ يَتْرُكوا الزّورقَ فوق الجليدِ الذي كان جَلياً في نورِ النهار. ولو تأخّروا يوماً واحداً لكان الجليدُ اخْتَفَى ولَكان الحُرَاسُ وُضِعُوا فوق قِلاعِ حِصْنِ نَاسْ، مع الأَمْرِ بمراقبةِ المخاطرِ القادِمةِ من البُحيرةِ.

وجاءوا بالشِّراعِ، وجَدَفُوا في بُطْءٍ نحو نَاسْ، ولامَسُوا الضفةَ قبل أنْ يجنحَ الليلُ. وتواروا خلفَ خليجٍ صغير، تحت شجرِ جارِ الماء (أشجارٌ تعيش في الأماكن الرطبة) والعُلّيق، ولفّوا الزورقَ بالشّراعِ، وأوقَدوا مَجْمَرَتَيْن، بعد أنْ أرسلوا كَشّافَين اثنين إلى البرّ ليتأكّدا من أنّ لا أحدَ يرى تلك النارَ. كانُوا في حاجةٍ إلى تلك النار، لأنّ برودةَ ليالي الربيع كانت ما تزالُ قارِصة.

كان كنوتْ مُنْشَرِحَ الصّدرِ، وكأنّ أصعبَ الأمورِ صارت من خَلْفِهِم.

وجلسَ إلى جانبِ آرنْ وقال له بأنّ تلك الليلةَ قد تكون إمّا آخرَ ليلَةٍ يقضيانها معًا، وإمّا أوّلَ لَيْلَةٍ في سلسلةِ لَيالٍ طويلة.

ثم تحدّثَ عن الرَّجُلِ الذي قَتل وَالِدَه وحاول أنْ يقتلَ وَالِدَ آرنْ في مُنازلةٍ فريدةٍ وغير مُتساوية. لكنّ آرنْ ما لبث أنْ قاطعَه قائلا إنّ مثلَ تلك الكلماتِ غيرُ مُجدية. كان آرنْ يعرفُ كلَّ ذلك، وقد فكّر فيه طويلا.

ومع ذلك، فقد كانت تُراوِدُه شكوكٌ كثيرة. لقد أَقْسَمَ من قبلُ بأنّه لنْ يُشْهِرَ سيفَه تحت سطوةِ الغضبِ، أو لِغايةٍ في نَفْسِه. وهنا تحديداً شَعَر وكأنّه قد بات على وَشَكِ أنْ يُشهِرَ ذلك السيفَ حقاً. فَلَوْ قُتِلَ كارل سفيركرسون لَكَسَبَ من وراءِ موتِه خَيْرًا جمًّا. لقد أدرَك حقّ الإدراكِ أنّ الأمرَ لا يقفُ فقط عند استردادِ بَقِيَّةٍ مُقدّسةٍ تعودُ شرعًا لِصَديقِه كنوتْ. فبَعْدَ أنْ يَنْتَزِعَ الصليبَ من عُنُقِ كارل سفيركرسون، ستكون رأسُ هذا الأخيرِ قد قُطِعَتْ.

لم يَسْعَ كنوتْ لِتَبْدِيدِ عَذابِ آرنْ، لأنّ هذا الأخيرَ كان مُحقّاً. وبدلا من ذلك تحدّثَ عن سيسيليا، وقال بأنه سيَسْعَدُ كثيرًا، بصفتِه مَلِكًا، بأنْ يصطَحِبَهُما إلى أيةِ كنيسةٍ، أو إلى مُطران أوسترا أروس، إنْ رغِبَا في ذلك. واضطرمَ آرنْ لذلك رغم الهواءِ البارِدِ، وأجاب بأنّ أيّ كنيسةٍ تَفِي بالغرضِ، طالما هي في الجوارِ. وضَحِكا مِلْءَ قَلْبَيْهِمَا، وأضاف كنوتْ بأنّ في إمكانِ آرنْ أنْ يَسْتَعيرَ سيفًا نرويجياً جيّدًا لم يُؤَدِّ فيه يميناً مُقدّساً.

ثم خفّضَ صوتَه وشرَح ذلك الذي كان سيحدُث. لقد اشتريَا معلُوماتٍ عِدّةً في سكارا، بيد أنّ أهمَّ المعلُوماتِ جاءت من رَجُلٍ غادَرَ مَصالِحَ كارل سفيركرسون في ناس. فهكذا عَلِمَا أنه عندما يخلُو الجوُّ من كُلِّ خَطْبٍ – عندما يصيرُ الجليدُ أضعفَ من أنْ يحملَ ثِقَلا، أو عندما لم يكنْ قد ذابَ كلياً– يخرجُ كارل سفيركرسون إلى التَّنَزُّهِ على الضِفّةِ، بَحْثاً عن الوِحْدَة. لا أحدَ كان يعرفُ السّببَ، لكنه كان يقومُ بتلك النُّزهةِ عند الفَجْرِ تحديداً، كلّما أُتيحَ له مِنْ النورِ ما يكفِي لأنْ يَرَى مَوْطِئاً يَضَعُ فيه قَدَمَيْه.

مقابلَ هذه المعلومةِ المهمّةِ نَالَ الخائنُ الأجرَ الذي كان يستحقّه.

فلو شاء الربُّ، لَحَدَثَ كلُّ شيءٍ عند نهايةِ الليل، لأنه آخرُ ليلٍ قَبْلَ أنْ تصبحَ مياهُ البحيرة طليقةً، وقبل أنْ يَشْرَعِ كارل سفيركرسون في انتظارِ بواخرِ العَدُوِّ. لم يَبْقَ إذًا سوى الصلاةِ، والسّعيِ إلى قليلٍ من النومِ.

وأقيمتْ نُوَبُ الحِراسة. كان الزورقُ مُتَسَتِّرًا وراءَ أشجارِ جارِ الماء، وظلامِ الليل.

نام آرنْ قليلا ولم يَنَمْ الآخرون أكثرَ ممّا نَام، حتى وإنْ كانوا نرويجيّين، ولم يَبْدُ عليهم من خَشْيةٍ سوى خَوْفِهمْ من أنْ يكون اليومُ التالي آخرَ أيّامِهم.

لكنّ كلَّ شيءٍ مرّ وكأنّ الربَّ وقَف إلى جانبِهم. كان آرنْ قد هيّأ نفسَه، مع قَوْسِهِ ونبالِه، قَبْلَ طُلوعِ الشمس بكثير، واتّخذَ لنفسه موقعًا مُميّزًا. وقد وقَف إلى جانبه كنوتْ، وجون ميكلسين، وإيجيل أولفسين أولاتيغ. وبسببِ وجلس كنوت أمام الدفَّةِ وهو يمسكُ سَجِينَه بِيَدٍ والبقيةَ المقدَّسة بِاليَدِ الأخرى. وعندما بات رحيلُهم وشيكاً أرخَى كنوت طَوْقَ سجينِه ثم حَدّثه بصوتٍ قويّ قائلا:

«أيها السجين، لقد صرتَ الآن طَليقاً. وقد نجوتَ من الموت. لكنْ عليك أنْ تعرفَ مَنْ كان بِكَ، بعد الربِّ، رَؤُوفاً ورَحِيماً. هيا إذهبْ، وكُنْ سريعاً حتى لا يظنَّ أحدٌ أنك قاتِلُ كارل سفيركرسون!»

أشار كنوتْ على الجذّافين بأنْ ينطلِقُوا، وبعد بضعةِ مجاديف قويةٍ صاروا بَعِيدِينَ عن مَرْمى السِّهامِ. وفي تلك اللحظةِ كان السجينُ الذي قذفَه كنوت خارجَ الزورقِ قد أدركَ الضفةَ وأسرعَ بخطىً واسعةٍ نحو بابِ القلعةِ التي كانت أسوارُها مَنِيعَةً، إذْ ما مِنْ أحدٍ يستطيعُ أنْ يُعَرِّضَ حياةَ الملكِ للخطرِ في داخِلِها.

أسرع حراسُ كارل سفيركرسون إلى الضفةِ، بأقواسِهم ونبَالِهم، ثم أطلَقُوا سِهامَهم بِلا طائلٍ، فيما كانَ كنوتْ يحمِلُ البقيةَ المقدَّسة، مُهَلِّلا فوق رأسِه.

ثم شَدّوا الرِّحالَ إلى فورسفيك وأبحرُوا في اتجاهِ الريح. فما من باخرةٍ

واحدةٍ منْ بواخرِ فاسترا غوتالاند كان يسعُها أنْ تُطارِدَهم في مثلِ تلك الظروفِ، لاسيما مع جذّافين أمثال أقاربِ المَلِكِ كنوتْ.

* * *

في الأسبوعِ الذي أعقَبَ سانتْ فيليب، لم يكدْ القَطيعُ يعودُ إلى الرَّعْيِ في الحقولِ والفضاءاتِ المُسيّجة التي تَجَدَّد عُشْبُها، حتى استحالَ الربيعُ صيفاً. وقد ظلّ نسيمُ الجنوبِ العليلُ يَهُبُّ في لِينٍ، وصار كلُّ شيء يتفتَّحُ فجأة. فقد غطّى بِساطٌ سميكٌ من الازهار البيضاء المنتشرَةِ في الغاباتِ، سُفوحَ كينيكول، وتعالتْ أصواتُ الوَقْوَاقِ الأولى.

في هذه المرّةِ ذهَب آرن بمفردِه إلى هوسابي، وبِوتيرةٍ ثابتةٍ، وكأنّه على غيرِ عجلةٍ من أمرِه، بعد أنْ اطمأنّ بأنّ سيسيليا قد صارتْ مِلْكاً له. وكان عليه أيضاً أنْ يُفكّرَ كثيراً، لأنه كان في الآوِنَة الأخيرةِ مُنْهمِكاً كثيراً في خِدْمَةِ كنوت إريكسون. نَعَمْ، لقد مرّتْ أشياءٌ كثيرة، ولم يكنْ آرن على يَقِينٍ بأنه قد فَهِمَ نَوايا كنوتْ فَهْماً كامِلا.

وعند وُصولِه إلى فورسفيك بعد حملَتِهم الناجحة، وفيما كان الكثيرُ من الجليدِ قد تغيّر في يومِ واحدٍ، بعثَ كنوتْ على الفورِ رسالةً إلى أرناس، وكان على ماغنوس فولكسون أنْ يحمِلَها بِدوره إلى جوار جيدفرسون، في إيريكسبيرغ. كان يجبُ أنْ يكون الأقارِبُ على عِلْمٍ بما جَرى قَبْلَ حينٍ، لأنّ حَشْدَ الأسلحةِ باتَ وشيكاً.

كان آرن على استعدادٍ لأنْ يحمِلَ تلك الرسالةَ بنفسِه، مؤكداً أنه يستطيع إيصالَها في وقتٍ أسرعَ. لكنّ كنوتْ ردّ عليه أنّ ثمة أشياءَ أهمُّ يجبُ القيامُ بها، وأنّ آرن يستطيعُ أنْ يَلْتَحِقَ بِسيسيليا فور الانتهاءِ من الأمورِ المُهِمّة.

ففي المقامِ الأولِ كان على كنوتْ أنْ يعبرَ بحيرة فاتيرن ثانيةً مع خُيولٍ وحُرّاسٍ، لكي يتّجه إلى بيالْبو بِرُفقةِ آرن ويُبْلِغَ بيرجر بروزا. لم يبقَ أمامهم يومٌ واحدٌ يمكن تضييعُه، لأنّ الجهلَ قد يعني الموتَ، إذْ يتعيَّنُ على كلِّ الأقاربِ والحُلفاءِ أنْ يجتَمِعُوا قبل أنْ يُهاجِمَهم العدوّ. وفوق ذلك فقد

يكونُ من المفيدِ أنْ يُبْلِغَ بيرجر بروزا بالأمرِ أحدٌ من ذويهِ، وهو الشخصُ الذي شارك في تَصْفِيَةِ شرّيرِ فيسينغو. وفضلا عن ذلك فمِنَ المُهِمِّ أيضاً الالتِقَاءُ بِستيفان، مطرانِ أوسترا أروس. كان على كنوتْ أنْ يكسبَ لِقَضِيّتِه بيرجر بروزا والمطران معاً، فهذان الرّجُلان مِنْ أقاربِ آرن. ولذلك فلنْ يَجِدَ آرن ما يَعْتَرِضُ به على ذلك.

وعندما وصلا إلى بيالْبو استقبلهما بيرجر بروزا وكأنهما شبابٌ جاؤوا على حين غرّة لمأدبةٍ عند قريبٍ أو أهلٍ. وما لبث أنْ التَمَسَ منهما العذرَ، لأنه مضطرٌ للسفر منذ اليومِ التالي، حيث تنتظِرُه في لينكوبينغ مَهامٌ هامةٌ. والتمسَ منه كنوتْ حديثاً على انفرادٍ وأَطْلَعَهُ بذلك الذي حَدَث. لكنْ لا بيرجر بروزا ولا أيّ أحدٍ غيره سيذهبُ إلى لينكوبينغ قبلَ وقتٍ طويلٍ، لأنها مدينةُ كارل سفيركرسون، وستصبح مدينةَ بوليسلاف وكُول.

مَكَثَ بيرجر بروزا لحظةً من دون أنْ يقولَ كلمةً واحدة، ولم يُفْشِ وَجْهُه عنْ أيّ شَيْءٍ ممّا كان يُفَكِّرُ فيه. وقد قام فجأةً وقال إنَّه ليس ثمةَ سوى حَلٍّ واحدٍ. فكُلُّ الفولكونغر سيَنْضَمّون خلفَ كنوتْ مثلَ رَجُلٍ واحدٍ، ويُسانِدونَ إرادتَه المشروعةَ في استِعادةِ عَرْشِ والدِه. كان لا بد من أنْ يتّحِدُوا ضدَ السفيركرْ وحُلَفائِهم الدنمركيين. وكان لا بد مِنْ الظهورِ بمظهرِ القوّة والعزيمة، ومِنْ استعمالِ السَّبْقِ الذي كان مُتاحاً.

بالنظرِ إلى حالةِ الجليد فوق فاتيرن سوف يمرُّ يومٌ آخرُ قبل أنْ يصلَ نبأُ اختفاءِ كارل سفيركرسون إلى اليابِسة. سوف يتكفَّلُ بيرجر بروزا باستثمارِ ذلك الخبرِ في أوسترا غوتالاند. لكنه نَصَحَ كنوتْ بأنْ يذهبَ على عجلٍ إلى أوسترا أروس حتى يَكْسِبَ المطرانَ إلى جانبِه إنْ أمكنَهُ ذلك، وحتى يستدعيَ السفيرْ إلى تينغ يتمُّ خلالَه تعيينُ ملكٍ جديد. كلُّ ذلك كان لا بد من أنْ يجريَ على وجهِ السرعة، ولم يكُنْ الوقتُ وقتَ راحَةٍ أو احتِفال.

في الحالِ وافَق كنوت إريكسون على قراراتِ بيرجر بروزا، لأنه كان يعرِفُ أنْ لا أحدَ أكثرَ براعةً منه كلّما تعلَّق الأمرُ بالسلطة. ففيما كانوا

يتأهَبون لِشَدِّ الرِّحالِ وجَّه كنوتْ طلباً لم يَفْهَمْه آرن: طلَب أنْ يَسْتَعِيرَ من الفولكونغر تُروساً ومعاطِفَ زرقاءَ اللونِ، وبَيارقَ صغيرة زرقاءَ اللونِ لِوَضْعِها فوق الرّماح. وكان جزءٌ من حَرَسِ بيالْبو سيرافِقُه أيضاً. وقد وافق بيرجر بروزا على الفورِ وكأنه فَهِمَ تماماً نَوايا كنوتْ. فحتى وإنْ كان آرن لم يَفْهَمْهُمَا فقد أدرك منذ بعضِ الوقتِ أنّ الرّجالَ أمثال بيرجر وكنوتْ، يُفكّرون بطريقة مختلفةٍ عن تفكيرِه تماماً.

في أوسترا أروس كان المطرانُ ستيفان قد بدأ يرفضُ استقبالَ كنوتْ إريكسون. بل قِيلَ إنه قد غَضِبَ وصرّح بأنّ هذا الرجلَ مُدبِّرُ دسائس ليس إلا.

لكنْ حينَ عَلِمَ أنّ كنوتْ سيرافِقه آرن ماغنوسون، استقبلَهُما في مَنْسَخِ المُطرانية. لقد جثا آرن وقبّلَ يَدَ الحَبْرِ، فيما تردّد كنوتْ في أنْ يَحْذُوَ حذوه. وعلى حِسابِ كنوت دارَ الحِوارُ باللاتينيَّة، فوجد كنوتْ نفسَه مُقصًى، وتظاهرَ بالغضبِ ضدّ آرن، حتى وإنْ استحقَّ المطرانُ في ذلك، اللَّومَ أيضاً.

فذاك الذي كان المطرانُ يريدُ قولَه إلى كنوتْ أمرٌ منْ السهلِ فَهْمُه، حتى وإنْ قلَّما سَرَّهُ ذلك القولُ. فلم تكنْ الكنيسةُ تستطيعُ أو ترغبُ في أنْ تَقِفَ أيَّ مَوْقِفٍ في المعركةِ التي لاحَ أمرُها في الأُفُق. فَبِصِفَتِه مطراناً يَسْهَرُ ستيفانْ على مملكةِ الربِّ وليس على مملكاتِ الأرض. فلم يَكُنْ من الواردِ إذنْ أنْ يتّخذ أيَّ موقفٍ لِمصلحة كنوتْ، أو لِمصلحة إخوةِ كارل سفيركرسون، أو في مصلحة أي طامعٍ آخر قد يظهرُ لاحقاً. فالسلطةُ الدنيويةُ شيءٌ، والسلطةُ الروحيةُ شيءٌ آخر.

تمالَكَ كنوتْ إريكسون نفسهُ بقوةٍ عندما فَهِمَ أنْ ليس أمامه شيءٌ يأملُ فيه من ذلك الجانب. بيد أنه كلَّفَ آرن بأنْ يُقَدِّمَ الْتماساً: هلْ بالإمكان أنْ يَتَلَقّى قُربانَه من المطرانِ شخصياً، في أثناءِ قُدّاس اليوم التالي؟ لم يرَ آرن أيّ مانِعٍ في ذلك، ولذلك ساندَ طَلَبَ كنوتْ بقوةٍ. فحتى وإنْ حَزَرَ المطرانُ بأنّ كنوتْ يحمِلُ نِيَّةً محدّدة بطلبِه القُربانَ على ذلك النحوِ، فقد قَبِلَ طلبَه

في النهاية. فلعلَّهُ يرى في ذلك طريقةً طيّبةً لإنهاءِ ذلك الشجارِ مع رَجُلٍ قد يصبح هو الملكَ القادمَ للبلاد. فحتى وإنْ كانت الكنيسةُ لا تتدخّل في المعركة من أجلِ العرش فإنَّ مِنْ مصلحتها أنْ تكونَ على وُدٍّ ووئامٍ مع المملكة.

بعد أنْ استأذنَ الذهابَ من المطرانِ قال كنوتْ في حماسٍ إنه بالإمكان كَسْبُ الكثيرِ من هذه الزيارة. وذهب ليلتقيَ بِرجالِه الذين لم يكونوا قد لَبِسُوا الألوانَ الزرقاء بعدُ، وطلَب منهم أنْ يَنْشُروا بعضَ الإشاعاتِ في المدينة.

في اليوم التالي توجّه كنوتْ وآرن إلى القُدّاس على رأس حُرّاسِهما الذين تزيَّنَتْ رِماحهم بِالأباريق الصغيرة الزرقاء. وفضلا عن مِعْطفَيْهما الأزْرَقَيْن كان كنوتْ وآرن يحمِلان سِلاحَيْهما وعليهما تُروسٌ تحمِل أَسَدَ الفولكونغر والتيجان الثلاثَة.

ما انفكتْ الإشاعاتُ تجذبُ العديدَ من النّاس حتى تعذّرتْ المقاعدُ لكُلِّ شخصٍ في داخل الكنيسة. وتوقّف كنوتْ وآرن في الرحبةِ، وانصرف رجالُهما للعنايةِ بالخيول.

تقدّما جنباً إلى جنبٍ، وقد أُفسِحَ الطريقُ أمامهم. تجرَّدَ كنوتْ من سيفِه عند المدخَلِ وِفْقاً للأعرافِ. لكنْ لم يكد كنوتْ يصلُ إلى جناحِ الكنيسة حتى دَهِشَ لآرن الذي لم يتجرَّدْ من سيفِه. وابتسم له آرن وهو يهزّ رأسَه. ومع دهشتِه العالية أفادَ كنوتْ إفادةً جمةً بما حدَث عندئذ: لقد أَخْرَجَ آرن سيفَه أمام المطران. وعلى الفورِ سَرَتْ قشعريرةٌ في المَجْلِسِ. وفي اللحظةِ المواليةِ مدَّ آرن سِلاحَه للمطران الذي تناولَه في أدبٍ جمٍّ وقَبّلَهُ ثم رشَّهُ بالماءِ المقدَّس قبلَ أنْ يُعيدَه إلى آرن الذي انْحَنَى وأعاد سيفَه إلى غِمدِه، ثم جَثَا وهَمَسَ لكنوتْ بأنْ يحذوَ حذوه.

وتنحّى الجميعُ، فصارا وحدَهما، جاثِمَيْنِ، حتى يشهدا القُربانَ منْ المطرانِ شخصياً. لكنْ بعد أنْ تسلَّما السرَّ المقدسَ خرَجا من الكنيسة، وهما يسيرانِ جَنْباً إلى جنب.

ووجدا انفعالا هائجاً كبيراً ينتظرهما في الباحة. لأنّ إشاعةَ السيفِ

المبارَكِ كانت قد وصلتْ إلى هناك، من دون أنْ يعرِفَ الناسُ بالضبطِ أيّ سيفٍ كان مقصوداً.

في تلك اللحظةِ، أشْهَرَ كنوتْ سيفَه، وأعلنَ أنّ ذلك السيفَ الذي باركَه الربُّ هو الذي قطَع رأسَ الشريرِ الذي قَتَلَ الملِكَ إريك في ذلك المكانِ عينِه. ثم تناوَل الصليبَ الذهبيَّ الذي كان يحمِلُه حول عُنقِه ورفَعه عالياً وأعلنَ أنّ الصليبَ هو البقيةُ المقدَّسة التي استولَى عليها السافلُ كارل سفيركرسون. وأضاف أنه يُكِنُّ الكثيرَ من الاحترامِ لعائلةِ سفيرْ ولــ التينغ الذي حُظِيَ به والِدُه، وأنه يُطالِب بدورةِ تينغ بعد خمسةِ أيامٍ. وأخيراً طلب بأنْ يصلَ الخَبَرُ إلى الــ لاغمان، وإلى رؤساءِ سفيلاند.

عندئذٍ تعالَى صِياحٌ كبيرٌ، صياحٌ أطلقَه في البدايةِ حُرّاس كنوتْ إريكسون على الخصوص. لكنّ الصياحَ ما لبث أنْ عمّ الجميعَ . فلا أحد كان يراوده الشكُّ في أنّ المطرانَ نفسَه قد اتخذ موقفاً مؤيداً لِهُوِيّةِ مَلِكَ سفيلاند القادم. وانتشرتْ الإشاعةُ بسرعةِ الريح.

وما كادا يعودان إلى معسكَرِهما حتى أرسلَ كنوتْ في طَلَبِ الماءِ مِنْ مَنْبَعِ سانتْ إيريك، حتى يَرُشّ بنفسِه كلَّ مَنْ سيأتي لِلِقائِه. وهكذا حرَّرَ آرنْ مِنْ واجباتِه إزاءَ مَلِكِه.

أخذَهُ جانباً وشرَح له بأنّ أياماً طويلةً من الانتظار والمناقشاتِ سوف تأتي. ووضّح كنوت أنّ آرن قد يَنْفَدُ صَبْرُهُ. أليس من الأَمْتَعِ له أنْ ينطلِقَ بسرعةٍ لِيَلْتَحِقَ بِسيسيليا؟ لم يكنْ كنوتْ يرغَبُ في أنْ يَقِفَ في وَجْهِ سعادةِ الرجال.

احتضَنَ آرن أفضلَ أصدقائِه، وما لَبِثَا أنْ تَوَدَّعا. وانطلقَ آرن نحو أحلامِه، وظلَّ كنوتْ ينتظرُ السلطة.

اقتضَى وصولُه إلى هوسابي أسبوعاً كاملا، وهو ما لم يكنْ يقدِرُ عليه أحدٌ بمثلِ تلك السرعةِ، بِحصانٍ شمالي على الأقل. بل وقد توقّفَ آرن في أرناس حتى يَرْوِيَ ما حدث، وحتى يَغْتَسِلَ، ويُغيِّرَ ملابِسَه.

ظل يمتطي حصانَه ببطءٍ نحو هوسابي، حتى صار خيمال يضرِبُ

الأرضَ بقائمَتَيْه منْ فرطِ نَفادِ صَبْرِه تقريباً. فكلّما اقتربَ آرنْ من المزرعةِ انحسَرَ انشغالُه بكلِّ تلك الأشياءِ العجيبةِ المتصلةِ بالمؤامَرات المَلَكيّة.

دُعِيَ ألغوتْ بالسونْ إلى أرناس حتى يُوافقَ على المَهْر. وقد رأى الكثيرُ أنه من الحكمة أن تُعالَجَ تلك المسألةُ على يدِ إسكيل وماغنوس من ناحيةٍ، ومن قِبَلِ ألغوتْ من ناحيةٍ أخرى، من دون حُضورِ آرن.

وقد كان ذلك لائقاً لآرن. فمن ناحيةٍ لَمْ يكنْ يهمُّ آرن أنْ يعرفَ إنْ كان هو وسيسيليا يمثّلان في نَظَرِ أبويهما، قضيةً جيدةً أو سيّئة. ومن ناحيةٍ أخرى، كان يفضِّلُ أنْ يُعْلِنَ بنفسِه عن الأخبارِ السّارةِ لسيسيليا، من دون رَقَابةٍ منْ أبيهِ أو من حُرّاسِه الحَذِرين.

كلُّ شيءٍ بَدا له أجملَ من أنْ يكون حَقيقة. فقريباً سيلتَقِي بها وسيَضُمُّها إلى صدرِه، ويقولُ لها إنّ حفلةَ الخطوبةِ سوف تجري على الأرجحِ في هوسابي، ابتداءً من قُداسِ سانتْ إسكيل.

قَرّر ماغنوس وإسكيل، حتى من دون استشارةِ ألغوتْ أنْ تُقامَ حفلةُ الخطوبةِ في هوسابي، وحفلُ الزواجِ في أرناس. وأنْ تَسْتَلِمَ سيسيليا فورسفيك مَهْراً مُؤجَّلا. أمّا مَهْرُها فهو ما سَيُنَاقِشانه بالتفصيلِ مع ألغوتْ. وفي رأيِهما أنه لنْ يجدَ ما يعترِضُ به على عَرْضِهما.

لكنّ كلَّ ذلك لم يَكُنْ هاجساً يُثْقِلُ بالَ آرن. فما الذي تَعْنيهِ كلُّ تلك الحقولِ والغاباتِ بالمقارنةِ مع الهِبَةِ الكُبرى التي قد يَهَبُها الربُّ له؟

فحتى وإنْ كان ألغوتْ لا يحمِلُ همّاً كثيراً لمشاعرِ ابنتِه، مثلما لم يحملْ ماغنوس هَمّاً لابنِه الأصغر في ذلك الشأنِ، فقد كان ألغوتْ يرى مستقبلَ عائلتِه وطمأنينتَها آمِنَيْنِ سَالمَيْنِ بفضلِ ذلك الزواج. فآرن على الأقل، قد حَفِظَ ذلك منْ خِبْرَتِه عنْ الصراعاتِ منْ أجلِ السلطة.

ففي خلالِ لقائِهما الأخيرِ بَدَا كلُّ شيءٍ بينهما مقطوعَ الأملِ. أمّا الآن فقد صار الأملُ ماثِلا مُحَقَّقاً. فعلى غرار غونفور وغونار فلنْ يُقَصِّرَ آرن وسيسيليا في توجيهِ الشكر والعِرْفانِ لِمَاريا القدِّيسة التي أثْبَتَتْ مرّةً أخرى أنّ الحبَّ هو المنتصِرُ دائماً.

وفيما كان يقترِبُ من الحصنِ لَفَتَ آرن أنظارَ الأقنةِ الذين كانوا يعملُون في البَذْرِ. وبادَر أحدُهم بالإبلاغِ عن وُصوله. وعندما اجتازَ عَتَبَةَ البابِ وَجَدَ صَفَّيْنِ من الأقنة، ومِنْ الخَدَمِ والحَرَسِ في انتظارِه. وأخذُوا جميعُهم يُصْدِرُون أصواتاً من الفَرَحِ أو يرفعونَ أسلحتَهم وأدواتِهم إلى السماء.

خرجتْ سيسيليا إلى السُّلَّمِ الخارجي وخَطَتْ بِضْعَ خطواتٍ وكأنها فكّرتْ في الرَّكْضِ نحو آرنْ قبل أنْ تَتَمالَكَ نفسَها وتَقِفَ في إباء. وفي إثْرِها خرجتْ أولريكا، جدتُها، وهي على وشكِ أنْ تُوَجِّهَ إليها لَوْماً وتأنيباً. لكنها ما لبثتْ أنْ رأتْ آرن مُحاطاً بِأقِنَّتِه وحَرَسِه. فتمالَكَتْ نفسَها أيضاً واقْتَدَتْ بحَفيدَتِها.

كان آرن في عِزِّ الاضطرابِ عندما هَبَطَ من على ظَهْرِ خيمال. وفي الحالِ أسرَع إليه أحدُ الخَدَمِ وأمسكَ بزمامِ الحِصان. وقد احمرَّ وجهُ آرن وتسارعتْ خفقاتُ قلبِه حتى ظنَّ أنه سينهارُ في الحالِ، فَبذلَ قُصارَى الجُهدِ حتى يتمالكَ نفسَهُ ويَقْتَرِبَ في وقارٍ من سيسيليا. سيسيليا التي كانت تنتظِرُهُ وهي تَغُضُّ الطَّرْفَ كما يليقُ بأيِّ فتاةٍ أنْ تفعل.

لكنّها رفعتْ رأسَها فَتَلاقَتْ نظراتُهما. وتلاشَى في الحالِ كلُّ تحفُّظٍ متأدّبٍ بينهما، وأسرَع كلٌّ منهما نحو الآخرِ، وتعانَقَا بطريقةٍ لا تليقُ بشابّين لم يَحِنْ بعدُ حَفْلُ خِطبتِهما. ومنْ جديدٍ أطلقَ الجميعُ صيحاتِ الفرحةِ، وما مِنْ أحدٍ سمِعَ كلمَةً واحدةً لِبُرْهَةٍ طويلة.

كان أَقِنَّةُ هُوسابي يعرفون ما حدَث، وكثيرٌ منهم كانوا يأملون في أنْ يَظلوا خلفَ سيسيليا بعد زواجِها. ففِي رأيِ العامّةِ أنّ الذين سيخدُمون ١٩منها سوى القسوةِ والصرامةِ.

تهيّأتْ سيسيليا في عجلٍ لِتَسْرِيجِ فَرَسٍ وَدِيعٍ وارتداءِ ثيابِهَا استعداداً لِرُكوبِه، فَلَبِسَتْ معطفاً طويلا أخضرَ اللونِ يَصلُ إلى الكَعْبَيْن. وبحركةٍ وَثُوقَةٍ باعَدَتْ مِعْطفَها ورَكِبَتْ فَرَسَها قَبْلَ أنْ يتسَنَّى لآرن أو لأَحَدٍ من الخَدَمِ مُساعدتَها. ومدَّ أحدُ الخدَمِ حقيبةً من الجلدِ لآرن يحوي خُبزاً وشحمَ خنزيرٍ وكأسين، وهو يقول له ضاحِكاً بأنّ تلك الأشياءَ قد تُفيدُهما إنْ طالتْ

نُزْهَتُهُما. وفي تلك الأثناءِ انطلقَتْ سيسيليا بسرعةٍ ثم استدارتْ إلى آرن وهي تدعُوه للّحاقِ بها. فضحِك آرن مِلْءَ حَلْقِهِ ثم داعبَ في لِينٍ عُنقَ خيمال وقال لها مازِحاً إنه لا يحقُّ لهما أنْ يَكْبُوَا في ذلك الصيد. وبِوَثْبَةٍ واحدةٍ رَكِبَ حِصانَه، وهو يثيرُ من حولِه هَمَسَاتٍ من الإعجابِ والدّهشةِ. ثم انطلقَ بدوره مُسرعاً، وهو يقودُ خيمال في عَدْوٍ مَحْسُوبٍ حتى لا يلحَقَ في الحالِ بالمعطفِ الأخضَرِ والشَّعْرِ الأصهبِ الذي كان يتطايرُ أمامه.

وما إنْ توارى عن الحصنِ حتى أطلقَ العنانَ لِخيمال. وما لبث أنْ لَحِقَ بسيسيليا بسرعةِ الريحِ، ثم تجاوزَها، ثم انْدَفَعَ نحوها، ثم تفَادَاها في آخر لحظةٍ، ثم رَسَمَ دوائرَ سريعةً من حَوْلِها، مُنْتَشِياً بِضَحْكاتِها الساحِرة. وبسرعةٍ فائقةٍ تجرَّأَ آرنْ فوقَف في توازنٍ كاملٍ على سَرْجِهِ، ثم اندفعَ ثانيةً نحو سيسيليا التي أوْقَفَتْ حِصانَها منْ فَرْطِ ذُهولِها، لكي تُشاهِدَ ذلك المشهدَ الجسور. وحين الْتَفَتَ إليها ضاحِكاً وهو ما يزالُ واقفاً متوازناً لم يَرَ آرنْ غُصْنَ السنديانِ الغليظ الذي ما لبث أنْ قَذَفَ به أرضاً.

بدَا السقوطُ سَيِّئاً، فلم يعدْ آرنْ يُحرّكُ ساكِناً. ونَزَلَتْ سيسيليا منْ على حِصانِها في وَجَلٍ وأسرعتْ نحو آرنْ، ثم أخذتْ تُداعِبُ وَجْهَه. في هذه اللحظةِ فتَح إحدى عينَيْه، ثم فتَح الثانية، وأخَذَها بين ذراعيهِ وهو ينفجرُ ضحِكاً. وتَدَحْرَجَا معاً في شقائقِ النّعمانِ المنتشرةِ في الغابة، فيما راحتْ سيسيليا تتظاهرُ باللعنةِ على آرنْ لِما أصابها بهِ مِنْ فَزَعٍ وخوف.

وجَلَسَا بعد ذلك طويلا وهُما متعانِقان من دون أن يقولا كلمةً واحدة، وكأنّ تغاريدَ الطيورِ قامتْ مقامَ الكلماتِ جميعاً.

ما لبثتْ هذه الوضعيةُ التي لم تكنْ مُريحةً أنْ أصابَتْهُما ببعضِ التَشَنُّجات، فتحرّرتْ سيسيليا وتمدّدتْ على العشبِ، وتمدّد آرنْ إلى جانبِها وداعَبَ وَجْهَها. وقاوَمَ تردُّدَهُ وقبَّلَ في رِفْقٍ جَبِينَها، ووَجْنَتَيْها ثم فَاهَا. وبسرعةٍ استجابتْ سيسيليا لِقُبلاتِه، وما لَبِثَتْ ريحُ الصيفِ أنْ كسحَتْ خَجَلَهُما.

وعادَا إلى الحصْنِ في ساعةٍ متأخرة.

الفصل الثاني عشر

طِيبةُ سيسيليا هي التي ألقتْ بالاثنينِ معًا في أعماقِ الشقاء. فالبعضُ اعترَضوا بالقول إنّ الربّ هو الذي يشاءُ ما سوف يحدُث، في السرّاء وفي الضرّاء على السواء، وأنّ السعادةَ والشقاءَ يَضْرِبانِ الإنسانَ خَبْطَ عشواء، مثلما تمتلِكُ النورنيات(نصوص اسطورية شمالية قديمة) قَدَرَ كلٍّ واحدٍ، ومَوْتَه المفاجئَ أيضًا.

مثلُ هذا التّصوّرِ المسيحي للكونِ لم يكنْ نادرًا في فاسترا غوتالاند، لكنّ مِثْلَ هذه المعتقداتِ ليستْ في نَظرِ السيسترسيين، وفي نظرِ آرنْ، سوى بقايا وَثَنِيَّةٍ، بلْ وإهانات، طالما فكّرَ الناسُ في هذه الحالةِ أنّ طيبةَ المرْءِ وأذاهُ، وخَطاياه وأعمالَه الخيِّرةَ، وأخطاءَه، وحُبَّه للمسيح، لا تعني شيئًا. فَمِنْ مَحَبَّةِ الربِّ كلُّ رجُلٍ يتحكّم في وجودِه، من خلال حُريتِه في الاختيار. وهكذا، وكما حاول آرنْ أنْ يشرحَهُ بمرارةٍ، فإنّ مَصْدَرَ شقائِهم يَكْمُنُ قبل كلِّ شيءٍ في طِيبَةِ سيسيليا. وحَسْبُهُم أنْ يُقَارِنُوها لحظةً واحدةً بأختِها كاتارينا، حتى يتأكّدوا من تلك الحقيقة.

ففي رَأْيِ كاتارينا أنّ سعادةَ سيسيليا تَعْنِي شقاءَها هيَ. فإذا كانت سيسيليا لنْ تعود للدراسةِ في غودهيم، فإنّ كاتارينا ترَى نفسَها منعزلةً إلى الأبدِ خلْفَ أسوار الديرِ الرّهيبة. وقد ضاعَف ذلك شُعورَها ذاكَ عندما عَلِمَتْ مِقدارَ المَهْرِ الذي قَبِلَ به والِدُها حتى تتزّوجَ إحدى بناتِه بِرَجُلٍ من فولكونغر. وبعد ذلك لم يكنْ من الواردِ أنْ يُشْغِلَ ألغوتْ بالَه بتزويجِ كاتارينا، وستظلُّ تَذْوِي ما بين الرّاهباتِ والعوانِس.

لو كان آرنْ وسيسيليا احتفا فقط بخطبتهما، فالأمرُ لم يكنْ مرهونًا بهما، لكنْ بالكفاح من أجلِ العرش.

تكبّد كنوتْ إريكسونْ من العَناءِ أكثر ممّا كان متوقعًا في جَعْلِ عائلةِ سفيرْ تختارُه مَلِكًا في مُورا. فعندما انتهت المسألةُ أخيرًا لم تتحققْ نِيَّتُهُ في الذهابِ إلى لاندستينغ في فاسترا غوتالاند في حينها. لأنّ بوليسلافْ كان قد أرسلَ جيشًا لِمُحاربَتِه، فلم يجدْ بدًا من أنْ يطلبَ من عائلةِ سفيرْ بأن تذهبَ للحربِ من أجل مَلِكِها الجديد.

إلا أنّ بوليسلاف لم يُعِدّ ما يكفِي من الجيوشِ، من فرطِ خشيتِه منْ أنْ يلعبَ الوقتُ ضدّه إنْ هو انتظرَ طويلا. لكنّ قُوّاتِه، المتكوّنةَ من أفرادِ عائلتِه، ومن دنمركيّين، ما لبثتْ أنْ تعرّضتْ للهزيمةِ على أيدي كنوتْ إريكسونْ، ومُواليه من عائلةِ سفيرْ، وبيرجر بروزا، وعائلةِ فولكونغر في أوسترا غوتالاند. كلُّ هذا كان جميلا وطيبًا، لكنّه استغرقَ من الوقتِ كثيرًا، وكان الصيفُ قد انقضَى منه نصفُه.

كان ماغنوس فولكسونء قد قرّر بأنْ لا بدّ منْ ملِكٍ سيحضرُ زواجَ ابنِه، ومن أجلِ ذلك كان ينتظرُ انتهاءَ كنوتْ من دورةِ تينغ فاسترا غوتالاند الذي كانت سيُباركُه بإجماعٍ ساحقٍ.

آرنْ وسيسيليا، إذًا، كان في وسعِهما أن يكونا زوجًا وزوجةً عندما يذهبان إلى غوديم. لكنهما لم يكونا سوى خطِيبين، وقريبًا سيرَى الناسُ سيسيليا وهي تحملُ طفلَ آرنْ في بطنِها.

وتكدّر آرنْ فتحرّى الأمرَ مع إسكيلْ الذي كان على درايةٍ بقوانين البلادِ الدُّنيوية. واكتفى أخوه بالضحكِ وبالقول إنّ القانونَ ينصُّ بان يدفعَ آرنْ ستة مارك من الفضة تعويضًا، في حال أصرَّ والدُ سيسيليا على أنْ يحملَ القضيةَ وعارَها إلى الــ تينغ. لقد محا إسكيلْ القضيةَ إذاً موضحًا انّ ألغوتْ بالسونْ لم يكنْ في وَضْعٍ يسمحُ له بأنْ يُثِيرَ متاعبَ منْ أجلِ أشياءٍ تافهة.

وبدافعِ الحبِّ الذي كانت تُكنُّه لأُختِها أصرّتْ سيسيليا على أن تواسي كاتارينا. وبالفعلِ فقد كان يسعُها أنْ تَتَنَبَّأَ في يُسْرٍ بأيِّ هَمٍّ منْ همومِها، لاعتقادِها أنها تعرفُ أختَها حقَّ المعرفة.

وقد كشفتْ الأيامُ أنْ ليس كذلك حالُ أختِها. وإلا لَمَا كانتْ قَدَمَاهَا وَطِأَتْ

أرضَ غوديمْ لِتُواسِي كاتارينا.

عندما التقتْ الأُختانِ في حديقةِ الدّيرِ اجتهدتْ سيسيليا في أنْ لا تُظْهِرَ كثيرًا سعادتَها، وفي أنْ تَرْفَعَ معنويّاتِ كاتارينا. وقد أكّدتْ لها أنها ستحدِّثُ أباها فور الاحتفالِ بزفافِها، وبأنّ هذا الأخيرَ سيحمِلُ كلماتِها بمزيدٍ منْ الجِدِّ عندما ترتبطُ بعائلةِ فولكونغر. فلا بد من إيجادِ وسيلةٍ لحثِّ ألغوتْ على التعقُّلِ ولو باللعبِ على بُخْلِه الشديدِ – لأنّ ذلك يُكلِّفُ الكثيرَ من المالِ الرنّانِ المُترنِّحِ، ومن ثَمّ الأراضي، والاحتفاظَ بفتاةٍ سجينةٍ داخلَ الدير. ولا سيما أنَّ في الأمرِ مالاً مُبَدَّداً، ما دامتْ الفتاةُ المعنيةُ لم تُقَدِّرْ قطُّ شهادةَ الحبِّ الأبويِّ هذا. هذه الحقيقةُ أَضْحَكَتْهُما عنْ طيبةِ خاطِرٍ.

ولم تُقاومْ سيسيليا الحديثَ عن سعادتِها: سيبقيان في آرناس طالما الاضطرابات قائمة، وسيستقران فيما بعدُ في فورسفيكْ، على ضفافِ بحيرةِ فاتيرنْ، وسيَذْهَبَانِ في زيارةِ الأقاربِ النرويجيين بِصُحبةِ إسكيلْ. الحالُ أنَّ سيسيليا تكلّمتْ في بهجةٍ عن كلّ ما كانت كاتارينا تصفُه بالحياةِ السعيدةِ الحرّة، خارجَ جدران الدير، وقدْ أَعْمَتْهَا الفرحةُ فصارتْ لا تميّزُ الحقدَ والغَيْرةَ في عَيْنَيْ أختِها. وحين سألتها كاتارينا إنْ كانت الولائمُ هيَ التي تسبّبَتْ في اسْتِدَاراتِها فأسرَّتْ إليها سيسيليا بِسِرّها. أجلْ لقد كانت خطيئةٌ صغيرة ستُكَلِّفُها ستة ماركات فضية، وبضعة تراتيل «باتر نوستر»، و»إيف ماريا»، وأسبوعاً من الخُبْزِ الجاف والماء، وبعضَ العقوباتِ التافهة الأخرى. نعمْ، لقد صارت الآن حُبْلَى. ولم تكدْ سيسيليا تنطلقُ في هذا الموضوعِ حتى شقّ عليها أنْ تَحْبِسَ دُموعَها، لأنّ هذا الحَمْلَ يُسَبِّبُ لها الخَشْيةَ والغِبْطَة مَعاً.

لم تُنْصِتْ كاتارينا إلى ثَغْثَغَةِ أختِها الصغرى، لأنها كانت غارِقةً في التفكيرِ في الكيفيةِ التي قد يشكّل بها ذلك الحَمْلُ طَوْقَ خَلاصِها.

وحين جاء موعدُ الوداعِ احْتَضَنَتْ سيسيليا في حُنُوٍّ، وتوسّلَتْ إليها بأنْ تعتني بنفسِها وبالطفلِ الذي سيولَد، والتَمَسَتْ منها أنْ تُبَلِّغَ إلى آرن خالِصَ تحياتِها.

لكنْ لم يكدْ بابُ الديرِ يُغْلَقُ من وراء سيسيليا حتى هُرِعَتْ كاتارينا إلى رئيسة الديرِ حتى تُغيّرَ في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ تلك الوضعيةَ.

كانت غوديم ديرًا حديثَ العهدِ، جاء تأسيسُه بفضلِ هِباتِ الملكِ كارل سفيركرسون، الذي وَهَبَ من قبلُ بعضاً من أراضيه لديرِ فريتا، في أوسترا غوتالاند أيضًا. لا أحدَ كان يعرفُ ما الذي كانت تفكّرُ به عائلةُ إيريك فيما يتصل بالأديرةِ التي شُيّدتْ من فضلِ كارل سفيركرسون وعائلته. وفي المقابلِ كانت الأمُّ ريكيسا رئيسة دير غويدم وهي واحدة من عائلة سفيركر، وقريبةٌ جدًا من الملك المقتولِ، قد عبّرتْ عن انشغالاتٍ عديدةٍ فيما يتعلق بمستقبلِ غُوديم. فقد كان الديرُ مُهدَّدًا بأنْ يرحلَ، أو بأن يُغْلِقَ أبوابهُ. فإنْ صار كنوتْ إريكسونْ، كما كان كلُّ واحدٍ يفكّر، مَلِكًا، فلنْ يكون منَ الطيبِ الانتماءُ إلى عائلةِ سفيركرْ في فاسترا غوتالاند، والدخولُ إلى ديرِ أسّستْهُ هذه العائلة. فلا أحدَ ينسَى كيف عاملَ إريك جيردفرسون، فارنيم في عهده.

كانت الأمُّ ريكيسا امرأةً شَكِسَة، بل وعُدوانية، وكانت تُعامِلُ المُبْتَدِئَاتِ من الفتياتِ، بِيَدٍ من حديد. لكنها لم تكنْ بحُكْمِ قُربها من الملك تجهلُ شيئًا ممّا كان له صلةٌ بالسلطة الدنيوية.

وحينما أقرّتْ لها كاتارينا بإحدَى خطاياها التي سَكَتَتْ عنها في اعترافها السابقِ – لقد مارست علاقةً جَسديةً مع أرنْ ماغنوسون –، أبدتْ الأمُّ ريكيسا نحوها الكثيرَ من القسوة. لكنّ كاتارينا أضافتْ والدّمعُ يملأ عينَيها أنّ خطيئتَها أخطرُ من ذلك، لأنّ آرنْ كان قد أغواها حين وَعَدَها بالزواج، مثلما وَعَدَ أختَها سيسيليا، التي أصبحتْ الآن حُبْلَى.

على الفور رأتْ الأمُ ريكيسا تلك الآفاقَ التي فُتِحَتْ أمامها. في الظاهِرِ لم تغبْ تلك الآفاقُ عن كاتارينا، لأنها أوضحَت أنّ آرنْ صديقٌ مُقَرَّبٌ من كنُوتْ إريكسونْ، وأنّ فَصْلَ آرنْ ماغنوسون عن الكنيسةِ قد يُسبّبُ للعدوّ ضررًا كبيرًا.

عند سماعِها لتلك الأقوالِ قالت الأمُّ ريكيسا بأنها وكاتارينا متشابهتان، وبأنهما يتقاسَمان بالتأكيد الرؤى نفسَها حول تلك المسألة. واكتفتْ بأنْ أنزلتْ

بكاتارينا عِقابًا خفيفًا لاعترافِها الذي جاءَ متأخرًا: أسبوعٌ من الصّمتِ، والخبزُ الجاف والماء، مع قائمةِ الصلواتِ المعتادة. أطرقتْ كاتارينا رأسَها وقَبّلَتْ يدَ الأمِّ ريكيسا، وحمدتْ القدِّيسة العذراء لِطيبتِها، ثم خرجَتْ وعلى شَفَتَيْها ابتسامةُ رِضا، ولم تُفْلِتْ تلك الابتسامةُ من نظَراتِ الأمِّ ريكيسا الثاقبة.

وسارعت الأم ريكيسا بخطى مسرعة وثابته للالتحاق بالمنسخِ. فقد كان عليها أنْ تقومَ ببعض الأشياءِ التي لا تقبلُ التأخير.

وكَتَبَتْ إلى بوليسلاف بأنْ يَنْقُلَ تلك القضيةَ إلى مُطران أوسترا آروس، وإلى الأسقُف بنْغتْ في سكارا، وألْزَمَتْ هذا الأخيرَ بالتصديقِ على ذلك الفصلِ قبلَ أنْ أن تتفاقَم الجريمةُ في حالِ أقْدَمَ خادمٌ باسمِ الربِّ على عَقْدِ قِران الخَطّائَيْن. وكان أملُها كبيرًا في أنْ يُسانِدَها الأسقفُ بينغ في هذه الناحيةِ تحديداً. كان الأسقفُ يعرفُ بالفعل أنّ زمنَ التسامُحِ مع الكنائس قد ينتهِي قريبًا. وفضلا عن ذلك كان الأسقفُ بينغ مديناً لعائلةِ سفيركر دَيْناً عظيماً.

وما لبثتْ أمنياتُ كاتارينا والأم ريكيسا أنْ تحققّت، على الرغم من تَبَايُنِ دوافعهما. فبعد مُرور أسبوعين أَعْلَنَ الأسقفُ بينغ في أثناء القُدّاس العظم في كاتدرائية سكارا بأنّ سيسيليا وآرنْ ماغنوسون قد فُصِلا. فلم يَعُدْ لأيّ رَجُلٍ من رجال كنيسة فاسترا غوتالاند الحقُّ في أنْ يهتمّ بهذين الكائِنَيْن المفصولين من المجتمع المسيحي. وليس لهما من مَلْجَأٍ آخرَ سوى أحدِ الأديرة يَأوِيهِما.

* * *

توجّه آرنْ وسيسيليا مرةً ثانيةً إلى دير غوديم، لكنّ السفرَ، هذه المرّة، كان سفرًا حَزينًا. كان ماغنوس قد أرسل حُرّاسًا، وكان الحرّاس كافةً يحملون عَلَمَ فولكونغر. لقد رفض ماغنوس أنْ يسعَى ابنُه للجُوءِ مُتَخَفّياً، وفي العارِ أيضاً.

قلّما تحدّثا في أثناء الطريق، لأنّ كلَّ شيءٍ قيلَ من قبلُ مراتٍ عديدة.

وقد شقّ على سيسيليا أنْ تغفرَ لآرنْ، حتى وإنْ شرَح بأنه لم يَكَدْ يعرِفُ ذلك الذي جَرى لِفَرْطِ حالةِ الثَّمَلِ التي كان فيها حين جاءتْ إليه كاتارينا. وقد أجابتْ بأنه قد أخفَى عليها ذلك، وبأنه قد جَرّها إلى خَطيئةٍ كان يمكنُ تفاديها لو كانت تعلَمُ بالحقيقةِ. وحاول آرنْ في فُتورٍ أنْ يُدافِعَ عن نفسِه، مُذَكّرًا بأنه لم يكنْ من السهلِ عليه أنْ يقولَ لحبيبتِه بأنه قد أخطأ مع أختِها، وبأنه، من ناحيةٍ أخرى، كان على جهلٍ بالقانونِ الذي يعتبِرُذلك التصرفَ مَقْتاً وفحشاً. وقد صدّقته سيسيليا في تلك النقطة بالذاتِ، حتى وإنْ استهْجَنَتْ أنْ يجهلَ شخصٌ مثلُ آرنْ تلك القاعدةَ المسيحيَّة. وبعد أنْ قلَّبَا المشكلةَ من جميع أوجُهِها، أخذا يَبْحَثان عن حلٍّ لها. كان آرنْ يعلَم أنْ لا بد من وقتٍ طويلٍ قبل أنْ يتسنّى التكفيرُ عن المعصيةِ والاعترافُ بها في روما: فالأمرُ قد يستغرقُ عامًا كاملا، وربما وقتًا أطول. أما سيسيليا فقد لاح لها المستقبَلُ أكثرَ شُؤْمًا ونَحْسًا.

وعندما افْتَرَقَا عند أسوار غوديم، أقسمَ آرنْ بأنه سيعودُ لزيارتِها ذات يومٍ، وقد أقسم بِسَيْفِهِ، حتى يُقنعَها أكثرَ، لكنّها رأتْ في ذلك سُخفاً. وما انفكَ يتوسّلُ إليها في قوةٍ بأنْ تُصدّقَه، وبأنْ لا تيأسَ. فطلما ظلّ فيه نفَسٌ فسوف يُعِزّ اللحظةَ التي ستجمعُهُما مرةً أخرى. وتوسّلَ إليها بألاّ تنذر نُذُورَ الرهبانيةِ، لأنّ مثلَ تلك النذورِ محتومةٌ ولا رجوعَ عنها. فخيرٌ لهما أنْ يعيشَا مثلَ مُبتدِئِين في الرهبانيةِ، حتى وإنْ كان المبتدئُون يَحْيَوْنَ، على غِرار الإخوة لاي، حياةً أكثرَ قسوةً من حياةِ الذين نَذَرُوا النذورَ (أي الذين دخلوا في سلك رِجال الدين). ووافقتْ، وتخلّصتْ من عناقِه وأسرعتْ نحو البابِ حيث كانت الأمُّ ريكيسا، بِطَلْعَتِها القاسية، في انتظارِها. وعندما انغلَقَ بابُ السنديانِ منْ خَلْفِ سيسيليا إذا بحالةٍ من الحزنِ تستولي على آرنْ، حتى ظنّ أنّه سيُسْلِمُ الروح. وجَثا ودَعا طويلا. وانتظره الحراسُ في هدوءٍ، عن بُعْد. فهؤلاء أيضاً كانوا يُشفقُون على آرنْ، وعلى الفولكونغر أيضًا، وكان يُحْزِنُهم أيضاً أن تُنتزَعَ هذه الفرحةُ من ذويهم ومن عائلةِ

إريك. كانوا يُكِنُّونَ الضغينةَ لعائلةِ سفيركر التي- وكانوا يعرفون ذلك – قد دبَّرَتْ كلّ ذلك.

ركبَ آرنْ حصانَه لحظاتٍ قصيرةً بِرُفقة رجالِه. ثم توقَّف وغيَّر ملابسَه، مُقايضًا ألوانَ الفولكونغر بلِباسٍ بسيطٍ من النسيج الصوفي الغليظِ الرماديِّ اللون، عليه شريطٌ من الحاشيةِ الحمراء سبَق وأنْ لبِسَه وهو يغادر فارنيم، قبلَ عام واحد ليس إلا. ففي ذلك التاريخ كان ممَا اتُّفِقَ عليه أنْ يتعلّم شيئًا عن هذه الدنيا. أجلْ، لقد تعلّم أشياءَ كثيرةً خلال هذا العام الذي انتهَى، بيد أنّ الجزءَ الأعظمَ ممَا اكتشفَه، صار أمام عينيه رديئاً سيِّئًا.

قرّر آرنْ أنْ يذهبَ بمفردِه إلى فارنيم، سائرًا بجوارِ الضفةِ الشرقية لنهرِ هورنبورغسيون، ليَعْبُرَ بعد ذلك غابات بلينجين. حاول الحراسُ أنْ يُقنِعُوه بالعدولِ عن قراره: فالظروفُ مضطربةٌ، ولا أحد يعرفُ، عن يقينٍ، ما الذي كان يُحاكُ في الغابات. وردّ آرنْ في حزم بأنه لا يملك أيَّ نيةٍ في أنْ يتخلى عن سيفِه، وأنّ الربَّ سيُبْعِدُ عنه قطّاعَ الطّرق وثقلاءَ الظل ممّنْ قد تُسَوِّلُ لهم نفوسُهم بمُهاجمتِه وهو في تلك الحالةِ الذهنيةِ في تلك الآونة. وامتطَى خيمال، وانطلقَ دون أنْ يضيف كلمةً واحدة. كان كلُّ الحُرّاسِ يعلَمون بأنه يستحيلُ عليهم اقتفاءُ أثَرِ الحصانِ السّفاد الذي انطلق بسرعة. ولم يكنْ يبقَى أمامهم سوى العودةِ آسفينَ، إلى أرناس، من دون آرنْ الذي أقسمُوا على حِمايتِه، ولو كلّفَهم ذلك حياتَهم.

ركِب حصانَه لمدةٍ طويلة عبر السبخاتِ والمستنقعات الخالية. فتلك التضاريسُ الوعِرَةُ أخّرتْ تقدّمه، إذْ ما كاد يدركُ سفوحَ بلينجين حتى كان الليلُ قد بدأ يُداهِمُه. كان آرنْ يعلَم أنْ ليس أمامَه سوى أنْ يواصلَ طريقَه نحو الشمالِ حتى يصل إلى أراضي فارنيم. هناك سيتعرّفُ على الطريقِ، أو يلتَقِي بشخصٍ قد يَدُلُّهُ عليه. لكنه كان من الصّعبِ التقدّمُ على حصانٍ في تضاريسَ جبليةٍ، ناهيك عن أنّ السماءَ كانت ملبّدةً بالغيومِ، فلا النجومُ ولا القمرُ كان يُضيءُ طريقَه. وقد واصل طريقَه في بُطءٍ، بقدرِ ما أُتيحَ له من رؤيةٍ إلى أين يقودُ خِيمال، بيد أنه كان يعلَم أنه سيضطرُّ بعد قليلٍ إلى

التوقّفِ بسببِ ظلامِ الليل. كانت تلك الليلةُ باردةً، لأنه لم يكنْ يحمِلُ سوى معطفٍ خفيف، لكنه رأى في ذلك مقدمةً بسيطةً للعقابِ الذي كان ينتظرُه. كان على استعدادٍ لأنْ يتألّمَ كثيراً، لو كان هذا سيُقَصِّرُ مُدّةَ شقائِه، وأنه يكون، بِعَوْنِ الربِّ قادراً على أنْ يَفِيَ بِقَسَمِه، فيُخْرِجَ سيسيليا من غوديم.

في قلْبِ العتمةِ لَمَحَ كُوخاً صغيراً من القَشِّ، لاحتْ له فيه نارٌ موقَدَة. وقد عَجّتْ بقرةٌ منْ الهَلَعِ عندما اقتربَ من الإسطبل الذي تهدَّم نصفُه. وقال آرنْ لنفسِه إنّ الأقِنَّةَ المُعْتَقِينَ، أو الهاربين، يسكُنون هناك، لكنْ خيرٌ له أنْ ينامَ في كوخِهم، من أن يقضيَ ليلَه في الغابةِ الباردة.

ودخل حتى يَلْتَمِسَ المأوَى في أثناء الليل. لم يخشَ شيئًا، لأنّ ما من مُصيبةٍ ستلحقُ به بعد ذلك اليوم. وفوق ذلك فهو على استعدادٍ لأنْ يدفعَ ثمنَ مبيتِه، وذلك أقربُ إلى الورَعِ المسيحي منْ أنْ يتذرّع في طلبِ المأوَى بقوّةِ السيفِ وحدَه.

لكنه شعَر ببعضِ الضيقِ، حينما رأى المرأةَ العجوزَ الحدباءَ وهي تُحرّكُ قِدْراً فوق النار. وبصوتٍ أجشّ لم تُحيِّه المرأةُ في أدبٍ. ولم يفهمْ آرنْ كلماتِها حين قالت إنّ الرجالَ مِثْلَهُ خليقٌ بهم أنْ يخشوا الليلَ، بينما مَنْ كانوا مثلَها، اعتادوا الليل.

وردّ عليها آرنْ في هدوءٍ، موضّحاً أنْ ليس له من غَرَضٍ سوى المَبيتِ ليلا، لأنه قد يُسبِّبُ جُروحاً لحِصانِه لو واصل تقدمَّه في الظلام. وأضاف بأنه سيُكافِئُها لِكَرَمِها خيرَ المُكافأة. ولمّا لم تَرُدْ عليه بكلمةٍ واحدة، خرَج آرنْ ونَزَعَ سَرْجَ خيمال، واقتادَهُ إلى الإسطبلِ، بجانبِ البقرةِ الهزيلة. وحين عاد إلى الكُوخِ فكَّ سيفَه ورماه تحت فَرْشٍ فارغٍ، وهو يشيرُ إلى أنه ينوي النومَ هنا. ثمّ قرّب كُرسيًا صغيراً من النارِ وشرع يُدَفِّئُ يدَيه الباردتين.

تفحّصته المرأةُ العجوزُ طويلا في حذرٍ قبل أنْ تسألَه إنْ كان يملِكُ الحقَّ في أن يحملَ سيفًا، أم أنه واحدٌ ممّن يحملون سيفًا على أيّ حال. وأجابها آرنْ بأنّ الآراءَ تختلفُ في هذا الأمرِ، وأنه لا خوفٌ عليها من سَيفِه. وحتى يُهَدّئَ من رَوْعِها أخرجَ محفظةَ النقود الجلدية الصغيرة التي

أعطاهُ إسكيل إياها، وسحَب منها قطعتين فضّيتين وضعهما بالقرب من الموقد. وأمسكتْ بهما على الفور وعظّتهما. لكنّ هذه الحركةَ ظلّت عصيةً على فَهْمِ آرنْ فتساءل أيُعقلُ أنْ يشكَّ أحدُهم في كلمته ونواياه؟ لكنها بدتْ مع ذلك راضيةً بما أنبأتها به أسنانُها القَليلةُ، وسألته إنْ كان مجيئُه إلى هناك لكيْ يعرف، على غِرار كلِّ الآخرين، ما تُخْبِئُهُ له الأيامُ. وردّ آرنْ بأنّ ما ينتظرهُ مكتوبٌ على يَدَيْ الربّ، وبأنْ لا أحدَ يملكُ التنبّؤ به. فقهقهتْ مِلْءَ شَدْقَيها وكشفتْ عن فاهٍ خَلا من نصفِ أسنانه، وعن بقايا أسنانٍ مكسورةٍ سوداء. وظلتْ تُحرّكُ قِدْرَها في هدوءٍ قبْل أنْ تسألَه إنْ كان يُرِيد حَساءً. فردّ آرنْ بِلا، وهو ما كان سيفعلُه حتى وإنْ تعلّقَ الأمرُ بمأدبةٍ مَلَكية. فقد وَطّنَ نفسَه على فترةٍ طويلةٍ ليس له فيها سوى الخُبزِ الناشفِ والماء.

«أيْ طِفْلي، إني أرى أشياء ثلاثة تنتظرُكَ في المستقبل»، قالت فجأةً، وكأنّ ما رأته قد فَرَضَ نفسَه عليها فَرْضًا، رغم قِلّةِ اهتمامِها بآرنْ. «إني أرى تُرسين اثنين. أتريد معرفةَ المزيد؟» ثم أغمضتْ عينَيْها، وكأنها تسعَى لأنْ تميزّ ما تراه بداخلِها أفضلَ تمييزٍ. كان فضولُ آرنْ قد صار مُتيقّظًا، ولعلها أدركتْ ذلك الفضولَ أيضاً من وراء جفنَيها المُطبَقتين.

«أيّ تُرسَيْنِ تَرَيْنَ؟» سأل آرنْ، وهو على يَقينٍ من أنها ستقول حماقاتٍ.

« ترسٌ بثلاثِ تيجانٍ ذهبيةٍ تتألق في السماء، أما الترسُ الآخرُ فهو يحمِلُ أسداً»، أجابتْ بلهجةٍ رخيمة، فيما عيناها كانتا ما تزالان مُغْلَقَتَيْن.

وأُصيبَ آرنْ بالذهول. من أين لامرأةٍ تائهةٍ في صَقْعٍ خالٍ، أنْ تحملَ أيَّ فكرةٍ عن مثلِ هذه الأشياء؟ وفوق ذلك، فقد أيْقَنَ أنها لا بد تعرفُ هُوِيَّتَهُ، وأنّ مَلْبَسَهُ قد كَشفَ أمْرَهُ. عندئذ تذكّر قصّةً كان كنوتْ قد قصّها عليه فيما مضى، قصّة لم يُعِرْها بَالا قط، ومفادُها أنّ إريك جيدفرسون قد ادّعى التنبّؤَ بالتيجان الثلاثة. لكنَّ هذه القصةَ مضَى عليها زمنٌ طويلٌ، حين كان الملكُ في حملتِه الصّليبيةِ، على الجانبِ الآخرِ من البلطيق.

«وما هو الشيء الثالثُ؟» سأل في هدوءٍ.

«إني أرى صَليباً، وأسمعُ كلماتٍ تتناغمُ مع هذا الصليب: «بهذه الإشارة

سوف تنتصر»، واصلتْ حديثَها بصوتِها الرخِيم، ومنْ حيثُ لم يَرْمُشْ لها جَفْنٌ.

وقال آرنْ لنفسِه إنْ لا بدّ من أنّ للمرأةِ رؤيَةً أفضل بكثيرٍ ممّا تصوّرهُ، لِفَكّ النّقوشِ اللاتينية على مِقْبَضِ سيفِه.

أتقصِدينَ In hoc signo vinces؟» لكنها هزّت رأسها، وكأن الكلمات اللاتينيَّة لا تعني لها شيئًا. «هل تَرَيْنَ امرأةً في ما ينتظرني؟»، سألَها، وفي صوتِه ارتباكٌ لا ريبَ فيه.

« أجلْ، ستَحْصُلُ على امرأتِك»، صاحَتْ بصوتٍ جهيرٍ. وفتحتْ عينَيْها وحدّقتْ فيه. «لكنْ، لا شيءَ سيكون كما تتخيّلُ أنتَ. لا شيء!»

وقهقهتْ بصوتٍ أجشّ، ولم يتمكنْ آرنْ منْ أنْ يَفْتَكَّ منها أيَّ كلمةٍ حَصِيفَة. وأهْمَلَ الأمرَ وتمدّد على الفَرْشِ الذي ألقَى فيه سيفَه. وتغطَّى بمعطفِه، واستدارَ إلى الحائطِ وأغمضَ عينيه. لكنّه لم يستطعْ النومَ. وتأمّلَ لحظةً قولَ تلك المرأة: إنّ ما قالَتْهُ حقيقةٌ، ولكنه غيرُ شافٍ. فإنْ هي رأتْ فيه لمسةً منْ عائلةِ الفولكونغر، ومن عائلةِ إريك، فذاك أمرٌ مُحَيِّرٌ، ولا مفرَّ من أنْ يُقِرّ بذلك. لكنها لم تَقُلْ شيئاً قطُّ ممّا ليس لهُ به علمٌ بَعْدُ. فأنْ تُصبحَ سيسيليا في النهايةِ مِلْكاً له فذاك أمرٌ مشجّعٌ، وذاك ما يفكرُ به حقاً. لكنْ، ألاّ يكون أيُّ شيءٍ كما يتصوّرُه هو فذاك أمرٌ متناقضٌ. وأخيراً خَلَدَ آرنْ إلى النوم.

وعندما أفاقَ من نومِه فَجْراً، لم يجدْ للمرأةِ أثراً. فانتقلَ إلى الإسطبلِ الصغيرِ فصَهَلَ خِيمال عند اقترابِه، وكأنّ شيئاً لم يكنْ.

كان الوقتُ منتصفَ النهارِ عندما اجتاز عَتَبَةَ بابِ فارنيم، وقد داهمتْ مناخِرَه الروائحُ المعتادةُ الصادرةُ عن حديقةِ ومطابخِ الأخِ روجييرو. وقد أثار وصولُه، رغم انتظارِه، بعضَ الهَيَجَانِ، وقد خَفَّ إليه أخَوَانِ، اقتادَ أحدُهما خيمال، فيما اصطحبَ الثاني، آرنْ، في هدوءٍ إلى غايةِ المَغْسَلِ، وأشار إلى ملابِسِه. ولمّا لم يفهمْ منه آرنْ شيئاً قال له الأخُ في حَزْمٍ إنه ما دام آرنْ قد فُصِلَ عن الكنيسةِ فلا يجوزُ التحدّثُ إليه قبْلَ أنْ يغتسِلَ ويلْبَسَ

ثوباً من الثيابِ التي يلبسها الإخوة لايْ.

اغتسلَ آرنْ مُطوّلا وقصّ شعرَهُ وهو يتلُو ما يناسبُ ذلك القصَّ منْ صلواتٍ. وبَعْدَ أنْ ارتدَى الثوبَ الذي أضفَى عليه انطباعاً غريباً ذهَب لِيَلْتَقِيَ بالأب هنري، الجالسِ في مكانِه المفضّلِ بالقربِ من الحديقة. وقد وجّه إليه الأبُ هنري نظرةً فيها كثيرٌ من القسوةِ، لكنها لم تخلُ من محبّة. وتنهّد تنهيدةً غليظةً، ولبس بَطْرَشِيلَه (شريط من القماش العريض يضعه الكاهن حول عنقه)، وأشار إلى آرنْ بأنْ يتهيَّأ للاعتراف. وجَثَا آرنْ وتوسّل إلى الأبِ برنارْ بأنْ يَمْنَحَهُ القُوّةَ والصّدقَ الضروريَّين، حتى يُؤدّي هذا الاعترافَ الصّعب.

* * *

قَدِمَ الملكُ كنوتْ إريكسونْ إلى أرناس، تُرافقُه حاشيتُه وبيرجر بروزا. ومضَى وقتٌ طويلٌ قبل أنْ يتّخذَ كلٌّ واحدٍ مقامَه، وقد أُخْطِرَتْ القريةُ المجاوِرَةُ بقُدومِ عددٍ من الرجالِ الجائعين، المُتْعَبِين، الذين يجبُ استقبالُهم استقبالا مُشَرِّفاً.

كان بيرجر بروزا يريدُ بفارغِ الصّبرِ أنْ يُعقَدَ المجلِسُ، دون الشّروعِ في الإكثارِ من الجِعَةِ، لأنّ الإكثارَ منها قد يحول دون أيِّ نقاشٍ جادٍّ في مواضيعَ ذات أهمية عظيمة. فحتى في حَضْرَةِ المَلِكِ، اتّبَعَ الحاضِرون إرادةَ بيرجر بروزا، واجتمع كلُّ الرجالِ المعنيّين في القاعةِ الكبرى، ولم يَشْرَبُوا سوى بِضْعِ رشْفاتٍ من الجعة.

بدأتْ الجلسةُ بِتَوَسُّلٍ إلى الربِّ لكيْ يُبارِكَ هذا اللقاءَ ولكي يجعلَ الكلماتِ المنطوقةِ كلماتٍ عاقلةٍ. بيد أن هذه الكلمات ظلت بِلا طائلٍ، بل وأقربَ إلى الغَبَاءِ، لفرطِ غيابِ آرنْ الصارخِ في القاعة. لكنّ آرنْ لم يكنْ سوى واحدةٍ من المسائلِ العديدةِ التي كان يجبُ الوصولُ إلى اتفاقٍ في شأنِها.

تناول بيرجرْ بروزا الكلمةَ مُعْلِناً افتتاحَ الجلسة. وكانت أوّلُ نقطةٍ تُطْرَحُ للعلاجِ هي لاندستينغ فاسترا غوتالاند، ما دام في الأمرِ أشياء كثيرة

مرهونة بالسرعة التي يحصل بها كنوتْ على تاجِه الثاني. ولم يجدْ أحدٌ أيَّ اعتراضٍ على ذلك.

وهكذا أمضَى الحاضرون وقتاً طويلا في تحديدِ الرسائلِ التي كان يتوجّبُ إرسالُها حتى يتسنّى نشرُ نبأِ دَوْرَةِ التينغ بأسرع ما يمكن.

إلا أنّ الإجراءاتِ كانت معروفةً لكلّ واحدٍ، ولذلك تمّ الانتقالُ إلى النقطةِ التالية. كيف يتسنّى لِكنُوتْ، حين يُصبِحُ مَلِكاً، أنْ يرفعَ الإهانةَ التي نَزَلَتْ على عائلةِ الفولكونغر، مع قريبِ فصلتهُ الكنيسة؟ وذاك، حسب بيرجر بروزا، موضوعٌ يتعيّنُ على كنوتْ نفسِه أنْ يُدْلِي برأيِه فيه.

وبدأ كنوتْ إريكسونْ بالتأكيد على أنّ آرنْ أغلَى صديقٍ عنده. وفضلا عن ذلك فقد أدّى له آرنْ خدماتٍ غاية في الأهميةِ. وفوق ذلك كلّه لا بدّ منْ أنْ تمرّ الصِّلاتُ ما بين عائلتَيْ إيريك والفولكونغر قبلَ كلِّ شيءٍ. وبعد بِضْعِ صِيَغٍ أخرى من الصِّيَغِ المألوفةِ، تطرَّقَ كنوتْ إلى صلبِ المسألة.

فعلى نحو ما يَفْهَمُ هُو المسألةَ، فإنّ مُطراناً من المطارنةِ يُمكنُ أن يَرْفَعَ من دون عناءِ الفَصْلَ الكنيسي المفروض من قِبَلِ بنْغتْ، وهو مُطران سكارا تحديداً. لكنّ المطران، مع الأسف، اختفَى ولا أحدَ كان يعْرِفُ مكانَ اختفائِه. فهو، على الأقلِ، لم يكنْ في لينكوبينغ، ما بين عائلةِ سفيركر، ولو كان بينهم حقاً لكان الأمرُ مؤسفاً غايةَ الأسف. ولم يكنْ مُتخفِّياً في سفيلاند أيضاً، فلو كان هناك لَتَرَامَتْ لِمُخْبِرِي كنوتْ، أخبارُهُ. إنّ أيَّ مطرانٍ لا يمكنُ أنْ يتوارَى عن الأنظارِ بهذه السهولة.

وفضلا عن ذلك، كان من الصعبِ أحياناً إقناعُ رجالِ الكنيسةِ هؤلاء. وهكذا، فحتى وإنْ عُثِرَ على ذلك المطرانِ، فلا أحدَ يستطيعُ التنبؤَ بِمَوْقفِه عنْ يَقِينٍ لو اشترطَ عليه مَلِكُهُ قَراراً في مجالٍ تَدّعِي الكنيسةُ الأسبقيةَ فيه. وبطبيعةِ الحالِ يمكنُ تهديدُ الرهبان. لقد كان رجالُ الكهنوتِ جَشِعين وطَمّاعين، ويَسْعَون بِلا انقطاعٍ للحصولِ على هِبَاتٍ جديدةٍ، وفي ذلك ما يُسَهِّلُ المساوماتِ أحياناً. بيد أنه من المستحيلِ إبداءُ الرأيِ في تلك المسألةِ، ما دام لم يتوفّرْ لذلك شرطانِ أساسيّانِ. أوّلا، لقد ذكّر كنوتْ بأنْ لا مفرَّ

منْ أنْ يُنادَى به مَلِكاً على فاسترا غوتالاند، مثلما قاله بيرجرْ بروزا، قريبُه الغالي ومستشارُه الخَبِير. وثانياً، لا بد من إخراجِ الحَبْرِ من مخبئِه قبل معرفةِ موقفِه، ثم التصرّف بِقُوّةٍ إنْ دَعَتْ الضرورةُ لذلك.

ووَافقَ ماغنوس على مَضَضٍ. غير أنه كان لا بد من التفكيرِ في العواقبِ الفَوْرِيّة. فما كان من اختصاصِ الكنيسةِ، ورُوما، فهو غايةً في التعقيدِ بالنسبةِ لمسيحيٍّ بسيط. لكنّ الجميعَ يعرفون أنّ مثلَ تلك «القصصِ» قد تستغرقُ وقتاً كثيراً. إذاً، لا بد من التفكيرِ في الحالِ في طِفْلِ آرنْ وسيسيليا. ففي رأيِ النساءِ سَتَضَعُ سيسيليا ابنَ آرنْ بعد الانقلابِ الشتويِّ بقليلٍ. ولذلك صرن يتوقّعْنَ منذ تلك اللحظة أنّ العجوزَ سفيركر في غوديم، سوف تحرِصُ على التخلُّصِ من الطفلِ في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ. فما العملُ في هذه الحالة؟

صرّح إريك إريكسون بأنه حين يُنادَى به مَلِكاً على فاسترا غوتالاند سوف يجدُ مُتْعَةً في أنْ يتماسَكَ بالخِناقِ مع امرأةِ غوديم الشّكِسَةِ. فسوف تُدْرِكُ بأنّ موقفَها لم يكنْ أكثرَ المواقفِ يَقِيناً، وفي ذلك ما قد يجعلَها أكثرَ تعاوُناً.

وانتفضَ بيرجر بروزا ضد هذه الأفكارِ، ودَعَا كنوتْ إلى التفكيرِ بعنايةٍ قَبْلَ أنْ تَثُورَ الكنيسةُ عليه، مثلما فَعَلَ أبوهُ من قبل. وفي هذه الحالة فخيرٌ له أنْ يستعمِلَ التحريضَ بدل التهديد. ثم ما مِنْ طفلٍ يُولَدُ خارجَ الزواجِ يُحْتَفَظُ به في ديرٍ. وفوق ذلك فالأمرُ مبالَغٌ فيه، وما من أحدٍ في حاجةٍ إلى القِيلِ والقالِ الذي يَنْتُجُ عن كل ذلك. إذاً، المسألةُ بسيطةٌ للغاية: مَنْ سَيَرْعَى ابنَ آرنْ ماغنوسون؟ وفضلا عن ذلك، فهل سيُصبحُ طفلٌ غيرُ شرعيٍّ شرعِيّاً لمجردِ ما يتمُّ الاحتفالُ بالزّواجِ؟

كان إسكيل يملكُ إجابةً للسؤالين معاً. وصولُ طفلِ آرن وسيسيليا إلى بيتِ ألغوتْ بالسونْ لم يكنْ فكرةً جيدةً. وفضلا عن ذلك، فلم يفهمْ كيف يمكنُ للجميع أنْ يكونوا على ذلك القدر من اليقينِ بأنّ القادمَ وَلَدٌ. لقد سمعوا من قبلُ بأنّ ألغوتْ قد اشتكَى من الأمرِ، فبدلا منْ حَفِيدٍ سيحصُل على لَقِيطٍ.

تلك الكلماتُ لا تُنْبِئُ بالخير، وبالتالي، لا بد من أنْ يكون إيواءُ الطفلِ على يدِ عائلةِ فولكونغر.

وفيما يتصلُ بمسألةِ لاشرعية الطفلِ فقد كانت الإجابةُ عنها بسيطة. فإنْ رُفِعَ الفصلُ من الكنيسةِ، وإنْ جرى الاحتفالُ بالزواجِ كما هو مُتوقَّعٌ فكلُّ شيءٍ سيسيرُ على ما يرام.

وتناول بيرجر بروزا الكلمة ثانيةً. ولمّا كان له أطفالٌ صغارُ السنّ، وزوجةٌ ومُرَبِّيَتان فقد رأى خيراً في أنْ يأتي الطفلُ إلى بيالْبو. وقد أيّدَهُ في ذلك الجميع.

لم تَكْتَسِ النقطةُ الأخيرةُ المطروحةُ الأهميةَ ذاتَها، لكنْ لم يكنْ بالإمكان إهمالُها. فلم يشتكِ ألغوتْ بالسونْ من مَجِيءِ لَقِيطٍ وحسب، بل عبّرَ بصوتٍ عالٍ عن أسفِه في أنْ يُفْشِلَ ابنٌ من أبناءِ أرناس قضيةً رابحة. لا شكّ أنّ ألغوتْ لم يكنْ عَدُوّاً خطيراً، وبالتأكيد لنْ يُخاطِرَ بأزمةٍ مع الفولكونغر. لكنْ، من النَّحْسِ أنْ يظلَّ يَئِنُّ ويتأوَّهُ ويشكُو في العَلَنِ، على ذلك النحو.

أجاب ماغنوس في غموضٍ بأنّ مسائلَ العِقابِ هذه في روما قد تستغرِقُ وقتاً طويلا. وفي حالةِ العكسِ، فكلُّ شيءٍ سينتهي كما هو مُتَوَقَّعٌ له أنْ ينتهي، وعندئذ سَيَهْنَأُ الجميعُ. لكنْ إذا ظلَّتْ القضيةُ تَتَبَاطؤُ على مَدى سنواتٍ عديدةٍ، وذاك أمرٌ محتملٌ، فسيصبِحُ الوضعُ عسيراً. وفي تلك الحالةِ كان ينبغي إنهاءُ القضيةِ نَفْسِها، لكنْ مع كاتارينا وإسكيل. وعلى أيِّ حالٍ كانت كاتارينا قد غادرتْ ديرَ غوديم لتوّها.

جاء هذا التفكيرُ واضِحاً، لكنه ما لبث أنْ ألقَى بروداً حول الطاولةِ. كلُّ واحدٍ كان يعرفُ أنّ كاتارينا هي المسؤولةُ عن الشّقاءِ الذي يطالُ أرنْ، وسيسيليا وكلّ الفولكونغر. وقد قال إسكيل وهو يتنهّدُ بأنه حزينٌ لمكافأةِ تصرّفاتِ كاتارينا السيئة، بذلك القَدْرِ من السَّخاء.

وردّ بيرجر بروزا ردّاً جافاً قائلا إنّ ذلك التصرّفَ يبدُو حَصيفاً، وأنَّ الشابَّ إسكيل يجبُ أنْ يفهمَ جيداً بأنّ الحديثَ حديثٌ في القضايا وليس في المشاعِرِ. وبالتالي فإنْ تعذّر على آرن الخروجُ من تلك الورطة، فلنْ يَبْقَ

أمام إسكيل سوى أنْ يتزوجَّ امرأةً ربما لم يكنْ من اللائقِ أنْ يُديرَ لها ظهرَهُ، حتى لا تَغرِز فيه خَنجَراً.

وذلك ما تم الفصلُ فيه. هُناك، حَوْلَ تلك الطاولةِ، كان الحديثُ حديثَ القضايا والمعاركِ، منْ أجل السلطةِ، وليس من أجلِ الحب.

* * *

وبعد أن استَمَعَ إلى اعترافِ آرنْ، لم يُبْدِ الأبُ هنري قط أيَّ إشارةٍ تشيرُ إلى أنه قدْ منحَه المَغْفِرةِ. والحالُ أنّ آرنْ لم يكنْ ينتظرُها منه. لقد كان تحت صَدْمةِ الفَصْلِ (عن الكنيسة)، وما مِنْ رئيسِ ديرٍ، مثلَ الأب هنري، يستطيعُ أنْ يرفعَ عنه رفْعَ ذلك الفصلِ. لقد شرَحَ له الأبُ هنري باختصارٍ، فَحْوَى خَطيئتِه، وأرسلَه لِيُفكّرَ مَلِياً في أفعالِه، في حُجرةٍ في ديرٍ، ليس له فيها سوى خُبْزٍ حافٍ ومَاءٍ.

خلال إقامته في هذه الدنيا، استطاع آرنْ أنْ يرتكبَ ثلاثَ خطايا خطيرة. أوّلا، قَتَلَ ثلاثةَ مُزارعين سُكارى، وثانياً، وتحت سطوةِ الشرابِ مارس علاقاتٍ شهوانيةً مع كاتارينا، وثالثاً مارسَ علاقاتٍ شهوانيةً مع سيسيليا.

تساءَل آرنْ طويلا كيف تسنَّى أنْ تُغْفَرَ له الخطيئتان الأولى والثانية بتلك السهولة؟ وفي المقابِلِ صَعُبَ عليه أنْ يفهمَ ما الذي يجعلُ علاقاتٍ شهوانيةً مع سيسيليا، وهي المرأة التي أحبّها، وكان سيتزوّجُها، تُكَلِّفُهما الفَصْلَ عن الكنيسة؟ قتلُ رَجُلَيْن لا أهميةَ له، وممارسةُ علاقاتٍ شهوانيةٍ مع امرأةٍ لا نُحبُّها ليس أكثرَ أهمية. لكنّ ممارسةَ العلاقاتِ ذاتها مع امرأةٍ نُحبُّها أكثر من كل شيءٍ، حُبّاً كمثلِ الحُبِّ الموصُوفِ في الكتاباتِ المقدسةِ، فتلك أسوأُ الخطايا جميعاً.

لقد أُرْسِلُ إليه نصُّ قانونِ أرشيف فارنيم. كان النصُّ واضحاً وقاسِياً. ففي الأرشيفِ تُحْفَظُ القوانينُ التي تكون الكنيسةُ قد فَرَضَتْها – وليس النصوص ذات العلاقة بالشجاراتِ وغيرِها من المُنازعاتِ المتعلقةِ بالتعويضاتِ القابلةِ

للدّفعِ عند موتِ أحدِ الأقنة، أو عند سرقةِ الماشية.

القانون الذي تجاوزَه آرنْ كان، إذاً، قانوناً كانت الكنيسةُ قد كافحتْ من أجله. لقد نصَّتْ الفقرةُ الثامنةُ من قانون الزواجِ في فاسترا غوتالاند على ما يلي:

إذا مارس رجلُ علاقةً شهوانيةً مع ابْنَتِه، وجب التكفيرُ عن الذَّنْبِ في روما. وإذا ضاجَع الأبُ والابنُ المرأةَ نفسَها، وإذا ضاجَع الأخوان المرأةَ نفسَها، وإذا ضاجَع ابنَا الأخِ أو ابنَا الأُخْتِ المرأةَ نفسَها، وإذا زَنَتْ الأمُّ وابنتُها مع الرجُلِ نفسِه، وإذا زَنَتْ أختان مع الرّجُل نفسِه، وإذا زَنَتْ ابْنَتَا الأخِ أو ابْنَتَا الأُختِ مع الرّجُلِ نفسِه، كان ذلك شيئاً مُقيتاً.

كُتِبَ النصُّ بخطٍّ لاتيني جميلٍ، بينما كانت الترجمةُ إلى اللغةِ العاميةِ مكتوبةً بعنايةٍ أقلّ. لم يجدْ آرنْ أيَّ صعوبةٍ في معرفةِ المحظُورات، بل كان يعرف بالتحديد من أي آيةٍ من آياتِ سفر اللاويين أُخِذَتْ.

لكنّ الكتاباتِ المقدَّسةَ كانت حافلةً بالمحظوراتِ الأكثر غرابةً والأكثر حماقَة، وكلُّ ما كان يعرفُه عنْ تأويلاتِها كان في نَظَرِه بَاطِلا وعقيماً في تلك اللحظة. كان منْ السهلِ عليه، بالطبعِ، أنْ يفهمَ أنه من المُقْتِ أنْ يُمارِسَ رجلٌ علاقةً شهوانيةً مع ابنتِه. لكنْ في المقابلِ بدا له الأمرُ مُبْهَماً إذْ كيف يَسْرِي عليه مثلُ ما يَسْرِي على أولئك عندما يتَعَاطَى هو الشهواتِ مع كاتارينا، لكنْ مع جَسَدِها وحده، ثم مع سيسليا، لكنْ منْ أعماقِ رُوحِه.

تأمّلَ آرنْ طويلا تلك القوانينَ الربّانيةَ، من دون أنْ يَصِلَ إلى نتيجة. فكلّما اسْتَنْجَد بعقلِه الثيولوجي إلا ووَجَدَ أنّ المحظورَ الذي ارتكبَه يحتلُّ في العهدِ القديمِ مِنْ الأهميةِ قدْرَ ما تحتلُّهُ محظوراتٌ أخرى تمنَعُ ملابِسَ من ألوانٍ مُعينةٍ في أثناء الحِدادِ، أو تفرضُ قَصَّ الشَّعْرِ بِطريقةٍ مُعينة. لكنّ بعضَ المُحرَّماتِ كانت واردةً أيضاً في قوانين فاسترا غوتالاند. وقد تَذَكَّر آرن ذلك الاحترامَ العميقَ الذي أبداهُ أهلُهُ عندما أعلن اللغمان كارلْ ذلك القانون. فتلك القوانينُ لم تتركْ سوى مساحةٍ صغيرةٍ للتأويلِ ممّا كان يجعلُ والِدَهُ على استعدادٍ لأنْ يموتَ في سبيلِها.

إذاً، فحسب القانون، فقد ارتكب إثماً لا يقلُّ خطورةً عن إثْمِهِ لوْ ضاجَع ابْنَتَهُ.

بيد أنّ الكنيسةَ هي التي حاكَمَتْهُ. والحالُ أنّ رجالَ الكنيسةِ يُؤَوِّلُونَ الظروفَ والنوايا التي تَقِفُ وراءَ الجريمةِ تأويلا مُختلِفاً عن تأويلِ الناسِ في فاسترا غوتالاند.

عبثاً حاولَ أنْ يُقَلِّبَ المسألةَ في كُلِّ الاتجاهاتِ، فإنّ الذي سيُقَرِّرُ في النهايةِ هو الأبُ هنري. لأنّ آرنْ ليس خاضعاً لِحُكْمِ الـ تينغ. وقد تنهَّدَ وهو يفكِّرُ أنّ الدِّفاعَ عن نفسِه أسهلُ عليه بِالسيفِ أو بِعَدَدٍ لا عدَّ له من أفرادِ الفولكونغر كشهودٍ.

إنّ الكنيسةُ هي التي سوف تُحاكِمُهُ، وستُحَكِّمُ هذه الأخيرةُ العقلَ، وستُوازِنُ ما بين ما لِلأمرِ وما عليه. وعليه كان آرنْ يتأرجحُ ما بين الأملِ واليأس.

وقد تعاظَمَتْ آمالُه عندما أتى أحدُ الإخوةِ إليهِ لِيَدْعُوَهُ لحِوَارٍ مع المطران ستيفان. لكنّ آرنْ لم يكنْ يعلَمُ بوُجودِ الحبْرِ في فارنيم، وقد ظنّ لِلَحْظَةٍ أنْ لَعَلّ تلك الزيارةَ على صلةٍ بِقَضِيَّتِه. لقد سبقَ بالفعل أنْ قال له المطرانُ بأنّه سيجِدُ في شَخصِهِ صديقاً دائِماً، صديقاً سيكونُ له سَنَداً.

والْتَحَقَ آرنْ، على وَجْهِ السرعةِ، بالغاليري حيث وَجَدَ فيها الأبَ هنري في مكانِه المُعتادِ، إلى جانبِ المطرانِ. وجَثَا، وقبّل يَدَ ستيفان، وانتظرَ الإذْنَ بالجُلوسِ.

لكنّ الذي رآهُ في عيْنَيْ المطران لم يَنُمْ عنْ لُطفٍ قط، فتلاشتْ آمالهُ في لحظة.

« لقد نجحتَ حقاً في أنْ تتورّطَ في قضايا سَيِّئَةٍ عديدة خلال إقامتِكَ القصيرةِ في هذه الدنيا»، قال بلهجةٍ جد قاسية، فيما بَدَا الأبُ هنري وكأنه يتأملُ صَنْدَلَه. إنك تعرفُ جيداً أنّ الكنيسةَ لا يحقُّ لها التدخّلُ في السلطات الدنيويةِ. وذاك بالتحديدِ هو ما فَعَلْتَهُ أنت، وقد سَبَّبْتَ لي الكثيرَ من الكَدَرِ والإزعاج. وفوق ذلك، فقد فَعَلْتَ ذلك عن قصدٍ وعن طريقِ الحِيَلِ والخدعة.

وسكت المطرانُ، وتَهَيَّأَ للاستماعِ إلى شُروحِ آرنْ وحُجَجِه. لكنّ هذا الأخيرَ مِنْ فرطِ ظنِّه أنّ المطرانَ سيتناولُ أمرَ خطاياهُ الشهوانيةِ ما لبث أن ذُهِلَ أيّما ذُهولٍ. فلمْ يفهمْ ما الذي كان المطرانُ يَقْصِدُه، وتوسَّلَ إليه بأنْ يَغْفِرَ حماقَتَه. وتنهَّدَ المطرانُ تنهيدةً عميقةً، لكنّ آرنْ ظنَّ أنه قدْ قَرَأ ابتسامةً على شَفَتَيْهِ، وكأنه صدّقَ مع ذلك حماقةَ آرنْ.

« لعلك لم تنسَ أنّنا الْتَقَيْنَا مِنْ قبلُ في أوسترا أروسْ ؟»

« لا، يا سيدي المعظّم، لكنني لا أفهم ما الذي جعلني أَقْتَرِفُ إثْماً في هذه المناسبة، أجابَ آرنْ في احْتِشَام.

« إنه لأمرٌ مُذهِل! أراك تتقدَّمُ في شجاعةٍ مع واحدٍ من هؤلاء الطامِعينَ في العرشِ الذي يغزو جُزْءاً من هذا العالم مع الأسف. ثم تَدْعَمُ الْتِمَاسَه حتى أُسارِعَ إلى تَتْوِيجِهِ في اللحظةِ نفسِها. وعندما أرفضُ الطلَبَ للأسباب التي تَعْرِفُها جيداً، فما الذي تفعله؟ تجعلني طوْعَ أمرِكَ وتُكْرِهُني، وهذا ما فَعَلْتَه. وما دمتَ واحداً منَّا وسوف تظلّ، فإنّ الأبَ هنري وأنا نفسي تساءَلْنا طويلا ماذا كانت نواياكَ عندما تصرَّفْتَ على ذلك النحو؟ »

«لم أُفَكِّرْ في الأمرِ قط،» أجاب آرنْ، وقد بَدَأ يستوعبُ سِرّ الحديثِ الذي يدور. فكما تفضّلتْ به عظمتُكم كنتُ أعرفُ أنْ ليس من حقّ الكنيسةِ أنْ تحكُمَ لِمصلحة كنوتْ إريكسون. وفي المقابل، لم أرَ ضَيْراً في أنْ تُعْلِنَ عظمتُكم بنفسِها، عن الأمرِ لِصديقي. وذاك بالفعلِ، ما حدَثَ.»

« ليكنْ. لكنْ ما الذي كنتَ تفكّرُ به عندما أعددتَ هذه الخدعةَ التي أوهمتَ بها هؤلاء الرعاع الأغبياء بأنني دَهَنْتُ هذا الوَغْدَ بالزيتِ المُقدَّسِ وتَوّجْتُه.»

« لم أفكّرْ في الأمرِ قط في اللحظة نفسها، أجاب آرنْ، في خجلٍ. لم نتحدّثْ فيما كان سَيَحْدُثُ إنْ رفَضَتْ عظمتُكم تَلْبِيَةَ أُمْنِيَّةِ كنوتْ إريكسون. كان يعتقدُ أنَ طَلَبَهُ بسيطٌ ولم أُفْلِحْ في إقناعِهِ بأنّ الأمرَ غير وارد، لأنّه في هذه الحالةِ سيعتبِرُ نفسَه وكأنه صار مَلِكاً حقاً. لِذا فكّرتُ أنّ عظمتَكم ستَنْجَحُون في توضيحِ الأمرِ له، وذاك ما حدَثَ بالفعل.»

« نَعَمْ، نعمْ، نعمْ ! لقد قلتَ ذلك من قبل. لكنني أسائلُ نفسي ما الذي حدثَ فيما بعد، حين وضعتُ هذا الوَغْدَ في مكانِه!»

«عندئذ توسَّلَ إليَّ بأنْ أطلبَ منكم إنْ كان بالإمكانِ أنْ تُشرِّفُونا، شخصياً، بِمَنْحِنا التقرّبَ، في اليومِ التالي. ولم أرَ أيَّ كُفْرٍ في ذلك، لكنني لم أكنْ أعرفُ أنّ.... ».

« إذاً، أنتَ لم تتحدّثْ في الأمرِ من قبلُ؟ لم تكنْ تعرفُ شيئاً عن الخُدعةِ التي كانت ستَنْجُمُ عن ذلك؟»

«لا، عظمتكم، لم أكنْ أعرفُ عنها شيئاً، رَدَّ آرنْ، في ذُهولٍ. كان صديقي على قناعةٍ بأنّ طلبَه سيُسْتَجابُ على الفورِ. لكنّنا لم نتحدّثْ قط في أمرِ القربان المقدّس».

تفحّص الرجلان آرنْ الذي لم يُحَوّلْ نظرَهُ، ولم يُبْدِ أيَّ إشارةٍ من إشاراتِ التردّدِ، طالما كانت كلُّ أقوالِه مطابقةً للحقيقةِ، وكأنه كان ما يزال خاضعاً لقواعدِ الاعتراف.

تَنَحْنَحَ الأبُ هنري والتفتَ نحو المطران الذي تقاطع نظرهُ مع نظرِه. وهزّ الحَبْرُ رأسَه موافقاً. واستخلصا بعضَ النتائجِ التي كانا قد تناقَشَا فيها من قبلُ. لكنّ آرنْ لم يفهمْ أيَّ النتائجِ كانا يَقْصِدان.

«نعمْ، يا صديقي الصغير، إنكَ تبلغُ من الصِّبْيَانِيَّةِ أحياناً ما يُجاوزُ الإدراكَ، قال المطرانُ بِلهجةٍ أكثرَ وُدّاً. لقدْ جِئْتَنِي بِسيفِك ومَدَدْتَهَا لي. كنتَ تعرفُ أنْ ليس لي خِيارٌ آخر غير مباركتِها. وكنتُما أنتُما الاثنين في قَلْبِ عُدَّةِ الحرب الكبيرة. تُرى، ماذا كانت نِيَّتُكَ من وراء ذلك؟»

«سَيْفِي مباركٌ، ولم أخْلِفْ يوماً قَسَمِي. كنتُ فخوراً بتقديمِ مثلِ هذا السيفِ لشخصِكم المُعظّم. وكنتُ أعتقدُ أيضاً أنّ عظمتَكم، ستشعرون بمثلِ ما شعرتُ، ما دام تبريكُ السيفِ حدثَ في ديارِنا، نحنُ السيسترسيين.»

«ولم تَرَ كيف كان صديقُك كنوتْ سيستفيدُ من ذلك؟ سأل المطرانُ وهو يهزُّ رأسَه، في ابتسامةٍ كَدِرَة.

«لا، عظمتُكم، لكنّني بعد ذلك، فهمتُ.»

«وبعد ذلك اسْتَوْلَتْ الحُمَّى على كامِلِ سفيلاند! لقد قالتْ الإشاعاتُ بأنني، من هُنا في مقرّي، باركتُ السيفَ الذي اغتالَ كارلْ سفيركرسون، وباركتُ كنوتْ إريكسون، ومسحتُه بالزيتِ المقدّس، وتَوَّجْتُه! ومنذُ ذلك الوقتِ لم أنْعَمْ بلحظةٍ من الراحةِ قط، لأنّ كلَّ الملوكِ الصغارِ، وكل الطامعين في المُلْكِ باتوا يطاردونني! سأغادرُ البلادَ لفترةٍ قصيرة، ولهذا السببِ جِئْتُ إلى هنا، وليس من أجلِك، إنْ كنتَ تفكِّرُ أني أتيتُ من أجلِك. غير أني أُصدّقُكَ فيما يتعلّقُ بأحداثِ أوسترا أروس، ولَكِ مني عَفْوِي في هذا الأمر.

جثا آرنْ أمام المطران، وقبّل يدَه، وشَكَره على الحلْمِ غيرِ المستحقِّ الذي حُظِيَ به، لأنّ حماقَتَهُ لم تُشَكّلْ قط عُذراً كافياً. وتخيّل آرنْ لِبُرْهَةٍ أنّ كلَّ شيءٍ قد انتهَى، وأنّ خَطِيئتَه لم تَكُنْ سيسيليا، لكنّ خطيئتَه في مساعدةِ كنوتْ إريكسون على خِداعِ المطران.

لكنَّ الأمرَ لم يَنْتَهِ عند ذلك الحد. فبعد أنْ دَعَاهُ للجلوس أمامَهما، استمعَ آرنْ إلى الحُكم.

«اسمعني في عِناية، قال المطرانُ. خَطاياك غُفِرَتْ لك فيما يتّصلُ منها بالخدعةِ التي لَعِبْتَها مع مُطرانِك. لكنّكَ في المقابلِ أَذْنَبْتَ في حقّ قانونِ الربِّ حين ضاجعتَ أُخْتَيْنِ، ولهذه المعصيةِ التي تُعَدُّ مُقْتاً، ما من رحمةٍ يسيرة. من المفروض أنْ نَحْكُمَ عليكَ بالعقاب لِمَدَى العُمرِ، لكنّنا سننظرُ إليكَ بعينِ الرحمةِ، لأننا نعتقدُ أنّ في هذا الأمرِ مشيئةُ الربِّ. عقابُك سيدومُ نصفَ عُمْرِك، أيْ عشرين عاماً، وينسحبُ هذا على خَلِيلَتِك أيضاً. ستقضِي عِقابَك بصفةِ فارسَ الهيكلِ، ومنذ الآن صار اسمُك آرنْ غُوثيا، ولا شيءَ غيرَه. فَلْيُسَدّدْ الربُّ خُطاك، ولْتَكُنْ رحمتُه نورَك. هذا وسيشرحُ لك الأخُ جلبير الأمرَ بالتفصيل. سأذهبُ الآن، لكنّنا سوف نلتقي على طريق روما التي يجب أنْ يكونَ اتجاهُك إليها أوّلا.»

صارت الأفكارُ تتزاحَمُ في عقلِ آرنْ. لقد فَهِمَ بأنه قد نال الغُفْرانَ، لكنّ ذلك الغفرانَ لم يَكُنْ غُفراناً حقاً. فنِصْفُ حياتِه هو أكثرُ ممّا عاشَه،

ولم يَسَعْهُ أنْ يتخيّلَ نفسَه وقد صار كَهْلا، في السابعةِ والثلاثينَ من العمرِ، عندما تُكفِّرُ ذنوبُه. وألْقَى نَظْرَةً مُتَوَسِّلَةً إلى الأبِ هنري وكأنه تعذّر عليه أنْ يذهبَ قبْل أنْ يقولَ له رئيسُ الدير شيئاً.

«عزيزي آرنْ، طريقُ القدس بدأ يصيرُ مُتَعَرّشجاً، قال الأبُ هنري في هُدوءٍ. لكنّها إرادةُ الربِّ، ونحن بها مُقْتَنِعونَ. والآنَ اذْهَبْ في سَلام.»

بعد أنْ غادرَهُما آرنْ، مُطَأْطِئَ الرأسِ، ثَقِيلَ الخطواتِ، انطلقَ الرجُلان في محادثةٍ طويلةٍ عن الإرادةِ الإلهية. كانا على يقينٍ تامٍّ بأنّ مَشيئَةَ الربِّ أرادتْ إرسالَ محاربٍ كبيرٍ ليلتحقَ بِصُفُوفِ جيشِه المقدّس هناك.

لكنْ ماذا لو كان كنوتْ إريكسون تُوِّجَ قَبْلَ ذلك بقليلٍ، بحيثُ يكون آرنْ وسيسيليا قد أصبحا زوجاً وزوجةً؟ وماذا لو لم تكنْ سيسيليا امرأة سَخِيَّةً سخاءَ آرنْ ولم تَزُرْ أختَها؟ وماذا لو لم تكنْ رئيسةُ الديرِ ريكيسا واحدَةً من السفيركر، ولم تُطْلِقْ ذلك الإجراء عن طواعية؟

لو لم يحدُثْ كلُّ ذلك، لكان جيشُ الربِّ المقدّس نَقَصَ من صُفوفهِ أحدُ المحاربين. ومن ناحيةٍ أخرى، فقد أثبتَ الفيلسوفُ أنّ ذلك النّمطَ من التفكيرِ نمطٌ لا يمكن تحمُّلُه. فلو ظل الأمرُ «ماذا لو كان...» لأصبحَ المطرانُ حِصاناً. لقد أَظْهَرَ الربُّ في جَلاءٍ إرادتَه التي لا نملِكُ إلا أنْ نَنْحَنِي أمامَها إجلالا!

* * *

في الأيام الموالية شرَح الأخُ جلبيرت لآرنْ، في هدوءٍ، ما سوف يكون مصيرُه اليومي، ولِزَمَنٍ طويل، منذ تلك اللحظة فصاعدًا. ولم يَدَعْ آرنْ يتحدّثُ عن تَوْبَتِه، وعن كلِّ ما كان سيتركُه وراءَه، واكتفَى بالأشياءِ الملموسة.

كان على آرنْ أنْ يسيرَ مع المطران ستيفان، راكِبَيْنِ حِصانَيْهِما، إلى غايةِ رُوما، لكنّ طريقَاهُما سَيَفْتَرِقان هناك، إذْ سيلتَقِي الحبرُ بالبابا الثالث، فيما سيذهبُ آرنْ إلى قلعةِ حُرّاسِ الهياكلِ في روما، أكبرِ قِلاعِ حُرّاس

الهياكلِ في العالم. فَفِي روما كان كافةُ الحاصِلين على لَقَبٍ يُقْبَلون أو يُرفَضون. فكثيرٌ من الناسِ يُحسّون أنهم يُطلَبونَ للحربِ في صُفوفِ جيشِ الربِّ المقدس، حتى ولو مِنْ أجلِ التّكْفِيرِ عنْ خطيئةٍ، أو طَمَعاً في الفوزِ بالجَنَّةِ لو ماتُوا والسيفُ في أيَادِيهم. لكنْ بعد الفَحْصِ لا يُقْبَلُ للتجنيدِ سوى مطلوبٍ واحدٍ، من بين عشرةِ مطلوبِين.

لكنَّ هذا الفَحْصَ لم يرَ فيه آرنْ مَصاعِبَ جمة. فحتى يُقْبَلَ في الرّهبانيةِ كان لا بد من أنْ يأتِيَ من عائلةٍ نبيلةٍ، وتلك قاعدةٌ لم تكنْ تَروقُ للأخِ جلبيرت كثيرًا، لأنه رأى في المعركةِ رِجالا كثيرين كانوا سيكْسبُون إخوةً لو لم تُوجَدْ تلك القاعدة. لكنْ لم يكنْ ذلك عائقاً بالنسبة لآرنْ الذي كان يحمِلُ أسدَ الفولكونغر على دِرْعِهِ. أمّا الشّرْطان الآخرانِ فلن يكونا أكثرَ تعقيدًا. وقد ابتسَمَ الأخُ جلبيرت ابتسامةً خفيفة وهو يشرَحُ باختصارٍ أنه يتعيَّنُ على كلِّ واحدٍ أنْ يمتلِكَ ما يُقاربُ رُبْعَ ما يحملُه آرنْ من معلوماتٍ حول الكتاباتِ المقدَّسةِ، والمنطقِ والفلسفة. أما فيما يتصل باستعمالِ الأسلحةِ فإنّ رُبْعَ المعلومات التي يملِكها آرنْ في هذا المجال، كافيةٌ أيضًا. وفضلا عن ذلك، فلعلَّ في حوزَتِه رسائل المطران ستيفان والأب هنري. لكنّ ذلك لم يكنْ ذا أهميةٍ كبيرة، لأنّ الكثيرَ من أبناءِ الكونتات الإفرنج مُزَوّدون برسائلِ توصيةٍ مماثلة، وهُم لا يحمِلون ما يحمِله آرنْ من معارف. ولا أحدَ يعترِضُ على المشيئةِ التي كَشَفَ عنها الربُّ خيرَ الكَشْف.

تَبَرَّمَ آرنْ قليلا من مَشيئةِ الربِّ الذي بَدَتْ يدُه قاسيةً عليه أيّما قسوة. فلماذا حُكِم عليه بأنْ يُلْقِي بِنَفْسِه أوّلا في الشّقاءِ ويتخلّى عن حَبيبَتِهِ لِيُحَقّقَ مشيئَةَ الربِّ على ساحاتِ الوَغَى في ما وراء البحار؟

وسلّمَ الأخُ جلبير بأنه لا يملِكُ أيَّ إجابةٍ عن ذلك السؤالِ، وبأنّ تلك الإجابةَ قد تظهرُ مع مرورِ الزّمانِ. وفي المقابلِ قال إنه يَعْلَمُ منذ سنواتٍ عديدةٍ أنْ كذلك كانت ستسيرُ الأمورُ. فهو لمْ يَلْتَقِ إلا بقليلٍ من الرجالِ ممّنْ وُهِبُوا من المواهبِ بقَدْرِ ما هُيِّئَ منها لآرنْ، وإنْ كان الربُّ قد مَنَحَه إيّاها فَلِغَرَضٍ دقيقٍ لا شكّ فيه. وكذلك كان الشأنُ عندما أرسل الربُّ آرنْ إلى

فارنيم حتى يُنَشَّأَ منذُ سِنِّه الخامِسة، على كافةِ المجالات التي تصنعُ منه اليومَ رَجُلا خليقًا بأنْ يلتحِقَ بفُرسان الهيكل.

رأى آرنْ منطقَ ذلك التفكيرِ، لكنّ ذلك لم يُخفّفْ لا منْ أحزانِه ولا من رغباتِه.

عرَض الأخُ جلبير على آرنْ التجهيزاتِ الجديدةَ التي شكّلَها على مقاسِه. كان أهمَّها درعٌ يحمِلُ أكثرَ من أربعين ألف زَرْدٍ على طَبَقَتَيْنِ سميكَتين، يفصلُ بينهما كتّانٌ غليظٌ من الصُّوفِ، مزوّدٌ ببِطانةٍ داخلية لَيِّنة. هذا الدّرعُ يُغطّي رأسَه ويُغطّي ذِراعية إلى المِعْصَمَيْنِ، وينحَدِرُ إلى حدِّ الرُّكْبتين. بيد أنه كان أخفَّ وَزْنًا من الدّروع الشمالية. وهكذا صار آرنْ مَحْمِيًا من الرأس إلى القَدَمَيْن، وهو ما تقتضيه الحربُ الحديثة. وأخيرًا أعطاهُ الأخُ جلبير سُتْرَةً سوداءَ عليها صليبٌ أبيضُ يُغطّي صدرَه كامِلا. وسيظل آرنْ يحمِلُ ألوانَ الكنيسةِ ما دام برُفقةِ المطرانِ، إلى أنْ يَصِلا إلى روما. لكنه كان أيضاً لِباسَ كهنوتِ فُرسان الهيكل، فقد أَذِنَ له المطرانُ بأنْ يحمِلَه لغايةِ روما.

شعَر آرنْ بالفَخْرِ والتقديرِ وهو يُجرّبُ تلك الأشياءَ، لكنّ عَيْنَيْهِ لم تَنُمّا عن أيّ فرحةٍ. والحالُ أنّ الأخَ جلبيرت لم يكنْ ينتظرُ منه ذلك بأيّ حالٍ من الأحوالِ. لكنّه اختصّ آرنْ، قبْل رحيلِهِ بيَوْمَيْنِ اثنين، بمفاجأةٍ اعتقدَ أنها ستُبْهِجُ تلميذَه الصغير.

وضَع الأخُ جلبيرت يدَه مُواسياً على كَتِفِ آرنْ، واصطَحَبَهُ معه، وكأنه أرادَهُ لحديثٍ بسيط. ثم اقتادَه إلى حيثُ حَظائرُ الخيولِ المُسيَّجَةِ. وهناك لم يقلْ شيئًا، مُكْتفيًا بالتأشيرِ بإصْبعِه، فرأى آرنْ خمسين، حِصَانَه السفّاد الذي يُحبُّه كثيراً.

بَقِيَ آرنْ صامِتًا، ثم أطلق صَيْحَةً. فرفع خمسين أُذنيه، وأدار رأسَه إليه. وفي اللحظةِ المواليةِ انطلقَ الحصانُ السفّادُ نحوه بسرعةٍ، وتوقّف عند قَدَمَيْ آرنْ والأخ جلبيرت، ثم قام ببعضِ الاستِدارات ، ثم قام على قائِمَتَيْه الخَلْفِيّتين، وصَهَلَ وكأنه يُحيّي صَديقًا.

قفَزَ آرنْ من فوق الحاجزِ، وأحاط بيديه عُنُقَ خمسين وملأه بالقُبلاتِ.

« إنه لكَ منذُ الآن، قال الأخُ جلبير. فهو هديّةُ وَدَاعِنا إليكَ، يا آرنْ غُوتيا. لأنني بِصفتي فارسَ الهيكلِ تعلّمتُ أنْ لا شيءَ في الحربِ المقدسةِ أهمُّ من اليقينِ بالربِّ. ومنْ بَعْدِ اليقينِ يأتي التدريبُ والتّواضُعُ. ثم تأتي الأسلحةُ الجيّدةُ وجوادٌ بجودَةِ خمسين.

بِسُتْرَتِهِ السوداء وصليبِه الأبيض، امتطَى آرنْ خمسين، تهيُّؤاً لرحلتِه الطويلة. كان عليه أوّلا أنْ يلحقَ بالمطران. كانت تعلُوه ملامحُ الحَسْمِ والعزمِ، لكنها ملامحُ تنمُّ عن حزنٍ واضحٍ لم يَبْرَحْهُ منذ اليومِ الذي عَلِمَ فيه بِنَبَأِ الحُكْمِ الصادر في حقِّه.

أُقيمتْ القُدّاساتُ وقيلَ الوَدَاعُ. ومع ذلك فقد وَقَفَ الأبُ هنري والأخُ جلبيرت إلى جانبِه، تَحَسُّباً للكلماتِ الأخيرة. لقد وَجَدَا عناءً جمًّا في التمسكِ بِسلوكٍ مسيحيّ، لِفَرْطِ ما أصابَهُما مِنْ حُزنٍ لآرنْ، ولِفرطِ يَقينِهِما بأنّ قضاءَ الربِّ واقعٌ حتماً.

« في سبيل الربّ، والموتُ لأهلِ الشرق!» قال الأبُ هنري بجرأةٍ متّزنةٍ.

« في سبيل الربّ، والموتُ لأهلِ الشرق!» أجاب آرنْ، بعد أنْ استلّ سيفَه المباركَ، الذي أشهرَهُ نحو السماء، وكأنه يتلُو قَسَمًا جديدًا. ثم انطلقَ مع خمسين بسرعةٍ فائقةٍ.

رَغِب الأبُ هنري في أنْ يدخلَ مباشرة إلى الديرِ، لكنّ الأخَ جلبير رَفَعَ أصبعهُ ليُشير عليهما بالانتظارِ، ثم أشار إلى آرنْ.

وفجأةً رأوا آرنْ وهو يقوم ببعضِ الخطواتِ المسرعةِ نحو اليمين، ثم نحو اليسارِ، ثم يُغيّرُ الناحيةَ عند كلّ خطوةٍ - فنٌّ صَعْبٌ على حسبِ عِلْمِ الأبِ هنري. لكنّهم لم يخطِئُوا التقديرَ في حَقّ غبطةِ آرنْ في تنفيذِ تلك الحركات.

«إنكم تَرَوْنَ ما أراهُ، عزيزي الأب هنري، هَمَسَ الأخُ جلبيرت، بِنَبْرَةٍ

متأمّلة. فليحفظْ الربُّ آرنْ، لكنْ ليحفظْ الربّ أيضًا أهلَ الشرقِ الذين سوف يأتون لِمُلاقاتِه. »

بَدَتْ تلك الكلماتُ الأخيرةُ غيرَ مفهومةٍ للأبِ هنري، وإلى حُدود الإهانة. لكنْ لم تكنْ الساعةُ ساعةَ تأنيبٍ، وأقلّ من ذلك في تلك اللحظةِ التي يشهَدُونَ فيها رحيلَ ابنِ فارنيم العزيز، إلى الأبد.

فضلا عن ذلك، كان الأبُ هنري يعرفُ حقَّ المعرفةِ أنَّ الأخَ جلبيرت يحمل رُؤىً غريبةً عن أهلِ الشرقِ أحيانًا. ثم قال لنفسِه بأنّ آرنْ الذي يحمِلُ رُوحًا صافيةً صفاءَ روحِ بيرْسِيفَال، لنْ يكون أبدًا ضَحِيّةً لمثلِ تلكَ الهُمومِ الكبيرة. إنّ الربَّ بالتأكيد، سوف يمدُّ يَدًا راعيةً لمُحاربٍ مِثْلَ آرنْ.

في عام البركة ١١٥٠ ولد آرن ماغنوسون في مقاطعة أرناس الواقعة على بحيرة فانيرن. ترعرع الشاب آرن على يد الرهبان في دير فارنيم، وتشرب علوم زمانه الروحانية والدنيوية. واتقن استعمال السيف والترس، والرُمح والقوس. وبالطبع، أدرك كهنة فارنيم ورهبانها، أن هذا الشاب لم تكتب عليه حياة الرهبنة، بل أنَ مَشيئَةَ الربِّ أرادتْ أن يكون واحدا من المحاربين الذين سيلتحقون بِصُفُوفِ جيشِه المقدس في الأرض المقدَسة.

وعندما غادر آرن، دير فارنيم، في السابعة عشرة من عمره، انخرط في الصراع الدائر حول من سيكون ولي العهد آنذاك. وحكم عليه بالسجن عشرين عاما، أي نصف عمره. لكن آرن فَهِمَ بأن الغفران الذي ناله فيما بعد لم يَكُنْ غُفراناً حقاً، لأنه سوف يفارق حبيبته سيسيليا – التي انسحب ذلك العقاب عليها هي أيضا!

هكذا، تبدأ أحداث «الطريق إلى القدس»، في جزئها الأول.

السؤال هو: هل نجح الكاتب في إعطائنا صورة نثق بها عن فترة تاريخية، في القرن الثاني عشر؟ الجواب نعم.

والسؤال الذي يلي هو: هل هي رواية مشوقة؟ الجواب: نعم، بالتأكيد!

بيتر انجلوند ـ السكرتير والعضو الدائم في الأكاديمية السويدية المسؤولة عن جائزة نوبل في الآداب.

قيل عن الرواية بأنها من أجمل ما كتب يان غيو!

ISBN 978-91-85365-76-0



www.daralmuna.com

دار المنى